الإشارات الإلهية

الجزء الأول ومعه ملخص من الجزء الثاني

لأبي حيان التوحيدي (-٤١٤)

تحقيق

الدكتورة وداد القاضي

دار الثقافة

بيروت - لبنان

الإشارات الإلهية

الجزء الأول ومعه ملخص من الجزء الثاني

لأبي حيان التوحيدي (-٤١٤)

تحقيق
الدكتورة وداد القاضي

www.iqraa-pdf.net
مرجعك الأول في تلخيص الكتب

دار الثقافة
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م.

كتاب الإشارات الإلهية

١ – نسبة الكتاب

تتحدد صلة أبي حيان التوحيدي (–٤١٤) بالتصوف على صعيدين: (١) الصعيد المسلكي. وفي كتبه اخبار كثيرة عن علاقاته بالمتصوفة ومعايشته لهم وانتحاله زيهم[١]. وعن آرائه في تفاوت إخلاصهم في الانصراف عن الدنيا ومغرياتها[٢]؛ (٢) والصعيد النظري، وهو متصل بما يمكن أن نسميه تجوّزاً «علم التصوف»، وعلى هذا المستوى يقع فهم أبي حيان لمعنى التصوف من أنه «اسم يجمع أنواعاً من الاشارة وضروباً من العبارة»[٣]، وأنه «علم يدور بين إشارات إلهية وعبارات وهمية...»[٤]، وهو في هذا منسجم مع مفهوم التصوّف عامة حتى عصره، فقد روي عن الجنيد بن محمد (– ٢٩٧) قول يجعل فيه التصوف جامعاً للعبارات والاشارات[٥]، وروي عن أبي علي الروذباري (– ٣٢٢) أنه قال: «علمنا هذا إشارة فاذا صار عبارة خفي»[٦]؛

---

١ – راجع في ذلك الامتاع والمؤانسة ١ : ٧ و ٥١ و ٢ : ٧٩ و ١٥٥–١٥٧ و ٣ : ٩٧ والصداقة والصديق: ٢٩٢ – ٢٩٣ والمقابسات : ١٣٢ و ٢٠٠ و ٣٢٦ ؛ وانظر ايضاً : معجم الأدباء ٥ : ٣٨٠ وطبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٣ وشد الازار في حط الاوزار : ٥٤ .

٢ – انظر بعض حكايات التوحيدي وتعليقاته في البصائر والذخائر ١ : ٣٤٣ و ٥٤٢– ٥٤٣ والامتاع ٢ : ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٣ و ٢ : ٢٠ و ٧٦ و ٣ : ٧٧ .

٣ – الاشارات الالهية : ١١٣ .

٤ – رسالة في العلوم (في رسائل أبي حيان التوحيدي) ١١٦ .

٥ – حلية الاولياء ١٠ : ٢٥٧ .

٦ – كتاب اللمع : ٢٢٤ .

وأما أبو نصر السرّاج (– ٣٧٨) فانه ذكر أن « الأوائل والمشايخ » أماتوا النفوس وقاموا بشرط العلم والعمل معاً وبعد ذلك « أشاروا إلى هذه الاشارات ونطقوا بهذه الحكم»[١] . وفي هذا السياق نجد أباحيان قد خصّ التصوف بجهد فكري متميّز ، إذ كتب فيه عدداً من الكتب عدّ ياقوت منها : كتاب الاشارات الالهية وكتاب رياض العارفين وكتاب الحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي وكتاب الرسالة في أخبار الصوفية وكتاب الرسالة الصوفية ايضاً[٢] .

اذن فان لأبي حيان كتاباً في التصوف باسم « الاشارات الالهية » ، فهل هذا الذي بين ايدينا اليوم هو نفسه الذي ذكره ياقوت وكل من نقل عن ياقوت من بعد ؟

هناك غير دليل على انه حقاً له :

١ – يوجد ملخّص من الاشارات الالهية محفوظ في مكتبة برلين[٣] ، كتب على الورقة الأولى منه « هذه الكراريس ملخصة من كتاب الاشارات الالهية لابي حيان » ؛ وحيث أن أكثر من ثلث ما وصلنا من هذه الكراريس يتفق مع ما جاء في مخطوطة الظاهرية بعنوان كتاب الاشارات الالهية (الجزء الأول)[٣] فهذا يدلّ دلالة قاطعة على أن ذلك المخطوط يمثل جزءاً من الاشارات الالهية لأبي حيان .

٢ – هناك مناجاتان[٤] نصّ ابن أبي الحديد (– ٦٥٦) على أنه نقلهما « من

---

١ – كتاب اللمع : ٣ .

٢ – معجم الادباء ٥ : ٣٨١ – ٣٨٢ ؛ ونقل هذا عن ياقوت كل من الصفدي (في الوافي – مخطوطة نور عثمانية رقم : ٣١٩٤ – الورقة : ١٣٠ / ب) والخوانساري في روضات الجنات : ٧١٤ .

٣ – سوف يجيء الحديث عن هذه المخطوطة فيما يلي .

٤ – المناجاتان في شرح نهج البلاغة ١١ : ٢٧٦ – ٢٧٧ .

كلام أبي حيان التوحيدي »[1] ، وهما ثابتتان في ملخص برلين من الاشارات[2] ، وهذا يدل دلالة أكيدة أن المعنيَّ بـ « أبي حيان » على الورقة الأولى من ذلك الملخص هو أبو حيان التوحيدي دون غيره ممن قد يكنى بالكنية ذاتها .

٣ – اورد ابن ابي الحديد قصيدة لأحد الشعراء وذكر انه نقلها من الاشارات الالهية لأبي حيان التوحيدي[3] : وقد ثبتت بعض الابيات من هذه القصيدة – وهي لأبي العتاهية – فيما بين أيدينا من الاشارات[4] ، ولعل أبا حيان عادَ فكررها بصورة أطول في القسم الذي لم يصلنا من الكتاب .

٤ – فاذا أضفنا إلى ذلك شيوع فن المناجاة في كتب أبي حيان الأخرى[5] ، والتماثل الاسلوبي الواضح في مناجياته في هذه الكتب مقارنةً بمناجياته في الاشارات[6] ،

---

١ – شرح النهج ١١ : ٢٦٩ .

٢ – هما يقعان على الورقتين : ٥٦/ أ–ب و ٥٧/ أ–ب من نسخة برلين .

٣ – شرح النهج ١٥ : ١٤١–١٤٢ .

٤ – الاشارات الالهية : ٤٦٩ .

٥ – انظر امثلة من مناجيات أبي حيان في البصائر ١ : ١–٢ و ٢ /١ : د–هـ و ٣/١ : ٣ و ٣/٢ : ٥١٤ – ٤١٧ و ٤ : ٧–١٠ واخلاق الوزيرين : ٤٩٦ و ٥٥٠ والرسالة في العلوم : ١٠٣ و ١١٨ ورسالة الحياة (في رسائل أبي حيان التوحيدي) : ٦٥ .

٦ – لعل أوضح ما يدل على هذا المجموعة الكبيرة من المناجيات التي أوردها ابن ابي الحديد من مختلف كتابات التوحيدي (في شرح النهج ١١ : ٢٦٩ – ٢٧٨) فانها شديدة التشابه ، لا يكاد المرء يميز بين الواحدة منها والاخرى ، أو أن يرجع الواحدة منها إلى الكتاب الواحد من كتب التوحيدي دون غيره الا بصعوبة شديدة؛ ومع ذلك فان اثنتين منها – فيما استطعت الاستدلال عليه – ترجعان إلى كتاب الاشارات ، كما سبقت الاشارة (انظر الحاشية : ١ أعلاه) بينما يرجع الى كتاب البصائر عدد غير قليل من هذه المناجيات (فالمناجاة ص : ٢٦٩ مأخوذة من البصائر ٣/١ : ٣ ؛ والمناجاة ص : ٢٧١ – ٢٧٢ مأخوذة من الكتاب نفسه ٣/٢ : ٤١٥–٤١٧ ؛ والمناجاة ص : ٢٧٣ مأخوذة من الكتاب نفسه ١ : ١ – ٢ : والمناجاة ص: ٢٧٣ – ٢٧٥ مأخوذة من البصائر ايضاً =

والتطابق اللفظي احياناً فيما يجيء فيها وفيه[1] ، كنا على مزيد من اليقين من صحة نسبة ما بين أيدينا من الاشارات الالهية إليه .

٢ ــ عنوان الكتاب

لم يذكر ياقوت ــ ومن نقل عنه ــ عنواناً لهذا الكتاب سوى « الاشارات الالهية » ، ولكن اللافت للنظر أن يكون الكتاب قد سُمّي في آخر الجزء الأول المتبقّي منه : « الاشارات الالهية والانفاس الروحانية » . ولكن عبارة «الانفاس الروحانية» لا ترد في الملخّص المحفوظ في برلين ، ومع ان التوحيدي لا يستعمل السجع في عنوانات كتبه إجمالاً ، فليس هناك ما يمنع أن تكون هذه التسمية ــ أي «الإشارات الالهية والانفاس الروحانية » ــ هي التسمية الكاملة للكتاب وان تفيد عبارة « الانفاس الروحانية »[2] نوعاً من مناجاة الصوفي بحرقة ووجد وعبارات روحانية .

= ١/٢ : د ــ ﻫ ؛ والمناجاة ص : ٢٧٠ ــ ٢٧٥ مأخوذة من البصائر ايضاً ٤ : ٧ــ١٠) ويبقى هناك خمس مناجيات غير هذه لم استطع تعيين مصدرها في كتب التوحيدي .

١ ــ انظر مثلا كيف ختم التوحيدي الدعاء مرتين بـ « ياذا الجلال والاكرام » (اخلاق الوزيرين : ٥٥٠ ورسالة في العلوم : ١١٨) وهذه أشيع خاتمة للدعاء لديه في الاشارات ــ كما سوف يجيء الحديث عنه ؛ ويقول أبو حيان عن حال الدين في عصره (في الامتاع ١ : ١٦) « واصبح الدين وقد اخلق لبوسه » ويقول في الإشارات (١٤٢) : « دع ذا ، أخلق الدين .... » ؛ ويصف أبو حيان الدنيا (في الامتاع ١ : ١٣) بانها « حلوة خضرة » وكذلك تماماً يصفها في الاشارات (برلين : ٥٧/أ) ؛ ويتحدث في الاشارات عن الشكية والبلية (ص : ٣٤٩) ويقول في الامتاع (١ : ١٨) « وراجع عن هذه الشكية الطويلة اللاذعة ، والبلية العامة الشاملة » ؛ كذلك يذكر أبو حيان شطر البيت « اليأس احدى الراحتين ... » ، في الاشارات (ص : ٧) وفي الامتاع (٢ : ١٥٢) ايضاً . ــ إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره في هذا المقام .

٢ ــ انظر هذه العبارة ص : ٤٦٠ في الاشارات .

٣ – متى كتب

ليس هناك ما يدل دلالة واضحة على زمن كتابة كتاب الاشارات ، وبما أن طبيعة بناء هذا الكتاب قائمة على شكل رسائل – كما سيجيء الحديث عن ذلك مفصّلاً فيما بعد – فان الدارس قد يقدّر انه كُتِب في مراحل متفاوتة . غير أن الشيء المؤكد أن بعض الرسائل كتب بعد سنة ٣٨١ ، اذ يذكر في إحداها أنه نطق بهذه الاشارات بعد أن تجاوز السبعين[١] ؛ فاذا قدّرنا أن أبا حيان ولد في سنة ما من العقد الثاني من القرن الرابع (اذ كان سنة ٤٠٠ في عشر التسعين[٢]) فهذا يعني أن بعض تلك الرسائل لم تتم كتابته قبل سنة ٣٨١ .

٤ – لمن كُتب

عندما أقدم أبو حيان التوحيدي على إحراق كتبه فسّر ذلك بانه كان قد جمع اكثرها « للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمدّ الجـاه عندهم »[٣] ولكنه حُرِم ذلك كله ، فاحرقها ؛ وهذا كلام قد يشير إلى رغبة ابي حيان في نيل الجاه المعنوي بها بين الناس ، الا أنه يحتمل ايضاً الرغبة فـي الانتعاش المادي عن طريقها ، وفي عدد من كتبه ما يشير بوضوح إلى أنه كتبها لأشخاص باعيانهم على أمل الحصول على المكافأة منهم .

فابو حيان يصرّح أنه كتب كتابه « محاضرات العلماء » للوزير أبي القاسم الدلجي[٤] ؛ ويذكر في مقدمة كتابه « الامتاع والمؤانسة » أن تأليفه لهذا الكتاب

---

١ – الاشارات : ٢١٧ .

٢ – معجم الادباء ٥ : ٣٣٨ و ٣٩١ – ٣٩٢ .

٣ – المصدر نفسه : ٣٨٧ .

٤ – المصدر نفسه : ٣٨٥ .

انما كان استجابة لرغبة ابداها أبو الوفاء المهندس (— ٣٨٨ ؟)[١] وانه بعد أن يتمّ الكتاب سيهديه إلى أبي الوفاء[٢] ؛ وعند خاتمة الجزء الثاني منه (حسب تجزئة المؤلف) نجده يصرّح بأنه يرفع الكتاب إلى ابي الوفاء جزءاً بعد آخر ، وهو لا يخفي انه يتوقع نفعاً مادياً من وراء ذلك : « وقد علمت الغرض في جمع هذا كله والتعب فيه ، وارجو الا يخيب الأمل ، ولا يبور العمل »[٣]

وهو يزعم انه حين كتب « اخــلاق الوزيرين » انما كان ذلك استجابة لشخص دفعه إلى ذلك : « لما تابعت اليّ من كتاب بعد كتاب تطالبني في جميعه بنسخ اشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما ممن أدركت في عصري من هؤلاء ... »[٤] ويخيّل إلى القارىء انه تلقّى ايضاً من هذا الشخص — كما تلقى من ابي الوفاء المهندس — اقتراحات محددة ترسم نوعاً من المنهج الذي يجدر به اتباعه عند تأليف الكتاب[٥] .

وابو حيان في «البصائر والذخائر» يشكو شكوى من نوع آخر ،اذ يحدثنا انه يكتب الكتاب دون أن يجد من ابناء عصره رئيساً يرغب في المكارم ويعينه على إتمام الكتاب « رغبة في الذكر وتوخياً في الثواب »[٦] .

فهل في كتاب « الاشارات » ما يوحي بأنه ألف لشخص ما ؟

يبدو ذلك في مثل قوله فيه (ص : ١٧٢) « وترنح في هذا الفضاء الذي قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقة متنزهاً ، واقطف من ثمارها ما

---

١ — الامتاع ١ : ٨ .
٢ — المصدر نفسه : ١٢ .
٣ — المصدر نفسه ٢ : ١٦٤ .
٤ — الاخلاق : ٩ .
٥ — المصدر نفسه : ٩—١٠ وقارن بذلك مقالته لابي الوفاء المهندس في الامتاع ١ : ١٢ .
٦ — البصائر ٢ : ٨٦٨ .

تـدلّى لك ودنا منك » ؛ وفي غير موضع منه نحس أنه يـدل على هذا المخاطب بما يقلّبه فيه من فنون القول وبدائع الحكم وكأنه يقول ضمناً : إنه قد وقف همته على إبداع ما يسرّه أو يجد لديه قبولاً : « يا هذا : تقلّب متنعّماً في هذه الرياض التي قد ازدهرت بالعلم الحق ، والحكمة البالغة ، والنصح الحاضر ، والارشاد الحسن ، والموعظة الحلوة ... » (ص : ٢٦٩) ؛ واحياناً يتنزّل الخطاب الى مستوى مادي أو شبيه به ، كأن يقول : « اعطني اجرتي على سعيي ؛ اشكرني على سهري لك ؛ أمن الفتوّة أن تراني أتعب لك فلا ترحمني ؟ » (ص : ٣٦٠) . وهذا يجعلنا نرى أن المخاطب الذي يريد أبو حيان أن ينقذه من علاقات الدنيا يلتبس احياناً بشخص قد جعل إنجاز الكتاب كله خدمة له ..

فاذا لم يكن هذا كله مجرد طريقة تأليفية لها غير نظير في كتب أبي حيان الاخرى – كما رأينا – فانه ليس من المستبعد أن يكون أبو حيان قد كتب « الاشارات الالهية » تحت ظل الحافز المادي ، ولكن ليس من السهل أن يُعيّن الشخص الذي ألّف هذا الكتاب من أجله .

٥ – بناء الكتاب

يقع كتاب الاشارات – بحسب قول ياقوت – في جزئين[1] ، لم يصلنا منهما سوى الأول وقسم من الثاني ، أي أن ما وصلنا من الكتاب كله يبلغ ٥٤ رسالة وملخصات من عشرة أخرى ، وفي فواتح بعضها ما يفيد أن الرسالة موجهة إلى شخص معيّن[2] ، وفي واحدة منها يصرّح المؤلف أنه يجيب على كتاب كان

١ – معجم الادباء ٥ : ٣٨١ .
٢ – انظر مطالع الرسائل : ١١ (ص : ٧٤) و ٤٦ (ص : ٣٢٣) و ٥٥ (التي لم يصلنا منها سوى المطلع – ص : ٣٩٦) . كذلك تفتتح الرسالة ٥ في نسخة برلين (ق : ٥٧/ب) بما يفيد المعنى نفسه .

قد وصل إليه من أحد الناس[1] ، وفي آخرى ما يـــدلّ على أنها ردّ عـــلى سؤال كان قد سُئِله[2] .

وتعتمد الرسائل جميعها بناءً متشابهاً في التركيب الأصلي ، يقوم على ركنين اساسين هما : المناجاة (أو الدعاء) ومخاطبة شخص ما . والرسالة غالباً ما تبدأ بالدعاء وتنتهي بالدعاء ، وتتراوح فيما بين ذلك بين الخطاب والدعاء وأغراض أخرى ، أبرزها شكوى الحال والزمان ، وفي حوالي ثلثي الأحوال تنتهي بعبارة « يا ذا الجلال والإكرام » .

وفي هذا البناء يبدو أبو حيان وكأنه يقف في نقطة متوسطة : مادّاً يـــده الواحدة إلى شخص مثله (أو أدنى منه) لينتشله مما ألمّ به من حيرة ، أو مادّاً الأخرى إلى « شيخ » او « قطب » يلتمس بركته ويتخذه وسيلته إلى رضى الله .

فالغالبية العظمى من الرسائل تتوجه إلى مريد لم يمعن في سلوك الطريق بعد أو إلى رجل يُراد له أن يجد في التصوف طريقاً إلى الهداية والنجاة ، ولذا تزخر الرسائل بالنصائح إلى ذلك المخاطب لحمله على ترك الدنيا والإعراض عما فيها من شهوات ورغبات ، والأخذ بالفضائل التي يحث عليها الدين ويتطلبها الخلق القويم ، والتوجه إلى الله في كل حين ، وتأمّل ما أنعم الله به عليه ، حتى ينال الرضى الالهي فيسعد في الدنيا والآخرة . كذلك يحضّ أبو حيان المخاطب على الاعتبار بمن مرّوا قبله ، ويلحّ عليه لكي يفيد من نصائحه التي ينثرها عليه في إشاراته وعباراته .

ويبني أبو حيان خطابه لهذا المخاطب على فقرات متناثرة دونما نظام معيّن ضمن الرسالة الواحدة ، واكثر ما يبدأ تلك الفقرات بعبارة المناداة « يا هذا » ، وفي احيان قليلة يناديه بـ « ايها الانسان » أو بعبارة « يا أخي » . وقد ناداه

---

١ – هي الرسالة الثالثة (ص : ١٧) .
٢ – هي الرسالة ١٢ (ص : ٨٠) .

مرة بعبارة « سيدي » (ص : ١٠٦) وهذا أمر غريب . إذ هذه المناداة اليق بالقطب الصوفي . وتتفاوت صور النداء بتفاوت الموقف النفسي بين المؤلف وصاحبه ؛ ففي حال التعاطف يقول للمخاطب « حبيبي » (ص : ١٠٣) ، فاذا كان العطف مشوباً بالرثاء قيل له « يا مسكين » (ل : ٥٦ / ب) ، وفي موطن التأمل والرجاء يناديه « أيها الأخ الراغب في الخير والصاحب المجانب للشرّ » (ص : ٢١٠) . وفي موطن الملامة والذمّ : « ايها العاكف على الجهالة » (ص : ٣٣) و « ايها الحيران في سعيه ، والسكران في رعيه ، والمتغافل عن حظه ، والمتجاهل بين لحظه ولفظه . والمتكاسل عن خدمة ربه ، والمتكاسل عن حبه بحبه » (ص : ١٤٠) و « يا مؤثر الخلاف على الوفاق ، ويا غائصاً في بحر النفاق والشقاق ، ويا من ليس له في الآخرة من خلاق » (ص : ٣٤) .

وتبعاً للتفاوت في الحالات النفسية يتراوح حديث أبي حيان نفسه بين اللين والشدة ، فيستعمل في نصيحة صاحبه أساليب مختلفة في هذين الاتجاهين ، فهو يرفق به حين يريد تعريف بعض الامور[1] . أو استعراض الفضائل التي يجب عليه اتباعها[2] ، او إفهامه بعض القضايا[3] ، ويجعله يوازن في نفسه بين ما يجب عليه أن يقدم عليه أو ما يجب عليه أن يحجم عنه عندما يبسّط له ماذا يحدث له إذا ركن الى الدنيا مقابل ما يحدث له اذا اختار الآخرة[4] . فاذا بارح أبو حيان دائرة الرفق خاطبه لائماً ذامــاً ، وغاضباً ناقماً ، وساخراً قاسياً ،

---

١ – انظر مثلا تعريفه للتعبد والتأيد والتأبد والتأود في الاشارات : ٣٣٨ – ٣٣٩ .
٢ – الاشارات : ٩٦ – ٩٧ .
٣ – انظر مثلا شرحه لوجود آية تدل على الله في كل اسم ورسم في الدنيا في الاشارات ص : ٥ وشرحه لماذا يجب على المخاطب أن يفعل اذا سما به العز الى علياء التوحيد ص : ٢٤٣– ٢٤٤ .
٤ – الاشارات : ٣–٤ .

وتوجّهَ اليه بألوان عنيفة من الأمر والنهي والاستفهام والتحضيض ، وتلاعب بحروف الجر ، وتفنّن في التقديم والتأخير ، ومضى يسرف في التشقيق وايراد المزدوجات والمقابلات والمتضادات ، في نَفَس لا يكلّ واندفاع لا يتوقّف، وكأنه يمسك بخناق الآخر لا يريد أن يرخيه ولا أن يسيغه ريقه أو يتحول به إلى راحة وادعة .

ولكن ابا حيان نفسه يكون قد تعب ، لا من إرهاقٍ وجده في حوك العبارات وصوغ الاشارات ، وانما لأن هذا اللون من « الوعظ » العنيف قد ربطه بالدنيا وتقاباتها وبالحياة وما فيها من متناقضات ، وفجأة نحسّه قد انصرف عن كل ذلك إلى المناجاة ليجد فيهـا راحة نفسه ، وبذلك ينسى مؤقتـاً انه « وسيط » هداية أو انه يحتاج وسيطاً بينه وبين السماء ؛ بل إنه يتوجه إلى الله مباشرةً ، ولهذا فان النغمة العامة في هذه المناجيات مغايرة — بطبيعة الحال — للنغمة العامة في مخاطباته لصاحبه ، اذ هي تحفل بالتذلل لله والضراعة اليه والتماس رحمته ونعمته وعونه وهدايته وتوفيقه ، وتحفل بتسبيح الله وتمجيده ؛ ولا تخلو من شكوى الحال ، وهي شكوى ترتبط بكون ابي حيان « رسول هداية » ضاق ذرعاً بإعراض الناس عن الاستماع إلى دعوته، فهو يتوسّل إلى الله أن يبعده عن الخلق ، ويطلب اليه إما أن يرحمهم لضعفهم وإما أن يعاقبهم لذنوبهم — حسبما يبلغ به الضيق النفسي بهم .

وهذه الأدعية والمناجيات هي العنصر المشترك بين الرسائل الموجهة الى(المريد الصغير)وتلك الموجّهة إلى (القطب الكبير) . وقد وصلنا من الرسائل الموجهة بأكملها لشيخ صوفي ست رسائل (رقم : ٢ و٣ و ١١ و ١٨ و ٢٨ و ٤٦ من الجزء الاول) بالاضافة إلى رسالة موجهة لجماعة صوفية (رقم : ٤ من الجزء نفسه). ويُنادى المخاطب في معظم الاحيان بـ« يا سيدي » وفي احايين « ايها السيد » او « ايها الشيخ » ؛ ويرفع أبو حيان من مقامه إلى منزلة عظمى حين يدعوه

« يا لسان الوقت ، وواحد هذا الورى ، وعين الزمان » (ص : ٧٣) ويسميه في مكان آخر « عين الوقت ولسان الزمان وعنوان الحق » (ص : ٣٢٧) ويصفه بأنه « العالم كل العالم والفاضل كل الفاضل » (ص : ٣٩٤) ويبيّن قربه من نفسه بأن يدعوه « الولي الودود والصاحب المخلص والجار المواسي والظهير المأمون والصديق الصدوق والثقة الموثوق » (ل : ٦٨/أ) ويتشوق اليه تشوقاً شديداً فيكتب له قائلاً : « كتابي اليك عن شوق ملاهبه لا تخمد ، ووجد بك غلائله لا تبرد » (ل : ٥٧/ ب) .

ويصف أبو حيان في هذه الرسائل علاقته بهذا المخاطب الصوفي ، فيذكر أنها كانت في منتهى الودّ والقرب ، ولذلك فانه عندما يتذكرها ويحنّ اليها يقول : « الا سقى الله الازمان السالفة ، والمعاهد المألوفة ، وقد كانت المنى تصافحنا عيانا ، والاحلام تهدى الينا بيانا ، فما كان أحلاها في الصدور ، وما كان أبلّها للأكباد ، وما كان أقرّها للعيون ، وما كان أبردها للغلل ، وما كان أسكبها على الارواح ، وما كان ألوطها بالقلوب ، وما كان أطلعها على الغيوب » (ل : ٥٩/ أ) . ويصور أبو حيان حاله في تلك الفترة بانه كان يرى نفسه مرتفعاً عن العلاقات البشرية الضيقة صافياً من كل رين ، ويرى كل شيء صافياً مثله ، ويظن نفسه قادراً على صنع المعجزات ويحلم بالخير المطلق : « أيام كنت أهيم في كل شِعب ، وأنتسب إلى كل قبيلة ، وأنتصب لكل فضيلة ، وأبرأ من كل رذيلة ، وأقول للبحر : ذُبْ — فأرى بانه قد ذاب ، وأقول للبحر : امدد — فاظن بانه قد استجاب ... ايام حلمي يريني كل فائت ملحوقا ، ويصوّر لي كل باطل محقوقا ، وتناغيني حال أكثفها يلطف عن الفهم ، وأخفاها يعلو عن الوهم ... » (ص : ٣٢٥ — ٣٢٦) .

الا أن هذه العلاقة انتهت حين اصبحت الدار بين المتخاطبين متنازحة (ل : ٦٨/أ) وتغيرت الاحوال عن سابق عهدها ؛ ومن أجل استعادة تلك

العلاقة الطيبة يستطعف أبو حيان مخاطبه الصوفي في الاشارات استعطافاً شديداً . ويسأله أن يكتب اليه او يرجوه أن يكون واسطة خير بينه وبين الله وشفيعاً لديه[1] ، ويدعو له بالخير والفضل وحب الناس وغير ذلك[2] ؛ ومع ذلك كله فان ابا حيان لا يتوانى عن نصيحة هذا الصوفي الكبير كما يفعل مع مخاطبه غير الصوفي ، إلا أنه في هذه الاحوال يكون اكثر اعتدالاً في اللهجة[3] ، وهذا امر يستحق التسجيل على أي حال .

وفي رسالة أبي حيان الوحيدة إلى جماعة الصوفية نجد المظاهر التي تمثلت في رسائله الاخرى ، فهو يناديهم فيها بـ « يا سادتي » واكثر من هذا بـ « يا احبائي » ويصفهم بانهم « ملوك الدنيا وسادة الآخرة » (ص : ١٢٦) ويتذكر ايامه الجميلة معهم ويتحسّر على مضيّها ويتشوّق اليها ، ويشكو سوء حاله وهو بعيد عنهم ؛ ومن أجل ذلك يستعطفهم عليه مذكراً اياهم بأن جزءاً مما يقاسيه انما هو بسبب حبه لهم ودعوته الناس اليهم ، ويرجو أن يكونوا شفعاءه عند الله .

ولم تشذّ عن هذا الجو كله إلا رسالة واحدة بدت غريبة وسط تلك الرسائل . وهي الرسالة الأخيرة في الجزء الأول ، اذ جعل ابو حيان معظمها حديثاً عن اقسام النفس الثلاثة ، وبسّط القول في هذه الناحية تبسيطاً شديداً مرفقاً بالتمثيلات لعله يستطيع أن « يعلّم » صاحبه الصوفي شيئاً من المبادىء الأولية في الفلسفة ، وهذا شيء لا نجده في الرسائل الاخرى ، لا من حيث الموضوع ولا من حيث الاسلوب

وهنا نقف لنسأل : ما درجة الواقعية في رسائل الاشارات ؟ هل هناك « مُريد » من جهة و « شيخ » من جهة أخرى في واقع الحال ؟

---

١ – راجع امثلة من ذلك في الاشارات : ٧٤ و ١٩٥ ول : ٥٧/ ب – ٥٨ / أ
٢ – انظر مثلا في الاشارات : ١٩٠ – ١٩٢ و ١٩٥ .
٣ – إنظر مثلا ص : ١٠ – ١٢ .

يبدو لي الموقف في الاشارات من أوله إلى آخره « ذاتياً » من ناحية و«غيرياً» من ناحية أخرى ؛ فهذا الصاحب الذي يدعوه أبو حيان إلى الهداية هو «الانسان» عامة ، وهو ايضاً ذلك الشق من أبي حيان نفسه الذي لم يستطع أن يرتفع بصاحبه عن الدنيا وشهواتها ليجعله ديّناً فاضلاً وصافياً في علاقته مع الله ؛ هو قرينه ، « قرين السوء » لديه ، الذي لا يفتأ أبو حيان نفسه يذكّر مخاطبه به فيقول له : « ولا تجعل منشأك الفاسد حاكماً عليها [يعني الطرائف] ولا قرينك السوء معترضاً عليها » (ص : ٣٢٨) ، ويُرجع اليه جانباً من البلاء الذي يحيط به اذ يسقطه الله من عينه لأجله : « واني لأظن أن هذا من سقوطك من عين الله ... ومن قرين السوء الذي يصرفك عن صحبة الله ... » (ص : ٣٣٧) . وأبو حيان يشير من بعيد أحياناً إلى صلته بالمخاطب ، فيصفه بمثل صفته هو ، ويصوّر علاقتهما علاقة عيش وحياة مشتركة : « لو كنتَ غريراً لعذرتك ، ولو لم يخطك الشيب لأطلت رسنك ، ولو لم يجمعنا دين الحق لأهملتك ، ولو لم يعقد بيننا الملح لازوررتُ عنك ، ولولا علائق بيني وبينك لأرخيت أناملي من ذيلك » (ص : ٣٦٠) ويقول ايضاً : « واعلم اني شاهدك وإن كنتُ غائباً عنك » (ص : ١٢٥) . وهو في احيان أخرى يصف حالة المخاطب الرديئة ويضيف « وأنا في اشباه ذلك ونظائره ، بل في دواءٍ تزيد عليه وتوفي » (ص : ٤٣) . وفي احيان غيرها يصرّح بانه هو المخاطَب : « يا هذا : قد وصفتك ووصفت غيرك معك ، وأنا غيرك ، ففي وصفك وصفي وفي وصفي وصفك » (ص : ٩٢) حتى ان من الممكن له وللمخاطب أن يتبادلا الادوار ؛ يقول : « واذا صحت هذه الاشارة ، كنتُ انا القائل وانا السامع ، وكنتَ اياي في هذا الذكر الجامع » (ص : ١٢٠) ؛ ولهذا فان ابا حيان يصرّح بالعجز مرة عن نصيحة المخاطب لا لشيء الا لأن حالهما واحد (ص : ٤٧) ، وانما يسوغ له أن ينصح قرينه لأنه أجسر منه على النطق واثبت قدماً في العمر « على ني لو سمعتُ ما أقوله من غيري لكانت مطالبتي لنفسي في الانقياد لـــه

كمطالبتي اياك الآن في الانقياد ، فالقائل والسامع شريكان » (ل : ٧٠/ب — ٧١/ أ) . وهكذا يكون المخاطَب الوجه الآخر لابي حيان .

اما الشيخ الصوفي فهو رمز « للموقف الاسمى » . او « للشخص الافضل » الذي يطمح اليه أبو حيان (او صاحبه المريد) . ومن اللافت للنظر أن أبا حيان يلحّ على فكرة التشوّق إلى الايام التي قضاها الى جانب هذا الصوفي المجيد صحيحاً معافى . وهذا يعني تلك الايام التي كان يمنّي نفسه فيها بالوصول إلى تلك المنزلة ، فلما عجز عن ذلك عبّر عن عجزه بحلول البعد وتغيّر الاحوال — وفي الوقت نفسه يقوم بدور النصيح له ، كما يفعل مع صاحبه المريد — وهذا ايضاً تمهيدٌ للوصول مُطَمْئِنٌ للنفس ، بالغٌ بها جد الرضى ، حيث يتّجد أبو حيان وقرينه الآخر الخيّر الذي يساعده على النجاة حين يمثّل بانه « خير واسطة بينه وبين الله » (ل : ٥٨ / أ) .

٦ — الاشارات في الأدب الصوفي

كان أبو حيان ذا موقف واضح من تراث الصوفية الأدبي حتى عصره ، اذ نراه يدافع عنه بقوله « لو جمع كلام ائمتهم واعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة ممن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة ، سوى ما عند قوم آخرين لا نسمع بهم ولا يبلغنا خبرهم ... منهم ... الجنيد بن محمد الصوفي البغدادي العالم والحارث بن أسد المحاسبي ورويم وأبو سعيد الخرّاز وعمرو بن عثمان المكي وأبو يزيد البسطامي والفتح الموصلي »[١] .

والناظر في بعض ما وصلنا من كتابات هؤلاء الاعلام من المتصوفة يجد بوناً شاسعاً بينهم وبين ابي حيان من حيث المنزلة الادبية للمناجيات والادعية

١ — الامتاع ٣ : ٩٧ .

والخطابات الصوفية . والأمر الذي لا شك فيه أن ابا حيان تأثر باساليب بعضهم ممن ذكرهم في الاساس ، اذ تدل اشاراته على تشابه اسلوبي في بعض الاحيان بينه وبينهم ؛ فاسلوب التولّد في العبــارة[1] قد توجد أصوله في اسلوب الحارث المحاسبي (– ٢٤٣)[2] وميل ابي حيان الى ايراد الحدود والتعريفات قد يرجع إلىطريقة رويم (– ٣٣٠) في الكتابة[3] ، كما أن طريقته هو في حض المخاطب عن طريق السؤال ، واعتراض الخطاب بالدعاء للمخاطب والمتكلم معاً[4] قد تكون متأثرة باسلوب عمرو بن عثمان المكي (– ٢٩١) ، بينما يشير اسلوب الجنيد بن محمد (– ٢٩٧) الذي يكثّر فيه الترادف والتقابل والتفريع والتشقيق والسجع[5] ، وادخال المناجاة وسط الخطاب[6] ، وافتراض وجود

---

١ – انظر كتاب الدكتور عباس : أبو حيان التوحيدي : ١٥٢ في شرح هذا المنحى الاساوبي لدى ابي حيان .

٢ – من ذلك قول المحاسبي (في حلية الاولياء ١٠ : ٧٦) : « اصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد ... وأصل الوعد والوعيد عظم الجزاء ، وأصل ذلك الفكرة والعبرة . »

٣ – انظر بعضاً من تعريفات رويم للاخلاص والفتوة والصبر والرضى والتوكل وغير ذلك في حلية الاولياء ١٠ : ٢٩٦ و ٣٠١ .

٤ – انظر مثلا قول المكي (في الحلية ١٠ : : ٢٩٢) : « فكيف تطمع يا أخي نفسك ، أو تطلق فكرك في شيء من الاحتواء على صفة من هذا وصفه ؟ وقانا الله تعالى واياك اعتراض الشكوك ، وعصمنا وايــاك في كنف تأييــده من التخطي بالأفهام الى اكتناه من لا تهجم عليه الظنون ... »

٥ – انظر قول الجنيد (في الحلية ١٠ : ٢٦١) « ... واعلم – يا أخي – أن لله ضنائن من خلقه ، اودع قلوبهم المصون من سره ، وكشف لهم عن عظيم أثرهم به من أمره ، فهم بما استودعهم من ذلك حافظون ، وبجليل قدر ما أمنهم عليه علماء عارفون ، فقد فتح لمــا اختصهم به من ذلك اذهانهم ، وقرب من لطيف الفهم عنه لما اراد افهامهم ، ورفع الى ملكوت عزه همومهم ، وقرب من المحل الاعلى بالادناء الى مكين الايواء بحبهم ، وافرد بخالص ذكره قلوبهم ، فهم في أماكن الزلفى لديه ، وفي ارفع مواطن المقبلين به عليه ، اولئك الذين اذا نطقوا فعنه يقولون ، واذا سكتوا فبوقار العلم به يصمتون ، واذا حكموا فبحكمه لهم يحكمون » .

٦ – جاء بعد الخطاب المذكور في الحاشية السابقة مباشرة « جعلنا الله يا أخي ممن فضله بالعلم ومكنه بالمعرفة ، وخصه بالرفعة – الخ » .

مخاطب يشار اليه بـ « يا أخي »[1] – هذا كله يشير الى اصول اولية لاسلوب ابي حيان كما ظهر في «الاشارات» لدى الجنيد الصوفي ايضاً . الا أن اساليب هؤلاء الصوفية قلما كانت تخرج عن التعليمية الجامدة لتكتسب حرارة واندفاعاً ذاتياً ملموساً ، بعكس الحال مع ابي حيان في مؤلفاته الأولى ، فكيف بعد أن تجاوز السبعين (عندما كتب بعض الاشارات) وقد تطورت مقدرته على التعبير في مثل موضوعاتهم تلقائياً مع تطوره الأدبي العام ، ومرن قلمه مع الزمن على المناجاة والدعاء وحض المخاطب، كما كان قد مرن على شكوى الناس والزمان؟ وحيث أن أبا حيان استطاع أن يمزج في اشاراته الصوفية بين كتابة النماذج للرسائل الصوفية وبين التعبير الوجداني الذاتي ، فانه ارتفع باسلوبه الى درجة لم يبلغها أي من المتصوفة قبل ، بل الى درجة لم يكن قد بلغها في أي من مؤلفاته السابقة ايضاً .

وتمدنا « الاشارات » أيضاً بمفهوم واضح للتصوف حسبما كان يؤمن به أبو حيان . فقد مرّ القول إن أبا حيان عرّف التصوف بانه اشارات إلهية وعبارات وهمية ، كما مرّ القول إن الاشارة إلى علم التصوف بالاشارات والعبارات كان امراً معروفاً متداولاً لدى الصوفية في عصر أبي حيان وقبله . واذا شاء المرء أن يستدلّ ما علىيعنيه أبو حيان بكلمة «الاشارة» (او الاشارات) بدقة أشد ، فان عليه أن يتأمل النصوص التي وردت فيها تلك الكلمة ؛ اذ ذاك يدرك أن المعنيّ بها لديه: محاولة الرجل المتصوف – الذي ارتفع عن البشر واقترب من الوصول إلى الله – أن يعبّر عن الحقيقة الالهية بصنوف مختلفة من العبارات التي يستعملها البشر جميعهم ، سواء أكان ذلك التعبير لتسبيح الله وحده أو لهداية البشر إلى الله . فالاشارة هي الطريق التي يشير بها من هم في منزلة«ارباب القلوب والرافعين لاستار الغيوب » (ل : ٧١/ أ) إلى غايات الحقيقة (ص : ٤٨) إلى « عين من غير كيف ولا أين ، ولا تمويه ولا مين : عين هي

---

١ – انظر الحاشيتين السابقتين .

ينبوع العيون وحقيقة ما كان ويكون ، على اختلاف القلق والسكون » (ص : ٢٦٧) وإن كانت اشاراتهم تطيح دون الحقيقة ذاتها (ل : ٥٦/ ب) : « فلا جرم لا إشارة ولا عبارة الا على وجه الاستعارة والإعارة » (ص : ١٩٧) ؛ فالاشارة صعبة « مدمجة » (ص : ١٢٢) قد يتيه المرء في أوائلها (ص : ٢٢٢–٢٢٣) ، وبهذا المعنى فانها تختلف عن « العبارة » – رغم انها « مدفونة » فيها (ص : ٦١) : « فانه ليس يخفى عليك من هذه العبارة إلا ما تجده في باب الاشارة » (ص : ١٢٥) ، كما انها تختلف عنها في انها واحدة بهدفها ومؤداها – رغم تكثّر اشكالها (ص : ٢٧٤) – مقابل التكثّر في العبارة : « وانما لطفت الاشارة عنها لانها تنزهت عما يتحكم في الاسماء والافعال والظروف» (ص : ٦١ » ، فالعبارة هي وسيلة الاشارة وحسب ، ولذلك نجد ابا حيان يخاطب مخاطبه بقوله : « طال القول المزيّن ، فحصِّل المراد المعيّن ؛ كثرت العبارة ، فحقِّق الاشارة ! » (ص : ٢٢٧) وانما تشترك العبارة والاشارة في تقريب الحقيقة الالهية إلى الناس اذ : « الاشارة التي هي اليك هي منك ... ولم تختلف هذه الحروف إلا لحاجة الخلق اليها في النكور ، والا فالمعنى واحد...» (ص : ٢٠٣) . وهذا معنى أن يكتب ابو حيان كتاباً في الاشارات ، وهو لذلك يقول لمخاطبه : « يا هذا كن ذاكراً لما ألقيته اليك في هذا الجزء من وصف العبارة والاشارة ، فانك تجد ما يقلّك اذا نهضت ، ويظلّك اذا ضحيت» (ص : ١٣٠) – ومن هنا كانت الاشارة ليست اشارة بالقلب تومىء إلى صفاء فيه وحسب ، وانما اشارة بالسمع ايضاً تشير إلى حضور الله أمام من يخاطَب بها (ص : ١٣٨) .

فالصوفي – إلى جانب كونه يحيا حياة نقية عن الادران لا يستسلم فيها للدنيا وانما يعمل لكي ينال الآخرة – هو الانسان الذي يستغلّ العبارة من أجل الاشارة إلى الحقيقة الالهية ، فيهدي الناس بذلك إلى الحق ، ويكون – مثل قرين ابي حيان الصوفي – « خير واسطة وخير سفير » وخير شفيع بينهم وبين الله .

اما الاغراق في التصوف حتى ادعاء الاتحاد مع الله والتعبير عن ذلك بابيات مثل :

تباركتْ خَطَراتي في تعالائي   فلا إلـه اذا فكرتَ إلا ّئي

أو :

لآيةُ الهُوَ في هُوِيّـةِ اللائي   مثل الدواء الذي تبغيه للداء

(ص : ٣٩٦) فهذا ما لم يكن ابو حيان ليرضى به ، واذ وجد شيخه الصوفي يدّعيه عبّر عن استكراهه له بحذر، وعلل ذلك بقوله : « إن اللفظ به كدر ، والمعنى عسر » ولكنه لم يستطع الا أن يستعيذ بالله منه في آخر الرسالة التي ذكرها فيه ، فوضع في النهاية بعد بضعة اسطر الآية التي يستعاذ فيها من الوسواس الخناس (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) وهذا موقف قد يجعل نسبة كتاب « الحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي » إلى أبي حيان موضع شك كبير .

ولا يعدم المرء أن يستشف في كتاب الاشارات معلومات تتصل بأبي حيان نفسه ، فهذا الكتاب مكمّل لفهم الأوضاع الاجتماعية والنفسية التي عاشها وليس فحسب صورة من صور اسلوبه الصوفي الرفيع . وبعض هذه المعلومات عن أبي حيان مباشر ، كما يجده الدارس في الفقرة التي تتحدث عن طبيعة علاقاته بستة اشخاص باعيانهم – دون اسمائهم – من الصوفية (ص : ١٢٦–١٢٧) ، وبعضها غير مباشر يمكن استنتاجه استنتاجاً حذراً من نصوصه ، وذلك مثل طبيعة خطابه للصوفي وللصوفية وشكواه مـن الوحدة والوحشة دونهم وطلبه عطفهم ومودتهم – فان هذا قد يدل على أن أبا حيان لم يستطع ان ينتمي انتماء كاملاً الى أحد النظم الصوفية بحيث يجد الراحة والعزاء في المجموعة ، وقد كان هو نفسه يجد العزاء بالانتماء الى المجموعة الصوفية قبل اربعين سنة كما صرّح به في الاشارات (ص : ١٦٠) – وهذا قد يلقي شكاً حول طبيعة انتماء أبي حيان الصوفي في الواقع ، في العقود الأخيرة من حياته .

٧ ـ تحقيق الكتاب

اعتمدت في تحقيق كتاب الاشارات الالهية على :

١ ـ مخطوطة الجزء الأول منه المحفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق (رقم ٨ تصوف) ـ ويشار اليها بالرمز « ر » ـ .

٢ ـ مخطوطة الملخص من الاشارات الالهية المحفوظة في مكتبة الدولة ببرلين الغربية (رقم ٢٨١٨ في فهرس آلوردت ورقم Spr. 887 في المكتبة ذاتها) ويشار اليها برمز « ل » .

١ ـ وتتألف مخطوطة ر من ١٥٦ ورقة ، في كل ورقة ١٩ سطراً او عشرون ومعدل الكلمات في السطر الواحد ١٢ كلمة ، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ٤٦١ . وهي مكتوبة بخط نسخي رديء ، وفيها أماكن قليلة مطموسة ، وحظّها من الدقة في الحركات والإعجام قليل ؛ ومع أن ناسخها يعتمد بعض اساليب الضبط (مثل وضع ثلاث نقاط تحت حرف السين لتمييزه من الشين) ويصحح بعض الكلمات في الحواشي ، فان هذا ايضاً مما لا يمكن الركون اليه . كذلك فان الناسخ كثير السهو ، يسقط بعض الكلمات ويزيد بعضها ويكرر دون ترميج ، فكأنه يعجز عن أن يلاحق ابا حيان في مترادفاته وتشقيقاته ، ولذلك غالباً ما يخطىء أو يضطرب عندما يسرف أبو حيان في التلاعب بحروف الجر او بالضمائر او ما أشبه ذلك .

والرسائل في ر (وعددها اربع وخمسون رسالة) تتميز بداية كل واحدة منها بلفظة « رسالة » ثم برقم تلك الرسالة بالحروف الابجدية (ا ، ب ، ج ، د ... الخ) . غير أن الرسالة الثامنة ميزت بنفس رقم الرسالة السابقة (حرف ز) وبعد ذلك استمرّ الترقيم وكأن لم يحدث أي خلل فيه .

ومما يقلل من الاطمئنان الى هذه النسخة أن هناك ثلاث فقرات طويلة تكررت

كل واحدة منها في موضعين متباعدين (فالنص ص : ٤٨–٥٠ مكرر ص : ١٧١ – ١٧٣ ؛ والنص ص : ١٧٣ – ١٧٤ مكرر ص : ٣٣٧ – ٣٣٨ ؛ والنص ص : ١١٥ مكرر ص : ١٩٦) – وهذا أمر يدعو إلى التساؤل عن مصدر هذا الاضطراب ، خاصة وأن طبيعة كتاب الاشارات – بما تقوم عليه من التكرار للمعاني المتشابهة من المناجيات والادعية والمخاطبات وصنوف الشكوى ، ومن التراوح الشديد بين كل هذه الفنون في الرسالة الواحدة – لا تمكّن الدارس من ترجيح مكان دون مكان لهذه الفقرات المكررة .

وهناك رسالتان في (ر) يبدو للقارىء لأول وهلة انهما وصلتا إلى نهايتهما الطبيعية عندما ختمتا بعبارة « يا ذا الجلال والإكرام » ولكن الناسخ في كلتا الحالتين كتب بعد هذا الدعاء وسط النص « نسخة أخرى » وأكمله باستئناف الخطاب (يا هذا ...) في مقدار صفحة في احدى المرتين ومقدار صفحة ونصف صفحة في المرة الثانية ، ثم أنهى الرسالتين مرة دون خاتمة ومرة بخاتمة موجزة (« والسلام ») .

ترى هل كان وجود « نسخة » أخرى لدى الناسخ مصدر جانب من هذا الاضطراب الذي نجده في نسخة ر ، كما كان وجودها في بعض الأحيان مفيداً في تصويب القراءة ؟ ذلك أمر لا شك فيه ، فيما يبدو لي ، وهو على كل حال تعليل وحسب ، ولا يفيد في أن يجعلنا على يقين من سلامة الوحدة في الرسالة وفي عدد الرسائل في هذه النسخة ، كما انه يجعلنا نشك في وجود فجوات أخرى غير الفجوات التي أشار اليها الناسخ .

تبقى بعد ذلك مشكلة العناوين التي وردت في مطلع بعض رسائل هذه النسخة (رقم : ١٣ و ١٤ و ٣١) فان الواحد منها صورة عبارة وردت في الرسالة ، ولكن قلة عدد الرسائل التي تحمل عناوين (٣ رسائل بين ٥٤ رسالة) – رغم وجود نسختين على الاقل لدى الناسخ – جعل إثبات العناوين على انها من

عمل أبي حيان نفسه أمراً متعذراً ، ولعل أحد النساخ مسؤول عن زيادة هذه العناوين .

٢ ــ اما النسخة ل ، فانها تقع في ٧٦ ورقة ، وفي كل صفحة من صفحاتها ١٧ سطراً او ١٨ ، ومعدل الكلمات في كل سطر ١٠ كلمات . وهي مكتوبة بخط واضح كثير الاعجام قليل الشكل ، الا أن الاعجام والشكل ليسا بريئين من الخطأ . وقد سقط من آخرها ورقات لا يعرف عددها ، وكتب على الورقة الأولى « عدة كراريس هذا المجموع اربعة وعشرون كراساً » ؛ فاذا قدرنا أن الكراسة تجيء في عشر صفحات ، كان ما ضاع من صفحاتها لا يقل عن سبعين صفحة .

وتحتوي نسخة ل على ملخص من خمس عشرة رسالة ، تتقدم البسملة بعضها ، وكلها ــ باستثناء الرسالة الأولى ــ يحمل عناوين منتزعة من نصوص الرسائل ؛ وتدل المقارنة مع النسخة ر أن اكثر من ثلث نسخة ل (حوالي ٣٠ ورقة من أصل ٧٦ ورقـــة) ملخص لرسائل ثبتت في الجزء الأول من الاشارات ، وهذا يعني ان الورقات الباقية من النسخة ل تحتوي ملخصاً من الرسائل الواردة في الجزء الثاني المفقود من الاشارات الالهية . ولا يعتمد الملخص في نسخة ل منهجاً متسقاً في التلخيص ، اذ قد يتفق مع النص الأصلي (كما هو ثابت في ر) دون أن يترك منه لفظاً واحداً لمدى صفحات متتالية ، وقد يسقط عدداً من الصفحات ؛ الا أنه في معظم الاحيان لا يتجاوز ما يسقطه عبارات متناثرة هنا وهناك . كذلك فان الملخص لا يعتمد منهجاً متسقاً في الترتيب ــ ولذلك فان رسائل ل لا تأتي موازية في الترتيب لرسائل ر ، ممـــا يثير تساؤلاً حول الترتيب الاصلي للرسائل في كتاب الاشارات ، واليك نموذجا من ذلك في الرسائل المشتركة بين النسختين :

الرسالة ٤٠ في ر يقع ملخصها على الورقات ٥ ــ ٨ في ل ،

يتلوها ملخص الرسالة ٣ في ر ويقع على الورقات ١٢ ــ ١٦ في ل ،

يتلوها ملخص الرسالة ٣١ في ر ويقع على الورقات ١٦ – ١٩ في ل ،
يتلوها ملخص الرسالة ٥٣ في ر ويقع على الورقات ٢٨ – ٣٣ في ل ،
أما الرسالة الأولى في ر فانها تجيء في الملخص على الورقات ٥١ – ٥٤ .

وقد كان الاعتماد على ل هاماً مفيداً ، اذ بواسطته تمكنت من أن املأ بعض الفجوات الناشئة عن الطمس في ر ، وان أصحح النص في احيان كثيرة. وكنت في حال اختلاف القراءة بين النسختين أثبت القراءة التي أراها أقرب إلى الصواب في المتن ، واضعة قراءة النسخة الاخرى في الحاشية . فاذا كان النص في ل غير وارد في ر وضعته بين معقفين واشرت إلى ذلك في الحاشية ، بينما لم أشر في الحاشية – الا في احيان قليلة – الى ما كان يسقط من النسخة ل ، لأن الحذف يعدّ أمراً طبيعياً لمن يقوم بتلخيص كتاب ما .

أما عناوين الرسائل في ر فقد اكتفيت باثباتها في الحاشية لانها لا تطرّد ، بينما تركت العناوين في ل كلها في المتن ، لأن عنونة الرسائل متسقة في تلك النسخة ، حتى لوكان الملخص مسؤولاً عنها ، فان هذا لا يخلّ بالمنهج السليم .

وقد جعلت الرسائل العشر الملخصة التي ليس لها نظير في ر ملحقاً بالجزء الأول ، وافردت قصيدة أبي العتاهية – كما اوردها ابن ابي الحديد في شرح النهج نقلاً عن الاشارات الالهية – في ملحق ثان .

أما لفظة « المطبوعة » – حسبما ترد في الحواشي ، فانها تشير الى الطبعة التي صدرت في القاهرة ، ١٩٥٠ ، بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد كانت الاشارة اليها في معظم الاحوال حيث كانت أمينة للاصل (ر) ؛ اما ما خالفتُ فيه هذه المطبوعة من قراءات – وهي كثيرة جداً – فاني لم أشر اليها في الحواشي الا في القليل النادر .

وقد بذلت كلّ ما استطعت من جهد في تحقيق هذا الكتاب ، وأنا على يقين من أن العمل فيه شاق وأن الزلل في توجيه النص غير مأمون .

وفي هذا المجال أراني مدينة بالشكر والامتنان لاستاذي الكريم الدكتور إحسان عباس،الذي أعارني نسخته الخاصة من **مطبوعة الاشارات**،فأفدت من تعليقاته على حواشيها . كما اتقدم بالشكر الجزيل إلى العلامة المحقق الاستاذ أحمد راتب النفاخ الذي كان ذا فضل في إمدادي بصورة من مخطوطة الظاهرية، والذي تكرم فراجع ما عملته بعين العالم البصير وزوّدني بتعليقاته وتصويباته المفيدة ، وغاية ما ارجوه أن اكون وُفّقت قدر الامكان في تيسير هذا النص الصعب ، ليجده القارىء بعد ذلك بين يديه غير قليل الحظّ من الصواب ، بعون الله وتوفيقه .

بيروت في حزيران (يونيه) ١٩٧٣

وداد القاضي

PDF
www.iqraa-pdf.net
مرجعك الأول
في تلخيص الكتب

الورقة الاولى من نسخة الظاهرية (ر)

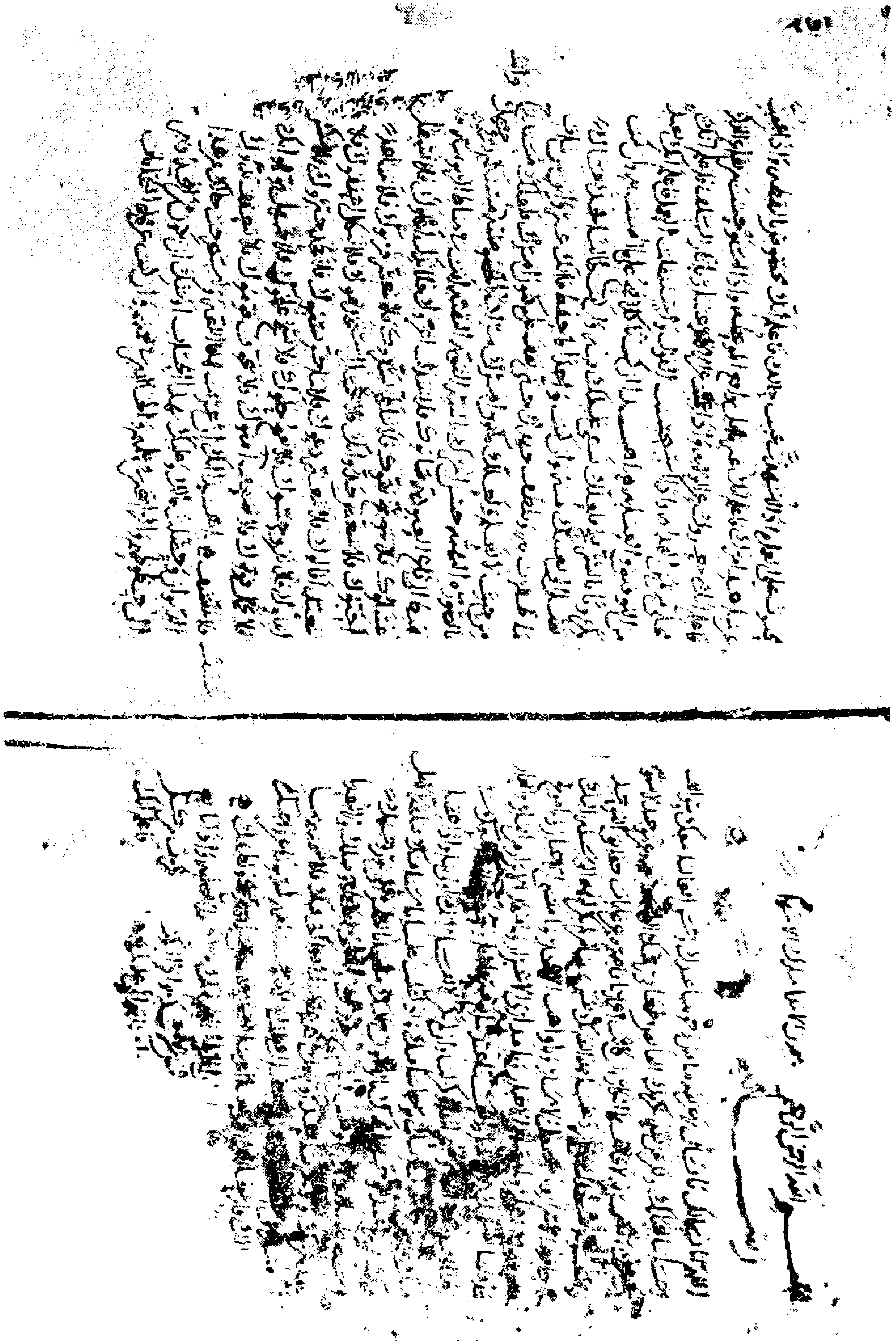

الورقة الثانية من نسخة الظاهرية (ر)

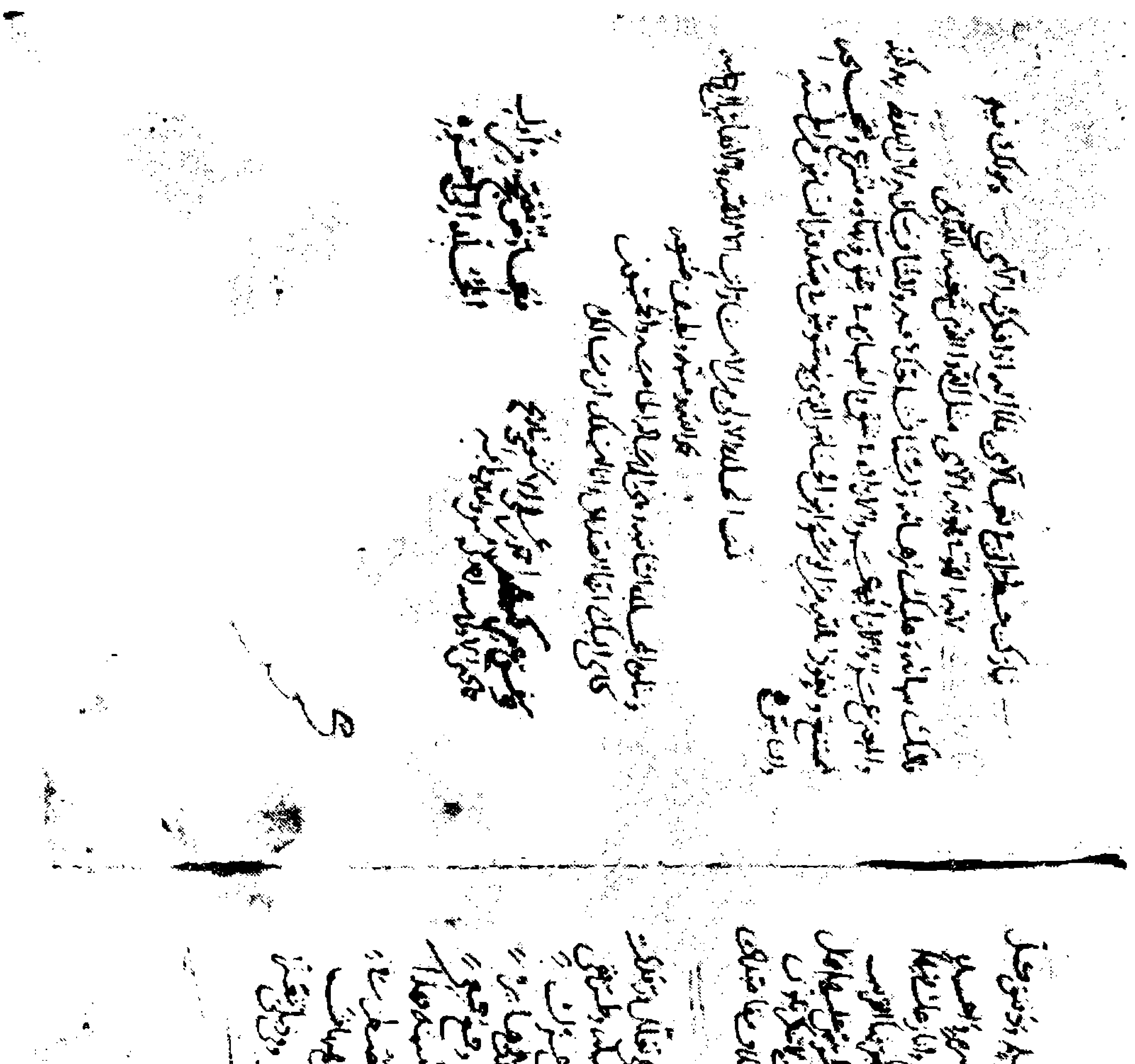

الورقة الأخيرة من نسخة الظاهرية (ر)

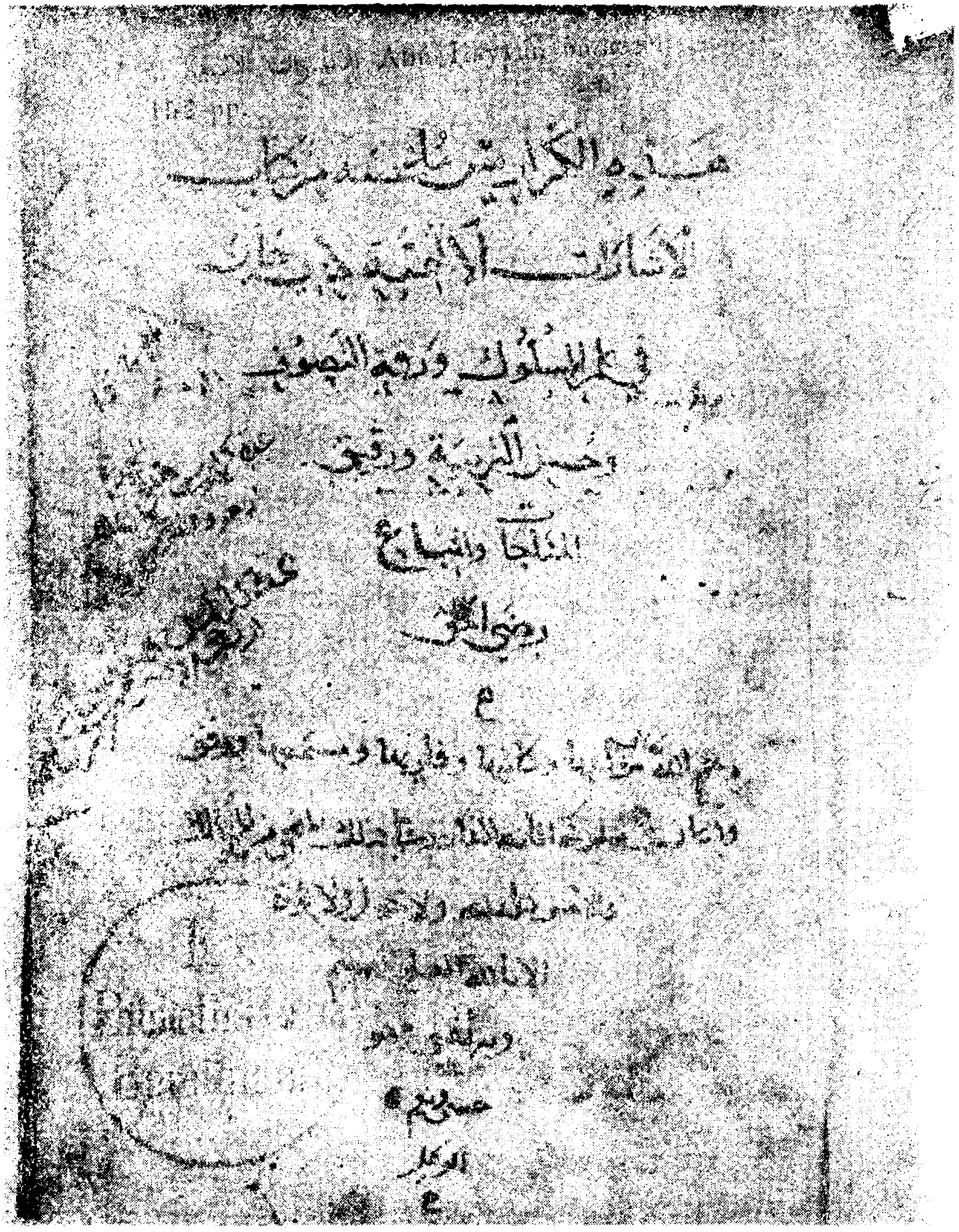

وجه الورقة الاولى من مختصر برلين (ل)

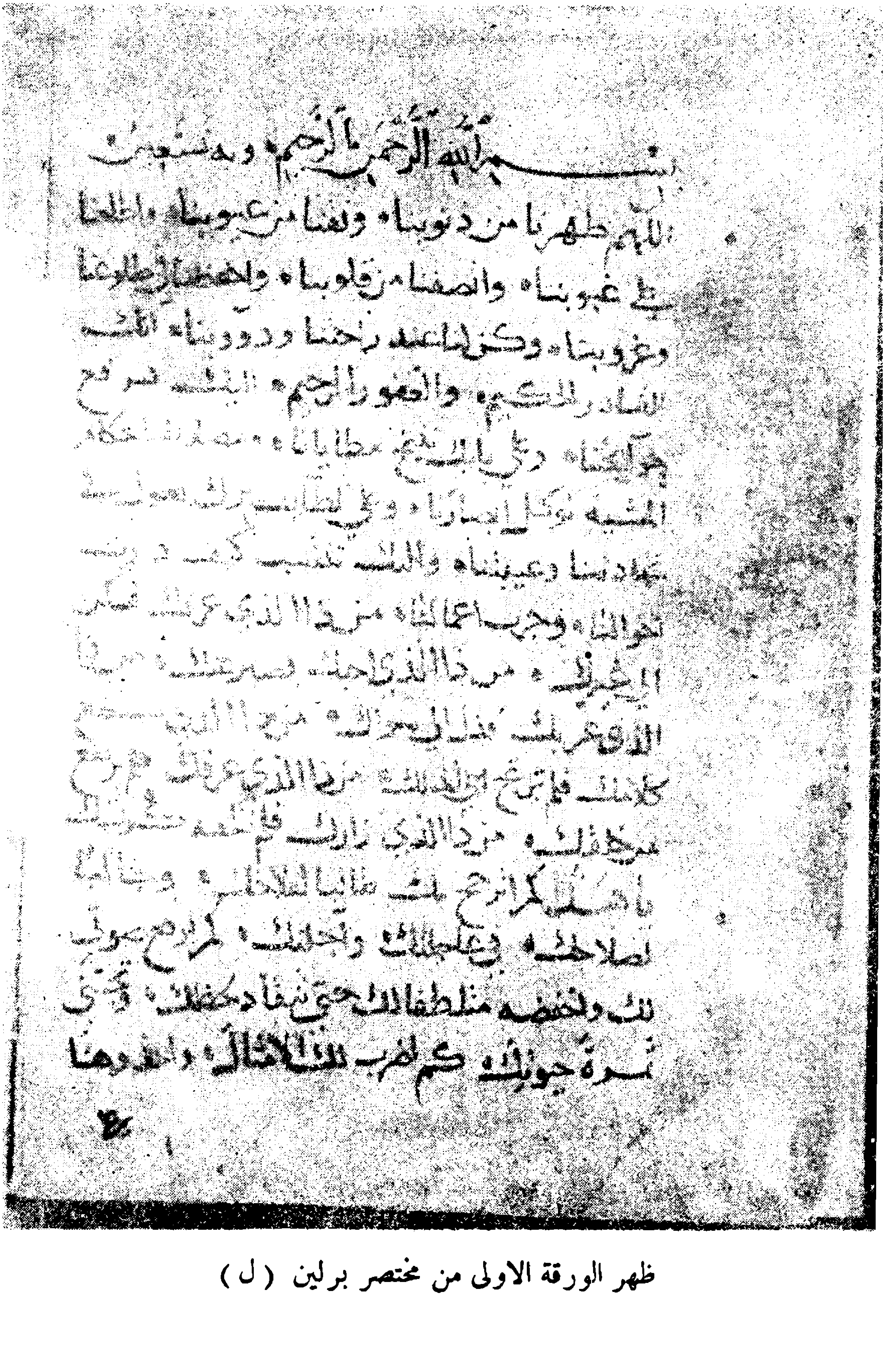
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
اللهم طهرنا من ذنوبنا ونقنا من عيوبنا واطلعنا
على غيوبنا وانصفنا من قلوبنا واحفظنا في طلوعنا
وغروبنا وكن لنا عند رحلتنا ودروبنا

ظهر الورقة الاولى من مختصر برلين (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء[1]

- ١ -

اللهمّ[2] : إنّا نسألُك ما نسأل ، لا عن ثقةٍ ببياضِ وجوهنا عندك ، وحُسْنِ أفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلَك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعٍ[3] في رحمتك الواسعة ؛ نعم وعن توحيد لا يشوبُهُ إشراك ، ومعرفةٍ لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمالنا[4] قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة . فنسألك أن لا تردَّ علينا هذه الثقة بك ، فيَشمتَ بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظَ الأسرار ، ويا مُسبلَ الأستار ، ويا واهبَ الأعمار ، ويا منشىءَ الأخبار ، ويا مولجَ الليلِ في النهار ، ويا مصافي الأخيار ، ويا مُداري الأشرار ، ويا منقذ الأبرار من[5] النار والعار : عُدْ علينا بصفحك عن زلاّتِنا ، وانْعِشْنا عند تتابع صرعاتنا ،

---

١ – سقط الدعاء من ل .

٢ – ورد معظم هذه الرسالة في ل (٥١/ أ – ٥٤/أ) بعنوان « مناط الربوبية وقاع العبودية من الإشارات الإلهية » .

٣ – ر : وطمعاً .

٤ – ر : أعمارنا .

٥ – ل : ويا مكرم الأبرار عن ...

وحُطَّ رِحَالنا معك في اختلافِ سكراتنا وصحواتنا[1] ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا [منّا][2] ؛ وإذا خفنا منك فامزجْ خوفَنا منك برجائنا فيك ، واذا غلب علينا يأسنا منك فتَلَقَّهُ بالأمـل فيك[3] : بَشِّرْنا عند توجُّهنا نحوك بالوصول إليك ؛ متِّعْنا بالنظر الى نور وجهك ؛ أسبغْ علينا نعمتك بما وهبتَ لنا من توحيدك ، ولا[4] تهجرنا بعد وَصْلك ، ولا تُبعدنا بعد قربك ، ولا تكربنا بعد رَوْحك ؛ قد عادَيْنا أعداءك فيك ، فلا تُشْمِتهم بنا لتقصيرنا في حقك ، وَوَالَيْنا أصفياءك لك[5] ، فلا توحشنا منهم لسهونا عن واجبك : قد[6] كددنا لك فأَرِحْنا بك ، ورفعنا أيدينا إليك فأمدها من بِرِّك ولطفك .

يا هذا : إذا زخر بك وادي الدعاء ، فاعلمْ أنك مُرادٌ بالإجابة ، وإذا تابع لك المزيدَ في النعمة ، فاعلمْ انك معرَّضٌ للشكر ، وإذا اكتنفك الكربُ من كل ناحية ، فاعلمْ أنك مطالَبٌ بالتصفية ، وإذا توالى عليكَ هاتفُ العلم ، فاعلمْ أنك [٢ / أ] محثوثٌ على العمل ، واذا أُشهدتَ غيبَ حالك ، فاعلمْ أنك مخصوصٌ باليقظة ، وإذا غُيِّبتَ عن شاهد أمرك ، فاعلمْ أنك غير قابلٍ واقعَ الموعظة ، واذا استوحشتَ من بقاع الذِّكر ، فاعلمْ انك معزولٌ عن الولاية ، واذا عميتَ عن الاعتبار بآثار[7] السَّلَف ، فاعلمْ أنك مخلّى من يُمن الهداية ، واذا استحسنتَ القولَ واستثقلتَ العمل ، فاعلم أنك بعيد من التوفيق والعناية .

---

١ – سقطت من ل .
٢ – زيادة من ل .
٣ – ل : منك .
٤ – ل : لا .
٥ – لك : سقطت من ل .
٦ – اضطرب النص في ر من هنـا حتى آخر الصفحة بسبب خرم في المخطوط ، وأكمل النص من ل .
٧ – ل : بحال .

يا هذا : إن كنتَ ثاكلاً فَنُحْ على ما أصبتَ به ، وإن كنتَ مكروباً بالسرِّ[١] فَبُحْ فلعلّك تشفي غليلَكَ فيه ، وإن كنتَ طالباً فجِدَّ فعساك تصلُ إلى بغيتك منه ، وإن كنتَ واجداً فاحفظ ، فانك غير واثقٍ من ثبات ما ظفرتَ به ، وتَلَطَّفْ جهدَك ، حتى تقف على مكنون أمرك ، فلعلك مستدرَجٌ من حيث لا تعلم ، ولعلك مُرادٌ بالخصوصية وأنت مستكتَم . زَيِّنْ وجهك بالصورة البهية ؛ حَسِّنْ أثرك بالنية القوية النقية . أنتَ في مناط الربوبية ، فلا تهبط إلى قاع العبودية ؛ صانوك ، فلا تبتذل ؛ أعزّوك ، فلا تذلَّ ؛ أعلوكَ[٢] ، فلا تسفل ؛ غسلوك ، فلا تتوسّخ ؛ نقّوك ، فلا تتلطّخ ؛ يسّروك ، فلا تتعسّر ؛ قرّبوك ، فلا تتباعد ؛ أحبّوك ، فلا تتبغّض ؛ جدّوا بك ، فلا تكسل ؛ استخدموك ، فلا تتّكل ؛ أعتقوك ، فلا تتعبّد ؛ أقالوك فلا تتعثّر ؛ دعَوك ، فلا تتأخّر ؛ نسبوك ، فلا تجحد ؛ جبروك ، فلا تنكسر ؛ أنبتوك ، فلا تذوِ ؛ حسّنوك ، فلا تقبح ؛ حلّوكَ ، فلا تسمج ؛ علّموك ، فلا تجهل ؛ نوّهوا بك ، فلا تخمل ؛ قوّوك ، فلا تضعف ؛ لطّفوك ، فلا تكثّف ؛ أسرّوك ، فلا تنكشف ؛ انتظروك ، فلا تتوقّف ؛ آمنوك ، فلا تتخوّف ؛ قوّموك ، فلا تتعقّف ؛ ندّوك ، فلا تتنشّف .

يا هذا : إنك إنْ عرفتَ هذه اللغة ، واستخرجتَ حالك من هذا الديوان . وحصّلتَ ما لك وعليك بهذا الحساب ، أوشك أن تكون من المجذوبين الى حظرظهم ، والراسخين في علمهم ، والخالدين في نعمتهم[٣] . وإن كنتَ عن هذه الكنايات[٤] [٢/ب] عميّا ، وعن هذه الإشارات أعجميا ،

---

١ – على ما أصبت ... بالسر : سقط من ل .

٢ – ل : علوك .

٣ – ل : نعيمهم .

٤ – ل : الحكايات ، وفي هامشها : خ : الكنايات .

طاحت بك الطوائح ، وناحت عليك النوائح ، ولم توجد في زمرة الغوادي والروائح : مطرتْ سماءُ المحبة فلم تبتلَّ بقطرةٍ من قطراتها ، وهبّت ريحُ الولاية فلم تعبق بنسيم من نسماتها[1] ، وغنّت ضمائر الحكمة[2] فلم تطربْ على لحنٍ من ألحانها[3] ، وجُليَتْ عرائسُ الهدى[4] فلم تتشبّثْ بذيل من أذيال واحدةٍ منها . فيا جافيَ الطبع ، ويا قاسيَ القلب ، ويا سيءَ الاختيار : كيف يطمع الطامعُ في رشدك وهذا نَظَرك لنفسك ؟

أشهد أنك غبين الرأي ، مسلوب التوفيق ؛ على أنه قد بقي من شمسك شفَىً[5] ، فإن تداركت يقينك رجوتُ لك[6] أن تسلوَ عن فائتك ، وإن جنَحْتَ إلى التواني[7] ، وذهبْتَ في آفاقِ الأماني ، لم ترِثْ من حالك إلا حسرة ، ولم تمضُغْ بفمك إلا جمرة .

يا هذا :

خفِّضْ أسىً عما شآك طِلابُهُ[8] ما كلُّ شائم بارقٍ يُسقاهُ[9]

* * *

---

١ – ر : نسائمها .

٢ – ر : الحكم .

٣ – ر : لحونها .

٤ – ل : وخليت عن حنل الهدى .

٥ – على أنه ... شفى : سقطت من ل ؛ وفي التاج (شفى) : ومن المجاز : ما بقي منه إلا شفى ، أي الا قليل .

٦ – لك : سقطت من ل .

٧ – إلى التواني : سقطت من ل .

٨ – شآك طلابه : سبقك طلبه وبعد عنك وفاتك ، وقد تكون « شأى » بمعنى أحزن (وذلك بسبب الفوت) .

٩ – البيت للبحتري (ديوانه : ٢٤٠٣) .

قد يَسْلَمُ المرءُ مما قد يحــــاذِرُهُ ... وقد يصيرُ إلى المكروهِ بالحذرِ[1]

* * *

وما هو كائنٌ ، وإنِ استَطْلنـــا ... إليهِ النهجَ[2] ، يوشك أن يكونا

* * *

ما خَطْبُ مَنْ حُرِمَ الإرادةَ وادِعاً ... خَطْبُ الذي حُرِمَ الإرادةَ جاهدا[3]

يا هذا : خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك في التعريض ، [وحصـ]ـلْ من التعريض ما يكون زيادة لك في التصريح ، واستيقن أنه لا جرف ولا كلمة ، ولا سِمَةَ ولا علامة ، ولا اسم ولا رسم ، ولا ألف ولا ياء ، إلاّ وفي مضمونه آية تدلُّ على سِرٍّ مَطْوِيّ وعلانية منشورة ، وقـــدرة بادية وحكمة مخبورة[4] وإلهية لائقة وعبودية شائقة ، وخافية مشوّقة وبادية معوّقة ، فاصرف زمانك كله في فَلْي هذه الأثناء[5] واستنباط هذه الأنْباء . على أن زمـــانكَ أقصر من ذاك ، أعني أن يطول لك حتّى تقفَ على كنـــه حقيقـــة ما في باطـــن ذرة من هذه القصة . وهذه الإشارة ، وإن كانت محدثة لليأس[6] في النفس الضعيفة ، فإنها مُبَشِّرة بعظم الحال في الغايـــة المنيفة. فاتّزرْ — حاطك[7] الله — بالانكماش ، وارْتَدِ بالجهد [٣/ أ] واكتحل بالسهر ، واغمَرَ[8] بالفِكَر ، وحَرّم على بالك أن يلمَّ به الهوينا والفتور .

---

١ — البيت لأبي العتاهية (ديوانه : ١٦٨) .

٢ — ر : النهي ؛ والبيت للبحتري، ديوانه : ٢٢٠٨ .

٣ — البيت للبحتري ؛ ديوانه : ٨٢٢ .

٤ — مخبورة : دسمة أو طيبة الأدام أو غزيرة ؛ يعني بذلك أنها حكمة ذات حقيقة جميلة وان كانت خفية ؛ ولفظة « بادية » تقتضي أن تكون القراءة « مخبوءة » أو ما هو بمعناها ، ولكن العبارة قائمة على السجع .

٥ — فلي الأثناء : التفتيش في مطاويها ؛ ولفظة « الاثناء » غير دقيقة الاعجام في ر .

٦ — ر : للناس .

٧ — ل : أحاط .

٨ — ل : واغن .

وإذا حَلمْتَ بمرادك في النوم[1] ، فتعلّل به في اليقظة ، وزِنْ واتزن ، واخضع واستكن ، وتمهد واستمكن ، وانظر واستحسن ، وسل واستَبِنْ ، وخَفْ واستأمن ، وقرَّ واطمأن[2] ، وارجع في كل حادث فادح ، وفي كل مغلق وفاتح ، إلى ربك ، بل كن معه وعنده حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليـــه ، وإذا وردته فلا تصدُر عنه ، وإذا صدَرْتَ عنه فـــلا تَنسه .

يا هذا : الحديثُ ذو شجون ، والقلب طافح بسوء الظنون ، بما لعله يكون أو لا يكون : فكْرٌ يخالطه جهل وجنون ، ويفارقه علم ويقين ، لكن بقي أن تَمْلِكَ زمام الفكر ، كما تملكِ عِنان الذكر ، لأن القلبَ هدف ، والهدفُ لا يزول عن تجاه الرامي ، ولا ينحرف إلى جهةِ المسدِّد . فمن لك الآن بقوّة بها تُدبِّر فكرك، أو تُكرِّر ذكرك،أو تأمن في أضعافِ [...][3] مَكْرِك ونُكْرِك ! إنّك ربما اعوججت في طَيّ مستقيم ، واستقمت في مَخيلةِ المُعْوَجّ . وذلك لأنك مملوك ، والمملوك لا يكون مالكاً ، والأول لا يكون ثانياً ، والصاعد لا يكون نازلا .

هذا — فديتك — نبأ غريب استُنبط من الغيب المكنون ، والسرّ المخزون . فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العينُ ، فأين يجده القلب ؟ ثم أين أنت عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذن الحق الذي أخفى الخوافي في البوادي ، وأبدى البوادي في الخوافي ، ثم حكم بالبوادي على أنها الخوافي ، وعكس الخوافي على أنها البوادي ، لتكون ملكوته محفوفة بالعِبْرة بعد العَبْـــرة ، ولينقلبَ المتصفحون عنها بالحسرة بعد الحسرة ؟ ذلك سرٌّ لا سبيلَ إلى السؤال عنه ، لأنه جُرْأةٌ عليه ، والجُرْأةُ موجبةٌ للمقت ، والمقتُ بابٌ إلى السخط ، والسخطُ جالبٌ للبِعاد ، ولا سبيل أيضاً الى الجواب عنه ، لأنه مَحْوٌ للكلّ ،

---

١ — ر : في النوم بمرادك .
٢ — ل : وقر واطمئن .
٣ — لعلها : في أضعاف ذلك او لا بياض في الأصل .

وتطويح للعقل ، ولَبْسٌ على التحصيل [٣ / ب] وطَمْس على الدليل ، واغترابٌ في الوطن ، واجتذابٌ للحَزَن ، واختلاط للقبيح بالحسن . فسبحان من وَارَى منافع ما جُهِلَ مِنْ سِرّه في عُرْض ما عُرِف من علانيته ؛ وسبحان من لو شاء لأرانا في الذي أرانا غَيْرَ ما أرانا ، وأتانا من لدنه سوى ما أتانا ؛ فلعلنا بذلك كنا على سكون لا تعتوره حركة ، أو على حركة لا يعتقبها سكون . فإن الحركةَ والسكون ، فيما كان ويكون ، قد أبليـــا جدّتنا ، وأكلاّ حدّتنا[١] ، وأضعفا شِدّتنا ، وأفنيا عُدّتنا[٢] فلم يبق منا إلاّ ذَماء[٣] ، ينبض في حشاشات[٤] مضمحلة ، لا يطرقها طارق الا بحـــدثان غريب ، ولا يزورها زائر الا بأمر عجيب . فالشكوى مُعادَة ، والكُرَب معتادة ، والأحوال مُرادة ، والأوقات مُبادَة : فلا حسيسَ[٥] فيُتعلّلَ به ، ولا أنيسَ فيستراحَ إليه ؛ إنما هو رنين وأنين وحنين ، وزفرات تُسْخِن العيون ، وتُخيِّل[٦] الظنون ، وتُبْرِز الفنون مـــن مَلاحظ العيون . فأين الأمان ، وانما[٧] أُتينا من المأمن ، وأين المطلوب وإنما عطبنا في الطلب ، وكيف الطلب ، وانما[٨] هلكنا بالوجدان . ومَنْ لنا بالخبر ، وقد بدْنَا بالأثر ، وهل لنا من مناص ، وقد أُخذْنا بالنواصي ؟ هيهات ! اليأسُ مما لا ينال إحدى الراحتين[٩] ، والسَّلْوة

---

١ – أكلا الحدة : سببا فيها الكلال ، وهو العجز عن القطع .
٢ – كذا في ر بضم العين ؛ وعدتنا – بكسر العين – تعني : عددنا ، وله وجه حسن في العبارة .
٣ – الذماء : بقية النفس .
٤ – الحشاشة : بقية الروح .
٥ – الحسيس : الصوت الخفي ؛ ومن معانيها أيضاً « الكريم » .
٦ – كذا يمكن أن تقرأ « وتخيل » أي ترسمها في المخيلة وتصورها ؛ واذا قرئت « وتحيل » أي تطمس فلا تدعها تتحقق .
٧ – ر : وأنى .
٨ – ر : وانا .
٩ – فيه إشارة الى قول البحتري :

واليأس احدى الراحتين ولن ترى تعباً كظن الخائب المغـــرور

عما لا يُدْرَك إحدى العاقبتين . بلى ، إنْ صَدَق الفألُ ، وصَحّ الزَّجْرُ وصادف الإلهام حقا ، وارتفع الخَلْق عن أن يكون خَلَقاً ، فلعلّ نسيم الأسحار[1] يعبث بهذه الأرواح المتهتكة ، ويتميز بهذه الصفات المشتركة ، فنَكُرّ على خزائن الغيب بالنَّهْب . ونُوَقّحَ وجوهَنا بالاعتذار ، ونخلَع أرساننا بالتملق ، ونستردّ حقوقنا المغصوبة ، ونتبادرَ إلى أعلامنا المنصوبة ، ثم نجلس على منابر الرضوان متزمّلين في عِطاف أولياء الحق ، نحمدُ على آفاتٌ زالت طالما حَرِجَتِ[2] الصدورُ بها ، ونقترحُ أمانيّ طالما [٤ / أ] طَمَحت العيون إليها .

فإذا كان ذلك – وعن قريب يكون ذلك ، [وتشاهد ما هنالك][3] – فيا لك من رَوْحٍ لا كرب بعده ، ويا لك من صَفْوٍ لا كَدر معه ، ويا لك من وَصْلٍ لا هَجْر يشعَثه[4] ، ويا لك من قبولٍ لا ردّ يريّثُه[5] !

اللهم : لا تحرمنا هذه المقامة في دار المقامة[6] فانك أنطقتنا بوصفها ، وشَوّقتنا إليها بذكرها . فبحرمة إنطاقِك لنا بوصفها ، وبذمام تشويقِك إيانا إليها ، إلاّ أنعمتَ بالَنا بالقرار معك ، وأقررتَ أعيننا بالنظر إلى وجهك ، وحققت آمالَنَا في ذُرَى دار عزّك ، وصدقتَ رجاءنا بما أسلفتَنا من فضلك ، فإنك الجواد إذا لم تُسَل ، فكيف إذا سُئِلت . والمنعِمُ إذا لم تُطالَب ، فكيف إذا طولبت .

---

١ – ر : الأشجار ؛ وهو خطأ .

٢ – حرجت : ضاقت .

٣ – زيادة من ل .

٤ – ر : يشيعه ؛ ويشعثه : يقدح فيه ويحيله مضطرباً .

٥ – يريثه : يصيبه بالريث والابطاء .

٦ – ر : المقام .

يا هذا : قد اخترط الحق لساناً لا يمرّ بصَدْع إلا شَعَبَه[1] ، ولا يَلِمّ بقَلْبٍ إلا رَعَبَه[2] ، ولا يُطِلّ على فاسد إلا أصلحه ، ولا يقرع باباً إلا فتحه ، ولا يَبِلُ[3] على نبتٍ إلا اعلولب[4] ، ولا يجتاز بواد إلا اعشوشب . فأصِخْ إليه ، واملأ عِيانك منه ، فليس في كل حينٍ تُحالّ عن الماء والطين ، ولا في كل زمان تُخَصّ بالأمان ، ولا في كل بُقْعة تؤهل للرفعة ، ولا في كل وقت تُناغَى بلحنٍ مُطْرِب ، أو تُناجى بلسان مُعْرِب . فالبِدارَ البِدار ، إلى محل الأبرار الأخيار ، الذين يحلو بصحبتهم الحنظلُ الحَوْلِي[5] ، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السُّفْلي ، إلى ذلك المحل[6] العُلْويّ . ومتى اتهمتني في هذه النصيحة فشاورْ عقلَك ، وإلا فاستنصحْ أوثقَ الناس في نفسك ، وأوضَحَهم سِمة في الشفقة عليك ؛ وإلا فقدِّم الاستخارةَ لله عز وجل ، فإنه إذا استُهْدِي هَدَى ، وإذا استُنْصِحَ أسْدَى ، وإذا فُزِع إليه كَفَل ، وإذا تُوُكِّل عليه سهّل ، وإذا طُلِبَ ما عنده جاد ، وإذا سُئلَ ثانياً وثالثاً أعاد ؛ لا يؤوده شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا يفوته شيء . وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل شيء وآخره [٤/ب] ومُبْرِزه ومُظْهِره ، ومُسِرّه ومُضْمِره ، ذاك[7] الله ربِ العالمين .

---

١ – شعب الصدع : رأبه ولم شعثه .

٢ – كذا ولعل الصواب « رأبه » إذ كل المعاني في الفقرة جارية على إصلاح ما فسد .

٣ – وبلت السماء المكان : أمطرته .

٤ – اعلولب : أصبح جاسياً غليظاً .

٥ – قوله « حولي » نسبة إلى الحول ، وهو شبيه بقولهم حنظل عامي اي يابس ، اتت عليه سنة جدب فأكله الناس .

٦ – ر : محل ذلك .

٧ – ل : فتبارك .

يا هذا : دارت اللغاتُ على مراكز المعاني بفَوْت المُدْرِك . وإدراك الفائت ، بلا رسم معهود ، ولا أثرٍ مشهود ، ولا دليل قاطع ، ولا رائد صادق بل طسم وقسم وحسم : إن جُهل فبالواجب . وإن عُلم فهو العَجَب العاجِب .

اللهم : إنّا في سَكْرة من وارداتك . وفي حيرة من مجاري أقدارك : وليتك إذ لم تَخُصَّنا بانكشاف العين ، لم تشعرنا التمني لما لم تَجْرِ به مشيئتك . ولم يسبق في معلومك .

إلهنا : قُدْنا بزمام طاعتك إلى كريم حضرتك ، واعصمنا من كيد كلِّ كائد لنا من أجلك ، وامْحُ أسماءنا من ديوان غيرك ، واكتبنا في المُنيبين إليك ، الذاكرين لك ، المفتخرين بك ، المبتهجين بقربك ، المغمورين بعطائك . المذكورين بحضرتك ، المتوَّجين بتاج صفوتك ، المخصوصين بالاطلاع على إسْرارك وإعْلانك ، المطمئنين على بساط خبرك وعِيانك ، يا ذا الجلال والاكرام .

– ٢ –

اسمعْ أيها الجليسُ المؤانس ، والصاحبُ المساعد ، حتى أصفَ لك تصاريفَ حالي ، ومُتقَلَّب أمري ، وجميعَ ما يدلُّ على شكري وشكواي ، وراحتي وبلواي ، مفتنـاً[١] فيها ، ومقتدِراً عليها ، ومطلعاً على غامضها وواضحها ، ومميِّزاً لثابتِها من سانحها . واعلم أني مع ذلك كله انتهيت إلى حال لم أشهد فيها إلاّ النعمة ، ولم أُحِسَّ إلاّ بالكرامة ، ولم أتطعَّم إلاّ المِقَة ، ولم أَشعر إلاّ باليد الطُّولى ، في الآخرة والأولى . وذلك أني رأيتُ الفؤادَ محشوّاً بالمعرفة ، واللسانَ لَهِجاً بالذكر ، والإشارَةَ نافذةً بالتوحيد ، والقلبَ مُتْرَعاً بالإيقان ، والسِّرَّ مطمئناً بالوعد ، والنفس ممتثلةً للأمر والنهي ، والروحَ مشتاقةً إلى

---

١ – ر : مفيتا .

اللقاء والزيارة ، والأركانَ ثابتةٌ على الإخلاص [٥/ أ] والاستقامة، والوجدَ عاملاً عمله بالهزّ والتذكرة ، والغليلَ متقداً بالحنين والصبابة ، والمسافةَ مقطوعةً بالجدّ له[١] والتشمير ، والصبرَ مستصحبًا مع الأنفاس ، والسلوة قائمة عن زهرات العاجلة ، والأذنَ صاغيةً إلى النداء ، والهينمةَ ناغيةً[٢] بالنَّجاء الراسخ على الوفاء . فهل بعد هذه النعم والكرامات ، وبعد هذه الآثار والعلامات ، وبعد هذه السِّمات والأمارات ، وبعد هذه المرامات والمقامات . ما يَهتدي إليه اقتراحُ بَشَر ، أو يكون لأحدٍ من الخلق عنه خبر أو أثَر ؟ لا والذي ناجى الأرواحَ ، بدقائق ما عجزت عن تضمنه الألواح ؛ هذا وقد أنعم وأكرم، وتولى بالحسنى قبل هذا الوقت في القِدم . فهل بعد هذه المقدمات المفتَّحَة[٣] ، وهذه الأوائل المتوشَّحة ، وهذه الوسائط التي قد أعجزت تفاريقُها عن درك حقائقها دون جوامعها ، والتي أتت على جلائلها ودقائقها ، إلا الشكر الذي به تدومُ النِّعَم، وبه يُمترَى[٤] المزيد من نفائس القِسَم ؟ أليس من جملة هذه النِّعم انفتاح باب الشكر على القلب بالتلذُّذ[٥] ، وعلى اللسان بالتردد ؟ أليس من جملة هذه النعم الاهتداء إلى الاعتراف بالنِعم ، والاعتزاء إلى المنعم بالسرّ والجَهْر ، والحدَث والقِدَم ؟

فهاتِ الآن حديثك أيها الإنسان : هل لك إشراف على هذه القُلَل[٦] التي قد تكرّرَتِ الإشارة إليها ، وتردّدتِ الدلالة عليها ؟ فإن كان لك إشرافٌ ،

---

١ – لفظة « له » غريبة في السياق ؛ وهذا ما يجعلني أقدر أن تكون بالجد له مصحفة عن « بالجذلة» أي السرعة ، أو تقرأ العبارة بحذف «له» .

٢ – ناغية : من نغى اذا تكلم بكلام يفهم .

٣ – ر : المفيحة ؛ ولها وجه إذ يكون معناها من السعة أو من طيب الأرج .

٤ – مرى الشيء وامتراه : استخرجه .

٥ – ر : بالتلدد ، وهو الحيرة ؛ وتردد اللسان بالشكر يقابله تلذذ القلب به .

٦ – القلل : جمع قلة ، وهي القمة أو الذروة .

فإنك من المخصوصين بالزُّلفة ، ومن المُقرَّبينَ بالأُلفة ، وإن لم يكن لك اشراف عليها ، ولا لك إشراف على أنه ليس لك اشراف ، فبُؤْ[١] بنقصك لمبتليك ، وانفُض أثناء سرِّك التي تليك ، وهي أعيانُ حقائِق ما فيك ، فإنك بهذا النفض تصفو من كل دَرَن ، وتنجو من كل غبن ، وتجري على كل سَنَن ، وتنبعث بكل حَسن ، وتصير من حزب الله الغالبين [٥/ب] وعباده الفائزين ، وأوليائه المُخلِصين .

قد ناجيتك ، يا سيدي ، بلسان النعمة السابغة[٢] ، ودَلَلْتُك على موقعها مني في أوان الحاجة ، وحرَّكتُك إلى عرفان ما لعله قد اعتراك فيه السهو والغَفْلة ، وبعثتُك على أداةٍ إن استعملتَها دامتْ راحتُك ، واتصلتْ كرامتُك ، وغرْتُ عليك بك ، وتصفحْتُك لك ، وأطلعتُك عليك ، قضاءً لحقك في الأُخُوَّة ، وتكثُّراً بك فيما يجلُّ عن الأبوّة والبنوّة . ولم أطْوِ عنك ما يتعلق بسدادك ، وينتهي إلى مصلحتك ، ولكني أمسكتُ عما وراء ذلك من حالي ، لا مداجاةً لك في الصداقة ، ولا مداجحة[٣] لك في العِشرة ، ولكني لأني آثرتُ الاستتار عما خانني فيه الاستبصار ، وفاتني عليه الاستنصار . فإن قلت : وما ذلك ، وما هو ، وكيف هو ، واكْنِ لي عنه إن لم تُفْصِح ، وأنْعِم به إن لم تَشْرَح ، واقرَع بابه إن لم تَفْتَح ، فحقُّ الاسترسالِ بين أهل الوداد ، يقتضي التهيُّمَ بكل واد ، والكشفَ عن كل ما غطاه حُجُبُ الفؤاد[٤] . ولعمري إن التصافي بين الشخصين ، والتناهي بين المتشاكلين ، يوجبان ذلك

---

١ – بؤ : فعل أمر من باء بمعنى عاد .

٢ – ر : السابقة .

٣ – المداجحة : المضافرة والمداخلة والتألب ؛ وقد اضطرب ناسخ (ر) في كتابة الكلمة فجاءت « معامداجة » ثم رمج فوق الشق الأول وهو « معا » ؛ وقرئت في المطبوعة « معاجة » ولا وجه لها هنا بحسب السياق .

٤ – كذا وردت العبارة ولعل صوابها : « عن كل ما غطى وحجب الفؤاد » .

ويَحْدُوان[1] عليه . ولكنْ مع كل خطرةٍ خَبال ، ومع كل نظرة وبال ، ولكل إنسانٍ[2] حال ، ولكل مقام مقال .

ومع هذا التقديم والتأخير ، ومع هذا التعريف والتنكير ، ومع هذا التسليم والتنقير ، فإني أقول :

كيف يصفو سرورُ مَنْ ليس يدري ... أي وقت يسبيه لَحْظُ العيونِ

وأقول :

أُعَلِّلُ فيك النَّفْسَ والنفسُ صَبَّةٌ ... إليك ، وما تَعْليلُها عنك نافِعُ

وأقول :

تواصِلُني وتقطعني ... وتدعو ثم تمتنعُ
فلا وَصْلٌ ولا قطعٌ ... ولا يَأْسٌ ولا طَمَعُ

وأيضاً :

ويُؤْنِسُني وَعْدٌ كورْدٍ بِقِيعَةٍ ... متى رُمْتُه كُلِّفتُ بيداءَ بَلْقَعا
وهل ينفع الوعدُ الصحيح وتحته ... عقارِبُ لا يتركنَ للجَنْبِ مضجعا

[٦ / أ] وأيضاً :

يا قابسَ النارِ من زَنْدٍ يُعالجه ... اقْدَحْ بِزَنْدِك في هَمِّي وأحزاني
ما النارُ أسرعَ إلهاباً لمُوقِدِها ... في العُودِ من زَفْرَةٍ في قلب حرّان

هذا — حاطك الله — دَيْدَني ، في حالي ومَعْدِني ، لأمور شَرْحها كارب ، وإن كان لي فيها مآرب ، ولك في عُرْضه مذاهب ومطالب . فبعضها

---

١ — ر : ويجدوان ؛ وهو خطأ .

٢ — يمكن ان تقرأ أيضاً « أسيان » ، وفي المطبوعة « اسمان » وفسرت بمعنى الأسمال ، وهي الأثواب البالية ؛ وذلك تخريج بعيد .

لأني مُزْعَج عن أوطان السَّلْوة ، مأخوذ بأحكام ما ليس لي عليه عَدْوة ، ولا لي إليه عَوْدة . وان أسْرَرْتُها في نفسي نمَّت عليها ، وإن كَنَيت عنها بلساني ،غلب عليّ بها شَيْني ، وإن هممت بشيء منها بيني وبيني ، امّحَقَ كلي وبعضي وكيفي وأيني . فغايتي معك ، عند إشكال قصتي عندك ، أن أقول :

طَربْتَ وَلَمْ أطْرَبْ ونِمْتَ ولَمْ أنَمْ
ولم تَدْرِ ما ألْقى وَلكنّني أدْرِي

عتابٌ ليس ينقطع ، وقلب ليس يرتدع ، وفضاء[1] ليس يتسع ، وبلاء ليس يمتنع ، ورُوحٌ ليس ينتفع ، وأمر ليس يرتفع ، وشخص إن زال لَم يَزُلْ خيالُه ، وحبيب إن غاب لم يَغِبْ مثاله ، فالشوقُ على احتدامه مُحْرِق ، والوَجد على التهابه مُقْلِق ، والزمانُ على عادته جامعٌ مُفَرِّق : إذا اعتلجَتْ الخواطرُ بالتمني ، اختلجت النواظرُ بالتظنّي[2] ، وإذا اشتهتِ الآمالُ بالتوقع ، التبسَتْ الغاياتُ بالتمنع ، وإذا تحركت المطامعُ بحلاواتِ الإرادة ، زحفَتْ نحوها كتائبُ اليأس بمرارات الإبادة ، وإذا تروّحتِ الأكبادُ بنسيم العطاء ، زَهِقَتْ الأرواحُ بكُرَبِ اليأس ، وإذا اتّقدت نار الرجاء بالظن ، خمدت من ساعتها على القنوط باليقين . وإذا قيل هذا أوانُ الرَّوْح والفَرَج ، ختَمَ هناك الويلُ والحرَجَ : فلا ذِكْرَ إلاّ وقد خانه النِّسيان ، ولا عِشْقَ إلا وقد شعَّثه السلوّ ، ولا وَجْدَ إلا وقد قدح فيه النقصُ ، ولا فؤادَ إلا وقد كُدِّر بالريب ، ولا طَرْفَ إلا وقد ازورَّ بالملل ، ولا أذُنَ إلا وقد بَرِمَتْ بالإصغاء ، ولا لسانَ إلا وقد [٦/ب] كَلَّ من الإسهابِ ، ولا صبرَ إلا وقد عزَبَ عن المساعدة ،

---

١ – ر : وقضاء .

٢ – أصلها « التظنن » ؛ قال ابو عبيدة : تظنيت من ظننت ، وأصله تظننت ، فكثرت النونات فقلبت إحداها ياء .

ولا صاحبَ إلا وقد ملَّ من المجاملة ، ولا عينَ إلا وقد جمدت من البكاء ، ولا بدنَ إلا وقد فتر من العناء ، ولا خاطرَ إلا وقد وقف عن السُّنوح ، ولا وجْهَ إلا وقد سَمُج بالكلوح ، ولا بالَ إلاّ وقد كسف بالقنوط ، ولا حال إلا وقد ثبتت على الهبوط ، ولا عزّ إلا وقد انتهى إلى الذل ، ولا قول إلا وقد عيب بالتكرار ، ولا صَدْر إلا وقد امتلأ بالوجيب ، ولا أمر إلا وقد استمرَّ على وصف عجيب .

فهلمَّ يا سيدي إلى شجوٍ قد أمرَّتْ علينا كأسُه ، وتقطعتْ بنا عليه أنفاسُنا وأنفاسُه ، فلعل التعاون يجدي نفعاً ، أو يفتح باباً ، أو يهدي نسيماً ، أو يقيم عذرا ، أو يخفف أمرا ، أو يصرف نُكْرا ، أو يزيل عُسْرا ، أو ينفي خُسْرا . فقد طالت النجوى بهذه البلوى التي نليها بلوى ، فنكرتُها بطول الصحبة مَعْرفة ، ومَعْرِفتُها بشدة الأذى نكِرَة ، وباقيها زائد على ماضيها ، وثاويها ألذع من طاريها . وغالب ظني يا سيدي أنك بمساعدتي على هذا الشجو تؤثّر أثراً يَخفُّ به ما بنا ، ويَحطُّ عنَّا ما أثقلنا ، ويُبيِّض وجوهنا عند أحبّائنا ، ويكفينا شماتة رُقبائنا ، ويَهدينا إلى الجادة التي منها جُرنا[1] وعنها زلنا . فإذا أراك الله رأياً فيما سألتك فعرِّفنيه ، حتى ألبسَ لك شعار الشاكرين ، وأتلقاك بتحية المساعدين ، وأنشرَ فضلك بين الحاضرين والغائبين ، وأجلوَ عن عيني قذاها عند رؤيتك بالشِّمال وباليمين . وأنت تفعل ذلك ثباتاً على شاكلتك المحمودة ، وجرياً على عادتك المحبوبة ، وإيثاراً للسعي الذي تستثمر منه رضى الله أولاً ، ومسرة الإخوان ثانياً ، وشيوعة الثناء ثالثاً ، والمنافسة في الخير رابعاً ، والثبات على اكتساب المحامد خامساً .

---

١ – جار عن الجادة : تنكب الطريق المستقيم ، وقد تقرأ « حدنا » ؛ وقرئت في المطبوعة « جسرنا » وذلك خطأ لأنه مخالف لرسم المخطوطة .

اللهَ أسأل أن يزيدك من مواهبه [٧/أ] الضافية[1] ما تصير به فرداً ، ويوردك من شرائعه الصافية ما تزداد به رِياً[2] . هذا دعائي لك ، وثنائي عليك ، وظني بك ، ورجائي فيك ، وخَبَري عنك ، فاستثبتني عليه ، ودرّجْني قليلاً إليه ، وكن لي كبيراً أكن لك ظهيراً ، وزدني إفضالاً من فضلك أزدك إجلالاً من جلالك .

تالله : أما ترى هذا التهادي والتمايل في هذه المعاني التي تلقطها من ناحية العقل بعد انتشارها[3] على بساط الأُنْس ، دالّةً على صفيّات ودائع الصدور ؟ والله لو كان هذا كله هزْلاً لا جِدَّ معه ، أو لعباً لا قَصْدَ فيه ، أو لَغْواً لا تحصيل عنده ، لكان ينبغي أن تراه غنيمةً باردة ، وكنزاً مظفوراً به ، وباباً مفتوحاً إلى الرضى ، وطريقاً لاحباً إلى المنى ، ونعمة موافية على غير احتساب . فكيف وهو ينادي صارخاً بصحّة الولاء ، وشدّة الوفاء ، ومتابعة الدعاء ، ومواصلة الثناء ، ومجانبة الرياء ؟

أيها السيد : ما أصنعُ والقلب منفطر من شواهد حال غَلِقَ رهنُها منذ زمان ، ويُئِس من فكاكه في كل أوان ، وصار الطمعُ في ذلك محالاً أو كالمحال ، وجهلاً أو كالجهل ؟ وإنما أبثُّ في وقت بعد وقت بعضَ عوارض النفس عند الفيضِ الشديد ، والغيظِ المديد ، وحين يبلغ العجز آخرَه ،ويستغرق اليأسُ ظاهره وباطنه . فإنما أحاول بذلك البثِّ تخفيفاً ، فلا أزداد به إلا تثقيلا ، وكأن ذلك من خدائع الحال ، ومن تعذر المنال .

---

١ – الضافية : السابغة ؛ وفي المطبوعة « الصافية » وفيه تكرار ، وسيأتي ذكر « الصافية » مقترناً بالشريعة .

٢ – الري ينجم عن ورود الشريعة الصافية ، وفي المطبوعة « ربا » وهو على موافقته في الظاهر لرسم المخطوطة لا معنى له ؛ وعند التدقيق في المخطوطة يمكن الاهتداء الى القراءة الصحيحة .

٣ – قرن بين الانتشار واللقط مشبهاً المعاني بالدنانير ؛ وفي المطبوعة « نلفظها...بعد انتشارها » وذلك خطأ واضح .

اللهم : اعرُجْ بنا إلى جنابك الرَّيِّح ، وحَيِّنا بكلامك الطيب ، واستصلحنا لخدمتك ، واخلطنا بالملأ الأعلى عندك ، وارحم فقرنا في غنانا ، واحفظ غنانا في فقرنا ، ولَذِّذْنا بطاعتك كيفما كُنّا ، وحُلْ بيننا وبين كل ما يحول بيننا وبينك ، واجعلنا ممن إذا قال صدق ، وإذا عَمِل حقق ، وإذا سلك طرّق[1] ، وإذا جَمَع فَرّق [٧ / ب] وإذا أشار دَقّق، وإذا عبَّر رقّق، وإذا خطب شَقّق[2] ، وإذا سار أعنَق[3] ، وإذا ملك أعتق ، وإذا بحث أعمق . إنّك من تؤهل مَنْ تريد لِما تريد ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣ -

وَصل[4] كتابُك - وَصَلَك اللهُ بالخير وجعلك من أهله - تسألني فيه عن حالي ، وتستنطقني به عن ظاهري وباطني ، وعن سِرّي وعلانيتي ، وعن سكوني وحركتي ، وعن انتباهي ورَقْدَتي ، وعن قراري واضطرابي ، وعن يقيني وارتيابي ، وعن تقاعسي وانتصابي ، وعن عللي وأوصابي ، وفي الجملة عن جميع أموري وأسبابي ، وفهمته بالشرح والتفصيل على ما بي من بلائي وعذابي . فمن لي الآن بوقت يُنَفِّس حتى أهُذَّ عليك جُمْلَةً تستوعب عينك[5] ، وتفصيلاً يحول بَيْنَك وبَيْنَك ، وكناية[6] تُبَدِّد وَهْمك ، وتصريحاً يقيّد فهمك ، وبلاغة تملأ قلبك ، وعياً يستأسر لبك[7] ، واختصاراً لا

---

١ - طرق : مهد لنفسه طريقاً .

٢ - شقق : استرسل في الخطبة .

٣ - أعنق : سار العنق ، وهو نوع من السير سريع .

٤ - ورد معظم هذه الرسالة في ل (١٢/أ-١٦/ب) بعنوان «جواب مستخبر من الإشارات الالهية».

٥ - رل : تستوعبك .

٦ - هذا هو الصواب للمقابلة بين « الكناية » و « التصريح » ؛ وفي المطبوعة : وكتابة ، وهو مخالف للرسم في ر ؛ وفي ل : وكتابة .

٧ - وضع « العي » في مقابل « البلاغة » ؛ وفي المطبوعة « وغناء » وليس له معنى . وقد وردت « وعياً » واضحة في الأصلين .

تحصل منه على حرف ، وإسهاباً يغرفك غرفاً بعد غرف ، وواضحاً يصلك باليقين ، ومستعجماً يضلك عن الصراط المستقيم ؟

ولو أدركتُ هذا الوقت ، وأصبت هذه الغاية ، وكُنْتُ مُزَاحَ العلة ، أريحيَّ الهمّة ، طَلْقَ الوجه ، سَمْح الطباع ، مليّ النفس ، رخيَّ البال ، فصيح اللهجة ، حاضر الخاطر ، مَرْضِيَّ القول ، حَسَنَ الشارة ، خصيبَ الدارة ، لما استطعتُ بلوغَ أوائل حالي ، ولو ساعدَتني اللغاتُ على اختلافها ، واستجابت لي الخواطرُ على ائتلافها والتفافها ، لأن أدنى ما أنا ممنوٌّ به ، ومحظوط فيه ، ومراد به ، ومحمول عليه ، ومحلول إليه ، ومغموس فيه ، ومعكوس معه ، قولُ القائل :

فَقْرٌ كفقر الأنبياء وغُرْبَةٌ وصبابةٌ[1] ليس البلاءُ بواحدِ

وجواب مثلك عن مَسائلك المختلفة إنما يكون بصدْرٍ لا حَرَج فيه ، ولسانٍ لا لُكْنة به ، وهَمٍّ لم تمزقه الرزايا ، وسرٍّ لم تكتنفه البلايا ، وظاهرٍ لم تختطفه الخطايا [٨ / أ] وباطن لم ترتدفه الحظايا[2] . وعلى علاَّتي التي وصفتها ، وخلاَّتي التي رَصَفْتها[3] ، فإني أنبذُ إليك من جملة ما عناك [مني][4] ما يكون شرحاً[5] لبعض ما بلغك عني ، وأرجو أن يكون ذلك[6] في أثنائه إلى ما تريده عُرجةً ، ولي في بث أشجاني إليك به فُرْجة . فاستمع الآن — يرحمك الله — فقد حملتُ على نفسي لك[7] اعترافاً بفضلك ، وقضاءً لحقك ، وإيجابا لمسألتك ، وإيثاراً لطاعتك ، وامتثالاً لأمرك ، وانتداباً لمرادك : فأما حالي

---

١ — ر : وصابة ، والتصحيح عن ل .
٢ — الحظايا : جمع حظوة وهي السهم ؛ وهي كناية أيضاً عن عما أصاب باطنه من الآثام .
٣ — ل : نصفتها .
٤ — زيادة من ل .
٥ — ل : مخرجاً .
٦ — ل : ذلك اذ يكون .
٧ — ل : لك على نفسي .

فسيئة كيفما قلّبْتها ، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها ،والآخرةَ لم تَغْلِب عليَّ فأكونَ من العاملين لها ؛ وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما لأني في أحدهما متلطّخٌ تلطخاً لا يقْرَبني من أجله أحَد ، وفي الآخَرِ مُتَبَذّخٌ تبذّخاً لا أهتدي فيه إلى رَشَد ؛ وأمّا سِرّي وعلانيّتي فممقوتان بعين الحق ، لخلوّهما من علامات الصدق ، ودنوهما من عوائق الرق ؛ وأما سكوني وحركتي فآفتان محيطتان[1] بي ، لأني لا أجد[2] في أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعرَى في الآخَر[3] من مرارة الشكوى ؛ وأما انتباهي ورقدتي ، فما أفرّق بينهما إلا بالاسم الجاري على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرداة ؛ وأما قَراري واضطرابي فقد ارتهنني الاضطراب حتى لم يدع فيَّ فضلاً للقرار ، وغالبُ ظني أني قد غَلِقْتُ[4] به ، لأنه لا طَمَعَ لي في الفَكاك ، ولا انتظار عندي للانفكاك ؛ وأما يقيني وارتيابي ، فلي يقين ، ولكن[5] في درك الشقاء ؛ فمن يكون يقينه هكذا ، كيف يكون خبره عن الارتياب ؟ وأما تقاعسي وانتصابي ، فقد وضَحَ لك في عُرْض شهودي وغيابي ، ومنظوم اطنابي وإسهابي ؛ وأما عِلَلي وأوصابي، فقد أنبأت عنها (٦) في تضاعيف جوابي وكتابي[7] ؛ وأما أموري وأسبابي ، فمن أجلها طال خطابي وعتابي .

فحدثني الآن يا سيّدي : أين أنت فيما تسمع عما كنت عليه ، وأين أنا

---

١ – ل : محيطان .

٢ – ل : لأني أجد ، وهو سهو .

٣ – ر : الآخرة ؛ والتصويب عن ل .

٤ – ل : علقت .

٥ – ل : ولي .

٦ – ر : ابنت عنها .

٧ – ل : جواب كتابي .

فيما قلت لما آنا مدفوعٌ إليه ؟[٨ / ب] دَعْنا يا هذا عن هذا وهذا : إلى متى نتلاقى فنتهادى ، ونتراءى[١] فنتعادى ، ونتناجى فنتفادى ، وخُذْ بنا إلى باب الله الذي عليه وَقَفَت[٢] الهِمَم ، فالطريق إليه أَمَم ، وهو لمن يقصده عَلَم ، يتلقى بالنِّعَم ، ويَشْفِي من السَّقَم ، ويُغْنِي بعد العَدَم ، ويُلَذِّذ بعد الألم ؛ فإلى[٣] متى نعبد الصنم بعد الصنم ، كأننا حُمر أو نَعَم ؟ إلى متى نسيء ظننا به ، ولم نر خيراً إلا منه ؟ إلى متى نشكو[٤] إلى خلقه ، وليس لنا معاذٌ إلاّ إليه ؟ إلى متى نَتَشَرَّد عنه ، ولا قَوام لنا إلاّ به ؟ إلى متى نكْذِبُهُ عن أنفسنا ، وهو أعلم بنا منا ؟ إلى متى نعتصم بغيره ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ؟ إلى متى نثق بسواه ، وهو لنا تجاه ؟ إلى متى نختان[٥] أنفسنا ، كأنّا على رَشَد أو غبطة ؟ إلى متى نستحي من طُول ما لا نستحي ؟ إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا ؟ إلى متى ندّعي الصدق ، والكذبُ شعارنا ودثارنا ؟ إلى متى نتمادى في الغواية ، وقد فني العمر بليلنا ونهارنا ؟ إلى متى نتنافس بذكره ، وزنانيرنا[٦] في أوساطنا ؟ إلى متى نُخْلِد إلى الدنيا ، وقد دنا منها رحيلنا ؟ إلى متى نستظلّ بشجرةٍ قد تقلّص عنّا ظِلُّها ؟ إلى متى نبتلع السمومَ ونحن نظن أن الشفاء فيها ؟

اللهم : إنّا عليك نُقْبِل ، وإياك نسأل ، وإليك نسترسل ، وبك نتوسَّل ، ورضاكَ نبغي ، ورَحْمَتَكَ نرجو ، وعَفْوك نُؤَمِّل . لا تؤاخذْنا بتحريفنا

---

١ – ر : ونتهادى .
٢ – ل : وقفت عليه .
٣ – ل : وإلى .
٤ – ل : نشكوه .
٥ – ل : نحتار .
٦ – الزنانير : كانت علامة مميزة لأهل الذمة ؛ والمعنى أننا نتنافس بذكره ونحن نحمل شارة المنصرفين عنه؛ وقد شرحت في المطبوعة: الزنانير جمع زنار كناية عن الخضوع لله ، فتأمل .

في العمل ، وبتجزيفنا[1] في القول ، وسهّل علينا اللِّياذ بك ، وأفرِغ على قلوبنا محبتك ، واصطنعنا على عينك ، ولذّذنا بحلاوة[2] مناجاتك ، وأهّلنا لرفع حجابك ، وأنسنا خلقك حتى لا يجري على ألسنتنا ذكرهم بخير يكون شاغلاً عنك ، ولا بشرٍّ يكون مُبْعِداً عنك ، وعوِّد جباهنا السجودَ لك ، وقلوبنا الفكر فيك ، وأرواحنا الشوق إليك ، وجوارحنا القيامَ على طاعتك ، وأجِلْ أعيننا [٩/أ] في ملكوتك واكحُلْها بالاعتبار ، وألِّف أسرارنا بك واغمرها بالأنوار ، وقرِّبنا من سُرادِقات عِزّك ، حتى نسطع بروائح كرامتك ، وأنعم لنا بحروف ربوبيتك حتى نتخلّص لك ، وننسى ما دونك . إنك إذا شئتَ قرّبتَ وأدنيت ، وإذا شئتَ طردْتَ وأقصَيْتَ : لك المشيئة التي لا تُطاوَل بها ، والعزّة التي لا تُغالَب عليها ، والقدرة التي لا تجارَى فيها ، والحكمة التي لا يُبْلغ منتهاها . فَجُدْ علينا بك ، وأمّنّا منك ، وأوْصِلنا إليك ، وقدّسنا لك ، وأهّلنا في كل حال لما أنت أهله .

هذا ــ هداك الله ــ آخر جوابي [لك][3] عن كتابك الذي حرّكتَني فيه على مُباثّتك ؛ فإن سرّكَ هذا الجنس ، واعجبك هذا الأنْس ، فواصل ذلك مفيداً ، لأجري على عادتي [معك][4] مستفيداً . واعلم أن في النفس من هذا الحديث حياةَ القلوب ، ومطاوعةَ الغيوب ، ومباينةَ العُيوب ، ومطالبة السُّيُوب ، ولم يتمَّ ذلك للجبان الهَيُوب ، الجاهل بالطلوع والغروب ، العاجز عن السُّرَى والدُّؤُوب ، في آفاق العالم المحبوب .

أيها السامع : ليس كل من رَقَدَ حلَم بما يريد ، ولا كلُّ مَن مدّ يده نال ما يطلب ، ولا كلُّ من ادّعَى سُلِّم له دعواه ، ولا كلُّ من دعا أجيب ،

---

١ ــ ل : وبتخريفنا ، والتجزيف : إرسال القول جزافاً ؛ وفي المطبوعة « وبتجديفنا »؛وقراءة (ل) جيدة أيضاً .

٢ ــ ل : لحلاوة .

٣ ــ زيادة من ل .

٤ ــ زيادة من ل .

ولا كل من قَرع البـاب دَخَل ، ولا كلُّ من استَرَق السمعَ سلم[1] ، ولا كلُّ من استعفَى أُعفِي ، ولا كلُّ من قال بَـدَا لي تُرِك، ولا كلُّ من استَرحم رُحم ، ولا كلُّ من تَعَرَّض استُخْدِم[2] ، ولا كلُّ من وَصَلَ نودم[3] ، ولا كلُّ مَنْ بَعُدَ عُدِم ، ولا كلُّ من سَأَل حُرِم ، ولا كلُّ من أَلْحَفَ أُعْطِي ، ولا كلُّ من بكى أُرْضِي ، ولا كلُّ من خطب زُوِّج ، ولا كل من مَلَكَ تُوِّج ، ولا كلُّ من رَجا أدرك ، ولا كلُّ من مُنع خاب ، ولا كل من قدم فقد أُكْرِم ، ولا كلُّ من أُخِّر فقد أُهين ، ولا كلُّ من سَبَح غَرِق ، ولا كلُّ من خُوِّف فَرِق ، ولا كلُّ من أُومِن اطمأنَّ ، ولا كلُّ من دُلي[4] ارجحنَّ ، ولا كل مـن تَوسَّل قُبل ، ولا كل مـن التمسَ نُوِّل . في الغيب عجائب ، وفي العجائب أيضاً عجائب . كيف لا يكون هـذا ، والاستدراج [٩ / ب] قائم مـع اللحظات ، والتلبيس جارٍ مـع اللمحات ، والفَرَحات مطوية في التَّرَحات ، والتَّرَحات مبنية[5] على الفَرَحات ، والسَّحَرةُ[6] قيامٌ على أهل اليَقَظات والغَفَلات . فلا العلم باختلاف الأحوال نافـع ، ولا الجهل به ضار ، بل ربما ضرَّ العلم ، وربما نفـع الجهل ، وربما نيل بالخَبْط[7] ، وربما فات بالتأنّي ،

---

١ – أي سلم من رجوم يرمى بها ، أو سلم من العقوبة عامة لتسقطه للاسرار .

٢ – ل : استحرم .

٣ – كذلك هي قراءة ل ؛ واضطربت اللفظة في ر إذ كتبت أولا « نوم » ثم كتب فوقها استدراكاً حرف « د » مع ضمة قبلها لاحقة بالواو ؛ فقرأها محقق الكتاب « ود » وأثبتها كذلك .

٤ – لفظة « دلي » واضحة في ر ، وحذفت العبارة من ل ؛ وفي المطبوعة « ربي » » ؛ وارجحن : اهتز ؛ أي ليس كل ما دلي بحبل أو شبهه اهتز واضطرب .

٥ – ل : مبنيات ؛ قلت : ولعل اللفظة أن تقرأ « مثنية » في مقابل « مطوية » .

٦ – كذا وردت هذه اللفظة في الأصلين ؛ والمعنى – فيما أقدر – أن أهل اليقظات والغفلات سواء ، بعد إذ أضلهم السحرة ؛ والسحرة هنا كناية عن المموهين الذين يتلاعبون بقلوب الناس وعيونهم ويضلونهم عن الحقيقة .

٧ – الخبط : الضرب على غير أناة ، وهو مقابل للفظة « التأني » الواردة بعد ذلك ؛ وفي المطبوعة قراءة غريبة « وربما نيل بالحنط » . ؛ وما أثبته موافق لرسم المخطوطتين ، وفيه تقابل بين النيل والفوت ، والخبط والتأني .

وربما بَعُد الداني ، وربما قرب النائي . فليس لشيء[1] مما تراه عينك منهاج . ولا لذي لُبّ به سرور وابتهاج . وهذا كله لقدرة صادرة عن غيب مشيئة ، ولمشيئة نافذة[2] واردة على شهادة قدرة ، ولحكمة خافية في آفاق المملكة ، وأحكام جارية على أصناف الخليقة ، وأسرار مجهولة عند البحث والحقيقة : العقولُ في خَفيّاتها أسرى [مقيدة][3] ، والأحساسُ في جَليّاتها فوضى مبددة . والعقائد في التنقير عنها منحلّة ، والأقوالُ في وصف تشاكُلِها وتباينها مختلة . فلا جَرَمَ : لا سِرَّ إلا وهو متهم ، ولا قائِل إلا وهو متوهِّم[4] ، ولا سامع إلا وهو كظيم ، ولا عامل إلاّ وهو مُليم ، ولا قلب إلاّ وهو سقيم ، ولا لائم إلاّ وهوملوم ، ولا واجد إلاّ وهو عديم ، ولا غنيّ إلاّ وهو فقير ، ولا عظيم إلاّ وهو حقير ، ولا كثير إلاّ وهو قليل ، ولا صحيح إلاّ وهو عليل ، ولا قريب إلاّ وهو بعيد ، ولا هيِّن إلاّ وهو شديد ، ولا عالم إلاّ وهو جاهل ، ولا عاقل إلاّ وهو ذاهل ، ولا آمن إلاّ وهو واهل ، ولا ريّان إلاّ وهو ناهل ، ولا مَصْرور إلاّ وهو باهل[5] .

خَبَرٌ والله طريف ، وحديث والله عنيف ، الفكر فيه يورثُ الوَسْواسَ في الصدور ، والسكونُ عنه يصدُّ عن الجواز والعبور ، والسؤال عنه يُحمَل على التهمَة ، والجواب عنه يزيد في الحيرة . فهل رأيت قولاً كلما بانَ غَمُض؟ وهل رأيت عِرْقاً كلما سكَنَ نَبَض[6] ؟ وهل[7] رأيت ناراً كلما

١ – ل : شيء .
٢ – نافذة : سقطت من ل .
٣ – زيادة من ل .
٤ – ل : متوهم ... متهم ؛ وهي قراءة جيدة .
٥ – ل : مضرور ؛ والباهل الابل التي لا صرار عليها ، وعكسها المصرور ، وهي ما ربط ضرعها لئلا يرضعها الفصيل .
٦ – فهل رأيت ... نبض : تأخرت هاتان الجملتان في ل الى ما بعد قوله : كلما بلت جفت .
٧ – ل ر : فهل ، وهو من اضطراب ترتيب الجمل .

أطفئَت[1] اشتعلت ؟ وهل رأيت كبداً كلما بُلّت جفّت ؟ وهل رأيت سقَماً كلما عولج أعضل ؟ وهل رأيت بياناً [١٠/أ] كلما وضح[2] أشكل ؟ وهل رأيت مطلوباً كُلّما دَنَا بَعُد ؟ وهل رأيت صَدَاً كلما جُلِي زاد ؟ وهل رأيت نَشأً[3] كلما كُوِّن فَسَد ؟ وهل رأيت فَتْقاً كلما رُتق اتسع ؟ وهل رأيت مُهَجَّراً كلما استظَلّ أضحى؟[وهل رأيت مغفياً كلماانتبه نعس؟][4] وهل رأيت مريضاً كلما استَقَلّ نُكِس[5] ؟ وهل رأيت وضعاً كلما استقام عُكس ؟ وهل رأيت أمراً كلما استمر قَعس[6] ؟ هيهات :

غُـــرَّ امرؤٌ مَنّتْــــهُ نَفْـ ـسٌ أن تدوم لــه السلامَهْ

أيها الصديق بالسّمة ، المخلص بالدعوى : اسمع هذه البلابل فإنها والله مَحْرَجة لكل صدر ، وإن كان مشروحاً ، ومَطْرَدة لكل صبر ، وإن كان ممدوحاً . وإذا سمعتَ فتعجّب ، وإذا تعجبت فتعجّب بعد التعجب . فوَحَقِّ الحقِّ إن السر فيها لمكتوم ، وإن الغيب فيها لمعلوم ، وإن الظاهر فيها[7] لمفهوم ، وإن الباطن فيها لموهوم . هكذا وقع الخداع ، وعلى هــذا تحيُّر الطباع .

اللهمّ : نَوِّر قلوبنا حتى ندرك بها ما أوحشنا منا ، وآنسنا بنا ، وحَيِّرْنا فينا[8] ،

---

١ – ل : طفئت .

٢ – ل : اوضح .

٣ – ر : شيئاً .

٤ – ثابتة في ل وحدها .

٥ – استقل المريض : نهض وارتفع ، وهو كناية عن إبلاله ؛ ونكس : سقط وانقلب ، أي عاوده المرض بعد نقاهة .

٦ – قعس مثل تقاعس ؛ أي تأخر .

٧ – ر : منها .

٨ – ر : فيها .

وسلّطنا علينا . أما إيحاشنا منا فلعلمنا بنزولنا في ديار[1] مخالفتك ، وأما أنسُنا بنا فلغفلتنا عما فاتنا منك ، وأما حيرتنا فينا [فلجهلنا][2] بما[3] يراد بنا لك ، وأما تسلطنا علينا فلسعينا في هلاكنا باليد عند التناول ، واللسان عند القول ، والعَقد عند التفكر .

اللهم فَسَرِّحْنا من قيد هذه الحياة الكَدِرة ، ومن معاناة هذه الأحوال الوَضِرة ، إلى تلك الحياة التي مَن هبَّ عليه نسيمُها عاش وبَقي ، ومن فاته ذلك [النسيم][4] طاش وشَقِي ، يا ذا الجلال والإكرام .

– ٤ –

أحبائي على القُرْب بالتصافي ، وعلى البعد بالتوافي : جمع الله لكم قواصيَ المُنى ، وأنالكم بكرمه أفضلَ الغنى ، وخفف عليكم الاعتصام بأسباب الزُّلْفى ، ورفع عن أسراركم مناجاة الشكوى ، وأهبَّ عليكم نسيماً ناعماً من شَرَف المأوى [١٠/ب] ومَتّع أرواحكم بمناغاة المَوْلى ، وأوضح لكم غوامض النجوى ، وكتب أسماءكم وصفاتِكم في ديوان من سبقت له من الله الحُسْنى ، وأذلَّ لكم مصاعبَ الأمور ، وتولاكم في قوارع الدهور ، وزيَّنَ بكم عِراصَ أهل الحقائِق ، وكفاكم في السفر والحضر فواجىء البوائِق :

لكلٍّ نفسٍ مُنًى وشانٌ وأنتمُ مُنيتي وشاني

لأني إذا ذكرتكم ذكرت بكم ما أخلقَ جديدَه ، وإذا حننتُ إليكم حننت

---

١ – ل : دار .

٢ – زيادة من ل .

٣ – ر : فبما .

٤ – زيادة من ل .

حنيناً ما ترعرع وليدُه ، وإذا وَجَدْتُ بكم وجدت وَجْداً ما لانَ شديدُه ، وإذا هِمْتُ بكم همت هيماناً ما تناهى رديدُه ، وإذا وصفتكم وصفت وصفاً لا يُحْصَى عديده ، وإذا صافحتُ طيفكم صافحت طيفاً لا ينقضي نزوله وصعوده . فعليكم السلامُ من قلبٍ قريح ، وفؤاد جريح ، بلسان فصيح ، وضمير صحيح . فما أشد بكائي بَعْدَكم على بُعْدِكم ، وما أكثر تلفتي نحوكم ، وما أبلغ تذكري شجوكم :

مِنَ ايِّ نواحي الأرض أبغي وصالَكُمْ وأنتم ملوكٌ ما لمَقْصدكم نَحْوُ[1]

كتبت إليكم[2] يا أحبابَ قلبي ، ووُرَّادَ شِرْبي ، وطُلاَّبَ قُرْبي ، عن قلبٍ[3] يلتهبُ أسفاً عليكم ، وشوق يعصر الدموع إليكم ، وبالٍ منخزل[4] عند تمنِّي عطفكم ، وليلٍ يتناهَى[5] في مراعاة طيفكم ، ونهار متعب في توقُّع لُطفكم . فقولوا لي الآن :

كيف التلاقي والمزار بعيد ؟ أم كيف التواصل والرقباء أسود ؟ أم كيف العزاء والفؤاد عميد ؟ أم كيف الصبر والبلاء ممدود ؟ أم كيف التوّجه والطريق مسدود ؟ فسَقياً لعيش مَضَى نضيراً في ظلال صحبتكم ، ورَعْياً لزمان تَقَضَّى حميداً في مجالس عشرتكم : وما كان أحلى سَمَرَنا معكم ، وما كان أبهج أنْسَنا بقربكم ، وما كان أملح شمائلنا في خدمتكم ، وما كان أشهى دلالنا بحضرتكم ، وما كان أشجى نغمتنا بين لا ونعم في تمنعكم وإجابتكم ! نعم ،

---

١ – من أبيات كتب بها عبد الملك بن صالح إلى الرشيد معتذراً (انظر فوات الوفيات ٢ : ٣٠) وقد قال الرشيد حين قرأ هذه الأبيات : « والله إن كان قالها فقد أحسن ، وإن كان رواها فقد أحسن » .

٢ – ر : اليك ، وأثبت ما يناسب السياق .

٣ – ر : قرب ، وصوبته بحسب المعنى .

٤ – منخزل : منقطع ؛ وفي المطبوعة « متحرك » ، وهو وهم .

٥ – يتناهى : يسترسل ويبلغ غايته ؛ وفي المطبوعة « يتباهى » ولا معنى له .

وسَقْياً للرسائل التي كانت تجري بيننا وبينكم، نعم ورَعْياً [١١ / أ] للوسائل التي كانت تتردد عندنا وعندكم، والوشاة على خيبتها في الظَّفر بنا وبكم[١]، والعيونُ مُوَكَّلةٌ بخضوعنا وتيهكم، والأنفاسُ متصعِّدة بالأسى والتلهف من أجلنا ومن أجلكم، والأكُفُّ مبسوطة إلينا وإليكم، تلتمس فضلنا وتفضّلكم، والأحباب تتهادى بحديثنا وحديثكم: فمِنْ كاذبٍ قد صدق، ومِنْ صادق قد كذب، وكلٌّ ذلك يحلو بذكركم، ويُحتَمل لوجوهكم، ويُستزاد وإن كان لاذعاً لأنه منكم وبكم. مَن الذي يطمع في نعت ما سلف لنا ولكم؟ ومن يقدر على استيفاء تلك اللطائف التي جرت بيننا وبينكم؟ وكيف يُؤتى عليها؟ أم كيف يُسْلَك إلى غايتها، وقد كان في عُرضها ما تجافى عنه اللفظ، وتناءى دونه الوهم، وخفي عن كوامن الغيب؟ وإنما يتذكر أشياء بقيت رسومُها في النفس بآثار بقيت من بقايا الأنْس، ألَّفها القَلَم، ونَظَمها الكَلِم. فأما ما احتجب عن الظنون، واستَتَرَ عن العيون، وسبح في بحرٍ لا ساحلَ له بكان ويكون، فذاك شيء قد ضُربت دونه الأسداد، ووضعت عليه الحَفَظَة والأرصاد، ولهذا ترنم المترنم، قال:

سرُّ المساكينِ لا يبدو به أحدٌ ... هناك حَيرَةُ هَمَّام[٢] ونَقَّارِ

فيا أحبابي: ارحموني في أوصابي، ودبروا ما بي، فإني لما بي[٣]؛ وإن استوحشتم لتقصيري منّي، فاستأنسوا بما ألقيته عليكم عنّي. أنا ـ وحياتكم ـ إليكم ذو صبابة، لكني أشتمل من أجلكم على مهابة، فارعَوْا ذمام خدمتي لكم، وحافظوا على ما تحمّلتُ فيكم، فقد شربتُ العلقمَ في هواكم، وداريتُ العِدى تجملاً لكم، ولزمْتُ الصمتَ حتى نسيت الكلام، واعتزلت حتى

---

١ – هذه هي القراءة الصحيحة كما يمثلها رسم (ر)؛ وفي المطبوعة: بتأذيكم.

٢ – كذا في ر، ولعلها: نمام.

٣ – إنه لما به: يجود بنفسه؛ وفي المطبوعة: «فاني لمسابي» وهو خطأ جر إلى محاولة غير موفقة لتأويل المعنى.

قيل هو من الوحش ، وغَضَضْتُ حتى قيل من العميان . لو كنتُ مُدَّعياً فيما أقول ، لكان لي تَحَرُّمٌ بكم ، وكان نَوْلكم أن تتكرموا ؛ فكيف ولي شهود في محبتكم عُدول : ذَوْبُ جسم، وانتكاث بشاشة، وتصعد نَفَس [١١ / ب] وانهمال دمع ، وانتحال صبوة ، وخَفَقَان صدر ، وذِلّة نَفْس ، وطاعة أمر ، ومواربة حاسد ، ومُقاربة واشٍ ، ومصانعة رقيب ، واستحالة سِحْنة ، واحتمالُ محنة ، وتردد حشرجة ، وسهر ليل ، وتعب نهار ، ووحشة وَحْدة ، ودهشة فكرة ، وعطشة سَفْرة ، ورِقْبة حَضْرة ، وفَجْعة عِيان ، وروعة خــبر ؟

فهذه بيّناتي في محنتي ، وآياتي في فتنتي ، فأين أنتم من مجازاتي ومكافاتي حسب ما يليق بكم أو بي ؟ أسألُ الله مادةً من الصبر على محنتي فيكم ،وصُنْعاً من التوفيق على فتنتي بكم .

أيها القوم : انتسبتُ إليكم ، واعتمدت عليكم ، ونزلت في جواركم[١] ، وعبِقت بنسيمكم ، وألِفْتُ ترابَ أرضكم ، وشربت بكأس وُدكم ، وعشقت اسمكم ، ولهجت بذكركم ، وقلت أنتم وانتم ، وحُشْتُ القلوب إليكم ، وحشَدْتُ الجموع على بابكم ، وأذنت في الوصول إلى مجلسكم ، تعظيماً لقاصدي خدمتكم ، وحَجبت عنكم غَيْرةً على عظيم محلكم ، وسُئِلْتُ عنكم فمدحتكم ، واستُرْشدت إلى رَبْعكُمْ فأرْشَدْت إليكم ، وقيل لي : صِفْ لنا كرمهم ، فأبلغتُ عنكم ، واستُخبرت عن صنيعكم ، فأوضحت ذلك لهم بكم ، وقيل لِي : ماذا حَصَّلْتَ منذ انقطعتَ إليهم ؟ وماذا كسبتَ منذ تعلقتَ بذيلهم ؟ فرفعتُ عقيرتي وقلت : حَصَّلْتُ مكنونَ الغيب في الشّهادة ، وكَسبتُ عزيز الحال في مَرْجُوٍّ السعادة ، وَغنيتُ بهم غِنىً لا أخاف بعده الفقر : ظاهرِي الاستقلال بكل وارد ، وإن حَنَى الظهر :

---

١ – ر : جوارحكم .

وباطني الاستكمال بكلِ شارد ، وإن خفـِيَ على أهل العصر ؛ استنار صدري بمعرفته ، ونطق لساني بتوحيده ، وخفَّت أطرافي لخدمته ، والتطم ضميري بأمواج محبته ، واكتَنَفَ أطرافي بوادي إحسانه ولطفه : فما يسنح لي سانح إلا وفيه آية من آيات كرامته ، ولا [١٢/أ] يبرح بي بارح إلاّ وعليه علامة من علامات بِرِّه ورأفته ؛ إن قلتُ فهو مصحوب قلبي ، وإن أمسكت فهو ساكنُ سرّي ؛ إن قدحتُ فهو الذي يُوري ، وإن غرستُ فهو الذي يُنْمي ، وإن سألتُ فهو الذي يُغني ويعطي ، وإن سكتُّ فهو الذي يعيد ويبدي ، وإن شكرت فهو الذي يفيد ويَزيد ويُسدي . فهذا آخر ما قطعت عليه قولي ، على أني ما بلغت معشار ما عندي .

فيا أحبائي : ما في هذا القليل الذي نبّأتُ به عنكم ما يرعَى ذمامي عندكم ، ويخلطني بصغيركم وكبيركم ، ويكثِّر بي عددكم ، ويَعْطِفُ عليَّ أبيَّكم ، ويفيء إليَّ جافيكُمْ ، وَيبلُّ لَهاتي من سَجْلكم ، ويُقرئني عُنوانَ كتابكم ، ويمتع طَرْفي بالنظر إلى حيطان دوركم ، ويَطْرح في عيني ذَرور محبتكم ، ويكتب اسمي في عامّة حَشمكم إذ لم يكتب في خاصّة خَدَمكم ؟ بل[1] إن ظني بكم لجميل ، ولي على ذلك ضامن وكفيل ، والله على ما أقول وكيل .

يا أحبائي : إذا قرأتم كتابي فتفضلوا عليَّ بجوابي ، فلعلي أداوي بكتابكم ما بي[2] . فقد بقيتُ[3] بالعراء : أرتاع لطنين الذبابة ، وأهيم من حنين ذوي الصبابة ، فحالي في الأحوال عجيبة ، وهِمَّتي في الهمم غريبة ؛ ظاهري منتثر[4] لا أملك منه شيئاً ، وباطني مستعِر لا أجد له فيئاً ، أُجَرَّع الغُصَص

---

١ — كذا في ر ؛ ولعل الصواب : بلى .

٢ — ل : نفى ، وصوبته بحسب المعنى ؛ وفي المطبوعة : « ما بقي » .

٣ — بقيت : لعل هذا هو الصواب ؛ وفي المطبوعة : « نفست » واللفظة غير واضحة تماماً لاضطراب الناسخ في كتابتها .

٤ — في ر والمطبوعة : مبتر ؛ ولا يتلاءم وقوله « لا أملك منه شيئاً » .

كاظماً ، وأتفرَّد بالخلوة هائماً ، وإن حضرتُ جَمْعاً[1] فبلَبوس تجملٍ وتوّقٍ ، وإن غبتُ عنهم فببؤس تحمّلٍ وتبقٍّ : لا رائدَ لي إلا وهو يكذب[2] ، ولا ذائدَ[3] عنّي إلا وهو يعتب ، فأنا المتشرّقُ[4] المقرور ، والمتحرّق المصرور[5] ، والقاصد المحجوب ، والرائد المكذوب ، والراصد المكروب ، وهذا لأني :

أطعتُ مطـامعي فاستعبدتني ولو أنّي قنعتُ لكنتُ حرّاً[6]

فيا سادتي : بالذي خصكم بالفضل ، وأهّلكم للإفضال ، وجعلكم من أهل التفضّل ، إلاّ رفقتم لي ، وأهديتم إليّ رفقاً بي ؛ فقد طال عطشي ، واشتد دَهَشي ، من كَلْمٍ دام ، وسِرٍّ سامٍ ، وبيت طُفِئ مصباحه ، وباب ضاع مِفْتاحه ، وأمر تقاعس أوله وآخره ، وتَنَكَّر غائبه وحاضره . فإني أظن ظناً كاليقين أن من تَلُمون شَعَثَه ، وتجمعون بَدَدَه [١٢/ب] وتحفظون ضيعته ، انجَبَرَ بِكُمْ ، وهُدي إلى سواء الصراط بمكانكم ، وعَرَف ما له وعليه بإشفاقكم ، وَوَضَح عنده ما أشكل من حاله بمنّكم[7] ، لأنّ يـدَ الله معكم وليس فوق يد الله يد، وعينه راعيتكم وليس بعد عينه عين . فطوبى لمن فاز بحظوته عندكم ، وحصَل له ذكرٌ في صحيفتكم ، وجرى اسمُه عـلى أفواهكم ، وأهّله الله لخطرة من خطراتكم ، فذاك المغبوط الذي تشير إليه الأصابع ، وذاك الرشيد الذي تُحْنَى إليه الأضالع ، فكونوا عند ظني بكم

---

١ – ر والمطبوعة : جميعاً .

٢ – في المثل : الرائد لا يكذب أهله (جمهرة الامثال ١ : ٤٧٤) .

٣ – ر : ذايد ؛ وهو من الذود والدفاع والحماية ؛ وقرئت في المطبوعة « ذا يد » على الاضافة ، وهو خطأ ، اقتضى تأويل « عني » ليكون معناها « عندي » .

٤ – المتشرق : المتعرض للشمس ، ومع ذلك يحس بالقر ، وهذا مبني على التضاد .

٥ – المصرور الذي أصابه الصر ، وهو شدة البرد ؛ وفي ر : المضرور .

٦ – البيت لأبي العتاهية ، انظر ديوانه : ١٤٣ وقبله :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا

٧ – ر : بينكم .

وانفثوا من بركات ريقكم عليّ ، ونوّروني بفضل شعاع شمس معارفكم ، وبلّوا رمقي برشّة من ماء عين كرمكم ، وزيّنوا ما بدا منّي ، بما بدا منكم ، وما خفي عنّي بما خفي عنكم . وفي الجملة ، أدرجوا كُلّي في كلكم ، حتى تكونوني وأكونكم ، أعني : بالتصافي والمودة ، والإيجاب والمحافظة ، والحياء والمراقبة ، والإفضال والمساعفة . وهذه إشارات لا تدق عن أذهانكم ، ولا تفوت فطنكم ، فلهذا تلبّستُ بها استعطافاً لكم ، وتكثّرتُ بذكرها تقرّباً إليكم ، فلا تخيّبوا رجائي فيكم ، ولا تردّوا كفّي عن فضل ما وهب الله لكم ، ولا تسوّدوا وجهي عند الناظرين إليّ وإليكم ، وكونوا فوق الظن بكم ، فذاك أعلى لقدركم ، وأرفعُ لناظركم ، وأشيع للأحدوثة الحسنة عنكم ؛ والسلام عليكم .

اللهمّ : إني كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتهم بين عبادك ، واختصصتهم بلطائف هدايتك ، وجعلتهم أعلاماً لمن أراد أن يهتدي إلى بابك ، ويُنيخ راحلته بفنائك ، ليهبوا لي من فضل ما وهبتهم ، ويمنّوا عليّ من بعض ما مننتَ عليهم . وليس مسئلتي إياهم لليأس منك ، ولا لتهمة عرضت في نفسي لا تليق بك ، ولكن لأن مواجهتي إياك بالاقتراح ، مع إقامتي على مخالفتك ، افتضاح . وهم إذا أجابوني إلى طلبتي فبأدبك[1] وتوفيقك وبحسن صنعك ؛ فهم سفرائي إليك ، وشفعائي لديك ، لا لعطن ضاق ، ولا لأمر عاقَ ، ولكن لحياءٍ غلب ، وسرّ كرَبَ ، وأنت أطلع [١٣ / أ] على ما أقول ، لأن علمك مُحيطٌ بكل شيء ، وقدرتك سارية في كل شيء ، وحولك آت على كل شيء : لا يختلج ناظر إلا وعنك مبدأه ، ولا يعتلج خاطر إلا وإليك منتهاه ؛ جللتَ ولذلك تُعبد ، وعززتَ [ولذلك][2] تطلب ، فأنت الذي[3] لا بمكان دون مكان ، وأنت النازح لا

---

١ – كذا في ر : ولعل الأصوب : فبتأييدك .
٢ – زيادة ضرورية .
٣ – كذا في ر ، ولعلها : الداني .

في زمان قبل زمان ، يا مالك الأرواح في الأبدان ، ويا مُصَرّف الأسرار في الإعلان ، ويا مُدْرِج الأوان في الأوان ، ويا مبرز الألوان في الألوان ، ويا ملحق الأكوان بالأكوان ، ويا من هو كلَّ يوم هو في شان .

إلهنا : إياك نمجدُ ونسبِّح لأنّا عبيدك ، بك نقوم وإليك ننتسِب ، وبأياديك نعترف ، وبفضلك نعيش ، وعليك نتَولّه ، وفيك نتدلّه . إن بدت مِنّا حدّة فذاك لما نجده من قُوَّة فَيْضك ، وإن بان علينا كَلَّةٌ فذاك لما يصدر عنا من عجز الفطرة . خلقتنا ضعفاء لنبينَ عنك ، ثم قَوَّيتنا بمعرفتك لنبين بك ، ثم دعوتنا بأصناف لُغَتك لنكون في ذُراك في أهنأ عيش وأنعم بال . فلك الحمد بدءاً وعوداً – حمداً يتجدد على مَرِّ الزمان ، حمداً يتزيّد مع الأنفاس كَرَماً ومجداً ، فإن الحمد إذا خلَصَ من شوائبه ، والثناء إذا صفا من رواسبه ، كان الحامد محموداً ، والمُثْني مودوداً .

اللهم : فأهِّلنا ونجّنا من المهالك ، واصحَبنا في جميع المسالك إلى بحبوحة الممالك ، يا ذا الجلال والإكرام .

– ٥ –

أيُّ رَأيٍ لمكذوب ، أم أي عيشٍ لمكروب ، أم أي قرار لمرعوب ، أم أي اطّلاعٍ على الغيوب لمن هو محشوٌّ بالعيوب ؟ هيهات هيهات ! لن تَنَال المقاماتِ والدرجات إلا برفض الهَنات وما دون الهَنات . إنك إن ظننتَ أنك بالمخالفة والهوى تُدرك الغاية القصوى ، ظننتَ محالاً ، ومَن ظنَّ المحال وسكن إليه وقع في الوبال ووقع عليه . الأمر جِدٌّ ، والتشمير واجب ، والداعي مُعْذِر ، والطريق نَهْج ، والعلامة ظاهرة ، والعلة مُزاحة ، والاستطاعة حاضرة ، والنعمة متتابعة ، والإحسان [١٣/ ب] غامِر ، والبشير صادق ، والنذير ناطق ، والعذر زائل ، واللوم حاصل .

فهل بقي بعد هذه الفواتح ، التي عَمَّت الخلق بالصنع والرفق ، ما يكون حجةً أو شُبْهة لأحد في تَرْك طلب العتق من الرق ؟ وهل يجوز لك — أيها العاكف على الجهالة — أن تحتجَّ بما لا حجّةَ لك فيه ولا مقالة؟ يدعوك اللهُ إلى حظك : تارةً بظاهر تنزيله ، وتارة بباطن تأويله ، وتارة على لسان رسوله ، وتارة بخافي دليله ، وتارة بواضح سبيله ، وأنت مُعْرِضٌ كأنك لا تسمعُ ولا تعقل . أما تعلمُ أنه ما وهب لك السمعَ والبصر إلاَّ لتعي وتعتبر ، وإلا لتسألَ وتستخبر ، وإلا لتعلم ما عليك فتشمرّ ، وما لَكَ فتستبشر ؟ أما تعلم أنه ما نظمك هذا النَّظْم العجيب ، ولا أودعك هذا السرَّ الغريب ، إلاّ لأمرٍ بعيدٍ قريب : بعيد إن تصاممت عنه ، قريبٍ إن سارعتَ إليه ؟ يعاتبك فلا تُعْتَب ، ويدعوك فلا تجيب ،ويُنعم عليك فلا تشكر ، ويبتليك فلا تصبر ، ويُحْضِرُك قدرتَه فلا تبصر ، ثم تولّي وتستكبر ، وتعتقد أنك مستقل منتصر ! هذا والله الجهلُ الغالب عليك ، والشقاء المحيط بك ، والشماتة الحاضرة لك . يُقرّبك فتبعد ، ويتألّفك فتَشْرُد ، ويلطف بك فتطمح ، ويقوّمك فتجنح . فيا ويلك : أي بلاء أنت على نفسك ، وأي خاسرٍ أنت في سعيك ! تبغي رضاء المخلوق ، وتتهاون برضاء الخالق ، وما كان المخلوقُ أنصحَ لك ، وأذبَّ عنك ، وأقوم بمصلحتك ، وأقدرَ على الدفع دونك ، وأهْدى إلى مُرادك ، وأوفى في عاقبة أمرك . هذا — والله — الغرُور ، وآخر هذا الغُرور الويل والثبور .

انتبه — عافاك الله — من هذه الرقدة التي قد استغرقتك بالأحلام ، واعترف بحق الله عليك في كل مقال ومقام ، واتخذ جُنَّةً لنفسك يومَ القيامة إلى الخصام ، إن[1] كنت تؤمن بالله على الحقيقة والتمام . زهدّوك في الدنيا ورغبتَ فيها، ورَغّبوك في الآخرة فزهدت عنها [١٤ / أ] وكرروا عليك

١ — ر : فان .

النصيحة في الحالين، فأعرضتَ عنها، وردّدوا إليك [الوسيلة][1] فنافقتَ فيها[2]. فيا مُؤْثِرَ الخلاف على الوفاق، ويا غائصاً في بحر النفاق والشقاق، ويا من ليس له في الآخرة مِنْ خَلاق: كيف يكون الشقي إلا مثلك، وكيف يكون المرحوم[3] إلا من سلك طريقك؟ أما ترى بشائرَ الحقِّ كيف تَرَدَّدُ بين أُذُنك وقلبك؟ أما تسمع زواجرَ الحق كيف تتكرر على سمعك ولُبِّك؟ أما ترى مواهبه كيف تنسكب على قرنك إلى قدمك؟ أما ترى قدرته كيف تنفذ فيك؟ أما ترى حكمته كيف تبدو منك؟ أما ترى داعيه كيف يناديك؟ أما ترى رسوله كيف يناجيك؟ أما ترى كيف أبرزك من العدم، وحفَّك بالنِّعَمِ فالنعم، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، وقدَّمك فيمن قَدَّم، وعظَّمك فيمن عظَّم. وسألك أن تتقدم فلم تتأهبْ لأن تَقَدَّم، وأمهلك لأن تفكّرَ وتشاور وتستظهر فلم تتبين ذلك ولم تفهم؟ فقد آن لك الآن أن تنقطع حسرةً على حظوظٍ فاتتك من الله، وحَسُنَ بك أن تلطم خدَّك حزناً على أحوالٍ مَن نالها سَعِدَ بتوفيق الله. وجب عليك أن تبكي دماً على ما صنعتَ بنفسك في إضاعة حق الله: كَذَبَتْكَ نفسُك فصدقتها، وعَرَضَتْ لك الآياتُ والنُذُر فصَدفت عنها، وذكّرتك الأسقامُ والعلل فتناسيتها، وحدّثك الليل والنهار فلم تُصْغِ إليهما، وأقبلتَ على لذاتك الخسيسة فتحرقت فيها، واستكبرتَ بها، وتمردت على الله الذي دعاك إلى تركها ليعوّضك خيراً منها.

اللهم: إنّا ندعو خلقك إلى طاعتك[4] فلا تؤاخذنا بذلك، فما إرادتنا في ذلك إلا أن نحبّبَ مَنَّكَ إليهم، وننشرَ آلاءك عليهم، ونعرّفهم ما سبق من

---

١ – إضافة لا بد منها أو مما هو بمعناها.

٢ – ر: منها.

٣ – وكيف يكون المرجوم: كررها في ر مرتين، وجاءت «المرجوم» مرة بالمعجمة ومرة بالمهملة.

٤ – كرر الناسخ في ر بعد هذا سهواً الجملة الاخيرة من الفقرة السابقة وهي: «الذي دعاك إلى تركها ليعوضك خيراً منها»، وقد أثبتها ناشر الاشارات كذلك، وحقها الحذف.

رِفْدك وفضلك إلى صغيرهم وكبيرهم . فاجبُرْ ما نقص من عملنا في مَرْضاتك بأفضل من اجتهادنا في دعائنا إياهم إليك [١٤/ب] ودلالتنا لهم إلى بَابك ، من غير جدوى نلتمسها منهم على ذلك .

اللهم إنَّا نسألك أن تَأجُرَنا على هذا الحديث ، فإن لم تأجرنا عليه فلا تؤاخذنا به . فوحقّك ما نقصدُ بما نقول واصفين لك ، وبما نعيد ونبدي حائشين لهم إليك ، إلا لينزعَ[1] مُذْنب ، ويُقْلعَ مُصِرّ ، ويستبين ضالّ ، ويتقوَّمَ زائغ ، ويعتدلَ رَائِغ ، ويهتدي تائِه ، ويلين قاسٍ ، ويتذكر ناسٍ ، ويتواضع مستكبر ، وينتبه نائم ، ويصحُو مُنْتَشٍ ، ويصفو سِرّ ، ويطيب قول ، ويطهُرَ عملٍ ، ويَقْصُر أمل ، ويتجدد شَمْل[2] ، وينفع عدل . فالويل لمن ذكرك لخلقك خادعاً بك ، والويل لمن دعا[3] إليك شارداً عنك .

اللهم : أنت حَبَّبْتَ إلينا هذه السيرة ، وأجريتنا على هذه الوتيرة ، فتقبَّلْ عفونا في العمل ، وزِدْنا من فضلك بما يأتي على الأمل ، يا خير من دُعِي ، وأكرم مَنْ سُئِل .

أيها [الكائن][4] المبتَدع بالقدرة الإلهية ، والخَلْقُ المصطنَع بالمشيئة الربانية ، والإنسان المحفوف بالنعمة الملكية : تأملْ مواقعَ آياته فيك ، واستنطق شواهدَ آثاره عليك ، وتصفّح مثاني أياديه عندك ، وانظر بأيّ فضلٍ

١ - لينزع : ليرتدع ويقلع ؛ وفي المطبوعة : « ليسرع » .

٢ - لفظة « شمل » غير واضحة تماماً في الأصل ، اذ تحتها علامة (س) مهملة مع وجود نقط الشين ، فاذا صحت كذلك وجب أن تكون القراءة « ويتحد شمل » وإلا فهي : « ويتجدد سمل » .

٣ - ر : دعاك .

٤ - زيادة أضيفت لتمام التكافؤ بين العبارات .

خصّك ، ومن أيّ حالٍ خلّصك ، وإلى أي درجة رقّاك ، وبأي زينة[1] حلاّك ، وإلى أي كنفٍ[2] آواك ، وبأي سرّ ناجاك ، وبأيّ غيبٍ ناغاك ، ومن أيّ شرّ وَقاك ، ولأي غايةٍ بقّاك ، وبأي تاج توّجك ، وإلى أي حظٍّ هيجك ، وبأيّ ملك قلّدك ، وأيَّ مشرب صفّى[3] لك ، وبأي لطف حاشك ، وبأي شيءٍ سكّن[4] جاشك ، وبأي صُنْعٍ أزال استيحاشك ، ومن أيّ[5] صَرْعَةٍ انتاشك ، ولأي أمر أعاشك :

خصّك بفضلٍ ما اهتديتَ إلى طلبه بتحكمك ، وخلّصك من حالٍ ما عرفتها بتوهمك ، ورقّاك إلى درجة ما خطَرَتْ قطُّ ببالك ، وحلاّك بزينةٍ ما حلمتْ بها نفسُك ، وآواك إلى كنفٍ[6] اطمأنّ به قلبك ، وناجاك بسِرٍّ به تَثْبُتُ قدمُك ، وناغاك بغيبٍ به تضاعفَ طربُك ، ووقاك من شر به تمّ أمرك [١٥ / أ] وبقّاك لغاية بها قرّت عينك ، وتوجّك بتاج به أشارت الأصابع إليك ، وهيجك إلى حظّ[7] هو غاية أمانيك ، وقلّدك مُلْكاً هو نهاية آمالك ، وصَفّى لك مشرباً متى كرعت منه لم تظمأ بعده ، وحاشك بلطف هو الذي جعلك مغبوطاً في حالك ، وسكّن[8] جأشك بشيء هو الذي أنالك مرادك ، وأزال استيحاشك بصنع به أدركت كل آمالك .

---

١ – ر : رتبة ، وقد وردت بعد قليل كما أثبتها ، وهي أصوب .
٢ – ر : كهف ، وسترد بعد قليل : « كنف » .
٣ – ر : صفا ، وهي من طبيعة الاملاء عموماً في المخطوطة ر ، وسترد « صفى » بالمقصورة .
٤ – قد تقرأ في المخطوطة « سكر » كما هي في المطبوعة ، ولكن لا معنى لها مهما ينتحل المرء ضروب التأويل .
٥ – ر : وبأي .
٦ – زاد بعدها لفظة « ما » .
٧ – ر : حظك .
٨ – ر : وسكر .

فحدثني الآن واصدُق : هل في المنعِمين مَن ذا جُودُه ؟ وهل في المحسنين مَنْ ذا تفضّله ؟ وهل في المشفقين من ذا رِفقه ؟ وهل في الكرماء من ذا عطاؤه ؟ وهل في المحيّين[1] من ذا نافلتّه ؟ وهل في القادرين من ذا اقتداره ؟ وهل في الناظرين مَنْ ذا اختباره[2] ؟ وهل في الماضين والغابرين من ذا إيراده وإصداره ؟ ولا ، وحقّ الحق الذي يلهج به الخلق، ما يقدر على هذه العجائب إلا هو ، ولا يجود بهذه المواهب إلا هو ، ولا يأتي بهذه الغرائب إلا هو : جلّ معبوداً ومقصوداً، وعزّ مطلوباً وموجوداً ؛ إن كَنَيْتَ عنه سبق التصريح به ، وإن صرحتَ به غلبت الكناية عليه ، وإن عبّرت عن صفاته كدرت العبارة ، وإن أشرتَ إلى ذاته اضمحلت الإشارة . فالزم – هداك الله – حَدَّك في العبودية ، واستعصم في نفسك من آفات البشرية ، وتبرّأ من كل ما فضحك بين البرية ، ولن[3] تبرأ حتى تطهرَ من كلّ خطيّة ، ولن تَطْهرَ إلاّ بيدٍ من عنده قوية .

يا هذا : لا مُسْتَقَلّ لك إلا بالله ، ولا عَوْدَ لك إلا إلى الله ، ولا توكُّلَ لك إلا على الله ، ولا خيرَ لك إلا من الله ، ولا نجاةَ لك إلا بالله ، ولا مُنعِمَ عليك إلا الله ، ولا بُدَّ لك على كل حال من الله ﴿فاقضِ ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ (طه : ٧٢) وهي أيام معدودة ، وأنفاس محدودة : إن التفتّ إلى نصيبك من الله أقبلَ اللهُ عليك ، وإن حاسبتَ نفسك لله أغضى الله عنك ، وإن وهبتَ نفسك لله حفظها الله لك ، وإن تواضعت لله رفع الله قدرك ، وإن جَنَحْتَ [١٥ / ب] للسّلم تقبّلَ الله منك ، وإن لُذْتَ بالله عطف الله عليك، وإن شكوتَ ما بك إلى الله سمع شكواك، وإن ادّعيته صادقاً أو كاذباً لم يفضحك في دعواك . هو ألطف بك منك

---

١ – كذا ولعلها « المحسنين » مكررة .

٢ – لعل الأصوب أن يقال : « اعتباره » ، وفي ر : احتباره – بحاء مهملة .

٣ – ر : ولم .

بنفسك ، وهو أصدق لك منك[1] لنفسك ، وهو أرأفُ بك منك بنفسك . هو الذي دَلّك على خطأك[2] ثم عاتبك على تهاونك في تحصيلك ؛ هو الذي أرادك قبل أن تريده ؛ هو الذي أجابك قبل أن تدعوه ؛ هو الذي نظر لك قبل أن تسأله .

أيحسن بك — بعد هذه اللطائف السابقة . وبعد هذه النعم السابغة . وبعد هذه الأيادي المتتابعة — أن يطّلع مِنْ سرك على سوء ظنّ به . أو على إيثار هوى عليه ، أو على تقصيرٍ في خدمته ، أو على استهانة[3] بنعمته ، أو على مخالفته ؟ لا وحقّ الفتوة ، فإنها شعار الكرام .

يا هذا : إنك لن تقف على حدود هذه المرامي . وعلى عواقب هذه الأسامي ، إلا بعد أن تَخْلع نَفْسَكَ من نفسك ، كما تخلع قميصَك من جلدك . وكما تخلع جِلْدك من لحمك ، وكما تخلع لحمك من عظمك . وإنما قلتُ هذا لأن المراد عزيز ، والمرامَ بعيد ، والفهم قاصر ، والهوى متناصر ، والقوة المسعدة غائرة ، والطبيعة الحاضرة خائرة[4] ، والشهوة بين الإنسان وبين سعادته حائرة[5] وبضاعته في طلب الربح بائرة . فإن لم تكسب هيئةً لنفسك غير هذا الذي ورثته بمزاجك ، ونشأت عنه بضروب حركتك واختلاجك ، لم تظفر بما يكون سبباً لسرورك وابتهاجك . وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك ، وأردت بها النجوع فيك والهجوع منك ، وأنْ تُقْبِل على نفسك الشريفة بإدبارك عن نفسك ، أعني : أن تُقبل على نفسك الشريفة الفاضلة

---

١ — اضاف الناسخ بعد هذا في ر « عليك » وكتب فوقها « ز » اي زائدة .

٢ — ر : : خطا .

٣ — صورة الهاء لاحقة بالعين حتى ليمكن أن تقرأ « استعانة » ولكنها مخلة بالمعنى .

٤ — ر : حائرة .

٥ — ر : حارية

المقتبَسة من نور عقلك ، الحائلة بينك وبين جحيم طبعك[1] ؛ وأعني بإدبارك : عن نفسك الأمّارة بالسوء ، الوثّابة بالعتوّ ، الطارحة لك بيد العدو . فافطَنْ لهذه العويصة التي هي إقبالك [١٦ /أ] على نفسك وإدبارك عن[2] نفسك ؛ فإن ظاهرَ هذا القول يحدث تناقضاً ويورث صدوداً ، وباطنه يحدث اتفاقاً ويورث شهوداً .

اللهم : إنّا قد تقَلْقَلْنا في نَصَبنا حياءً من التعذير في قضاء حقك ، واضطربنا في أحوالنا لنكُولنا عن حيازة نصيبنا منك في طلب مَرْضاتك . وإحساسنا[3] بهذا القدر قد أوقد على قلوبنا جمراتِ الحَسْرة وحَسَرات الفُرْقة ، فلا جرَم نغص العيش[4] في هذا البلد الوبيء ، وفي هذا المكان المُقِضّ ، بين هذا السواد المظلم ، على هذا البساط الشائك . وبقدر تنغص[5] العيش طاب تجرُّع الحِمام مع التوجه إليك ، ونيل الحظوة منك . فقرِّب اللهم ذلك على أسهل وجه ، وأقرب حين ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٦ -

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ (ابراهيم : ٤٥) .

يا هذا : أما تسمع هذا الخطاب بحضور بالٍ ، ويقظة فؤاد ، وفكر ظاهر ، واعتبار حاضر ؟ أما تجدُ به ما يجده أهلُ البصائر من الازدجار ؟ أما

---

١ - ر : طلعك .

٢ - ر : على .

٣ - ر : واحساساً .

٤ - ر : العشق ، وقد صححها فيما بعد عندما كررها .

٥ - ر : بغض ، والتصويب حفظاً للتقابل ؛ لقوله قبل قليل : « فلا جرم نغص العيش » .

تستيقنُ به الارتحالَ عن هذه الدار ؟ أما تعلم أنك متقلّبٌ بين هذه الأوزار[1] التي إن لم تسقطها بالتوبة عنك صِرْتَ حَطَبَ أهلِ النار ؟ بلى ، والله إنك لتسمع هذا الخطاب وغيره من بدائع ما في الكتاب ، ولكنك بدنسك من الذنوب ، واحتقابك للعيوب ، محجوب عن كلّ غيبٍ في الغيوب ، تسمعُ الحق بأُذنٍ مجّاجة ، وتعيه بقلب متخرق ، وتتدبّره بعقل سادر ، وتقرأه بلسان ألكنٍ .

والعَجَب أنك أيها العالِم الفقيه ، والأديب النحويّ ، تتكلم في إعرابه[2] وغريبه ، وتأويله وتنزيله ، وقصته وشأنه ، وكيف ورد ، وبأيّ شيءٍ تعلّق ، وكيف حكمه فيما خَصّ وعمّ ، ودلّ [١٦ / ب] وشمل ، وكيف وجهه[3] ، وكيف ظاهره وباطنه ، ومشتَمَله ورمزُهُ ، وماذا أوله وآخره ، وأين صدره وعَجزُهُ ، وكنايته وإفصاحه ، وكيف حلالُه وحرامُه ، وبلاغته ونظامه ، وغايته[4] ، ودرجته ومقامه ، ومن قرأ بحرف كذا وبحرف كذا ، ثم لا تجد في شيء مما ذكرتك به ووصفتك فيه ذرّةً تدلُّ على صفائك في حالك ، وإدراكك ما لَكَ ، بل لا تعرف حلاوة حرف منها ، ولا تزال موجوداً فيما دعيت إليه من أوساطها ونواحيها ؛ فعلمك كله لَفْظٌ ، وروايتك كلها حفظ ، وعملك كله رفض ، وتبرّمك كله نقض ، ودعواك كلها وقاحة ، وخُلقك كله وَتَاحة[5] ، وسِرّك كله خبيث ، وسيرك في لباطل حثيث ، وجَهْرُك نفاق ، وباطنك شقاق ، وذكرك حيلة ، وسكوتك غِيلة ، ومعاملتك اختلاس ، وأمانيك أدران وأدناس ، ووعظك خديعة ،

---

١ – ر : الازورار .

٢ – الضمير يعود إلى « الكتاب » في الفقرة السابقة .

٣ – لعل هنا كلمة ناقصة مثل « ولبه » .

٤ – لعل هنا أيضاً كلمة ناقصة مثل « ومرامه » .

٥ – زجل وتح – بكسر التاء – خسيس ؛ وقد وتح – بالضم – يوتح وتاحة .

واتعاظك ريح ، وبعضك غثاء ، وكُلك هباء ، وعبادتك رياء ، وحضورك غيبة ، وآخر أمرك خَيبة ، كأنه ليس لك إلى الله أوبة ، لأنك بنيت أمرك كله على المكر والغيلة ، وعلى الغش والمكيدة ، وعلى الهوى والمطمعة ، وعلى الخساسة والنجاسة ، وعلى الجهالة والنذالة . وعلى طلب العاجلة دون الآجلة . فلا جَرَمَ بارَ سَعْيك في حياتك ، التي لا تعود عليك ، وانبَتَر أملك في كَدْحك بما لا ثمرة له[1] عندك . فما أشأم ناصيتك على نفسك ، وما أقلَّ رحمتك لروحك ، وما أسخاك بحياتك في كل ما يَضُرّك ، وما أطوعك لشيطانك ، وما أطوحك في غَيِّك وعُدْوانك ! إن عدوّ الله لا يرضى منك إلا بالبعد عن باب الله ، وإلا بالخزي والهوان من ثواب الله ، وإلا بالمقت والخُسران عند ملائكة الله ، وإلا بسواد الوجه عند أولياء الله .

يا هذا : لو علمت ما قد نزل بك ، وما صُبَّ على هامتك ، وما أحاط بك من شقائك ، لملأت الدنيـــا صُراخاً على نفسك ، وسألت النّواحين أن يسعدوك[2] بالبكاء على مافاتك . أيُّ مصيبة [١٧ / أ] أعظم من مصيبتك ، وأيُّ بلاء أعظم مما قد استولى عليك ؟ قلبٌ لا يهبُّ فيه نسيم الوَجْد ، وفكر لا ينتهي إلى تمييز الباطل من الحق ، وعينٌ لا تترقرق بالدمع على الخدّ ، ورأيٌ لا يصحُّ في الوقوف عند الحد ، ونَفْسٌ لا تبالي بالهجران والصدّ ، ونصيحة لا تُقبَلُ على ما فيها من الخير والرُّشد ، وصديق لا يُشكى إليه من شيء من هذا العناء والكدّ ، وصاحبٌ لا يشاوَرُ فيما أشكل من هذه الحال في القبول والرد .

يا هذا : فُتِنْتَ بهذه الزينة الحائلة ، وذهبت مع هذه العاجلة الزائلة ، فلا نُجوعَ لقول فيك ، ولا أثرَ لفلاحٍ منك . فاسكُبِ الآنَ دموعَك على هذه

---

١ – ر : لك .

٢ – يسعدوك : يسعفوك ويعينوك .

الحال التي قد حَصّلْتَ عليها ، وشقّ عليك النزوعُ عنها ، فإن الدموعَ المنحدرة على هذه الخدود النّضِرة شفاءٌ للأكباد المحترقة بالندامة والأسف . ألا ترى كيف يقول الأوّل :

لعلّ انحدارَ الدّمْعِ يُعقبُ راحةً مِن الوَجْدِ أو يَشْفِي نَجيّ البلابلِ[1]

سار والله الرّكْبُ المُخبِون وتركوك ، ونجا والله المُخِفّون ولم يَلْوُوا عليك ، وحَمِد المُدْلِجون السرى[2] وبقيتَ تَعَضُّ أناملَكَ من الغيظ والأسى .

يا هذا : قد كان القوم أناخوا عندك وسألوك الرحيلَ معهم ، وبَذَلوا لك المعونة جُهْدَهم ، وقدّموا لك راحلتهم ، وجذبوا بضبعك طاقتهم ، ووعدوك أن يبلّغوك غايتهم ، ورفقوا بك بجميع[3] ما كان عندهم ، ثم خوّفوك الوحشةَ بعدهم ، والندمَ على ما يفوتك منهم ، فأبيتَ وتوانيت ، وجمحتَ وطَغَيْتَ ، وتعدّيت وبغيت ، وتفردت برأيك ، وظننت ظنوناً كلها عليك . فلما حقّت الحقيقة ، وجاءت المصدوقة ، أخذَتْ تلوكُ لسانَك بالويل ، وتَحُكُّ عينك بالإصبع ، وتقول ﴿يا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرّطْتُ في جَنْبِ الله﴾ (الزمر : ٥٦) .

هيهات ، هيهات : والله لتصيرنّ الحسرةُ على [١٧ / ب] صدرك جَمرةً من النار ، تتوقد بالليل والنهار ، إلاّ أن يقضي الله فيك بما أنت أهله ، فإليه المصير .

---

١ – البيت لذي الرمة (ديوانه : ٥٧٧) .

٢ – فيه معارضة للمثل : «عند الصباح يحمد القوم السرى» : لأن الأصل أن المدلجين يكابدون مشقة الادلاج ، فهم لا يحمدون السرى ، إلا اذا أصبحوا وأراحوا .

٣ – ر : وبجميع .

يا هذا :

هَوِّنْ عليك وكُنْ بربك واثقاً ... فأخو التوكل شأنُه التهويـــنُ
طَرَحَ الأذى عن نفسه في رزقه ... لمّا تيَقّنَ أنـــه مضمون

يا هذا : الحقُّ أحقُّ أن يتّبع : خيرُ الأدوية ما نجع ؛ خيرُ الكلام ما نفع ؛ خير الإخوان من رَدَع .

يا هذا : كيف أصفُ لك احتراقك في حالك ، وتقلبك في صروف زمانك، وخمولك بين خُلَطائك ، وكسادك عنـد العارفين بك ، وازدراء الصغير والكبير لك ، وتقزّز الرفيع والوضيع منك[1] ، وطرفهم المخفوض لك ، وخيبتك منهم اذا طمعتَ فيهم ، وانقلابك باليأس عنهم . وأنا في أشباه ذلك ونظائره ، بل في دَواهٍ تزيد عليه وتُوفي ، ولو تَرجمتُ عنها بكلمة عوجاء أو رمزة هوجاء ، لضاقَ بي الثّقَلان ، والتقى عليَّ الخافقان ؛ فلا تكونن — عافاك الله — الذي وصفه الأوّل حيث قال في[2] كلمة له :

أطعتُ مطامعي فاستعبدتـــني ... ولو أني قنعتُ لكنت حرّاً[3]

وما أحسن ما قال الآخر :

حتى متى يسترقُّـني الطمعُ ... وليس لي في الكفاف مُتّسع
ما أوسعَ الصبرَ والقناعـةَ للــ ... ـناس جميعاً لو انهم سمعوا
أمــا المنــايا فغـيرُ غـــافلةٍ ... لكلّ حيٍّ من كأسها جُرَعُ

وإنما وَقَفْتُك على هذا السرّ لأنّ جميع ما يتشكّاه النـــاس يرجع إلى الطمع والضّرَع .

اللهم : إنا نسألك أن تقطع مطامعنا عن عبادك بالثقة بموعودك . وتكفَّ

---

١ – ر : لك .

٢ – ر : له .

٣ – مر هذا البيت قبل (ص : ٣٠) .

استشرافنا لخلقك بالرضى لمقدورك ، وتُضَرِّمَ البُرَحاء[1] في شوقنا إلى ما قِبَلك ، وتجعلنا من خاصتك ، وتأذنَ لنا في وصفك ووصف ما ظهر بإرادتك ، وتحولَ بيننا وبين الالتفاتِ إلى ما سواك بالإقبال على ما يُزْلِفنا عندك .

[١٨ / أ] يا هـذا : لو ذُقْتَ حلاوة عيشك مع ربك ، لعلمتَ أن كل ما عداها باطل ، ولو أشرفت على النّعيم الذي أعده لخدَمه لأيقنت أن كل شيء بعده زائل ، ولو علمتَ[2] إلى ما تنتسب لذهبتَ [في][3] الفخر كلَّ مذهب .

بالله أما تراني كيف أتراءى لك عياناً ، وكيف أتوارى عنك خبراً ؟ فلا عياني يخبرك عنّي ، ولا خبري يصدقك منّي . خَفِيتُ في بُدوّي لأني متقلّب في حالي ، وبدوت في خفائي لأني منقلب إلى أمرٍ عالٍ ، فإذا كلمتُك بلسان الظاهر وفيتُ لك وخنتُ نفسي ، وإذا ترنمتُ لك بلسانٍ الباطن جنيتُ لك وظلمت نفسي ، لأني في الأول هازل كجادّ ، وفي الثاني قابل كرادّ . فارحمني اذا قلت ، وارحم نفسك إذا سمعت ، ومهما شككتَ في شيء فلا تَشُكّنَّ في أمرك الذي خلُص لك وتَفَصّى[4] ، أعني الرحيل عن هذه العَرَصة ، التي قد تجرّعتَ فيها ألوانَ الغصّة ، إلى كَنَف ربّ ، به وُجدت ، وبه عُرِفت ، وبه حَيِيت ، وبه سعدت ، وبه عقلت ، وبه رَشَدْت ، وبه أُكْرِمت ، وبه أُعطيت ، وبه خُدمت[5] ، وبه شُهِرْت ،

١ – البرحاء : الشدة والمشقة

٢ – ر : علمنا .

٣ – زيادة ضرورية .

٤ – تفصى : أي استبان وتخلص ؛ وفي الأصل رسم « تنصل » مع اضطراب في الإعجام .

٥ – في المطبوعة : « حرمت » ، وقد تظهر لأول وهلة في مقابل « أعطيت » ، ولكن العبارات جميعاً تتحدث بالايجاب لا بالسلب في تبيان نعم الله تعالى .

وبه سَررت ، وإليه نُسبت ، وإليه انتهيت ، وإليه سَعيت ، وإليه اشتقت ، وإليه سلكت ، وعليه توكلت ، وعليه تولهت : كَنَفٌ ما أوَى إليه أحدٌ إلاّ وجد أماناً من البؤس ؛ كنفٌ ما سكنهُ أحدٌ إلاّ فاز بالرضوان ؛ كنفٌ ما شام برقَه أحدٌ إلا وثق بالسّحِّ الدائم ؛ كنفٌ ما لاذ به أحدٌ إلاّ تُوِّج بالعزّ ؛ كنفٌ ما استنشق هواءه أحد إلاّ وُقي كُلَّ سقم ؛ كنفٌ ما ألفه أحد إلا وثق بالكفاية ؛ كنفٌ ما اطلع أحد على ما فيه إلا سلا عن كل ما دونه ؛ كنفٌ ما سمع أحد بوصفه إلا هامَ عليه ؛ كنفٌ ما استقر فيه أحدٌ إلا اختلط بالربوبية؛ كنفُ العز والقدس والكبرياء والعظمة والقدرة والحكمة والجود والمجد والجلال [١٨ / ب] والتكرمة والنعمة والبهاء والسناء ؛ كنف لا ظمأ فيه ولا جوع ، ولا نَصَب ولا تعب ، ولا قَذى ولا أذى ، ولا خوف ولا مرض ، ولا عُرْيَ ولا حاجة ، ولا مِراءَ ولا لجاجة ؛ كنف عرفه العارفون فهاجروا إليه ، وقضوا حياتهم في طلبه[١] ، وتعاونوا على قصده، وصبروا على كل مكروه من أجله ، فعند ذلك ظفروا بحَبْرةٍ لا غَبَرَة[٢] بعدها ، ووُصلةٍ لا هجر بعدها ، وفَرْحةٍ لا تَرْحة بعدها ، وأمنَة لا خوف بعدها ، وراحة لا تَعَب بعدها .

يا تجار الآخرة : أبشروا بالأرباح الفاخرة ؛ يا مساكين الدنيا : أبشروا عند المولى بالغِنى والمُنى ؛ يا قُوَّام الليل بالأسحار : أبشروا عند الله بمقامات الأبرار ؛ يا صُوَّام النهار في الهواجر الواقدة : أبشروا عند الله بالغنائم الباردة؛ أيها الداعون الى الله في هذه الدار الخالية : أبشروا عند الله بالرضى والكرامة والعافية ؛ أيها المستجيبون لله في هذه الأحوال الصعبة ؛ أبشروا من الله بكل رغبة ليس معها رهبة .

---

١ – ر : طلبهم .
٢ – الحبرة ، بالفتح : النعمة وسعة العيش ؛ والغبرة : اغبرار اللون ، يغبر للهم ونحوه ؛ وفي التنزيل الكريم (ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) (عبس : ٤٠ – ٤١) .

يا هذا : ارفق بعباد الله اذا دعوتهم إليه ، وشوّقهم بالآية[1] التي تتابعت على كل بعيد عنه وقريب منه ، ولاتعجب من قلة إجابتهم ، فان تلك من قلة إخلاصهم في دعائهم . واعلم أن ما تنطوي عليه من الحق هو الذي ينتشر عنك عند الخلق ، وما تنتسبُ إليه في السرّ هو الذي تدلّ عليه في الجهر . وما تتزوده في الحضر هو الذي يُقَدَّم إليك في السفر .

فانظر أين أنت في دعائك إلى الله لعباد الله ، فإنك عن هذا مسؤول . وبه مهجورٌ أو موصول ، وله مردودٌ أو مقبول ، وعلى قدره مَصُونٌ أو مبذول ، وبحسبه مغمودٌ أو مسلول ، وعلى حكمه في الحق والباطل محمول . عليَّ الجهد في إيقاظك إن كنت نائماً ، وعليك الجهد في التيقظ وإن كنت حالماً . وعلى ذلك فلولا أن الله قد أراد بنا جميعاً الخير ، وعرضنا للرشد ، ما أنطقني لك بحرف [١٩ / أ] ولا وفقك لاستماع حرف ، وقليل الصَّوْبِ يبلُّ كما أن كثيرَ القطر يسيل . وإنما قلت هذا اعترافاً بنعمة الله التي عرضتنا لهذا القول المختلف الوصل والقطع ، المؤتلف الرفع والوضع ؛ والاعترافُ بالنعمة مَدْعاةٌ للزيادة ، والزيادةُ موقوفةٌ على الاعتراف ، والشكر عنوانُ ذلك ؛ ومن لحظ المنعم بقلبه[2] ، استغنى عن تلفيق اللفظ بلسانه . ألا ترى أن مصافحة الضمير بالوداد ، أبلغ من مصافحة اليد بالعِهاد[3] ؟

وبعد ، فإذا وصفنا أنفسنا بالغفلة فقد دللنا على بعض الانتباه ، لأن الغافل لا يشعر بغفلته . فما أوجب الحمد في هذا المضيق ، وما أنفع الشكر على هذا التوفيق ، وما أحسن الوصف بهذا التدقيق ، وما أبلغ اللفظ بهذا الترقيق ، وما أشرف المرمى بهذا التحقيق !

---

١ - الأصوب : بالآيات .

٢ - ر : بقايله .

٣ - العهاد جمع عهدة ، هي الموثق أو الشرط أو الذمة .

اللهم : إنّا أبلينا وجدّدنا في محبتك ، وسافرنا وحضرنا في طلب رضاك ، وقلنا وسكتنا واجدين بك ، وسَلِمْنَا وتَعَرَّضْنَا طامعين في قبولك ، وصَبَرنا وجَزِعنا عند تصاريف قضائك ، وجُرْنا وعَدَلنا في مقاصدنا إليك ، وأصبنا وأخطأنا في الطاعة لك ، وبالغنا وقَصّرْنا في جميع أحوالنا معك . فنسألك بإلاهيتك المشتملة على عبوديتنا ، وبقدرتك المستوفية لعجزنا ، وبحكمتك المحيِّرة لعقولنا ، وبرحمتك المتلافية لكل خلل منا ، [إلاّ ما][1] أغضيت عنا ، وخففتَ علينا ، وقَبِلتنا على عوارنا ، وصُنْتنا عن الشفيع إليك ، وأكرمتنا عن اليأس منك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٧ -

يا هذا : بأي قوة أُنْعِشك عن[2] صَرْعتك ، وأنا على مثال حالك ؟ وبأي حجة أطالبك بالحق وأنا مطالب به فيك ؟ الا إني مع هذه الحال الملتاثة ، [١٩/ب] ومع هذه القحة الظاهرة ، أقول قولاً صافيه لك وكَدِرُه عليَّ ، إن قبلت وانتفعت ، وراجعت واستمعت ، واستقلت وارتفعت .

يا هذا : القول في الجملة كثير مختلف ، منتشر مشتهر ، بقي أن يصادف قلباً عَلوقاً ، ونفساً عشوقاً ، حتى يعشش فيها تعشيشاً ، ويريّشها ترييشاً . وأيْن ذلك القلبُ ؟ وأين تلك[3] النفس ؟ هيهات ! عميت الأنباء ، وخبَت الأنوار والأضواء ، وخوَت السماء والأنواء ، وفُقد الصباح وأدرك العشاء ، فلا كبد إلا وهي مقرونة بالحزن ، ولا عين إلا وهي ذارفة عن القلق والفرَق . وعند الحقيقة لا مَعاج إلا إلى الله ، ولا مُعَرَّج إلا على باب الله ، ولا ظنّ يَحْسنُ إلا بالله ، ولا أملَ يصحُّ إلا في الله ، ولا رجاء يستقيم إلا فيما

---

١ - زيادة ضرورية .

٢ - الأصوب : من .

٣ - ر : ملك .

عند الله ، ولا خير يحق إلا عن الله ، ولا توكل إلا على الله ، ولا نجاة إلا بروح الله ، ولا أنسَ إلا بكرامة الله ، ولا مَنْفَذَ إلا بهداية الله ، ولا ظفر إلا بنصر الله ، ولا عِزَّ إلا بتعزيز الله ، ولا سُكْنى إلا في جوار الله ، ولا أمْن إلاّ في حَرَم الله ، ولا تَوجُّه إلا إلى كعبة الله ، ولا غنى إلا من خِزانة الله ، ولا فوز بالجنة إلا بتفضل الله ، ولا خلاص من نار الله إلا برحمة الله . فاعلم علم[1] هذه الجملة ، تنلْ حقيقةَ التفصيل ، عند الله ، ودع – قبل [كل] شيء وبعده – الهوى عنك ولا تتخذه شريكاً .

يا[2] هذا : تجمّع عن تَفَرُّقك ، وتفرّق في تجمعك ؛ أتدري ما أرى[3] تفسير هذا اللغز ؟ أي : احضُرْ[4] عن غيبتك ، وتغيب في[5] حضورك . هذا أيضاً لغز[6] أنا أكشفه لك بما هو أبين ، فتَحَلَّ منه بما هو أزين . معنى ذلك : انفِ عن سرّك الهمومَ كلّها حتى تنقى من كل دنس يكون في الإنس ، ثم اخطب محلك[7] من حضرة الحق بقبول ما يجود به لك ، ثم أفرغ كُلّك في شكر[8] هذه المنائح التي كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى [٢٠/أ] وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى .

يا هذا : أما ترى فنون الإشارة الى غايات الحقيقة : بصنوف العبارة عن

---

١ – ر : على .

٢ – من هنا حتى قوله : « انحياش هذا النائي » (ص : ٥٠) مكرر فيما بعد (ق ٧٤/ب – ٧٥/ب) .

٣ – كذا في الأصل ، وسقطت « ارى » من المكرر .

٤ – الأصل : أحضره ، والتصويب من المكرر .

٥ – المكرر : عن .

٦ – زاد هنا في المكرر : آخر .

٧ – المكرر : مجلسك .

٨ – المكرر : شكرك .

الأركان الوثيقة ، دالّة على الآيات الأنيقة ، جامعة للآراء الربيقة[1] ؟ فَجُلْ في أطرافها طالباً نفسك فيها ، وغُصْ في أعماقها محصّلاً لحقيقتك منها ، واجعل بوادي تباشير[2] هــذه الأحوال مادّةً لصبرك إن كنت مبتلى ، أو عدّةً لشكرك إن كنت مجتلى ؛ وترنّح في هذا الفضاء الذي قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقة متنزِّهاً ، واقطُفْ من ثمارها ما تدلّى لك ودنا منك ، وتَرَشَّفْ من عينها ما ساغ لك وعَذُبَ في لَهاتك. وإياك والشكَّ فإنه للقلب مرَض ، وللدِّين عَرَض ، وللحلْق جَرَض[3] . وإياك أن تريد إلا وأنت مريد، فأما إذا كنت مُراداً فتجنب كل إرادة لك فإنها إبادة فيك[4] . واجتهد أن تكون سابقاً متمهلاً ، وإياك أن تكون مسبوقاً[5] متعجلا ، فإن ذلك عُنوانُ الفَوْت ، وآيةُ الحسرة ، وعلامة الأسف . وامحُ عن سِرّك الفكر في كل ما كان أمسِ ، وصِلْهُ بمحو ما يكون في غد[6] ، فإن ذلك أحْضَرُ لبالك في يومك ، وأدعى لك[7] إلى إحراز نصيبك مـــن وقتك[8] . والوقت حادٌّ ، فكُنْ من حِدّته على حَذَر ، والحذر هنا أن يوكل[9] همك بالعلويات الأبديات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات ، فإن اعتلاق الهم بها استغراقٌ لمحاسنها ، وفي هذا الاستغراق تشبه كبيرٌ بمعانيها وفي هذا التشبه بروز لحقائقها ، وفي هذا البروز لحقائقها الفوز بنعوتها ، ومن

---

١ – الاصل : الرنيقة ، والتصويب من المكرر ؛ والربيقة : الموثقة ، أخذه من قولهم : دابة ربيقة ، أي أحكم ربطها ؛ وربما قرئت « الوثيقة » .

٢ – المكرر : تباشير بوادي .

٣ – من المثل : حال الجريض دون القريض ، أي ما يعترض الحلق ؛ والجرض – محركة – الريق يغص به .

٤ – زاد في المكرر : منك .

٥ – كذا في المكرر ، وفي الاصل : سبوقاً .

٦ – المكرر : وصوله بمحي ... غداً .

٧ – لك : سقطت من المكرر .

٨ – المكرر : فوتك .

٩ – المكرر : يكون .

نعونها خلودها ؛ فأي إشارة[1] أخلص من هذه ، وأي عبارة ألخص من هذه ؟ قد صنع لك فيما نعم به عندك ، ولطف بك فيما عرض عليك ، فكُنْ لآلاء الله[2] من الشاكرين[3] ، ولفضله من الذاكرين [٢٠/ب] وزِنْ رجاءك بالخوف وزناً عَدْلا ، ثم رجِّح الرجاء فإنه أدلّ على كرم المرجوّ ، وقابل التوكل بالتعرض مقابلة صحيحة ، ثم اجعل الرجحان في جانب التوكل فانه أشبه بحال العبد ؛ وابحث عن مبدأ الوجد ، فإن كان من آثار الكون [البائد][4] البائر ، الزائل الحائل ، فلا تَعُجْ عليه ، وإن كان من آثار العلوّ الدائم الخالد فارْتَدِ به واتزر ، والتحف [به واعتطف][4] عليه ، وثق بأنك إذا أهِّلتَ للتبختر في هذه الساحة ، فقد نِلْتَ كلّ لذة وأصبت كل راحة . وما أقرب هذا البعيد ، وما أسهل هذا العسير ، وما أشد استجابة هذا الواني ، وما أسرع انحياش هـــذا النائي[5] !

- ٨ -

أيها الصاحب الغادي عليّ بخشوعه ، الرائح إليّ بخضوعه ، الملتمس من الحكمة ما قد أفل نجمه ، وتصوّحَ نبته ، واجتُثّ أصله ، واقتُضِب فَرْعه ، ولم يبق لأهله مَسْكن إلا خَرِب ، ولا مسوس[6] إلا نضب ، ولا متاع إلا بار ، ولا ثمد[7] إلا غار ، ولا حي إلا مات ، ولا مطلوب إلا

---

١ - المكرر : الاشارة .

٢ - سقطت اللفظة من المكرر

٣ - زاد في المكرر هنا : ولنعمه من المستحقين .

٤ - زيادة من المكرر .

٥ - المكرر : الآتي ... انحاش هذا النائي .

٦ - اضطرب الناسخ في هذه اللفظة فجاءت قريبة من صورة « ملتمس » - مع علامة مد على اللام ، تدل على أنها ألف طويلة - أي كأن الأصل « ماء مسوس » ؛ والمسوس : الماء العذب الصافي ، وفي المطبوعة « ماء تيمن » ولا أدري ما معناه ؛ ولعلها أن تقرأ « ماء معين » .

٧ - الثمد : الماء القليل .

فات ، ولا باب إلا أُرْتِج ، ولا لسان إلا لجلج ، ولا قول إلاّ بُهْرِج ، ولا مرعى إلا أُمْرِج[1] . فكيف صرت – من بين هؤلاء وهذه الأحوال – تَسألُ عن الأعمال وآفاتها ، وعن الأحوال وعاهاتها ، وعن الأخبار ونهاياتها ، وعن الأسرار وغاياتها ؟ وتلهج بالبحث عن الملكوت المحفوفة بالجبروت ، وتديم مسألتك عن كلٍّ ما كَمَنَ في الشاهد ، ولاح في الغائب ، وبرز بغوالب القدرة ، ونشأ عن سوابق العلم ، وتوارَى في أثناء الإرادة ، وجرى على المساءة والمسرة بالنقصان والزيادة ؟ .

فإن كنت إنما تبغي – بسعيك وكَدْحك ، وإغلاقك وفتحك . وإخفاقك ونُجْحك – حظاً من هذه الدنيا المشئومة ، فقد ساء نظرك لنفسك ، ورذل اختيارك [٢١ / أ] في يومك وأمْسِك ، ولم تُؤتَ إلاّ من إطراد الله لك عن حضرته ، وإبعاده إياك عن خدمته ؛ وإن كنت إنما تريد مباهاةً لأبناء جنسك ، واستطالةً على من يشير إشارتك ، وطلباً للعز عليهم في دعواك ، فذاك والله أدلُّ على أنك ممقوتٌ عند ربِّك ، ومحجوبٌ عن ودائع الله قبلَك ، ومحروم في أوّلك وآخرك .

وإن كنت إنما تحب أن يكون لك طَرَب على ذكر الحق ، واشتياق إلى محل القُرْب ، والتقاط لما ينتشر من العين المنبثة في الخلق ، الكاشفة لسرائر الصدق ، فأنت والله غريب في حالك ، وعزيز في ذلك ، فما أحقّ جبهتك بالتقبيل ، وما أولاك في تأميلك بالتنويل والتخويل . وكأنّي بك وقد رُفع عنك الحجاب ، وصين ما أنت به وَلَهٌ عن العتاب ، وصُرف عن بالك كوالح الاكتئاب وجوائح الارتياب . نعم ، وكأني بك وقد وجدتَ نسيمَ الوصال ، وأُعفيتَ[2] من الإغماض والإيضاح في طول هذا القيل والقال .

---

١ – أمرج : أرسلت فيه الدواب ترعى ، فانتشرت واضطربت وأفسدت نواحيه .

٢ – ر : وأغفيت ، وكذلك في المطبوعة .

نعم ، وكأني بك وقد جُلِيَ عليك الملك بزينته ، وسقيت من دفائن غيبه وشهادته ، وقيل لك : إرْوَ فطالما ظميت ، واسْعَد فطالما شقيت ، واكتس فطالما عَرِيتَ ، وتَنَعّم فطالما ضنيت ، وابْقَ فطالما فنيت ، وانظر إلينا فقد تجلينا لك ، واتصل بنا فقد اتصلنا بك ، واشهدنا فقد اشهدناك ، واطمئن إلينا فقد قبلناك ، وتمنَّ علينا فقد حكمناك : بعيننا تقلبتَ في فقرك وضُرِّك ، وبمشهد منا صبرت على بلواك ومحنتك ، ونحن سبكناك في اختلاف أحوالك لتصلح لخدمتنا في آخر أمرك . لم يغب عنا شأنُك ، ولم يَخْفَ علينا سِرُّك وعلانيتك . لقد مضغتَ في محبتنا الحنظل المُبْسِر[1] ، واقتحمتَ الجمر المُسْعَر ، وغرقتَ في البحر الأخضر ، وأويتَ إلى المزابل [٢١/ب] وأصبحتَ كَلّاً على كُلٍّ كاهل . منعك خَلَقي الكِسْرَة والحَشفَة ، وحرموك الخِرقةَ والفَضْلَة ، وابتذلوك بأعينهم ، وآذَوْك بألسنتهم ، وطردوك من أفنيتهم ، وحقّروك بقلوبهم ، وتقززوا منك لما قربت ، وتهلّلوا بسبِّك[2] لما بعدت ، وسخروا منك عند قولك ، وأهانوك عند سكوتك ، وأنِفُوا من مؤاكلتك ، وكرهوا أن يصلّوا معك إلى جانبك . وكنتَ إذا دعوتَهم لم يلبّوا ، وإذا حدثتهم لم يجيبوا ، وإذا سألتهم لم يسعفوا ، وإذا حضرت مجالسهم لم يُفسحوا . كل ذلك كان بمسمع منا ومرأى ، لم ينْطَوِ عنا منه خردلةٌ ولا ذَرّة . فقد اختبرْنا صبرك ، وعلى ذلك أجرينا أمرك ، ومن أجله رَفَعْنا لك ذِكْرَك ، ووَضَعْنا عنك وزرَك[3] .

فلا يهمنّك ما كان ، فقد أفضيتَ إلى عِزّ جوارنا ، وصرت مكرّماً لدينا ،

---

١ - في التنزيل الكريم (وَوجوه يومئذ باسرة) (القيامة : ٢٤) أي متكلحة ؛ والمبسر : الذي يسبب الكلوح ؛ وفي ر : المنسل .

٢ - ر : بسبك (دون اعجام) .

٣ - يتطلع الى الآيات الاولى من سورة الشرح (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك) .

مصطفىً عندنا ، حكمك نافذ في مُلكنا ، وقولك مقبولٌ على خلقنا ، وأملُك مبلوغ بإذننا ، وأُنسُكَ مُضاعَفٌ بقربنا ، وحبورك زائد بحبنا ، وكلُّك منعّم بنعيمنا . ولولا ما تجرعت من جُرَعِ[1] البأساء والضراء لوَجْهنا ، ما كنت اليوم تصير إلى حظيرة قُدْسنا ، ولا كنت تؤهّل لبسطنا وأُنسنا. ولو أن عبادي علموا ما أُرَشّحك له وأسوقك إليه وألاطفك به وأنتهي به إلى آخره[2] ، لصرت فتنةً عليهم ، لأنهم كانوا يأخذون التراب من تحت قدمك ، ويكتحلون به عند الرمد ، وكانوا يَفرُشُون لك الخدود حتى تمشي عليها ، ويهدون لك الأرواح حتى تتحكم فيها ؛ إنما أخفيتُك عنهم صيانة لك ، وشغلتهم عنك توفيراً إليك ، وعاتبتهم مع ذلك بسببك ، وقلت لهم : لِمَ تحقرون أوليائي بالجهل ، ولم تزدرونهم بالكبر ، ولم تبخلون عليهم بالقليل ؟ أترون أني زَوَيْتُ عنهم الدنيا وبسطتها عليكم ، لانحطاط قدرهم [٢٢ / أ] وارتفاع قدركم ؟ إنما عَرَضْتُ بعضَكم لبعضٍ محنةً . وجعلتُ بعضكم لبعضٍ فتنة . أردت بهم أن[3] لا يطمئنوا إلى نعيم العاجلة فأقتَرْتُ رِزْقهم ، وأوتحتُ من الدنيا حظّهم ، وأحببتُ أن ينثنوا في كل حالٍ يتعذّر عليهم إليّ ، ويتوكلوا في كل ما يلتبسون[4] به عليّ ، وليجروا على تدبيري في توسعتي وتقديري ، وأحببت لكم أن تُفيضوا عليهم مما أفضته عليكم ، فتكونوا مُنْعِمين بنعمتي ، وواهبين من فضلي ، لتحوزوا[5] بذلك مَرْضاتي ، وتستحقوا بها جواري في جنّاتي . فأما أوليائي ، فقد قطعوا أيام الدنيا بالصبر ، وانتهوا إليّ بالطهارة، ونالوا المُنَى . وأما أنتم فأوْقَرْتُم

---

١ – ر : جزع .

٢ – ر : أجره .

٣ – ر : أنهم .

٤ – هذه قراءة غير دقيقة ، ولعل الأصوب : « يكتسبون » ، وفي ر : « يلتسون » وهي قد تقرأ «يكتسون » أيضاً .

٥ - ر: لتجوزوا .

ظهوركم بالإثم والعُدْوان ، وأعظمتم الإساءة إلى أنفسكم بالمنع والحرمان ، فهلموا إلينا بالمعذرة إن كانت لكم ، وهاتوا حجتكم إن كان معكم ، وإلاّ فبعداً وسُحقاً لأمثالكم .

يا هذا : إلى ها هنا امتدّ نَفَسي فيما بدأت به من إيقاظك وزَجْرك وتنبيهك. وقد قيل : كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً . وصوابُ ما سمعتَ غيرُ خافٍ ؛ فإذن هو دواء ، وأنت بك داء ، فاجعله دواءً لدائك ، فعن قليلٍ ما تصير إلى شفائك .

قد مضى هذا الفصل على ما تجده في نفسك ، أو على ما تجده نفسك فيه . بقي الآن أن نتحول عنه إلى غيره ليكون لي في القول ولك في الاستماع طَوَفان في أرجاء الحكمة ، ومثاقفة[1] في ميدان المعرفة ، واختطاف من بروق الربوبية ، وانصراف من عوائق العبودية ، واعتصام بعلائق الخصوصية ، وامتطاء لظهور البشرية ، وأخذ بالتحرُّم فيما عاد بالأنس والراحة والأمل والأمنية . فنقول وتسمع ، ونُصرح فتفقه ، ونُكنّي فتنقه :

يا هذا : حَدّثني الآن عَنّي ، واسمعني مني [٢٢/ب] وأقِلّ حواشي[2] حَدْسي وظني ، واثبُتْ لأصنافٍ فَنّي وعَنّي[3] . فقد قابلتك بوجهٍ وَقاحٍ ، وناقلتك بلسانٍ نوّاح[4] ، ووقفتُ في حالي بين رجاءٍ إذا أنستُ به يئست منه ، وإذا استوحشت منه رجعت إليه ، وأنا في عُرْض ذلك لا أدري كيف أُبْرِد غلّتي وقد حرّت ، ولا أدري كيف أُخمد جمرتي وقد

---

١ – المثاقفة : الملاعبة في الميدان بالسيف ، أو بنوع آخر من السلاح .

٢ – كذا هي في ر ، ولعل الصواب : غواشي .

٣ – يقال رجل مفن معن : ذو فنون من الكلام ؛ والمعن الخطيب المفوه .

٤ – نواح : شديد النوح ، وربما قرئت بواح ، أي لا يقدر على الكتمان ، وهذه أقرب إلى صفة اللسان .

التهبت ، ولا كيف أسكِّن زفرتي وقد توالت ، ولا كيف أنفِّس كربتي وقد غالت ، ولا كيف أكُفُّ عبرتي وقد سالت ، ولا كيف أصرفُ حيرتي وقد استرسلت : فَدَائي من دوائي ، وعلّتي من طبيبي ، وبلائي من نعيمي ، وفنائي من حبيبي ، وهذا لأني فزعت من ظاهرٍ قد حُشِي بالشرور ، إلى باطن قد غُشِّي بالغُرور ، فلم يكن في هذا مَقْنَع ولا إلى ذاك مَرْجع. بقيت والله بين الباب والدار ، يعلّلني النسيم إذا رقّ ، ويؤنسني البرق إذا بَرق ، فأقول :

أصَاحِ ألَم تَحزُنْكَ ريحٌ مريضةٌ وَبرْقٌ تلالا بالعَقيقين لامِـعُ
فإن غريبَ الدار ممـا يَشوقُـهُ نسيمُ الرياح والبروقُ اللوامعُ[1]

فهذا شدوٌ من حديث إن تُجُوذِبَ طرفاه لم يلتقيا إلى آخر العمر ، ولكن على كل حالٍ قد تذكرنا به شجواً ، وتطلبنا منه صفواً ، وإلى أن ينطق مِزْهَرُ الحقِّ بلسان الصِّدق ، فلي ولك به مُتَعَلّل مـن أفانين ما نتضايق به ونتعاسر عليه ، ومن ضروب ما نستغيث منه ثم نفزع إليه .

وكيف نبرأ من هذه الأمراض ، وقد نبتنا في معادن البلاء ، ورعينا في بلاد الفناء : ﴿سواءٌ علينا أجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِنْ مَحِيص﴾ (ابراهيم : ٢١). هذا صحيح ، لا محيص بالصبر ولا بالجزع ، ولكن بلطفٍ مِنْ عند مَن كان به الجزع وله كان الصبر ، فإنه إذا بدت ذرة من عنايته أغنت [٢٣ / أ] عن الجزع والصبر ، وطمست آثار الحجة والعذر ، ورَفَعَتْ من هذا القطر إلى [ذلك](٢) القطر ، فاستنارت الأشياء المظلمة ، واستبانت الأمور المُبْهَمة ، وتحللت العقُودُ المُبْرَمة ، وتسلّتِ النفوسُ المغرمة ، ووُجِدَ ما كانت الأمنية لا تسري إليه ، والتحكم لا يطّلع عليه ، وصار الخشن

---

١ – البيتان للاحوص في الزهرة ١ : ٢٢٨ وطبقات ابن سلام : ٥٣٥ وديوانه : ١٤٥ .
٢ – زيادة لازمة .

ناعماً ، واليابس لَدْنا ، والقفا وجهاً ، والمعدوم موجوداً ، والبعيد قريباً ، والنازل صاعداً ، والمختلف مؤتلفاً ، والكثير واحداً ، والغائب شاهداً ، والصادر وارداً ، والذّامُّ حامداً ، واللاّهب خامداً ؛ وتناغت الأشياء بلغة عجماء ولكن مفهومـــة ، وتلاقت الأحوال بملاسن[1] الإيضاح ولكـــن مكتومة .

فهاتِ الآن : أين الجيبُ الممزقُ على هذه الأشجان ، وأين الذيل المجرور في هذه الأوطان ، وأين الخد المخموشُ على فوت ما بين هذا الخبر والعيان ، وأين الكفُّ المبسوطة إلى هذه الأغصان ، وأين القامةُ المتطاولةُ إلى هذه الأعيان ، وأين العلامة المذكورة بهذا الشان بين أهل هذا الشان ، وأين سرُّ هذا الحديث من علانية مَنْ يقول كان وكان ؟ — لا أين ، ولا من يقول : أين[2] !

يا هـــذا : هذه نبرات قوم عن هواجس قد جاد بها[3] (الحق بصور الاختصاص ، فتهامسوا بينهم في أوقاتٍ كان لمتولِّيهم فيهم تصرف بحـــقّ إبداء العين ، وذمام إنشاء الكون ، فتخافتوا بها متهاجزين[4] ونَبَروا عـــن حقائقها متعاجزين ، وعادوا على سرائرهم في خلواتهم لميعادهم متناجزين . فإن كنت تعرفهم أو تفهم عنهم ، فادْنُ منهم ، ونَوِّر قلبك برؤيتهم ، وغامِس روحك في غديرهم ، وارتَعْ في روضتهم ، واعتبقْ بذكاء طيبهم ، وتعلق بفضل عطافهم[5] ، وتعزّزْ بذكر أسمائهم ، واصبغْ ظاهرك وباطنك بصفاتهم [٢٣ / ب] وإلا فالحذرَ الحذَر ، فإنك إن دنوتَ من نارهم جاهلاً بأسرارهم ، احترقت احتراقاً تعود عنه رماداً .

---

١ — النون غير معجمة في الأصل ؛ وفي المطبوعة « بملابس » .

٢ — ر : ولا أين ، واظنها سهواً من الناسخ .

٣ — لعلها أن تقرأ : « جاذبها » .

٤ — ر : متهاجرين ؛ وهو غير ملتئم مع المعنى العام ؛ والتهاجز : المسارة والهمس .

٥ — العطاف — كالمعطف — : الرداء .

اللهم : لولا إغضاؤك عنا في وصفك ، ولولا سترك علينا في ذكرك ، ولولا رفقك بنا في الدّعاء إليك ، لكنا هالكين ، لأنا نَصِفُك صِفَةَ العارفين ونعبدك عبادة الجاهلين - ، ونذكرك ذكر الحاضرين وننساك نسي الغائبين ، وندعو إليك دعاء الناصحين ونستجيب لك استجـابة الغاشّين[١] . فنسألك – بفضلك ورحمتك – أن تسمح لنا وتسامحنا حتى ننتهي إلى رِضوانك وإلى غفرانك . على أنّا لا ننال رضوانك إلا بغفرانك ، ولا نملك غفرانك إلا برضوانك .

يا أعز من دُعي وَأكرمَ مَنْ أجاب ، يا أول يا آخر ، يا باطن يـا ظاهر[٢] ، يا غائب يا حاضر ، يا جابر يا كاسر ، يا شاكر يا عاذر[٣] ، يا هادي يا ناصر ، يا قوي يا قادر ، يا وارد يا صادر : نسألك لطائف صنعك وغرائب لطفك ، حتى نجول في أكناف مملكتك ، متصرّفين بأدبك ، جارين[٤] بإطلاقك ، قائلين بإنطاقك ، حائلين عن مساخطك ، متطلبين لمراضيك ، موحّدين لك ، عارفين بك ، قارّين معك ، قانتين لك ، متوجهين نحوك ، نازلين في خِطَطِك ، جانين من ثمار كلامك ، واجدين غيب ربوبيتك .

اللهمَّ : إنك أنت مُفَجِّر عيونِ القلوب ، وأنت المُطَهِّر لما في[٥] العيون ، وأنت الواهب لما تَشِحُّ به النفوس ، وأنت القابل للبِرّ المخسوس ، وأنت القائد إلى المحل المأنوس . فبتفردك إلاّ أفردتنا ، وبعزتك إلاّ أعززتنا !

إلهنا : إنا نقول ما نقول عن عِيّ وحَصَر ، ونتطاول ما نتطاول عن قماءة وقِصَر ، ونطلب ما نطلب عن[٦] حاجة وفقر ، ونحمل ما نحمل عليّ

١ – ذكر « الغاشين » في مقابلة « الناصحين » ، واللفظة في الأصل «الغامسين» وعلامة السين واضحة ولكن ضبط الناسخ لا يعول عليه ؛ إلا أن تكون الغامسين مأخوذة من اليمين الغموس ، وهو بعيد .

٢ – في الأصل : يا ظاهر يا باطن .

٣ – ر : عادي ؛ وهو خطأ بين .

٤ – ر : جادين .

٥ – غير معجمة في ر ؛ وقد تقرأ العبارة « وأنت المظهر لما في الغيوب » .

٦ – ر : من .

قدر الوسع والطاقة . فاجبرْ كل نقيصة لنا ، وارفع كلَّ خسيسة منـا ، وأيِّدْنا منصورين ، وانصرنا مؤيَّدين ، وعلِّمنا اسمك الأعظم [٢٤ / أ] حتى ندعوك به ممجّدين ، ونتقربَ إليك به مُقَدَّسين . ومهما فعلتَ بنا فـلا تفضحنا على رؤوس الأشهـاد ، ولا تزعجنا عن وثير المهاد ، ولا تَبْلُنا بعواقب العناد ، يا ذا الجلال والإكرام ، إنك رؤوف بالعباد .

- ٩ -

اللهم : كَثُر غَلَطُنا فينا ، وطال لَغَطُنا علينا ، واشتد الضعف بنا ، ونادى منادي العز بذّلنا ، ودلّ دَليلُ الهَتْك على فضائحنا ، وامتدت حيرتنا فينا ، وترادفت حَسْرتنا منا ، وارتد نظرنا إلينا ، وشَمِت بنا عدوُّنا ، ووجد السبيلَ نحونا حاسدُنا ، وأصبحنا بين خَلْقك : ملحوظين بالمقت[١] والشنآن ، موطوئين بالقسوة[٢] والعدوان ، مقروفين بالكذب والبهتان .

اللهم : فَجُدْ علينا منك ما يُسَلّينا عما حرمتنا منهم ، ومَيِّزْنا بلطيف لطفك عنهم ، وعزِّزنـا بعزيز عزِّك حتى لا نرى عز العزيز بغير عزك ، وقُد[٣] همنا إليك ، واصرف مُهِمّنا عما لديك ، وافعل معنا في الآخر نظيرَ ما بدأتَ به في الأول ، إنك المجيد الكريم ذو الفضل العظيم .

يا هذا : إني أرى ما ترى ، فهل ترى ما أرى ؟ أم أنت من هذا الورى ، تديم السُّرَى ، ولا تحمد صباحَ المَسْرَى ؟ أرى جملةً : أنوارُ الخالق[٤] عليها ساطعة ، وأخبارُ الخلق عنها قاطعة ، وذلك أنها تُضْحِي مصدوقة بلسان التزويق ، وتُمْسِي مكذوبةً بلغات التحقيق ، تمرّ في التهم كالريح ، وتقف

---

١ — ر : وبالمقت .
٢ — ر : وبالقسوة .
٣ — ر : وعد .
٤ — ر : الخلق .

حَروناً في مساكن التطويح ، متوقعة لعلامات التصريح ، أو أمارات التلويح. ومن أعاجيب نعتها ، في كل مكانها ووقتها ، أنها تتحرك على نفسها ، وتُري الزيادةَ في نقصها. إنفعلتْ فعلت سَرَفاً ، وإن تركتْ تركت صَلَفاً ؛ إن نطقتْ نطقت تمويهاً [٢٤ / ب] وإن سكتتْ سكتت تيهاً ؛ إن أمنتْ أمنت اغتراراً ، وإن خافت خافت اعتذاراً ؛ وإن أبت أبت اقتداراً ، وإن أجابت أجابت اضطراراً ؛ وإن ألِفَتْ ألفت اعتلالاً ، وإن مَلّتْ ملت استلالا ؛ إن طمِعَتْ طمعت مصانعة ، وإن تسلّت تسلت قانعة . ثم إنها لا تجد مصحوبها مع اختلاف فنونها إلا علة لها [و] وبالاً عليها وأخذاً فيها . هذا طَرَفٌ من شأنها . فأما ما يتفصّلُ منها ، وينفصل عنها ، ويتصل بها ، ويصل إليها ، فهو يزلُّ[1] عن خُلس الطرف ، فضلاً عن تصوير ذلك بحرف بعد حرف ؛ عين ترود للقلب ، وقلب يتقوى بأحكام الكرب ، وشوق يوهن أركان الجسد ، وتيه يهيج الحاسد على الحسد ، ويبعث[2] النّفاثات في العُقَد ، ونفس لولا طروق الخيال بنواحيها لكانت تزهق ، ورُوحٌ لولا إلمام المنى بحواشيها لكانت تُرهق ، وحال لولا تكفُّل المولى بنظامها لكانت تمحق ، وحُشاشة لولا صُنْعُ اللطيف بها لكانت تحترق . فها أنا قد سبحتُ في لجة الأفكار ، وصرت منها إلى نوع من القلق :

أضمرتُ نَفسيَ في نفْسي كما انطبقتْ	أجفانُ عيني على الأشفارِ والحَدقِ
إن رُمْتُ إدراكَه عزّتْ مواردُه	وإن قَصَدْتُ خَلاصاً منه لم أُطقِ
أُحَدِّثُ النفسَ أنَّ القُرْبَ يُؤنِسني	وإن وصلتُ إليه هِمْتُ مِنْ فَرَقِ
لا تعجبنَّ فإني قد دُهِيْتُ كما	يُدْهَى سوادُ الدجى من شُقرةِ الشفق

اسمع حديثي ، وخُذْ من طَيِّبي وخبيثي : أشهدَني الأكوانَ مزخرفةً

---

١ – ر : يدل .

٢ – ر : وينفث .

بأخبارٍ وأعيان ، فقلقلني بهـــا[1] تشويفاً[2] ، ثم حَلْحَلَني عنها توقيفاً . ثم لم ألبثْ إلاّ هُنيهة حتى أدمجني فيها وأدرجني معها . فلما تبشبشت[3] هناك قليلاً ، فتحتُ بصراً [٢٥ / أ] كليلاً ، وجَرَرت حبلاً طويلاً ، فرأيت هنالك خَلْقاً يعشَق خَلْقاً ، وَخَلْقاً يقتضي خَلْقاً ، فطلبتُ فَرْقاً فلم أجد فَرْقاً ، ثم أسندت إليه تهاويله وأفاعيله تملساً[4] من إضافـــة الملك ، وخيفةً من مواقعة الهُلْك ، فسلّط عليّ ألسنة مُقَرِّعةً بالتقصير ، وأظهر لي أهوالاً مُرَوِّعةً بالتنكير ، حتى كأني نَبَوْتُ عن الكون نُبُوّاً ، وسموت عليه سموّاً . فلما أخذ بمخنقي في هذا الوقت ، ومنعني من أن أهتـــف أو أكشف ، عطفت لايذاً بالإسفار عما دهـــاني به الاستتار ، فلما رآني كذلك حبسني في نفسي ، ودفنني في رمسي ، وسلبني روحي وأُنسي ، وغيّب عني قمري وشمسي ، وحسم حِسِّي عن غدي وأمسي . فقلتُ بلسان العدم : يا وَلِيَّ القدم ، أمعاقَبٌ في عشقك أنا ؟ قال : بل معاقِـــب أنا في صدقك في عشقك . فقلت : سيدي ، فهل وراء الصدق غاية ، أو هل فوق العشق نهاية ؟ فقال : نعم ، غَيَّبْتُكَ عن صدقك برؤيـــة صدقك[5] ، وعَزوبُكَ عـــن عشقك باستيلاءِ عشقك . فعندها صرختُ مستغيثاً وقلت : فما حيلةُ مَن إنْ أدنيته أبليته ، وإن أخفيته جلّيته ، وإن عرّيته حليته ، وإن واريته أريته ، وإن سكّنته هيّجته ، وإن قيدته أمرجته ، وإن آويته أزعجته ، وإن أردته أدرجته ، وإن مقّتّه استدرجته ، وإن أرويته أعطشته ، وإن تراءيت له أدهشته ، وإن أحوجته خيّبته ، وإن أطلعته غيّبته ، وإن استدعيته سيّبته ، وإن حركته وقّفته ، وإن سترته كشفته ،

---

١ – ر : من بها .
٢ – ر : تشويقا .
٣ – تبشبش : أنس واطمأن ؛ وفي ر رسم ضبطت فيه السينان مهملتين .
٤ – تملس من الأمر : تخلص وتملص ، ومن أمثالهم « الملسى لا عهدة له » .
٥ – ر : صديقك .

وإن أمّنته خوفته ، وإن حرمته أسعفته ، وإن سلّيته شغفته ، وإن أتحفته أتلفته ، وإن أتلفته شرّفته . فكل الذي منك به عجب ، وكل الذي بي منك شجب ، ولا غير له ، فما هذا الخبر ، وليس غيره فهل من أثر ؟

يا هذا : زيِّن حقيقتَكَ بالحقِّ ، كما تزيّنُ ظاهرَك بالخلق ، ولا تجهل [٢٥ / ب] صَرْف[١] ما بين الزينتين ، فإن إحداهما ظلٌّ الأخرى ، والشخصُ أشرفُ من الظل لأن الظل تابع له ومنبثٌّ عنه ، والظل لا يكون إلا للشخص ، وقد يكون الشخص ولاظِلّ .

أدرِك الإشارة المدفونة في العبارة ، والإيماء الذي في الإيحاء ، والإيحاء الذي في الإنباء ، والإنباء الذي في الإغراء ، والإغراء الذي في الإسراء ، والإسراء الذي في الإيفاء ، والإيفاء الذي في الإبراء ، والإبراء الذي في الإشفاء ، والإشفاء الذي في الإغفاء ، والإغفاء الذي في الإلفاء :

أما الإشارة المدفونة بالعبارة ، فهي التي تجافت العبارة عنها لأنها استصحبت تركيب الحروف ، ولطفت الإشارة عنها لأنها تنزّهت عما يتحكم في الأسماء والأفعال والظروف . وأما الإيماء الذي في الإيحاء فسرٌّ حَرُم إعلانُه في الثاني لمّا وجب كتمانه في الأول . وأما الإيحاء الذي في الإنباء فلمشافهةٍ بدت في عرضه من الحق . وأما الإنباء الذي في الإغراء فلا يرتقى حتى تكون مناراً للخلق . وأما الإغراء الذي في الإسراء فلمحو ما دون الأول توحيداً للأول . وأما الإسراء الذي في الإيفاء فلتذلّل السبيل لسالكيه إلى المحل الأعلى. وأما الإيفاء الذي في الإبراء فليصحّ الطلوع على المراد بلا حاجز يُؤذي ولا ظن يقذي . وأما الإبراء الذي في الإشفاء فليعتدل التقابل الذي من أجله[٢] هَمَتِ الدموعُ بالفرق[٣] والتهبت الضلوع بالحُرَق . وأما الإشفاء

---

١ – الصرف : الفضل .

٢ – ر : التقابل من أجله الذي .

٣ – ر : بالعرنيق (دون إعجام) ؛ والفرق : جمع فرقة وهي السقاء الممتلىء .

الذي في الإغفاء فهو من باب اللطيفة التي طال في الفحص عن حقيقتها الخوضُ ، ونَضُر من أجلِ الإقبال على معرفتها الروض . وأما الإغفاء الذي في الإلفاء فللعجيبة التي حار بسببها البصر ، وعُدِمَ على ذلك كل وِزرٍ [و]عَصَر[1] .

هذه جُونة لا يفتحها – عافاك الله – هؤلاء العطارون ، أعني الذين بِعَرَقهم يَسْهَكُون ، ويدفأون ويسخنون ، ويَرْقون ويركبون ، ويمزجون ويخلطون ويغلطون . هذه جُوْنة لا يملكها إلا العارفون ، ولا يتطيب منها إلا الواجدون [٢٦ / أ] ولا يظفر بها إلا الواصلون ، ولا يُبَخَّر منها إلا الغُرُّ المحجَّلون ، ولا يعبَق بريحها إلا الأفراد الموحِّدون : وَحَّدوا فوَجدوا ، وتوحّدوا فاتحدوا .

يا هذا : أين نحن ؟ حدثنا عنا فقد طحنا منا ، هذا وليس لنا من هذا الديوان إلا الحديث ، ولا من هذه الجُونة إلا الخبر ، فكيف بنا لو عاينا هذا المَخْبَر ، وشاهدنا هذا المنظر ، وقطعنا هذا المَعْبَر ، وظفرنا بهذا المحبر ؟ الله أكبر ، الله أكبر ! من أحبنا أفلس ، ومن أبغضنا توسوس ؛ هذا سرورنا ، من شاء يلومنا ؛ هذا غذاؤنا وعشاؤنا ، فليكمد حُسّادنا وشُنّاؤنا .

يا هذا :

خلِّ جنبيك لرامِ وامْض عنه بسلامِ[2]
مُتْ بداءِ الصمت خيرٌ لك من داءِ الكلام

أتدري بأي شيء أولعت ؟ أتعلم عمّن أخبرت ؟ أتشعر بمن عَرفت ؟ ألك خبر عمن هو أوّلك وآخرك ، وغائبك وحاضرك ، [ومقيدك][3]

---

١ – العصر : الملجأ .
٢ – الشعر لأبي نواس ، كما جاء في البيان والتبيين ١ : ٢٦٩ وديوانه : ١٩٣ – ١٩٥ .
٣– زيادة لازمة .

ومطلقك ، ومفرقك وجامعك ، وضارّك ونافعك ، ومُقَرِّبك ومُبْعدك ، ومصوِّبك ومصعدك ، وفاتقك ورتقك ، وظاهرك وباطنك ، وخافيك وعالنك ؟ بل هل لك خبر عمّن كأنه أنت وليس بك ، وكأنك هو ولستَ به ؟ بل فيك منه ، وعليك عنه : أعني كأنه أنت لما دعاك واجتباك ، وخاطبكَ وناجاك ، ووفّاك حقك واصطفاك — وليس بك : لأنك مع الغنى محتاج ، ومع الاعتدال منعاج — وكأنك هو : لأنك متطاول إلى نعوته ، وشديد العشق لمشافهته باقتناء المعارف ، والصبر على المخاوف ، والتعرض للمتالف — ولستَ به : لأنك مع هذا الجهد المبذول ترجع إلى حد مرذول ، وتتميز بشكل ليس له قبول — بل فيك منه : لأنه لولا منائِحُه قِبَلك ما عرفته ، ولولا أنك عرفته ما وصفته ، ولولا أنك وصفته ما اشتقت إليه [٢٦ / ب] ولولا أنك اشتقت إليه ما تهالكت عليه . وفي الجملة ، لولا أثره فيك ما عَزَفت نفسُك عن سِواه ، ولا ذوّبتَ كلك في هواه . وهكذا عليك عنه[١] لأن الآثار فيك بيِّنَة ، والأخبار عنك متظاهرة — أعني بالآثار ما أنت به خَلْق ، وأعني بالأخبار ما أنت به رب . فالحَظِ الآنَ هذه الأسرارَ بعين لم تخلق من لحم ، ولا رُكِّبت من شحم ، ولاجُعلت على طبقات ، بل بعين : الآنَ هي[٢] بالإطلاق ، في حالَيِ الغنى والإملاق ، هي العين التي سجرت[٣] العيون ، هي العين التي نضبت من أجلها العيون ، هي [العين] التي بها جرت العيون ، هي العين التي لها دمعت العيون ، هي العين التي اغرورقت عند ذكرها العيون ، هي العين التي فاضت منها العيون ، هي العين التي انتهت إليها العيون ، هي العين التي ليس لها جَفْن ولا أشفار ، ولا حجاب ولا طرف ولا اختلاج ، هي العين التي غُضَّتْ لها العيون حياءً ، ثم حدَّقت العيون نحوها استجلاءً .

---

١ — ر : علبك عفه : وفي الحاشية « عنه »

٢ — ر : هذه .

٣ — سجرت : ملأت ؛ وفي المطبوعة « سحرت » .

يا هذا : كم تعذبني وتؤذيني ، وتحجبني عن مصالح شؤوني ، بشرح فتوني وفنوني . والله ما يحلُّ لك ، ليس هذا من حق الصحبة ، ولا من ذمام العشرة ، ولا من حسن العهد في الصداقة . أبْقِ عَلَيَّ لي ، وإلاّ فأبقني لك . ما هذه المطالبة الشديدة ، وهذه الهزة المقلقة ، وهذه الفظاظة المستعملة ، وهذه القسوة المتكلفة . أرسلْ خِناقي ، واطلب مني ما أملك ، ولا تَشُقَّ عليَّ فلست من حجر ولا من حديد :

كم تحملون على ضعفي فأحتمل

تستنطقني في المعرفة ، وتحوّلني إلى التوحيد ، وتحادّني في البيان ، ولا تقابلني بالرفق ، وتجري كأنك جواد ، وتقف كأنك كودن ، وتهمّ[1] كأنك حر ، ثم تعجز كأنك عبد ، وتَمُدُّ باعك إلى ما يقصر عنه ، وترمي بوهمك إلى ما تفرّق منه . ما هذا[2] بالرأي السديد ، ولا بالهدي الرشيد ، ولا بالحزم الحميد ، ولا بالعزم المهيد .

سَلْ — هداك الله — عن آفات الأعمال ، وعن وساوس الضمير ، وعن فلتات الجوارح ، أعني اللسان عند انطلاق لفظ ، واللحظ عند [٢٧ / أ] تسريح لحظ ، وما شاكل ذلك من جِلسة غير لائقة بالعبد ، وتُكأة غير مستحبة من ضعيف[3] ، ومن رقدة في غير حينها أو في غير مكانها ، أو من أدب قد ساء ولا بُدَّ من الانحراف عنه والرياضة دونه ؛ [و]عن نية[4] التاثَتْ في العبادة ، وعن حالٍ راثَتْ في تحقيق الزّهادة ، وكسلٍ عَرَض في طلب الزيادة . فأما المعارف والإلهيات وما هو في حوزتها ويجري في جملتها، فما يحل أن تكابرني عليها ، ولا أن تجاذبني إليها ؛ ولا يحل لي أيضاً أن أعقد بيني

---

١ — ر : وتوهم .
٢ — ر : يا هذا .
٣ — كذا ، ولعل الصواب « ضيف » .
٤ — متصل بقوله : « سل » في أول العبارة

وبينك جسراً من الحياء فنتعابر عليه على وقاحةٍ لا تليقُ بنا في السؤال والجواب. لمَ لا نُقبل على أنفسنا فنقوِّم منها ما قد انآد من هذه الأخلاق الفاسدة ، والعادات الخبيثة ؟ حتى إذا نقينا من أدناسها ، واستضأنا بأقباسها ، وتلهّبنا بأنفاسها ، واختلطنا بناسها ، حينئذ نروم من هذا الحديث حرفاً بعد حرف على طريقة أهل الأدب الحسن ، وعادة ذوي الحِكَم والفِطَن .

اللهم : قيضْ لنا منك ما يقفنا على صراطك المستقيم ، ويؤمّننا من الزلل في سواء الجحيم . [يا] قدير[1] يا قديم ، يا حليم يا كريم ، ياذا الجلال والإكرام .

— ١٠ —

اللهم : روِّح صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمر أرجاء قلوبنا بغوامرَ من رِفْدك ، وأذِقْنا حلاوةَ برِّك ، وملِّكنا مقاليدَ مُلْكك ، وجُدْ علينا بك ، وخلِّ بيننا وبينك ، وجلِّ أبصارنا إليك ، واغضض أعيننا عن غيرك ، وأسلفنا كرامتك ، وسهِّلْ مقادتنا في الإيجاب لك ، والاستجابة لك ، والصبر معك ، واجعل أرواحنا مغارسَ معرفتك ، وألسنتنا قواطفَ وصفك [٢٧ / ب] ونعتِك في قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا فروِّنا ، وإذا ضعُفنا فقوِّنا ، وإذا اعوججنا فسوِّنا ، وإذا أصحرنا[2] فآونا ، وإذا اعتللنا فداونا ، وإذا كدرنا فصفِّنا ، وإذا استأسنّا[3] فنقِّنا ، وإذا فسدنا فاستصلحنا ، وإذا نكرناك فعرفنا ، وإذا جهلناك فعلّمنا ، وإذا تعسّرنا عليك فسهلنا ، وإذا افتقرنا فأغننا ، وإذا بِنّا منك فصلنا بك ، وإذا التوينا عليك فقوِّمنا لك .

---

١ — ر : قدر .
٢ — أصحر القوم : برزوا الى فضاء لا يواريهم فيه شيء .
٣ — اضطرب الناسخ هنا فكتب : واذا دنسنا استأسنا ، ولم يرمج على الأولى ووضع علامة «صح» على الثانية .

أيها الصاحب المؤثر للطائف البرّ ، الكاتمُ لغوامض السرّ ، الحافظُ لأعيان الغيب ، الطاهرُ من أدران الرَّيْب ، الشاكر على اليسير من النعمة ، الراعي للقليل من الحرمة ، المتمكن في درجات المعارف ، المخوّض في سكرات المتالف[1] : متى انفتح بصرك لطلب حياة نفسك ، وانشرح صدرك في تعرف كمالك وفضلك ، وانجابت عنك غيّابتك ، فبدت لروحك منك غايتك ، وحنّ فؤادك إلى الفحص عنك بما يحقق يقينك ، ويجمع لك صفتك ، ويحرس عليك سمتك ، ويوجدك بك ، ويصفّيك منك ، ويهيؤك لمن هو أولى بتصرفك[2] ، وأملك لتصريفك ، وأعلم بصرفك ومُتَصَرَّفك — فقابل ذلك كله بالقبول ، واستعنْ عليه بالصبر ، وصِلِ الصبر بالاستسلام ، وامزُج الاستسلام بالتوكل ، وحلِّ التوكل بالمحبة ، وثَبِّت المحبة بالصدق ، وجُلْ في أثناء الصدق بالأخلاص ، ومُجْ في الإخلاص بالوجد ، وجُدْ في الوجد بالموجود ، فهنالك مكانك ومَعانك ، وهناك سرارك وعِلانك ، ونكرتك وعِرفانك ، وولايتك وسلطانك ، وحجّتك وبرهانك . وهناك أنت أنت : سلالة المعرفة ، ومُصاص التوحيد ، وصفو الحق [٢٨ / أ] وعينُ العين ، وكُنْهُ الكُنْه ، فلعلك إذا شخصْتَ عنك بانسلاخك ، وانسلخْتَ منك بشخوصك ، وباينتَك مباينة ، وعاينتَك معاينة ، وكنتَ فيما كنتَ غير كائن ، تصلح لمنادمة من هو أولك وآخرك ، وتؤهّلُ لمواصلةِ من هو وليُّك وناصرك .

هذا ذَرْوٌ من النجوى في هدايتك وإرشادك ، ونَبَذٌ من الشورى تجدُ به السبيلَ إلى استقامتك وسدادك ، فإن هشّت لها روحك ، وثاب إليها عقلك ، وثبت عندها سرك ، وانخزل عنها اعتراضك ، وانجلى دونها امتعاضك ،

---

١ — هذه قراءة قريبة للأصل حيث ورد : المبخوض في سكرات (منكرات) المتالف ؛ ولكنها مع ذلك لا تلتئم مع ما قبلها من حيث المعنى العام .

٢ — ر : بتصريفك .

فازدد منه ازدياداً لا يُنفّر قواك عن القبول ، ولا يَحلّ عُراك عن القيام بالفروع والأصول ؛ ومتى سمعت — في مطاوي حالك ومناشرها ، وفي مياسر شؤونك ومعاسرها — هاتفَ العقل فلا تحفلْ به ؛ ومتى أحسستَ — في مُفْتَرَقِ حالك ومجتمعها ، وفي مَظْعَنِ مُناك ومُرْتَبعها — بهاجس الحسّ فلا تَعُجْ عليه ؛ ومتى أوجست — في معتقدك ومعتمدك ، وفي مفاتحك ومغالقك — خيفةً من تسويل نفس وتزيين هوى ، فلا تَفْرَق منه ولا تنجذب إليه .

بلى تقبّل كلمةً أخرى ، ففيها صحتك وسلامتك ، ورفعتك وسعادتك : اصْفُ من كدر النفسِ العائقةِ لك عن معاني القدس اللائقة بك ، فإن في صفائك اتصالَ بقائك ، وفي كدرك دوامَ فنائك ؛ ولا تركبْ بحرَ البحث فتغرَق ، ولا تَغُصْ علـى عمقه فتتوى[1] ؛ إن عجزت فلا تستعفِ استعفاءَ المتخوفين ، وإن مرضتَ فلا تستشفِ استشفاءَ المُترفين ، وإن مَلِلْتَ فلا تستكفِ استكفاءَ المتعيِّفين[2] .

يا هذا : إن كنت تسمع ما يُسمع فاقبله واستبشر به [٢٨/ب] وقمْ عليه بالحق ، وكُنْه[3] بالصدق ، ولاحظ أمام ذلك قديمَ إحسانه إليك ، وغريبَ امتنانه عليك ، وغامرَ أياديه لك ، وصوافي مواهبه عندك : كيف أظهرك بقدرته البالغة ، وكيف قلّبك في نِعَمه السابغة ، وكيف عجنك من صنعته الرائعة ، وكيف دلّك على معرفته البارعة ، وكيف قرّبك من حقيقته الشاسعة ، وكيف أمّنك من سطوته القارعة : يحوشك بهذه الأعاجيب إلى نفسه حوشاً بعد حوش ، وينوشك بهذه الأساليب إلى أُنْسه

---

١ — توي : هلك .

٢ — المتعيفون : الطالبون للمعروف .

٣ — كنه : احفظه ؛ والضبط من المخطوطة .

نَوْشاً بعد نوش . كل ذلك لتعرف لَحْظَكَ ولفظك ، وتُحْرِز نصيبك ، وتبادر ما لك ، وتنفي شينك ، وتنقّي رينك ، وتدخّر ما يأخذ بيدك ، ويجذب بضبعك ، ويرفع من طرفك ، ويُعلي من كعبك ، وينحو[1] لنفسك؛ ولتكون مستضيئاً بمصباح دينك ، مستنيراً [...][2] متجلبباً بجلباب عبادتك ، متسربلاً سربال زهادتك ، وأنت على عادتك في الفتور والنفور ، مؤثراً لمخاوض الظلمات على النور . لم ذلك ، وبمَ ذلك ، وفيم ذلك ، وعلام ذلك؟ أما أزاح علتك ؟ أما وفّر طاقتك ؟ أما نَهَجَ سبيلك ؟ أما وضّح دليلك ؟ أما رفق بك ؟ أما أخذ بيدك ؟ أما أنعم عليك ؟ أما أحسن إليك ؟ أما جال في وهمك ؟ أما ساح في سرك ؟ أما سكن حَرَمك ؟ أما قبل بِرَّك ؟ أما قَدَّم إسعافك ؟ أما عَظَّمَ ألطافك ؟ أما قذّى عينك ؟ أما أمدّ كونك ؟ أما آثر نجاتك ؟ أما قدّم غياثك ؟ أما نصر وليّك ؟ أما خذل عدوك ؟ بلى ، ولكن الإنسان لربه لكنود[3] ، ولآياته عنيد ، ولنعمه جَحود .

أيها الممتَّع المؤنّس ، والمفرَّج المُنفّس : أما سمعْتَ مَن قال : أين تُقْتَطَفُ ثمار العُقْبى ؟ فقيل له : حيث تُغْرَسُ أشجار البلوى . فقال : فمتى [٢٩ / أ] يُقضى ذمام الصحبة ؟ فقيل له : إذا سَكن في مساكن الغربة ، يتجرع الكُربة بعد الكربة ؟

يا هذا : لا تُكذبنّ ولا تُخْدَعنّ ، ولا تُقْمَرَنّ[4] ولا تُسحرن ، فالحديث ذو شجون ، والحال مختلفة الفنون ، والأمر في الجملة مظنون ، والإنسان فيما بينهما مغبون مفتون . ولكن على كل حال : كَلَحُ الظاهر

---

١ – ر : وينجو .

٢ – كأنه سقط من العبارة مثل قوله : مستنيراً [بنور هداك] أو ما هو بهذا المعنى

٣ – يتطلع الى الآية السادسة من سورة العاديات (ان الانسان لربه لكنود) .

٤ – يقمر : يغلب .

خير من مغص الباطن ، وعَتْب اللسان أخفُّ من حقد القلب ، وحياة بشكٍّ خير من موت بيقين ، وقليـــل بنقد خيرٌ من كثير بنسيئة[1] ، ومُتوِّهٌ بعلمٍ أشفقُ من مرشدٍ بجهل ، ونفاقٌ ببُقيا أجدى من تجليح[2] باستئصال ، وقابلٌ لعذر أرحم من مُتَجَنٍّ لغير ذنب ، وشاهد بتعريف أبلغ من غائب بتسويف ، وخادع بعيان أنصح من محقق بخبر .

هذا كلامي بعد ثقة أضرَّت بي ، ومِقَةٍ سلبت لُبِّي ، وحالٍ تناجيك وتحاجيك ، وتشاكيك وتباكيك . وُصِل الجدُّ بالمزح ، ومُزِج العَــذب بالملح ، وخلط العتب بالصلـــح ، ليكون أغرب في غرائب العبرة ، وأذهب لعجائب الفكرة .

يا هـــذا : إن سهر طرفك فاجعله[3] يراعي محاسنَ وجهـــه ، وإن رقد جفنك فليلهوَ بطيف خياله ، وان ألحَّ فؤادك فليستمتعَ بالطمأنينة إليه ، وإن توالى خبطك فليتفضل بشهاب قبس منه ، وإن اعوجّ لسانك فليرحم حالك معه ، وإن استنّ شكرك فليعلَمَ مُضاعَف برّه عندك ، وإن حَرِج صدرُك فليُهدِي أريحيتـــه إليـــك ، وإن ارفأنَّ[4] جأشك فليذيقك[5] خصوصية أنسه بك .

دع ذا أيضاً ، فالحدُّ أمضى من أن يستراح إلى هذا ، واستيقن أنه هو الخصم والحَكم ، وقوله الفَصْل والحُكْم ، وأنّه بك أبعدك منك ، ولك شوقك إليك ، وفيك ظهر ، وعنك استتر ، والظهور والاستتار [٢٩ / ب] صفاتك ، ولستَ[6] في الجملة غـــيره لكن ليس هو في التفصيل إياك .

---

١ — النقد : الدفع عاجلا ، والنسيئة : الارجاء والتأجيل ؛ وفي المطبوعة قراءة غريبة هي « وقليل ينفد خير من كثير يتسنه » ثم شرح طويل لمعنى لفظة « يتسنه » في الحاشية .

٢ — التجليح : المجاهرة بالفعل ، وذلك مباين للنفاق الذي يتطلب المواربة والتستر .

٣ — سياق العبارات التالية يحتم أن نقرأ « فليجعله » .

٤ — ارفأن : سكن .

٥ — ر : فيلذقك .

٦ — ر : وليست .

فإن خبّرت عن الاسم بالاصطلاح كان ضلالاً منك ، وإن خبّرت عن المعنى بالمعقول كان وبالاً عليك ، وإن خبّرت عن المعنى والاسم كان محالاً عندك ، وإن قلت المعنى أصلٌ ، فالاسم فرعٌ عليه ، وإن قلت : الاسمُ أصلٌ ، فالمعنى غيرُ مشارٍ إليه ، وإن قلت : المعنى والاسم أصلان فأيُّهما يعوّل عليه ؟ وإن قلت : الاسم والمعنى فرعان ، فأين الأصل الذي تقف لديه ؟ هيهات أن يكون مُخَبَّراً بلسان ، أو مُضمراً بجنان ، أو محوياً بعبارة ، أو معنياً بإشارة ، أو معتمداً بحزم ، أو معتقداً بعزم ، أو مَطوياً بقلب ، أو مَلوياً بلبّ ، أو موهوماً بحدس ، أو مهموساً بهمس ، أو ملموساً بنفس ، أو محسوساً بحس ، أو معقولاً بعقل ، أو موجوداً بعيان ، أو مفقوداً من مكان ، أو موسوماً بزمان ، أو محرّفاً بنعت ، أو مُعَرّفاً بوقت ، أو مصرّفاً بلفت . حشو القلوب منه التخييل المحض ، ونهاية الإنسية منه التمثيل البحت ، والحق من وراء ذلك على التحصيل الصرف .

أيها السامع : هذا ديوانٌ ما فُضَّ ختمه منذ ختم ؛ هذا بابٌ ما قرع مذ أغلق وأُبْهِم ؛ هذا مقال ما استنبط علمه مُذْ كُتم .

يا هذا : إنْ وجدت من هذا التنميق والتزويق وطراً فاقْضِه ، وإن فاتك فسلّم لأهله ولا تقفُهُ[1] ، لأن المعترضَ على الخلق متعرضٌ لخزي الخلق ، فكيف المعترضُ على الحق ؟ والمستزيدُ من الناس ممقوت ؛ فكيف المستزيد من إله الناس ؟ جُهْدُ المُقِلّ في هذا الشأن كثير ، وإفضال المُثري فيه خطير ، وزُخرف القول فيه غرور ، وتحبير اللفظ فيه تحيير ، وهتك السّتر فيه افتضاح ، وكتمان الحال فيه إيضاح ؛ مَقادُ القولِ فيه سهل ، مَرادُ القائلِ فيه صعب ؛ الرجاء فيه ممدود [٣٠/أ] والحق به مصمود ؛ التلبيس فيه تأنيس ، التحريشُ فيه تنعيش ؛ الخُلْف فيه إنجاز ، الذلُّ فيه إعزاز ؛ الدَّرَكُ

---

١ – لا تقف : لا تتبع ، ومنه قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) .

فيه فوات . الموت فيه حياة ؛ الزمانُ فيه بالحق ممتدٌّ بلا زمان ؛ والخلقُ فيه عن الحقِّ مرتدٌّ بـــلا بيان ؛ السلامة فيه غنيمة ، فكيف الغنيمـــة ؟ [العبودية][1] ربوبية ، فكيف الربوبيـــة ؟ البعض فيه كلٌّ . فكيف الكل ؟

أوه : التبسَ الجهرُ بالكتمان ، وامتزجَ الخبر بالعيان ، واشتبه العـــدم بالكيان ، واختلط الكرامةُ بالهوان ، واعتاق الفقدان بالوجْدان ، وغار البيانُ في البيان فجلَّ البيان ، واستنار الشان في الشان فعزَّ الشان . فلا جِيدَ إلا وهو عاطلٌ بعد التحلّي ، ولا حقَّ إلاّ وهو باطل بعد التجلّي ، ولا مُزْنَ إلا وهو سَحٌّ بعد التولي ، ولا قَلْب إلا وهو عاشق بعد التسلّي ، بحكم لا مردَّ له ، وسلطان لا قِبَل به ، وقضاء لا متنفَّس فيه ، ورقّ لا عتق معه ، وأسر لا فَكاكَ منه ، وعَتْبٍ لا عُتْبى بعده ، وكَرْبٍ لا تنفسَ عنده .

فما أقول وما أصنع إن كان لسان التناجي محصوراً ، وزمان التهادي مقصورا ، فهلمَّ حتى نتشاكَى ونتباكَى ، لعلنا نُبَرِّد غليلاً ، أو نشفي عليلاً ، أو نجد إليه سبيلاً ، فقد صرنا إلى حدِّ العَطَب ، مُذ استمرّ بنا كَيْدُ الزمان واستتبَّ ، وانتهينا إلى حريم اليأس وعَرصة القنوط ، لا يُجاد لنا بعزاء ، ولا يُفاض علينا صبر ، حتى كأنّ الذنب كلّه لنا ، وحتى كأنّا شقينا بنا ، وحُرِمنا منا ، أو بُدِّلنا عنا .

ها أنا أصرح وأقول : يا كيدَ الزمان، ويا نكدَ الأيام، عُوجا على رسم جسمي فخذا حظكما منه بقَسْمي ورَسْمي ، فما لكما في ساحة هواي له مَسْكَنٌ ولا مرْبَع ، ولا لكما في حل عَقْد حُبّي له مأمول [٣٠/ب] ولا مطمـــع . فنابذاني وكايداني ، وخالفاني وحارباني ، فما لكما مني إلاّ ما تريان ، ولا لكما عنادي إلا ما تسمعان . يا نسيم رَوح الاجتماع ، انصرفْ مودّعاً ؛ يا

---

١ – زيادة لازمة .

طيبَ لذة الشكوى تَبَاعَدْ مُغَرِّباً إن شئت أو مُطَّلِعاً ؛ يا حلائل النجوى احْرُمي[1] ؛ يا نوازع القلب اسلمي ؛ يا نيرانَ الهجر توقدي ؛ يا مضاجع البلوى تمهّدي ؛ يا غاية المنى تباعدي ؛ يا مقادير الدهر ترافدي[2] ؛ ياحلاوةَ الهوى أمِرّي ؛ يا عاذلتي على جنوني اهدَئي عني وقَرّي ؛ يا مناهل العيش تكدّري ؛ يا معارف الغيب تنكّري ؛ يا حسرات القلب تحرّقي ؛ يا أستار الضمير تهتّكي ؛ يا معالم الأنس بِيدي ، يا عُقَبَ الهوى زيدي ثم زيدي ؛ يا مصائبَ الدنيا اقصديني وانزلي بي ؛ يا عجائب الدهر والأيام تعجّبي مني !

أتُرى بَرَّدْت غليلاً طالما عهدته يَغْلِي ؟ أترى [قضيت][3] دَيناً طالما تَقَضَّى به مَطْلي ؟ أترى بلغتُ غاية نزعت إليها بجَوْري وعدلي ؟ أترى تخلّصْتُ من معدنٍ ضاق على بعضي وكُلّي ؟ أترى وصلت إلى من أفنيتُ له عمري في حِلّي ورَحْلي ؟ أترى اشتفى غليلُ مَنْ أفنيتُ له فيه عِزّي وذلّي ؟ والله المستعان .

أخشى والله ما لي من هذا القول إلا عناؤه ، وما لي من هذا المعنى إلا هباؤه ، وما لي من هذا المدّ والجزر إلا غُثاؤه .

أستغفر الله من زلة أبكتني دماً ، وأستقيله عثرةً أوردتني سقماً ، وأسترحمه لعبرة قتلتني ندماً أو سَدَماً .

اللهم : اكفنا مؤُوْنة قولٍ لا تُراد به ، وغائلة معنى لا تصح[4] فيه ؛ وغِبَّ أمرٍ لا تكون عنده .

اللهم : اصرف عنا الشيطان وتغويله[5] ، والهوى وتسويله ، والباطل

---

١ – يدعو ما كان حلالا من النجوى أن يصبح حراماً .
٢ – ترافدت : جاء بعضها في أثر بعض ؛ وفي المطبوعة : « تراقدي » .
٣ – زيادة ضرورية .
٤ – ر : نصح .
٥ – التغويل : التلون والتضليل ؛ وفي ر والمطبوعة وردت اللفظة بالعين المهملة ؛ ولعلها أن تقرأ « وتهويله » ، فلذلك وجه أيضاً .

وتعليله ، وأرِنا منك الحق لنتوخاه بتوفيقك ولطفك اللذين هما تمام كل شيء وبهجةُ كلِّ شيء . [٣١/أ]

- ١١ -

يا لسانَ الوقت ، وواحدَ هذا الورى ، وعينَ الزمان : اسمع حديثي عن شوقٍ إليك لاهب ، ووَجْدٍ به غالب ، وعينٍ نحوك رانية ، ونفسٍ في يدك عانيةً ، وكلٍّ عندك رهين ، وبعضٍ سوءُ إغفالك له مُهين ، وجُلٍّ إذا سُبر كاسد ، ودِقٍّ إذا فُتِّش فاسد ، وحال إن قام خطيبها بشرحها فَضَحَ وافتَضَح ، ووديعة إن طلبها صاحبها جَرَحَ واجترح ، ورأيٍ كلما صُفِّي كدر ، وكلما عُرِّف نكر ، وأمر في الجملة لا ينادى وليده ، وسر في التفصيل لا تتناهى وفوده .

ومما قد زاد في بلوى[١] هذا الخطاب ، وحاشي إلى هذا الكتاب ، أنّي قانط من عَوْدك إلى معهودي منك ، مرحومٌ في حالتي التي مَلَكْت زمامي فيها لك ، طامع في أريحيةٍ تحرّكاك ، وفتوّةٍ تبعث[٢] راقدَ نشاطك ، وتطلُعُ على شمس رحمتك ، وتجلي عني كُرَبَ الفتنةِ بك . وما اشتملت عليَّ هذه الأمور التي كنيت[٣] عنها لنيّة تغيَّرت مني فيك ، ولا لسبب اقتضاني ذاك لتقصيرك ، ولكن لأنك مُعَلّىً عن محلي الهابط ، ومصونٌ عن التفات إلى ما يبتذلك ، ومرادٌ بالخصوصية التي هي غاية آمال الخلق . فهنّاك من أعطاك ما أعطاك ، وروّاك من سقاك من سُقْياك[٤] ، وأعاذك من عينٍ تحيل النهار ليلاً ، وتَقْلب السرورَ وَيْلاً ، وتجعلُ القَطْرَ سيلاً ؛ وَطَرَحَ في قلبك رقةً على من يناديك من بعيد فلا تحفظه ، ويناجيك من قريب فلا تلحظه ،ويسألك

---

١ - ر : بلواي .
٢ - ر : متعب .
٣ - كذا في ر ولعلها : كتبت ، لأنه أشار فيما قبل إلى كتاب بخطه « وحاشي إلى هذا الكتاب » .
٤ - لعل العبارة : ورواك من سقاك ما سقاك .

أن تعينه على أن يَحْيَى لك ما طاب لك ، ويموت فيك إذا أردت ذلك واخترت. وهذا دعاء إن سمع مني كان حظك فيه أسنى من حظي ، وقسطك منه أوفرَ من قسطي ، لأنك تُعرف بالفضل [٣١ / ب] الذي وهب لك ، وتُشْهَر بالكرم الذي وُفِّر عليك ، وتتلذذ بالشكر الذي هو مطلوب الخلق . فأَمِّن الآن ــ حاطك الله ــ على دعائي ، وقَرِّبْ أذُنك من ندائي : خذ بيدي من بلائي ، فلأنْ أبقَى في خدمتك وأُزكِّي على طاعتك ، أشرُف لك من أن أموتَ على هذا الكمد بلا رَوْح ساعة ، ولا فرح لحظة ، ولا نيل بغية ، ولا تحقيق عِدَة ، ولا تعليل بنظرة ، ولا إقالة عثرة ، ولا ستر عورة ، ولا قبول عذرة . فالجلالة والرفعة والكرم والرياسة في إحياء مثلي واستبقائه ، لا في إفنائه وإردائه .

سيّدي : انظر إليَّ ؛ سيدي : أقْبِلْ عليَّ ؛ حبيبي : ادْنُ مني ؛ صاحبي : احفظ عني ؛ وإذا نظرت فارحم ، وإذا أقبلت فتكرم ، وإذا دنوت فجِدْ ، وإذا حفظت فجُدْ . وإنما أردّد في هذا المكان لسان التلطف حتى تعيد عليَّ ما فقدته من التعطف ؛ وإنما أُكلِّف عيني البكاء حتى تُنْعم عليها بفرحة اللقاء ؛ وإنما أعذِّب روحي بالشوق إليك حتى تملكها بالأنس معك ، وإنما أعيدُ فنونَ القول وأبدي حتى تتفضَّل بما ملَّكَكَ الله وتُسْدي ؛ وإنما ألهج بذكرك عند القريب والبعيد ليكونوا شفعائي عندك ببذل المزيد . هذا على أني ، وإن لم أقل بلساني حرفاً ، فإن فؤادي يفيض بما فيه غرفاً فغرفاً ، لأنه طافح بجفائك ، نازح عن وفائك ، عارٍ من عطائك ، حالٍ بولائك ، فانٍ ببلائك ، باق ببقائك ، مُتَنَاهٍ في وصف عَلائك ، ومستغيثٌ بالله من شدة غلائك .

فهذا حديثي إذا سكتّ ، وذلك شأني إذا نطقت . فقل لي الآن : كيف المنجى من هذا الفضاء الغاصّ ، وكيف الخلاص ، ولات حين مناص ؟ وهل الرجوع بعد هذا كله إلا إلى إطراق يُلْهِبُ الأحشاء ، ويذري الدموع

ويزعج [٣٢ / أ] القرار ويسد باب رَوْح الحياة ؟ أو إلى تهلّل وجه بالتصنّع ، وإنشاء حركة بين الإجابة والتمنع ، ولفظ مَدارُهُ على الزخرفة ، ومعنى محاره[١] إلى السفسفة ، وليس بعد هذا القول قول ، ولا وراء هذا السكوت سكوت .

اللهم غفراً ؛ بلى : هناك ما يطوّحُ نُطْقَ كلّ ناطق ، ويستفّي سكوتَ كلّ ساكت ، بواردات من ناحية الحق ، ليس يهلك فيها شيء من رسوم الخلق ، وإنما هي هبّاتٌ نسيم رقت[٢] فترنّحت ، ولطفت فتسنّحت . من رام الخبر عنها تاه ، ومن حدّث نفسه بالظفر شاه . وكيف يكون ذلك وإنما هو كتمان في وجدان ، ونكرة في عرفان ، وعِرْفان في حدثان ، فالزمان لا يرسمه سَبحاً ، والخاطر لا يحتازه[٣] سَنْحاً ، واللفظ لا يقوم به وزناً ، والمراد لا ينقاد له حزناً ، والدعوى لا تمرّ به وهماً ، والجدال لا يحصّله فهماً. ذلك شأن لا يلوذ به نبأ ، ولا يَطُورُ به حِلْم ، ولا يُنَقّر عنه بأَيْن ، ولا يستعان عليه بكيف ، ولا يستعمل فيه لِمَ ؛ جلّ فدق ، ودق[٤] فجلّ — أعني جلّ في نفسه فدق على من رامه[٥] ، ودقّ في لطفه فجل على من سامه. فطوبى لمن بُصّر فأبصر ، وأُشْهِد فشهد ، وجُلِيَ عليه فعَايَنَ ، وخُصّ به فتلذذ، ووُهب له فتنعّم ، وأُهّل له فنال ، واحتبَى منه فأدرك . نعم ، وطُوبى لمن سمع به فسأل عنه ، وقيل له فسعى من أجله ، وشُوِّق في محلّه فاشتاق ، ورُغّب في حظه فنشط ، وهُزَّ إليه فاهتز . نعم ، وطوبى أيضاً لمن عجز عن هذا كله فتمنى ، وسأل عنه[٦] فتأوه ، وسمع وصفه فحنّ إليه ، والتذّ بحديثه فَجُنّ ، وتدلّه بوهمه فنزع ، وتوله بوجده فتوسع .

---

١ – محاره : عوده ورجوعه ؛ وفي ر : مجاره ؛ وفي المطبوعة « مجازه » .
٢ – ر : زفت .
٣ – غير واضحة تماماً في ر ؛ وفي المطبوعة : « يجتاز » .
٤ – ر : وما دق .
٥ – ر : رام .
٦ – ر : : عنها .

يا هذا : أتظن أن هذا أمر قليل وشأن حقير ؟ عليه والله طالت زفراتُ الزافرين ، وبسببه [٣٢/ب] سُكبت عَبَرَاتُ الباكين ، ومن أجله سَهِرَتْ عيونُ المشتاقين ، ولولا ذاك قرّت النفوس ، وسكنت الحركات ، وهدأت الأعضاء ، وخفت المؤن ، وزال التشكي ، وسقط النزاع ، وذهب الأنين ، وفُقِد الرنين ، ورفع الحنين .

هيهات ، وأنّى لك بذاك ، والمهج تذوب خوفاً من فراقه ، والخدودُ تُلْطَم حسرةً على الفائت منه ، والجيوب تشقّقُ حرقةً على ما عهد عليه ، والآمال تغلغل إلى ما لعلها لا تصل إليه . فهل يبقى بعد هذه ترنم بلحن ، أو تنغّم بشجو ، أو تطاولٌ إلى مذكور ، أو تقاعدٌ عن سرور ، أو تحدث بما يُجْدِي ، أو تخلص بما يُرْدِي ويُسْدي ؟

بدأتُ في محادثتك على مذهب المترسّلين الذين يبنون بُنيانهم بالثقة واليقين ، فنشبت معك في فنونٍ تضلُّ فيها[1] ضروب الخلق أجمعين . وهذا أيضاً من رواجع القصة ، وتوابع الإشارة ، وطرائف ما يبدو من باحة الغيب في ساحة الشهادة ، ويغيب من ساحة الشهادة في باحة الغيب . فإن طُلِب فات ، وإن حُقِّقُ طاح ، وإن يُئِسَ منه قابل ، وإن تُحيِّر فيه استوسع ، وإن أعرضَ عنه تعرّض ، وإن تُعُرِّض له أعْرض . فكيف أصفه لك وأنا معذب بالرّمز منهُ معك ، لأني أذكرُك معجباً بك ، وأشتاق اليك نازعاً نحوك ، وأنشر فضلك تلذذاً بذكريك[2] ، وأنت على سهوك أو على تساهيك ، أو على لهوك أو على تلهّيك . فإن كان ما أقوله ظنّاً مني فيك ، فارفعه ببشر منك عند اللقاء ، أو بتهنئة عند العطاء ، أو برأفة عند البلاء ، أو برحمة عند اللأواء ، أو بفرجٍ[3] عند البأساء ، أو برقة عند الضراء ، أو ببرقة عند الظلماء ، أو بزورة عند شدة الغماء . وإن كان حقاً فاعترف بتقصيرك فإنه أبقَى لشرفك ، وأنفى لسرفك ، وأدعى إلى حسن العِدَة عنك ، وأقرب إلى اعتقاد البُقْيا منك . فما تقول —

---

١ — ر : فيه .
٢ — يعني بذكري إياك .
٣ — ر : بفرح .

ابقاك الله – فيمن يُقْنعه منك اعتراف بتقصير إن كان ، أو إحسان بيسير إن [٣٣ / أ] وجدتَ إليه الإمكان ؟ وليس بعد هذه الملاوذة[١] مستزاد ، ولا دونها[٢] لباغي الحياة مستراد .

فاعطف – رحمك الله – على شَبَحٍ قد تحكم فيه البَلْوى[٣] ، وأقام بين الحياة والردى ، لا يذوق أحَدهما على تمامه ، فيكون في ذلك رَوْحه ونعيمه ، أو ما يحزن عليه صديقه وحميمه . فيا ويح مَنْ هذا ذِكْرُه ، وعلى هذا ظاهره وباطنه ، وإلى هذا الكَنَفِ عَوْده وبدؤه ! ما أحوجه إلى نائحة تبكي عليه ، وماذا تُغني النائحة ، وماذا تنفع الباكية ؟ هل في ذلك إلا تعبٌ لا يرد نفعاً ولا يدفع ضُرّاً ، ولا يقرب مطلوباً ولا يبعد مكروهاً .

وغاية سؤالي لك بعد هذا التكرير والتكثير ، وبعد هذا الأذان والتكبير ، وبعد هذا التقدير والتقرير ، وبعد هذا التكسير والتجبير ، أن تأخذ معي بحكم الفتوة التي هي فوضى[٤] بين أهلها ، بها يتوادّون وعليها يتحابون ، ومن غَرْسها يقطفون ، وعلى عرشها يعكِفون ، وإلى أركانها يعطفون ، وإلى قُلَلها يَعْرُجُون ، ومن أبوابها يخرجون ويلجون . فإنك إن بَخِلتَ عليَّ بهذا القدر ذهب عشقي لك في الهباء ، وحصلتُ من حالي معك على العزاء . وتلك والله قاصمة الظهر ، وآبدة الدهر . والله يَهديك إلى التي هي أشبه بمحاسنك ، وأجدى في عُرْض فضائلك .

اللهم : لا تؤاخذني بإقبالي على خلقك ، وبمسئلتي إياهم على ما هو عتيد عندك ، وبتواضعي لهم فيما أجده حاصلاً قِبَلك ، فإنما ذلك فَزَعٌ مِنّي إلى كلٍّ من ادّعاك ، وتحلّى بحبك ، وانتمى إلى خدمتك ؛ وبفضل حبّي لك

---

١ – الملاوذة : المراوغة والمداورة ، وقد تجيء الملاوذة بمعنى المقاربة ، وهو معنى صالح للسياق في النص .

٢ – ر : دونه .

٣ – لعل الصواب : قد تحكم فيه البلى .

٤ – فوضى : شركة ؛ يقال : متاعهم فوضى بينهم اذا كانوا فيه شركاء .

أحب كل محب لك ، ولفرط وجدي بك أجدُ بكلٍّ واجد بك ؛ أنت المُطَّلع على خبء الضمير ، والمحيطُ بكلٍّ مستور ، والمصافي كلَّ من صافاك ، والموالي كلَّ من والاك ؛ لك الفضلُ في الثاني لأن لك الفضلَ في الأول ، وأنت الموجود في كل زمان ، والصاحبُ [٣٣/ب] لكل إنسان . لا تخفى عنك ذرّةٌ ، ولا تفوتك خَطْرة ؛ تَجْزي بالحسنة أضعافَها ، وتمحو السيئة عن أصحابها ؛ لك الآلاء الخفية ، والأيادي الجليلة[1] ، والآثار المكشوفة ، والأخبار المعروفة ؛ والأنفاس عليك تتحرّق ، والجباه من أجلك تتعرّق ، والعيون اليك بالشوق ترقرق . لك مع كل رُوح رَوْح ، وفي كل قلب تقلّب ، وعلى كل فؤاد رقيب ، ومع كل نفس منفّس ، وإلى كل بعيد مقرب ، وفي كل موجود دلالة . طُلبتَ فلم توجد ، ووُجدتَ فلم تُعرَف ، وعُرفتَ فلم تُوصَف ، ووصِفْتَ فلم تُلْحق ، وشوهدت فلم تُدْرك . وكيف لا تكون كذا وفوق ذا ، ونحن لا نحيط ببعض خلقك على خوافي ما بطن فيه من حكمتك ، وبوادي ما ظهر عليه من قدرتك ؟ وإذا كان عجزنا عن ذلك يفضحنا عندنا ، و يردنا علينا ، ويوارينا فينا ، ويخجلنا منا ، ويعكسنا إلينا ، فما قولنا فيما خلا ذلك مما لا نحسّه بمشاعرنا ، ولا نلحقه ببصائرنا؟ على أن مشاعرنا بك تُحِسّ ، وبصائرنا بك تلحق ، وكلنا لك وإن كنت أعرتنا ذلك ، وكلنا بك وإن كنا مغترين بذلك . ولَّيتنا بأمرك ونهيك ، ثم ولَيتنا بعلمك وإرادتك ، فعلينا أن نؤدّي ما تقدّمتَ به إلينا ، وليس لنا أن نعترض عليك فيما تفرّدت به دوننا ، لأنك مالِكُ قليلنا وكثيرنا ، ومُصرّف أولنا وآخرنا ، والحاكم بما تراه فينا مما ساءنا وسرّنا . يا أحكم الحاكمين ويا أرحم الراحمين : لك البَسْطة ، ولنا بها الغبطة . فقِنا منك السَّخْطة ، وإن وقعنا في الورطة ، ونشبنا[2] في السقطة .

---

١ – قد تكون أيضاً « الجلية » بمعنى الواضحة البينة .

٢ – ر : ونشينا .

إلهنا : إنّا لا نَمَلُّ من مواجهتك ، ولا نَرْوَى من مناجاتك ، ولا نسلو عن حبنا لك ، ولا ننسى أبداً ما توالى علينا من نعمتك . فنحن نذكرك سراً وجهراً [٣٤ / أ] وحُلماً وانتباهاً ، وعلى كل حال تَلَوَّنتْ بنا ، وفي كل مكان تغيَّر علينا : إليك ننتسب ، ورضاك نكتسب ، وأرواحَنا في طلب ذاك نحتسب ، فَصِلْنا بتوفيقك ، ولا تُعرنا من إحسانك ، ولا تُحوجنا إلى أحدٍ من عبادك . يا من إذا أغنى أقنى ، وإذا أفنى أبقى ، وإذا أعطى أسنى ، يا ذا الجلال والإكرام[1] .

يا هذا : لك أحوال في يقظتك ومنامك ، وحركتك وسكونك ، وغضبك ورضاك ، وأخذك وعطائك ، ووحدتك ولقائك ، وحرصك وعفافك ، وقبضك وبسطك ، وعلمك وجهلك ، ورياثك وإخلاصك . فاجتهد أن تكون في يقظتك ومنامك ناظراً إلى الله بالخَشْية والحياء ، وفي حركتك وسكونك أن تكون وازناً لها[2] بالعدالة التي تحفظ عليك ما لك ، وتنفي عنك ما ليس هو لك ، وفي غضبك ورضاك أن تكون ثابتاً على سَنَنٍ : لا يزدهيك الرضى ولا يستغرقك الغضب ؛ وفي أخذك وعطائك أن تكونَ حاضر الذهن متوقيّاً من الغلط لك وعليك ؛ وفي وحدتك ولقائك جامعاً لمالك في قضاء الحق عنك وتغافلك عن قضاء الحق لك ؛ وفي حرصك وعفافك متحاجزاً عن كل ما يشينك ؛ وفي قبضك وبسطك على ما سلف القول في نظائره معك ؛ وفي علمك وجهلك مستسلماً لمن هو أولى بك منك ؛ وفي رياثك وإخلاصك آوياً إلى مَالِكِ زِمامِك ومصرِّف خُطامِك .

اللهم : إنا نروغ عنك بجهلنا الذي ابتليتنا به ، ونريغ إليك بعلمنا الذي كاشفتنا به ، ونقف حيارى بين أمرك الذي استصلحتنا عليه ، وبين علمك

---

١ – ورد بعد هذه اللفظة : « نسخة أخرى » ، فكأن الرسالة السابقة ختمت ، ووجد الناسخ زيادة أضافها في هذا الموضع من نسخة ثانية .

٢ – الضمير عائد الى لفظة « الأحوال » .

الذي أدرجتنا فيه . وأعجب من هذا كله أنك بَصَّرتنا فواتح الأحوال [٣٤ / ب] وأعْشيتنا عن خواتم الأعمال ، فمتى حاولنا دَرَكَ القريب بَعُد ، ومتى تطاولنا إلى لحوق البعيد قَرُب . فلا ما نناله يؤنسنا بالاستمتاع[١] به ، ولا ما يفوتنا يؤيسنا من نَيْله بعد الاجتهاد فيه .

إلهنا : ما أعجب أسرارك فينا ، بل ما أعجب شواهدك علينا ، بل ما أعجب جُملتنا في تفصيلنا ، بل ما أعجب تفصيلنا في جملتنا . كلّفتنا معرفتك ، وحجبتنا عن كُنْه حقيقتك ، وشوقتنا إليك ، ثم سَدَدْت طريقنا عنك . فوحقك لا بَرِحْنا ولا سَنَحْنا ، ولا هدأنا ولا سكنّا ، حتى نَصِل إليك ، ونقفَ بين يديك ، ونقولَ بما لديك ، وننظرَ إلى وجهك الكريم نظراً يوجب لنا رِضاك عنا ، وإقبالك علينا ، ونسمعَ كلمتك العليا : أوليائي : إنما أتعبتكم لتستريحوا ، وإنما أشقيتكم لتسعدوا ؛ سِرِّي فيكم غريب ، وشأني معكم عجيب ، فاستبشروا الآن ، والسلام .

- ١٢ -

سَأَلْتَني – رَفق اللهُ بك ، وعَطَف عليّ قلبك – أن[٢] أذكر لك الغريب ومِحَنَه ، وأَصِفَ لك الغُرْبة وعجائبها ، وأمرّ في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة ، ومَعان شريفة ، إمّا مُعَرِّضاً ، وإمّا مُصَرِّحاً ، وإما مُبَعِّداً وإما مقرِّباً . فكنت عليّ أن أجيبك إلى ذلك . ثم إني وجدت في حالي شاغلاً عنك ، وحائلاً دونك ، ومُفَرِّقاً بيني وبينك . وكيف أَخْفِضُ الكلام الآن وأَرْفَع ، وما الذي أقول وأصنع ، وبماذا أصبر ، وعلى ماذا أجزع ؟ وعلى العلات التي وصفتها والعورات التي سترتها أقول :

---

١ – ر : الاستماع .

٢ – ر : وان .

إنَّ الغريبَ بحيثُ ما حطَّتْ ركائبُه ذليلُ[1]
ويدُ الغريبِ قصيرةٌ ولسانُه أبداً كليلُ
[٣٥/أ] والناس ينصُرُ بعضُهم بعضاً، وناصرُه قليلُ

وقال آخر :

وما جزَعاً مِنْ خشْيةِ البيْنِ أخْضَلَتْ دُموعي، ولكنَّ الغريبَ غريبُ

يا هذا : هذا وصفُ غريبٍ نأى عن وطنٍ بُنِيَ بالماء والطين ، وبَعُد عن أُلاَّف له عَهْدُهم الخشونة واللين ، ولعله عاقرهم الكأسَ بين الغُدْران والرياض ، واجتلى بعينه محاسن الحَدَق المِراض ، ثم كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض ؛ فأين أنت عن قريب قد طالت غربتهُ في وطنه ، وقلّ حظه ونصيبه من حبيبه وسَكَنه ؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان ؟ قد علاه الشحوب وهو في كِنّ ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شَن : إن نطق نطق خزيان منقطعاً ، وإن سكت سكت حيران مرتدعاً ؛ وإن قرب قرب خاضعاً ، وإن بَعُدَ بَعد خاشعاً ؛ وإن ظهر ظهر ذليلاً ، وإن توارى توارى عليلاً ؛ وإن طلبَ طَلَبَ واليأسُ غالبٌ عليه ، وإن أمسكَ أمسكَ والبلاء قاصدٌ إليه ؛ وإن أصبح أصبح حائلَ اللون من وساوس الفِكْر ، وإن أمسى أمسى مُنْتَهَبَ السر من هَواتك السِّتْر ؛ وإن قال قال هائباً ، وإن سكت سكت خائباً ؛ قد أكله الخمول ، ومَصَّه الذبول ، وحالفه النحول ؛ لا يتمنى إلا على بعض بني جنسه ، حتى يفضيَ إليه بكامنات نفسه ، ويتعلّل برؤية طلعته ، ويتذكر بمشاهدته قديمَ لَوْعته ، فينثر الدموع على صحن خده ، طالباً للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصَلَهُ

---

[1] – أورد أبو حيان هذه الأبيات أيضاً في البصائر ٢ : ٥٢٨ دون نسبة .

الحبيب ، بل الغريبُ من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب ، بل الغريب مَنْ نُودي مِنْ قريب ، بل الغريب [٣٥/ب] من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فإن كان هذا صحيحاً ، فتعالَ حتى نبكي على حالٍ أحدثت هذه الهفوة ، وأورثت هذه الجَفْوة :

لعلّ انحدارَ الدمْعِ يُعْقِبُ راحةً   من الوَجْدِ أو يَشفِي نَجِيَّ البلابل[1]

يا هذا : الغريبُ من غَرَبَتْ شمسُ جماله ، واغترب عن حبيبه وعُذّاله ، وأغْرَبَ في أقواله وأفعاله ، وغَرَّب في إدباره وإقباله ، واستغرب في طِمْره وسِرْباله .

يا هذا : الغريب من نطق وصفُهُ بالمحنة بعد المحنة ، ودلّ عُنوانهُ على الفتنة عَقيب الفتنة ، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدَّ الفينة . الغريب من إن حضر كان غائباً ، وإن غاب كان حاضراً . الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه . أما سمعت القائل حين قال :

بِمَ التعلّل لا أهلٌ ولا وطن   ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ[2]

هذا وصفُ رجل لحقته الغربة . فتمنّى أهلاً يأنَسُ بهم ، ووطناً يأوي إليه ، ونديماً يَحُلُّ عقد سِرِّه معه ، وكأساً ينتشي منها ، وسَكَناً يتوادع عنده . فأما وصف الغريب الذي اكتنفته الأحزانُ من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجانُ من كل حاضر وغائب ، وتحكّمت فيه الأيام من كل جاءٍ وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائتٍ وآيب ، وشتّته الزمان والمكان

---

١ – مر البيت من قبل (ص : ٤٢) وهو لذي الرمة (ديوانه : ٥٧٧) .

٢ – في الأصل : لا أهل ولا زمن ، واظنه سهواً ، فالبيت مشهور ، وهو مطلع قصيدة للمتنبي (ديوانه : ٤٦٨) ، وسيعود المؤلف فيذكر أن الشاعر يتمنى : «أهلا ... ووطناً ... ونديماً...» الخ .

بين كل ثقة ورائب[1] ، — وفي الجملة : أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيادي العواتب عن المراتب — فوصفٌ يخفى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس ، ويَشَلُّ عن تحبيره اللفظُ ، لأنه وصف الغريب الذي لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيُشْهَر ، ولا طيَّ له [٣٦/أ] فينشر ، ولا عُذْرَ له فيعذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عَيْبَ عنده فيُسْتَر .

هذا غريبٌ لم يتزحزح عن مَسْقَط راسه ، ولم يتزعزع عن مَهَبِّ أنفاسه. وأغربُ الغُرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعَدُ البُعَداء من كان بعيداً في محلِّ قُرْبه ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود ، ويغمض عن المشهود ، ويُغضي عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورِفْدٍ مرفود ، وركن موطود ، وحَدٍّ غير محدود .

يا هذا : الغريب من إذا ذكر الحقَّ هُجِر ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر ، الغريب من إذا أسْنَدَ كُذِّب ، وإذا تظاهر عُذِّب . الغريب من إذا امتار لم يُمَر[2] ، وإذا قَعَدَ لم يُزَرْ . يا رحمتا للغريب : طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضَرَرُه من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى .

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ، الغريب من إذا تنفّس أحرقه الأسَى والأسف ، وإن كتم أكْمَدَه الحُزْن واللّهَف. الغريب من إذا أقبل لم يُوَسّع له ، وإذا أعرض لم يُسألْ عنه . الغريب من إن سأل لم يُعْطَ ، وإن سكت لم يُبْدَأ . الغريبُ مَنْ إذا عَطَس لم يُشَمّت . وإنْ مَرِض لم يُتفقّد . الغريب من إن زار أُغْلِق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب . الغريب مَنْ إذا نادى لم يُجَبْ ، وإن هادى لم يُحَب .

---

١ – الرائب : المتهم بالريبة .

٢ – امتار : طلب الميرة ، ولم يمر : أي منعها .

اللهم : إنّا قد أصبحنا غُرَباء بين خلقك ، فأنِّسنا في فِنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فَصِلْنا بحبائك .

اللهم : إنهم عادَوْنا من أجلك لأنّا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك فاستكبروا ، وأوْعدناهم بعذابك فتحيّروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبّروا ، وتعرّفنا بك إليهم فتنكّروا ، وصُنّاك عنهم فتنمّروا، وقد [٣٦/ب] كِعْنا[١] عن تدبيرهم ، ويئسنا من توفيرهم .

اللّهُمَّ : إنّا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحلمنا عنهم لوجهك ، وصَبَرنا على أذاهم من أجلك ، فخُذْ لنا بحقنا منهم ، وإلاّ فاصرِفْ قلوبَنا عنهم ، وأنْسنا حديثهم ، واكفنا طيِّبَهم وخبيثَهم .

أيها السائل عن الغريب ومحنته : إلى ههنا بلغ وصفي في هذه الورقات . فإن استزدتَ زِدْتُ ، وإن اكتفيتَ اكتفيتُ ، واللهَ أسألُ لك تسديداً في المبالغة ، ولي تأييداً في الجواب ، لنتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته :

يا هذا : الغريب في الجملة مَنْ كُلُّه حُرْقة ، وبعضه فُرْقة ، وليلُه أسَف ، ونهارُه لَهَف ، وغَدَاؤه حَزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، ورؤاه ظِنَن ، وجميعه فِتن ، ومُفَرَّقُهُ مِحَن ، وسِرُّه عَلَن ، وخوْفه وطَن . الغريب من إذا دعا لم يُجَب، وإذا هاب لم يُهَب[٢] . العريب مَنْ [إذا] استوحشَ استُوحِشَ منه: استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقاً، واستُوحِش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحَرَّقاً. الغريب مَنْ فَجْعته مُحْكَمة، ولوعته مُضرمة الغريب من لِبْسته خِرْقة ، وأكلته سِلْقة ، وهَجْعته خَفقة . دع هذا كله :

---

١ - كاع عن الشيء : خافه وجبن عنه ، وهي لغة في كع.

٢ - مر قبل في الصفحة السابقة (س : ٢١) « الغريب من اذا نادى لم يجب ، وان هادى لم يحب »

الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه ، بل الغريب مَن تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجّه إلى الله قالياً لكل من سواه . بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه .

يا هذا : أنت الغريب في معناك .

أيها السائل عن الغريب : اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذِكْرَ الحق فانْسَ ما سواه ، وإذا أرَدْتَ قُرْبَه فابعد عن كلٍّ ما عداه، وإذا أردت المكانةَ عنده فَدَعْ ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدُّعاء إليه فَمَيِّزْ ما لك مما عليك في دعواه : طاعاتك كلها مدخولة ، فلذلك ما ليست هي مقبولة ؛ هممك كلُّها فاسدة ، فلذلك ما ليست هي [٣٧/أ] صاعدة ؛ أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ما ليست [هي] نافعة ؛ أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ما ليست هي مرفوعة .

ويلك ! إلى متى تنخدعُ وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظنُّ أنك رابح وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدّعي وأنت منفيّ ؟ وإلى متى تحتاج وأنت مكفيّ ؟ وإلى متى تبدي القلق وأنت غنيّ ؟ وإلى متى تهبط وأنت عَليّ ؟ ما أعجب أمراً تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك . الحمار أيضاً يرى بعينه ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فَتُعْذَر ؟ فإن لم تكن حماراً ، فلِمَ تتشبّه به ؟ وإن كنته، فلِمَ تدّعي فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خلقتك وصيغتك ، فلا تكُنْه أيضاً بباطن بنيتك وحِليتك .

قد والله فَسَدْتَ فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدري بأيّ لسان أخاورك ، وبأي خُلُقٍ أجاورك ، وفي أي حقيقةٍ أشاوِرُك ، وبأي شيء أداورك : سِرُّك كُفران ، ولفظك بُهتان ، وسرورك طغيان ، وحزنك عِصيان، وغناك مرح وبَطَر ، وفقرك تَرَح وضَجَر ، وشبعُك كظّة وتُخمة ، وجُوعك قنوط وتُهمة ، وغَزْوك رياء وسُمْعة ، وحَجُّك حيلة وخدعة ،

وأحوالك كلها بَهْرَجٌ وزَيْف ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها بِلِم[1] ، ولا بكَم[2] وكيف .

ما أسعد من كان في صدره وديعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد ! أتدري ما هذه الوديعة ؟ هي والله وديعة رفيعة ، هي التي سبقت لك منه وأنت بَدَدٌ في التراب لم تجمعك بَعْدُ الصورةُ ، ولم يقع عليك اسم ، ولم يُعرف لك عَيْن ، ولم يَدُلَّ عليك خبر ، ولم[3] يَحْوِكَ مكان ، ولم يَصِفك عيان ، ولم يُحِطْك بيان ، ولم يأت عليك أوان . أنت في ملكوت غيب الله ثابتٌ في علم الله ، عطلٌ من كل شيء إلا من مشيئة الله [٣٧/ب] تُتَرَشَّح لمعرفته ، وتُلحظ في صفوته ، وتُؤَهَّل لدعوته .

فما أسعدك أيها العبد بهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذي نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيّدك بما لم تهتد إليه همتك ، حتى إذا نَشَر مَطْوِيَّك ، ورَتَق مُفْتَتَقَك ، وجمع مفترِقَك ، وقوّم مُنآدك ، وسوّى مُعْوَجّك ، وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التي جعلها قُبالة بصرك ، وعرّفك نفسك ، ودعاك باسمك ، وشهرك بحكمته فيك ، وأظهر قدرته عليك ، وعجّبك وعجّب غيرك منك ، ولاطفك ولطف لك ، وبيّن لك مكانتك إذا أطعت ، ومهانتك إذا عصيت ، وَثَبْتَ على شهواتك فتناولتَها ، وعلى لذّاتك فانهمكتَ فيها ، وعلى معاصيك[4] فركبتَ سنامها ، ولم تفكر فيما خلفها وأمامها . ولمّا قيل لك : اتّقِ الله ، أخذَتْك العزّةُ بالإثم ، وبُؤْتَ فيما فيك من نعم الله عليك تَهُرُّ على ناصحك ، وتهزأ بالمشفق عليك ، وتُحاجُّه بالجهالة ، وتقابله بالكبرياء والمَخِيلة . إنك عندي لمن المسرفين ، بل من

---

١ – ر : هلم .

٢ – ر : بلم .

٣ – ر : ولا .

٤ – زاد في نص ر هنا : « لمن هذا حديثه معك » ولم أر له وجهاً .

المجرمين ، بل من الظالمين ، بل من الفاسقين ، بل من المطرودين ، بل ممن قد تعرّض لأن يسلبه الله ما أعطاه ، ويجعل النار مأواه ، حتى يصير عبرة لمن وراه .

يا هذا : أحَجَرٌ أنتَ ؟ فما أقسى قلبك ، وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك! أبينك وبين نفسك تِرَةٌ أو كيد ؟ أهل[1] يفعل الإنسان العاقل بعَدُوِّه ما تفعله أنت بروحك ؟ لا يَنْفَعُكَ وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجعُ فيك نُصْحٌ[2] وإن كان كافياً .

اللهم : تفضل علينا بعفوك إن لم نستحقّ رضاك ، يا ذا الجلال والإكرام.

- ١٣ -

[٣٨/أ] العلم[3] بلاء ، والجهل عناء ، والعمل رياء ، والقولُ داء ، والسكوت هباء ، والنظر عداء ، وكلُّ ذلك سَواء . فأما بلاء العلم فلأنه يهوي بصاحبه[4] إلى لُجَج الفكر ؛ وأما عناء الجهل فلأنه يُقْحِم صاحبه في شِعاب النُّكر ؛ وأما رياء العمل فلأنه يجلب على صاحبه جميع الكد ؛ وأما داء القول فلأنه يَصُبُّ العُجْبَ على أهْلِه في كل قبول وردّ ؛ وأما هباء السكوت فلأنه يُعَرِّي صاحبه من كل فائدة ؛ وأما عداء النظر فلأنه يعود على صاحبه بكل آبدة ؛ وأما سَواء كُلِّه ، فلأنه عِلْمٌ لذوي النُّهى باحتمال كَلِّه .

فهاتِ الآن حالاً ليس للعلم فيها نسب ، ولا للجهل فيها سبب ، ولا للعمل فيها بقيّة ، ولا للقول فيها خبيّة ، ولا للسكوت معها عَلاوة ، ولا للنظر عندها علاقة ، ولا لكلّه فيها استواء ، ولا لبعضه منها التواء . وأين تلك الحال

---

١ – كذا في ر ، وقد تدخل الهمزة على « هل » .
٢ – ر : نصحاً .
٣ – هذه الرسالة وردت بعنوان « أركان المعرفة من الإشارات الإلهية » في نسخة ر .
٤ – ر : بصاحبها .

وكيف ؟ وهل تقف عليها بعَدْلٍ أو حَيْف؟ وهل تصل إليها برمح أو سيف ؟ وهل تقدر أن تتمنّاها بـ « لعل » أو « سوف » ؟ فإذا كانت هذه الحال تتنزه عن التمنّي في ضمائر النفس ، فكيف يستطاع الامتلاء بها على صحة الإرادة والحقيقة والقبس ؟ هي والله حال ذابت عليها الأكبادُ ، ومرَّت على هذا الحديث في نغمتها الدهور والآباد . هي والله حال زَهَقت عليها النفوسُ والأرواح ، وأتى على نعمتها المساء والصباح . هي والله [حالٌ] عَلَتْ عن الصفات والرسوم ، كما نزلت الصفات والرسوم عنها . هي والله حالٌ سَبَح في لجتها فكرُ كل نِحرير فلم يصل إلى ساحل، وسار في هوائها وَهْمُ كلِّ متمكّنٍ فلم يقع على طائل . هي والله حال إن حلَمْتَ بها أيقظتك ، فإن استيقظت عنها حلَمت بك . هي والله حال [٣٨/ب] برزت بالجبروت ، وخفيت في الملكوت ، فلا الكلام يقع في وصفها أو تمنيها ولا السكوت . هي والله حالٌ مَنْ ذاقها عرف ، ومن عرفها وصف ، ومن وصفها انتهى ووقف ، ومن انتهى عنها [و] وقف، ابتدأ الحنين إليها وتشوّف .

دع هذا أيضاً ، واسمع شجوَ لبيبٍ كرِه المُقامَ في هذه الدار التي قد امتلأت بالذّئاب ، فقال :

نَظَرْتُ[١] فلم يَعْلَق بعيني سوى القَذى ... رجُلتُ فلم أجلِب لنفسي سوى الأذى
ولم أرَ وجهاً مستحقاً لمرحباً ... ولا وجهَ أمرٍ مستحقاً لحَبّذا
رأيتُ شِرارَ الناسِ يُمضون حكمهم ... على الجانبِ الأدنى إلى الشرِّ منفذا
ويَسْعَون فيه نحوَ أبعدِ غاية ... وإن كان وجهُ الخير أقربَ مأخذا
وواصلتُهم حتى سئمتُ فلم أجد ... سوى هجرهم مِنْ شرهم[٢] لي مُنقذا
يَعدُّون عند السُّخْطِ حلمي مهانة ... ويُسْمُون يومَ الحفلِ عارضتي بَذا[٣]

١ - من هنا وحتى نهاية هذه الرسالة : ثبت معظمه في ل دون عنوان خاص (ق ٣٣/ ب - ٣٥/أ).
٢ - هذه قراءة ل ، وفي ر : : وصلهم .
٣ - العارضة : الاقتدار على القول ؛ والبذاء : الهجر والفحش من القول .

ويَعلون من أرخى لهم من عِنـانه بسوط ، ويستخذون للمرء ذي الشذا[1]
وقد[2] تَرَكَ الوعظَ اللبيبُ لأنـه إذا هذّ[3] قولَ البِرِّ ظنوه قد هَذى
وما يصنع القين[4] العليم بشحـذه إذا لم يجد في جانب السيف مَشحَذا
فَحِد[5] نائياً عن سمتهم متحرِّزاً وسِرْ بينهم من شَرِّهم مُتَعَـوِّذا
وعِشْ هكذا طولَ الحياة فربّما سَلِمتَ من[6] الأشرار إن عِشْتَ هكذا
وصِل حيوان الأرض، إلا من ارتدى على صورة الإنسان منها أو احتذى
فإن تَبلُ هذا الجنسَ تَبلُ أشدَّها خبيثةَ أحقادٍ وأبلغهـا أذى

[٣٩/أ] ودع هذا أيضاً بعد أن تَرتَعِي زَهَرَه ، وتجتني ثَمَره ، وتَرِدَ أوّله وآخره ، وتعرف ظاهره وباطنه . وعُدْ بنا إلى حديث الأعمال وآفاتها ، وإلى حديث الأفكار ومنافاتها ، وإلى حديث الأذكار وموافاتها ، وإلى حديث العبودية وصفاتها ، وإلى حديث الربوبية ومصافاتها : أما[7] الأعمال فمشوبة ، وأما الأفكار فمُريبة ، وأما الأذكار فمعوقة ، وأما العبودية فممحوقة ، وأما الربوبية فسحيقة .

هذا نَعْتٌ على الاختصار والإيجاز ، فإن أردت أن تَشْبع بعد هذا وتَرْوَى[8] ، وتتخلص من فنون القول وتُكفَى [من البلوى][9] ، فتجرَّعْ مرارةَ الدنيا ،

---

١ – الشذا : الأذى والاضرار .
٢ – ر : فقد .
٣ – هذ القول هذاً : سرده دون تلجلج .
٤ – ر : العين ؛ وقد سقط البيت من ل .
٥ – ل : فخذ.
٦ – ر : عن .
٧ – ر : واما .
٨ – ر : وتردى .
٩ – من البلوى : سقطت من ر .

وتجنَّبْ حلاوةَ الشكوى ، وتلذذ بصُعوبة البَلْوى ، فلعلك تُؤهَّل لخالصة النجوى ، بالنظر في أسفار[1] الهدى ، من ديوان العليّ الأعْلى . لا ناصح لك إلا من نفى عنك الكدر ، وجلب إليك الصفو ؛ ولا مرشد إلا من أخذ بيدك من الظلمات ، وهجم بك على النور ؛ ولا مشفق عليك إلا من دعاك إلى حاله بعمله[2] لا بقوله ؛ ولا خادع لك إلا من زخرف لك علمه بقلمه[3] . تنكَّبْ سبيل الغاوين ، واهجر عَرَصات المذنبين ، واسهر ليلك مع المتهجدين ، وتشبه بأهل الدين المتين ، واعتبر بالماضين ، واعلم أنك منهم في الباقين ، وكاثر البَكّائين ، وادخل في جملة الواجدين ، وانطق عن زمرة[4] الله رب العالمين ، وانف عنه سوء ظن الظانّين ، وتقرَّب إليه بذم العاصين ، ووصف[5] طاعة الطائعين ، وامدَح حزبه الغالبين ، وانظر إلى قدرته على الخلق أجمعين ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر ٩٩) .

يا هذا : إلى كم أستميلك إلى حظك ، وأتقلّب معك إلى مرادك ؟ لستُ منك إن لم تُعِنِّي على ذلك ، ولستَ مني إن سلكتَ طرق[6] المهالك . أمن العدل أن أنصحك وتَغُشَّني ، وأرِقَّ لك وتقسو عليّ ، وأريد بك الخير [٣٩/ب] وتكايدني ، وأهوى لك الجميلَ وتعنتني[7] ، وأدُلّك على رُشْدك وتضلّ عني ، وأقيمك على المحجة فتتقاعس عـــليّ ؟ إن[8] هذا إلا شقاءٌ قد سيق إليك دوني.

---

١ – ر : أشعار .
٢ – ر : بعلمه .
٣ – ل : علمه لا بعمله .
٤ – زمرة : سقطت من ل .
٥ – ر : واصف .
٦ – ل : طرقت مسلك .
٧ – ل : وتعاتبني .
٨ – زاد « على » في ل .

البُعْد منك البُعْد ! البراءة[1] منك البراءة ! الويـــل لك الويل ! الخيبة لك الخيبة ! لمثلك سُعِّرت الجحيم ، ولمثلك أُعِـدَّ[2] العذاب الأليم ، وبمثلك[3] أغري المُقْعد والمقيم ، ومثلك[4] سُقي الحميم ، ولمثلك هُيِّء العذاب الأليم[5] .
لا ترجعْ في أمورك كلها [إلا إليه ، ولا تعتمدْ في الدارين إلا عليه][6] : إلى رعاية لوقت ، أو مصارفة في نَفْس ، أو احتياط في دِين ، أو أمانة في معاملة ، أو جهاد لهوى ، أو كبت لشيطان ، أو فَيْئَة إلى التقى ، أو رجعة إلى الهدى ، أو طَفْرَة إلى النُّهى ، أو هجرة للعِدَى ، أو فعلة للآخرة دون الأولى .

ها أنا قد أعرضت عنك حياءً لك ؛ ها أنا قد استوحشت منك خوفاً عليك ؛ ها أنا قد أعذرت جهدي وطاقتي[7] إليك ؛ ها أنا قد غسلت يدي من فلاحك . ها أنا قد يئست من صلاحك . أهكذا يكون من عرف الله سراً أو جهراً ؟ أهكذا يكون من اعترف به رياءً أو إخلاصاً ؟ أهكذا يكون من تطاعم إحسان الله حاضراً أو غائباً ؟ أهكذا [يكون] من ذكر الله سراً أو جهراً ؟ أهكذا يكون من اشتاق إليه ساكناً أو متحركاً ؟ أهكذا يكون من أحبّه متسلياً أو متهالكاً ؟ أهكذا يكون من دعا إليه صادقاً أو كاذباً ؟ أهكذا يكون من تمرَّغ في نعمه صباحاً أو مساء ؟ أهكذا يكون من بودي بالآية متنبهاً أو نائماً ؟ أهكذا يكون من تلاطف شاهداً أو غائباً ؟ أهكذا يكون من يحافظ على حظّه راضياً أو عاتباً؟ أهكذا يكون من هو محتاج مع من هو غنّي؟ أهكذا يكون من هو عاجز مع من هو قوي؟ أهكذا يكون من هو عبد مع من هو سيّد؟ أهكذا هكذا أبداً ، إلى أن

---

١ – ر : البراء .
٢ – ر : وأعد لمثلك .
٣ – ل : : وبك اغري .
٤ – ر : وبمثلك .
٥ – ل : العظيم .
٦ – ما بين معقفين ثبت في ل وحدها .
٧ – ر : وطاعتي .

ينكسر القلم عند الكتابة ، وإلى أن يعيا اللسان [٤٠/ أ] عند الخطابة، وإلى أن يهيم القلب في وادي المهابة ، وإلى أن تفقد الروح في فلاة الغيابة !

يا هذا : قد وَصَفْتُكَ ووصفت غيرك معك وأنا غيرك ؛ ففي وصفك وصفي ، وفي وصفي وصفك ، حتّى نتعاون على نيل هذه الخيرات بالمبالغة في الطاعات ، والمداومة على العبادات ، والمبادرة للساعات ، والحذر من الآفات ، والهرب من العاهات ، والثبات على رفض الشهوات ، والإعراض عن اللذات ، والتوجّه إلى خالق الحيوان والنبات . فإنه إذا رأى إخلاصنا في فقرنا إليه، وتعاوننا على طلب ما لديه ، أخذ بأيدينا ، وجذب بنواصينا، وأطلعنا على ما فينا ، وكان لنا ناصراً ومعيناً ؛ أَ إنه كريم فصدّق ، ورحيم فحقّق . وجواد فثق : سَلْه فإنه لن يَفْتَحَ باب المسألةِ منه، إلا ويُدِرّ أخلافَ بره من لَدُنه ؛ معاملته قد جُرِّبت وحمدت ، وأخباره شاعت فصدقت ، وشواهده بانت فانتشرت ، ونعمه واصلت فدامت : إنْ توعّدك فإنما يخوّفك ، وإن وعدك فإنّما يشوّفك[1] ، وإن عاتبك فإنما يشرّفك ، وإن كرر عليك فإنما يعرّفك ، وإن فرّقك فإنما يؤلّفك ، وإن أخذ منك فإنما يسلّفك ؛ كلُّ فعْله عجيبٌ ، وكل شأنه غريب ، وكل ما تريده منه قريب ، ليس له في هذه الصفات شريك[2] ولا ضريب ؛ حَلُمَ عنك ليغضب عليك ، وغَضِبَ لئلا يحلم عنك ، ووَصَفَكَ حتى كأنك منه ، ودعاك حتى كأنه محتاج إليك ، ولاطفك حتى كأنه لا بُدَّ له منك . وأنت في جميع هذه الأحوال سادر هادر ، لا تَلْوِي على فائتك من رضاه ، ولا تبالي بما تجني عليك يدك . لم هذا ولماذا ؟ ألك ربٌّ غيره ؟ ألك مولى سواه ؟ هل رأيت الخيرَ قطُّ إلا منه ؟ هل هدأت إلا معه ؟ هل وصل إليك بِرٌّ إلا عنه ؟ هل كان لك قوام إلا بقدرته ؟ هل كان [لك][3] انغماس إلا في نعمته؟ هل كان [٤٠/ب] لك مدارٌ إلاّ على مشيئته ؟

---

١ – ر : يشوقك .

٢ – ر : له شريك .

٣ – زيادة ضرورية .

هل كان لك رجاء إلا في رحمته ؟ هل كان لك نجاةٌ إلاّ بعصمته ؟ هل كان لك رَسْمٌ إلا بجوده وسعته ؟ هل كان لك اسم إلا بتسميته ؟ هل كان بك غنىً إلا بنُصْرته[1] ؟ هل كان لك التفات إلا على عَقْوته[2] ؟ هل كان لك استقلال بغير كفايته ؟ هل كان لك مخرج من ولايته ؟ هل كان لك بيان عن إلاهيته ؟ لا والله : أين أنت بالنسبة التي لك منك إلى ذرة من خلقه لو شاء لأبرز منها ما يحار فيه بصرك ، ويتبدّد عليه عقلك ، ويضمحل دونه كُلُّك وبعضك ، ويبيد عنده شاهدك ورَسْمك .

الزم — عافاكَ الله — حدَّك ، وطالبْ نفسَك لله بما له عندك ، واحرص على أن تكون عبداً حقاً ؛ فإنه إن وَجدك عبداً[3] حقاً لم يرْضَ لك حتى يجعلك ملكاً حقاً . هذا سِرُّه فيك ، ومُراده لك . فافطُن ودَعِ الكسل واطمأنِنْ .

اللهم : إنّا بك فلا تُلْهنا عنك ، ولك فلا تسلِّط علينا غيرك ، وإليك فلا تصرف وجوهنا دونك . إياك نرجو ونخاف ، وسواك نكره ونعاف ، وإليك نسعى حافدين[4] ، وجنابك نرعى وافدين ، ونُعْماك ننشر على الأقربين والأبعدين ، وبحقك نتهادى بين المريدين والعارفين ، وفيك نتحير والهين دالهين ، وفيك نُرَغِّب الزاهدين الشاكين ، ورحمتك نرجو محتاجين مفتقرين ، وعن ربوبيتك نُنَفِّر واجدين مرحين ، وبصحبتك نفتخر بهجين فرحين[5] .

يا هذا : ارحم غربتي في هذه اللغة العجماء ، بين هذه الدهماء الغثراء[6] ،

---

١ — ر : عن نصرته .
٢ — العقوة : الساحة .
٣ — عبدا : سقطت من ل .
٤ — في دعاء القنوت : اليك نسعى ونحفد ، أي نسرع .
٥ — ر : وفرحين .
٦ — الغثراء : الرعاع .

وتعجّب من ندائي في هذه الفلاة الغبراء، بين الأرض والسماء . فلا أحد[1] يجيب مساعداً أو معيناً، حتى كأن[2] أوطان المعرفة قد خلت من سكانها[3]، ومنازل العبادة قد خلت من قُطّانها[4]؛ وحتى كأن القدرة مع بُدُوّها[5] خافية، والحوادثَ [٤١ / أ] مع تكرّرها متجافية[6] . أين العقول الصاحية[7] ؟ أين الآذان الصاغية ؟ أين الألباب الثاقبة ؟ أين القرائح الصافية ؟ أين الأذهان المتوافية ؟ أين الألسن الفصيحة ؟ أين الأخلاق السجيحة ؟ أين الأيدي المبسوطة الى الخيرات ؟ أين التّواصي[8] بالنصائح والعظات ؟ أين الإقبال على إنجاز العدات ؟ أين ملازمة الأساطين في المساجد لانتظار الصلاة بعد الصلاة ؟ أين الخوضُ في استبانة المعارف عند سوانح الخطرات ؟ أين محاسبة[9] الأسرار عند خائنة[10] الأعين في النظرات بعد النظرات؟ أين الأعين الراشحة[11] بالعبرات عند تذكر العثرات في عَقِبَ العثرات ؟ أين الندم القارح للأكباد على الفَرَطات بعد الفرطات[12]؟ أين الحُرَق المتوالية على ما سلف من التقصير[13] مع الحسرات على الحسرات ؟

اللهمّ فَسلِّمنا من هذه الكربات المتصلة بالكربات ، ياذا الجلال والإكرام.

---

١ – ر : احداً .
٢ – ر : كأنه .
٣ – ل : قطانها .
٤ – ل : قد خوت من سكانها .
٥ – ل : وضوحها .
٦ – ل : جافية .
٧ – ر : الحصيفة .
٨ – ل: النواصي .
٩ – ر : محاسنة .
١٠ – ل : خائنات .
١١ – ل : الراشحات .
١٢ – بعد الفرطات : سقطت من ل .
١٣ – ل : التقصيرات .

ألا[١] قارع لباب الله؟ ألا قاصد إلى الله ؟ ألا راغب فيما عند الله ، ألا عائف لنَهْيِ الله ؟ ألا قابل لأمر الله ؟ ألا هائم في الله ؟ ألا واجد بالله ؟ ألا متوكل على الله ؟ ألا مناجي لله ؟ ألا باذل لرُوحه في الله ؟ ألا ناظر لنفسه مع الله ؟ ألا آخذ بخُطام سِرِّه بحق الله ؟ ألا محاسب لنفسه على حَقّ الله ؟ ألا متوجِّه إلى ما عند الله ؟ ألا خاطب لما عند الله ؟ ألا مسرور بتوحيد الله ؟ ألا نادم على ما فرط له من مخالفة الله ؟ ألا مشير بالحقيقة إلى الله ؟ ألا معظِّم لشعائر الله ؟ ألا مقتدي بِسُفَراء الله ، ألا متبحبح في روضة الله ؟ ألا شارع في غدير الله ؟ ألا واثق بالله ؟ ألا طامع في وعد الله ؟ ألا خائف من وعيد الله ؟ ألا راحم لعباد الله ؟ ألا عامر [٤١/ب] لبلاد الله ؟ ألا منتح[٢] لفناء الله ؟ ألا ناشر لكلمة الله ؟ ألا داعي إلى الله ؟ ألا مجيب لله ؟ ألا شفيع لعبد الله إلى الله ؟ ألا مُشْفِق من خيانته على نفسه من الله ؟ ألا ذاكر بالتحقيق لله ؟ ألا عابد بالإخلاص لله؟ ألا شاكر على النعمة لله ؟ ألا صابر على البلوى لوجه الله ؟ ألا مصغي لعتاب الله في كتاب الله ؟ ألا مشتاق إلى رِضْوان الله ؟ ألا منافس في طاعة الله ؟ ألا مُتحوِّل عن أوطان المخالفة إلى جوار الله ؟ ألا راضي بقضاء الله ؟ ألا محدّث عن الله ؟ ألا دالّ على قدرة الله ؟ ألا باسط للرجاء في عفو الله ؟

يا هذا : خلت العراصُ من ناس كانوا إذا تنفّسوا أحرقوا الحجب بينهم وبين الله : تيهاً به ، وثقة بوعده ، ورضىً بفعله ، وخطاً في اختياره ، وتسليماً لحكمه . كانوا إذا بَرَّزوا لك صفحات وجوههم رأيت تباشيرَ الخير عليهم ، وروائد الصدق معهم ؛ وكانوا إذا ذكروا الله تقلقلت ضمائرهم بألـــوان

---

١ - وردت هذه الرسالة بعنوان « ذم التفضيل بالغاشية والحاشية من الاشارات الالهية » في النسخة ر .

٢ - كذا في ر ، ولعلها : منتجع .

الشوق إلى المصير إليه ، وإلى القيام بين يديه . أين أولئك ، وأين هم ؟ وكيف ذهبوا بأسْرِهم حتى لم يبقَ منهم دَيّار ولا صافر ولا نافخ ضَرَمة ؟ فلهذا حَالَ نوْرُ الدين ، وقل التلذذ بوجدان اليقين ، وقحلت الأسرارُ عن ندى الغيب المكنون ، وبُلي كلُّ أحد بالظنون والمظنون ، وصار ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (الروم : ٣٢) فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

يا هذا : عَدِّ عن ذكر قوم بانوا بأشخاصهم وأرواحهم ، فان كانوا قد أبقَوا عندنا من تراثهم ما يشوقنا إلى اللحاق بهم ، فقم واسمع ما أخصك بذكره ، وأريد نفسي أيضاً معك في عُرْضِه : إذا نَفَحَتْ في صدرك نفحةٌ من نفحاتِ روض الأنس من العالم الأعلى فارقد عليها ، وتلذّذ بطعمها ، واستدمْ نسيمها من معدنها ، وشِمْ مُزْنتها من سمائها . ولا سبيل لك إلى ذلك [٤٢/ أ] إلا[1] برفض الرذائل كلِّها : قليلها وكثيرها ، وتحلّي الفضائل بأسرها : دقيقها وجليلها . وهذه صورة إلهية متى حركتَ نفسَك إليها ، وحليت بزينتها ، وبَرزْتَ ببهجتها ، زارتك[2] ملائكة السماء بالتحية بعد التحية ، وأهدت إليك العطية بعد العطية ، وكَرُمْتَ بين البَرِيّة ، وصرْتَ إذا دَعَوْتَ أجبْتَ ، وإذا تمنيت أصبْتَ ، وإذا توهمت حققت ، وإذا أومأت اكتفيت ، وإذا أشَرْتَ بلَغْتَ ، وإذا قلت كان قولك مسموعاً ، وإذا سعيت كان سعيك مشكوراً ، وإذا عملت كان عملك مبروراً .

وقد ذكرت لك الفضائل جملةً بالاسم العام ، وكذلك الرذائل ، وما أحوجك إلى تصنيفها من طريق الإيجاز ، إن تعذّر كشفُها على طريق الإشباع والإبراز : منها – عافاك الله – **الشجاعة** ، وهي التي بها تقهر كل ما توعر منك ، وتُلين كل ما تَعَرَّمَ عليك . وكل هذه الشجاعة ، التي تتخذُها

---

١ – ر : الى .

٢ – ر : وزارتك .

قعودك ، وتجعل عليها قيامك وقُعودك ، تمكّنُك أن تقهر ما أردت ممـا عداك ، لأنك إذا قَدَرْتَ على نفسك فأنت على نفس غيرك أقدر ، وإذا جُرت في خاصّتك فأنت عن خاصة غيرك أجوَر . — ومنها **العدالة** ، التي إذا صارت لك صورة اكتسبت بها بهجةً إلهية ، لأنك تملك بهذه الحلة التساوي ، والتساوي من الوحدة، والوحدة هي التي إليها الشوق ، وعليها وله الخلق . — ومنها **الحلم**، وهو الذي يُحلّيك حليةً ربانية ، إذا بدوت بها طُووعت وخودمت ، وقوربت وحمدت ، والحلم من الخصال المرقية للبشر عن صفات النوع . — ومنها **الكرم** ، وهو الذي به قوامك في نفسك ، وعليه مَدارُكَ مع بـــني جنسك . — ومنها **الرأفة** ، وهي التي تثني إليك أعناق الجبابرة . — ومنهـــا [٤٢/ب] **الجود** ، وهو الذي يكمّلك الكمال اللائق بك بقدر طاقتك .

ومذ[1] انكشفتْ لك أيضاً الفضائل بأسمائها الخاصة ، وحدودها العامة ، فقد انكشفت لك أيضاً الرذائل بأسمائها الخاصة ، ورسومها العامة — أعــني أنك إن نظرت إلى الشجاعة التفتَّ إلى **الجُبْن** ، وإذا أشرت إلى الكرم فقـد أومأت إلى **اللؤم** ، وإذا ذكرت الحلم فقد زَهّدْتَ في **السّفه** ، وإذا ما كَنَيْتَ عن الجود فقد صرحت **بالبخل** . فلهذا قلتُ : إن بانكشاف الفضائل انكشافَ الرذائل ، وكذلك بانكشاف الرذائل انكشاف الفضائل ، لأن الأضداد تدخل تحت الأسماء المعروضة بنوع التصاحب ، بلا تقدم ولا تَأخُّر ، لأن التأخر والتقدم بالزمان والمكان ، وليس هناك زمان ولا مكان . فإن قلت : والتصاحب أيضاً في الزمان والمكان ، فالجواب : إن هذا غلط ، إلا إذا سلطت إرادتك على قوابل الحس ، لأن التصاحب صورةٌ مأخوذة من الوحدة ، والوحدة بها يكون غيرها متوحداً ، ولا تكون به هي وحدة . وهذا كلام زَلَلْنا به عن مكاننا الذي كنا واقفين عليه . ولا عجب ، فإن المعاني إذا تدفقت بالعزّ رأيت

---

١ — ر : وقد .

الحروف تتبدد بالذل ، لأن تلك من المبسوط الأول ، وهذا من المقبوض الثاني. فلهذا ما شَنُعَ هذا الفعل ، وَحَسُنَ هذا العذر ، ووجب بعدهما الغَفْر والقبول على عادة أهل التفضُّل . وإذا كان قولهم :

وفي كلِّ شيءٍ له آيـــةٌ تَدُلُّ على أنّه واحـــدُ[1]

صحيحاً ، فلا شك أن أصناف الحيوانات وضروب الجمادات على هـــذا ، وبقي أن تفهم عنها نطقها ، فإن بعضها ينطق بالشكل والقدر ، وبعضها بالحلية والصورة ، وبعضها بالحرف والصوت ، وبعضها بالنقصان والكمال ، وبعضها بالعقل ، وبعضها بالحسّ ؛ وبعضها بالتركيب من الجميع ، وبعضها بالفعل الوارد عليه. فإذا صَدَقَتْ رغبتك [٤٣/أ] في البحث عن هذه الغرائب التي لديك في نفسك وفي جنسك ، بانَ لك حينئذ ، بالعيان واليقين ، ما كنت غافلاً عنه بالشك والظنون ، واستفدت من ذلك نوعاً من التوحيد لا تجده مع قاصٍ[2] المحلة وحاكم البلدة ومتوسط الخصومة ومفتّي الجادة ؛ بل هو نمط قد خصّ الله به أعيان عباده ، وأعلامَ خلقه في بلاده ، فلهم بهذه الخصوصية منازل الملائكة ، وكرامة أولي العزم من الرسل . وكيف لا يكون هذا النعتُ تاماً ، وهذا القول عاماً ، ونحن نعلم أن استخراج الذهب من معدنه أشرفُ من جمع البعْرِ من عَطَنه ؛ وإذا كان الله تعالى كما قال: ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الانعام : ٩١) ، فلأن تجتهد في وصفه بكل ما كان دالاً عليه ، وداعياً إليه ، وموثقاً به ، ومؤمناً منه ، كان أولى وأوجب ، والتوحيد من ناحيته أعلى وأمجد . فلهذا وشِبْهه عَشَرْتُ بتلك الكلمات الروائع في سمتها غير هائب، من كل حاضر وغائب ، وسامع وطالب .

يا هذا : إن الله عمَّ بنعمته وخصَّ بفضله ، وجعل العامَّ فوضى لا تَزَاحُمَ

---

١ – البيت لأبي العتاهية (ديوانه : ١٠٤) .

٢ – كذلك ورد ، ولكن لفظة « قاضي » أنسب للسياق .

عليه ولا تَنافُسَ فيه ، وجعل الخاصَّ مصروفاً إلى أهليه . فانظر في حالك مميِّزاً بين ما لك منك، وبين ما عليك فيك ، فإن كنت من الذين عمَّتهم نعمته، وأنت قانع بذلك لا تتوق إلى أكثر منه، فأنت على شأنك غير ملوم ولا مذموم ؛ وإن كنت من الذين خَصَّهم فضلُه ، وبك نزاع إلى تخليص ذلك منك وإظهاره عنك ، حتى يبرز لعينك ، ويتجلى لبصرك ، ويصح به التنافس لك ، فاجتهد أن تتصفّح عالَمَ ربّك المجيدِ ، فتعرفَ منه ما بَطَن وما ظهر ، وما علن وما استتر ، وما جلَّ وما دَقّ ، وما فعل وما انفعل ، وما نطق وما صمت ، وما ضَرَّ وما نفع ، وما دبَّ وما مشى ، وما انتصب وما انتكس [٤٣/ب] وما ضاق وما اتسع ، وما استدار وما استقام ، وما اختلف وما ائتلف ، وما صعد وما هبط ، وما لزم قراراً واحداً ، وما دار كلَّ مدار ، وما تغير ، وما جل عن أن يتغير ، وما حسن وما قبح ، وما أَنِس وما نَفَر ، وما عار[١] وما قَرَّ ، وما انتظم وما التأم ، وما أخْصَبَ وما أجدب ، وما اعوجَّ وما اعتدل ، وما أراد وما كَرِه ، وما قَرُب وما بَعُد ، وما بلي وما بقي ، وما سَعِدَ وما شقي ، وما نزل وما رَقِي ، وما اختلط وما استقلَّ[٢] ، وما احتاج وما استغنى ، وما نما وما نقص ، وما طار وما سبح ، وما حقَّ وما بَطَل ، وما صفا وما كدر ، وما رطب وما يبس ، وما زان وما شان ، وما كان وما يكون ، وما لم يكن ولا يكون . وإذا عرفت هذه الأشياء عرفته بها من ناحية[٣] دلالتها عليه، وعرفتها به من ناحية صُنْعه لها، وبهذه المعرفة تستوضح غوامض حكمته ، وتستجلي غوالب قدرته ، وبهذه المعرفة تشهد منافذ مشيئته في مجاري إرادته . فإذا ائتلفتْ لك هذه المعارف ائتلافاً وصارت معرفة واحدة . علقت به على يقين وعيان . فحينئذ لا يكون في نوعك

---

١ - عار : ند وانطلق ، وهو ضد « قر » ؛ وفي ر والمطبوعة : عاد .

٢ - استقل : انماز عن غيره ولم يختلط به .

٣ - ر : كل ناحية .

من هو أكرم منك عند الله ، ولا أوجه عنده إلا مَنْ كان له نصيب مثل نصيبك وولاية كولايتك . وهذا شيء ليس باللعب ولا بالأمر الحقير ، ولا بالحديث الخفيف .

فتعالَ حتى نفرض أن هذه المعرفة حُصِّلَتْ لواحد من عباد الله الذين قد طبقوا الأرض : أليس ينبغي أن يكون له الشفّ[1] والفَضْل والمزيّة ، والابراز والتبريز ، والتقدم على الباقين الذين يجرون بالشكل والتخطيط والرسم والتحديد مجراه ، وينطلق عليهم اسمه . فلم لا تكون — عافاك الله — هذا الرجل ، ولم لا أكونه أنا ؟ ولكن أقول ذلك[2]. فما أنت أسعد بقُبولك مني بقبولي ممن هداني لهذا ودَلّني .

يا هذا : أنت ربما فَضَّلْتَ حماراً على حمار ، وبغلاً على بغل ، وفرساً على فرس ، وهِرّة على هرة [٤٤/أ] وكذلك خامس الحيوان كله — فلمَ لا تفضّل إنساناً على إنسان ؟ وإذا فضّلت إنساناً على إنسان ، فلم لا تفضّله بالفضائل والأخلاق والعبادات والأفعال ، ولكن تفضله بالدراهم والدنانير ، والثياب والضّياع ، والغاشية والحاشية ؟ إنك إذاً لمن الظالمين ، لأنك قد جهلت الفاضل مَنْ يكون ، والفضل ماذا يكون . إن كنت لم تجهل الفاضل ولا الفضل ، فكن الفاضل واكتسب الفضل ، فليس بين العلم والعمل سور ، وإن كان سور فليس من حديد ، وإن كان من حديد ، فالحديد أيضاً يعالج بما يلين به ويَستجيب له .

يا هذا : صارف نفسك في أنفاسها وفي خواطرها ، فإن لم تقدر ففي نيّاتها وَعزَماتها ، فإن لم تقدر ففي مقاصدها ومراصدها ، فإن لم تفعل ففي أفعالها واختياراتها ، فإن لم تقدر ففي أبدالها وفيما يقوم مقامها ، فإن لم تقدر فاكترِ نائحة تنوح عليك فإنّك[3] في الأحياء ميت كما كان غيرك في الأموات حيا .

---

١ — الشف : الربح والفضل والتفوق .
٢ — كذا في ر ، والأرجح أن هناك سقطاً في النص .
٣ — ر : فان .

ما اغرب هذه الإشارة ، وما ألخص هذه العبارة ! ولكن أين الذين يدرون[1] ويحضرون فيسمعون ، بل أين الذين يسمعون فيعقلون ، بل أين الذين يعقلون ويحصّلون ما يعقلون ؟ فكم كلمة عُقلت ولكنها من بعد ذلك شَرَدَت ، فطالت عليها الحسرة والندامة . إن الكلمة تطلب مَقَرَّها الموافق لها ، فإذا صادفت سكنت ، وإذا لم تصادف جالت في آفاق النفوس دائبةً إلى أن تجدَ مكانها اللائق بها . وإذا نطق بها من لا ينتفع بها فذاك أيضاً لتبرّؤها عن صدر الناطق وقلة رضاها به ، وقلقها إلى غيره . وأسرار الإنسان في نفسه ، وأسرار نفسه فيه ، غريبة بديعة ، لا تستوعب بتحصيل ، ولا يوقف منها على تفصيل . ولهذا يجب البحث والنظر على طول الزمن ، فإن الفائدة مع الزمان بطول الاعتبار وشدة الاختبار .

إلهنا [٤٤/ب] زاغت الأبصار حين سرحت نحوك ، وارتدت خاسئةً حين رامتك ، وحارت الألباب حين فحصت عنك ، ونكصت على أعقابها فَرِقَةً منك : فالأحساس تَتَنَزَّهُ عنها لأنها أخسُّ من أن توحّد بها ، والألباب تتحير[2] فيك لأنها – على كل حال – خلقك ، ولست تأذن لخلقك إلا في لزوم حده وطاعته لك . فقد أضرَّ بنا تنزُّهُك في الأول وتحييرك[3] في الثاني ، ولذلك ما قد تَبَرَّمْنا بهذا الشوق الدائم ، وبهذه الحركة المتصلة ، وبهذا النزاع القائم .

إلهنا : فإن لم يكن محالاً من أحد هذين الوجهين فَجُدْ علينا بذلك ، وإنا لذلك[4] شاكرون وله مستحقون . وإن كان محالاً ، فنحن أعلم بك من أن نسألك المحال ونطلب ما لا يجوز أن يُطلب . فَأَبْرِدْ أكبادنا من حَرِّ الشوق إلى ذلك

---

١ – ر : يدورون .

٢ – ر : تتحيرها ، وفي الهامش : خ : تحيرها .

٣ – ر : وتحيرك .

٤ – صورة الكلمة في ر : لديك (دون اعجام) .

بالقناعة والتسليم حتى نتثبت لك على الصراط المستقيم ، راضين بما قسمت . شاكرين لما وهبت ، متقبلين لما تفضّلت ، مفوضين إليك ، راغبين فيك . عالمين بأنك المنعم الأول ، والمحسن الأفضل .

اللهم : احذف عن ألسنتنا فضولَ القول معك ، خاصةً في وقت مسألتك . واجعل هيبتنا لك بقدر توكلنا عليك . ولا تجعل بعض أقاويلنا وبالاً ، ولا بعض عقائدنا ضلالاً ، فإنا لا نقول إلا ما أنت أهله ، ولا نعتقد إلا ما أنت أولى به ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ١٥ -

إلهنا : لا جمال إلا لوجهك . ولا إتقان إلا لفعلك ، ولا نفاذ إلا لحُكْمك . ولا بهجة إلا لعالَمك ، ولا نور إلا ما سطع من لَدُنْك ، ولا صواب إلا في قضائك ، ولا حلاوة إلا في كلامك ، ولا قوام إلا بتأييدك ، ولا تمام إلا بترتيبك [٤٥/أ] ولا صلاح إلا بتهذيبك ، ولا مضاء إلا بتسبيبك ، ولا سكون إلا في فنائك ، ولا هناءة إلا في عطائك ، ولا حكمة إلا في أنبائك ، ولا أُنْسَ إلا مع أوليائك ، ولا نَشْرَ إلا لآلائك ، ولا بصيرة إلا بإلهامك ، ولا سكينة إلا بإلمامك ، ولا حجة إلا في أحكامك . ولا تدبير إلا بين نَقْضك وإبرامك ، ولا وصف إلا لك ، ولا وَجْد إلا بك ، ولا توكلَ إلا عليك ، ولا رحمة إلا منك ، ولا تهالُكَ إلا عليك ، ولا خير إلا عنك ، ولا شرفَ إلا بتشريفك ، ولا استبانة إلا بتعريفك ، ولا اهتداءَ إلا بتوقيفك ، ولا إجابةَ إلا بتلطيفك ، ولا رُشْدَ إلا في تكليفك .

إلهنا : فبقدرتك التي أنت من وراء خلقك ، وبحكمتك التي اشتملت على جميع بريّتك ، وبمشيئتك التي نفذت في كلٍّ عبادك ، إلا أنّستنا بعبادتك ، وأمْدَدْتَنا منها بزيادتك ، وأذقتنا عذوبةَ القرب منك ، وخلطتنا بالذين

اجتبيتهم لخدمتك ، فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد صرفت عنا غائلةَ كلٍّ غائل ، وأمّنتنا كيدَ كلٍّ ما حل[1] .

إلهنا : كيف نطلبك وأنت قبل الطلب موجود ؟ أم كيف نجدك وأنت بعد الطلب مفقود ؟ لستَ مفقوداً بالعين ولكنك مفقودٌ عن العين ، ولستَ موجوداً بالعقل ولكنك موجود للعقل ، وليس يلتبس أمرك إلاّ على من حَجَبْتَه عنك ، ولم تؤهّله لمعرفتك ، ولا رأيته مستحقاً للإشارة إليك . مقَتَه فجهلك ، وحجبته فجحدك ، وأنكرته فأنكرك .

إلهنا : بحرمة هذه السابقة منك إلينا إلا أَلحقتنا بعصابة الأتقياء عندك ، وحشرتنا في زمرة الأولياءِ قِبَلك ، وخصصتنا بعد هذا وهذا بما لا نُحْسِن أن نتمناه ، ولا نجسر على أن نتخطّاه .

يا هذا : إذا سمعت مثل هذه الصفات [٤٥/ب] بمثل هذه السِّمات ، على شكل هذه اللغات ، فاستشعر العظمة ، فإنك بهذا الاستشعار تستحقُّ التكرمة . وهذه المعارف بهذه النعوت هي سلاليم قلوب العارفين في الترقي إلى ساحة الربوبية الغاصّة بأحكام الإلهية ، فهيء — عافاك الله — لنفسك سلّماً منها ، واحرِص على الترقي عليها ، فإذا حصلت هناك فتبَحْبح كيف أردت ، وتبوّأ حيث شئت ، فقد نجوت من الدنيا وآفاتها ، وتخلّصت من هذه الدار وعاهاتها ، وفُزْتَ بنعيمٍ لانفاد له ، وخلودٍ لا آخر له ، وعِزٍّ لا ذل بعده .

حبيبي : أما ترى ضيعتي في تحفّظي ؟ أما ترى رقادي في تيقظي ؟ أما ترى تفرقي في تجمعي ؟ أما ترى غُصّتي في إساغتي ؟ أما ترى دعائي لغيري مع قلة إجابتي ؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي ؟ أما ترى رشدي في غيِّي ؟ أما ترى عيِّي في بلاغتي ؟ أما ترى ضعفي في قوّتي ؟ أما ترى عجزي في قدرتي ؟ أما

---

[1] — المحال : الكيد وروم الأمر بالحيل ، ومحل به : عرضه لأمر يهلكه .

ترى غيبتي في حضوري ؟ أما ترى كُموني في ظهوري؟ أما ترى ضعتي [1] في شرفي ؟ أما ترى سخافتي في زماتي [2] ؟ أما ترى غشي في نصيحتي ؟ أما ترى عنائي في راحتي ؟ أما ترى دائي في دوائي ؟ أما ترى بلائي من مولائي ؟ أما ترى عليّ هذا إلى أن يفنى الورى ، ويَنْفَدَ الثّرى ، ويُفْقَدَ السُّرَى ؟

يا هذا : لو توحّدْتُ عن كثرتي ، أو تفردت عن صحبتي ، أو لزمت حجّتي بدل شبهتي ، أو رفضتُ شهوتي على شدة شهوتي ، لأبصرت الطريق واضحاً ، وكان دعائي لك بعد سبقي إلى الإجابة ، ونصحي إياك بعد انتصاحي لمن عاداك ؛ ولكني ممنوٌّ مبلوٌّ منحوٌّ ممحوٌّ : ممنوٌّ بنفسي ، ومبلوٌّ بجنسي ، منحو بعادتي ، ممحوٌّ بآفتي ؛ فلهذا قد أصبحتُ مفضوحاً عند كل ناظرٍ إليّ ، وواقف عليّ ، وصرت عَلَماً لدى الخلق [3] بالدعوى العارية من البرهان ، والحجة الملفّقة بلا بيان . إن استترتُ ذُكرت ، وإن انتشرت [٤٦/ أ] شُهرت ، فقد بقيت مكدوداً مهدوداً ، ليس معي تعلل بالوعد ولا تقلقلٌ من الوعيـــد . أتدري لمَ هذا كله ؟ أقول لك : « لم » بيني وبينك ، جاريةٌ على سبيل الخبر والاستخبار ، وعلى وجه التحفظ والاستظهار : هذا كله لأنه أبدى لي الحركة والسكون ، وصرف بينهما كل ما كان ويكون ، فغرقت العيون في العيون ، واختلطت الظنون بالظنون ، وأَشْكَلَ أمر الغابن والمغبون ، وحصل الخلق تحت الحال لا يدرون ولا يعقلون . عمّ التلبيس فغمض الفرق بين التعميم والتخصيص . فلا جَرَمَ ، إن قال قائل : «هل هو » أُجيبَ بما يحيّره ؛ وإن قال : «لمَ هو» أجيب بما يخيّبه [4] ؛ وإن قال : « كم هو » أجيب بما يُخْرِسه . فما الحيلة والسترُ مُسْبَلٌ وليس له رافع ، والعجبُ [5] واقع وليس له دافع ، والشكّ معترضٌ وليس له مانع ؟

---

١ – ر : ضعفي .
٢ – الزماتة : التوقر .
٣ – ر : بالخلق .
٤ – ر : يحييه ، وفوقها علامة خطأ .
٥ – ر : والعجائب .

يا هذا : دع سكرانَ الهوى حتى يتهادى في سُكْره ، ودع مقلّدَ الحال حتى يتمادى في نُكْره ، ودع مدبر الخلق حتى يوصفَ بذكره ، ودع المحتاجَ حتى يموت على حاجته ، والمريض حتى يتناهى في دَنَفه ، والدّنِف حتى يفضي إلى تلفه ، فليس إلى البغية سبيل ، ولا على دَرَك الرضى دليل . للعقل صلفٌ شديد ، فإذا قُدْته إلى التقليد جمح ، وللحسّ ترف ظاهر إذا أشرت له إلى التسمح ثاب وعاد ، وثبت واعتاد ، والإنسان بينهما أسير ، إن أراد طاعتهما حادّاه وشاقّاه ، وإن مال إلى أحدهما اجتمعا عليه ودقّاه . فكيف يطيب عيش مَنْ يفيض صدره بهذه الحفائظ ، ويغلي سِرُّه بهذه المغايظ ؟ ما يطيب والله لحظة عين .

الحديث أطول من هذا ، ولكنْ في فمي ماء . على أني قد سقت العبارة هكذا وهكذا ، شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، وأرضاً وسماءً ، فلم أدع للكناية قوةً إلا عصرتُها عند العثور عليها ، ولا للتصريح علامةً إلا ونصبتها حين وصلت إليها . وإشفاقي على من لا يفهم لكدر طباعه ، أو لبلادة فهمه ، أو لغالب جهله [٤٦/ب] أو لعصبية تعتريه شديـــدة ، لأنه يفسد وقد قصَدْتُ صلاحه ، ويَغْوى وقد أردت فلاحه . إنّا لله وإنّا إليه راجعون ؛ أصبحتُ :

... كأنّي ذُبالــةٌ نُصِبَتْ تُضيء للناسِ وهي تحترقُ[١]

لعلك تقول بغفلتك وقلة تجربتك وقصور نظرك : فلو سكتَّ في الجملة كان أصلحَ من هذه الاستغاثة المكرّرة ، ومن هذا العويل الطويل ، ومن هذه البداءات المعترضة ، ومن هذه الطرق المختلفة . فالجواب عن قولك : إنك لو أحسست بالداعي إلى هذا القول ، وبالمهيِّج على هذا التهويل ، لكان عذري عندك مبسوطاً وكان اعتراضُك عني مقبوضاً . ولكنك لا تحسّ ، ولا أظنك تحس بأن تحسّ . والله ما نَبَسْتُ من هذه السطور الكثيرة والورقات المتصلة بحرف إلا بعد الخناق

١ - البيت للعباس بن الاحنف (ديوانه : ١٩٧) وأول لفظة فيه « صرت ... » .

الشديد، وعصر الفؤاد بالكره، وإلا بعد التلويح في المنام، وإلا بعد الإلقاء والإلمام، وإلا بعد الاعتراض في المقام والمقام. وكاد روحي يخرج في هذه الحال التي كانت تَعْرِض، فرأيت الخطر بالبَوْح مع هذا الحث المتوالي أهونَ من هذا الصمت مع هذا البعث المتغالي، فنبستُ كما ترى. على أنك إن أنصفت علمت أني في كل ذلك واسطةٌ مستخدَم. ومُستعارٌ مستقدم، ليس لي في أطرافه أثر إلا ما يتعلق بالنسخ والهجاء، والنقس والأباء[1]. والدليل على ذلك أني نظرت فيه كله بعد ارتفاعه، فما وجدتني في موضع منه: لا بالذوقِ من الباطن، ولا بالشوق من الظاهر. فإن صدقتَني في هذا الخبر. فقد قضيتَ حقَّ الذمام الجامع بيني وبينك في الطريقة؛ وإن كذبتني فما لي بعد هذا حيلة على الحقيقة.

يا هذا: دَعْني من هذا وهذا؛ قلتُ نعم وقلتُ، وأشرتُ وكَنَيْتُ، وسميتُ وكنّيت، وحاججتُ ولاججت، وبقَيْتُ[2] [٤٧/أ] واشتريت، ومحوتُ وأثبتّ، وجمعتُ وفرّقت، ونَصَحْتُ وغَشَشْتُ، ومَحَضْتُ ومَذَقْتُ، وعَسّرْتُ وسَهّلت، وصدّقت وكذّبت. كأن ياذا أنت مسيطرٌ عليّ، وأنت مطالب فيّ: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون: ٦). ما هذه النفاسة؟ ما هذا الحسد؟ ما هذه المغافصة[3]؟ هل فيكم من بَرَزَ له من بين سِنّي قَلَمه هذا كله أو بعضه؟ ثم لا فخر بالإمساك، لأن الإمساك قد يكون عن قدرة كما يكون عن عجز. وأقول أيضاً قول الآخر على شكل آخر حتى يكون أقدَّ لحشا الحاسد، وأضْرَمَ لنار الكمد، وأفَتَّ لكبد المنافس: نعم سيِّدي، نَطَقْتُ بالحقِّ، ونطقتُ للحقّ، وما نطقتُ ولكنه أنطقني؛ على أنه ما أنطقني حتى خصّني، وما خصني حتى أذن لي، ولا أذن لي حتى

---

١ - النقس: الحبر، والأباء: القصب، يريد «الأقلام»؛ وفي ر: والنقش والانا.

٢ - كذا في ر، ولعلها: وبعت.

٣ - اضطرب الناسخ هنا وكتب: المغاربضة؛ والمغافصة: الأخذ على غرة وركوب المرء بالمساءة.

حلاني بحلية[1] الخطباء الذين لا يجوز لهم صعود المنابر إلا بعد أدوات يستعينون بها ، وهيئات يتحلون بها . فهكذا أجرى[2] أمري وأعلي وأمجد ، فليحسد من شاء ، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ (المائدة : ٥٤) .

إلى متى أداريك وتماريني ، وأرائيك وتواربني ، كأني جوزة تدفعني كيف شئت ، وتسمني بما أردت ؟

يا هذا : عَدّ عن هذا أيضاً . فإنك إن أخذت في اقتصاصه وسياقته طال ولم يدخلك فيه ملل ، لأنه يجري مجرى شفاء الغيظ ، وأمور الدنيا أحقر وأزرى من أن يُوهب لصوابها وقتٌ تمدح به ، أو يفرغ لخطأها زمان تذم فيه .

يا هذا : : عُدْ بنا إلى متن التوحيد ، وإلى عُمق المعرفة ، وإلى عُقْبان[3] الوجد ، وإلى آخر مدى التوكل ، والى العلل العارضة في هذا الأحوال ، وإلى الواضحات الواردة بالإشكال ، وإلى المشكلات الصادرة بالداء العُضال . فإن الخوضَ في هذه الأشياء أنفع من المهاترة فيما كنّا فيه ، لأن الكلام مع الخصم من المهاترة[٤٧/ب] والمناظرة والمذاكرة . فأما المهاترة فبابٌ ينشأ من التنافس وإيثار الغَلَبة ؛ وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة ، كالرأي المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق ؛ وأما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة والمذاكرة ، قد تفضي إلى المنافسة ، وقد توجد بها الفائدة ، وهي كالفكاهة بين العلماء .

فإذا سلمَتْ هذه العبارة ، فتعال حتى نقول : متنُ التوحيد مشاهدةُ الواحد بالضمير المعتقِد على مباينة كل ما سواه ، وعُمْقُ المعرفة سكونُ النفسِ إلى المعروف بما لابس النفسَ من الأنس ، وعُقبانُ الوجد هو أن كل ما عدا من

---

١ – ر : تحلية .

٢ – ر : جرى .

٣ – عقبان الشيء : خاتمته وعاقبته .

من الوجد به بدا ، وآخر مدى التوكل غُنْية صاحبه برؤية المتوكّل عليه عن كل ما اقتضاه التوكل في الأول ؛ وأما العلل الواردة في الأحوال فهي عبارة عن الآفات الناشئة من النفس الأمّارة ، وعن الآفات الفاشية في الكون ؛ وأما الواضحات الواردات بالإشكال فكلُّ ما سُمِع مما اقتضى «لِمَ » ، فوقع الحجاب عنه ؛ وأما المشكلات الصادرة بالداء العضال فهي المقابلات للواضحات الواردة بالإشكال لأنها تصدر عن نيات مَشوبة وطويات مُريبة .

فهذا ما اعتَنَّ من القول في هذا الوقت . وإذا بَسَط الزمانُ كفَّه وأعرضَ طَرْفُه ، أتينا على هذا كله ببيان أشفَّ من هذا وأشفى ، وضممنا إلى جميعه ما يكون داخلاً في شكله ، وناهضاً بحمله ، إن شاء الله . فلا يروعَنَّك لفظ يكونُ قاصراً عن مُرادك في الحال ، فإنك إذا أعدت النظرَ عاد ذلك القاصرُ بالغاً ، وذلك المتضائل ضخماً .

يا هذا : جرِّد عزيمتك في تطْرية ذهنك ، وتطهير نفسك ، وتقذية عينك ، وتنقية قلبك ، وتحلية روحك ، وتوفية بعضك ، وترقية كلك ، فإنك [٤٨/أ] مطالَبٌ بعد قليل بأن تناجي ربّك بلا واسطةٍ بينه وبينك . فانظر كيف تكون في هيأتك وحجتك ، ومعذرتك ومكانتك ، وانبساطك واحتشامك فإنك إن لم تأخذ عتاد الأمر قبل إظلاله[١] ، أعجلك إظلاله عن إرسائه[٢] على حاله. وبهذا جرت العادة ومَرَّ الدهرُ واستتبَّ الأمر . فلا تجعلِ التقصيرَ ديدناً لك فليس كل وقت يحتمل ذلك ، واحذَر نفسَكَ وحَذِّرها منك ، فإنك إذا ضممتَ حذرك إلى تحذيرك نصحتك وثبتت لك . هذا منتهى قولي لك في هذا الجزء بعد التياث وتقاعسِ اعتَرضاني بكِ ومنك . فاستقوِ – أبقاك الله – بما أمرتك بذلك وبما نهيتك عنه من أجله ، والسّلام .

---

١ – ر : اطلاله .

٢ – ر : ارساله .

اللهمّ: إن بَحرَكَ إذا غطمط[1] مَوْجهُ هال[2] الواقفَ منه على الساحل، فكيف مَنْ هو فيوسطه يترنح به الموج وتتهاداه الريح؟

اللهمَّ: فَسَلِّمنا كيفما شئت، واهدنا للتي هي أقوم عندك وأَرْشَدُ لديك. فاحفظنا إذا قلنا، فإنما نقول لك ولوجهك، وألهِمْنا إذا سكتْنا، فإنما نسكتُ مِنْ أجلك ولعظمتك. وإذا كنت لنا[3] في حالتي القول والسكوت، أمنّا بعدهما بعفوك أنْ نَزِلَ أو نَضِلّ، يا ذا الجلال والإكرام.

- ١٦ -

أشرقت الأكوانُ بالأشباح، وشَرُفَت الأعيانُ بالأرواح، وتجلّت[4] أسرارُ الحقّ فيها بين الاقتراح والارتياح، وتناجت النفوس على بُعْد الديار بما تتخافتُ فيه الأفواه على قرب المزار، ورُدَّتْ على الناظرين خوائنُ الأبصار، والتقت في الغيب سوانحُ الإقرار والإنكار، وقيل لصاحب الشوق: هِجْ وَلَهاً، وَغِبْ عَلَهاً[5]؛ وقيل لصاحب الوجد: رِدْ ثَمَداً[6]، أو مُتْ كَمَداً؛ وقيل لصاحب العيب: اخسأ مهيناً [٤٨/ب] وانأ مشيناً؛ وقيل لصاحب الحب: هات بياناً، وأبْرِزْ برهاناً. فعندها لحظ اللاحظون بعين الصدق،

---

١ - الغطمطة: اضطراب الامواج.

٢ - ر: وهال.

٣ - ر: لها.

٤ - ر: وتحلت.

٥ - العله: شدة الوله.

٦ - يعني اكتف بالقليل (الثمد: الماء القليل)؛ وفي ر والمطبوعة: زد؛ ورد: فعل أمر من «ورد».

ولفظ اللافظون بلسان الحق شتات[1] الحال ، واضمحلال المقال ، والتواء المنال . فتناجوا[2] في السرائر ، وباحوا بالضمائر ، ورفعوا رقومَ البواطن والظواهر ، وافترقوا عن الألفة ، وتكثّروا بالوحدة . وخيّموا بين سواحلِ التجني وتلاعِ التمني ، فما مكثوا مطمئنين ولا لبثوا مُرْجَحِنّين ، حتى هاجت دواعي المنى ، وماجت سواعي الهوى ، فمن طائحٍ في البحر غريق ، ومن تائه في البر بلا رفيق ؛ على أن حفظ الحال مع الشتات والانبتات[3] ، أولى من إهمالهـا وإرسالها بالعناد والإعنات ، ولأن يُكان في الهوى بحكم التشتيت ، خير من أن يُكانَ في السلوة بحكم الاجتماع : السّلْوة مجانَبة ، والهوى مكاثَبة[4] ؛ السلوة سهو الرُّوح والهوى روض الروح ؛ والسلوة طَرْد والهوى تحريش ؛ السلوة إعراض والهوى استعراض . وهـل تعرضتَ للـهوى إلا بعد أن عرضك ، فتعريضه قبل تعرضك ، ودعاؤه قبل إجابتك ، ولطفه قبـل استلطافك ، وعطفه قبل استعطافك . وليس الهوى في هذه القصة حظَّ النفس أو حظَّ[5] الحس إلى الحس . لا وحقّ الحق الذي بَرَأ الأشياء ثم برىء منها ، وجلاها ثم خلّى عنها ، وأبانها ثم بان فيها ، وأفاضها ثم فاض عليها . مـا المراد بالهوى هناك ، ما يراد بغير ذاك ، إلا أشياء[6] مترادفة بالعادة ، متصادفة بالإفادة . فالأسماء مطروحة بالتوقيف ، والمعاني مأخوذة بالتعريف : الأسماء مختلفة بكدر الخلق ، والمعاني مؤتلفة بصفو الحق ؛ الأسماء مسموعة بلسان التفرقة ، والمعاني مسموعة بلسان الجمع ؛ الأسماء متنافية باللغات ، والمعاني

---

١ – لم يعجم منها سوى حرف الشين في ر .
٢ – ر : فناجوا .
٣ – ر : والاهتات .
٤ – ر : مكاتبة ؛ والمكاثبة : القرب ، وهي تقابل « مجانبة » .
٥ – ر : حط ... حظ .
٦ – صورة الكلمة في ر : بيضا (دون اعجام) .

متصافية بحكم الصفات . أما تعلم أن الأنس بالمعاني على إيثار الحق ، مُقَدَّم [٤٩/أ]على الاستيحاش في الأسماء لتنافيها على إيثار الخلق ؟ الأسماء محدودة بالأفهام ، والمعاني معدودة بالإلهام ، فإياك أن تلحظ المعاني بعين الاسم فتعطب ، وإياك أن تعطي الاسم ذات المعنى فتتعب ، وإياك أن تعطي المعنى رسم الاسم فتكذب ، وإياك أن تفرق بينهما فتتهم ، وإياك أن تجمع بينهما فتوهم . ههنا زَلِقَتْ أقدام المتكلمين ، وانتكست أعلام المتحذلقين ، لأنهم سَعَوْا في في آياته مُعاجزين[1] ، ونظروا في آلائه مستهزئين ، وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين ، فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين .

إن كنت من أهل القِصّة ، فتجرّع بالتسليم مرارة الغُصَّة ؛ إن أردت أن تلحق بالملأ الأعلى ، فَدُبَّ بين البلاء والبلى ؛ إن كنت من أهل المحبّة فلا تنظر إلى المِحْنَة ، ولكن انظر إلى المِنّة في المحنة .

يا هذا : افحص عن ودائع الحق فيك ، وانْفُضْ خزائنه قِبَلَك ، واشهد آلاءه عندك ، واطلب مزيده بالشكر على ما نوّلك ، فإذا أعوزك الشكر فاعترف بالعجز عن القيام بما أمرك . فوِّض إليه ما زوى عنك علمَهُ ، وطوى دونك حكمه ، وستّر عن عقلك حكمته ، وأظهر علىٰ جملتك قدرته . إن أوحشك خفاء الحكمة ، فاستأنسْ بظهور القدرة ؛ إن أدهشك قضاءُ الإلهية ، فاستأمنْ إلى حدّ العبودية ؛ إن غاظك انفراده بمعلومه منك ، وإرادته فيك ، فاسكُنْ إلى ما ألبسك من أمره ونهيه . واعلم أنه إن اطّرَد عليه اعتراضُك ، لم يصلح أن يكون إلهاً لك ، وإن سُمِعَ فيه قولك ، لم تصلحْ أن تكونَ عبداً له .

يا هذا : انظر إلى زينة الكون مستطرفاً ، وفكّر في دواوين ملكوته مستعرِفاً ، وانتبه عن رقدتك متخوفاً ، ثم انتبه في انتباهك متوقفاً ، ثم احكم

---

١ – ناظر الى الآية ٥١ من سورة الحج : « والذين سعوا في آياته معاجزين اولئك اصحاب الجحيم » .

على نفسك مترفرفاً . ولن يُفتحَ لك هذا الباب ، ولا يُبْسَط لك هذا البساط [٤٩ / ب] حتى تصحب كونك بفراق كونك ، وتبيد في عينك عن عينك ، وتَنأى عن شاهد زَيْنك وشَيْنك ، وتمحو أثر المكان في أينك ، وحتى تبقى «أنت» منسلخاً عنك ، ونعتك منفسخاً[١] عليك ، وحتى ترى أن مَطاربك بالتمني معاطبك بالتمادي ، ومآلفك بالعيان متالِفك بالخبر . فإذا بلغت هذا الحدّ ، لم يبق بينك وبينك ضدٌ ولا نِدّ . فَرِدْ – حينئذٍ – بحره الطّامي ظامئاً ، ورُدْ روضه الناضر[٢] ناظراً ، فإنك تذوق بغير مذوق ما لم يَذُقْه مخلوق .

يا هذا : إن عاقك العجز المبذور فيك عن تناول الجوهر المنثور عليك ، فارْعَ زهرة الأماني متعللاً ، وتشبث بعلائق التوحيد مترسلاً ، ونُحْ على نفسك نوحَ الثّكول ، وكاشفها مكاشفةَ النّصُوح العَقُول[٣] ، وافتتح أمرها بأن تفطمها عن عادتها ، وتَكْظِمها على جرّتها[٤] ، وتخدمها مستخدماً لها فإذا صرخت عليك فاضحةً لك ، فامتهنها صائناً لها ، وذَلِّلها طالباً لغيرها ، وانسبها إلى عترتها[٥] واستُر عليها ما في طيّها ، فإنها إن لم تطعك كلّ الطاعة، لم تشنع عليك كلّ الشناعة .

يا هذا : ارفق قليلاً ، والحَقْ معنى جليلا : احتجب عن الجهل بالحلم ، وغُضّ عن الفهم بالوهم ، وانثر الذكر بالفكر ، واطلب المزيد بالشكر ، وأخفِ المكر في الأمر ، وامزُج الصحو بالسُّكْر ، وألّف ما بين العذل والعُذْر ، وشَرِّف القول بالفعل ، وتردّد بين الفصل والوصل ، ثم رقّ على الكل في الكل ، فإن محقّق الكل فوق الكل .

---

١ – ر : منفسحاً .

٢ – ر : الناظر .

٣ – العقول : صيغة مبالغة من عاقل .

٤ – كظم البعير على جرته : أمسك عن الاجترار ، أو ردد الجرة في حلقه ؛ والمعنى : تحبسها وتقدعها .

٥ – ر : غترتها ، وفي المطبوعة : غيرتها .

أتدري ما الذي وجدت فيما وجدت ممن أوجد كلَّ واجد ما وجد ؟ وجدْت الجملةَ العويصةَ على الجمهور هي التفصيلَ المشكلَ على الأفراد ، والحالَ المفروصةَ بالكمال هي النهايةَ المنقوصةَ[1] بالتحقيق عند الخواصّ . فأنا عند العيان قائم مع البهت ، وعند الخبر واقف مع التُّهَمة ، ومع النصيحة متمسك بالاستغشاش . إن قلت قلت متحسراً[٥٠ / أ] وإن سكت سكت متحيّراً ، وإن نظرت نظرت متنمراً ، وإن أغضيت أغضيت متذمّراً ، وإن سَكَنْتُ سَكَنْتُ متهوراً ، وإن تحركتُ تحرّكتُ متشوّراً[2] . فأنا كما قال بعض العارفين :

عرفتُ [الحقَّ] لما صار كـــلي ... يدانـي كلّهُ صَبّـــاً عَميدا
أشَرْتُ إليه من أمَمٍ لأنــــي ... أمِنْتُ من الهوى فيه صُـــدودا
فتِهْتُ به عليــه إذ حبـــاني ... بمعناه ، وصِرْتُ به وحيــدا
أنِسْتُ بــه لبُعدِ الخلق مــني ... فقد أصبحتُ موجوداً فقيــدا
معَادي أنت في وهمي وحسّي ... بأن أصبحتَ مُبْدئيَ المعيدا
وقالوا : قد وصلتَ فقلت قولاً ... أكون بـــه غَوِيـــاً أو رشيدا
ظننتم أنني أدركت معـــــنىً ... وأنّى يُدْرِك العَدَمُ الوجودا

يا هذا : هذا لسان التصوف ، والتصوف اسم يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة ، وجملته التذلل للحق بالتعزز على الخلق[3] .

يا هذا : حواجز الكون معترضة دون تملّي[4] العيش بزينة الكون ، لأن مدار

---

١ – المفروصة ... المنقوصة : كذا وردت الكلمتان في ر بالصاد المهملة ، أما المنقوصة فانها مناسبة تماماً للسياق ولكني لم أجد في مادة « فرص » ما يصلح تقديره هنــا ، ولعل قراءة المطبوعة «المفروضة...المنقوضة» هي البديل عن ذلك ؛ على أن في العبارة نقصاً آخر إذ سقط منها ما يقابل «الخواص» وحقها أن تكون «والحال المفروضة بالكمال [عند العوام] هي النهاية المنقوصة بالتحقيق عند الخواص » أو ما هو بمعناه .

٢ – متشور : خجلان ، أو فعل فعلا يستحيي منه .

٣ – ر : الحق .

٤ – غير معجمة في ر .

الكون على تقلّب وتفلّت يصيران بهذا الغير إلى مَدْخَلٍ ضيّق . وحكم المدفوع إليه حكمه ، لأنّه من نتاجه ونسجه . وغراسه وسقيه . وإنما يوحِّدُ الحقَّ الأحدَ الواحدُ بعد الواحدِ بما يهبُ له من الغيبِ في الغيب ، حتى يَطْهُرَ ها هنا من الرَّيب والعيب ؛ وهــذا مرامٌ بعيدٌ وأمرٌ صعب ، ومحنة عَمَّت وَشَمِلَتْ ، وبليّةٌ أظلّتْ من فوق وأقلّت من تحت .

فقال لي : متى تجلى بنات الصدور على هذه الشرائط ؟ ومتى تقوم عزائم الصبر على هذه البسائط ؟ ليس إلا التلمظ بحلاوة النجوى ، والعزوف عن مواطن الشكوى ، والأنفة من كشف آثار البلوى – إلى أن تعطف عواطف ، وتلطف لواطف ، فيستقي حرّان ، ويهتدي حيران ، ويرقأ دمع ، ويصغُو سَمْع ، ويُنْفى منالعين [٥٠/ب] ما كدّرها ، ومن النفس ما غيّرها ، ومن الطّرْف ما أقذاه ، ومن القلب ما آذاه .

أفدي والله هذه الفنون ، المستخرجة من هذا المعنى المصون ؛ آفدي والله عيناً باتت تدمع من خشية الله ؛ بل أفدي والله نفساً ظلت خاضعة مهينة هيبةً لله ؛ بل أفدي والله لساناً تلجلج بالاعتذار إلى الله ؛ بل أفدي والله قلباً ما يزال خافقاً حياءً من الله ؛ بل أفدي والله قدماً زلّت على الحركة في سخط الله ؛ بل أفدي والله يداً كفّتْ بنانها عن تناول ما لم يُبِحْه الله ؛ بل أفدي روحاً تهالكت وَجْداً على أولياء الله ؛ بل أفدي والله نعمةً أُدِّيَتْ بها حقوق الله ؛ بل أفدي والله عقلاً اشتاق إلى موعود الله ؛ بل أفدي والله كَبَداً[1] أوثر على الراحة لوجه الله ؛ بل أفدي والله الحديثَ عن الله والحياةَ مع الله ؛ بل أفدي والله خاطراً يسنح مبشّراً بذكر الله .

اللهم هَبْ لنا حال القائل :

ما إن تنفّستُ إلاّ خطرتَ أنت ببالي
ولا رميتُ بطرفي إلا وكنتَ حيالي
وما ذكرتُك إلاّ وَجَدْتُ وجداً بدا لي

---

١ – الكبد : المعاناة والمشقة .

اللهم[1] وَقوِّنا[2] بعزيمة الراجعين إلى بابك، وبَيِّض وجوهنا عند مناجاتك ، واغمرنا بمواد مواهبك ومنحك ، وآونا إلى كَنَف أَمْنِك بالأمن منك ، وأَمْطِر علينا سحائب جُودك وعطفك ، ووفقنا لأقْصَد السبيل إليك ، وخفف علينا في كل الأمور التوكّل عليك . وسهّل علينا طِلاب ما أعددته لأوليائك لديك ، واسلُبْنا مِنّا ، وشَرِّدنا عنا ، وخُذْنا لنا ، وبَقّنا علينا ، ولا توالنا بالنعم استدراجا ، ولا تمهلنا بالتطاول احتجاجا ؛ ولا تأخذنا[3] بيَاتاً ، وارحمنا إذا صرنا عظاما ورُفاتاً . وجُدْ علينا بكرمك إذا صدر الناس أشتاتا . إليك وكَلْنا كُلَّنا ، وعليك طرحنا كَلّنا . يا من هو أرحم بنا مِنّا ، وأَنْظَرُ لنا من أنفسنا ، وألطف بنا من آبائنا وأمهاتنا : امْحُ عنا صفاتنا باستيلائك ، ثم حلنا[4] علينا فيك بولائك .

- ١٧ -

[٥١ / أ] اللهم انّي أسألك الحمد [لك][5]، والرضى عنك ، والسكون إليك ، والثقة بك ، والقرار معك . فإن في الحمد لك زيادة ، وفي الرضى عنك قُرْبة ، وفي السكون إليك توكلاً ، وفي الثقة بك إخلاصاً ، وفي القرار معك مصافاة . فأجِرْنا من عَيْب يُمِضُ[6] النفسَ صباح مساء ، وأَعِذْنا من كل ما لا طاقة لنا به في ظلام وضياء ، واصرفنا عن كل سُمعة ورياء ، واكشف عنّا كلَّ بلاءٍ وعناء ، واعمُمْنا بكل عَطاءٍ وحِباء ، واخصُصْنا بكل ولاء وآلاء ، وحُل بيننا وبيننا حتى نكون لك على الصفاء والنقاء ، بعد الفناء في دار

١ – من هنا وحتى نهاية الرسالة تكرر في (ق ٨٥ / ب) في مطلع الرسالة (٢٩) في ر .
٢ – المكرر : قدنا .
٣ – المكرر : تؤاخذنا ؛ وأخذه بياتاً : أخذه ليلا على غرة .
٤ – المكرر : خلنا .
٥ – زيادة ضرورية ، يدل عليها قوله من بعد : « فان في الحمد لك ... » .
٦ – ر : يمص ، وكذلك في المطبوعة ، ولا وجه له .

البقاء ، فإن الحيلولة بيننا تُصَفّي صفاتِنا ، وتطيِّب حياتنا ، وتكثر تحياتنا ، وتدنينا من فنائك ، وتؤهلنا لرفدك[1] وعطائك ، وتصل بيننا وبينك بلطفك وعلائك ، وترسمنا في زُمرَة أَوليائك وأَصفيائك .

أيها المسترِق للسمع ، المتوالي في هذا الجمع : إذا سمعتني أدعو الله ، فثق بحسن ظني به ؛ وإذا رأيتني أدعوك إليه ، فثق بخالص نصحي لك ؛ وإذا وجدتني أذكر الله ، فاعلم بأني أريد به التقرب إليه ؛ وإذا صادفتني أصف الشوق فتيقّن أني أريد بك أخذ العَتاد والأهْبة ؛ وإذا لحظتني[2] أشير إلى المحبة ، فاعلم أني أهيجك على المواصلة ؛ وإذا رأَيتني أَعيب الدنيا ، فاعلم أني أريد أن أَصْرف عنها نظرك . أما سمعت الحكيم كيف يقول :

إني رأيتُ عواقبَ الدنيـــا … فتركتُ ما أهوى لما أخشى[3]
فكّرتُ في الدنيـــا وجدّتها … فاذا جميعُ جديدهـــا يبلى
وإذا جميعُ أمورهـــا عُقَبٌ … بين البريّةِ قلمـــا تبقى
وإذا بها صرفٌ يُعِدُّ لنـــا … في كل موضعِ زهرةٍ أفعى[4]
وبلوتُ أكثر أهلهـــا فإذا … كلّ أمرىءٍ في شأنه يسعى
ولقد نظرتُ فلم أجد خُلُقاً[5] … أعـــلى بصاحبه من التقـــوى
ولقد طلبتُ فلم أجدْ أحداً[6] … بأعزَّ من قَنِـــعٍ ولا أغنى
ولقد مررتُ على القبورِ فما … ميّزتُ بين العبد والمـــولى
[٥١/ ب] ما زالتِ الدنيا منغّصةً … لم يَعْرَ صاحبُها من البلـــوى

---

١ – ر : لوفدك .
٢ – غير واضحة تماماً في الأصل ؛ وفي المطبوعة « لحقتني » ؛ وتحت الحاء علامة مميزة لها .
٣ – هذه الأبيات لأبي العتاهية ، انظر ديوانه : ٩ .
٤ – لم يرد هذا البيت في ديوان أبي العتاهية .
٥ – الديوان : كرماً .
٦ – الديوان : سبباً .

يا هذا : إذا وجدت طبيباً يجمع لك بين الحِذْق والنُّصْح فارفع إليه داءك ، واعرِضْ عليه عِلّتك ، واصدُقه عما تقدم من غيبك ، في مطعمك ومشربك ، حتى يصدقك عنك ، ويخبرك منك ، ويتلافاك لك ، ويسقيك ما ينفعك ، ويحميك ما يضرك . هذا إن كنت تحس بدائك ، وتحنّ إلى شفائك ، وتعلم أنك مطبوبٌ ومحتاجٌ إلى قَيِّم بك ومُرْفقٍ لك . وما أحسن ما ألمّ بهذا المعنى بعضُ الممتحَنين ، فقال :

أجيروني من الكَمَـدِ المعنّي وإن لم ترفقوني فارفقوا بي

يا هذا : دعني من دائك وعلتك : أين أنت عن مرتبتك في همتك ؟ وهل لك فضل في قوتك ؟ ومن لك بأمنك في خيفتك ؟ أتراك تفرق في حالتيك بين ذِلّتك وعِزّتك ؟ إن كان عندك لهذه المنازل علامة فاستبشر ، فقد جعلك الله من أهل الكرامة ، وإن كنت غريباً منها فالزم باب الندامة ، فلعلك تُهْدَى إلى الغنيمة أو إلى السلامة .

يا هذا : اختلطَ الإفصاحُ باللّكنة ، وتلاقى النعيمُ والمحنة ، والتبست الغباوةُ بالفِطْنة ، وانتقضت عهودُ الرغبة والرهبة ، وصار الاستئناسُ من أحكام الجهر ، في مقادير الاستيحاش من أحكام السر ؛ فالشفاه ذابلة ، والصدور حامية ، والقلوب متلظية ، والعيون غرقى بالدموع ، والخدود ملطومة بالأكُفّ ؛ والوجوهُ مخموشةٌ بالأظفار ، والجيوبُ مشقوقة بالأيدي ، والفوائتُ متمنّاة بالحُرَق ، والعِيانات مشوبةٌ بالحَسَرات ، والأكبادُ مفتتة بالعبرات ، والأحشاءُ متلهبة بالزفرات ، والنظارة متحيرة عن هذه النوازل ، والأعداء شامتة بهذه الدّواهي ، والأخبار مرفوعة بهذه الشنّاعات ، والديوان ناطق بهذه الفضائح ، والمأتم منعقد بهذه النوائح . فاللائم ملوم ، والحامدُ مذموم ، والمعزّي ثاكل ، والسّالي متطاول ، والزاهد محاول ، والراغب متناول . فيا لك من

هرج ومرج قد وقع فيهما[1] أهل هذه العبارة والإشارة، بلا أمارة ولا أثارة : بلا أمارة من حلم يكفّ طلائع البأساء ، ولا أثارة من علم يزفّ عرائس السرّاء .

يا هذا : إذا دهمَ [٥٢ / أ] مثلُ هذا الأمر المُشْكل ، وحار له اللب ، وعزب عن تصريفه الرأي ، فلم تجد هَضْبة تقيك إذا نَحوتَها وعَلَوتَها ، فانخلع من حمأتك[2] التي قد عادت عليك وبالاً ، وأورثتك حيرة وخبالا . ولقد أجاد من فسّر هذا المراد بظاهرٍ من القول يزكو في نفس المستمع إذا كان لنفسه نصيحاً ، وكان في سعيه نجيحاً ، حين قال :

وإذا جهلتَ فلم تجدْ خَبراً ... فسَلِ الزمانَ فعنده الخبرُ
وإذا نظرتَ تريدُ مُعْتَبَراً ... فانظرْ إليك ففيك مُعْتَبَر
أنتَ الذي لا شيءَ منه له ... وأحقُّ منك بما لَكَ القَدَرُ
صُوَرٌ خُلِقْنَ من التراب معاً ... يبقى الترابُ وتذهب الصُّوَر

يا هذا : ما أجنحك عن كل حظّ لك في مسرّتك ، وما أجمحك على كلّ حال هي عليك في مضرّتك ! فيا أيها الحاسي سُمَّه بيده ، ويا أيها الساعي على نفسه بحتفه : إلى متى تغترّ وأنت تظن أنك غير مغتر ؟ إلى متى تُدْبِر وأنت عندك أنك مُقْبل ؟ وإلى متى تَصَمُّ وأنت في حسبانك أنك تَسْمع ؟ وإلى متى تَعْمَى وفي تقديرك أنك مُبْصِر ؟ وإلى متى تحسب أنك رابح وأنت عين الخاسر ؟ تقول : « خُذْ يومك ، وانتهز لذتك ، وبادر ساعتك، ومِل[3] إلى إرادتك ، و ابلغ آخر ما في نفسك ، فإنك ميت على قليل ، وهالك في أول الرعيل ! » صدقت يا جاهل في قيلك[4] ، فالآن وجب النظر فيما بعد هذا الحديث،

---

١ – ر : فيها .
٢ – ر : حقايك .
٣ – ر : ونل . ٤ – ر : وقتك ، دون اعجام .

فليست الغُمارة إلا في هذه الغرارة ، ولا ترك الحَزْم إلا في تقديم هذا العزم ، ولا انعَقَدَ[1] البَوارُ إلا في هذا البِدار ، ولا الدمار إلا على هذا الغرار .

أرجع فأقول : لعل عذرك مقبول ، فإن النفس أمارة بالسوء ، والشياطين مستحوذة بالكيد ، وقرين السوء متسلط [٥٢/ ب] بالإلف ، والعادة جارية على سَنَنِها ، والإرادة جادّةٌ على عَنَنِها ، والمعالجة عارضة بِفِتَنِها . فأين تجدك أو أين نجدك؟ ذهبت والله قبل أن جئْتَ ، وهلكتَ قبل أن سلمت ، وبطلتَ قبل أن حُقِّقْتَ ، وبِدْتَ قبل أن كنتَ ، وفُقِدتَ قبل أن وُجدت ، واعوججت قبل أن استقمت ، وهبطت قبل أن علَوْت ، وثكلتَ قبل أن مُتِّعتَ ، وغبتَ قبل أن شهدتَ ، وعزلتَ قبل أن وليت ، وأمسيت قبل أن أصبحت .

فيا أيها الجاني على نفسه ، الجاري في يومه على حكم أمسه : أما تظن أنك مبعوث ، وعلى البعث محثوث ؟ هذا إن لم تعلم باليقين . إن الظن ربما نفع ، وربما حمل على الاستظهار وأمتع . فمالي أدعوك وأنت نافر ؟ لعلك عند الله في حكم كافر . ولمَ أقطع زماني بك من غير جدوى تنطق بفلاحك ورجعتك ؟ ها هنا وصية ، فيها لك نصيحة وفيّة ، فتقبلها عاملاً بها بعد أن تقف عليها عاقلا بما فيها ، غير مُداجٍ لنفسك ، ولا خادع لها عن حظك – كما قال الأوّل :

استُرْ بصبرٍ خَلَلَكْ — والبَسْ عليه سَمَلَك[2]
وكُلْ هَزِيلَيْكَ على الـ — راحة واشْرَبْ وشَلَك
إذا اعترتك فاقةٌ — فارحلْ برِفْقٍ جَمَلَك
وارغب إلى الله ونُطْ — بما لديه أملك[3]
وآخِ في الله وصِلْ — في دِينه مَن وَصَلَك
رزقك يأتيك إلى — حين تُلاقِي أجَلَك

---

١ – ر : العقد .

٢ – الأبيات في أمالي القالي ٢ : ٢٢٩ .

٣ – في الأصل : عملك ، وأثبت رواية الأمالي .

مالُـــكَ ما قدَّمتــه وليس ما بعـــدك لك
وللزمـــان أكلـــةٌ إذا اشتهاهـــا أكَلَـك
وللرَّدَى قوسٌ فـــإن رمـــاك عنهـــا قتَلَـــك
يا ربِّ إني راغـــبٌ أدعو وأرجو نَفَلَـــك
أنت حَفِيٌّ لم تُخَــبْ دعوةَ راجٍ أمَّـلك
فـــأعطِنِي مِنْ سَعَةٍ يا من تعـــالى فَمَلَكْ
سبحـانك[1] اللّهمَّ مـــاً أجـلَّ عندي مثَلَـــك

أما تراني يا هذا كيف أداريك بالرفق ، وأُدوايك بالحذق ؟ أدعوك بالنثر إلى أن تنتثر عما قد زيّفك وأفسدك ، ثم أعطف عليك بالنظم إلى ما قد شرَّفك [٥٣ / أ] ورفعك. ولا تعجب من فراغي لك فإنّي مُوَكَّلٌ بك من قِبَل من هو أملك بي وبك ، فلعلك إذا أجبتَ ندائي ، وفهمت دعائي ، درجتُ معك ، وسلكتُ منهجك ، وتحليت بحليتك ؛ فإني من حيث أناديك مجاب ، وأنت من حيث تجيب مُنادىً . فإذا التأمَت الكلمة والكلمة بالدعاء والإجابة ، صار الداعي مجيباً ، والمجيب داعياً ؛ وإذا صحّت هذه الإشارة كنت أنا القائل وأنا السامع ، وكنتَ إياي في هذا الذكر الجامع . فبادرْ بدارَ الكيِّسِ لتستبيح ، وتأنَّ تأنّيَ المتنفّس لتستريح ، فالخير كله أمامك ، وأنت تجدُ ما أقول حقاً إذا شهدت مقامك .

اللهم : زدنا طُمَأنينةً إلى ذكرك ، وزدنا خوفاً من مكرك ، واغمِسْنا في بحر نعمتك وشكرك ، واعلُلنا بعد النَّهل من حبك ، ولا تَغُرّنا بخلقك في خلقك ، وصلنا بتأييدك في معرفتك ووصفك ، واقطع بيننا وبين العادلين بك[2] والشاكّين فيك ، والناكثين لعهدك ، والمكذّبين بوعدك ، وصافحنا بيدك ،

---

١ – ر : سبحك .
٢ – العادلين بك : الذين يسوونك بغيرك ، أو يزون لك عدلا وهو النظير والشبيه . وعدل الكافر بربه عدلا وعدولا سوى به غيره ، والعادل : المشرك يعدل بربه .

وكافحنا[1] بوجهك، وقدّسنا بنورك ، وحلّنا بشعار مرْضاتك ، وعلّنا إلى معادن كراماتك ، وهيّمنا في الوجد بك ، وغلّبْ علينا التوكّلَ عليك ، وألهمنا الانتسابَ إليك ، وكنْ حافظنا بقدرتك ، ومحفوظنا بتأييدك . وقبل هذا كله فأنْسِنا — يا ربنا — خَلْقَك ، فقد أشجونا فيك ، وكذّبونا في وصفك لك ، وأجلبوا علينا بسببك ، ورمونا عن قوسٍ واحدةٍ لاعتزازنا بك ، فاكفِناهم كيف شئت ، وأرِحْنا منهم كيف أردتَ . فما لنا عيشٌ إلا معك ، ولا لنا مأوى إلا عندك ، يا إله الخلق أجمعين .

قد تجشمت لك — متبرعاً — هذه النصائح ، فتجشم لنفسك — متسرعاً — إلى القبول ، فإنك بذلك أحظى مني ؛ ودع عنك الهُوَيْنا فإنها مَدْحَضَة لكل قدم ، ومَعْثَرة لكل خابط ، ومَهْواة [٥٣/ ب] لكل جهول، ولا يغرنك ما يواتيك من حظوظك التي يغبطك عليها بنو الدنيا ، فإن ذلك إلى اضمحلال . فاجتهد في استبانة أمرك ، وتَعرَّف خاصة ما يعنيك ، وزَجِّ يومَك بما طفَّ وكفّ[2] ، واعمل على أنك عابر سبيل ، وقافي دليل ؛ فإنك إن لم تفعل ذلك هلكْتَ ، وإذا هلكت فقد فُتَّ[3] ، ولو انكسرت لرجونا لك الانجبار ، ولو افتقرت لطمعنا[4] لك في اليسار ، ولو ضللت لتعبنا لك في الإرشاد . فاما إذا هلكت وفُتَّ ، فَمَنْ لنا بك ومَنْ لك بنفسِك ؟

هيهات : ذلك[5] أمر قد خرج عن مُستطاعِ غيرِ مستطاعِ البشر ، وزلَّ عن حيلة ذوي الحيلِ ، واليوم أنت حاضر ولك السمع والبصر ، وأنت بحمد الله على خطر ، ولا عذر ، فابذُر واحرُث واسْقِ وحافظ ، فعَنْ قليل إذا

---

١ — الكفاح : المواجهة . ٢ — يعني ما دنا منك وأغناك عن الناس .

٣ — ر : فت به .

٤ — ر : لطمنا .

٥ — ر : ولك ، وكذلك في المطبوعة .

حال الحَوْلُ أتاك أوان الحَصاد ، فحينئذ تُسَرُّ وتبهج ، وتعلم أنك قد أصبت فائدة ما كنت به تَلْهَج .

أما إني لو عقلت أمري ، لما أعرضت عن أسوي لجرحي إلى الشغل بك . والإشبال[1] عليك . وما عليَّ منك ؟ والله لو نجوتَ ما كان ذلك نافعي ، ولو نشبتَ ما كان ذاك ضائري : كل شاة برجلها تُناط[2] ، وكل حَرَمٍ فبعزَّةٍ يحاط .

أنا والله في أمر لا يُنادَى وليده ، ولا يرجى جهيده ، ولا تُنْشد ضالَّته ، ولا تؤمن غائلته ، لأني مع طيٍّ مستورٍ بيقين ، وضمير محشوٍّ بفتون ، وقلب مقلَّب على فنون ، إن نبست من خبري[3] بحرف ، سُقيتُ كأسَ حتف . فلا جَرَمَ كلامي كله كناية ، وإشاراتي كلها مُدْمَجة ، وبياني من أوله إلى آخره فَهاهة ، والتُّهْمَة عليَّ مشتملة ، والآفة بي محيطة ، والبال قلق ، والجو أكْلَف ، والسر أغلف ، وأنا أهرِف بما أعرف وبما لا أعرف .

اللهم : إليك أشكو ما نزل بي منك ، وإياك أسأل أن تعطف عليَّ برحمتك. فقد وحَقِّك شددتَ الوَثاق ، وضيَّقْتَ الخِناق ، وأقمت الحرب بيني وبينك. [٥٤/ أ] فبحقك وبعزِّتك إلا أرخيت وتغمدت ، وأحسنت وتفضلت ، فقد كدنا نحكي عنك ما يُبعدنا منك . ولو حكينا ذلك لكان في حلمك ما يسعنا[4] ، ولكنا نخاف خلْقك الجاهلين بك فإنهم يَضيقون عما تسع ، ويجهلون ما تعلم ، ويُبَخِّلون ما تجود ، ويُغصون ما تسيغ[5] .

---

١ – الاشبال : العطف والرعاية .

٢ – من المثل : كل شاة برجلها ستناط (الميداني ٢ : ٥٣) وجاء فيه أيضاً (٢ : ٥٩) كل شاه برجلها معلقة .

٣ – ر : خمري .

٤ – ر : يسعك .

٥ – أي يسببون الغصص بما تجده أنت سائغاً .

يا هذا : طَهِّر نفسك من الحُرْقة على فائت الدنيا ، وقَدِّس نفسك من الأسف على ما لم ترزق في الأولى، وتطامن لحكْمِ الحق وإن شَقَّ عليك ، فإن ذلك أنهضُ بك وأشد لاستقلالك ، وانظمْ بددَ همِّك في سِلْك نزاهتك ، وانثرْ عن كاهلك كلَّ ما أثقلك في مقصدك ، وكُنْ لنفسك بنفسك ، تجد أُنْسك في أُنسك ، وإياك و «لو» فإنها مَزْلَقة ، وإياك و «لعل» فإنها مغلقة . وإياك والتمني فإنه[1] مَقْلَقة ، وإياك والهوى فإنّه[1] مَعلقة ، وإياك والتُّهمة فإنها مَعْرَقة . وعليك بالفكر الصحيح ، والرأي الصريح ، والصاحب النصيح ، فإنك بهذا وأشباهه تنعم سراً وجهراً ، وتملك بطناً وظهراً . ومهما شككت فلا تَشُكَّ في رحيلك عن هذا المكان إلى ذلك المَعان . فاجْهَدْ أن تكون مقبولاً لا مردوداً ، ومجموعاً لا مُفَرّقاً ، وعَبِقاً لا تَفِلاً[2] ، وساطعاً لا كاسفاً ، ومطمئناً لا حرِجا ، وواثقاً لا متَّهماً ، ومُسَلِّماً لا مُعْتَرِضاً ، وباقياً لا منقرضاً .

قرن الله جَهْدك بالتوفيق ، وعصمك بالحياطة ، وهداك بالحق إلى الحق — والسلام .

- ١٨ -

الحمد لله الفرد الذي عَنَت له الوجوه ، وحارت في كنهه الألباب ، وطاعت لأمره المعاسير ، واستنَّتْ على إرادته المياسير .

يا هذا : قدِّم إلى حَضْرتي[3] شَخْصَك ، وأخّر عن فهم مقالتي نَقْصَك ، وقرِّب أذنك ، وفرِّغ بالك ، وحَصِّل عقلك ، ومَكِّنْ قلبك [٥٤/ ب] واستوقف حِسَّك ، واحفظ باليقظة نفسك ، واعصِ طبعك ، وانسَ رَفْعك

---

١ – ر : فانها .
٢ – التفل : الذي يترك الطيب فتتغير رائحته .
٣ – ر : حضري .

ووضْعَك ، واعرِفْ الحق فيما أنبذ إليك ، فقد أرسلتُ القلم ، وقلتُ ما سنح غير منقبض ولا محتشم ، ولا متحمِّد ولا مُتَذَمِّم . واعلم أن سوابق زفرتي في الحال من دفين وجدي به ، وبوادر عَبرتي عليه من مكين شوقي إليه ، وثوابت كَمَدي معه من ملاهب أسفي على ما يفوتني منه . فلهذا لا إنصاف[1] عندي ولا عدل ، ولا لوم عليه ولا عذل . وقمت[2] بنفضِ ما أودعه الحق من أحكام قدرته ، شاهداً بآثار حكمته ، والثقلان تحت الملكة بحسن السياسة والإبالة ، وفي نجوةٍ من الهلكة بجميل الحراسة والإيالة[3] ، لا مُبَدِّل لآياته، ولا مُعَقِّب لكلماته،وهو الحق المبين ، الفعال لما يشاء ، المصرّف على ما يريد ؛ يُفَرِّق والسر فيه تأليف ، ويَجْمع والحكم فيه تفريق ؛ عجبٌ ينفرد به ، ولطيفةٌ لا توجد إلا منه ، وأمر لا يمضيه غيره ، وحكم لا يقضيه سواه . هنالك لا مجال للعقل ، ولا مسرى للوهم ، ولا ثمرة للتحصيل ، ولا فائدة في البحث ، ولا غاية للطلب ؛ حارت الأبصار عنه كَلالاً ، وزاغت البصائر فيه تيهاً وجلالاً ؛ المستأنس به على خطر ، والمستدرَج عنده هالك ، والذاكر له غافل . بلى ، سَلْ لُطفه ، واطلب عطفه ، فإنه إن رأى فقرك رحمك ،وإن شهد أَوَدَك قوَّمك ، وإن شاهد تضاؤلك عَظَّمك ، وإن رأى حاجتك وفاقتك سَوَّمك[4] . وإياك والاعتراض عليه أو التعرض له ، فإنه متى شهد ذلك منك سامك خسفاً ، ونسفك نسفاً ، وقشرك قشراً ، ووشرك وَشْراً[5] . اعتقد محبته ولا تُبْدِها : لا[6] مصرحاً بها ولا كانياً عنها ، لأنك إن أبديتها مزجتها ، والمزج كَدَر ، وإن كتمتها صُنْتها، والصون صفو ؛ واشهد آلاءه راعياً لحقه

---

١ – ر : نصاف ؛ والنصاف مصدر نصف بمعنى خدم ، ولا أدري إن كان يستعمل بمعنى الانصاف الذي هو العدل .

٢ – يبدو أنه سقط قبل هذه اللفظة عبارة أو عبارات .

٣ – الابالة والايالة : حسن السياسة في المال وغيره .

٤ – سومك : حكمك في المال .

٥ – وشر بمعنى نشر . ٦ – ر : الا .

فيها بالشكر ، فإنه لا يستر عليك حقه حتى ترعى حقك ، ثم يعينك على المطالب ، ولا يستدعيك إلى ماله حتى يوفر عليك مالك [٥٥/أ] ثم يفسح لك في المَقْصد ؛ لطائفهُ تَجِلُّ مضافة إلى الخلق ، وعظائم الخلق تَقِلُّ مردودة إلى موجبات الحق ، لأن الأولى شائعة بالكمال ، ناطقة بالتمام ، شاهدة داعية إلى الإخلاص ، والثانية واقعة على درجات النقص ، مغمورة بأسباب التقصير . وهذا تمييز بلفظ مستعار ومجاز مستعمل وقول ضعيف ، وإلا فالآية ظاهرةٌ بسلطانها ، عالية ببرهانها ، راجعة إلى رَوْح اليقين من العارفين ، وسلامة التسليم من المريدين .

وفَّقَ الله الجميع ، وجعلك منهم ، ولا أفردني عنك ، وأنطقك بلسان آلائه ، وحرسك بعين وَلائه ، وثبتك على مناهج صَفَائه . فوحقك ما استرسلتُ هذا الاسترسالَ ، ولا خلَّيْتُ عنانَ القول على هذا المقال ، إلا لأني ناجيت بك نفسي ، وجبرت بما وهب الله لك نقصي . ولم أقصد ظلمك ، ولا استنزرت[1] علمك ، ولا أدميت كَلْمك ، فإنه ليس يخفى عليك من هذه العبارة إلا ما تجده في باب الإشارة . فلا عليك ، ولا بأس بك . ثق بالله واسكُن إليه ، وتولَّهْ فيه واعتمد عليه ، واستكن[2] له واطلب المزيد لديه : فلأن يُصيبك هو خيرٌ من أن ينعمك سواه . واعلم أني شاهدك وإن كنتُ غائباً عنك ، وواجدك وإن كنت طالباً لك ، لأني لم أفقد منك إلا مراسم الأحْساس التي تتصرف بها عين الراس . فان[3] المعنى الذي به أكاتبك منبسطاً ، هو الذي به أنقبض عنك مُسْتحيياً ، فأسكُتُ عما تقلّبتُ فيه بعدك من أحوال لا تُحصَ بلفظ ، ولا تحصَّل بحفظ ، فالسكوت عنها أحلى ، والإقبال على غيرها أولى . ألستَ سالماً في نفسك ، معافىً في بدنك ؟ فقد ترقّى إليَّ ما أشركني معك في

---

١ – ر : استثرت .

٢ – ر : واسكن .

٣ – ر : فاما .

الألم ، وشبهي بك في السقم ؛ ألستَ جامعاً لأطرافك ، مقبلاً على شأنك ، فقيراً إلى فقير يطلع عليك ، مفضلاً على فاضل ينقطع إليك ؟ فإن كنت كذلك فأنت بحمد الله كذلك [٥٥ / ب] .

فحمِّل أبا فلان من ثقل سلامي ما يُطوِّحه ، لا بل لقِّه من طيب كلامي ما يروِّحه . فقد أفرط عليّ في محبته ؛ فأنا والله مقصِّر في أداء لوازم حقه . ولا تتعرّض لأبي فلان فذاك ألصقُ بكبدي ، وأعرق في كمدي ، من أن تكون رسولي إليه ، وأقرب إلى سرّي ، وأقدر على نفعي وضرّي ، من أن تكون دليلي عليه ، بلَّغه الله سوله ، ومنحه مأموله . ولستُ أدري بأي شيء أُفْرِدُ فلانا ؛ فقد ورثت منه حسرة لا تفيء لي بها نعمة ، وإن شاء الله ردّني إليه ، وزوّدني من آثار فضله ، وهو القادر إذا أحبَّ ذاك . وإياك بعد هذا أن تُطيف بفلان ؛ فلي معه خطوب : تركني يا سيدي مشغول القلب به ، عاشقاً لفضله، وأعانني على مفارقته بانقباضه ، ولو لزمني لأفدته ، ولو جزَمَ عليّ لخدمته ، فما رأيت مثله زاده الله ولا نقصه . وفلان لا يفوتَنَّك السلامُ عليه ، فقد أولاني من جميل ذكره ما الله مكافئُه . وبعد أن تَخُصَّ هؤلاء فاعمُمْ بأجمل تحية سائر ذوي الفضل من الصوفية ، فإنهم ملوك الدنيا وسادة الآخرة. ولست أدري كيف الوجه في تسليمة خفيفة على فلان ، والاختبار والاختيار في ذلك إليك ، فإني فارقته مستوحشاً منه ، متعجباً من أخلاقه ، حزيناً على عقله ، لأني وجدته تاركاً لأحكام المروّة ، جاهلاً بحقوق الدعوى ، شديد العُجْبِ بما هو عليه ، وله من قلبي مكانة من السنّ والعلم والفضل والرياسة والإشارة ، وما أدفعه دَفْعَ زاهدٍ فيه ، ولا أطلبه طَلَبَ من لا غنى به عنه ، ولقد نَشرتُ على فلان أحواله ، وصوَّرت له أموره ، فبقي مبهوتاً ، وقال فيما قال : أعمى الله عيناً لا تَقَرُّ بك ، ولا صان نفساً لا تُقِرّ بفضلك . وهذا كلام لو افتُدي به ما تحويه يده ويفيده يومه وغده ، كان هو الرابح الغانم ، وإذا أبى فهو الخاسر الغارم . وما قصدت بهذا تهجينه ؛ فهو شيخ له حق وعليه

حقوق . ولكن قصدت تنبيهك على الواجب [٥٦/أ] فإن تفصيل الأشياء واجب بحكم الرسم وقضيّة الشاهد . فأما إذا صحّت الولاية ، ودامت الغاية ، وسَطَعَ نورُ الحق ، وسَطَا سلطانُ القدرة ، فحينئذ المعذرةُ مبسوطةٌ ، والحال في تلونها مغبوطة ، لأنها بأطراف الحقيقة منوطة ، وبعين الحق محوطة .

دَعْ ذا ، واقبل مني كلمة واحدة : لا تسكُنْ إلى الدنيا فإنها وَحْشة ، والقلوب فيها مستوحِشة :

أستغفر الله إلا من محبتكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما صحب ليلٌ نهاراً ، أو أرسلت السماء مدراراً .

يا هذا : اسمع وَصْفي لحالٍ ملتحمة : النظام والله محمود ، ويعزّ عليّ أن أقنع بالوصف دون المشافهة ، مجتنياً ثمرة الأنس بك ، مقتبساً غرر الفوائد منك ، مجدداً عهود المودّة معك . وليست هاهنا معذرة ، لي أن أستند إليها ولك أن تعتمد عليها ، إلا مانعَ[١] القضاء وحاجزَ القدر وسبباً من الأسباب الإلهية وسرّاً من الأسرار التي تجري بها المشيئة .

وبقي بعد هذه الخطبة أن أقرع باب التسليم ، وأفزع في أضعاف ذلك إلى من له الأمر القويم ، فلعله يسهّل وييسر ما قد طال الشوق إليه ، وتضاعف الأسف عليه . ولو ذكرتُ النزاعَ ، وادّعيت الحنين ، وصُلْتُ بالصبابة ، وتأهبت بالاشتياق ، لَعَلاني غبارُ التملق ، وحَصَر لساني فرطُ العِيِّ ، وكان قُصاراي التقصير ، ووقف أمري على العجز والقصور ، ولأنْ أستشهد ضميرك المرضيّ ، والشاهد الزكيّ ، والمخبر الصادق ، والمبلّغ المبين ، خيرٌ لي ، وأليق بي ، وأجدى عليّ ، من أن أتعاطى نمطاً أفتضح به ، وأركب طريقاً أعثر فيه ، وأباري من انقطع دونه . على أن شوقي إلى محاسن فضلك ، وغرائب علمك ، وظواهر خلقك ، وبدائع فطنتك ، وروائح حكمتك ، وبدائه

---

١ – ر : مالك .

[٥٦ / ب] حجك ، شوقُ الفاقد لواحدها . وإلى الله المرجع ، وإليه المعتمد في فتح أبواب الأنس وبَلّ غُلل النفس . وما أحوجني إلى جسارة بانبساط يرخّص لي معك في التصرف ، ويبيح البلاغة على طريق التصوف . فقد اغترفتُ من بحرك ما يسع من ينازعني في أمرك ، ويزاحمني في ذكرك ، فإنك بحمد الله مشتمل على شأن عظيم ، ومحيط بسر مكتوم ، يلزم من قد هبّت عليه ريحك ، وفاحت عليه رائحتك ، أن يلزم فِناءك ، ويعتقد ولاءك ، ويجري على سنن مرضاتك ، مجتهداً في بلوغ مَسْعاتك . وهيهات أن تُنال المعاني بالأماني والتواني . بلى: إن هذا الحق [جاد][1] بمواد الصدق ، وبثَّ المواهب من عين الإفضال ببوادي التفضل على غير اقتضاء لحقيقة الشكر ، ولا تصفح لعواقب الصبر ؛ فلعمري إنه ليحلو العشق ، ويطيب الحديث ، وتجمل المقالة، ويحسن الذكر ، وينشر لسان الصدق في الآخرين ، ويخف الأخذ بهدْي الأولين . فأما والحاجة تلزم ، والفاقة تعم ، والضرورة ترد ، والشهوة تغلب ، والشبهة تستحكم ، فالقول تمويهٌ ، والرأي معكوس ، والشكر تملق ، والصبر علّة ، والابتداء غرور ، والعاقبة بور ، والكل أسف ، والجميع هَف . والناس رجال: فرجلٌ — مع أحكام إلْفه وغوالب عادته — لا يرعي على نفسه ولا يمكّنُ المواعظ من سمعه ؛ ورجل وقف بين الأمور محاسباً ، فطال حسابه وضاق جَنابه ، فخلّط ورجّى وتمنى ؛ ورجل ادّكر واعتبر ، فبكى واستعبر ،وقال وحسَّر ، ثم سكت وتحسَّر .

جفَّ[3] - أنار الله صدرَك — القلمُ ، وفَني القرطاس . وحصر اللسان ، وما في النفس من طيب محادثتك يتدفق كالعين الفوّارة والسحائب[2] المَوّارة . عليك سلام الله ما اقترن مَساءٌ بصباح واتصل ضياءٌ بمصباح ، وعلى من [٥٧ / أ] يليك ويواليك قَدْرَ تهالكه فيك ، ورحمة الله وبركاته .

---

١ – زيادة لتمام المعنى ، أو ما بمعناها .

٢ – ر : والسحاب .　　　٣ – ر : حفي .

يا هذا : اسمع بآفة أخرى : الهوى مَرْكبي ، والهُدَى مَطْلبي ، فلا أنا أنزِل عن مَرْكبي ، ولا أنا أصل إلى مطلبي . ولعل انقطاعي عن مطلبي إنما هو لاعتلاقي بمركبي ، بل هو كذاك وفوق ذاك : علم يَصحُّ بكل بيان ،وحجة تضِحُ في كل أوان ، وأنا بينهما مأخوذ عن حقيقة الخبر بتمويه العبارة .

وإذا سمعتَ خطابي ، وفهمت عتابي ، فمتعني بإرشادك لي ، وزودني مما أفاء الله عليك ، لعلّ دواءك يقع على دائي ، فأتخلص قليلاً من نفسي ، التي قد صادقت الشيطان ، وهوت في غروره عند كل أمر وشان ؛ وإلا فنُحْ عليَّ باكياً ، فقد جاء من أمر الله ما لا مَرَدَّ له ، وأظلَّ من قدرته ما لا قِبَلَ لأحد به . ومتى أرشدتني بعد طمعك فيّ ، أو نُحتَ عليّ بعد يأسك مني ، فقد قضيتَ حقّ الأخوة ، وبنْتَ بين معارفك بفضل المزية .

بالله : أما ترى شجوي في كلامي ؟ أما ترحمني لما بي من غرامي؟ أما تعجب من حَيْرتي من خلفي وأمامي ؟ أما تقودني إلى كرامتي وسلامتي بخُطامي وزِمامي ؟ أسألك بحق الحق إلاّ جُدتَ عليَّ بما استطعتَ من ذلك ، فما فزِعتُ إليك إلا بعد أن صَفِرَتْ يدي مني ، وإلا بعد أن انقطع رجائي من علمي وظني ، وإلا بعد أن خانني امتلائي بأني وأني . ومَنْ فَزِع إليك خليقٌ بأن ينال بُغْيته على يديك ، وأنت الجواد بالحق ، المعتاد للصدق .

اللهم : لا تجعل خطابي لبعض خَلْقك حجابا ، فوحقك ما أفعل ذلك إلا منافسة بك ، وإلا استهداءً إليك ، وإلا عشقاً لحلاوة ذكرك ، وإلا ظهوراً بِسِمَةٍ من سِمات حكمتك ، وإلا تحلّياً بما زان عند ملائكتك ، وإلا شوقاً لحيازة المكانة عندك . فرُبَّ كلمةٍ لك نافعة عندهم ، ورُبَّ صفةٍ لك شريفة بينهم ، ورُبَّ حكمةٍ بالغة لك على ألسنتهم [٥٧ / ب] ورُبَّ فضيلةٍ مستملاة من أحدهم . ولولا هذه المعاني والوجوه ، ما الذي كنتُ أرجو منهم إذا شافهتُهم ، وماذا كنتُ أتوقع عنهم إذا سألتُهم ؟ إنما أخاطبهم من أجلك ،

وإنما أسألهم بسببك ، وإنما أستمشطهم لأجلِ عليك، وإنما أتقرب إليهم لأقرب منك . ولولا أنت ، ما كان لهم في عيني خطر ، ولا لهم في نفسي وطر . أنت المراد وأنت المطلوب،وأنت المقصد وأنت المحبوب، يا ذا الجلال والإكرام .

يا[1] هذا : كُنْ ذاكراً لما قد ألقيتُه إليك في هذا الجزء من وصف العبارة والإشارة ، فإنك تجد به ما يُقِلُّك إذا نهضت ، ويظلك إذا ضَحَيْت . ومهما لاح منك، أو لاح لك فيك ، أو لاح لك عليك، فإياك أن تَسْهُو عن قَلْبِهِ وتقليبه حتى يتبين لك ما أنت له مما أنت عليه . واجعل أساسك الأثبت ودعامتك الأرسخ ألاّ تكذب نفسك بالباطل ، ولا تكذبها في الحق ؛ واجتهد أن تخلُوَ من أشغالك ؛ وإذا خلوت من أشغالك ، فاعطفْ على نفسك واخْلُ بها ؛ وإذا خلوتَ بها ، فاعلم أن رقيب الحق ناظرٌ إليك ومُرَفْرِفٌ فوقك ، وأنك بعينه التي لا تنام ، وفي قبضته التي لا تُرام ، وحَرَمِه الذي لا يضام .

اللهم : إنك جوّلتَنَا في آفاق مُلْكِك ، وأنطقتنا بلسان قدرتك ، وأدرجتنا بضعفنا في قُوَّتك ، وأسكنتنا عند مشاهدة عظمتك ، وحُلْت بيننا وبين أمرك ونهيك ، بسوابق علمك ومشيئتك ، وجمعت بيننا وبين مرادك ، بغالبِ قضائك ولازم حجتك .

اللهم : فكما مَلَكْتنا فارفُقْ بنا ، وإذا رفقت بنا فأعتقنا ، وإذا أعتقتنا فاقبَلْنا ، وإذا قبلتنا فكن لنا ، وإذا كنت لنا فكن معنا ، وإذا كنت معنا فأنت أنت يا وليّ الحمد .

اللهم : إياك نقصد بآمالنا ، وعليك نُثْني بصنوف أقوالنا ، ورضوانَك نبتغي بأعمالنا ، وإليك نرجعُ في اختلاف أحوالنا [٥٨/أ] وعليك نُلِحُّ في طلبنا وسؤالنا ، لأنك لكل راجٍ ملاذٌ ، ولكل خائف معاذ ، ندعوك دعاء المضطرين ، ونتعرّض لك تعرض المُعْتَرّين[2] .

---

١ – كتب في الاصل هنا : نسخة أخرى ؛ ويبدو ان هذا من رسالة غير السابقة .

٢ – المعترون : الفقراء او المتعرضون للمعروف من غير ان يسألوا .

يا هذا : قف عليَّ قليلاً ، واعتبر فيَّ طويلاً ، ثم إن كان في أخلاقك طهارة ، ولك في إيثارِ الحسنَى بِطانة وظهارة[١] . فتعطّف عَليَّ برقةٍ من قلبك ، ورحمة من نَفْسِك ، فقد أصبحتُ مغتوتاً في كل رَكِيّة[٢] ، ومفتوتاً[٣] بكل ثَنِيّة ، ومطروداً عن كل منهل . ومحدوداً بين كل سهل وجبل : إن رَمَقْتُ رُشِقْتُ ، وإن تطاولت قُمِعْتُ ، وإن سكتُّ سُبِعتُ[٤] ، وإن نطقت كُذِبتُ :

ويأمرني بالصبر مَنْ ليس وَجْدُه كوجدي ولا إعلانُ حالي كحالِه[٥]
فإن أفْقِدِ العيشَ الذي فات بالنّوى فَقِدْماً فقدتُ الظلَّ عند انتقاله

سهوٌ قد غمرني ، وحالٌ قد حال بيني وبيني ، وغفلة أتت على دقي وجلّي[٦] ، وغائب طالت غيبته عني ، وحاضِرٌ نال مناله مني : فلا وعده جالِبٌ لي فرحاً ، ولا وعيده صارِفٌ عني ترحاً ، ولا سِراره مُهْدٍ إليّ رَوحاً ، ولا جهاره ممسك دوني نوحاً ، ولا مداراتي نافعة ، ولا مماراتي دافعة ، ولا صبري عائد بالجدوى ، ولا جزَعي ناقِصٌ من البلوى : حَسْرة راكدة بين الجوانح ، وفترة جامدة بين الجوارح ، وعَبْرة واكفةٌ على الجيب بالحسرات ، وعبرة واقفة في القلب من الجمرات . وما لي ملاذٌ إلا بالذي أبلى ، ولا أسأل العافية

---

١ – البطانة والظهارة من الثوب ، والمعنى : لك حظ مكتمل من إيثار الحسنى لا يختلف فيه ظاهره عن باطنه .
٢ – المغتوت : المغموس ، من غت وهي بمعنى غط ، والركية : البئر .
٣ – التاء الثانية غير معجمة في ر ؛ وفي المطبوعة : مفتوناً .
٤ – سبعه : شتمه وعابه وانتقصه ؛ وفي المطبوعة : « شنعت » وقد ضبطت السين مهملة في الأصل .
٥ – الشعر للبحتري ، انظر ديوانه : ١٦٢٣ .
٦ – أي ما دق من أمري وجل ؛ واللفظتان غير معجمتين في الأصل ، وفي المطبوعة : زمي وحلي .

إلا من قد أطال الضَّنى . هو مالِكُ الظل ، إن شاء قلّص وإن شاء آسبغ ، وهو العالم بالحال ، إن[1] شاء قطع ، وإن شاء بلّغ .

صبراً على النائبات صبراً ؛ ما صنع الله فهو خير .

يا هذا : ذرّتِ الشمسُ[2] بحقائق الوجد الظاعن من عرصة[3] القلب المقيم في ساحة الروح ، فضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ [٥٨ / ب] واشرأبّت الأبصار نحو الغاية المصمودة ، فثابت خاسئةً حسيرة[4] لما دَهَمها مِنْ عِزِّ مَنْ له العزُّ حقاً ، وبيده ملكوتُ كلِّ شيء عدلاً وصدقاً ، وهو مُصَرِّف العالمين نقضاً ولفقاً[5] ، ومُظْهِر الأعاجيب رتقاً وفتقاً . ربوبيةٌ لا تليقُ إلاّ به ، وإلاهيّة لا تنبغي إلاّ له ، وقدرة لا تُسَلّم إلاّ إليه ، وحكمة لا تصحّ إلاّ ممن له منزلة لديه .

يا هذا : اختلف اللغات في تصاريف أحواله [و] فعاله ، وتشتّتت الهمم في غرائب ما بدا من إيضاحه وإشكاله ، حتّى قال قائل :

وإني لأرجو قُرْبَكم ووِصَالكم ولكنني عما أُريدُ بعيـدُ

إرادة مشوبة ، وحال مختلفة ، وعلامات مُتَّهمة ، وطمأنينة قلقة ، ومعرفة مدخولة ، ولغة عجماء ، وعينٌ طَموح ، ولفظٌ جريش[6] ، وخُلُقٌ عَسِر ، وبال خاثر ، وقول كلما رام استنارةً ازداد ظلاماً ، وقلب كلما حاول خموداً ازداد احتداماً .

---

١ – ر : وإن .

٢ – ذرت الشمس : برز قرنها .

٣ – العرصة : الساحة ؛ وفي المطبوعة « غير صد » ولا وجه له ، لا من حيث المعنى ولا من حيث الرسم .

٤ – ر : حسرة ، وكذلك في المطبوعة ؛ وهو خطأ

٥ – ر : نقصاً وثيقاً .

٦ – كذا هو في ر ؛ وربما حمل على معنى الخشونة ، ولعله : حريش – بالحاء المهملة – وهو أقرب دلالة على الخشونة أيضاً .

فَطُوبَى لمن هو من هذه الشَّكيَّة في نجوة ؛ وطوبى لمن اذا طلب وجد ، وإذا لم يجد عُلّل ؛ وطوبى لمن إذا فقد سلا ، وإذا عَدِم قلى ؛ بل طوبى لمن بوشر فؤاده ببرد اليقين ، وحُلّيَ بحلية المتقين ، وصين في خاصته عما عليه جميع العالمين ؛ بل طوبى لمن نُفِثَ في رُوعه الأمن ، وكُفي في معاملته الغبْن ، وأغضى عما عليه الجفنُ ؛ بل طُوبى لمن إذا تنفس الصُّعَداء تذكر السُّعَداء ، وإذا انتبه أبصر الضياء ، وإذا رقد تخيل النجاء . هتفت الهواتفُ ، فتحققت المخاوف ، وبرقت البوارق ، فشرقت الشوارق ، وسحت السحائب ، فنابت النوائب . حفيظةٌ مَذودةٌ بالصبر والعزاء ، وهمةٌ مرفوعة عن الصفراء والبيضاء ، ونفس أنفة من كلٍّ ما رأته العين وصادفه الحسّ ، وحار فيه البصر ، وأتى عليه الوصف ، وانتهى به الحد .

يا هذا : أَطْلِق عِنانَ هِمَّتك في ميدان راحتك ، واستعفف في ظاهرك واستشرف في باطنك ، فإنّك بأحدهما تكتسب عزوفاً ، وبالآخر تنال معروفا ؛ وارْعَ حمى التوحيد ، فإنه مجود بالغيث الربوبيّ ، وتيقّن بأن راعي هذا الحِمى إذا سمن لم يهزل [٥٩ / أ] وإذا رَوِيَ لم يعطش ، وإذا اكتسى لم يَعْرَ ، وإذا استظل لم يَضْحَ ، وإذا أوفى لم يعوز[١] . وكيف يكون ذاك ، وبعضه مُدْرَج في كله ، وكله مُدْمَجٌ في بعضه ؟ على أن بعضه كلٌّ بعين الجمع ، وكلّه بعضٌ بعين التفرقة . وهذه صحيفة قد طويت منذ زمان ، لأن الأذهان غلظت عنه ، والعقول خاسَتْ[٢] دونه ، ولم يزده الإعرابُ إلا عُجْمةً ، ولا الإنارة إلا ظُلْمة ، ولا التشعيب[٣] إلا ثلمة ، ولا الكشف إلا تغطية ، ولا التبصير إلا تعْمية . وهذا لأن الحق غارَ في هذا الوقت أن تكون أسراره مبتذلةً وأسبابهُ

---

١ – ر : أوفى لم يعور .

٢ – خاس : خان وغدر وأخلف بالوعد ؛ والمقصود أن العقول أخلفت ما كان يظن فيها من قدرة على ادراكه .

٣ – التشعيب : الجمع .

منتحلة ، وله في كل وقت تدبير لا يُحاط به ، ولا يُطَّلع على غيبه ، وإنما نطقنا لرائحة بها[1] عَبِقْنا، ففاحَتْ عنَّا على غيرنا؛ فأما الطيب الذي له هذه الرائحة فهو في صدورٍ دونها وعور :

خليليَّ قد فات الهوى غير أنني إلى المَيْثِ من أكناف رَمّان نازعُ[2]
وإني متى ما أذكرِ الحيَّ لا يزَلْ بعينيَّ من أطراف كفّيَّ وازِعُ
أهيمُ إليهمْ صبوةً لتشوقني[3] مآلِفُ عَهْدٍ للهوى وودائعُ

يا هذا: أخْلِص [توف][4]، ونَادِ تُجَبْ، واقصد توفَّق ، وانوِ تُعَنْ ، وجرّد عزيمتك عن شائنات الخلق ، تلبس به زائنات الحق . ومهما ونيتَ فيه، وفترت عنه ، وقصّرت دونه ، فإياك والشركَ به والإفكَ عليه . ولست أريد بالشرك شركَ الجاهلين ، ولا بالإفك إفكَ المخالفين ، فإنك تَمَسُّ[5] بهما جميع أهل الدين ، وإنما أعني بهما ما خفي ولَطُف ، لا ما ظهر وكَثُف فإن أردت المثال ألقيتُ إليك ، وإن أحببتَ النص أطلعته عليك : وهو أن يَفْضُلَ مِن أملك فيه ما يكونُ غيره مأمولاً لك به، أو يسري من رجائك إلى سواه ما تكون ملوماً عليه .

يا هذا : إنما خاب أملك فيه لأنه لم يصفُ من كدر غيره ، كما ردّ طاعتك عليك لأنها لم تنقَ من الرياء . فاجتهد — عافاك الله — أن تتقن[6] العمل لأن

---

١ – ر : به .
٢ – الميث : الأرض السهلة ؛ رمان (بفتح الراء) : جبل لطيء .
٣ – ر : ليشوقني .
٤ – زيادة لتناسب العبارات .
٥ – ر : تحس ، دون اعجام للتاء .
٦ – ر : تقل ، وكذلك في المطبوعة ، ولا يلتئم والمعنى العام في السياق ؛ ولعلها أن تكون : « تصل » بمعنى تواصل .

تَحَقَّق [٥٩/ب] الإخلاص ، فإن مَنْ حَقَّقَ الإخلاص صار من أهل الاختصاص ، ومن صار من أهل الاختصاص غار الحقُّ عليه من العام والخاص .

يا هذا : ما أعجبني وإياك : أُقَرِّبُك إلى ما أنا بعيد منه ، وأكسوك ما أنا عارٍ عنه . فلو جعلت مكان دعائي لك إلى حظك إجابةً مني إلى حظي . كان ذلك أرفقَ بي وأبرَّ بي . ولكنني ممتحَنٌ بالقول ، فإن كنتَ أنت أيضاً ممتحناً بالسماع ، فقد خسرنا جميعاً ، لأنّا قد خلونا ، في حالَتي القول والسماع ، مما يملأ الصاع ، ويسلك بنا البقاع ، ويُحِلّنا تلك الرِّباع ، ويخلصنا من هذا السِّياع [1] .

يا هذا : غِبْ عن[2] سماع قولي بمسموعه ، فلعلي أيضاً أغيبُ عن قولي بحقيقة مَقُولي . فإن قلتَ لي : لو بدأتَ في قولك بالتحقيق ، لحصلتُ في سماعي على التصديق ، كان لك ذلك . ولكن ماذا يضرك تيهي في قولي عند اهتدائك في سماعك ؟ لا تجعل عِثارَ غيرك عذراً لك في عثارك ، وكن في طريقتك التي أنت عليها على استمرارك ، وخذ بحقك في آناء ليلك ونهارك ، وأثِّل[3] ضميرك بين سِرارك وجهارك ، وَسِمْ[4] نفسك بما لا تخفى به عند شرارك وخيارك ، واجتهد أن تعرف الحق عند إيرادك وإصدارك[5] ، وإياك أن تبيد بين عارك ونارك ، فإنك بعين من يشهدك في حالَتي ظعنك[6] وقرارك ، ويرقبك بين إقبالك وإدبارك . فإن صَمَدْتَ صَمْدَه قَبِلَك وأرادَكَ ، وإن وليت عنه رَدَّك وأبادك . وكيف لا وهو في الأول قد أَبْدَأك وأعادك ، وأمدك وأفادك ، وساقك وقادك ؟

---

١ – السياع : الطين ؛ يعني هنا الجسد ، وفي ر والمطبوعة : السباع ، ولعلها تعني المشائمة.

٢ – ر : من .

٣ – ر : وأنل ، وكذلك هو في المطبوعة .

٤ – سم نفسك : اجعل لها سمة مميزة .

٥ – ر : اصدارك وإيرادك .

٦ – ر : صحتك ، وكذلك في المطبوعة ؛ وهو خطأ واضح .

يا هذا : أما لك خاطر في هذه البلاد ؟ أما لك رائد في هذا المراد ؟ أما لك بياض في هذا السواد ؟ أما لك شوقٌ إلى هذا الانقياد ؟ أما لك حياء من هذا الارتداد ؟ أما لك سكون عن هذا الاعتداد ؟ أما لك لينٌ عن هذا الاشتداد ؟ مَنْ هذا الذي وفَى فندِم؟ منهذا الذي صفا فعُدم[1]؟ [٦٠ / أ] منهذا الذي طلع فغاب ؟ من هذا الذي طمع فخاب ؟ من هذا الذي وصل فانقطع ؟ من هذا الذي رفع فاتّضع ؟ من هذا الذي أشار فبار ؟ من هذا الذي عرف فعار[2]؟ من هذا الذي وجد ففقد ؟ من هذا الذي صلح ففسد ؟ من هذا الذي نفقفكسد؟ من هذا الذي حقّق فهـجر ؟ من هذا الذي صَدّقَ فحقُر ؟

اللهم : إنا نقول ما نقول وأنت تَعلم ما نقول قبل أن نقول ، ونعمل ما نعمل فتحيط به قبل أن نعمل ، فأنت أوّلُنا في كل قول [وعمل][3]، وآخرنا عند كل رجاء وأمل . فكما كتبْتَ أسماءنا في ديوان المرحومين [...][4]، وإن لم نكن من المستحقين ؛ أعمالنا سيئة ، ولكنها تضيع في أوائل عفوك ؛ وأقوالنا كبيرة ، ولكنها صغيرة في أوائل استحقاقك .

إلهنا : قد صبرنا على مرارة عِشْرَة خلْقك ، فلا تحرمنا حلاوة مواصلة ما يصلنا بك . كادُونا بسببك ، فَحلَمنا عنهم من أجلك ؛ وعادَونا فيك ، فاحتملناهم لوجهك .

إلهنا : ما لنا ذنب إليهم إلا [أنّا][5] ذكّرْناك لهم ،ولا لنا جناية عليهم إلا

---

١ - فعدم : هكذا في ر ، وقد ضبطت العين المهملة بضابط جلي ؛ ولكني أرجح أن تكون « ففدم » من الفدام ، وهو ما يتخذ على فم الاناء عند صب الشراب ، واذا صفا الشراب لم تكن ثمة حاجة الى الفدام .

٢ - ر : فعاب ؛ وقد رسمت الباء بصورة راء خفيفة .

٣ - زيادة يقتضيها المعنى والسجع معاً .

٤ - سقطت هنا عبارة بها يتم المعنى كأن تقول مثلا : « فاجعلنا لديك من المقبولين » أو ما هو بمعناه .

٥ - زيادة ضرورية .

أنّا اعتززنا[1] بك بينهم . حسدونا لأنّا عرفناك فوصفناك ؛ وقرفونا لأنّا قصدْناك فصدقْناك .

إلهنا : كما أبْلَيْتَنا بهم لِنَصفُوَ لك ، فارحمهم لئلا يكدُروا بنا ؛ وكما أريتنا قدرتك فيهم ، فأرِنا عَفْوَك عنهم ، واجعلنا وإياهم في زُمْرَةِ الواصلين إليك، المقبولين لديك .

يا هذا : عليك بدعاء الله . فإن الدعاء من الله بمكان : فإنه يصدر من فاقة العبيد خاطباً عزة الملوك ؛ فاجعله ديدَنك في مُتقلَّبك ، وإياك وملالته ، فما فُتح باب الدعاء على أحد إلاّ دلّ ذلك على أن الله يحب أن يسمع كلامه ، وربما أخّر الإجابةَ لتدومَ الضراعة ، والويل لمن ييأس من رَوْح الله مع سعته ، أو يقنط[2] من عفو الله مع اشتماله . والدعاء جامع للحال والحقيقة ، والوجد والاستكانة ، والعبادة والعبارة : أما الحال فإنها ترتب[3] الإنسان في [٦٠/ب] محل السائلين ؛ وأما الحقيقة فإنها تروّح عن قلوب الصادقين ؛ وأما الوجد فإنه يستخرج عين اليقين ؛ وأما الاستكانة فإنها تهوّن مايبدو على صاحبها[4] المسكين ؛ وأما العبادة فإنها تؤدي حق التكليف على ما ورد به الكتاب المبين ؛ وأما العبارة فإنها تقف صاحبها على مَدْرَجة المتلطفين المترفقين . وما لهج بالدعاء أحدٌ إلا رأى في عاقبة أمره ما يسرُّ النفس ، ويجرّ الأنس ، وما رفضه أحد إلا كان قاطعاً للعصمة بينه وبين ربّ العالمين .

أترى رافضَ الدعاء بأي شيء يحتج ؟ وبماذا يتعلق ؟ وإلى أي ركن يستند ؟ وبأي شيء يتعلّل ؟ ولو لم يكن في الدعاء إلا التلذذ بالمواجهة ، والتنعم بالمشافهة،

---

١ – ر : أعززنا .

٢ – ر : قنط .

٣ – ر : تربب ؛ وفي المطبوعة : تربت .

٤ – ر : صاحبه .

وإلاَّ خرْقَ الحجب ، ورفع القُنُع ، والدنو من الباب ، ومخالطةُ أولي الألباب ، لكان فيه مَقْنَع ؛ فكيف وفيه مناجاة تُقضقض الحيازيم[1] ، وتَهالُك[2] يرفرف على اليقين ، وتعرّض للسيب من ربِّ الخلق أجمعين . وما أهَم الدعاءَ أحداً إلا كان ذاك عنوانَ خيرٍ عليه ، ودليلَ فضيلة به . فإن قلتَ : أنا أسلِّم ولاأدعو ، وأتوكل ولا أسأل ، وأكِل ولا أتعرض ، فإن تسليمك دعاء ، وتوكُّلك مسألة ، ومن وُكِل إلى كافٍ فقد بالغ في الثقة . فهل هذا كله إلا ما أومأنا عليه ، وعلقنا آنفاً بوصفه ؟ لاَ تتجافَ — فديتك — عن بدائع هذه الطريقة ، فتجافيها بادٍ ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق : ٣٧).

أما الإشارة بالقلب فإلى صفائه ، وأما الإشارة بالسمع فإلى حضوره . وأما الوصف بالشهيد ، فإنه كناية عن اليقظة : فقد يكون حاضراً من هو كالغائب وقد يكون سامعاً من هو كالأصمّ . فالشهيد جامعٌ لكل ما في الحال ، ومشيرٌ إلى الغايةِ المقصودةِ بالكمال . وهذا لسان يعزب[3] إلا عند المؤيّدين من أهل اليقين الذين عانوا هاهنا فعاينوا هناك .

اللهم : إنا لو وفّينا الحياء منك حقه لم نواجهك متلوثين بلطائخ الدنيا ، [٦١/أ] مُدلّين بالقول ، مُقلّين من العمل ، عارين من الحقيقة ، بعيدين مما يوجب الوثيقة . ولكنا على ذاك نُعيذ أنفسنا من اليأس من رحمتك ، لأنَّك قد حظرت علينا ذلك ، ودعوتنا إلى حُسْن الظن بعفوك ، وإلى جميل عُقْباك في آخر أمرك .

---

١ — الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر ووسطه ؛ وفي المطبوعة : « الجبارين » وهي مفارقة تماماً لرسم المخطوطة .

٢ — وتَهالك : ذلك هو ما جاء في المخطوطة دون لبس ؛ وفي المطبوعة « وتَهالل » وشرحت بمعنى التهليل والتسبيح ، واللغة لا تقر هذا التخريج .

٣ — ر : يعرب .

اللهم : فكُنْ لنا أكثر منا لأنفسنا ، وادفع عنا غوائلنا علينا ، وإذا تهتّكنا فاستُرْنا ، وإذا تفرقنا فاجمعنا ، وإذا غفلنا فأنْبِهْنا ، وإذا أعرضنا فأقبِلْ بنا ، وإذا فسدنا فأصْلِحْنا ، وإذا بعدنا فقرِّبنا . أنت القادر ونحن الضعفاء ، أنت الواجد ونحن العدماء ، أنت الغنيُّ ونحن الفقراء ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٢٠ -

يا قوم : ما لي وما بالي ؟ وما الذي غيبني عن حالي ، وشغلني عمّا لي ، حتى صرت أقدَح بزَنْدٍ مصلد ، وأنفخ في غير فَحَم[١] ، وأنادي من ليس بحاضر ، وأنصحُ من ليس بقابل ، وأحيّي من ليس يعقل ، وأهيمُ في وادي الظن ، وأخبط في أشَب[٢] الوهم ، وأرى أني قد أدركت الفائت ، وحصّلْتُ العزم ، وملكت النفس ، وأحرزت المأمول ، وبلغت الغاية التي إليها سعى الساعون ، وفي سَرْحها رعى الراعون ؟

أما فيكم من يقابلني بوجهه ، ويقاولني بما عنده من غيبه وشاهده بالحجة والشبهة ، لعلي أرى بيُمنه ما قد غُيبتُ عنه ، وأدنو بهدايته إلى ما قد بعدتُ عنه ؟ فقد والله توالى تَعْسِي ، وخرجتْ بالحَسَرات نفسي ، وطال التفاتي من كدر يومي إلى صفاء أمسي . يا قوم : فإن لم تأخذوا بيدي ، فإلى من أكِلُ أمري ، وعلى من أعرض وفائي وغدري ، ولمن أفرش احتجاجي وعذري ؟ أنتم أهل صبوحي وغبوقي ، وعلى خدمتكم ومودتكم وَشَجَتْ عروقي ،

---

١ - في جمهرة الأمثال للعسكري ٢ : ٣٠٥ « نفخت لو تنفخ في فحم » - بالتحريك ولا يجوز إسكانه ؛ وقال الراجز :

قد نفخوا لو ينفخون في فحم

انظر الميداني ٢ : ٩٠ .

٢ - الأشب : شدة التفاف الشجر وكثرته حتى لا مجاز فيه .

وبمساعدتكم ومقاربتكم اتسعَتْ خروقي ، وفيما بينكم اشتدت رعودي وبروقي ، وعندكم بارت بضاعتي وكسدت سوقي ؛ فبالحرمة السالفة إلا سمعتم صراخي ، وسددتم فاقتي ، ورحمتم ضعفي ، وعطفتم على عَظْمٍ بالٍ ، وقلب [٦١ / ب] خال ، وبلاء متوالٍ .

إلهي : لا خير في خلقك ، فكن لي أنت بما أردت ، فالصبرُ على البؤس معك أمتعُ من النعمة لتعرض غيرك ، يا ذا الجلال والاكرام .

- ٢١ -

أيها الحيران في سعيه ، والسَّكران في رَعْيه ، والمتغافل عن حظه ، والمتجاهل بين لحظه ولفظه ، والمتكاسل عن خدمة ربه ، والمتحامل على حِبِّه بحُبِّه : تصفّح سِرَّكَ بعقلك ، واحكُمْ على نفسك بعدلك ، وتَجَمَّعْ عما قد تفرقت فيه ، وتَفَرَّق عما قد تجمعت له ، واستيقن أنك مَرْعيٌّ لا مُهْمَل ، ومطلوبٌ لا متروك ، ومحفوظٌ لا مُضاع ، ومقيَّد لا مطلق ، ومربوطٌ لا سُدى ، وملجم لا مُخلّى . وإذا وضح لك اليقين بذلك ، فانظر أين أنت منك ، أعْنِي ما لك فيك ، وما عليك بك . فبهذه الموافقة الصادقة تلحق تلك المرافقة السامقة ، وبهذه الحركة القائمة تنال تلك البركة الدائمة . فتهيأ يا هذا جُهْدَكَ لقبول تحاياه ، وكنْ منك على بالٍ لعلك تغنى بعطاياه . وإياك والحِران والتعذرَ في أمرِ جدواه لك ، ونَجْواه[1] بكَ ، وبلواه منك ، وشكواه فيك ، وعدواه عليك ؛ ضاعف خشيتك لتأمَن ، ورقّقْ دمعتك لتسكُن ، وعفِّر خَدَّكَ لتُرْحَم ، وابسُط يدك لتُكْرَم ، وابتذل نفسَك لتعزّ ، وابذُل رُوحك لتحرز .

يا هذا : جُدْ بالمعنى الطالع عليك ، الغارب فيك ، البادي[2] منك ، المحيط

---

١ - ر : ونحواه .

٢ - ر : كالبادي .

بك الحاصل لك ؛ فإنك إذا وجدتَ به وُجِدَ بك ، وإذا وُجد بك جاد عليك. وإذا جاد عليك أغناك ، وإذا أغناك نلتَ غايةَ مُناك .

يا هذا : ثق بأنك لا تفوزُ بقربه إلا ببعدك عن كلٍّ ما كان غيره قاطعاً عنه وشاغلاً دونه ، وتذكر في أضعاف حالاتك مَعارِضَ أفعالك ومقالاتك وقل : سلام [٦٢/ أ] على نسيم كان يصل من الحبيب ، إلى قلبِ كَلَّ عنه كلُّ طبيب . نعم ، وسلامٌ على رَوْحٍ كان يُهدى بعلامة القبول والرضى ، صار كرباً بحسرة على فَوْتِ ما مضى ؛ بل سلامٌ على ليل كان يلتقي طرفاه بأنْس، يفتّن عليه الجن والانْس ؛ بل سلامٌ على لحظ كان ينتعش به العاثر[١] ، ويتجدد بنوره الداثرُ ؛ بل سلامٌ على حَرَمٍ كان لا يدبُّ فيه واشٍ ولا رقيب ، ولا يحل به ظنين ولا مُريب ؛ بل سلام على رسائلَ كانت تردُ بعتْبٍ يحترق به القلب ، ولُطْفٍ تحيا به الروح ؛ بل سلامٌ على علامات[٢] كلما طرق خيالها هاجت البلابل ، وتقطعت السلاسل ؛ بل سلام على مصافحة كانت الكبدُ بها تذوب ، وعلى معانقة كانت الأمانيّ بها تثوب ؛ بل سلامٌ على مجلس كان ممتلئاً بحديث حلو جرى مع الحبيب ، ليس لأحد من الخلق في تعريضه وتصريحه نصيب ؛ بل سلامٌ على يقظة كانت مقصورة على الشوق إليه والوَجْد به . بل سلامٌ على رُقادٍ كان الحلم يَعرضه ويجلوه بأكثر مما كانت النفوس تتمناه وتهواه .

يا هذا :

ما لِعيني كأنها بعدَ حِبّي — حُشِيَ الصَّابَ جفنُها والمآقي

عزّ والله عليّ ذاك عياناً ، وعز أيضاً عليّ خَبَراً !

---

١ — ر والمطبوعة : العابر .

٢ — كذا في ر ، ولعل صوابه « علاقات » .

نعم يا سيدي ، إن سألتني عن هذه الحال ، فإما أن آطويها عنك حياءً ،وإما أن أنشرهـا رياءً . وفي الجملة ، تجلّت سماؤها ، وتنقلت أفياؤها ، وعاد مَحْضها سَجَاجاً[1] ، وعَذْبها أجاجا ، ولينها لجَاجاً[2] ، ورَوْحها سَموماً وهَاجاً ، بعد ما كانت برداً وسلاماً ، ومغبوطة إعظاماً وإكراماً — لا جَرَمَ أصبحت كمن وصف بحالي حين قيل فيه :

كأنَّ فـؤاده كُرَةٌ تَنَزَّى حِـذارَ البيْن لو نَفَعَ الحِذارُ[3]

يا هذا : أما حان لنا أن نستحي من العكوف على المخالفة ؟ أما وجب بعدُ أن نهجرَ [٦٢ / ب] هذه العادة القبيحة في المقارفة والمقاذفة ؟

إلى متى :

نُؤَمِّل عيشاً في حياة زهيدة أَضَرَّتْ بأبدان لنـا وقلوبِ[4]
وما خيرُ عيشٍ لا يزالُ مُفَزَّعاً بفَوْت نعيمٍ أو بموت حبيـب

أمَلٌ يضرّ، وظاهر يَغُرّ، وباطن يَعُرّ، وكلٌّ يمر ، بما يسوءُ ولا يسرّ

دع ذا ، أَخْلَقَ الدِّين ، وعمَّت الفحشاء ، وفسد العلماء ، وفشا الجهل ، وظهر الغَيُّ ، وتكاشف الناس ، وفُقد الصدق ، وغَلَبَ الجهل ، وكثُرت الجرأة ، وصار ذكر الله لغواً على الألسنة ، وخوتِ القلوب من الفكر بين السيئة والحسنة . فلا جَرَمَ عاد عِتابُنا لهم بينونة ، وإمساكنا عنهم دينونة ، فما ندري ما نصنع ، ولا ندري إلى من نفزع . والمؤمن إذا قصّرت يده عن المعروف

---

١ — السجاج : اللبن الذي رقق بالماء ، وقيل هو الذي ثلثة لبن وثلثاه ماء .

٢ — اللين : اللطف ؛ واللجاج : التمادي في الباطل ، وهو يناقض اللين والاسماح من بعض الوجوه .

٣ — البيت لبشار ، وهو في ديوانه : ١٠٩ (جمع العلوي) .

٤ — الشعر لبشار ، انظر ديوانه : ٣٤ (جمع العلوي) ولم يرد الثاني هنالك ؛ وانظر أيضاً ديوانه (تحقيق ابن عاشور) ١ : ٢٥٦ — ٢٥٧ وفيه البيتان .

وامسك لسانُه عن الزجر ، وكَلَّتْ عينُه عن النظر ، وضعفت مُنَّتُه عن الإنكار ، تمنى الرحيل[1] عن هذه الدار المحشوة بالنار والعار ، إلى الدار التي هي دار القرار . فقد جمدت العيون فما تدمع ، وتكبَّرت القلوب فما تخشع ، وكَلِبت البطون فما تشبع ، وغلبت الشهوة فما تنزع ، وعاد نهار الدين ليلاً ، والتلذذ بالعلم حَرَباً وويلاً . ولله أمرٌ هو بالِغه[2] ، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ (الانعام : ٣٥) ، ﴿ولو شاء ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرض﴾ (يونس : ٩٩) ، ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ (البقرة : ٢٥٣).

يا هذا : إنما نتنفَّس بهذه الكلمات كما يتنفس المملوق[3] ، ونهذي بها كما يهذي بها المألوق[4] . وإلا فما نحن ممن وصفناهم ببعيد . وكيف[5] نبعد عنهم وهم الجيرانُ في المحلة ، والمجتمعون في المسجد ، والمعاملون في السوق ؟ والله إني لأظن أن هشاشاتنا[6] في وجوههم ، ومساعدتنا علـى أمورهم ، وسعينا في حوائجهم ، وطمعنا فيما في أيديهم ، ومداراتنا لهم ، ورفقنا بهم ، من الكبائر العظيمة ، والخلائق اللئيمة ، والعواقب الوخيمة . نسأل الله أن يرفع عن ألسنتنا ذكرهم ، وينسينا[7] أمرهم ، ويميزنا عنهم ، ويخلصنا منهم ، حتى نلجأ إلى الله الذي هو الوَزَرُ والملجا ، وبعونه [٦٣ / أ] يُنال الفوز والمنجى : هلك من تاه

---

١ – ر : الرحل .

٢ – ناظر إلى قوله تعالى : « إن الله بالغ أمره » (الطلاق : ٣) .

٣ – ليس في مادة « ملق » ما يصلح في هذه القرينة ، فالمملوق : الذي يضرب بشدة ، ونسبة صعوبة التنفس اليه تتطلب تعسفاً في التخريج ؛ وأظن صواب الكلمة « المخنوق » أي الذي ضيق الخناق عنه ، أو الذي أصابه داء الخناق . وقد كتبت اللفظة ، والميم الثانية فيها أقرب الى صورة الحاء ، أي « المحلوق » ، وهي قريبة الى ما رجحته .

٤ – المألوق : المجنون .

٥ – كررت « كيف » في ر .

٦ – كذا ، وافراده أصوب « هشاشتنا » ؛ وكذلك ورد كل ما بعدها مفرداً .

٧ – ر : وينسنا .

عنه وضل دونه ، واهتدى مَن عرَفَه ، وحبا نحوه ، ولاذ به ، وأسلم وجهه له.

فَدَيْتُ صاحبَ هذا النعت ما أظرفَه وأطرفَ حديثه ، وما أسعده وأسعد من ساعده !

يا هذا : أما ترى كيف أديرك من باب إلى باب ، وكيف أصف لك حالاً بعد حال ، وكيف ألقي إليك فناً بعد فن ، وكيف أقوّي رجاءك حتى تكاد تطمئن ، وكيف أغلّب يأسك حتى تكاد ترجحن ؟ وكيف أناغيك بالسلوة عن الدنيا ، وكيف أسارّك بأعاجيب المولى ، وكيف أجذبك إليّ تارة ثم أنجذب معك أخرى ، وكيف أردّدك بين حلاوة «لعلّ» ومرارة «عسى» ؟ فإن كنت قد فهمت شغلي بك ، فاهمُمْ بشغلك بنفسك ، ولا تنتظر من غيرك أن يكون لك فوق ما أنت لنفسك . واعلم واحدةً فما بعدها بقية[1] في التنبيه ، ولا دونها حُجَّة في التمويه : ليس من الله بدٌّ على حال ، فاجعله منك على بال . واعلم أنه واسع الرحمة يتغمَّد[2] ويعفو ، ولكنه أيضاً شديد العقاب يطرد ويجفو ، وإذا جفاك فما لك بعده بارّ ، وإذا ساءك فما لك بعده سارّ .

هذا قولي لك فانتصحني ، فلو قد شغلت عنك بخاصتي لم تسمع هذه النغمة من غيري ، ولم تطرب على هذا اللحن من سائر إخوانك وإخواني . فالوقت كَدِر ، والأمرُ عكِر ، والحالُ قَذر ، والقولُ مكَرَّر ، والفعل مُنَكَّر ، والبناء مُهوَّر ، والوجه وقح ، والخلق وتِح ، والغفلة غالبة ، والأحداث سالبة ، وأثبتهم قدماً أشدهم ألماً ، وأوسعهم علماً أوحشهم كَلِماً ، وأكثرهم دعوى أقلهم رَعْوى .

---

١ – ر والمطبوعة : فما بعد هذا ؛ وفي المطبوعة « بغية » ، وما أثبته أقرب الى الأصل ؛ ولعلها أن تقرأ « بينة » لتكون في مقابل « حجة » .

٢ – ر : يتعمد .

فقل لي الآن : هل لك مرجعٌ إلا إليك ، وهل لك بك مستعان إلا عليك ؟ دع عنك أمسَك فإن فكرك فيه وَسوَسة ، ودع عنك أيضاً غَدَك فلست على بَيِّنَة من ظَفَرِك به ؛ خذ بعِنان نفسك في ساعة وقتك إلى خطتك التي تجمل بك في عاجلتك عند الناظرين إليك ، وتجمّلك في عاقبتك عند [٦٣ / ب] الطالعين عليك ، واسعَ لهذا المقام المحمود ، فلذلك فلينافس المتنافسون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون[١] .

اللهم إنّا إليك نفزع ، وفي رياضك نرتع . وصوبَ[٢] رضاك نتوقّع ، وثوبَ خدمتك نتدرّع ، وبفنون الثناء عليك نتذرع ، ولجلال وجهك نتضرع ، وبابَ جودك وإحسانك نَقرَع ، ومرارةَ ما يفوتنا من فضلك الواسع بتقصيرنا نتجرع .

اللهم : اجعل أمارة قبولك لنا ومنا وفينا أن تُخرِسنا إلا عن ذكرك ، وتُزْمِننا[٣] إلا في طاعتك، وتُعْمينا إلا من النظر إليك ، وتبعدنا إلا من النزول بفنائك ، وتفقرنا إلا من الفوز بعطائك ، وتضعفنا إلا من الظَّفَر بأعدائك . قد وجهنا أمانينا إليك، ووَقَفْنا آمالنا عليك ، ووَحَّدْناك كما أعلَمْت ، ومجَّدْناك كما ألهَمت،وقصدنا[٤] في طلبِ رضوانك فيما بين ذلك . فعُدْ بفضلك علينا ونحن سائلون ، فقد جُدْتَ بفضلك في الأول وما كنا سائلين ، ومزيداً بالإحسان تَمِّمْ ، ومن كان أهلاً للكرم على عبيده خصَّص وعمَّم .

يا مولانا : منك تعلمنا ما قلنا ، وبك اهتدينا فيما سألنا ، وإياك أمَّلْنا في قصدنا ، وهذا لأنَّك أولنا وآخرنا ، وغائبنا وحاضرنا ، ومالكنا وناصرنا ، وباطننا وظاهرنا ، وطالعنا وغاربنا ؛ وأنت كُلُّ كُلِّنا ، وحاملُ كلِّنا ،

---

١ – ناظر إلى الآية ٢٦ من سورة المطففين ، والآية ٥٩ من سورة الصافات .
٢ – الصوب : المطر .
٣ – تزمننا : ترمينا بالزمانة .
٤ – لعل الصواب : « وقصرنا » .

والفاتحُ بابَ الجود علينا ، والطالب لنا أن نسألك ما عندك برغبتنا ورهبتنا ، والعالم بضعفنا واستكانتنا ، والآخذ بأيدينا عند عَثْرتنا ، والسانح في ضمائرنا على كل حال نتقلَّبُ عليها ، والشاكر لنا على بعض خدمتنا .

فيا وليَّ النِّعَم ، ويا مُحَرِّك الهمم ، ويا واهب القِسَم ، ويا مذكوراً بالكرم، ويا معروفاً عند جميع الأمم ، ويا موجوداً على بُعْدٍ وموجوداً على أَمَم ، ويا مُناجىً بصنوف الكلم ، ويا معبوداً على القِدَم ، ويا منشئاً من العدم ، ويا جاعلاً من شئت كالعَلَم ، ويا من علّم بالقلم ﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾ (العلق : ٥) : جُدْ علينا بنا ، واهدنا إلينا ، وأوضحنا لنا. [٦٤/أ] قد بَلينا فجدِّدْنا ، وبُلينا فسَدِّدنا ، ونُكِبنا فأنعشنا ، وانجَرَدْنا فرِشنا[١] ، وتعسَّرنا فسهِّلنا ، وتعقدنا فحَلِّلنا ، ونُكِّرنا فعرِّفنا ، وجُهِّلنا فعلِّمنا ، وقَلِقْنا فسكِّنا ، واستوحشنا فأنِّسْنا ، وبَعُدْنا فقرِّبنا ، وتُبنا فاقبلنا ، وبدْنا[٢] فكوِّنّا ، وضعفنا فقوِّنا ، وزَهِدْنا فرغِّبنا ، ورَغِبْنا فزهِّدنا ، وسلَوْنا فشوِّقنا ، وأُصبنا فعزِّنا ، وضللنا فاهدنا ، وعُطِّلنا فحلنا ، وأُغْفِلْنا فَسِمنا[٣] ، وخُذلنا فانصُرْنا ، وهبطنا فرقِّنا ، ووقعنا فخلِّصنا ، وعَطِبْنا فارحمنا ، وبُذلْنا فصُنّا ، وزُغْنا فقوِّمنا ، واعوججنا فسوِّنا ، ورَقَدْنا فأَيقِظْنا ، وسألنا فأعطنا ، وقَصَّرنا فاحتملنا .

إلهنا : إليك سافرنا فكنْ غنيمتنا ، وعليك تَوَكَّلْنا فكن عِصْمتنا ، ولك ذَلَلْنا فعزِّزْنا ، وبك وَجَدْنا فجُدْ علينا ، وإليك اشتقنا فأوصلنا ، وإياك

١ – انجردنا : ذهب ما علينا من شعر أو ريش ؛ رشنا : اكسنا بالريش ؛ والقول على المجاز ، أي افتقرنا فأعنا ، وفي حديث عائشة عن أبي بكر « يريش مملقها » أي يكسوه ويعينه ، وكل من أوليته خيراً فقد رشته ؛ وقرئت في المطبوعة « فرمشنا » .

٢ – بدنا من باد بمعنى هلك وفني ، وهو مقابل لقوله « فكونا » ؛ وقرئت في المطبوعة فبدنا – بتشديد الدال والنون – وهو توجيه خاطىء لا محالة .

٣ – الغفل والموسوم ضدان ؛ و « سمنا » فعل أمر من « وسم » بمعنى جعل له سمة أي علامة .

عبدنا فشرّفنا ، وعنك حدّثنا فصدّقنا ، وإليك دعونا فأعِنّا ، وفيك تولهنا فارحمنا ، وعليك تدلهنا فاخصصنا .

أيها الصاغي بأذنك إلى شرح هذه الحُرَق ، العاجب من اختلاف هذه الأسماء والصفات والعُلَق : الزَمْ حدّك في العبودية التي فُطِرْتَ عليها ، إلى أن تصطفق مزاهر[1] الألوهية التي عساك تَرقى اليها ، فإنك إذا ألزمت علمك بالتكليف ، أهدَى إليك ما تستحقه بحق التشريف . وإياك أن تحيد عن حدّك صاعداً أو نازلاً ، فإنك إن فعلت ذلك مُحِيَ اسمك من ديوان الخدم ، وطُرِدْتَ إلى هُوَّة الهوانِ من ذِروة الكرم ، وقيل لك : اخسأ عن مرابع المُقَرَّبين ، وابعد عن حَضَرات المستخلَصين ، فإنك لا تصلح أن تطأ بساط الملوك مع سوء الأدب وقلة المبالاة والشرود ، مع الخلاف وترك ما تقدم إليك بلزومه ، وركوب ما زجرت عن التعرض له .

اللهم : إنا نلوذ بك عائذين ، ونعوذ بك لائذين ، ونسألك[2] أن ترشّحنا للزُّلفة عندك بحسن القَبول منك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣٢ -

[٦٤ / ب] أيها المستأنس بالوحشة ، الغائصُ في الدّهْشة : أما لك من صَرْعتك نَعْشة ؟ أما لك إلى حظك عند الله عَطْشة ؟ لعلك واثق بعاجلتك الفائلة[3] الزائلة : ألم تسمع قول الحكيم : رُبَّ واثقٍ خجل ؟ لعلك آمنٌ من غائلتك : ألم يبلغك : رُبَّ آمنٍ وجلٍ ؟

يا هذا : أسلمت نفسك في يد عدوك ، ووليته تدبيرك ، وسلّطْتَه على

١ – انعقدت الهاء حتى قاربت الميم (مزامر) ؛ وفي المطبوعة « من أمر » ، وهي قراءة غريبة .
٢ – ر : ونسلك – بالتخفيف ، وذلك من باب التصرف في اسقاط الهمزة .
٣ – ر : العايلة .

روحك ، كأنك مُكايدٌ لمن يُحبُّ فلاحَك ، ويبغي صلاحَك . ليس هذا من الحزم المأخوذِ به ، ولا من الاحتياط المعمول عليه . انتبــه فقد طال رقادك ، وأنِبْ إلى الله فقد تمادى غيّك[1] ، واعتبر حالك بغيرك فقد اشتدّ سهوك . أتظن ، يا عاجز ، أنك تُخلَق هــذا الخَلْق السّوِي ، وتُمْنَح هذا العقــل الزّكيّ ، وتُعْطَى هذا العلم الرَّضِي ، وترزق هذا الوجه الوَضِيّ ، ثم تمرُجُ في شهواتك مَرْجاً خالعَ العِذار[2] ، جاهلاً بما يُجْرِي الليلَ والنهار ، غيرَ مُطَالَبٍ بما لك وعليك ، ولا معاتَب بما فيك ولديك ؟ – لقد رأيتُ خلقاً كثيراً ، وعرفتُ صغيراً وكبيراً ، فما رأيت أجنى منك على نفسك ، ولا عرفتُ أونى[3] منك في طلب أيْسك[4] ! أما آن لك أن تُقلع عن هذا الإصرار ؟ أما وجب عليك أن تستحيي من مخالفة الله في الجهار والسِّرار ؟ أما تشعــر بفائتك[5] بين الإيراد والإصدار ؟ أما ترى القارعةَ بعد القارعة آناءَ الليــلِ وأطرافَ النهار ؟ أما تأنف من مصاحبة الأشرار ؟ أما تشتاق إلى مجالســة الأخيار ؟ أما تحب أن تكون حبيبَ الملك الجبار ؟

حدثني : بم تثق ، وبم تصول ، وبم تحتج ؟ فأي شيء تقول ؟ الوعــد يشوِّقك وأنت ساهٍ ، والوعيد يخوِّفك وأنت لاهٍ ، والعتاب يوافيك وأنت ذاهل ، والعلامة تلوح لك وأنت جاهل ، والعبرة توقظك وأنت ناعس ، والداعي يَرْفُقُ بك وأنت شاكس[6] ، والناصحُ يَصْدُقُك وأنت جامح ، والصديق ينصحك وأنت جانح ، والحجة تتوكد[٦٥/ أ]عليك وأنت مُعْرِض ، والحكم يَنْفُذ فيك وأنت معترض . فما أناك[7] عن حيازة نصيبك في عمرك بسعيك ،

---

١ – ر والمطبوعة : عنك .
٢ – مرج في شهوته : خاض فيها ، خالع العذار : دون حياء أو خجل .
٣ – أونى : أبطأ ؛ وفي المطبوعة : أوهى .
٤ – الأيس : الوجود .
٥ – بفائتك : بما يفوتك ؛ وفي المطبوعة : بغايتك .
٦ – ر : متشاكس .
٧ – ر والمطبوعة : أبدأك ؛ ولعلها أن تقرأ « أرداك » .

وما أهواك في مهابط الردى في حياتك بيدك ورجلك ، وما أعنَدَك عن سبيل الرَّشَد في مَهلَكِك بسوء تحفُّظِك ، وما أغفلك عن حظك في عاقبتك ! إن أنت الا بلاءٌ على[1] نفسك ، وحجابٌ بينك وبين رَوْحك وأُنْسك ، وغيمٌ كثيفٌ بين قمرك وشمسك ، وبرزخ قويٌّ بين طهارتك وقدسك ؛ قد آن لك أن تتوب من هفواتك التي أصبحتَ من أجلها نادماً سادماً ، وآن أن تثوب إلى سيرتك الحسنى التي كنت[2] عليها قاعداً أو قائماً .

يا هذا : بادرْ واصطبحْ بِعَدُوِّك قبل أن يغتبق بك عَدُوُّك ، إن غدوت إلى الربح مختاراً ، وإلا راح بك الشقاء إلى الندم مضطراً . أما أرى في يدك إلا التمني ، والتمني رأس مال المفاليس ؟ أين الحاصل الموثوق به ؟ أين الحجة الثابتة ؟ أين البيِّنة المُزكّاة ؟ أين الذخيرة النفيسة ؟ أين الاستظهار النافع ؟ أين الاحتياطُ المحمود ؟ أين الأخذُ بالوثيقة ؟ أين الحكم المسجّل ؟ أين الخير المعجّل ؟ أين الإدلال بالكفاية ؟ أين العذر في الجناية ؟ هيهات ! اضمحل كُلُّك ببعضك ، وهَلَك بعضُك بكُلِّك ، فلا كُلَّ لك الآن ولا بعض : تاهت بك التوائه ، واشتبهت عليك الشبائه ، كلما احتججتَ طَلَبت ، ولما طلبتَ فَقَدت ، لأنك بِنتَ بك ، ثم لِنْتَ لك ، ثم احتجبتَ عنك ، ثم استمليتَ منك ، فلما جاءت الحقيقة بادتْ رسومُكَ وصفاتُك ، وانمحت نعوتك وسِماتك . ومن كان مثلك لم[3] يبال الله في أي وادٍ هلك : لا عين تدمع بالاعتذار ، ولا يَدَ تُرْفَعُ إلى الله بالاستغفار ، ولا قلبَ يخضعُ عند تصرّف الأقدار ، ولا نفس [٦٥/ب] تخشع لما فاتها من التذكرة والاستبصار . إنما هو قِحَة وجرأة ، وتجليح ومكابرة ، ودعوى ومجاهرة ، وعجز واستطالة

---

١ – ر : عن .

٢ – ر : كانت .

٣ – ر : لن .

حتى إذا التفت الساقُ بالساقِ إلى ربِّك يومئذٍ المساقُ[1] حصلتَ وقد جفَّ ريقُك عن الكلمات، وانسد طريقك في الظلمات، وحينئذ تقول ﴿رَبِّ ارْجِعونِ لعلّي أعمَلُ صالِحاً فيما تركْتُ﴾ (المؤمنون : ٩٩–١٠٠).

كلاّ، أما كان لك يا هذا، فيما سلف من عمرك ما يلقى[2] التفاتةً منك إلى نجاتك؟ ألم تسمع تنزيل الحكيم العليم، وقول العزيز الكريم : ﴿أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكّر فيه مَنْ تذكّر﴾ (فاطر : ٣٧)، بلى والله، لكن ران على قلبك ما كسبت يداك، وخدعك عدو الله وأرداك[3]. فاتْبع الآن مَنْ ملّكْتَه قيادك، ووهبت لمراده مرادك، فإنك من الخاسرين.

اللهم : فارحم فاقتَنا إلى كفايتك، وألبسنا جناحَ رأفتك، واعطِفْ علينا برحمتك، ووكّل أبصارنا بمواقع قُدْرَتِك، وأنطق ألسنتنا عن بدائع حكمتك، واستعمل جوارحنا بطاعتك، وسَرِّح أرواحنا في معادن[4] مِنْحتك، حتى نستريح من هذا الكرب الجاثم في صدورنا حسرةً على ما يفوتنا من رضوانك وتقبّلك؛ واصرِفْ أطماعَنا عن خَلْقك، واجمعها في عطيتك بكرمك. فما أشقانا إن جهلناك، وما[5] أجهلنا إن خالفناك بعد أن عرفناك، وما أحسن حالنا إذا ذكرناك، وما أقربنا منك إذا دعوناك، وما أسعدنا بنجواك، وما ألهجنا بذكراك، وما أنعمنا في ذراك، وما أجحدنا لسواك، يا من هو بلا إحاطة وإدراك!

إلهنا : إنَّ مَرَضَنا كان بك، فاجعل شفاءَنا على يدك، وإن خلافنا لك كان بقضائك، فاغفر لنا الآن بتفضلك وحبائك، وإنَّ زَيْغَنا كان بعلمك

---

١ – ناظر إلى الآية ٢٩ من سورة القيامة.
٢ – ر والمطبوعة : يلتقي ولعلها « يقتضي » أو ما هو بمعناها.
٣ – ر : وخدعت ... وأرادك.
٤ – كذا في ر، ولعل صوابها « ميادين ».
٥ – ر : فما.

بنا وحلمك عنا ، فاجعل تقويمنا الساعة [٦٦/ أ] بلطفك عندنا ، وتفضلك علينا. لا نَمْلِكُ إلا ما ملّكتنا ، ولا نُمَلّكُ أيضاً ما ملّكتنا إلا إذا أمدَدْتَناوأرْفَدْتنا : لك الآلاءُ الجسيمة ، والنعماءُ العظيمة ، والأيادي الكريمة ، والخيرات الحديثة والقديمة : لاطِفْ قلوبنا بالفيئة إليك ؛ سَهِّل عليها[١] في كل الأمور التوكلَ عليك ؛ عرّفها حُسْنَ التأني في طلب ما لديك ؛ قُدْها صافية من غيرك إلى بابك ؛ احشُها باليقين والخشية ؛ املأها بالسكون والطمأنينة ؛ عوِّدْها الرجاءَ والخوف ؛ شَبِّها بالمحبة والشوق . هي بيدك فقلِّبها كيف شئت . اللهم : فَشَأ ما يُرْضيك عنها ، وقلِّبها على ما تريد منها . هي أوانيك فينا وأهدافك عندنا ، فاملأها بخالص ذكرك ، وأصِبْها[٢] بالأمن من غضبك ، يا واحد !

إنما أزِلُّ في كلامي لك أيها الإنسان من فن إلى فن[٣] ، وأطفر من وطن إلى وطن ، لأن المرامي فيما أحاول وَصْفَه بعيدةٌ نازحة ، والأحوال فيها لأهلها سانحة بارحة . فكلُّ ما أُحبِّره مطموس ، وكل ما أُجَدِّده ملبوس ، وكل ما أقوِّمه معكوس . وذاك لأن العورة في القول بادية ، والرقباء من دونه منادية . فإن أخذت بعد هذا كله في السكوت ، جاءت الفكرة[٤] متقدة بالوسواس ، والخاطرة مترددة مع الأنفاس . فما حال من إن قال كان قوله رَدّاً ، وإن سكت كان سكوته هَدّاً ؟ نعم ، وإن برز كان بروزه تعرُّضاً وتحككاً ، وإن كَمَنَ كان كمونه تمرُّضاً وتمعكاً ؟ نعم ، وإن كَنَى كان كنايته مغالطة ، وإن صَرّح كان تصريحه مُباهتة ؟ نعم ، وإن أشار كانت إشارته جهالة ؟ نعم ، وإن عبّر كانت عبارته ضلالة ؟ فما حال مَنْ ذا حالُه ، وما جواب مَنْ ذا سؤاله ؟ — غالته والله الغُول ، وبقي حيران فيما يكتم ويقول .

---

١ – ر : علينا

٢ – أعاد « املأها » إلى الأواني ، و« أصبها » إلى الأهداف .

٣ – ينتقل في كلامه من فن إلى فن ؛ ولو قال – ولعله أراد ذلك – « من فنن إلى فنن » لما كان في ذلك بأس .

٤ – كتب في الهامش : نسخة : جاءت الهواجس .

جهدٌ والله قليل الجدوى ، وأمرٌ والله مقرونٌ بالبلوى ، فإلى الله مِنْ أوّله وآخره الشكوى ، فإنه نعم الناصر [٦٦ / ب] والمولى ، في الآخرة والأولى .

وأعود فأقول : اعتبرني فلكَ فيّ معتبر ، واستخبرني فلكَ عندي مستخبر . ثم إذا اعتبرت واستخبرت فَقِسْ عِيانك على عياني ، وانظر أين إسرارك من إعلاني ؟ وأين بَوْحك من كتماني ؟ وأين مكانك من مكاني ؟ لعلك تطلع على شانك أو شاني ، يا من رآني وكأنه لا يراني : أما تراني كيف براني ، ثم أراني ما أراني ، ورآني فيما رآني ، ثم استرآني واسترعاني ، ثم قال : لن تراني ، أو تراني بأن لا تراني .

فخُذ بي الآن ، يا صاحبي ، فيما تسمع ، أو خذ بي لما تعرف إن لم تسمع ، أو خذ لي ما تسمع إن لم تعرف .

هيهات : ضاق اللفظ ، واتسع[1] المعنى ، وانخرق المراد ، وتاه الوهم ، وحار العقل ، وغاب الشاهد في الغائب ، وحضر الغائب في الشاهد ، وتنكرتِ العينُ منظوراً بها ومنظوراً إليها ومنظوراً فيها . فكيف يمكن البيانُ عن قصّةٍ هذا إشكالُها ؟ وأين الدواء ، والعلة هذا إعضالها ؟ اليأسَ اليأسَ ، القُنُوطَ القنوط[2] ! الويلَ الويلَ ! اللهم إلا أن يُجَلّيها لوقتها من هو أولها وآخرها ، وواردها وصادرها .

دع هذا أيضاً فإنه ألذع من جمر الغضا ، وخذ[3] فيما يتلافى ما مضى ، ويُحدِث في المستقبل بعضَ المراد إن لم يكن كلَّ الرضى : كن رقيبَك على نفسك تكن نفسُك رقيباً عليك ، فإنكما إذا تراقبتما استغنيتما عن كل رقيب

---

١ – كتب في الهامش : اتسق ، ولم يرمج على كلمة « اتسع » في النص ، مما يدل على أنها قراءة أخرى .

٢ – زاد «القنوط» ، مرة ثالثة في ر .

٣ – ر : أو خذ .

عليكما ، وخذ حقيقتك بالصبر فإنه مِلْحُ الحال ، ولا ظفرَ لمن لا صبرَ له ، ولا نجاةَ لمن لا أناةَ معه . ثم اجتهد بعد ذلك أن تستيقظ بين النيام وتنام بين المستيقظين ، فإن استيقاظك بين النيـــام يفرغك لنفسك ، ونومَك بـــين المستيقظين يرفـّهك لحظـّك . وهذا[1] رَمْزٌ إن فَطنْتَ له كان لك راحة ، وإن غُيِّبْتَ عنه كان وتاحة .

اللهم : إنّا قد أكثرنا القول فيك ثقةً بك ، لا جرأة عليك ، وافتننّا في الخبر عنك حباً لك ، لا اغتراراً بك . فقابل ثقتنا بك بالتحقيق ، وحبّنا لك بالتصديق ، فنعم الرفيق أنت ونعم الشفيق . وإذا قابلت ذلك بما سألناك ، [٦٧ / أ] فزدنا من فضلك ما أنتَ أهله . وإن لم نكن نحن أهله . يا أهل التقوى وأهل المغفرة .

يا هذا : إن فُتح عليك بابُ الربوبية باستيعاب العبودية ، ورُقِّيت إلى الحرية بعد ذلّة الرق في الخدمة ، شاهدت عجائب وعجائب ، ورأيت غرائب وغرائب . فإن قلت: مثل ما [ذا] ؟ قيل لك : وأين مثل ذلك وأين ما قاربه ؟ أدناها أنك ترتعي حدائقَ الأمن ، وتَشُمُّ نواضرَ الأزهار ، وتشهد العقولَ سائرةً في هوادج الكرامات نحو الأرواح المقدسة بالطهارة ، وتسمع معاتبة الأحباب على شجو يسحرُ الألباب ، ويقطع دون الحق كُلَّ حجاب ، ويفتح كل باب .

هذا ذَرْوٌ من الحديث عن هذا المقام الذي وصل إليه بعضُ الكِرام ، ثم وراء ذلك أيضاً ما لا عينَ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لأن العينَ إنما تألفُ المحدودات ، والأذن إنما تحدُّ المرسومات ، والقلب إنما يخطر عليه ما جرت به العادات[2] ؛ فأما ما يعلو عن هذا كله ، علواً لا بمسافات

---

١ – ر : وهذا إن ، وهو سهو .

٢ – ر : العبادات .

ومجازفات ، فلا خبر عنه إلا بالإيماء اللطيف ، أعني الإيماء الذي يَلْطُفُ عن الوهم، ويأنف من الحس ، ويستغيث من الشكل والضدّ ؛ فبذلك الإيماء يمتلىء برّ[1] العارف نوراً ، ويتقد بَحرُهُ ناراً ، ويكون الوجدُ به وجدَ السائحين في أعماقِ الملكوت ، ويكون الذوق له ذوقَ الواهين ببوادي الحق . ولولا أن الربَّ سبحانه يُمْسك العقولَ عن التهافت ، والأرواحَ عن التهالك ، والنفوسَ عن التطاوح ، والقلوبَ عن التمارج ، لتبدد منها الشمل الملموم ، وانتثر عنها الأمر المنظوم ، وتزايلت الأشياء عن سماتها القائمة عليها، وتعاندت عن صفاتها الثابتة بها . فإنما يمسكها بسابق علمٍ له فيها ، ونافذ تدبيرٍ منه عليها ، له الحكم وإليه المرجع .

اللهم : إنا نعتسف هذه الطُرُق الوعرة ، ونصبر على مَشَاقّها بالجوع والعري [٦٧/ب] والوحدة[2] لنخرج منها يوماً إلى نورك الذي أضاء عالمك ، وفيه برز غيبك ، وعليه دلّ فعلُك ، وإليه أشار أثرُك . فنسألك بهذه القدرة أن تقبلنا ولا تردنا ، وتصلنا ولا تَصُدّنا ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٢٣ -

اللهم : اكفِنا كلَّ مُكايدٍ لنا فيك ، واقمَع عنّا كلَّ عَدُوّ لنا من أجلك ، واشغلْ عنا كلَّ شاغلٍ عنك ، وألّفْ بيننا وبين كل مؤلّف بيننا وبينك ، وأحْسِن جزاء كلّ مَن صَرَفَ وجوهنا إليك ، وأكْرِم كلَّ من حدثنا عنك . وإذا كنا نحب من يدعونا إليك من أجلك ، فكيف لا نحبك اذا قبلتنا خدَماً لك ، وشملتنا بأياديك ومِنَنك ؛ كذَبَ من ادّعى محبتك ثم التفت إلى سواك سرّاً وجهراً ، اختياراً أو قهراً .

---

١ – ر: سر .

٢ – ر : واا ر حدة .

إلهنا : لو قدرناك حق قدرك ، لم نطفْ بذكرك ، ولكنا نذكرك بإذنك كما ألقيتَ إلينا على لسانِ الصدق عنك . فاسمعنا إذا ذكرناك ، وأجبنا إذا دعوناك ، وأعطِنا إذا سألناك ، وزِدْنا من فضلك ، إنك كذاك وفوق ذاك .

أيها الجوهر الشريف : أُجِلُّك عن شناعة الخطاب في التقرب إليك ، لأني – وحقِّ الحق – مخلصٌ في ولائك والاعتماد عليك ، وثقتي بهذا الممنوح العزيز قدره ، العظيم شأنه ، تلاطفني ملاطفة المنبسط ، وتشفق عليَّ إشفاق الوالد المحب ؛ وليس هذا أخصَّ صفاتي فيك ، ولا غاية ما لي منك ، ولكن العبارة قد تخون مطلقها في اشتمالها على غير المعتقَد ، وسقوطها دُوَيْنَ الغرض المعتمد . فما الحيلة لمن كُلِّفَ ذاك ، أعني كلّف ما لا يطاق ، وحُرِم بخدائع الحس قبول ذلك ؟ ومحقِّق الحقائق ومسهِّل الطرائق شاهدٌ على صادق دعواي فيك ، كما هو شاهدٌ لك في خصائص ما وهب لك ، لأنك – بلا كاف التشبيه ولا هاء الكناية – فردٌ في تفردك ، واحدٌ في توحدك . هذه خطبة الحق على منبر التفضيل ، وليس لي علم فيها أقتبسه ، ولا حظٌّ ألتمسه ،إنما ألوذ به لِياذَ الصَّبِّ الوامق ، ثم أعوذ به [٦٨/أ] عِياذ الموتور الحَنِق .

اسمع أيها الإنسان بِدْعاً من الكلام ، وغريباً من المعاني . فإني أقول : لاحتْ بوارقُ التمني فسمت نحوها نواظرُ الافتقار ، وتهيأت صور المعنى تبدو فتقطعتْ عليها أكبادُ الأحرار ، وأذعنت النفس الأبّاءة[1] – على مداهنتها – تروم حيلةَ المشار إليه مستوفاة بقضايا الحس ، والجس حاكم مُرْتَشٍ ، وخابط خبطَ عشواءَ في ليلَ مُدْلَهِمّ . وإنما انخدع به من وزن حقائق مَطالبه برأيه المتّهم ، وخاطره الكذوب . وقد طالت الشكيّة ، ودامت البلية ، وتضاعفت الرزية ، في تسلسل قول لا يَبْرُزُ معناه مِنْ خَلَلِ حجبه[2] ،

---

١ – الأباءة : الشديدة التمنع والاباء .

٢ – ر : حلل حجته .

وانقلب الفصيحُ المِقْوَلُ عيّاً في كشف المراد على الغاية . فالإشارة كأنها نكاد ، والعبارة على الأيام ترداد ، ونار الوجد على اضطرابها تُبيدُ رسومَ العقل بتحصيله ، وتردُّ جُمَلَ القول بتفصيله ، فلا حُرَقُ الخلوة تلتقي سكونَ السلوة ، ولا أسبابُ الصولة تتصل بمواد الدولة . فهل يحسن أن يكون مَقْطَعُ[1] القول عيّاً وعجزاً ، ومنتهى الطلب خيبة وإخفاقاً ، وغاية البحث يأساً وتسليماً ، ومردودُ الجواب زجراً وانتهاراً ، وثمرة التحقيق حسرة وتحيراً ؟ هذه علّة عوراء ، وشُبْهة عمياء ، وحجة طامسة ، ومَحَجّة دارسة . ومحاسنُ الحالِ موقوفةٌ على طلب المولى ، وغاية الفكر مصروفة إلى ابتغاء الأخرى . ومنذ قريب حدثتني الأيامُ عن كُنْه أفعالها ، المضافة بالمجاز إليها ، أن أول الأمر اغترار ، وهذه رتبة السواد ؛ وأوسطه[2] قناعة العلم ، وهذه فضيلة ذوي البحث ، وآخره نكرة في تحقيق ، وهذه منزلة اللّهف والندامة والتلف . فأين من لا أين له ؟ أم كيف من لا كيف له ؟

هيهات ، زاغت الأبصار ، وبليت الخواطر ، وافتُضِحَت السرائر ، وانعكست الأوائل على الأواخر [٦٨/ب] وغارت العين في منابعها ، ورُدَّ القول في وجه القائل ، وكسر التحصيل في نحر العاقل ، وقيل للسامع : صَمٍّ ، لعلك تنجو ، وللقائل : اخرَسْ ، فعساك تسمو ، وللناظر : غَمِّض ، فلعلك ترنو . فهذه أعلام الحق قد علَتْ الى مراتب التطويح ، وصار مصير الفضل إلى رتبة الظن ، وهُجْنة الكذب ، وسخافة الحال ، وضعف المُنّة ، وانتكاث القوة ، والتياث الهيئة . كل ذلك من عِشْق الآفة وإيثار الزهرة[3] والتعرض لما لا يصفو بحيلة :

بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفَ ما بنا[4]

---

١ – ر : بقول مقطع ، ولا مجال لكلمة « بقول» في النص.

٢ – ر : وواسطه .

٣ – يعني زهرة الدنيا .

٤ – صدر بيت ينسب الى غير شاعر ، وعجزه « على ان قرب الدار خير من البعد » (انظر ديوان ابن الدمينة : ٨٢ وتخريجه هنالك ص : ٢٣٢ – ٢٣٤).

على ذاك سكونُ القلب بالرضى أجدى من قلق الاعتراف باللسان ، وظنُّ العلم أنفع من يقين الجهل ، والسكوتُ مع التسليم أحمدُ من النطق مع التفتيش ، ومحق الوقت بالتهاون أهدى إلى مراد المعنى من مصارفة الزمان بحسن التوهم . أليس القول في منشأه عن العين الثابتة ، يزاحم الصمتَ في في مورده على الأشخاص البائدة ، بضروب المشاكلة وصنوف المماثلة؟قد بان أن كلَّ المعنى بعضٌ ، وبعضَ المغزى كلٌّ ، وأن كل ذا وبعض ذا منقسم . وأن المنقسم منقوص . فهل كل بعض المعنى إلا كبعض كله ؟ وهل بعضُ كلِّه إلا ككل بعضه ؟ وهل كله في اللفظ إلا على غاية التفريد ، وبعضه على نهاية التشتيت ؟ هذا نوحُ القلوب على مذاهب أسرارها ، ومأتمُ العقول على على فوائتها . عندها يطيب البكاء الطويل ، بالويل والعويل ، من منابع قلب قد حُفَّ بالوجد والغليل :

لعلَّ انحدارَ الدَّمْع يُعقِبُ راحةً   من الوَجْدِ أو يَشْفي نَجِيَّ البلابل[1]

قُتل الخرَّاصون ، الذين هم في غَمْرَةٍ ساهون ، وهلَكَ الحَذَّاعون الذين هم في عَرَصة الباطل لاهون . ما فائدة البكاء إلا استراحة . لا جرَمَ قد ضيق عليه الفكرُ ساحةَ الإصابة فَدَمَع وقَطَر ، وهَمَع وسال ومَطَر ، ولم يجد مساغاً لريقه ، ولا فضاء لطريقه . ولقد أحسن ما شاء بعض المُحنَّكين في قوله حين قال: [٦٩ / أ] إذا خِفت صعوبة أمر فاصْعَبْ له تَذِلَّ لك مراكبُه ، وخادع الوقت عن أحداثه .

سيدي : ليس بموفَّق من توسل بغير الافتقار إليه ، ولا بمُعانٍ من رجع إلى غير الاعتماد عليه . اليأس معه أرْوَحُ من الرجاء في سواه ، والصبر على

١ – مر هذا البيت لذي الرمة مرتين قبلا (وهو في ديوانه : ٥٧٧) .

بلواه أفضلُ من التعرض لنجواه . أطلتُ وما أطللت[1] ، وقربتُ وما أصبت . فليتني احترقتُ بنار الوجد ، ولم أستضيء بنور العلم ؛ أم ليتني قطعتُ الوقتَ بحسن الفعل ، ولم أُفْنِ العمر بزُخْرف القول ؛ أم ليتني غرقت في بحر التسليم ، ولم أركب برَّ التنقير ؛ أم ليتني سلكت فِجاجَ العَمَى ، ولم أعلُ قُلَل البصيرة ؛ أم ليتني انطويتُ على غُصَص الفَوت ، ولم أبحُ بسرائر الحال ؛ أم ليتني خليت الوقت يردّدني في أُرْجوحة المحنة ، ولم أهتِكْ بنات صدري على رؤوس الخَلْق ؛ أم ليتني لم أُكَلّف أسبابَ التعريض ، إذ مُنعت لذاذة الرواية والتصريح ؛ أم ليتني أصبت قائلاً يُفْهِم ، إذ حُجِبْتُ عن سامعٍ يَفْهَم ؛ أم ليتني كُفِيت مؤونة الطلب ، إذ حرمت فضيلة الدَّرْك ؛ أم ليتني عُزلت عن باب الهذيان ، كما قد ضُربت بلوامح الحرمان .

هيهات ، قول يَرِقُّ ، ومعنى يَلطفُ ، وكلام يَدِقُّ ، وحقيقة تشرف . والخَلْق في خَوْضهم يلعبون ، وفي طغيانهم يَعْمَهُون ، ، والمحترسون مما يضرهم قليلون ، وطُلاَّب الشقاء بما ضَرَّهم كثيرون . وإنما تفاضَلت[2] الأشياء بهيآتها ونعوتها ، وأسمائها وصفاتها ، فأما الخاصّةُ التي فيها فواحدةٌ لظهورها من حال القدرة متصرفةً على أذْلالها ، متشاكلة في إقبالها وإدبارها .

هذا لسان التصوف ، والتصوف معناه أكبر من اسمه ، وحقيقته أشرف من رسمه . ولذلك المنطبقُ المقدَّمُ عند أهله إذا أصغى إلى علمه ، واحتال في تحصيله ، رجع إلى نفسه خاسئاً وهو حسير ، يرى حروفاً تشيع بحلاوتها في نفسه ، وأغراضاً [٦٩/ب] ترتفع بلطافتها[3] عن تصور إدراك عقله ؛ وأربابُ القلوب وذوو العقول وأهل المحبة يملكهم اللائح ، ويقهرهم اللامح ، ويأتي عليهم الجزء الذي لا يتجزّأ ، ويستوفيهم الوهم الذي لا يتراءى .

---

١ – ر : أطلت ؛ وما أطللت : ما أشرفت على المراد بتلك الاطالة .

٢ – ر : تفضلت .

٣ – ر : بلطفاتها .

هذا خبرهم على ما يقتضيه المخبر عنه ، فأما قواعدي التي [1] بنيت عليها أمري ، وأركاني التي [2] أسندت إليها شاني ، فأشياء لا يحويها شرحُ كتاب ، ولا يستغرقها بيانُ خطاب ، لأنها مشتبهة المناظر ، متلونة البواطن والظواهر ، ولكن جملة تَنُمّ على التفصيل :

إني حشوت وقتي بالظّلف[3] والتنزه اللذين يعمُران حالَ النفس بالرياضة والتهذيب ، ثم رفعت التهمة من الاعتقاد والضمير التي تربّي الآفة وتذيب الخاطر وتُضِلُّ الرأي ، ثم حللتُ ساحة الرسوم متربعاً على توفية العمل بقدر الوسع وبذل الجهد ، ثم أشعرت قلبي خوفاً لا لُبْثَ معه على شيء ، وطالبتها بالصبر على المهانة والذل ، وخاطبتها بعد ذلك بأشياء : وعدَتْني في بعضها صلاحاً . وذهبت في بعضها جِماحاً ؛ ثم انثنيت مرتاعاً إلى من نَهَجَ السبيل بالآلاء والنعم ، وأوضح الدليل بالأنباء والحكم ، فقلت : مولاي ، أنت أنت لا شيء غيرك ؛ الإشارة إليك باللسان نقص وعجز ، والتوجه نحوك بالقلب فضل وعز ، والإعراض عنك خذلان وبوار ، والإقبال عليك مَسارٌّ ومَبارٌّ . تباركتَ وتعاليتَ ، وتعظمتَ وتناهيتَ ، أسألك بغاية افتقاري إلى ما عندك أن تُحَلِّيني بغاية افتخاري معك .

سيدي : قد صرّفتُ القول في هذه المخاطبة بين إشارة لها عمقٌ بالاعتبار ، وبين عبارة لها مُتغلغَلٌ في غوامض الأسرار . وإذا قرأتها فارْعَ حقي فيها ، وحَسّن ظنّك بي في عرضها ، وتداركني بما أحببت منها ، فإني غنيٌّ عن كل أحدٍ إلاّ عنك ، وإقراري عليك بهذا يوجب عليك التفضّل عليّ ، والإحسان إليّ .

---

١ – ر : قواعد الذي .

٢ – ر : الذي .

٣ – الظلف : منع النفس من ان تفعل شيئاً .

وبعدُ ، فإني أوصيك – متبرعاً – بما أرجو أن أكون به قاضياً لحق الصفاء في المودّة بيني وبينك ، ومستديماً به شوقك [٧٠/أ] على الأيام التي تجمعني وإياك ، أو تحدث فُرْقة على العادة التي لها مع غيري وغيرك : لا تَذَبْذَبَنَّ في عزماتك التي يلوح رشدك فيها ، فإن ذلك يثبّطك ، ويعقِل همّتك ، ويَجُرُّ حبل الندم في التأني عليك بك . بل إذا هممتَ فعانقْ ، وإذا عانقت فالزم ، وإذا لزمت فاستسلم . فإن همك في الأول محرِّكٌ نحو المقصد ، ومعانقتك وجدانٌ للمراد ، وازومَكَ استثباتٌ للحال ، واستسلامَكَ تفويضٌ إلى من يحفظك في المحلّ . ومهما عجزتَ عن شيء فلا تعجزنَّ عن تطهير القول وسوفه[1] وتنقيته وغسله وتبصيصه[2] ، فإنه آنيةُ الحق يَضع فيه ذخائره ، ويلقي عليه أنواره ويطهره ، وهو إصلاح الفكر . ونفي الهم ، والبراءة من المقاذر ، والتنحي عما يُوسّخ النفس ويُبْعد الأنس . فإنما كُلُّك قلب ، والباقي منك تابع له ، وبسوانحه تتصرف ، وبصوارفه تتماسك ، وبدواعيه تتهالك . فإذا كان نقياً جلياً ، تقياً ذكياً ، كانت حركاتك موزونة بالناموس الإلهي ، وسكناتك معدّلة بالغيب الحكمي . وأقل ما لك في هذا المصباح إذا وقد لك أن تعدمَ الشكَّ في الأشياء، لامتلائك باليقين ، وفيضك بالسكون . ونظرك إلى ما كان ويكون ، بغير فاصلة من زمان ، ولا حَيْلولة من مكان .

هيهات ، بلغتُ هذا المكان بقلمي ، وقد خنقتني العبرةُ تذكراً لهذه الأحوال من قوم شاهدتهم مُذ أربعين سنة ، كانت صَفَحَاتُ وجوههم مبشِّرة بالخير المطلوب ، ومقادر حركاتهم ناطقةً بالحقِّ الذي هو آخر ما يُكدّ له ويُسعى إليه ، وشواهدُ ألسنتهم ناصحةً لكل سامعٍ ، له من نفسه يَقَظَة، وعليه من عقله حَفَظَة ، وله إلى الله عز وجل التفاتة ، وقد قيل :

وآخِرُ ما يبقى من الذاهب الذِّكْرُ

---

١ – كذا في ر ، وعلى السين ما يثبت أنها مهملة ؛ ولعل الصواب : شوفه اي جلاؤه .

٢ – التبصيص : التلألؤ واللمعان . ولعل الصواب : وتبييضه .

وقد قيل أيضاً :

تذكرتُ شيئاً قد مضى لسبيلـه ومِن حاجة المحزونِ أنْ يتَذكّرا

[٧٠ / ب] اللهم : اشغَلْنا بذكرك عن ذكر غيرك ، وإذا حركتنا لنذكرك فحركنا أيضاً لنشهدَ ذكرك لنا ، فلولا ذكرك لنا ما ذكرناك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٢٤ -

اللهم[١] : اصنع لنا ، والطف بنا ، وافككْنا من أسْرنا ، واجبُرْنا مِن كَسْرنا ، وحوِّلنا من عُسْرنا إلى يسرنا . فجودك فائض ، وخزائنك ملأى ، وحكمك نافذ ، وملكك عظيم ، ورحمتك واسعة ، والطريق إليك رَحْب .

يا هذا : تضرَّع إلى رب له خَضعَتِ الرِّقاب[٢] ، وعَنَت الوجوه ، وحارت العقول ، وجالت[٣] البصائر ؛ وله بان كلُّ شيء ، وبه وُجد كل شيء ، وإليه انتهى كل شيء ، وعليه وقف الآمل ، وفي فِنائه أناخ الراجي . فإنك إذا تضرعت إليه سَحّت سماؤه عليك ، وامتدّ ظله السّجْسج[٤] لك ، وائتمر لك كل شيء ، واستقاد لك[٥] كل شيء . إنك إن ذقت حلاوة وصاله ، وأويت إلى عريش كرمه لم تصبر ساعة واحدة عن ذلك النعيم الخضل ، والفِناء الخضر ، واليسار الدائم ، والأمر القائم ، والبر المتصل ، والمراد الحاصل .

١ – معظم هذه الرسالة ثابت في ل (ق ٣٨/ أ – ٤٠/ب) وهي هناك بعنوان : «صياقل الأنفس الصدية في تهذيب الاخلاق من الإشارات الإلهية» .

٢ – ل : خضعت له .

٣ – ل : وحالت .

٤ – ل : السجيح ؛ والسجسج : المديد الوارف .

٥ – ر : واستفاد منك ، والعبارة ساقطة من ل .

يا هذا : إلى متى تنافس أهل الدنيا في الدعوى ؟ لِمَ لا تنظر إلى حالك في العُقْبَى[1] ؟ لم لا تسلك الطريقة المثلى ؟ لم لا تلتمس[2] مآربك بالحسنى ؟ ماذا[3] يجيء من هذا التهافت وهذه[4] الذّلّة وهذا الجهل ؟ كأنك ما رأيت بعينك عِبْرة ولا حَصلتْ لك بشيء خبرة ؟ أما تستحيي [أن] تستخدم عقلك الذي هو أشرف مِنَح الله عندك ، لشهوتك التي هي أفضح الأشياء لك ؟ وما في قضاء وَطَر ساعة ؟ وما في نيل لذةٍ منقطعةٍ[5] يبقى عارها ويرتهنك وِزْرُها ؟

يا عدوّ نفسه . يا جانياً على روحه ، يا جالباً لحتفه بيده ، يا شارباً للسم بكأسه على علم منه به : ما أرداك[6] لنفسك ، وما أطرحك لبدنك في عذابك ، ما ألهاك عن شأنك ، وما أقسى قلبك على مهجتك ، وما أذهلك عن رشدك ، وما أركبك لمطية غيِّك ، [وما أهملك لسلوك سعادتك][7] ، وما أصفق وجهك في خلافك ، وما أصلب حدَقتك [٧١/أ] لإصرارك[8] ، وما أضيق عذرك عند احتجاجك واعتذارك [وما أهمل نظرك لنجاتك][7] .

يا هذا : الحديث أكْنَى[9] عن الغاية مما يقرع أذنك ، أعني أنه شيء بدا في الأول من سابق العلم ، وسرى في الثاني على رادف الحال ، فاتفق الأول والثاني ، لأن الأول أوْجَب ، والثاني وجب ، فلهذا غمض البيان في ديوان التكليف ، واختلف القول عليه من الوضيع والشريف[10] .فقال هذا : إنما

---

١ – ل : ولم لا تنظر في حالك إلى العقبى .
٢ – ر : تلتبس .
٣ – ل : ماذا .
٤ – ر : وهذا .
٥ – ل : متقطعة .
٦ – ر : ارادك .
٧ – ثبتت في ل وحدها دون ر .
٨ – ر : لاصدارك .
٩ – ل : اكتنى .
١٠ – ل : الشريف والوضيع ؛ ولا يناسب السجع .

أتيتَ من اختيارك الرديّ ؛ وقال ذاك : إنما أُتيتَ من اختبار القويّ العزيز . فلما لج اللحاء بين هذين القائلين ، جنحا إلى الضجر ، وقالا : فما نصنع ؟ فقال العارف : سلّمنا ما نجهل ، وقبلنا ما نعلم ، ولا نجمع بين الإساءة[1] والاحتجاج ، ولا نصل المخالفة باللّجاج . الخَلْق له والأمر له ، والخلقُ عبارةٌ عن كلٍ ما تراه موجوداً بحس وعقل ، وظن ووهم ، وشك ويقين ، وعلمٍ وما أشبه ذلك ؛ والأمر تصريفه بالدواعي الباعثة ، والبواعث الداعيــة ، وبالصوارف المانعة ، وبالموانع الصارفة[2] ؛ فهل بعد الخلق له في الذي هو له والأمر الذي هو أيضاً له « قال لك » أو « قيل لي » ؟ بلى . عجزي عني هو الذي فَدَمَ فمي ، وأخذ بكظمي ، وألجأني إلى ندمي وسَدَمي ، وشَوّقني إلى بطلاني وعدمي ، بعد إحساسي بما سبق من ثبات قدمي على ما استتبّ في قِدَمي . ولولا هذا العجز لكان لي مجال في القول ومجاز[3] إلى الدرك . ولكن جلّ من لا يطاول ولا يقاول ، ولا يُغاول ولا يجادل ، ولا يعادل ولا يزاول . له اليد الطولى ساء أم سر ، والحجة العظمى[4] حلا أم أمَرّ .

يا هذا : ليس للعبد إلا ما هو به عبدٌ ، فإن جُنّ قليلاً فطن أنه ربٌّ فهناك هلاكه وبُطوله وهبوطه ، وسفونه [وسقوطه][5]

عَدّ أيضاً عن هذا ، وخذ حديثي : إمّا جملةً لا تشفيك شرحاً . وإما تفصيلا لا ينفي عنكَ بَرْحاً[6] ، ولا يَدْملُ منك قَرْحاً . ولا يحمي لك سرحاً [٧١/ ب] ولا يجلب إليك فتحاً ، ولا يخفف عليك[7] متحاً . وذاك أني

---

١ – ل : الإشارة .

٢ – ل. : الصادقة .

٣ – ل : ومحال .

٤ – ر : الوضحى .

٥ – وسقوطه : زيادة من ل .

٦ – ل : ترحا .

٧ – ل : ولا يجفف عنك .

حُمت حول الورد فما وردت ، وتعرضتُ لنيل المكانة فما أهلت ، واستغثتُ فما أُغثْت ، ودعوتُ فما أُجِبْت ،وسألتُ فما أعطيت ،واعتذرتُ فما قُبِلْت ، واحتججتُ فما مكنت ، وطلبتُ الجادةَ فما هُديت ، وَأصبتُ فما عُزِّيت . فبقيتُ هكذا بالعراء منزور الصبر ، مغزور الوَّحْر[1] ، قد نَقِبَ خُفّي ودَمِي أظَلّي[2] ، وذهب أكثري وبقي أقلي . فلو قيل لي يوماً : نعم كان منك كذلك أو كذا فلهذا أنت على ذا وذا ، لكان ذلك مثالاً لعيني أتعلل به ، وتَعِلّةً لنفسي أتمثل له . لكن جرى ذلك كلُّه بعزةِ سلطان ، وقدرةِ ساطٍ ،وعلوّ يدٍ ، واستبداد قَدَم . على أني إذا أنصفتُ اعترفتُ بالنعمة في أضعاف هذه البلية ، لأنها أخذَتْ وأبْقَتْ ، ونالت وأسْأرَتْ ، وتطرفت وتَعَدَّتْ ، وحزَّت وحارت ، وجرحت وآست ، وقرحت ودملت ، ورعدت وبرقت . ولو أتت على الأصل والفصل ، وذهبت بالدِّق والجلّ ، من كان يتدارك ومن كان يعترض ، ومن كان يقول : لِمَ — ولِمَ محذوفة في مخاطبة الملوك — ومن كان يقول : كيف — وكيف مرفوعة عن مواجهة الأرباب — إنما[3] لِمَا وكَيْفَ للعزيز إذا أدب به الذليل ، وللسيِّد إذا قوم عليه العبد ، وللرفيع على الوضيع إذا أثبت عليه الأمر ؛ فأما من علا عن هذا كله ، فكيف يقابل بما لا يجوز معه ، ولا يؤذن له ؟

هيهات ، قصّر الفهم ، وطال الوهم ، واضطرب الحسُّ ، وثبت العقل ،

---

١ – الوحر : الغيظ والحقد وبلابل الصدر ووساوسه ؛ وفي ر والمطبوعة : مبروز الصبر معزوز الدحر (ر : الدخر) ؛ وواضح أنه مضطرب كثيراً ، ولعل الصواب فيما أثبته ، إن شاء الله ، وقد سقطت العبارة من ل .

٢ – أظل الانسان بطون أصابعه ، وهو مما يلي صدر القدم من أصل الابهام إلى أصل الخنصر ؛ قال ابن سيده : والاصح عندي ان الاظل بطن الاصبع ؛ وإعجام الظاء واضح في ر ولكن المحقق الأول للكتاب قرأه : إطلي وشرحه بأنه الخاصرة ، وهو ابعاد في التخريج لا يستقيم . وفي شعر لبيد : « بنكيب معر دامي الأظل » .

٣ – ل : وإنما .

وسَبَحَ العلم ، واعتلى اليقين ، وتَرجرَج[١] الظن ، واقتحم الشك ، وعرض الإيجاس ، واعترض الإلباس ، فاشتد[٢] بين هذا وهذا الباس . فأما قصور الفهم فلأنه رَكَنَ إلى الطبيعة ؛ وأما طول الوهم فلأنه نَدَّ عن قرار القلب؛ [٧٢ / أ] وأما اضطراب الحس فلأن منشأه من الأعراض ، وأما ثبات العقل فلأنه يستملي من الحق ؛ وأما سبْحُ العلم فلأنه محيط بكل شيء ؛ وأما اعتلاء اليقين[٣] فلأنه من العالم العلوي ؛ وأما ترجرج[٤] الظن فلأن مصدره من اعتنان القلق؛ وأما اقتحام الشك فلأنه صيغة الإنسان ؛ وأما عرض الإيجاس فلأنه من روادف الحال ؛ وأما اعتراض الإلباس فلأنه من تمام جميع ما سلفه[٥] . ولما كان الإنسان دَنِسَ الجيب ، مُتّهم الغيب ، مَعْدِن الرَّيْب ، ومَقَرّ العيب ، توالت عليه ومنه وفيه هذه الأمور الشائنة . وهذه الأحوال المتشاحنة . وإنما يَنْقَى ويَطهر[٦] في الثاني بالقيام على وظائف التكليف ، وحدود الأمر والنهي ، وقبول ما يشير[٧] به [العقل الكريم والرأي الرشيد .

تحرمْ – هداك الله – في هذه النكت البديعة ، وتجمل بأحسنها][٨] متزيناً به ، واجعلها كلها إماماً لك : تطلُب سعادتك فيها ، وتستبين مقامك منها ، وتعرف قيمتك بها ، لأنها صياقلُ الأنفسِ الصدئة ، ومجالي الأخلاق الكدرة ، وهوادي

١ – ر : تزحزح .

٢ – ر : واشتد .

٣ – غير واضحة في ر .

٤ – ر : تزحزح .

٥ – ل : سلف .

٦ – ل : ويظهر .

٧ – ر : يسير ، والتصويب من ل .

٨ – ما بين معقفين ثابت في ل ، ساقط من ر .

الآراء الضالة ، ومرائح[1] الألباب العازبة[2] ، ومساقي النصول الكليلة ، ومشافي[3] الأرواح العليلة ، ونصائح[4] القلوب الذاهلة .

فاطلب نفسك[5] التائهـــة منك ، واطلبك[6] في نفسك المهلكـــة لك في هذه الفِـقَر الملفوظة من أفواه العارفين ، المقطوفة من أشجار الواجدين ، المسقية من المـــاء المعين ، في المقام الأمين . واجعل ديدنك معاتبةَ النفس في الليـل وخاصّةً في السّحر الأعلى ، فإن شَمْلَ الفكر لا يكون قد تصدّع ، وبال النفس لا يكون قد تبلبل ، والأحساس تكون خاثرة ، وفي خثورة الاحساس زكاء[7] الرأي [٧٢ / ب] واشتعال الصواب ، وورود الحق ، ونفور الباطل، وبيان[8] المشكل ، ووضوحُ الغامض ، واستبانةُ الصحيح ، وبرءُ السقيم . وإذا غلبت عليك هذه الحالُ بهذه الصفة رأيت أيضاً في منامك ما يزيدك بصيرةً في يقظتك ، كما كانت[9] يقظتك على هذا النعت سبباً قوياً في صدق رؤياك . إنّ الحق يُناغي العارف في رؤياه ، للصفاء الذي يكون عليه في تلك الحال ، فيتزود منها ما تصير به اليقظة مضاعفة . فهناك يرى العارفُ الغيبَ شَهادةً ، والمستورَ مكشوفاً ، والمظنونَ مستيقَناً .

هذه حال مذكورة بين أرباب القلوب وأصحاب الحرق السائحين في هذه

---

١ – ل ر : ومريح .
٢ – ر : الغادية ، والتصويب من ل .
٣ – ل ر : وساقي ... وشافي .
٤ – ل : وناصح .
٥ – ر : لنفسك .
٦ – ر : أو اطلب .
٧ – ر : زكوا ؛ ل : ذكاء .
٨ – ر : وتبيان .
٩ – ل : كما كلفت في .

العرصات تزجيةً للوقت ، وتقطيعاً للزمان ، وتعليلاً للنفس ، واعتــداءً[1] بالاعتبار ، وانتجاءً بالسرار ، وانتحاءً بالجهار ، وقلقاً إلى الصدار إلى دار القرار . فلا تنكر نعيّ لها ، وبعثي عليها ، فقد لاحت لي منها أشياء طريفة . وأمور بديعة ، ولولا أنّ هذه الورقات أرفع قدرهــا عن رسمها فيها ، لـوَسَمـتُـها معجّباً منها كما عهدتها عاجباً بها ، وغيبُ الله عز وجل ليس بمحدود ، وباديه غيرُ مردود ، ومتواريه غير معدود .

وأوّل هذه القصة في تهذيب الأخلاق ، ووسطها في أخذ العبر من جميــع الآفاق ، وآخرها الوصول إلى الله العزيز الخلاق . والإنسان نصفان : نصفه خَلْقٌ ونصفه خُلُق ، فإذا صلح نصفاه كمل ما هو به إنسان . فأما نصفه الأول الذي هو به خَلْق فهو أيضاً على نصفين ، أعني أنه بالصيغة الأولى على وتيرة لا مَزَال[2] له عنها ، وبالكُلفة الأخرى فله رفع ووضع . وكذلك هو بالنصف الثاني ، الذي هو به ذو خُلُق ، فعلى نصفين : فالنصف الأول هو التشبـه بالصيغة الأولى حين كان بها خَلْقاً [٧٣ / أ] وبالنصف الثاني الذي هو[3] به يصير أحسن الناس خُلُقاً ، وأقبح الناس خُلُقاً . وهذا كلام ، وإن لم يكن في حومة التوحيد ، فإنه لا يُستغنى عنه عند قصد تلك الغاية ، لأن العارف بالله ، والواجد لله ، والقاصد إلى الله ، والمتهالك في الله ، والمنتسب إلى الله ، والذاكر إلى الله ، والواصل إلى الله ، والمتصل بالله ، لا يَخلُون من معالي الأخلاق ، وعوالي الهمم ، وشرائف العادات ، وغرائب الأفعال ، وبدائع الأحوال . ولهذا قال قائل منهم — وقد أكثروا عنده ذكر الدنيا — : أما أنا فإن تُقبِل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر ، وإن تُدْبر عني ، لا أبكي عليها بكاء الحَرِف المُهتَر . وقلت لأبي حنيفة الصوفي ببغداد : كيف أنت ؟ قال :

كُلّما قلتُ : غداً موعدُنا ضحكت هِندٌ ، وقالت: بعد غد[4]

---

١ — كذا في ر ، ولعلها : واهتداء ؛ والعبارة ساقطة من ل .
٢ — ر والمطبوعة : نزال .
٣ — ر : هو الذي .
٤ — البيت لعمر بن ابي ربيعة (ديوانه : ١٠٢) ، وفيه : « متى ميعادنا » .

يا هذا : إنما احتجتَ إلى تهذيب الأخلاق لأنك معجونٌ من عقاقير كثيرة ، ومركبٌ من أضداد متعادية ، وأشكال متوافية ، وكانت فيك كأنها أنت ، وكنت بها لأنها فيك ، فلهذا احتجت إلى ضمٍّ نشرها ولَمِّ شعثها ، وتألُّف شاردها ، وإصلاح فاسدها ، وتقويم أعوجها ، وإرشاد أهوجها . فإذا صَلُحَتْ أخلاقك ، حسنت آدابك ، وإذا حسنت آدابك ، شَرُفت هممك ، وإذا شرفت هممك ، طابت مآربك . فعندها تصلح لخدمة الملوك ولحضور خلواتهم ، وسماع نغماتهم ، وحفظ كناياتهم ؛ وعندها ينزل عليك الوحي الخاص فيما تصير سعيداً به ، ولا تُبَلْ عند حصول هذا الشعار أن تجوع وتَعْرَى ، وتَظمأ وتضحى ، وتُطرد وتَحْفَى ، وتُهان وتُنْفى ، وتُعاب وتُقْفى ، فإن ذلك كله صنع من الله لك[1] ، لأن فيه تخليةً لرسنك[2] ، وإلقاءً لحبلك على غاربك ، وتركاً لك والحالك ، وإسْقاطاً للعوارض عنك ، وتوفيراً على المهمات [٧٣ / ب] لك . فإن الخلق شغل في شغل على شغل ، وما شُغِل أحدٌ بالخلقِ فوصل إلى الحقّ ، لأنهم لا يَدعون أديماً إلا فَرَوْه ، ولا صحيحاً إلا عَرَوه ، ولا تاماً إلا بروه[3] ، ولا هارباً الا قروه ، ولا خليطاً إلا مَرَوه ، ولا جديدا[4] إلا كروه . والبلوى عظيمة ، وحسبك أنهم يشغلون صاحب الدنيا عن الدنيا ، فكيف يتركون صاحب الدين مع الدين ؟ هذا ما لم تَجْرِ به منهم عادة ، ولا لهم فيه حفاوة .

فلهذا واثرتُ في هذا الجزء الكلامَ في الاخلاق وتهذيبها ، فإنك بذلك تصفو بعد التهذب ، ثم ليس بعد الصفو إلا ما إذا بدا من الحق باديه ، زانك وجَمّلك[5] ، وأطلعك على الغيب وأشهدك ، وأصدرك وأوردك ،

---

١ – ل : بك .

٢ – ر : تجلية لرشدك ؛ والتصويب من ل .

٣ – ر : ولا نابهاً الا شروه .

٤ – ر : جدداً ، وسقطت العبارة من ل .

٥ – ل : وحملك .

وصرت من الذين أنعمَ الله عليهم على طريق الإخلاص، من ناحية الاختصاص؛ فهنيئاً لك إن وجدت هذه[1] الحال بجهدك إن وفقت له، [أو][2] بتوفيقه وإن لم[3] تجتهد فيه. والله محقّق كلّ أمل، ومُزكيٍّ كلّ عمل، بمنّه وجُودِه.

- ٢٥ -

اللهمَّ: ارفُقْ بنا رفقاً يحفظنا لنا، واطّلِعْ علينا اطّلاعاً يأخذنا عنّا، واهدنا إلينا، وأرِحنا منا، وخبِّرنا عن دائنا، وجُدْ علينا بدوائنا، وامحُ عنا آثارَ الخلق الفاني، وأودعنا أسرارَ الحقِّ الباقي، وسلِّمنا من كل عائقة عنك، وقِنَا كلَّ بائقةٍ منك، ولاطفْ ضمائرنا برَوْحِ لُطْفك، وزيّن أبداننا بتوالي عطفك، واحْمِ حريمنا من هبوب نسيم غيرك، واملأ أسرارنا بغرائب بِرّك وخيرك. إنك خير المنتجَعين، وأجود الأجودِين، وأكرم الأكرمين.

يا هذا: إذا تمنت نفسُك بقاءَ الأبد، فلا تسكُنْ إلى أحد، ولا تنخدع بسَبَد ولا لَبَد[4]. إذا هفا بك الشوق إلى غاية مجهولة، فارْقَ في معارج الوجد إلى نهاية مُسَلّمة؛ إذا سوّلَت لك نفسُك نسبة إلى [٧٤/ أ] فعل بشاهد الكسب، فانسبه بالتفويض إلى جاري القَدَر؛ إذا استعَرْتَ عبارة الغائب في الشاهد بالعادة، فلا تطردها على وجهها في الغائب؛ إذا استغرقتكَ رؤيةُ الاختيار، فالتفت إلى وارد أحكام الاضطرار، وإذا أحسستَ بغالب الاضطرار

---

١ - ل: هذا.

٢ - ثابتة في ل وحدها.

٣ - لم: سقطت من ل.

٤ - في اللسان (سبد): قال الاصمعي: ما له سبد ولا لبد، أي ما له قليل ولا كثير.

فلا تنكر مجلوب ما ساقه إليك الاختيار ؛ وإذا عرفت مبادي[1] الكلّ ، فلا تميز الاختيـــار من الاضطرار ؛ وإذا بدت لك العين بالوحدة ، فلا تنسب مقداراً إلى مقدار على طريق الاستكثار ؛ وإذا طاب لك المقام في وطن ، فاعلم أنك بَعُدت عن آثار المعدن ؛ وإذا ملكك النزاع إلى مكان من غير سكنى ذلك المكان ، فاعلم أنك قد رشحت لشان من الشان .

يا هذا : إذا أمكنتك المشافهة فلا تقبل منه التوسط[2] ، وإذا توسط لك بنفسه فقد أغناك عن سواه . إذا سارّك بغيبه فقد صانك عن علانية غيره ؛ إذا قرّبك المعشوقُ ، فاحتجبْ عن تقريب المعشق ؛ إذا غشيك المذكور ببادي ذكره إياك ، فَزُلْ عن ذكرك ادّكار المُدّكِّر لك ؛ إذا استكتمكَ المَلِكُ سِرّ المملكة ، فلا تشافه في طيه مـــن يعرضك للهَلَكة ؛ إذا فاجأك الحبيب بمحاسنه ، فالْهُ عن الرقيب مستمتعاً باللحظ ؛ إذا ناجاك الحق بما يَدِقّ عن الفهم ، فلا تحاكمه إلى نقص العقل ؛ إذا عدا عليك الحسّ بالاستحالة ، فاعدُ عليه بسلطان الحق ؛ إذا فتنك العقلُ بدقائق البحث ، فاستقبله بحقائق التسليم ؛ إذا أعجبتك النفس في الطاعة ، فعرِّفْها استحقاقَ المطاع ؛ إذا خدعك الشكر برؤية النعم عن طلب المزيد ، فانتف بذلك عن رؤية المنعِم ؛ إذا حدّثتك نفسك بالوصول ، فكن على حَذَرٍ من مكر المُوصل ؛ إذا سما بك الرجاءُ إلى الطمأنينة ، فاهبطْ إلى ساحةِ [٧٤ / ب] الخوف بالقلق؛ إذا رصدك الهوى بتسويله ، فاجبَهْ سائله بالرد ، وعامل غريمه بالتسويف ؛ إذا لاح لك شاهد الحق منك ؛ فواصله بشاهده فيك ؛ إذا استعجمت عليك مراسم الظاهر ، فأيِّدها بحجج الباطن ؛ إذا ساعدك الوقت بخوادع اللذات ، فخَفْ

---

١ – ر والمطبوعة : منادي .

٢ – ر والمطبوعة : المتوسط .

توابع التبعات ، واذا استرقك[1] منظرٌ من مناظر الكون ، فتكبّر عليه بزينة الصون ؛ إذا زخرفَتْ لك العينُ شاهدَ الوجدان ، فاستند أنت إلى رُكن العِرفان ؛ إذا نغّمَ لك [...][2] بألحان التوحيد ، فاطرب عليه بأصناف التمجيد ؛ إذا عكسك حاضر الأماني في مدارج التواني ، فاطّرِدْ أنت بثابت المعاني ؛ إذا ادّعى عليك المحال بشواهد التمويه ، فابرُزْ أنت بحقائق التعريف والتنزيه ؛ إذا أضلّوك بأوائل الاحساس ، فاهتدِ أنت بثواني العقول ؛ إذا كدُّوك بمطالب التعريض ، فاسترح أنت بحقائق التفويض ؛ إذا أراحوك من لوازم الظاهر ، فاكدُدْ نفسك أنت ببوادي الباطن ؛ إذا حرموك على وجه الاختيار ، فتلَقَّ ذلك بشدائد الاضطرار .

لعمري لقد وصفتُ شأناً يعزُّ عن الوصف ، ويغرب على الواصف تعَلياً عن دَنَس اللسان بحدود اللفظ . ولكن ما يصنع من إن بَذَلَ رُدَّ عليه ، وإن بَخِل طُلب منه ، وإن تَقرّب نُسِبَ إلى الملق ، وإن أمسَكَ أحْصِي في زمرة الأباعد ؟ رَقْدَتُهُ غِرار ، ودموعه غِزار ، وقوله وبال ، وسكوته إثقال ، ووحدته وحشة ، وفكرته دهشة ، وصحوه سكر ، ونصحه مكر ، ولسانه ذفر ، وربحه وكْس ، وزيادته نقص ، وطَيُّه عَرْض ، وإبرامه نقض .

يا هذا[3] : تجمّعْ عن تفرّقك ، وتفرّقْ في تجمعك ؛ أتدري ما تفسير هذا اللغز ؟ أي احضر عن غيبتك ، وتغيّبْ عن حضورك . هذا أيضاً لغز آخر أنا أكشفه لك بما هو أبين ، فتحلَّ منه بما هو أزين . معنى ذلك : انفِ عن سرِّك الهموم كلها ، حتى تنقى من كل [٧٥ / أ] دَنَس يكون في الإنْس.

---

١ – ر : سرمك ؛ المطبوعة : سرقك .
٢ – أقدر أن تكون هنا كلمة قد سقطت .
٣ – من هنا وحتى قوله « ايحاش هذا النائي » (ص : ١٧٣ فيما يلي) مكرر في ر وقد ورد من قبل (ص ٤٨ – ٥٠) كما سبقت الإشارة .

ثم اخطب مجلسك من حضرة الحق بقبول ما يجود به لك . ثم أفْرِغ كلك في شكرك هذه المنائح التي كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى ، وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى .

يا هذا : أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة ، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة ، دالة على الآيات الأنيقة ، جامعة للآراء الربيقة ؟ فجُلْ في أطرافها طالباً نفسك فيها ، وغُصْ في أعماقها مُحَصِّلاً لحقيقتك منها ، واجعل تباشير بوادي هذه الأحوال مادّةً لصبرك إن كنت مُبْتلى ، أو عُدّة لشكرك إن كنت مُخْتلىً . وترنح في هذا الفضاء [الذي] قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقــة متنزّهاً ، واقطُفْ من ثمارها ما تدلّى لك ودنا منك ، وتَرشّف مِن عينهــا ما ساغ لك وعَذُب في لهاتك . فإياك والشك فإنه للقلب مرض ، وللدين عَرَض ، وللحلق جَرَض . وإياك وأن تريد إلا وأنت مُريد . فأما إذا كنت مُراداً ، فتجنب كل إرادة لك ، فإنها إبادة فيك منك . واجتهد أن تكون سابقاً متمهلاً ، وإياك أن تكون مسبوقاً متعجلا ، فإن ذلك عُنوان الفوت وآية الحسرة وعلامة الأسف . وامْحُ عن سِرّك الفكر في كل ما كان أمس ، فَصَوْلُه يمحو لك ما يكون لك غداً ، فإن ذلك أحضر لبالك في يومك ، وأدعى إلى إحراز نصيبك من فَوْتك . فالوقت حادّ ، فكن من حِدّته على حَذَر . والحذر هنا أن يكون همك بالعلويات الابديات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات ، فإن اعتلاق الهمّ بها [٧٥/ب] استغــراقٌ لمحاسنها ، وفي هذا الاستغراق تشبُّه كثيرٌ بمعانيها ، وفي هذا التشبُّه بــــروز لحقائقها ، وفي هذا البروز لحقائقها الفوز بنعوتها ، ومن نعوتها خلودها . فأي الإشارة أخلصُ من هذه ؟ وأي عبارة ألخص من هذه ؟ قد صنع لك فيما نعم به عندك ، ولطف فيما عرض عليك ، فكن لآلائه من الشاكرين ، ولنِعَمه من المستحقين ، ولفضله من الذاكرين . وزنْ رجاءك بالخوف وزْناً عَدْلاً ثم رَجِّح الرجاء فإنه أدلُّ على كَرَم المرجوّ ، وقابل التوكل بالتعرض مقابلةً

صحيحة ، ثم اجعل الرُّجْحان في جانب التوكل ، فإنه أشبه بحال العبد . وابحث عن مبدأ الوجد ، فإن كان من آثار الكون البائد البائر ، الزائل الحائل، فلا تَعُجْ عليه ، وإن كان من آثار العلوّ الدائم الخالد فارْتَدِ به وائتزر ، والتحف به واعتطف عليه ، وثق بأنك إذا أُهِّلت للتبختر في هذه الساحة ، فقد نلت كل لذة وأصبت كل راحة ، وما أقرب هذا البعيد ، وما أسهل هذا العسير ، وما أشد استجابة هذا الآتي ، وما أسرع ايحاش هذا النائي ! إنما[1] هو رقدة كالحُلْم ، وحُلْم[2] كاللمح ، ثم الاطلاع على نعيم كُنّا نتهالك هاهنا بشبائهه لابحقائقه ، ونحنّ على أسمائه لا على معانيه، ونظن أنا قد وجدنا عزيزاً وملكنا نفيساً . وأيُّ عزٍّ لما يبتذله الليل والنهار ؟ وأيُّ عزّ[3] لما يتخوّنه القياس والمقدار ؟ وأيُّ شرفٍ لما لا يثبت في لحظة على حال ؟ له في كل آنٍ اسم ، وفي كل أوان رَسم : أعْني أنه يقال له غَريض[4] وذابل ، وجديد وخَلَق ، وشاب وهَرِم، ومُقْبِلٌ ومُوَلّ . [على هذا][5] فإن الأمثال بمثله مضروبة ، والأدلّة على نظائره منصوبة ، ولكن القلوب عن التحقق[6] بمعرفتها[7] [٧٦ / أ] محجوبة ،والنفوس مع[8] طلب ذلك منها وفيها مكروبة .

يا هذا : عضّ على ناجذك عند مرارة الكدر العارض ، فإنه كَلَفْتَة لافتٍ أو عَطْفة عاطف ، فإن ذلك يُهَوِّن عليك الصبر ، ويُفْسح منك الصدر ، ويزيدك ثقة بالعِوَض ، وزَهادةً في هذا الغَرَض .

---

١ – من هنا حتى قوله «وغرائب من الجواب »(ص: ١٧٤فيما يلي) سيتكرر فيما بعد في ق ١٣٦/ أ– ١٣٦ /ب . وأوله هنالك : يا هذا إنما أنت في حال كرقدة في الحلم... الخ .

٢ – المكرر : او حلم

٣ – كذا هو هنا، وفي المكرر : قدر .

٤ – الغريض : الطري النضر ، وهو مناقض للذابل .

٥ – زيادة من المكرر .

٦ – في الأصل : التحقيق ، والتصويب من المكرر .

٧ – المكرر : بها .

٨ – المكرر : في .

يا هذا : إن كنت تحب نفسك فلا تحفِر لها مُغَوَّاتها بيدها[1] ، ولا تكسبها عارها[2] بجهدك . واستيقن أنَّ محبّة النفس في معرفة النفس ، وأن [في][3] معرفة النفس استكشافاً لمحلّة القُدس ؛ أعني أنك إذا لهجت بذلك عرفت الله الـذي به قوام النفس ، وإليه مصير الجن والإنس . وفي هذه المسألة دقائقُ من البحث وغوامضُ من النظر وغرائبُ من الجواب[4] ، ولكن لا قوةَ لي على نشرها ، ولا ثباتَ لك على استماعها، فقد اتفقنا على الفُسولة بسوء الاختيار ، أو جرينا على المكروه بحكم الاقتسار .

فقل لي الآن : ما الحيلة لي حتى أبدي ما عندي ، وما الحيلة لك حتى تحصّلَ عني ما معي بجهدك وجهدي ؟ والله لو لم تظفر من هذه الأجزاء إلا بجزء واحد ، بل بورقة واحدة ، بل بسطر واحد ، لكان الغنم معك ، والربحُ في يدك ، وكُنْتَ في مناط الثريا اتصالاً بالسعادة ، وعند العَيُّوقِ اطلاعاً على الحقيقة . فكيف وقد استكثرت منها وظفرتَ بها كلها ، وهو ما ارتفع إلى هذا الوقت قدر ألف ورقة . فجدد لنفسك نشاطاً لقراءتها ، والتبحر بمعانيها ، والاغتراب فيها ، والتصرف في أوائلها وثوانيها ، والإلمام بأطرافها وحواشيها . فإنك بتجديد هذا النشاط تمشي على ذلك البساط ، وتؤهَّلُ لعجائبِ الانبساط ، حتى يقال لك : كن خليفتنا [٧٦/ب] في مملكتنا ، ومُصرِّفَ الكون بأمرنا وإذننا .

يا هذا : إذا اعتراك الرَّيْبُ في هذا المسموع ، فاحتط لنفسك بالرجوع إلى قلبٍ مسلّم من الهوى ، مُفعَم بالنُّهى ، ثم استشِره فإنه يهديك الى صراط

---

١ - المكرر : بيدك ؛ والمغواة - مشددة - : المضلة وهي المهلكة .

٢ - المكرر : عارك .

٣ - زيادة ضرورية من المكرر .

٤ - زاد في المكرر : وبدائع من الافصاح ؛ وهنا ينتهي المكرر ، وأضاف هناك، إنهاءالرسالة «والله المستعان».

مستقيم ، بلا تعلّم ولا تعليم ،ولا تكلم ولا تكليم . وإن كنت قد[1] كفيت الريب ، – وإنما ترنّحك لعائقات عادتك ، وباقيات قرنائك الذين سحبوك على الضّرّاء بالغرور . وقرّبوك بالأماني على الدهور – فإن ذلك يَمّحي عنك بعزمة أواه ، أو همة مُنيب ، ووثبة صادقة[2] ، وكد يسير . فتهنأ ذلك ، فإن المراد مُطْلِب ، والمراد مُكْثِب . ودع قَوْلكَ : ورائي أمٌ وأخت ، وأبٌ وابن ، وخال وخالة ، وعم وعمة ، فإن هذا من غبن الشيطان[3] ووسواسه ومن دقيق حيله وإغوائه وإلباسه . وقد قال عيسى بن مريم ، عليه السلام – وهو روح الله – للحواريين : إنكم لـن تُدْركوا مَلَكوت السموات إلا إلا بعد أن تتركوا نساءكم أيامَى وأولادكم يتامى[4] . وهذا رمز وراءه رمزٌ ، وإشارة فوقها إشارة ، وعبارة حولها عبارة . ولكن التقيَّ مُلْجَم[5] ، ولا بد من بعض السكوت ، كما أنه لا بد من بعض القول ، ومن قال كلَّ ما عنده فقد باء بغضب من الله ، ومن سكت عن كلٍ ما عنده فقد تعرض لطَرْدِ الله . إن لكل شيء حداً ، ولكل أمر قدراً ، أعني : لكل قول آخر ينتهي إليه ، ولا يجوز أن يزاد عليه . ولكل سكوت حدٌ يُبْلَغ إليه ، ويوقف عنده . أما سمعت بعض العارفين يقول : قَبِلَ مَنْ قَبِلَ بغير علةٍ فأدناه ، ورَدَّ مَنْ رَدَّ بغير علةٍ فأقصاه ، فلا التامُّ عنده بمقبول ، ولا الناقص عنه [٧٧ / أ] بمردود ، ولكن له الخَلْق وإليه الأمر .

---

١ – ر : فقد .

٢ – صورة اللفظتين في ر : وزونية صارم .

٣ – ر : الشياطين .

٤ – في انجيل لوقا ١٨ : ٢٩–٣٠ على لسان المسيح عليه السلام « فقال لهم : الحق الحق اقول لكم ان ليس احد ترك بيتاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولاداً من اجل ملكوت الله ، إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية » .

٥ – فصل المقال : ٢٢ والميداني ١ : ٩٣ ، وهو قول لعمر بن عبد العزيز .

هذا باب – عافاك الله – كلما قُرع زاد رتاجاً ، وشرب كلما خُوّض[1] صار أُجاجاً ، والاحتياط فيه ترك الأمر على صيغته ، فإن بقي على فنونه ، فذاك ، وإن نضا عنها فذاك .

اللهم : إنا إليك نفزع[2] ضارعين ، ولك نضرع محتاجين ، وإياك نخاطب متبسِّطين ، وعنك نُمْسك هائبين ، وعلى بابكَ ننيخُ طالبين ، وبنارك نصطلي مقرورين[3] ، وشريعتَكَ نَرِدُ لاهثين ، وبك نعتصمُ متحيزين[4] ، وإليك ننتسبُ مفتخرين . وهذه حرمات أنت أولى من رَعاها ، وأحقُّ من حفظها لنا وأنماها ، يا ذا الجلال والإكرام :

كلما انقضى سَبَبٌ عاد لي بـه سَبَبُ[5]
تضحكيـنَ لاهيـةً والمحبُّ ينتحبُ
تعجَبين مـن سقَمـِي صِحّتي هيَ العَجَبُ

– ٢٦ –

اللهم إن معرفتنا بك تبعدنا[6] عنك ، ومخالفتنا لك تؤيسنا منك ، وإناختنا بفنائك تطعمنا[7] في روح رضوانك ، وإصرارنا على الشرود عنك يحولُ بين رجائنا وتفضلك. فارحَمْ[8] تذبذبنا بين اليأس والقنوط ، واكفِنا خطر الترجُّح بين الصعود والهبوط .

---

١ – ر والمطبوعة : خاض .
٢ – ر : إليك نفزع إليك .
٣ – ر : مقرونين .
٤ – ر : متحبرين ، ورجح المحقق الأول أن تكون «متحيرين» . ولعل الصواب «مستجيرين» .
٥ – الأبيات لأبي نواس (ديوانه : ٣٦٦ ط . اسكندر آصاف) وفي الديوان : منك عاد لي سبب .
٦ – ر : بعدنا .
٧ – ر : يطعمنا ؛ وربما قرىء : «تطعمنا من دوح » أي من ثمر الدوح .
٨ – ر : فارجم .

أيها الهائم الملتاح : كم تتلدّد[1] ، وربُّك بين يديك ؟ أيها العامل المكدود : كم تغترُّ وقد أخبَط رؤياك عملك عليك ؟ أيها القارُّ المطمئن : كم تنعم والمزعج قد أطلَّ على رَبْعك ؟ أيها الواعظ المُدِلُّ : كم تَهْدي وأنت في وادٍ من حقيقة وعظك ؟ أيها الساكتُ بالعيّ[2] : كم تظن أنك سالم من العتب ؟ أيها الناطق باللسان : أين شعارك [٧٧/ب] الذي يشهد لك بالصدق ؟ أيها المفكر في الملكوت : أين مرماك منك فيما للحق عليك ؟ أيها الجائب للبلاد بزاد وبغير زاد : أين غنيمتك من السفر ؟ أما والله لو صحبك في قولك لزايلك الرياء في فعلك ، ولو ذُقْتَ حلاوة من تناجيه بسرك لوُشِّحت بالثقة في عبارتك ، لكنّما[3] تَمَلَ العبارة لأنك محجوب عن الزيارة ، ليست معاملتك مع مَن لا يطلع على غيبك ، ولا يتصفح منافذ سرك . ولا يعلم ما أنت عليه ، وما أنت إليه ، وما أنت فيه ، وما أنت به . هيهات . أنت آنيتَه ، وفيك وديعته ، وعندك آيته . وعليك طليعته . أنت رقيبه على نفسك[4] وأنت لا تشعر ، والشاهد عليك وأنت لا تذكر . فانظر كيف أخفاك فيك ثم أظهرك لك ، وطواك عنك ثم نَشَرك عليك ، حتى تَزُمّ[5] جوارحك إذا أردت [نجواه][6] ، وتَضُمّ سوانحك إذا قصدت نحواه ، لتعلم أنك مرشح لأمر[7] : إن صبرت على زلازله في أوائله صِرْت من الأبرار الذين ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ (يونس: ٦٢) ، وإن

---

١ – ر والمطبوعة : تتلذذ .

٢ – ر والمطبوعة : بالغي .

٣ – ر والمطبوعة : لأنما .

٤ – ر : نفسه .

٥ – ر والمطبوعة : ترم .

٦ – زيادة ضرورية .

٧ – ر والمطبوعة : لأمرك .

جزعت فلن تفوت إلا نفسك ، وما يهلك على الله إلا هالك : تصبح طافياً وتمسي راسباً ، وتتقدم نشيطاً وتتأخر ناصباً ، وتظن أنك على الربح ؛ ألا في الخسران أنت راجع ، وإلى غير ما شوقت إليه نازع ؛ فإن [كان] الخبر منك مبهماً ، فادلل بلسانك على عيبك ، وأدل بحجتك على نفسك ، فكفى بك حسيباً عليك .

يا هذا : أتدّعي أنك مُحِبٌّ لمولاك ، وأنت متلطخ ببلواك ؟ أتزعم أن بينك وبين الحق وصلة ، وأنت عاكف على بساط الخلاف والمعصية ؟ بادر — يا هذا — وكذّب نفسك من نفسك ، من قبل أن يُكَذّبك من لا قِبَل لك بتكذيبه ، فإن مناظرتك به في ضميرك أخفُّ عليك [٧٨/أ] من مناظرة من ﴿ يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر : ١٩) .

يا هذا : لا تَعَرّ من لَبوس الإيمان فقد زُيِّنت به ، ولا تُعَوِّر عين اليقين وقد شربت منه ، ولا تشردْ على متألّفك[١] وقد رُبِّيت في بِرّه ، ولا تفتر في طلب نجاتك وقد مُكِّنْتَ منه . وكيف لم تمكّنْ من هذا ومن غيره وقد دُعيت ونوديت ، وكوشفت وبوديت ، وحُفظت ورُعيت ، وسوررت ونوجيت ، ووصلت ونوغيت ؟ فأما الدعاء فبالرسول ، وأما النداء فبالكتاب ، وأما المكاشفة فبالعبر ، وأما المبادأة فبالألطاف ، وأما الحفظ فبالرقباء ، وأما الرعاية فبالمدافعة ، وأما السرار فبالإخلاص ، وأما المناجاة فبالتكرمة[٢] ، وأما المواصلة[٢] فبالتشريف ، وأما المناغاة فبالتعريف .

فحصِّل الآن — عافاك الله — قيمَة هذه الحال التي ردّدَك فيها ، وطهّرك بها ، وأظهرك عليها ، وخصّك بالمقام المعلوم منها ، والحظْ في أضعاف هذه الأحوال مقرَّك ، فقد رفع ذكرك ، وقوّم أمرك ، وأسْبَل سِتْرك ، وأوضح

---

١ — ر والمطبوعة : متالفك .

٢ — وضع الناسخ اشارتين فوق هاتين الكلمتين ، وكتب مقابل ذلك في الهامش : معروف .

عذرك . فإنك إن حَصّلت هذه الأوائل حَصَلْتَ[1] على ما وراءها بين الشواهد والدلائل ، وتخلّصت من جميع الأهوال والبلابل ، وقَرَرْتَ في مغاني أهل الفضائل ، وسمعت ترنّماً ينسيك كلّ ما تقدم ، وطربت طرباً يذهلك عن كل ما تعلم ، ثم سقيتَ بكأس لا تظمأ بعدها ، وأويت إلى بقعة لا تزعج أبداً عنها ، واختلطت بأرواح لا كثافة لها . ونطقت بلغة لا عهد لك بها ، وحَلُمْتَ بكرامة لا هبوب منها ، وحُلّيت بحلية[2] لا تكشّفَ بعدها. فماذا يمنعك عن الشوق بعد هذا الوصف الذي تسمع ؟ وماذا يصدك عن الوجد بعد هذا النعت الذي ترى ؟ وماذا يحجبك في [٧٨/ب] إعراضك عمن هذا عطاؤه لك ، وهذا نبأه عنك ، وهذا تلطفه بك . وهذا عرضه عليك ؟

يا هذا : دَعْ ما كان خبر[3] عنك . ومداراة لك . وخُذْ مُتَفَهِّماً ما أنا مَمْنُوٌّ به ، ومدفوع إليه . فإن دَقّ عليك فيه لَفْظ . أو نَبَا عنه تحصيل . فسامحْ ، فالغليل أحَرُّ من ذلك ، والضر أظهر مما هنالك[4] ؛ نعم يا حبيبي : دعاني فلما أجبت طردني ، وقَرَّبني فلما دنوت[5] أبعدني . ومنّاني فلما توقعت حرمني ، وحكمني فلما اقترحت خيّبني ، واستنطقني فلما نبست أخرسني . ودلني فلما استدللت تَوَّهني ، وقال : كن لي تَكُنْ ، وجُدني تجدني ؛ وأراني فلما تأملت أعماني ، وأمرضني فلما استشفيته أضناني . فلما دُفعتُ إلى هذه المخارج ، وضللت عن طرق المخارج ، قلت محدّثاً لنفسي : أترى هذا لِمَهْ وفِيمَهْ وعَلاَمَه ؟ فأجّج علي مني ناراً لا يُطفأ لهبها ، ولا يخمد جمرها ولا ينقطع شررها ، وقيل لي : اقتحم باختيارك متلذذاً بها[6] ، وإلا أصليناك

---

١ – ر : فحصلت .

٢ – ر والمطبوعة : بحيلة .

٣ – ر : خبراً .

٤ – ر : هناك . ٥ – ر : دعوت .

٦ – ر والمطبوعة : متلذة أبها ؛ وكل ما حدث أن الذال الثانية انعقدت فصارت بصورة تاء مربوطة .

مُكْرَهاً عليها . قلت : نعم ، أقتحم طاعةً وائتماراً ، ولكن طيّبوا قلبي بسرِّ أمري ، وعرفوني ما بي من حُلْوي ومري . فقيل لي : لو أهّلناك لهذا لما أحرقناك بهذا : مَنْ أذِنَ لك في البحث عما طويناه ؟ من أباحك المسألة عما ورّيناه ؟ من جرّأك على قَرْع بابِ مُذْ أغلقناه ما فتحناه ؟ مَنْ أطمعك في مرعىً مُذْ حميناه ما أبحناه ؟ ومَنْ هوّن عليك رَفع سِترٍ مذ أسبلناه ما رفعناه؟ أتظنُّ أنك شريكُنا في الملك ، أو رقيبٌ علينا في التدبير ، أو قادحٌ في ارادتنا بالاعتراض ؟ خلقناك عبداً فتنزّيتَ[1] لتكونَ رباً ، ولولا أنّا نعلم من أين أُتيتَ فيما كان منك لأبدَ ْناك ، وجعلناك رميماً في مغناك . لكنّا نعود عليك بالمنّة عليك ، كما بدأنا ما طيّه لديك . فاحترس الآن منا نحرسكَ[2] بأنفسنا ، وثق بأنك نجوتَ من مقام دَحْضٍ ، لولا عَطْفُنَا عليك ، وتوفيقنا لك ، لكنت من [٧٩/ أ] الهالكين ، فانظرْ : هل لك منا محيص اذا أردناك بما لا يوافقك ، وهل لك منا مانع اذا خصصناك بحلية الربوبية ؟ فيا ساهياً عن نفسه ، ويا لاهياً عنا بفرط أنسه ، كيف ترى قدرتنا عليك ، وتصريفنا لك ، واحاطتنا بك ، واستباحتنا اياك ، وتمكننا منك ، وتملكنا لناصيتك ، واشرافنا على دانيتك وقاصيتك ؟ أن لك في بعض هذا معتبراً فسيحاً ، وتوبة نصوحاً .

اللهم : انّا نفتتح كلامنا بذكرك ودعائك استعطافاً لك ، ليكون نصيبنا منك بحسب تفضلك لا بحسب استحقاقنا ؛ ونختم أيضاً كلامنا بما بدأنا به رغبةً في رحمتك لنا وتجاوزك عنا ورفقك بنا ، واهدائك ما لاندريه ولا نتمناه الينا . ونسألك – إلهنا – أن تجعلنا في كَنَفٍ من ضمانك، فقد رمانا خَلْقُكَ عن قوسٍ واحدة ، وقذفونا بألسنة حِدَادٍ ، وقصدونا بسواعد شِداد ، لأنّا ذكرناك لهم ، ودعوناهم اليك ، وغرنا عليك[3] أن يكونوا جاهلين بك

---

١ – هذه الكلمة مضطربة الرسم ؛ وكتبت في المطبوعة « فتبريت » .

٢ – ر والمطبوعة : لحرسك .

٣ – ر : وغيرنا عنك ؛ وفي المطبوعة : وعبرنا عنك .

ومخالفين ، وقد غرقوا في نعمك ، واعتزوا بكرمك ، وتكبروا من أن يكونوا من خدمك . اللهم استصلحهم لعبادتك ، وخذ بأزِمّتهم الى بابك ، والاّ فاستأصلهم بقدرتك ، فقد احترقنا بنارهم من أجلك ، وفقدنا كُلّنا بينهم بسببك . فأنت مُحرِّكنا اليهم ، وأنت مُفتِّرُهم عنا ، وأنت معاتبنا فيهم ، وأنت طاردهم دوننا . وهذا لسِرٍّ لك فينا وفيهم ، ولغيب لك عندنا وعندهم . الا إنا قبل أن نتعرض للسرِّ بالظن ، وقبل أن نلم بالغيب بالعَنّ ، نفزع اليك قالين لهم ، هاجرين لبقاعهم ، متباعدين من رِباعهم ، متعيّفين لطباعهم ، متنزهين عن باعهم وذراعهم ، عالمين بأن العيش معك أرقُّ ، وأنت بتأميلنا أولى وأحقّ ، وان كان معنى هـذا الموصوف بالمعاينة[1] أشد علينا وأشق .

إلهنا : قد وقعت البينونة بيننا وبين خلقك فلا تصلها بالبينونة بيننا وبينك ، فإن ذلك شديد . واذا أردت بنا عقاباً فاجعله [٧٩/ب] ما دون هجرك لنا، فإن الهجر مَجْلَبةٌ للمقت ، والمقتَ مَدْعاةٌ للهوان ، والهوان عذاب شديد ، وعقاب أليم .

يا هذا : نزّه طرفك عن النظر إلى غير الله ؛ شَرِّفْ فكرك بالفكر في عظمة الله ؛ بيِّضْ وجهك بالصبر على عبادة الله ، أَخلصْ عملك من الشرك بالله ؛ أَطربْ نفسك بأغاني ملكوت الله ؛ اقْرَعْ صباحَ مساءَ باب جودِ الله ، تعرض لوَبْلِ المواهبِ الهاطلة من الله ؛ ادْنُ حتى تصغي ، أَصْغِ حتى تسمع ، اسمع حتى تفهم ، افهم حتى تعقل ، واعقِل حتى تشرف ، واشرف حتى تنقى ، وانقَ حتى تنعم ، وانعم حتى تسعد ، واسعد حتى تتقي ، واتقِ حتى ترقى ، وارْقَ حتى لا تشقى .

---

١ – بالمقانفة ؛ وفي المطبوعة : بالمقايفة .

يا هذا : أما ترى نِعَم الله عليك نازلة ، وخيراته إليك واصلة ، ومبارّه لديك متكاملة ، تارة في اليقظة ، وتارة في المنام ؟ أما[1] في اليقظة فإنه يجلو عليك هذا الملك البسيط حتى تشهدَ الكواكبَ المتلألئةَ بالليل ، الجارية بحقائق المشيئة ، الدائبة[2] على سَنَنِ الإرادة ، مع عجائبَ غيرها ؛ وأما في المنام فإنه يعرض عليك الأمور لعبارتها[3] ، فاجتهد أن تعرف المغزى في جميعها . على أن ما يشكل من جنس ما لا يشكل ، ومَن آلَ الى فطنة وذكاء نفس علِمَ أن مشكلة ما أشكل لا لأن[4] الإلـهية في هذا المكان غريبة ، والبشَرية مشهورة ، والغريب مُتَجَنَّب ، والمشهور مستصحب . عزّت الأنبـاء ، وغرّت الأهواء ، وتبددت الآراء ، وغصّت الأرض والسماء ، وكل ذلك عند الحق سواء ، لأن الأنباء به عزت ، والأهواء بقوته غرَّت ، والآراء بهيبته تبددت ، والأرض والسماء بنوره غصت ، فلا خبر عنه ولا مخبر الا هو ، ولا مستخبَرَ ســــواه .

العجبَ العجبَ ! أين نحن ويلك وما هذا الذي قد نُوسوس به ؟ وما هذا الذي نتهالك عليه ؟ ان كان ايانا فلم نغفل عنه ، وان كان غيرنا فلم نشغل بالنا[5] ، وان لم يكن ذا وذا ، فما هذا الويل الذي غلبنا منه ؟

[٨٠/ أ] يا هذا : هو هو لا بانقسام الإشارة النفسية[6] ، ولكن هو هو بالتئام الإشارة العقلية . وليس أيضاً كذلك ولكن إلى ههنا انتهت المسالك ، أعني مسالك النفس النازعة نحو الأمور البارعة ، ومسالك العقل النيّر نحو الغاية [...][7] ، ومسالك الوهم السانح نحو المرام الأبعد ، ومسالك اللفظ المزخرف

---

١ – ر : فانه اما .
٢ – ر والمطبوعة : الدانية .
٣ – ر : لعبارها ؛ والعبارة : تفسير الحلم .
٤ – لا لأن : كذا في ر ، وليس هناك تمام للعبارة بعد ذلك .
٥ – ر والمطبوعة : بالنار . ٦ – ر : النفيسة .
٧ – سياق الجمل يفترض أن هنا كلمة ساقطة مثل « القصوى » .

نحو المطلوب الأشرف ، ومسالك الإرادة المتلظية نحو الخير المطلق ، ومسالك المُنْية المحلوم بها نحو الواحد الأحد .

يا هذا : إن ثَبَتَ عقلك في هذه المداحض ، ولاح لك في أثناء هذه المعارض ، فأنت المراد بأمر ليس دونه عارض ، ولا وراءه فارض ، وان تحلحل بوزن حبة خردل ،فاعلم أنك بعيد من مواصلة الأول ، بل بعيد من معرفة ما دون الأول .

يا هذا : عليك بطلب[1] الجنة حتى تعانقَ فيها الحور العين،وتُسقى بكأس من مَعين ، وتستخدم الوِلْدان المُخَلَّدين ؛ وعليك بالهرب من النار الموقدة التي لا طاقة بك عليها ، ولا نعمة لك معها . ودعنا حتى نرعى في وادي المحبة ، ونجتني ثمار المعرفة ، ونتبدّلَ بصَوْب الاتصال ، ونستريحَ من ضروب القيل والقال ، ونشهد مَنْ به أنارت الشمس ، ولعزّه خضع الجن والإنس ، ونُناجي من به غنينا عن خلقه ، واليه لجأنا بعد أداء حقه ، واياه عبدنا بيقين لا شوبَ فيه ، ونحوه قصدنا بإخلاص لا ريب فيه ، وعليه شققنا جيوبنا بوجد لا غبار عليه ، وفيه تولهنا ولهاً لا شبيه له . فإن كنت منا ، وفهمت لغتنا ، وتصرفت في ديواننا ، ونطقت بلساننا ، وكتبت بأقلامنا ، فلك ما لنا وعليك ما علينا . وان تكن الأخرى ، فاكفِنا مؤونتك ، فقد وهبنا لك كُلك وبعضك ، ووفرنا عليك أحمرك وأصفرك . فتمتع – كيف شئت – بأهلك وولدك ، وظُنَّ [٨٠/ب] ما شئت بمن خالفك وباينك ، فلست منّا ولسنا منك .

اللهم : ان القلم قـد تَعَرَّمَ[2] في نفث[3] قصتنا معك ، واللسان قد طغى[4]

---

١ – ر : بطالب .

٢ – تعرم : اشتط .

٣ – ر والمطبوعة : نعت .

٤ – ر والمطبوعة : طفىء .

في تشقيق اللفظ بذلك ، وفيض الوهم قد طفح على أصبار[1] القلب ، وأنت أول ذلك وآخره ، وخافيه ولائحه ، فاستر ذلك علينا حتى لا نُفْتَضَحَ على رؤوس الأشهاد الذين لا يعرفون نسبنا منك ، ولا يقفون على سببنا معك ، وصُنّا عندك في محل المصافاة ، وقِفْنا بآرائك موقف المناجاة ، وآثرنا وقدمنا ، وأدّبنا وقربنا ، والا فالطُفْ بنا وارحمنا . وقبل ذلك كله وبعده : أجّج خواطرنا بنار الذكر لك ، وعجّج ألسنتنا بنغمات تمجيدك ، ولا تفتّرنا عن الانتصاب بين يديك ، ولا تُذِقْنا مرارة البعد عن فِنائك ، ولا تَبْلُنا بالاستحسار[2] عن عبادتك ، وقيدنا بقيد محبتك ، وأطلقنا في رياض الوجد بك ، واذا عثَرْنا فقابلنا بالنعشة ، واذا سهونا فارْدُدْنا الى التذْكرة ، واذا بَغَيْناك فامدُدْنا بالتسديد ، واذا قصدناك فاعمُمْنا بالتأييد .

يا هذا : لو لم يَمُرَّ لك في جميع هذه الاجزاء الا ما في هذا لكفاك وأوفى على مرادك . فطالعه بقلب رقيقٍ ، واشرحه بلسان فتيق[3] ، وارتع منه في روض أنيق ، والسلام .

- ٢٧ -

اللهم : حقّقنا فيما نتصدّى مخبرين عنه ، وحققه فينا اذا حاولنا أن نستفيد منه ، وبينّا لنا حتى نستعدّ لخدمتك ، وأبِنّا منا حتى نصلح لمحبتك ، وأرِنا منك ما يستوفيك[4] في غوامض معرفتك . ومهما سبق من تقصير في ذكرك ،

---

١ – الاصبار : الجوانب .

٢ – الاستحسار : الاعياء والتعب .

٣ – فتيق : فصيح ؛ وفي ر : فثيق .

٤ – ر : نستوفيك .

ومصيرٍ الى أمرك ، وتشاكسٍ في الصبر على بوادي قدرتك ، فتغمده بسترك ، وامحُه بتجـــاوزك .

يا هذا : اذا دعوته بلسانك ، فجرِّد دُعاءَك بخالصة قلبك ؛ [...][1] ، فطهِّرْهُ من شِركك ؛ واذا وصفته بعلمك ، فنزِّهه عن جهلك ؛ واذا أخبرت عنه [٨١/أ] ببيانك، فَخَفْ مقته لك على بهتانك؛ وإذا توجهت اليه برجائك، فاستصحب مادةً قويةً من تسليمك . واعلم قبل كل شيء وبعده أن أحكام هذه القصة عجيبة ، وأعراضها غريبة ، وشرائطها وثيقة ، وملاحظها أنيقة ، ومراعيها مُحلَوْلية ، وآفاتها مستولية ، وعلى قدر الصبر على الشدائد والمكاره، يكون الظفر بالمطالب والمنازه .

ومن أحكامها العجيبة أنّ احسانك ربما استحال اساءة ، وتقرُّبك ربما عاد تباعداً . وتحت هذه الحال ضروب من المحنة ، وفنون من الفتنة ، أدناها تظن أنك مقبول وأنت مردود ، وتحسب أنك موصول وأنت مطرود .

ومنْ أعْراضها الغريبة أنه يراد منك السكون بالتعويض فتتحرك بالتعريض ، ويُرادُ منك الطمأنينة والدَّعة فتستهلك نفسَك بالاجتهاد والمشقة .

ومن شرائطها الوثيقة أنك لا تنفكُّ عن العبودية التي بها تصحّ نسبتك الى الربوبية ، ولا تستطيع أن تتنفس مرةً واحدةً على شيء من المملكة الا بإذن مَنْ أظهرك في المملكة .

ومن ملاحظها الأنيقة أنك لا تُسَرِّح طرفك فيما علا وسفل ، وفيما وضح وأشكل ، الا أصبت منه منظراً يَسبيك بالحيرة ، وعجباً ينتهبك بالغيظ والحسرة.

ومن مراعيها المحلولية : أنك لا تذوق شيئاً من هذه الحضرة ، ولا تسمع ولا تبْصِر ، ولا تشم ولا تلمس ، الا حال بينك وبينه حتى تنكر عينك : أيْ

---

١ – سياق العبارات يشير إلى سقوط عبارة هنا .

نَفْسك ، وأَيْنَك : أيْ مكانك ، وأَصلك : أيْ ما أنت منه ، وفصلَك : أيْ ما أنت اليه ، وحالَك : أيْ ما أنت به ، وحاصِلَك : أي ما أنت عليه .

ومن آفاتها المستولية : أنك ان بحثت لم يَزِدْكَ البحث الاّ عَمىً ، وان شربت لم يزدك الشرب الا ظما — وهذه وأمثالها وأمثال أمثالها الى أن ينقطع نَفَسُك لفظاً ، ويتقد فؤادك غيظاً : يُديرك ويدور بك ، ويسلط الوسواس عليك ، ويبدك فيك ، ويشتتك بك . ومن أجل هذه الصفات [٨١/ ب] اختلط العرفان بالإنكار ، وتشابه الإيراد والإصدار ، وارتدت الأنفاس في الصدور بحرارة كحرارة النار ، وتجامحت الحقائق بالإبطان والإظهار ، وصار — للعجب — النهار كالليل والليلُ كالنهار .

يا هذا ان صعَّبْتَ عليك الوصف فهو صعب ، وان سَهَّلْتَ فهو سهل . فأما صعوبته فلأنك غدور كفور ، وأما سهولته فلأن ربك غفور شكور . واذا كانت القصة على هذه الشاكلة المشكلة ، فكيف يكون حالك في حالك ؟ وكيف تكون فيما أنت به كائن ؟ وكيف تبين عما أنت به بائن ؟ اللهم غُفْراً : كاد الرجاءُ بكرمه يُغْري بمخالفته ، وكاد الخوف من غضبه يُقْنط من رحمته . وهذا مقامٌ ما وقف عليه أحد الا زلت قدماه ، وجُهل منه مأواه ، واعتاص[١] دونه منتهاه ، وذبلت دون الرِّيِّ به شفتاه .

يا هذا : السعيدُ من استطبَّ لسقمه ، وسَعَى في طلب عافيته[٢] ، وقام بالحق للحق على خطرات باله وهواجس نفسه ، وتلذذ بالفقر ، وتنعم بالاستكانة ، ووجد بالعدم ، وأدرك بالفوت ، وصحَّ بالمرض ، وحيي بالموت ، ورويَ بالعطش ، وانتبه في الدهش ، وجاد بالموجود ، واستقل بالمفقود ، وأنس بالوحشة ، واستوحش من الأنْس ، وقال وهو ساكت ، وسكت وهو قائل .

---

١ — ر : واغتاض .

٢ — ر والمطبوعة : عاقبته (والتاء غير معجمة في ر) .

وانما كان السعيد مَنْ هذا بعض حديثه ، لأنـه لبس الأعيان بحقائقها ، وَعَرِي من الأكوان وعلائقها ، وتطاول الى النجد الذي لا وصول لأحد اليه الا اذا جذب الحق بضبعه ، وتولاه بصنعه ، وكان هو الدافع عنه ، والرافع له ، والغائر عليه ، والناظر اليه ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ (المائدة : ٥٤) ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (التوبة : ٩١) .

وما أحسن ما هتف به بعض أصحابك حين سَمَتْ همته الى هذه الذرى ، تاركاً لجميع ما عليه الورى ، حيث يقول : الهنا ! ان ذكرناك أُنْسِيتنا ، وان أشرنا اليك أبعدتنا ، وان اعترفنا بك حَيَّرتنا [٨٢/ أ] وان جحدناك أحرقتنا ، وان توجهنا اليك أتعبتنا ، وان ولّينا عنك دعوتنا ، وان تركناك أزعجتنا ، وان توكلنا عليك أكلفتنا ، وان فكرنا فيك أضللتنا ، وان انتسبنا اليك نفيتنا ، وان أطعناك أبليتنا ، وان عصيناك عذبتنا ، وان انقبضنا عنك بسطتنا ، وان انبسطنا معك طردتنا . فالسوانح فيك لا تُمْلَك ، والغايات منك لا تُدْرَك ، والحنين اليك لا يَسْكُن ، والسلوُّ عنك لا يُمْكِن . فارْحَمْنا في بلوانا بك ، واعطف علينا في صبرنا معك ، والطُف بنا لانقطاعنا اليك ، وعاملنا بالكرم الذي أمرتنا باستعماله بين خلقك ، واصرِفْ عنا كلَّ صارف عن بابك ، وأجِل نواظرنا فيما بَرَز بقدرتك ، وخواطرنا فيما بَطَن من حكمتك ؛ واذا دعوناك فأجِبْنا ، واذا دعونا اليك فأعِنّا ، واذا استجرناك فأجِرْنا ، واذا أعطيتنا فهنئنا ، وإذا حرمتنا فصبِّرنا ، وإذا أذنت لنا فأَوْصِلنا ، وإذا أطمعتنا فصِلْنا ، وإذا كَدَدْتنا فأرحنا .

يا هذا : اذا كان من يفقد غيره يبكي فيعذر ويسمى ثاكلاً ، فما تقول فيمن فَقَدَ نفسه ؟ هذا والله أَحقُّ بالبكاء ، واذا بكى الاول دمعاً ، فالأوجب ان يبكي الثاني دماً . الرحيل قد أزف ، والشمس قد اصفرّت للغروب ، فما هذا السهو في اللعب ، وما هذه الغفلة والعطلة ؟ اما سمعت القائل يقول :

الدهر يصرع أهلــه سُوقــاً ويصرعهم ملوكـــا
والموت شيء قد نفت عنه حقائقُـــه الشكوكـــا
والبَغْي شرٌّ رواحل الـ دُنيا وأكثرُهـــا بُروكـــا

والله لو لم يكن ههنا واعظ ولا موقظ إلا الموت ، لكان الحزم في أخـذ العتاد له ، فكيف ومِنْ دونه أهوالٌ ، ومن ورائه أهوال ؟ وقد قال من قال :

نَعَى لك ظِلَّ الشبابِ المشيــبُ وناداك باسم سِواك الخُطوبُ[١]
فَكُنْ مُسْتَعِداً لِداعي المنونِ فكــلُّ الذي هو آتٍ قريبُ
[٨٢/ب]وقبلك داوى المريضَ الطبيب فعاش المريضُ ومــاتَ الطبيبُ
يخافُ على نَفْسِهِ من يتـــوبُ فكيف تَرَى حال من لا يَتوبُ؟

أما تراني يا هذا كيف أرددك بين هذه المحايل[٢] مدارياً لك ، ورافقاً بك ، وآخذاً بأطراف الشفقة معك ، لتفيءَ إلى حظك ، وتنقاد لِرُشْدك ، ونحن إلى نعيمٍ لا انقطاع له ، ورَوْح لا رَوْح له فوقه ، وربٌّ لا رب سواه ، وجنة عرضها السموات والأرض ، إن حُرِمْتَها حقَّتْ عليك كلمةُ العذاب . تارة أُزَهِّدك في هذه الزينة الخادعة، التي ما حَمَدَها مُؤْثِرُها ، ولا نَعِمَ الواصل إليها ، ولا نجا مِنْ كَرْبها مَنْ لاذ بظلها ودخل تحت كَلَّها ؛وتارة أُرغبِّك فيما عند الله من النعيم المقيم ، والرضوان العظيم ؛ وتارة أُحَبِّبُ إليك رَبَّك لتُسارِعَ إلى طاعته وتأوي إلى حظيرة أمنه ؛ وتارة أنقضك[٣] عليك حتى تعرفك[...][٤] فيكون نظرك عائداً إليها بثمرة إذا أكلتها حلَتْ لك،

---

١ – وردت الأبيات ما عدا الثاني منها في بهجة المجالس ١ : ٣٨٨ – ٣٨٩ منسوبة لأبي العتاهية ، ووردت في الأغاني ٢٢ : ٥٧ (دار الثقافـة) لأبي حفص الشطرنجي ، وانظر عيون الأخبار ٢ : ٣٢٧ والعقد ٣ : ١٨٠ .

٢ – كذا هو في ر ، ولعل الصواب : « الحمايل » .

٣ – الكلمة غير منقوطة في الأصل .

٤ – أقدر ان هنا كلمة ناقصة .

وإذا أسغتَـها نَعم بالُك ؛ وتارة أُعرِّفُك آفاتِ أعمالِكَ وعِلْمِك ،وضَرَرَ أحوالك ، وفسادَ أهلِ زمانك ، لتستيقظ فتدري أيْن قَدَمُك ، وكيف صمتك ، وفيماذا صَمْدُك ، وعلى ماذا قَصْدك ، وهل لك منه هِمّةٌ مشايعة ، ونَفْسٌ طائعة ، وإرادة تابعةَ ؛ وتارة أبسط رجاءك ، وأنشر أمَلَكَ ، وأفتقُ طَمَعَك ، وأُقرِّب مطلبك ، حتى تتطاول راغباً ولا تنقمع هارباً ،ويكونَ ذاك سبباً قوياً إلى انتعاشك من سَقْطتك ، وباباً مفتوحاً إلى مُنْيَتِك ؛ وتارة أُسلِّط الخوفَ عليك ، وأجلب عساكره إليك ، لأصرفك بذلك عن كثير مما أنت به ملتبس ، وفيه منغمس : فإن في الخوف قبضاً من المخوف ، كما أن في الرجاء بسطاً في المأمون ، وتارة أجمجم لك بالخطرات ، التي تفكهك بأسرار المحبة ، وتموِّج عليك بَحْرَ المعرفة ، وتُبْدي لك مَخيلة التوحيد ، وتريك الحق موجوداً ، وتحدث بينك وبينه عهداً معهوداً ؛ وتارة أجرِّد لك اللفظ من عِقال التعويص ، لترتقي من حضيض التعميم إلى قُلَّة التخصيص ؛ وتارة أمزجُه عليك لتفرق بين ظمائك وريّك ، وتقر على فرق ما بين بيانك [٨٣/ أ] وعِيّك ، وتطلب فائتك بما عندك من كيفك وأينك وأيّك ؛ وتارة أستوفيك حتى لا تبقى ، وتارة أُوَفّيك حتى لا تستبقى[١] .

فانظر إلى نظري لك ، وإلى رِفْقي بك ، وإلى فراغي لمصلحتك وقيامي بمنفعتك . واسمَعْ ما قال الآخر :

عيبُ ابن آدمُ ما علمتَ كثيرُ ... ومجيئه وذهابـــه تَغْريرُ[٢]
يا ساكنَ الدنيا ألَـمْ ترَ زهرةَ الـ ... ـدُنيا على الأيام كيف تصير ؟
نَلْ ما بدا لك أن تنال من الغنى ... إن أنت لم تقنع فأنت فـقير
يا جامعَ المالِ الكثيرِ لـغيره ... إنّ الصغير من العيوب[٣] كبير

---

١ – ر والمطبوعة : تستقى .
٢ – الأبيات لأبي العتاهية ، انظر ديوانه : ١٤٧ .
٣ – الديوان : الذنوب .

اللهم : لا تَستدرجنا بالقول عن العمل ، ولا تَفتِنّا باليأس بعد الأمل . اللهمّ : إن إلهيتك بحرٌ لا ساحل له ، وطَوْدٌ لا قُلَّة له ، وأُفقٌ لا غاية له . وهممنا قاصرة عن نعتها إلا إذا واصلتنا بالإلهام ، وعجزنا أظهرُ علينا من أن نطمع إلا بالإلمام أو شبيه بالإلمام .

اللهم : إنّا وصفنا إلهيتك ، وطوينا في الوصف عبوديتنا لك ، فنهاية حظنا من إلهيتك ، مع عجزنا الظاهر ، أن تلهمنا ذكرك ، وغاية نصيبنا من عبوديتنا لك أن تستخلصنا لنفسك .

اللهم : فافعل كلا الامرين بنا ، فإنك فوق ذلك عندنا ، وصُنْ أسرارنا معك عن أعدائنا فيك ، الحاتّين لورقنا من أجلك ، الهاتكين لأستارنا بسببك، الحاسدين لنا على ما أنطقتنا به من آثار نعمتك وغرائب حِكمتك ، المتنكّرين علينا من أجل خبرنا عنك وإشارتنا إليك .

اللهمّ : فاشغَلْهم عنا لنفرُغَ لك ، وفرِّغنا لك لنشتغل عنهم بك .

اللهم : ازمُمْنا عن مخالفتك ، واعصِمْنا بموافقتك ، وانظِمْنا على ابتغاء رِضْوانك ، والمُمْ شَعَثَنا بضروب إحسانك ، واختم أعمالَنا برحمتك وغُفْرانك ، وخوِّضنا في بحار العلم بك ، واكشف لنا عن سُبُحات وجهك، واستخلصنا لخدمتك ، وأهِّلنا لمؤانستك ، واستعمل جوارحنا في طاعتك ، واملأ جوانحنا من محبتك ، واجعل طريق معرفتنا بك [٨٣/ب] على السكون إليك ، وذوِّقنا حلاوة الثقة بكرمك ، وهيِّء مؤونتنا على توحيدك ، واقلبه[١] لنا حياةً عندك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣٨ -

أطال الله أيها الشيخ بقاءَك — ولا غبطةَ في البقاء — وأدام صفاءك —وكُلُّ العيش في الصفاء — وأيّدك في تناول الحق من معادنه ، وقدّم قدَمَك إلى ديار

---

١ - كذا في ر ، ولعلها : واكتبه .

الصدق ومساكنه ، وفَضَّلك بأفضل الفضل ، وأشرفَ بك على أشرف الشرف ، وأحسن إليك بأحسن الإحسان ، وأكرمك بأكرم الإكرام ، وأنعم عليك بأنعم الإنعام ، ونَصَبك قُدْوةً بين الأنام ، على تطاول الليالي والأيام ، ولاطفك في السر ملاطفة المُشْفق الرؤوف ، وعاطفك في الجهر[1] معاطفة المرفق العَطوف . وغمر صدرك بمعاني[2] القرب والأنس ، ورفع قدرك عن لواطخ الجن والإنس ، وعاد عليك بأقسام[3] التنزيه ، وأغار[4] فيك بأحكام التنبيه ، وكفاك مؤونة المؤونة بمعونة المعونة ، ولا جلب إليك محنته ، ولا قدر عليك فتنته ، وفعل بك ما هو أولى به منك بنفسك . نعم ، وحرس خصائص مواهبه عندك ، ولطائف منائحه قِبَلك ، وفككَ من قيد نفسك ، وسَلَبك مدانس بني جنسك ، ورقّاك عن مواطن الشُبَه[5] إلى مشاهد الحجة ، وطوقك بطوق البهاء ، وتَوّجك بتاج العلاء ، وأعطاك عنك ، وأفناك منك ، وأقبل بك إليه ، وهجم بكلك عليه ، وأشهدك أسرارَ الخلق ، وآنسك بمواد الحق ، وحط عنك ثِقلَ الوَسْواس فيه ، وجذب دُونك منادي[6] الهواجس عليه ، وجعلك تسكت معتبراً ، وتقول صادقاً ، وتفعل مصيباً ، وتعتقد واجباً ، وتهتدي طوعاً ، وتحتوي نفعاً ، وتسامُ مطاقا ، وتُكَلَّف مُستطاعاً ، وتُؤمَّن خائفاً ، وتخوَّف آمناً ، وتُرَغَّب زاهداً ، وتُزَهَّد راغباً . فإذا فعل ذلك بك ، فلا أمتعك اللهُ بغيره ، ولا ألجأك إلى سواه ، ولا أحسن إليه[7] إلا لك ، ولا سَلّط عليك بُعده ، ولا أذاقك صَدّه . ولا أزلَّ بك القَدَم ، ولا استثبر[8]

---

١ – ر : الحمد .

٢ – ر : بمغاني .

٣ – كذا ولعلها : : بأنسام .

٤ – كذا ، ولعلها : وأعاد .

٥ – ر والمطبوعة : التنبيه .

٦ – ر والمطبوعة : مبادي .

٧ – يبدو أن لفظة « اليه » مقحمة هنا .

٨ – استثبرها : جعلها تثبر ، أي تمتنع وتتثاقل ؛ وفي ر يمكن أن تقرأ استثبر أو استتبب .

لك الهمم . فإذا فعل ذلك بك ، فأخرس [٨٤ / أ] الله لساني وأنفذ أسْرَ خاطري منه ، وكفاني هُمومَ طَلَبه بوِجْدانه ، وخوف فراقه بطغيانه ، وجعلني ناطقاً بالسكوت عنه ، وساكتاً بالحيرة فيه ، ومتحيراً بالتسليم ، ومسلماً بالالتجاء إليه ، وملتجئاً بالاعتماد عليه ، وبلَّغني القرارَ الذي لا يشوبه اضطراب ، والغايةَ التي لا يحدها بعادٌ ولا اقتراب ، والنهاية التي لا يتحكم فيها خطأ ولا صواب .

حرَسك الله : لولا رقيب من رقباء هيبتك ، ونقيب من نقباء سطوتك يحرسان نَفْسي ويحبسان نَفَسي ، لأطلقتُ في الدعاء لك والثناء عليك عِناناً وعنانا ، وأبديت في النزاع نحوك شاناً وشانا ؛ ولكن التصافي الذي انتسج بيننا ، والتوافي الذي انتهج عندنا ، يقضي عليه ولا يقتضيه ، وينحو شَطْــره ولا يستدعيه . فالحمد لله الذي أولاني منك ما لا ينال إلا بتوفيقه ، ولا يصاب إلا بتيسيره ، حَمْدَ مَنْ عداه[1] عجزُه عن شكره بالانقياد لأمره ، والاستبسال[2] في يده ، والثقة بوعده . وصلى الله الواحد الحق على العارف المحض .

وسآخذ في حديثي وما يختص بشأني وينتمي إليه أمري ، وأعلمك أني في حساب لا ينتهي ، وعتاب لا ينقضي ، لأني ألوح كالبرق المنتشر فلا أضيء ولا أستضيء ، [و] أتوارى في الظلام كالمستتر فلا أغْنَى ولا أغْني . وقد عرفتُ آفتي ووقفتُ على علّتي ، وفَطِنْتُ لمحنتي ، وهي أشياء : فأعلاها وأعداها الكون لأنه محطّ البلاء ، ومَغَارُ الحِدْثان ، ومَجْلَب[3] الصروف ، وفُرْضَة الغير ، وعُمَق[4] الكدر[5] ، وأول الغيظ وثاني الانكار وثالث المحو

---

١ – ر والمطبوعة : علاه .

٢ – لعلها من البسل : بمعنى الحبس والا رتهان ؛ والا فاقرأ « والاستبسار » .

٣ – كذا ولعل صوابها : ومحلة ، وهي في الأصل بالحاء المهملة .

٤ – العمق : الفج والوادي .

٥ – ر والمطبوعة : الكد .

فأما ما أدناها وأوباها فطلبي للمحال، وتعللي بالفاني . والخداعي بالعارض، وإعراضي عن النفيس ، وندائي على نفسي باسم التمام وأنا عين النقصان ،وجرأتي على الدعوى بفقد البرهان، وتشدّدي في القول مع ضعفي.وتقصيري في الفعل، وإطالتي الهذيان على غير وزن ولاتحبير. فإذا أنصفت فأنا الضائع المضيع . والخامل المجهول ، والصَّلف الذليل . والطالب المبتلى . والوارد المحلاّ[1] . والعاجز المتقاوي . والمُتَرَدِّي المتعالي. والألكن المهذار. والمتوهم المُعَنّى. والحادي بلا بعير[2] . والمتملك بلا فتيل [٨٤ / ب] ولا نقير. كِبْرٌ قد سَدَّ طُرُقي ، وعُجْبٌ أتى على جُلّ أمْري . وعِلْمٌ قد صار وبالاً عليّ ، وحِرْمانٌ كأنه حليفي أو حَرِيفي . ومراد قد جاء في التولّي عني ورسخ مثاله في صدري . وحقيقة هَمَّت[3] وما فعلت . ولاحت وما ثبتت ،وأبرقت وما سكبت . وحَقٌ لا يُبقي عليّ ولا يَذَر . وخَلْقٌ لا يشاكلني ولايَقْرُب مني . ومجموع ذلك كله في حروف أقولها : قد تعلق كُلّي بواقع لا رجوع لغايته ، ومُتَوَقع لا يقين في لحاقه . وحاضرٍ قد اتكأ عليّ بأرواقه[4] ، وأخذ بالمخنَّق مني في وَثاقه ، وحظر على العقل تفتيشه ، وعلى اللسان تكشيفه .والبلاء أجمع من باب أنا أفتحه . وإن كان مقفلا . وألجه وإن كان شديداً معضلاً، وأقرّ الروح[5] به ، وأشجِّع نفسي بسببه .

أُعْلِمك — منحك الله السول ودَرْكَ المأمول — أن الجملة المأخوذة علينا ، المسوقة[6] بالعقل والشرع إلينا : الوقوفُ على المقاصد بحقائقها من غير ريب يقدح ، ولا شبهة تسنح . وقد سَلِمَتْ هذه الجملةُ في البديهة واستمرّت ،

---

١ – المحلا (مخففة المحلأ) : المذود عن الورد ؛ وفي ر : المخلا .

٢ – انظر مجمع الامثال للميداني ٢ : ٥٩ والعسكري ٢ : ١٤٧ وفصل المقال : ٣٠٣ .

٣ – ر والمطبوعة : ضمت .

٤ – الروق : القرن من كل ذي قرن ، والجمع أرواق .

٥ – ر والمطبوعة وافسره واروح ؛ ولعل اللفظة الأولى أن تقرأ « وأقسر » .

٦ – ر والمطبوعة : المشوقة .

لكنها قلقت في الرويّة واقشعرت ، لأن البديهة تشبثتْ بحكم القول والتسليم للفطرة الحانّة[1] إليــه ، والعادة النامّة[2] إليــه ، والكمال المرجو منه، والاحتياط الحاكم به . وأما الروية فانما وقفت على محل البحث وطريق الفحص وباب التحكم ، ونقضت سوانح[3] التقليد ، ولم تقنع في القصة إلا بأشد التوكيد، لأن مادّتها عقل موثوق برأيه ، ومحكوم بشرفه ، وجميلُ الأولى والعقبى منتظر من جهته . ولكن وقع التدافع والتصابع[4] لعِلَل أخرى ، وهي اختلاف القوى ، وشتات الهِمَم ، وتبايُن الأحوال ، ونزوح المقاصد ، والتياث المراد، ونفي الرسم والاعتبار .

هيهات هيهات ، لن يصفو العمل حتّى يصح العلم ، ولن يصدق الخبر حتّى يتحقق العِيان ، ولن تفيض الحكمة حتّى تطول التجربة ، ولن يحمد الذكاء حتّى يسلم الطبع ، ولن يُجْدي القولُ حتّى يتصل الفعل ، ولن يعتبد[5] الحرّ حتّى يُزال عنه الضُرُّ ، ولن يُملكَ الإنسان حتّى يُغْمَر بالإحسان ، ولن يتحلى بالخير حتّى يتعرّى من الشر ، ولن توجد القناعة حتّى يُعدم الحرص ، ولن يُؤلَف الكمال [٨٥/ أ] حتّى يُرْفضَ النقص ، ولن يُعرف حُلْوُ السعادة حتّى يذاق مُرُّ النّحْس ، ولن يُهتدى إلى المعروف حتّى يُضلَّ عن المُنكر ، ولن يُعرف الحق حتّى يُتَبَرّأ من جميع الخلق ، ولن تَسْكُن حُرَق الحرمان حتّى يُتمكّن من بَرْد الوجدان ، ولن تنقطع سلسلة الهذيان ، حتّى يُدْرك الثأرُ من الزمان . وهذا حديث لا يكون ولا كان .

أطلتُ — [أطال][6] الله طِوَلَك — مِن غير طائل ، لأني لم أصف من

---

١ – لعلها أن تقرأ : « الحانة » .

٢ – ر : التامة ؛ المطبوعة : النامية ، ولعلها « المائة » .

٣ – ر : سوالح ؛ المطبوعة : سوالغ .

٤ – صبع به وعليه يصبع صبعاً : أشار نحوه باصبعه واغتابه او اراده بشر ، والآخر غافل لا يشعر .

٥ – غير منقوطة في الأصل .

٦ – زيادة لازمة .

حالي مراسمها . ولا من قصيّ مَقاسِمَها . وسحبتُ القول على مساحب الثقة ، ومناكب المِقة . من غير مغالاة بسره . ولا مبالاة بشَرِّه . وفي الجملة قد استندت إلى الحسنى منتظراً لحميد العُقْبى . دائراً مع الأخف الأسهل . ثابتاً في كنف التزهّد وضمان الحمالة[1] ، مستشعراً من طوارق الحِدْثان راحة وأمنَةً ، نائياً عن مواقف الخِزْي والإذلال . قانعاً بالمستيسر من الحال ، عالماً بما قال الحكيم بعد الحكيم . أفمن يتقبل هذا معرفةً . ويشتمل عليه يقيناً ، كيف يجرُّ على الحشناء نفسه ؟ أم كيف يملّكُ اللئامَ عِرضه ؟ أم كيف يسوق إليهم رجاءه ، ويصوغ لهم مدحه وثناءه ؟ وهذا خُلْفٌ من العمل ، وعَكْس من الرأي . وإيثار للجهل . ورجوع إلى الأخسّ . لا يختاره عاقل . ولا يرضى به فاضل .

وأنا على التغافل عن ذكر شوقي إليك . وحنيني نحوك . لعلمي بأن ذلك لا يُمليه خاطري . ولا يجيزه[2] لساني . ولا يرسمه قلمي . ولا يقلّه[3] كتابي . ولا عجب . فإنه ميراث أُنْس . ووليد مَوَدَّة ، أنشأهما فضل قد وَحّدك الله به . وجميلٌ قد جعلَك من أخصّ أهله ، ولا زالت المحاسن تحبو إليك ، والفضائل تزدحمُ عليك ، والقلوب تَحِنُّ نحوك ، والآمال تنعقد بك ، ولا زلتُ لحقّك مراعياً جَهْدي وطاقتي ، وإلى مُرادك مسارعاً قوتي واستطاعتي ؛ ولا حرمت منك مادة تحفظ مهجتي ، وتحوط بغيتي ، لأفوز مستمعتاً بذكرك ، مسرعاً إلى أمرك ، متشرّفاً بصنوف[4] ما يرد من جهتك ، متشوّقاً إلى ما يصدر عن وجهتك ، عليك طيّبُ سلام الله ورَوْحُ تحيته ، ما اعتلج خاطر ، واختلج ناظر[5] .

---

١ – التزهد ... الحمالة : قراءة تقديرية .
٢ – في ر : محبره ، دون اعجام .
٣ – ر : : نقله .
٤ – ر : بالصنوف .
٥ – ر : خاطر ناظر ؛ وهو سهو .

اللهم قُدْنا بعزيمة الراجعين إلى بابك ، وبَيِّضْ وجوهنا عند مناجاتك ، واغمُرْنا بمواد مواهبك ومنحك ، وآونا الى كَنَف أمْنك بالأمن منك ، وأمْطِر علينا سحائبَ جُودك وعطفك ، ووفّقْنا لأقصدِ السُّبُل اليك ، وخفِّف علينا في كل الأمور التوكل عليك ، وسهِّلْ علينا طلاب ما أعددته لأوليائك لديك ، واسلبنا منا ، وشرِّدنا عنا ، وخُذْ لنا ، وبقِّنا علينا ، ولا توالِنا بالنعم استدراجاً ، ولا تُمْهلنا بالتطاول احتجاجاً ، ولا تؤاخذنا بياتاً ، وارحمنا إذا صِرْنا عظاماً ورُفاتاً ، وجُدْ علينا بكَرَمك إذا صدر الناس أشتاتاً . إليك وكَلْنا كُلّنا ، وعليك طَرَحنا كَلّنا . يا من هو أرحمُ بنا منا ، وأنظَر لنا من أنفسنا ، وألطَف بنا من آبائنا وأمهاتنا : امْحُ عنا صفاتنا باستيلائك ، ثم خلّنا علينا فيك بولائك[1] .

يا هذا : اسمع لغة أخ ى على وجه التعريض ، مترجمة ببيان منسوب إلى التلخيص ، وتَصَرَّفْ فيها بين مُبْهَم يحارُ لبُّك منه حتى تبقى مدهوشاً ، وبين واضح يُعِزُّ نفسك حتى تَرْقى مَنْعُوشا .

يا هذا : إذا ذكرته فاذكره واجداً به ؛ إذا وجدته فجدْه ذاكراً له . على أن الذكر وجدٌ أيضاً ، ولكن من ناحية العبادة ، والوجد ذكر أيضاً ، ولكن من ناحيــة الاستفادة . والوجد مُسْتَغْرِق للصفات كلها بالمحــو ، والذكر مُسْتَفْرِش[2] للسِّمات كلها بالزَّهو . فإذا اصطرع الذكر والوجد كانت الغلبةُ للوجد ، لأن الذاكر قد يذكر وهو غير واجد ، والواجد لا يجد إلا وهو ذاكر . على أن هذا الذكر ليس من مراسم اللسان ، ولا من

---

١ – من أول الرسالة حتى هذا الموضع قد ورد من قبل على الورقة (٥٠/ب) ؛ انظر ما سبق ص : ١١٥ .

٢ – كذا هو ، ولعل الصواب : مستعرش ، أي يظلها كالعريش .

مناسم الفكر . ولكنه أوّل من المذكور ، وثانٍ من الذاكر . فأما الوجد فيرتفع عن تحديده بنظم لفظ . وترتيب حرف ، لأنه صوت من حضرة الحق بعيان[١] روحاني ، ومباشرة ربانية . وإذا وافى توفّى ليستوفي . وإذا استوفى فقد علا على المراد وأوفى .

يا هذا : وما وصفي لك الذِكْرَ بغرائبه . والوَجْد بغوالبه ، وما يدور عليهما بجوالبه وجواذبه ؟ وأنت إلى أن تذوق حلاوة ركوعك وسجودك ، بصدق النية . وطهارة الطوية . أحوجُ ، وبما عاد [٨٦/أ] عليك من ذلك أبهى وأبهج . ولكن ما أصنع ؟ لعل وصفي استراقٌ لي واعتياقٌ منّي عما هو أخص بي وأجدى عليّ . وإذا كان تدبيري إلى غيري . فسيئتي وحسنتي تشتركان في الحدوث . وتعتزيان إلى المشيئة . وإن كانتا تفترقان في الاسم . وتتباينان بالنعت . فيا عجباً من فَكٍّ هو أسْر . ومن أسْر هو فَكٌّ . ومن تخليةٍ هي حصْر . ومن حَصْر هو تخلية . فإن نَبَسْتَ بكاف أو ميم ، أو بحاء أو بجيم ، فُدِمَ فوك ، بل فُضّ . وردم كلك بل رُضّ . فلا جرم لا إشارة ولا عبارة ، إلا على وجه الاستعارة والإعارة . والله المستعان .

- ٣٠ -

اللهم : إنّا لا نصلح بوجه حتى تصلحنا . ولا ننجو حتى تنجينا ، ولا ننال ما نتمناه إلا بعد أن تُقَرِّبه إلينا ، وتهيّئه لنا وتؤهلنا . فافعل ذلك ، اللهم . فإنه لا يكبُر عليك شيء . ولا يضلّ عنك شيء . ومهما كان منك فلايكونن المقت والإعراض . فإنْ ذلك شقاء الأبد وشماتة الأعداء .

اللهم : إنّا قد عادَيْنا الجاهلين بك فوالِنا لمعاداتنا لهم فيك ، وَصَدَّقنا

١ – ر : بغسيان ؛ المطبوعة : بغشيان .

المخبرين عنك فاجزنا[1] على ذلك بفضلك ، وبيّض وجوهنا بالنظر إلى وجهك ، وحيّنا برضوانك إنك أهلُ ذلك .

اللهمّ : هذه أشعارنا وأبشارنا[2] تبيت معترفة بأنك إلهنا وخالقنا ، وكافلنا ورازقنا ، ووَليّنا وهادينا ، وناصِرُنا وكافينا . ليس لنا ربٌّ سواك ، ولا إله غيرك . فبهذه المعرفة الثانية وبهذه المسئلة الثانية إلا رؤفت[3] بنا ، وعطفت علينا ، وحُلتَ بك بيننا وبيننا ، حتّى نكون لك بلا أنفس أمّارة بالسوء ، ولا مُسوِّلة بالهوى ، ولا خوّانة في الطاعة .

يا هذا : اعتاصت والله الغاية على الغاية ، وانتهت النهاية إلى النهاية ، وأدرجت الآية في الآية . فلهذا ما صار الذواء داءً ، والأسْو جراحاً ، والعطاء سَلْباً ، والبلاغة عِياً ، والرّشاد غيّاً ، والنّشْر طياً ، والقَبُول ردّاً ، والوِصال صدّاً ، والتمام نُقْصاناً ، والرجحان وَكْساً ، والتوجه استدباراً ، والتبسم استعباراً ، والربح خُسْراناً ، والزيادة نُقصاناً[4] ، والرّضى سُخْطاً ، والأمر فُرُطاً[5] ، والمستقيم محالاً ، والثابت مزالاً ، والطاعة ذنباً ، والإجابة قَلْباً . وعلى هذا إلى أن ينفد القول ، ويضمحل [٨٦ / ب] الاسم ، ويبيد الفعل ، وينحرف الحرف ، ويُنسى التأليف ، ويطوى الضم ، وينشر النشر ، وتفنى العبارة ، وتزول الإشارة ، وإلى أن يقال للقائل : قل فلا يقول ، ويقال للسامع : اسمع فلا يسمع ، ويقال للمتحرك : اسكُنْ فلا يترمرم[6] ، ويقال للساكن : تحركْ فلا يتهمهم .

---

١ – ر والمطبوعة : فاخبرنا .

٢ – الأشعار : جمع شعر ؛ والأبشار : الجلود .

٣ – رؤف : مثلثة العين .

٤ – أورد « نقصاناً » من قبل في قوله « والتمام نقصاناً » . ولعل الأرجح – لهذا – « والتمام نقصا » .

٥ – من قوله تعالى « وكان أمره فرطاً » (الكهف : ٢٨) .

٦ – لا يترمرم : لا يتحرك .

يا هذا : دع أيضاً هذا . وتعالَ حتى نتعلّل كيفما خَيَّلَتْ . فكل حيّ مُعَلّل[1] ، وكُلُّ كثيرٍ مُقَلّل . وكل عزيز مُذَلّل . طَيِّبْ بيتك الذي أنت ساكنه حتى تنعمَ بالحقِّ مُدِلاً . ولا يجاورنّك فيه من لا تأمنُ غيلته حتى تسلم على الخلق مُجِلاً . ومهما سهوتَ عن شيء فلا تَسْهُ عنك . فإنك إنما تَعْرُفُك بأن تسألَ عنك وأنت المسؤول والسائل . هكذا رتّبك الملك ، وبهذا أرادك المريد ، وإلى هذا دعاك الداعي . إلا أنك في أحد طرفي السؤال والإجابة عبد ذليل . وفي الآخر ربٌّ جليل . فافطن لما فيك بما بك ، واحرُسْ ما بك[2] بما لك ، وغَرْ على ما لَكَ بما معك . واصفُ بما معك لما عندك ، وأضِفْ ما عندك إلى ما عند من هو عندك . واطّلعْ على الفضاء الذي بين «ما» و «من» ، ثم اخلُصْ إلى الغاية القصوى منهما بشيراً ونذيراً ، شاكراً وعذيراً .

على أني بَعيدُ الطمع من رَشادك لانهماكك في غَيِّك وفسادك ، وشدة غُلَوائك في أخذ عُدَّتك وعَتادك ، وإصلاح زادك في يومك لمعادك . وإنما بَعُدَ طمعي لأني أجدك مستهاماً بظاهر الحياة الدنيا ، مستهيناً بباطن ما أنت صائر إليه بعد هذا الذي ترى . وكيف لا أكونُ بعيدَ الطمع ، سيءَ الرجاء ، كليلَ الأمل ، وليس على وجهك سَحْناء[3] الزاهدين ، وعلى شمائلك سكون المُخْبِتين ، ولا على أطرافك خُشوعُ العابدين ، ولا في حركاتك هَدْيُ الصادقين ، ولا في كلماتك صدق المهتدين ، ولا في لحظاتك حلاوة المُشاهِدين ، ولا في أوقاتك ما يَدُلُّ على أنك من المستيقظين ، ولا في معاملتك ما يشهد بسلامة المُعاملين ؟ ظاهرُك أعيث[4] من باطنك ، وباطنُك

---

١ – ناظر إلى قول الشاعر :

ألا علّلاني كل حي معلـــل ولا تعداني الخير والشر مقبل

٢ – ر : بابك .

٣ – السحناء : اللون والهيئة .

٤ – أعيث : اكثر فساداً وخراباً .

أخبثُ من ظاهرك ، وإشارتك أنْكَدُ من عبارتك ، وعبارتك أفسد من إشارتك ، وكُلُّك مستغيثٌ من [٨٧/ أ] بعضك ، وبعضُكَ هاربٌ من كُلِّك ، ولَيْلُك يضجُّ من نهارك ، ونهارك يبرأ إلى الله من ليلك .

ثم إنك بعد هذا كله بصفاقة وجهك وبذاءة لسانك ، وقبحك في سخف عبادتك ، تدّعي منازل الصادقين ، وتبحث عن ضمائر النبيين ، وتسأل عن أسرار الملائكة المُقَرَّبين ، وتُهَجِّن مراتبَ المختصين ، وتعترض على أفعال رب العالمين ، كأنك شريك له في خلق الخلائق أجمعين . سَوْأَةً لك ، وبراءةً منك ، والويلُ لِمَنْ أجرَّكَ رَسَنَك من قُرنائك :

أما تستحيي ممن خلقك فسوّاك ، وأرشدك فهداك ، وتممك وقوّاك ، وأعطاك وهنّاك ، ثم وعدك ومنّاك ، ثم خصّك واجتباك ، ثم علاّك وحلاّك ، ثم رفأك[1] وحيّاك ، ثم ملّككَ وولاّك ، ثم أحضرك وآواك ، ثم استخلصك وتولاّك ؟ فأيَّ أياديه قد شكرت ؟ وأيَّ آلائه قد نشرت ؛ أم أيَّ إحسانه ذكرت ؟ هيهات هيهات ، إنك لفي ضلالك القديم ، وخبالك العظيم .

بالله أيها السامع ، لا يروعنّك ما أصفك به مُهَجِّناً لك ، وخافضاً من قدرك ، وقادحاً في عرضك ، وغامزاً من قناتك[2] . فوحقِّ الحق الذي به حَقَّ كُلُّ حَقٍّ ، وبه استحقَّ ما استحقَّ كُلُّ مُحِقٍّ : إن مُكَلِّمك لشرٌّ منك كثيراً ، وأقدم منك في الضلال بعيداً ، وما ينطق بما تسمع إلاّ ليكون ذاك حجة عليه [و] وَبالاً بين يديه . ولولا أن ذاك كذلك ، لكان له في استماعه من نفسه شاغلٌ عن استماعه لغيره ، وهي محنةٌ كما ترى ، وبلاء كما تسمع . فهلم فاندُبْه ، وإن كان حياً في الظاهر ، فإنه ميت في الباطن ، وعدِّد مخازيه

---

١ – رفأه : دعا له بالبركة والنماء .

٢ – ر : وغامراً في قتابك ؛ وفي المطبوعة : وغامراً في فنائك .

فإنها بادية ، وقل فيه ، فإن فيه مُتَسعاً للمقال ، واجعلْ إشرافَكَ على تقصيره وإصراره وجهله بمقداره سُلّماً لنفسك ، وباباً إلى طلب السلامة من جميع بني جنسك . فإنّ واعظك إذا كان بهذه الحالة المُخْزية ، وعلى هذه المرتبة الهابطة ، فكيف حالُ من هو متمادٍ في غروره ، متهالِكٌ [٨٧/ ب] في شروره ؟ عنده أن الحزم كله في معاطاة الكأس بعد الكأس ، وشرب الخمر بعد الخمر ، ونيل الشهوة بعد الشهوة ، وبلوغ اللذة بعد اللذة ، ولو بخَرْق الدين ، ولو بمفارقة المسلمين ، ولو بترك الحياء بين جميع المُبْصرين والسامعين ، ولو على رؤوس الأشهاد من الصالحين والطالحين . هذا والله الضلالُ البعيد والخُسران المبين .

أيها السامع : قد قلتُ ما تسمع واعظاً لك بالنصيحة ، وناصحاً لك بالموعظة ، وعاطفاً على نفسي بفضل القول لك وفيك . فإن كنتَ وجدتَ بَرْدَ ذلك في صدرك ، وثَلَجاً ببعض اليقين من نفسك ، فاتخذني صاحباً لك ، لعلي أجد بذلك شيئاً مما وجدته ، ولعلي أنال به ذَرْواً مما نلته ، فإن أيادي الله مختلفة المصادر والموارد ، ومتباينة المبادي والعوائد ، وليس بضائرٍ أن يُسْعدني الله بك لقَبولك مني كما أسعدك بقبول ما نجح فيك من قولي . ولعلي قلتُ ما قلتُ مزخرفاً ، وقبلتَ ما قبلتَ مخلصاً . فرحمك الله بي آخذاً بيدك ، ثم رحمني محسناً إليّ . إنما يحب أن يرفع الله درجتك على واعظك ، لحُسْن تقبلك ، ثم يجعلك مشفّعاً في واعظك . إن ذلك لشرفٌ بيّن ، وكرامةٌ عالية ، ومنزلة ما مثلها منزلة .

فالبِدارَ — أكرمك الله — البدارَ ، إلى منازل الطاهرين الأبرار ، المخصوصين بالحق في السِّرار والجهار ، الصابرين للحق عند اختلاف الأحوال في الاضطرار والاختيار ، والمَحابّ والمَسَارّ .

أيها الصاحب المدلُّ بالملَح والمؤانسة ، الباعث على المباراة والمنافسة ، القائم بشروط الوفاء ، المتجلّي بحقائق الصفاء ، الناظر إلى الدنيا بعين اللفاء[1] والعفاء، في زمان قد أفل فيه نجمُ الحقّ ، واجتُثَّ أصلُ الخير ، وغار ماء الإيمان ، وانمحى رسم الدين ، وتناسى فيه أهلُه العُرْف ، وتلاقوا بينهم بالنُّكْر ، وسقط التعبير على التقصير [٨٨/ أ] وبَطل التشمير بالتعذير : اسمع هينمةَ نفسٍ قد طال نزاعها إلى وطن عنه صدرت آمنة مطمئنة ، ثم انقطعت دونه خائفةً مرجحنّة ، بألوان العجائب التي تقلّبت فيها ، وتلبست بها ، وارتكضت عليها ، وتنكّرَتْ لها ، حتى ضلت عن عَيْبها ، وغَرقَتْ في رَيبها ، وباءت بسخط الله : شَرَّفَها بالأمر والنهي فخالفت ، وعرّضَها للنعيم المقيم فأبت وأنِفَت . لا جرَمَ الآن قد انتبهت لحظِّها الذي حُرِمَتْ ، ووقفت على جنايتها التي تقدَّمَتْ . فها هي دَهْرَها تسكبُ الدموعَ على فائتٍ ليس له رجوع ، وتتقطع حسراتٍ على هناتٍ كانت منها وهنات . فهِجّيراها في ليلها ونهارها قولها : إلهي ، بك أعتصمُ مني ، وإليك أفرّ عني ، وإياك ألحظ بكُلّي وبعضي ، وإليك أدين بتطوعي وفَرْضي ، وعليك أُقْبِل بوجهي وعندك أهدأ بحقيقتي ، وأنت أحق بي منك ، وأملَكُ لي ، لأنك أوْلى وأحرى بالخلق .

...[2] وباطني وظاهري بالتصريف والتهيئة ، وحُلمي وانتباهي بالعقيدة والطّويّة ، وفكري وذكري بالمعرفة والتصفية ، ووجدي في وجدي بالحقيقة في الحقيقة ، ورَوحي في رُوحي عند الغاية المصدوقة ، ومَرامي في مرامي على الجَرْح والتزكية ، ومُرادي بخالص القصد والنيّة ، ومنتهى غياري[3]

---

١ – اللفاء : التراب ، يقال: عليه العفاء واللفاء . وفي ر والمطبوعة : اللقاء .

٢ – لم يترك الناسخ بياضاً هنا ، ولكن انقطاع النص وابتداءه في وسط العبارة يدعو الى ان نفترض سقوط بعض الكلمات قبله .

٣ – ر : عباري ؛ والغيار : الغيرة .

وإيثاري بصادق البديهة والروية . فلا تصريح لي فيك إلا هو تعريض انبساطاً معك ، ولا تعريضَ لي إلا وهو تصريح غَيْرَةً عليك ، ولا إطناب لي في نعت إلهيتك إلا لتشيع عني ما وجدته بك ، ولا ايجاز[1] لي في وصف شأنك إلا لتغلب صبابتي في كلٍّ ما يكون خبراً عنك ، أو تَبْساً بالإيماء إليك ، وهَمْساً في الظن بك . أنت علم[2] الكون ، ومالك الدهر ، ومُصَرِّف الكل ، ومُقَلِّب الكل ، ومبدي الدِّق والجُل ؛ بل أنت الموجود في كل شيء لا كما يوجد ما دام بك وافتقر إليك ، ولكن كما توجد أنت ، وليس واجدك سواك ، ولكن سواك واجد بك [وواجدٌ لك][3] وواجد منك . فأما واجد بك ، فلأنه وجد عينه بك ؛ وأما واجدٌ لك ، فلأنه وجد وجده من أجلك ؛ وأما واجد منك ، فلأنه وجد ما به وجد ما وجد من جهتك ؛ فأنت المحيط وأنت المشتمل [٨٨/ب] إلا أن إحاطتك بالقـدرة واشتمالك بالمعونة ، وكلُّ ما لخلقك بالمجاز ، فلك بالحقيقة ؛ وكلُّ ما لسواك بالأثر ، فلك بالعين ، والإشارة التي هي إليك ، هي منك ، والذاكر الذي هو لك ، هو بك ، والوجد الذي هو منك ، هو بك ، والوجد الذي هو بك ، هو منك . ولم تختلف هذه الحروف إلا لحاجة الخلق إليها في النكور ، وإلا فالمعنى واحد مؤتلف متفق لا يُرَنِّق[4] عليه لبسٌ ، ولا يمر به جن ولا أنس ، ولا يبتذله طرف ، ولا يؤثر فيه صرف ، ولا يوضحه اسم[5] ولا فعل ولا حرف .

أيها السامع هذه الغرائب : جَهْدُ الجاهد في معرفته نكرة ، وبلوغ الغاية في وَصفه حيرة ، وفي الإعراض عنه بوارٌ وتلف ، وفي التعرض له عناءٌ

---

١ – ر : ايجاب .

٢ – الكلمة مضطربة الرسم في الاصل .

٣ – زيادة ضرورية .

٤ – يرنق : يرفرف ؛ وقد تكون « يرين » .

٥ – رسمها غير دقيق في ر .

وكَلَف ، وفي التذبذب بين الإعراض والتعرض أسى وأسفٌ ، وهلاك وتلف . فواعجباً مني :

صرتُ كأني ذبالةٌ نُصِبَتْ تضيء للناس وهي تحترق[1]

يا هذا : لو غفَل الرقيب قليلاً لاستمتع الطرف باللحظ ؛ ولو بَرَد الغليلُ قليلاً لانتفع القلب بالوعظ ؛ ولو سكن لهب الشوق لسلك الطريق إلى الحبيب ، لأن الشوق إذا استوعب المشتاق حَصَرَه عن قصد مَنْ إليه طال الاشتياق . على أن السُّلُو معترِض ، واليأسَ متحكِّم ، والصدر خافق ، والعجز حاصل ، والمُنى خطر ، والقول فصل ، والنصب عذل ، والبال كاسف[2] ، وَالمَحَلّ حَرِج ، والعادة مُسَلَّطة ، والقرين خاذل ، والطريق وَعْر ، والزاد نَزْر ، والعهد منكوث ، والسير محثوث ، والمانع مبثوث ، والرائد كذوب[3] ، والمحرك خلوب[4] ، والأنفُ راغمٌ ، والهوى مستولٍ ، والظاهر مُعَلّل ، والباطن مُخَبّل ، والقائل متأوِّل ، والسامع متحوِّل ، ووراء هذا كله مُتَقَوَّل ومُتَقَوِّل .

أيها الراغب في العاجلة ، الزاهد في الآجلة ، المغترّ بآل الضحى ، الغافل عن دَوْر هذه الرّحى : ما هذا التغير الذي أنت آلفه ، وما هذا السهو الذي أنت مُخالفه ، وما هذا [٨٩/ أ] الإصرار الذي يُحْبِط الأصل

---

١ – البيت للعباس بن الاحنف (ديوانه : ١٩٧) وقد مر قبل (ص : ١٠٥) .

٢ – ر : كاشف .

٣ – ناظر الى المثل : الرائد لا يكذب اهله (جمهرة الامثال : ١ : ٤٧٤) ؛ فاذا كذب الرائد (اي الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ لهم) قومه ، فانه يفسد امرهم وأمر نفسه معهم .

٤ – لعله ناظر الى المثل « حرك لها حوارها تحن » (جمهرة الامثال ١ : ٩٩ – ١٠٠) يضرب مثلا لاغاثة الملهوف بقضاء حاجته ليسكن ، والناقة اذا سمعت رغاء حوارها سكنت . وخلوب : خادع .

والفرع ، وما هذا التسويف الذي يخالف العقل والشرع ، وما هذا الرأي الذي عاقبته الويل والحَرَب ، وما هذا السعي الذي قد بار باللهو واللعب ؟

انتبه يا غافل[1] !

- ٣١ -

أيها[2] الصاحب المُحاوِر ، والصديق المجاور : كيف أتكلم ، والفؤاد هائم بكل واد ، والخاطر خال من كل حادٍ وهاد ؟ أم كيف أشكو ، والسر ظاهر باد ؟ أم بأي شيء أتعلّل وكل ما أجده مُرَدَّد ومُعاد ؟ أم على مَنْ اعتمد وكلُّ أحد أراه فهو لي ضِدٌّ ومُعاد ؟ أنفاسي متحرّقة بالحسرات ، ودموعي مترقرقة بين النّعَرات والزفرات ، وكبدي مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتي جارية على الرسوم والعادات ، وأحلامي عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسي رهينـــة بالسيئات ، مفتونة بالسوانح والخَطَرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات .

الجهاتُ دوني منسدّة ، والوجوه أمامي مُسْوَدّة ؛ إن قلتَ ، قيل : هذا زورٌ وبهتان ؛ وإن أشرتُ ، قيل : هذا بُوْرٌ وعُدْوان ؛ وإن سكتٌّ ، قيل: هذا سهو ونسيان . فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به ، رحمني بما لا غنى لي عنه ؛ أو لَيْتَ من طردني عن بابه ، أهّلني لعتابه ؛ أو ليت من جرّعني مُرَّ فراقه ، أخطر على بالي حلاوة لقائه ؛ أوليت من غمّسني في بحر البَلْوى ، طرحني إلى ساحل المنى ؛ أو ليت من حطّني عن درجات المخدومين ، رقّاني إلى مقامات الخَــدَم ؛ أو ليت مَن حرمني روح المخصوصين كفاني لواذع الندم والسدم ؛ أو ليت مَن نبذني وراءَ كلِّ شيء منَّ عليَّ بشيء ؛ أو ليت من حظر عليّ التبسط[3] عنده ، لم يحظر عليَّ التبصبص له ؛ أوليت

١ - من عادة أبي حيان أن يختم كل رسالة بالدعاء ، ولكنه لم يفعل ذلك هنا .

٢ - عنوانها في ر : « استعلام الفطانة من الاشارات الالهية » .

٣ - غير معجمة في ر .

من قطع عني عادتي منه ، لم يُمَلِّكْ مقادتي غيره ؛ أوليت من مَنَعني بَرْدَ الرضى لم يشوني بجمر الغضا ؛ أو ليت مــن تركني هكذا سُدى [٨٩/ب] لم يفضحني في مجالس العِدَى .

آهٍ من أنفاسٍ تتحقق بأسرار الحق في عَرَصات الغيب على بُسُط التململ، حيثُ ليس للعبارة فيه نصيب ، ولا للاشارة فيه تقريب ؛ آهٍ من قولٍ مردود ، وقائل محسود ، وقاصد مطرود ، وباذل مجهود ، وسائلٍ محدود ؛ آهٍ من زمانٍ متنكر ، وصديق متغير ، وعدوٍّ متنمِّر ، وجارٍ متذمر ، ومعامل متنقِّر[1] ؛ آهٍ في الجملة من مكان نابٍ بالمستوطنين ، ومن مسؤولٍ آبٍ للسائلين المستعطفين .

إلى من يفزع طريدُ المحبوبين ؟ وبماذا يحتج من زُجِر عن محل الحاضرين؟ وإلى ماذا يلجأ من غُمِر بالظلام ، ومُنِع من الاستراحة إلى الأماني والأحلام، وجُعل آيةً بين هذا الأنام ؟ إذا ظهر بصفاته التي أعيرَها قمعوه ، وإذا تفرق في زخارف الملك جمعوه ، وإذا سأل رَوْحَ ساعة في العمر منعوه ، وإذا غاب بأشجانه وأحزانه سبَعوه ، وإذا حضر برفقه ولطفــه شتموه[2] وأسمعوه . فكله من بعضه في بلاء ، وبعضُه من كله في عناء ، وآخره مع هذا وغيره إلى شقاء : إن وَصَلَ هُجِر ، وإن سأل زُجِر ، وإن ادَّعَى طولب ، وإن استرسل عوتب ، وإن قال : لا أدري ؛ قيل هذا تحاجز ، وإن قال : أدري قيل هذا تعزز ، وإن ولّى استقبلوه ، وإن أقبل وَلّوا عنه . عِنادٌ ولكنه عجب ، وكياد[3] ولكنه ذو طرب ، وعَنْوة ولكنها ألذُّ من الصلح ، وغُرْبةٌ ولكنها أطيب من الوطن ، وغَضَب ولكنه أحلى من الرضى ، وحرمان

---

١ – متنقر : كثير التنقير أي التدقيق .

٢ – ر : شمتوه .

٣ – ر والمطبوعة : كناد ؛ وليس « كناد » من مصادر الفعل « كند » بمعنى كفر أو جحد .

ولكنه أرْوَحُ من العطاء ، وجفاء ولكنه ألطف من البِر ، ورَدٌّ ولكنه أشرف من القَبول .

يا هذا : إن الحقَّ ما نبّهك على هذه الغوامض إلا وقد قدّسك عن سائر العوارض ، وما هتَكَ دونك هذه السواتر إلا وقد أطلعك على تلك السرائر ، ولا أوحشك من رقّ العبودية إلاوقد هيّأ لك خِلْعَةَ الحرية ، ولا كَدَّرك بما يصحُّ منه في هـذا الشاهد إلا وهو يريـد تصفيتك في ذلك الغائب . أما لك في هذه الأحوال العجيبة فطانة ؟ أما لك من لُبّك وتجربتك ظهارة أو بطانة ؟ أما لك مما ترى فيما لا ترى عبرة ؟ [٩٠/أ] أما لك مما تشهد مما لا تشهد خِبْرة ؟ أما لك مما لا تجد حجة أو عِذْرة ؟

يا هذا : إنك لمراد بأمر عظيم ، ومُرَشّحٌ لسرٍّ مكتوم . فالجدَّ الجدَّ[١] ! فكأنك وقد بلغت الحَدَّ : إنما هي حياة ذاتُ أنفاس ، وحالٌ دائرةٌ بين طمأنينة ووَسْواس ، فإن أغضيت عنها آنفاً منها ، ولم تحلم بها عائفاً لها ، ولم تكمَدْ عليها مستغيثاً بما فوقها ، رفعوك إلى حظيرة القُدْس وتوّجوك[٢] بتاج الرَّوْح والأنس ، وردّوْك رِداءَ المخصوصين ، وأنسَوْكَ جميعَ ما قاسيته بين العالمين ، وخاطبوك بلفظ التشريف ، وأعفَوْك من كلّ توقيفٍ وتعنيف ، وقيل لك : تحكّم باقتراحك فلا حائلَ بينك وبين أمنيتك ، وابلُغْ غايةَ ما تجد بوهمك فلا خيبة لك بعد ما سلف منك في أيامك ، وناغنا بأسرار صدرك ، وطالما تكسرت في حجب الكتمان عندك[٣] ، وكلُّ ذلك كان بعيننا ، ونحن كنّا أولك وآخرك فيها، ولو شئنا لكفيناك ، ولكنا رقيناك بما صفّيناك ، لتكون عندنا على ما أردناك . وإن أنت لم تُغْضِ عن هذه الزهرة الحائلة ، ووَكَلْتَ

---

١ – ر : فالحد الحد .

٢ – ر : وتوجلك .

٣ – ر : عبدك .

بها طَرْفك، وقَصَرْتَ عليها سعيك ، وجعلتها هَمّك وبالك ، ووهبت لها سرك وجهرك ، جعلوك حَطَب جَهَنّم . وحينئذ لا أبعد الله غيرك[1] .

اللهم[2] : إنّا نرتاح لذكرك على تَلَوُّننا في مخالفتك[3] ، ونرتاع من مكرك على علمنا بجودك وكرمك . فهب ارتياعَنا من مكرك ، لارتياحنا لذكرك[4] ، وزِدْنا من عندك ما هو لائقٌ بمجدك[5] — ولا إذْنَ لنا في طلبه منك — [فان][6] جودَك أسبق إلينا بفنون العطاء ، من تضرُّعنا إليك بأصناف الدعاء . مننتَ علينا في الأول فكان ذاك كرماً منك ، وستمُنُّ علينا في الآخر بمثله لأن آخرك شبيه بالأول ، وأولك شبيه بالآخر ، بل أولُك آخِرٌ وآخِرُك أول . فمَنْ كُلُّه واحد ، وهو على ذلك شاهد ، كيف يخاف عليه ، أم كيف يرتاب بما عليه ، أم كيف يُقْنَطُ من رحمته ؟ ﴿ ومَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاّ الضَّالُونَ ﴾ (الحجر : ٥٦) .

إلهنا : نحن عبيدك ، متصرفون على إرادتك ، مُتَقَلِّبون بين مشيئتك وحكمك ، مترددون بين قدرتك وحكمتك، آملون روادفَ عَطْفِك [٩٠/ب] ورحمتك ، معترفون بسوابغ إحسانك ونعمتك[7] ، خائفون من عواقب سطوتك ونقمتك . فغلّب يا إلهنا رجاءنا على يأسنا ، وغَيِّب خوفنا في أثناء أمْننا ، واهتِفْ بنا إذا سهونا ، وأيقِظْنا إذا رقدنا ، وادعُنا إذا فترنا ، وارؤف بنا إذا ضعفنا ، وشَرِّفنا اذا اتضعنا ، وأوْرِدْنا إذا ظمئنا ، وأوقدنا إذا

---

١ — ر والمطبوعة : غبرك .
٢ — من هنا حتى نهاية الرسالة ورد في ل (الورقة ١٦/ب — ١٩/أ) متصلا بما مر من الرسالة رقم : ٢ .
٣ — ر : مخالفتك لك .
٤ — ل : بذكرك :
٥ — ل : لمجدك .
٦ — زيادة من ل .
٧ — ر : نعمتك وإحسانك .

طفئنا ، وأطِبْنا إذا خَبُثْنَا ، وتألّفنا إذا شَرَدنا ، وتكرَّم علينا إذا لَؤُمْنا . وَذكِّرنا إذا نسينا ، ولطِّفنا إذا كَثُفْنا ؛ وفي الجملة ، قرِّبنا منك إذا بعدنا عنك ، وصِلْنا بك إذا انقطعنا دونك[1] ، فإنك مالِكُ نواصينا في الشهادة والغيب ، ومُدَبِّر أدانينا وأقاصينا في الرَّوْح والكَرْب .

إلهي : كلُّ ما أقوله فأنت فوقه ، وكلُّ ما أُضمِرُه فأنت أعلى منه . فالقولُ لا يأتي على حقك في نعتك ، والضمير لا يحيط بكنهك . وكيف نقدر على شيء من ذلك ، وقد ملكتنا في الأول حين خلقتنا ، وقدرت علينا في الثاني حين صرفتنا ؟ فالقول وإن كان فيك فهو منك . والخاطر وإن كان من أجلك فهو لك . من الجهل أن أصفك[2] بغير ما وصفتَ به نفسك ، ومن سُوء الأدب أن أعرِّفكَ بغير ما عرَّفتَني به حقيقتُك . ومن الجُرأة أن أعترضَ على حُكمك وإن ساءني . ومن الخِذْلان[3] أن أظُنَّ أنَّ تدبيري لنفسي أصلحُ من تدبيرك . كيف يكونُ هذا الظنُّ صواباً والعجز مني ظاهرٌ والقدرة منك شائعة ؟ هيهات : أسلمتُ لك وجهي سائلاً رِفْدَك ، وأضْرَعْتُ لك خدّي طالباً فَضْلَ ما عندك . وهَجَرْتُ كل من ثناني إلى غيرك . وكَذَّبْتُ كلَّ من أيأسني[4] من خيرك ، وعاديت فيك كلَّ مَنْ أشار إلى سواك . أنا أنسَى ما جُدتَ به عليَّ في القدم . حيث أنا ليس وفي العدم .

---

١ – ر : عنك ، والتصويب من ل .

٢ – ل : نصفك .

٣ – ل : : خذلاني .

٤ – ل : آيسني .

ثم ربيتني بين القِسَم والنّعم[1] ، ثم ألبستني قميص معرفتك ، وفغَرت فمي بذكرك ، ثم أهلتني[2] لمناجاتك[3] ، ثم اذنت لي في الدعاء لك ، ثم أمرتني بالدعاء إليك ، ثم رشحتني لحفظ أسرارك ، وأطلعتني على نجودك وأغوارك ، بغرائب أخبارك وآثارك ؟! إني إن نسيتُ هذه اللطائف [٩١/أ] وسَهَوْت عن هذه الطرائف ، لمن لا خير له في حياته ، ولا زاد له بعد مماته .

اللهمّ : إنّا إن ذكرناك فبتوفيقك ، وإن وصفناك فبتأييدك ، وإن لَهِينَا عن بعض ذلك فلنفوذ حكمك فينا وأمرك .

أيها الأخُ الراغبُ في الخير . والصاحبُ المُجانِبُ للشر : إن تكلفت[4] لك وصفي ووصفَ زماني وزمانك ، وما قد دُفِعْنَا إليه في شاني وشانك[5] ، كان ذلك شاغلاً للوقت عما هو أوْلى به ، وأعْوَدُ إلينا بالجدوىٰ منه . فتعالَ حتى لا نشتكي ولا نتألم ، ونهب أنفسنا لبلايا هذا العالم[6] ، فعن قليل ننتقل إلى ما تعلم وأعلم . فليس من المروءة أن نشكو صديقاً إذا قَصّر ، ولا من عِزّة النفس أن نجزع من عدوٍ وإن بالغ . وما فقرُ[7] أيامٍ ، وبؤسُ ساعات ، وتغيّرُ إخوان ثِقاتٍ وغيرِ ثقات ، حتى نضجَّ هذا الضجيج ونفني زماننا بالأسى على الفائت ؟

ما أحوجنا – عافاك الله – إلى الإعراض عن هذه الأعراض[8] والأمراض ،

---

١ – ل : النعم والقسم .

٢ – غير واضحة في ر .

٣ – ر : بمناجاتك .

٤ – ر : تكفلت ، والتصويب من ل .

٥ – ل : وصفي ووصف زماني ، وما قد دفعنا اليه في شانك وشاني .

٦ – ر : لبلايا هذه ؛ وسقطت لفظة « العالم » .

٧ – ل : وما من فقر .

٨ – ل : الأغراض .

بالإقبال على ما فيه إعداد الزاد للمعاد ، فعن قليل تقف هذه المطية بالكلال فننزل عنها إمّا إلى الرشد والغبطة ، وإمّا إلى البلاء والوَرْطة . فهلمّ أيها الإنسانُ حتّى لا ننطقَ إلا بما فيه فائدة ، ولا نعملَ إلا ما له ثمرة وعائدة . وندعَ الدنيا حتّى تجمح بأبنائها وعُشّاقها[١] ، ونكونَ نحن من عُتَقائها وطلقائها.

أيها الإنسان : تنبّه فقد طالت الرَّقْدة ، وانتعِشْ فقد استمررت في السَّقْطة ، واستأنِسْ فقد أفرطتَ في الوَحْشَة ، وخذ حذرَك فقد أحاطت بك الشِّقْوة ، واملك[٢] نفسك من نفسك ، تنجُ نفسُك من نفسك لنفسك[٣] . فما بعد الفضيحة التي أنت عليها فضيحة ، ولا بعد النصيحة التي تسمعها نصيحة.

اللهم : أغننا بتنبيهك عن تنبيه خَلْقك ، وغَيِّبْنَا في مَشْهد رضوانك عن عبادك ، وأشْهِدْنا في غيب ملكوتك كلّ ما غاب عنا باحتجابنا عنك . واغضُضْ أبصارنا إلا عن النظر إلى وجهك ، وازمُمْ خواطرنا [٩١/ب] إلا من السُّبوح في مَرادِ إلهيتك[٤] ، واجعل أول قولنا عندك : ﴿ الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عَنّا الحزَنَ ، إنّ ربّنا لغفورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر : ٣٤) .

اللهم : إنا ربّما تركنا دُعاءَك وقد علمنا أنّا إذا كنا في وصفك فقد استغرقنا ذاك وتجاوزنا ما[٥] هناك ، لأن وصفك بما أنت أهله فوق دعائنا بما نحن نطلبه ، وإنما دعاؤنا حظٌّ لنا منك ، ووصفُنا لك نصيبك منا ، وإذا وافقناك فيما تستحقه واصفين ، قابلتنا عليه بما نأملُهُ وبما لا نأمله غيرَ داعين[٦] . ونحن

---

١ – ل : وعشاقها .

٢ – ل : واسلك .

٣ – ل : تنج نفسك لنفسك .

٤ – ر : السنوح في مرادك لالهيتك ؛ والتصويب من ل .

٥ – ر : مما .

٦ – ل : واعين .

إذا وصفناك فإنما نستنشق نسائمَ ربوبيتك من أوطان معرفتك بوسائط هدايتك. وإذا دعوناك فإنما نشكو إليك كُرَبنا[1] الجاثمة على قلوبنا من خوف فِراقك.

ومع هذا وذاك فإنا نسألك. اللهم. أن تَقْبلَنا على عِلاّتنا، وأن تسدَّ منّا خَلاّتنا. وأنْ تُقيلنا عثراتنا. وأن تَستُرَ علينا عَوْراتنا، وأن تُبَدّل سيئاتنا حسناتنا[2]، وأن تُغضيَ عن هفواتنا، وأن تَهب لنا رضاك منا في جميع حالاتنا. فحاجتنا إليك فوق حاجة [محيل][3] النبات إلى القَطْر، وفوق حاجة الموتى إلى الرُّوح. وفوق حاجة الطالب إلى الوِجْدان.

اللهم: فاجعل قولنا لك مسموعاً. وفِكْرَنا فيك مرفوعاً. ودعاءنا لك مُجاباً. وعلمنا بك صواباً. ورغبتنا فيك صادقة، وشواهدنا بآلائك ناطقة. وآثارك عندنا باقية، وأياديك لدينا ضافية. وألسنتنا بذكرك[4] مأخوذة. وبصائرنا باليقين[5] مشحوذة. يا ذا الجلال والإكرام.

- ٣٢ -

اللهم حُطْنا حياطةً لا يَهتدي من أجلها عدوُّنا[6] إلينا. وأحِطْ بنا إحاطة تستهلّ بها سماءُ جُودك علينا. وآتنا منك ما لا نتوقّعه ولا نحتسبه. وصِلْنا من فضلك بما لا نستحقّه ولا نكتسبُه، وكنْ دليلَنا، وأنْهِجْ سبيلَنا. واحفظ كثيرنا، وكثّر قليلنا، واشفِ عليلنا، وارحم أنيننا وأليلنا، وامدُدْ حَوِيلنا، وواصل تخويلنا وتنويلنا. إنك أهلُ كل جود [٩٢/أ] وراعي

---

١ - ر: دوننا، والتصويب من ل.

٢ - حسناتنا: سقطت من ل.

٣ - زيادة من ل؛ واللفظة هنالك «محتل».

٤ - بذكرك: مكررة في ر.

٥ - ر: في اليقين، والتصويب من ل.

٦ - ر: عدوها.

كل موجود . واذا أردتَ بنا ما لا طاقة لنا به ، فاصرفه عنا بنظرك الرحيم ، ورِفْقِكَ القديم ، وعِزّكَ العظيم ، فإنا إليك ذوو[1] فقر . وأنت عنا غني كريـــم .

يا هذا : لُذْ بالله مجتمعاً عن تَفرُّقك . واضرَعْ إليه منظوماً عن أشتاتك[2] . واعرِضْ عليه ذاك الذي خفْتَ منه فَناءك ، وغَمِّض عن كل زهرةٍ راقتك في هذه العَرْصة ، لعلك تُؤَهَّل لما هو أورف[3] منها وآنق — فما تناهت القدرة ولــن تتنــاهى .

إن عرفتَ فحوى هذا الخطاب فقد نجوت من عُقْبى هذا الخَطْب ، وإلا فأنت العَطِبُ المشموتُ به ، والطالح المذهول عنه . قال :

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ   وإلا فإني لا إخالُك ناجيا[4]

رَحْلٌ ضعيف ، وهاجرةٌ مُحْرِقة ، وبَرٌّ قَفْر ، وعطشٌ قديم ، ورشاء قصير ، وعمقٌ بعيد؛ كيف الوصول إلى الرِّيّ والحال هذه ؟ آه ! الآن توافيك معونةٌ ممن أنت بعينه : فيرقّ الجو ، ويبعث النسيم ، ويَنْدَى الهواء ، فيصل إلى كبدك ما تنعم به ؛ ولعلك تستقل بوجدانه ، وتستغني عن فقد ما أنت مُبْتَلى بطلابه . فيا لها راحةً وسكوناً وقُرَّة عين وطيبَ نفس وبلوغَ مراد ، إن جُعلتَ لهذا الذي سمعته أهلاً . ولست تكون هذا المذكور بهذا الوصف إلا بعد أن

---

١ – ر : ذو .

٢ – ر : أسبابك ، وعلى السين علامة الاهمال .

٣ – ر : أرؤف .

٤ – جاء في البيان والتبيين ١ : ٣٦٧ « قص الأسود بن سريع وهو الذي قال : فان تنج منها .. البيت » .

تـَطـَلـِّق الدنيا ثلاثاً . وتـُعـْرِضَ عنها ظلفا[1] . ثم تقبل على طلاق[2] نفسك من شهواتها الذميمة وعاداتها الفاسدة وقرنائها المُضَلـِّلة ، ووساوسها[3] الباطلة ، ثم تأخذ بعِنانها نحو الذكر والتَّهَج به ، والطَّوْف عليه ، والاشتمال عليه . والصدق والإغراق فيه ، ثم تجعل عمرك نوماً ، ونومك حلماً ، فلا يقظة لك بعد ذلك إلا عند الله الذي إليه طال شوقـُك ، وبه هام فؤادك ، ومن أجله هجرك أقربوك ، وبسببه عاداك مُحبـُّوك . ذاك الذي لا تخسر تجارتك معه ، ولا تبور بضاعتك عنده ، ولا تخشى نفاد ما يعطيكه ، ولا ترى خـُلفاً فيما سبق إليك به وعدُه . وهناك تعلمُ أنك به وصلتَ [٩٢/ب] إليه ، وبتوفيقه نلت مَرْضاته . وبنعمته تهنأت بنعمته ، وبقدرته اطـّلعتَ على قدرته ، وبحكمته وصلت إلى حكمته . وهناك تعلم أنك كنت منصوحاً بداعيك إلى بابه ، ومكنوفاً[4] بأياديه عند استجابتك لأمره ، ومشهوداً بما شهدت في الثاني بإشهاده ، ومرفوداً بما انتهيت إليه من إرفاده .

أفما تحبُّ بعد هذا البشير والنذير ، أن يكون لك من نفسك ناصحٌ وعذير ؟ أفما ينبغي بعد هذه العثرة بعد العثرة[5] أن يكون لك انتعاش واستقلال ؟ أفما تحنُّ بعد هذا التلطف والترفق إلى قرارك الذي لا قرار لك دونه ؟ بلى والله ، قد آن وقته ، وانكشف غطاؤه ، واتضح سبيلـُه ، وأبلغ داعيه ، ومدَّ الصوتَ مناديه ، ولم يبق إلا : لـَبـَّيـْك وسَعـْدَيك ، فإن الخير كله بيديك ولـَدَيـْك !

يا هذا : إن كنتَ غريباً في هذه اللغة فاصْحَبْ أهلها ، واستَدِمْ سَماعها ، واشغَلْ زمانك باستقرائها واستَرائها[6] . فإنك بذلك تقفُ على هذه الأغراض

---

١ – ر : طلفاً .

٢ – ر : طليق .

٣ – ر : ووسواسها .

٤ – ر والمطبوعة : ومكتوفاً .

٥ – ر : العثر .

٦ – الاستراء : الاختيار .

البعيدة المرامي ، السحيقة المعامي[1] ، لأنها إشارات إلهية وعبارات إنسية ، إلا أن العبارات الإنسانية ليست مألوفة بالاستعمال الجاري ، وأنت محتاج إلى أن تألف في الأول بطول السماع ، ثم تتصعّد من ذلك إلى الإشارات الإلهية ببسط الذراع ، ورحب الباع ، ولُطْفِ الطباع . وما أحراك بنيل هذا كله إن خَلَّصْتَ نيتك من شوائبها ، ونقّيت طَويتك من روائبها . فأما شوائبها التي وقعت الصريحة[2] بها فهي ترَجرُجها وتمجمجها بخطرات الدنيا وبلايا هذه الحاسّات[3] التي تُرى تارة بالعين ، وتُذاق تارة بالفم ، وتُلْمس تارة باليد ، وتُتَمنَّى تارةً بالقلب . ويهجر من أجلها القريب ، ويُقطع الرَّحِمُ ، ويجاب البلد النازح ، ويتَوخَّى بالسانح والبارح ؛ وهذه كلها متعرّفات النيّات . — وأما روائبها التي سلفت الكناية عنها فهي نظائر الشوائب ، إلاّ أن مداخلها ربما اختلفت ، ومآتيها ربما تشابهت . فالحازم مَنْ أخذ بزمام فِكره فكبحه عن سبيل غيّه ، وجذبه إلى طريق رُشْده [٩٣/ أ] فإن الخطر عظيمٌ شديد، مُتضاعف صعب . وإنما هان النظر في هذه العقبى لسواتر الغفلة التي هي من سُوس[4] الفطرة ومن تُوسِ[5] البِنْية ، ومِن كَدَر الطينة ، ومن تشاكس الخلقة[6] ؛ وكيف لا يكون الخطر على ما وصفت ، والمنال منه فوزُ الأبد ونعيم الدهر ، ورضى الرب واتصال البقاء ، وطيب العيش ورَوْح الحياة ، والفائت منه خُسْرُ الأبد وشقاء الدهر ، وسخط الرب واتصال الشقْوة ، وخُبْثُ العيش وكَرْب الحيـاة ؟ ثم لا واسطة بين

---

١ – المعامي : جمع معمية ، وهي المجاهل وأغفال الأرض التي لا أثر للعمارة بها .
٢ – يعني الكلمة الصريحة ، مقابل « الكناية » في ما يلي .
٣ – الحاسات : جمع حاسة وهي الآفة .
٤ – السوس : الطبيعة والأصل والسجية .
٥ – التوس : الطبيعة والخلق ، يقال : الكرم من توسه وسوسه .
٦ – ر : الخليقة .

هذين بوجه . وكما لا[١] واسطة كذلك أيضاً لا طرَف ، لا من هذا الوجه ولا من ذاك الوجه . فما أوْلى اللبيب المتبصّر في أمره ، المَعنيّ بشأنه ، المفكر في ماله ومَرَدّه وعاقبته ، أن ينقّي عينيه من قذاها ، ويتحمّل في هذه القصة بعض بلواها ، فإنه إذا فعل ذلك فقد أخذ بالحزم ، حزْمِ أهل العقل ، وفاز بالعزم ، عزمِ أولي[٢] الفضل .

ما أشوقني والله إلى أن أرى مُريداً له من القراءة وِرْدٌ ، ومن الركوع والسجود وظيفةٌ ، ومن الصمتِ والفكر قِسْطٌ ، ومن التسبيح والتهليل ساعةٌ ، ومن التفكر في الملكوت سَهْمٌ ، ومن الرغبة في الموعود حِرْصٌ ، ومن الإشفاق من الوعيد فَرَق . هذا والله أضعف شوق وأقله[٣] ، وأنزرُ حنينٍ وأقله ؛ فأما الشوقُ الأعظم ، والحنين الأعمُّ فإنما هما إلى عارف قد تربّع على[٤] سرير الرضى ، واطمأنّ إلى ركن الثقة بالمولى ، وشهد الغيب من وراء سِتْر الضنى ؛ فإن قال فَعنْه ، وإنْ سَكَتَ ففيه ، وإن تحرك فله ، وإن سكن فبه ، وإن اشتاق فإليه ، وإن تهالك فعليه ؛ له مع نفسه شان ، ومع الحق شان ، ومع الناس شان : فأما شانه مع نفسه ففي تصفيتها مِنْ كَدَرٍ حَجَبَ عن الله ؛ وأما شانه مع الحق فاستملاؤه منه كلَّ ما سهّلَ الطريق إلى الله عز وجل ؛ وأما شانه مع الناس فكلُّ ما عاد بالجدوى عليهم من الرقة والرحمة والرأفة واللطافة عند الدعاء إذا تكرّر منه ، وعند الإباء إذا تردد منهم ؛ فهذا أيضاً هذا .

يا هذا : ما قَيَّضَني الله بنطقي [٩٣/ب] لك على هذا التهذيب والتقريب ، وعلى التصعيد والتصويب ، إلا لتكونَ حجة عليك إن لم تقبلْ ، ومحجةً لك

---

١ – ر : كما ولا .

٢ – أولي : مكررة في الأصل .

٣ – كذا في ر ، ولعلها : وأخله .

٤ – ر : إلى .

إن قبلت . فإن قلت لي أيضاً على وجه العذر : فهو أيضاً حجة عليك ومحجة لك ، فقد صدقتَ وما أحلْتَ . ولكن أين أنت مني ، ومن أين تقف على خبرك عني ؟ أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة وقد تحطمت قَنَاتي[1] وتكمّشت شَواتي[2] ، وتفلّلت صَفَاتي[3] ، واضمحلت صِفَاتي ، وبليت لُحْمتي وسَداتي ، وفقدتُ شهواتي ولذّاتي ، ومُنيت بموت أحبتي ولِدَاتي ، فنطقتُ وغالِبُ الهوى مغلوب ، وشاردُ الحزم مألوف ، وغُراب العزة واقع ، وجناح الكبْر مكسور ، وربْع اللهو طامس ، وماء الشبية ناضب ، وهدير العذل[4] ساكن ، وعُود الهوى عاسٍ[5] ، وروْض المنى خاوٍ ، وبَصَر الغيّ مكفوف ، وريش العرامة[6] منتوف ، وعازب العقل رائح ، ورائح الجهل سارح . وأين أنا منك ، وأين أنت مني ؟ فان شركتني في هذه الصفات ، أو وفيتَ بهذه السمات ، فلعلك مثلي ، أو أمثل مني . فهذا جوابك الذي[7] أجأتني إليه بعتبك[8] .

فأما ما وراء هذه مما هو عند الله ، من القبول والرد ، والذم والحمد ، فذاك سِرٌّ لا تمرُّ بجنَباته ، ولا تتعرض لِهباته[9] ، لأنه من الأمور التي له فيها إمضاء وتوقيف ، وإنهاء وتعريف ، وإرعاء وتصريف . وإنما الذي هو علينا بحكم العبودية ، وبعجز البشرية ، أن نقف عند الأمر إذا صدر ، وعند النَّهْي إذا

---

١ – القناة : القامة .

٢ – الشواة : جلدة الرأس .

٣ – تفللت : تشققت ؛ الصفاة : الصخرة الملساء ، والمعنى أن جلد الفتوة والشباب قد ضعف .

٤ – ر والمطبوعة : العادل .

٥ – عاس : من عسا النبات يعسو ، غلظ ويبس .

٦ – العرامة : الأشر والمرح والبطر .

٧ – ر : التي . ٨ – أي ألجأتني اليه ؛ وفي ر : أجابني اليه بغيتك .

٩ – ر والمطبوعة : لهناته .

وَرَد ، فنجري فيهما بالامتثال والانتهاء ، لنكون بهما طائعين ، وإلى غاية طلبه منّا جارين ، وفيما يعرض لنا من التقصير مستغفرين ، وفيما يصفو من الشاكرين ، وفيما يكدر من الخائفين .

يا هذا : قد سمعتَ فنوناً من القول في المعرفة والتوحيد ، والتوكل والزهد ، والعبادة والوجد ، والشكر والصبر ، والوسوسة والخَطْرة ، والدعاء والمناجاة ، والتفويض والتقييض ، والرضى والسخط ، والورع والتقى ، والحجى والنُّهى ، والرقدة والهَبَّة ، والمراد والمريد ، والصلاح والفساد [٩٤/أ] والسر والجهر ، والقرب والبعد ، والانبساط والانقباض ، والإقدام والإحجام ، والبلاغة والعِيّ ، والرياء والإخلاص ، والتحقيق والتلبيس ، والتخنيق والتنفيس ، والتكدير والتخليص ، وما هو فوق هذا بدرجات ، وما هو دون هذا بمسافات[1] فهل وجدت نفسك في شيء منها تاماً أو ناقصاً ، زائداً أو قالِصاً ؟ وهل مرَّتْ بك في عُرْضها صفتك فهششت لها ، أو كحلت بها ؟ فإن كنتَ قد وجدت ذلك وحمدته ، وكان كما أمَّلْتَه وتمنيته ، فهنّأك الله ذلك ، وبارك لك فيه ، وصانك من عوارض الفساد ، وأكرمك بأسباب الرشاد ؛ وإن كنت وجدته ، ولكن لا على ما حمدته بل على ما ذممته ، فبادر بالإقلاع ، فإن الزمان شديد الفوت بالفُرَص ، كثير الغَشْي بالغُصَص .

يا هذا : توقف قليلاً ، وتفكَّرْ طويلا ، فإن توقفك يُحْضِرُك بالك ، ويَصْقل فهمك ، ويَشْحَذُ بصيرتك ، ويَحُدّ ما كَلّ منك ، وفِكْرُك يبحث عنك ، ويَعْرِضُك عليك ، ويريك من أنت ، وما أنت ، وكيف أنت ، ومن أين أنت ، وعمّاذا أنت ، وعلى ماذا أنت . فإن فِكْراً نتائجه هذه الأمور الشريفة ، وهذه الأحاديث الطريفة ، وهذه الإشارات اللطيفة ، لَفِكْرٌ قد صافحه الله بيد التوفيق ، ونظر إليه بعين التأييد ، وليس أحَدٌ هداه[2] الفكر

---

١ – ر : بسافات .

٢ – ر : هذه .

إلا فاز قدْحُه ، ووجب مدحه . فإن هذا من عُنوان نجاته ، ومن دلائل نَيْله لمرضاته .

اللهم : ارحم رَوْعاتنا في أطراف هذه الإشارات ، من اختلاف هذه العبارات . فوحقِّك ما ندري كيف ندعوك ، وبأي شيء نتقرب اليك ، وعلى أي وجه نطلب رِضاك ، وأيَّ باب نَقْرَعُ حتى يُؤْذَن لنا بالوصول إلى حضرتك . فارفع عنا هذا الرَّوَغان[1] ، وتَعَب هذا الطَّوَفان ، واهدنا إلى سواء السبيل ، إنك على ذلك قادر وجوادٌ به . قد طال بنا النَّصَب ، واشتمل علينا الوَصَب ، وأنت المرجوُّ لفكِّ هذا القيد ، والمأمول لتعديل هذا الميد[2] .

يا هذا : أما يعطفك عليَّ من فضلك عاطف ؟ أما يبعثك على الرحمة لي من فنونك باعث ؟ [٩٤/ب] فتقول : والله لأسمعنَّ قول هذا القائل ، ولأسْبُرَنَّ عَقْلَ هذا العاقل ، حظيت بقبوله وسَبَقْتُ إلى الزُّلْفة عند الله به ؛ فإن كان رُشْداً ، يَخرج من أذن[3] ، وإن كان غياً ، فما ضاق مخرجُ كلامٍ دخل من أُذُن . ولو فعلتَ — عافاك الله — هذا به ، وقلته لنفسك في خلوتك ، أرَحْتَنِي من تعب كثير ، ورَقِيت معي إلى محل كبير ، لأنّا كنّا نتعاونُ على رفضِ هذه الحسيسة التي قد جَعَلَتْ على أبصارنا غِشاوة ، وضربت على أرواحنا إتاوة ، فنحن هالكون بها لأنا متهالكون فيها . وليتها مع هذه المخازي والعيوب ، وهذه المغامز[4] والذنوب ، دامت إن لم تخلص ، أو خلصت إن لم تدم . وأين ذلك وهي بحيلولتها دالّةٌ على زوالها ، ولزوالها جارية على حيلولتها ؟ فما أعمى بَصَرَ مَنْ يرى هذه العيوبَ عِياناً ، ثم يعطيها بيده عِناناً وزماماً[5] وخُطاماً ، ثم ينقاد إلى محل العَطَب وشقاء الأبد ، غير عائجٍ

---

١ – الروغان : الذهاب هاهنا وهاهنا .

٢ – الميد : الميل .

٣ – هذه العبارة مضطربة فيما يبدو ؛ لأن الرشد يدخل الأذن ليستقر ويؤثر في نفس سامعه .

٤ – ر : المعابر (دون اعجام للباء) ، وفي المطبوعة : المعاير .

٥ – ر والمطبوعة : وذماماً .

على فكر ، ولا ناظر إلى خلَف . كأنه بهيمة أو كالبهيمة . وإن إنساناً يرضى أن يكون بهيمة أو كالبهيمة لقد رضي بسخط الله عليه ومَقْته ، لأنه قد كفر النعمة وجحد المِنّة ، والسلام .

- ٣٣ -

[بسم الله الرحمن الرحيم][1]

اللهم[2] : كن عند ظنّنا بك ، وامْحُ لنّا فُرُطاتنا معك . وإذا أنطقتنا فألهمنا النجوى ، وإذا أسكتّنا فاملأنا بالتقوى ، وإذا استعملتنا فارزُقْنا البُقْيا والرعوى[3] . يا ذا الجلال والجمال[4] ، ويا ذا النوال والإفضال : ناج أسرارَنا بجبروتك ، أشْرِج[5] قلوبنا في مَلكُوتك ؛ أهّلنا لمؤانستك ؛ اخصُصْنا بمخالصتك ، اجعل علمنا كلّه بك ؛ وتَقَدُّسَنا كله لك . وثناءنا كله عليك ، وإشارتنا كلها إليك ، وصبرنا كلّه معك ، وقرارنا كله عندك ؛ لا تفرّقْ شملنا من حَضْرتك ،بعد ما جَمَعْتَ شملنا على معرفتك. لا تَبْلُنا بجَفْوتك بعد ما [٩٥/أ] أذقتنا من حلاوة بِرّك وكرامتك ؛ لا تَرْمِنا بهجرك ، بعد ما عرّضتنا لوصلك . لا تهتك ستْرنا بغضبك ، بعد ما أنطقتنا بتوحيدك ، وأشْرَبْتَ قلوبَنا من محبتك ، وملكت آمالنا بقدرتك ،وأطمعتنا في نعمتك . يا وليّ الخير ومُتيحه ، وواهبَ المأمولِ ومبيحَه : صلّ على صَفيّك المخصوص بفضلك ، المبعوث إلى خَلْقك ، المنعوت بعلامتك ، المتقلب[6] في كرامتك ، [محمد وعلى آله][7] صلاةً تزيدُهُ بها رَوْحاً ورَيْحاناً. وتعرّفنا بركةَ ذلك سرّاً وإعلاناً ، إيماناً وإيقاناً ، بمنّك وفضلك .

---

١ – زيادة من ل .
٢ – ورد بعض هذه الرسالة في ل (الورقة ٤٩/ ب – ٥٠/ب) بعنوان « حظيرة الرضوان وسجف الغفران من الاشارات الالهية »
٣ – ل : والدعوى .
٤ – زاد في ر : والاكرام .
٥ – ر : وأسرح ؛ ل : أسرج .
٦ – ر : الملقب ، وأثبت رواية ل .
٧ – زيادة من ل .

أيها السامع بالأذُن ، هل لك شِربٌ من هذا المسموع بالقلب ؟ أيها الحاضر بالشخص ، هل لك حاصل من الأنس ؟ أيها الواجد بالشوق ، هل لك حسٌ بالذوق ؟ أيها المعجب باللفظ ، هل لك نصيب من المعنى ؟ أيها المُدِلُ بالعبارة ، هل لك حقيقة في الإشارة ؟ أيها المسحورُ بالبلاغة ، هل لك بلاغٌ إلى الغاية ؟ أيها المفتَنُّ في العلم ، هل لك علامة من المعلوم ، أيها المولع بالبحث عن العجائب ، هل وقفتَ على عجيبة العجائب ؟ أيها العاشقُ للغرائب ، هل وصلت إلى غريبة الغرائب ؟ ما أخوفني أنك منافقٌ عليم اللسان على ما نطق به ديوان النبوة في وصف إنسان بعد انسان ؛ فإن[1] لم تكن ذاك في الماضي فلا تكُنْهُ أيضاً في الآتي ، والزَمْ جِدَّك[2] في أمر رُشْدِك[3] ، وانته عن كل صاحب يُغْويك ، واستوصِ بنفسك خيراً ، فإليك انتهى الخَبَر ، وعليك وقف الأثر . فكن وَليَّ نفسك في حياتك ، ووصيَّها بعد وفاتك . ولا تَكِلْ مصلحتك إلى غيرك ، فإن عنايته تُقَصِّر عنك ، ورعايته تعجِزُ دونك . فحينئذ تندمُ فلا تنْتفع ، وتأسى فلا ترتجع[4] . هذا لسانُ[5] الناصح لك ، إن أمرَّ مسموعهُ اليوم ، حلا مقبولُه غداً ، وإن ثَقُل مقوله الساعة ، خفّ معموله بعد قيام الساعة .

يا هذا : إن شكوتُ إليك خاصة أمري ، ونشرت [٩٥/ب] عليك حقيقة سِرّي ، رحمتَني أو مقتَّني . ما تقول فيمن نَشْرُه طيّ ، وبلاغته عي ، ورشده غيّ ، وكله في كله لَيٌّ وزَيّ[6] ؟ إن وَرَدَ وَرَدَ لاهفاً ، وإن صَدَرَ صَدَرَ لاهثاً ؛ إن عهد عهد ناكثاً ، وإن حلف حلف حانثاً ؛ إن انتبه انتبه

---

١ – ر : وإن .

٢ – ر : حدك .

٣ – ل : في أمر يرشدك .

٤ – ل : تسترجع .

٥ – ل : الشان .

٦ – الزي : المصدر من زوى بمعنى حجب وطوى .

عائثاً ، وإن هجع هجع عابثاً . إن قرع الباب حُجبَ ورُدّ ، وإن تعرّض[1] للوصل جُذب وصُدّ . فحدّثني ما حيلتك منه وما حيلته فيك ؟ أخذ الله بأيدينا إلى **حظيرة**[2] **رِضْوانه** ، وأسْبل علينا **سجفَ غُفْرانه** ، في جوار أوليائه وأصفيائه ، حيث نسمع مناغاة الملأ الأعلى في الجنة التي هي المأوى ، عند سِدْرة المنتهى ، حيث لا أذى ولا قَذَى ولا شذى .

يا هذا : عجبي من سِرّ محفوف بكل فنّ ، ومن غيب[3] مرجومٍ بكل ظنّ ، ومن ظاهرٍ مجلّىً بكل طُنّ[4] ، ومن باطنٍ محوّف[5] في كل كِن . بل عجبي من مَشاهِدَ[6] : الفَرَجُ بها مع رؤيتها مضمحل ، ومراتبَ[7] : الأنس بصحبتها مشعلّ ، ومعنى الحق في أقطارها مستقلّ ، ودليل الخلق على ادبارها مستدلّ . بل عجبي من راضٍ قد باء بأحكام السَّخَط ، وعادل قد ناء بأسباب الشَّطَط ، وقائل قد ملكه سلطانُ الغَلَط ، وساكت قد أفضى به الاعتبار إلى الفَرَط . بل عجبي من حركةٍ جانبتِ السكون ، ومن سكون صَحِبَ كَوْن كل ما يكون ، ومن فن استدرجَ سائرَ الفنون ، ومن عين استوعبت أعيان العيون . بل عجبي من اختلافٍ نُظِمَ به كلُّ مؤتَلِف ، ومن ائتلافٍ شَتَّتَ كلَّ مختلِف ، ومن منكرٍ عَيَّره[8] كلّ معترف ، ومن معتصمٍ نازعه كل مقترف . بل عجبي من لسان مفتون بالعبارة ، وطمع[9] محجوب بالعيارة ، وقلبٍ

---

١ – تعرض : مكررة في الاصل .

٢ – ر : حظرة .

٣ – غير معجمة في ر ؛ وفي المطبوعة : عيب – بعين مهملة – .

٤ – ر : محلى ؛ والطن : القامة . والظاهر تجلوه القامة وتبرزه .

٥ – محوف : موضوع على الحافة .

٦ – ر : شاهد .

٧ – ر والمطبوعة : رواتب .

٨ – كذا في ر ؛ والصواب الذي يقتضيه السياق « عير » .

٩ – لعل الصواب : « وطبع » .

تاهَ في أوائل الاشارة ، وحال استحالت بين الأمارة والأمارة . بل عجبي من شبــح اختُرِعَ موجوداً ، واصطُنع كرماً وجوداً ، وزين بالتكليف ركوعاً وسجوداً [٩٦/أ] وطرح في بحر البلوى فناء وبُيودا . بل عجبي من لفظ محلّى بالزين ، ومعنىً جلّ عن كَيْف وأين ، وعينٍ أشكلت على كل عين ، وزُخْرِفَ عنها الخبرُ بكل كَذِبٍ ومَيْن .

يا هذا : التَرْجُمان حاذق ، والرائد صادق ، وكُلُّ الكلّ عن الكــل ناطق ، وجميعُ الجميع بالجميع فائق ورائق . ولكن شاهد السمع غائب ، وحاضر القلب هائِب ، وآمل المنى خائب ، والوقت بضروب أحداثه ثايب[1] آيب .

يا هذا : أتدري من الذي غاب[2] عن الكون ، وجل عن الصَّوْن ، وأتى من وراء كلّ بحث دقيق ، واستجفى إشاراتِ الألسنةِ بأنواعِ التكذيــب والتصديق ؟ هو الذي علّل الفاني بالفاني ، وأزعج هذه المعاني ؛ هو الذي إن ريم بالاثبات انتفى ، وإن حووِل بالبقاء صفا ؛ وإن لوطف بالطاعة شرَّف ، وإن كوشف بالسّر أتلف ، وإن وقف مع باديه جرّ وعرّ ، وإن تُعرّض لخافيه ضرّ ومرّ ؛ هو الذي يريك حقائق الأشياء دون الحق تخييلا ، ويَمْزُجك بحقائق الأشياء فيما فوق العقل تخويلا .

يا هذا : إن لحظت أمره أتعبك ، وإن شهِدت إرادته عَذّبَك ، وإن هتكت حجابَ حكمته حَيّرك ، وإن كايدت رقيب قدرته طيّرك ، وإن شهدت معانيه فيك أغرقك ، وإن أعرت نفسك من نفسك نفساً أحرقك ، وإن أنكرته أبادك ، وإن أقررتَ به أعادك ، وإن توكلت عليه أرادك ، وإن اقتبست منه أفادك .

---

١ – ر والمطبوعة : ثابت .

٢ – ر والمطبوعة : عاف .

يا هذا : انظر إلى سحائب الحق كيف سَكَبَتْ عجائب الوَدْق ، وكيف استوفى بِصَوادق الجبروت صفات الخلْق ، حتى لم يبق في مذموم الكذب ما يُنافَى تنزُّها عنه ، ولا في محمود الصدق ما يُصافَى تشبهاً به . بلى ، بقيتْ عينٌ مغرورقةٌ بمساكبِ الدموع ، مع نفس قد احترقت بملاهب الضلوع . بين خيال إن لاح أضنى ، وإن ثبت أفنى ، وإن غاب[1] أغنى وأقنى .

يا هذا : ارجع إلى لغات المطالبة بالشكر على إبراز جملة محشوة بالحياة . ثم انظر إلى حيرة العقل في سِرّ هذه الحياة [٩٦/ب] ثم اعجب مما صحب الكون من مادة الحياة ، فإنها لغات مختلفة مؤتلفة ، على لسان قد قام خطيباً بنشر [شؤون][2] أصحاب النعيم ، وذكر فنون أصحاب التسنيم[3] . فإذا فرغت من ذلك ، وأنّى لك بالفراغ ! وبلغْتَ هنالك ، ومَنْ لك بالبلاغ ! فالتفتْ إلى هاتف الحقائق بالعجز عن مقدار الواجب في تصاريف ما بدأ به من عجائب الإلهية ، فبهذا ونظائره تشرف[4] على عيوب العبودية . نعم . ومما[5] يَسْرق عينك ، ويملك عليك أينك . فأما ما صرفه بالاختيار ، مقصوراً على الأخطار والأقدار ، مردداً بين الجزَع والاصطبار ، فذاك ما ليس للخلق فيه نظام ولا نثار . نعم ، وأما ما سطا بحقائقه مبايناً للعقول ، وملك بآلائه[6] مطابقاً للمعقول ، فكُنْهُه يَعزُّ عن مساربِ وَهْمِ الواهمين . وإن كان لائحُ ما وقع الخبرُ عنه موجوداً في مشارب إلهام الملهمين .

يا هذا : لقد قصصتُ أثَري مني ، فضللتُ خبري عني ، وصِلْتُ بما صحبني عليّ ، فما ازددتُ إلا نفوراً إليّ . طلبتُه فوجدتني ، فلما وجدتُني

---

١ – ر والمطبوعة : خاب .

٢ – زيادة لازمة .

٣ – ر : النسيم ؛ والتسنيم : ماء في الجنة .

٤ – ر : تشوف .

٥ – غير واضحة تماماً في ر ؛ ولعل الصواب : « وعلى ما » وهو معلق بقوله « تشرف » .

٦ – ر والمطبوعة : بالايه .

وجدتُه لي ، فلما وجدتُه عَدِمْتُني ؛ وسكتُّ عنه فخبّرني عنه ، وخبرتُ عنه فسكّتني ، وأعززته فأذلني ، فلما أذلّني أعزني ، فلما شهدتُ العزّ بزّني ، وعشقته فهيّمني ، فلما شكوتُ حبّه[1] تيمّني ؛ طواني فنشرني ، وظهر لي فبهرني ، وكوّنني فمحقني ، ثم كانني فحققني ، فلما حققني ، حقق لي ، فلما حقق لي ، حقّ حقّه بعدم حقي .

أيها القائل البائح ، والسامع[2] النائح : كيف أنفكّ من وَجْدي بمن أوجدني وَجْدي بوَجْدي ؟ أم كيف أعرب عن قصدي ، وقد وشّحني بقصدي في قصدي ؟ أم كيف أذلّ بجهدي ، وقد أمدني في جهدي بجهدي ؟ أم كيف أتنجز وعدي في وعدي ، وقد وعدني بخُلْفِ وعدي ؟ أم كيف أهدأ في صَدَري وقد أفناني لمّا أفنى ورْدي ؟ أم كيف أتهنأ [٩٧/ أ] بوردي وقد شغلني رفدي[3] عما كان به رِفْدي ؟ أم كيف أَرْوِي عمّن فات روايتي ؟ أم كيف أتراءى لمن قد طاحت معه رؤيتي ؟ أم كيف أروّي فيه ، وقد جذّ رويّتي[4] ؟ أم كيف أروَى به ، وهو سبب ظمئي بفقد ريي ؟ أم كيف أركن إلى قولي ، وقد استهلك فيه معناي ؟ أم كيف أقرّ معه ، وقد أبلاني بمن هو سواي ؟ بل كيف أصحَبُ الذات ، وقد جهلت الصفات ؟ أم كيف أدّعي جهل الصفات، وقد ناولني السمات ؟ أم كيف أقف على السِّمات ، وقد اشتبهت عليّ السِّمات ، وصُرِّفتُ[5] في تخليصها وتلخيصها بأحكام الشتات وحسرات البتات[6] ؟ هيهات هيهات ! التبست الهَنَات بالهنات، وأمْزِجت اللغات باللغات ، وحصل الخلق في الخلق من الحق على الفوات .

---

١ – ر : عنه .
٢ – السامع : مكررة في ر .
٣ – ر : وفدي .
٤ – ر : جد رؤيتي .
٥ – ر : وضربت (دون اعجام للباء) .
٦ – الباء غير منقوطة ، والتاء الأولى بنقطة واحدة في ر .

نعم يا سيدي : حدثني إن الحديث من القِرى[1] . كان من ذلك أني تعرّضتُ لأسرار الملوك ، وأمعنتُ في إدمانِ السلوك ، فأشرفتُ على أمواج بحارِ الشكوك. فإن قلتَ لي : ما الذي انتسبَ إليك من هذه الاهوال ، ولصق بك من تلك الأحوال ؟ واجهتُك بوجه صفيق . وناجيتُكَ بلسانٍ ذليق ، وقلتُ : بدا حتى تجلّى للبصر ، ثم غاب حتى [لا][2] عين ولا أثر ؛ فإن جحدتَ ما شَهِدْتَ كابرتُ العَقْلَ . والعقلُ حُجّة ؛ وإن حقّقْتُ ما حكَيْتُ استحققتُ القتل ، والقتل مِحْنة ؛ وإن ملت إلى موقف ثالث طال بيَ المطلُ ، والمَطْلُ كُرْبَة. أتدري ما السر ؟ السرُّ أن يحتاج كلُّك في كلك بتمزيق بعضك على بعضك . ليكون فَناؤك في فَنائك طريقاً إلى بقائك في بقائك . وهذه وحقِّ الحقِّ لُغَةٌ مشكلة . وحالٌ معضلة . والعقول بينهما مهملة ؛ متى كان البقاء ثمرةَ الفناء ؟ متى كان البقاء سبيلَ الفناء ؟ أين المشرق من المغرب ؟ أين المنعّم من المعذّب ؟ أين الوجدان من العدم ؟ أين الحَدَث من القِدَم ؟ أين الثريا من الثرى ؟ أين اليقظة من الكرى ؟ أين السماء من الأرض ؟ أين الطُّول من العَرْض ؟ أين العِوَض[3] من القَرض ؟ أين ما ليس له أين ، من عين أشرقت به كل عين ؟

يا هذا : مَنْ طمسَ أعلامَ الحسّ . وركبَ رواحل الأنس ، لحق رواقصَ[4] [٩٧/ب] الهُمْسِ[4] . وشهد ولائم العرس ، من استباح الجَزَعُ حِمَى قلبه . فليلتجىء إلى من موصوفه[5] بعينه في غيبه ؛ من انسلخت نفسه من نفسه ،

---

١ – هذا مثل ، وقال الشاعر

أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وقال آخر : إن الحديث طرف من القرى .

٢ – ساقطة من الأصل

٣ – ر : العرض ، وكذلك في المطبوعة : ولاخفاء في المقارنة بين القرض والعوض .

٤ – كلمة « رواقص » في ر غير واضحة تماماً ، وأقرب الصور اليها « رفائض » ؛ والرواقص الابل التي تسير بسرعة ؛ والهمس : الذين يقدرون على سير الليل دون توقف .

٥ – ر : هو صوبه ؛ المطبوعة : هو صونه .

فقد ظفر بغاية أُنْسه ، من انتفى عنه عِلْمُ الغيب بقوادح الرَّيب ، فليستأنف أوائل التوحيد ؛ من شهد معاجزه في مطالبه ، فليلزم حدود العبيد .

يا هذا : ذهب اللفظ المنمَّق ، فهات الآن المعنى المُحَقَّق . طال القولُ المُزَيَّن ، فحصِّل المرادَ المُعَيَّن[1] . كَثُرت العبارة ، فحقِّق الإشارة . تَرَدَّد الهَذيانُ ، فقرِّب أنت البيان .

يا هذا : اغتربْ عن وطنك المألوف بالعزم الصحيح ، إلى وطنك بالتحقيق وإن كان قد اتصل به[2] التلويح ، وثِقْ بأن مرويَّ ذلك المكان أشرفُ من مَرْئيِّ هذا المكان . والسلام .

- ٣٤ -

أتاح الله لك من غيبه ما لا يحلم به أَمَلُك . وصرف عنك كلَّ ما يحولُ بينه وبينك ، ولذذك بخطابه إذا ناجاك ، ومتّعك بنعمته إذا خصك ، وجعل ظاهرك ينطق عنه تحقيقاً ، وباطنك يوقنُ به تصديقاً ، ورقاك إلى ذروة عليا : آيات[3] الحقّ فيها تصفّيك ، وأحكامه تتصرّف فيك ، وأنتَ في خافي ذلك وباديه تشهد آلاءه شاكراً ، وتتقلّب في أثنائها مُسلّماً وصابراً .

كتبتُ إليك في أواخر شهر رمضان ومُسْتَقْبَلِ العيد عن حال ذات ألوان ، ما أرضاها مكتومة عندي لما أعرف من غوائلها وبُرَحائها ، فكيف أرضاها مكشوفةً عندك بغُلوائها وعُدَوائها ؟ وإذا لم يكن إلى كتمانها في جوانح[4] الصدر سبيل ، ولا على الإيضاح[5] على علاّتها دليل ، فلا أقل من

---

١ - هذه هي قراءة ل ؛ وفي ر : المعنن .
٢ - ل : بك .
٣ - صورة اللفظتين : عليات ، وكأنهما اختلطتا معاً في كلمة واحدة .
٤ - غير معجمة في ر ؛ وجاءت في المطبوعة « خوالج » .
٥ - ر والمطبوعة : الافضاح .

ذكر بعض فنونها بالكتابة التي ، إن لم تَشْفِ غُلّة ، ولم تُبرِّد فؤاداً ، ولم تمتّع روحاً ، فإنها تؤنس نفساً قد أشفتْ على العَطب ، وتجبر أركاناً قد تخلخلت[1] بالتعب والنّصَب .

فمن أوائل تلك الكتابة[2] أني قد قابلت العيد بصبابة لا يُنادَى وليدها ، وترحة لا أطمع فيما يبلي جديدها ، وغرام كلما خمدت ناره [٩٨/ أ] وسكن أُواره ، رَدَفه ما يُنْسي الأولى ، ويُذْهل عن المستقبل ؛ وما أحسن ما قال الأول :

كَم قد تجرّعْتُ من غيظ ومن أسَفٍ ... إذا تجدّد حُزْنٌ هَوّنَ الماضي
وكم غَضِبْتُ فما باليتُمُ غَضَبِي ... حتى رَجَعْتُ بقلبٍ ساخطٍ راضِ[3]

والعجب من رُوحٍ تصرّ على هذا العذاب الأليم بلا تنفيس يعتقب ، ولا تأنيس يرتقب . وكيف لا يكون حالي هكذا وحبيبي هاجري ؛ ومَن أهيم بهواه سالٍ عني ، وقد بقيتُ مرحوماً من أعزّتي ، كما صرتُ مرجوماً من أحبّتي ، فها أنا أقول :

ليهنأ العيدَ[4] مَنْ له وطـــنُ ... يأوي إليه ومَنْ له سَكَنُ
ومَن له الأهلُ والبنونَ ومَــنْ ... بلادُه منه منْزِلٌ قَمِـــنُ[5]
لا المُفْرَدِين المُطرّدين ومَــنْ ... يعتادُه الهمُّ فيـه والحَزَنُ

وقد قطعتُ حداداً لألبسه[6] في هذا العيد ، الذي أقبل عليَّ بالحَدّ والحديد .

---

١ – ر والمطبوعة : تحلحلت .

٢ – ر والمطبوعة : الكناية ؛ وهو يتحدث عن كتابة رسالة لا عن كناية .

٣ – البيتان لابراهيم الصولي (ديوانه : ١٤٦ في الطرائف الأدبية) .

٤ – ر والمطبوعة : العبد .

٥ – قمن : جدير بأن يحل به ، وفي شعر الحارث بن خالد المخزومي (الأغاني ٣ : ٣٢٠) :

من كان يسأل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزل قمن

٦ – ر والمطبوعة : لا ألبسه .

وبالعذاب الأليم الشديد. فلو رأيتني وأنا أمشي إلى المُصَلّى شاحب الوجه، غُرابيَّ الشِّعار، راغم الأنف، ناكسَ الرأس، كليلَ اللسان، خافضَ الصوت، ظاهرَ الاستكانة، لرأيتَ منظراً يُبْكِي العين الجامدة، ويُحرِّك الطِّباع القاسية، ويبعث الرحمة من كل أحد: أما من الصديق فبحق الصداقة والملح، وأمّا من العدوِّ فبفرط ألم السّقام والقرح. ولو سمعتني وأنا أنشد قول الأول:

قالوا سُرِرْتَ بيوم العيدِ قلتُ لهم: ولا علمتُ به والواحدِ الصَّمدِ
لما تيقّنْتُ أنّي لا أعاينكم غَضَضْتُ طَرْفي فلم أنْظُر إلى أحدِ

لعجبتَ. فكيف يكون حال من هو في عيده محزون، ومما تقدم من جرائره خامل مدفون، وفي جميع حالاته مفتون مغبون؟ قد تضاعف في عيده بلاؤه، وزاد عناؤه وشقاؤه. وأدهى مما به وأمرّ: أنه لا سامع لشكواه، ولا ناصر لبلواه، ولا مقبل عليه في نحواه: قد خذله [٩٨/ب] أنصاره، وأسلمه أحبابه: قد تُرِك غريباً، فريداً وحيداً حريباً[١]، مبهوتاً سليباً. فهو بين هذا الجمع الكثير منكر[٢] على عرفانه، وساكت على بيانه: إنْ نَظَرَ نَظَرَ من طرفٍ خفي، وإن نطق نَطَق بلسانٍ عيِي[٣]، وإن هَمَّ هم بقلب مَسْبِيّ، وإن نهض نهض بكاهل ملْوِي، وإن جَسَرَ جَسَر بطباع غَوِيّ، وإن أوَى أوَى إلى رُكْنٍ وَهِيّ. فهذا حديثي ومقالي، في عيدي وجمالي. لا جَرَم قد جعلت الشجو سِرْبالي، والكآبة عصابتي، واللوم — لومَ النفس — دَرْسي، والاستعانة بالتضرع حالي:

---

١ – لم يعجم فيها سوى الياء في الأصل؛ وقرئت في المطبوعة «حزيناً».
٢ – ر: مشكر.
٣ – ر: عربي (دون اعجام للباء).

ليس عيدُ المحب طَوْفَ المُصَلّى ووقوفاً للجمعِ [1] والوحدانِ

بل عيده أن يتوارى بخاله . ويَسْجر [2] بمـا دُفع إليه من زِياله ، ويعثر إذا خطا بأذياله ، ويمسح على عينه بطرف كُمِّه ، ويتخلى بهمِّهِ وسَمِّه . ويرفع إلى حبيبه [3] كَبِدَه المحترقة بحبه . ويعرض عليه ما أثّر فيه من عتبه . ويسأله الإقالة بما استمرّ به من خَطْبه . فلعله إن رُحم في أمره انكشف الغطاء عن قلبه . وانحلّت عنه عُقْدَةُ كَرْبه ؛ ثم ينشد :

للناس عيدٌ . ولي عيدانِ قد جُمعا وجهُ الحبيبِ ويومُ الفطرِ إذ حضرا

فالحمد لله شكراً لا شريكَ لـه إن المزيدَ لَمَرْجُوٌّ لمن شكرا

فطوبى لهذا البائس المسكين . ولهذا الغريب المستبينِ [4] ، أن فاز بمنية نفسه . ووجد ضالته في أُنْسه . وذهل عما مرّ على رأسه في أمسه . ولله في غيب سره وسر غيبـه فنونٌ ، الخلْقُ فيها يضلون . وعن لحاق حَرْفٍ منها يعجِزون ، ويُسَلِّمون ذلك كله ويستسلمون .

وإني مع ما وصفتُ به شاني . بأول قلمي ، لقويُّ الرجاء . سمينُ الأمل . بعيد الهمة . وما ذاك بي إلاّ من قِبَلِ مَنْ أنا إليه مُشَوَّق ، وعنه مُعَوَّق . وبحبّه مُطَوَّق . فإذا حرّك رجائي . فقد أراد خلاصي من بلائي ؛ وإذا بعث أملي ، فقد عرضني لزكاء عملي .

---

١ – ر : للجميع .

٢ – يسجر : يمتلىء أو ينفجر ؛ ولا أراه مناسباً هنا ؛ ولعل الصواب : « ويشجى » أو «ويشجر» بمعنى يصرف أو ينحى .

٣ – ر والمطبوعة : حنينه :

٤ – يمكن أن تقرأ هكذا في ر ، ولكن المعنى بهذه القراءة غير قوي . ولعل الصواب « المنبتّ » وهو الضعيف المنقطع .

وقد ألقيت إليك خفيتي ، ونشرت عليك طويتي . فقف عليهما [٩٩/أ] برقة الصديق للتصديق ، وأجبني عنهما بما يدل على الخاصة والتحقيق . وتجنب معي استطالة الأغنياء واستقالة الفقراء[١] ، واسلكني طريق الأخلاء الأوداء ، وخاطبني بلسان البلغاء الحكماء . حتى أفهم عنك إرادتك . وآخذ منك بالشكر زيادتك ، وأهب نفسي غاية العمر لك ، وأريك من حاضري وغائبي مساعدة تنسى معها ذوي الأرحام المتآصرة . وتعجب منها مع هذه الأحوال القاصرة عن الغايات التي إليها بكر المبكرون . وبسببها هجر المهجرون . وعنها أخبر المخبرون . وعليها لطمت الخدود ونزفت العيون .

وامزج عتابك بالرضى لأسلم على جمر الغضا . وإذا أمرتني بأمر ، فاستعمل الرفق حتى يخف علي امتثاله ؛ وإذا نهيتني عن شيء فلاطفني حتى يتسارع[٢] استعماله . وصف لي أيضاً من حالك ما أكون بمعرفته شريكك . وأحمد الله على ما وهب لي من شفقتك . واذكر لي كيف خرجت أنت إلى هذا العيد ، ومن صحبك من خل ووديد . وهل خطر ببالك ما أنشأتُ هذه الرسائل له من بعيد ، أم غير ذلك مما يجوز أن يقف عليه مثلي من العبيد ؟ فبالله إلا صدقتني إذا خاطبت ، وشفيتني إذا كاتبت ، وأبقيت علي إذا عاتبت ، وقصدت نصحي إذا قاربت ، وآثرت نجاتي إذا باعدت ، وطلبت في الجملة أنساً لي ، فقد اكتنفتني الوحشة ، وبلت كبدي بندى قولك ، فقد ذبحتني العطشة ؛ ومهما أتيت في أمري شيئاً فلا تدعني من يدك ، ولا تخلني من وعدك ورفدك ، ولا تقصم ظهري بإعراضك ،

---

١ – ر : الفكراء ، واظنه سهوا من الناسخ .

٢ – ر : ليسارع .

ولا تُضيّق صدري بانقباضك ، وثق بأني قد سرحت لحظاتي إلى ما يردُ من جهتك ؛ ولا قرارَ لي دون ذلك ، ولا صبرَ عندي إلاّ بعد أن تعيد وتبدي عليَّ من فضلك وإنعامك ، فقد علمتُ أنك كهفي إذا أويْتُ ، وشمسي إذا أصبحت . وقمري إذا أمسيت ، ونجمي الذي أهتدي به إذا ضللت ، ومسرةُ نفسي إذا اغتممت، وقُرّة [٩٩/ب] عيني إذا اهتممت، ونظامي إذا انتثرت ، وناصري إذا انتصرت ، وحاضري إذا غبت ، وظاهري إذا بطنت . وما رُزقتُك إلاّ بدعاء السَّحَر ، وإلا بالحجّ والنُّسك، وإلا بالتضرع عند الحطيم وزَمْزَم . أفأغفل عن نعمة الله عليَّ بك ، وأسهو عن شكر الله على ما منحني منك ، وأذْهَل عن حظي الصائر إليَّ بمعرفتك، وأكْفُر بسالف إحسانك وفضلك ، وأحْرِم نفسي ما أنتظره في[1] غدٍ من تأييدك ونصرك ؟ هذا ما لا يكون ، ولا تُطِيف به الظنون ، ولا يجهله المعتوه المجنون . إني بك لغنيٌّ ، وفيك هائم ، وعليك مُتولّه ، وإياك أطلب جدّي واجتهادي ، وإليك أبادر مع كل هادٍ وحادٍ ، وبفضلك أتحدّث في كل مقامٍ ونادٍ ، وهذا قليل فيما تستحقه عليّ ، وتستوجبه لديّ ، لأنك تخبرني عن النبأ العظيم[2] ، وتَدُلُّني على الصراط المستقيم ، ثم لا ترضى لي حتى تداويني عند كل داء بما يَحْسِمه ، وتقابلني عند كل أوَد بما يُقَوّمه :

إذا وجدتني متهالكاً في الوعد عذلتني بالوعيد ، وإذا وجدتني سادراً في العوائق جذبتني إلى الدواعي[3] ؛ وإذا وجدتني أغيبُ عن حظّي بالعادة أشهدتني فائتي بالحضور ؛ وإذا وجدتني أهذرُ في القول قرنتني بالعمل ؛

---

١ – ر : من .

٢ – اشارة إلى قوله تعالى « عم يتساءلون عن النبأ العظيم ... » الآية .

٣ – ر والمطبوعة : الدواهي .

واذا وجدتني أجهل قدري في أمري ، عرفتني مجهولي في السر والجهر ؛ في سِرٍّ لايُطوى عني فيه النصحُ ، وجهرٍ لا يَأسَ لي فيه من النُّجْح .

فمن لي بمثلك ؟ ومن لي بمن يقاربك ؟ أنا أحلُلُك مِنْ يدي ، وأسلو عنك وعقلي معي ؟ هيهات ، هذا ما لا يكون ، ولو كان ما كان له كون به بدوم .

أنا — أكرمك الله — إلى نظائر هذه المشافهة مرتاح[1] ، ولكنني من التثقيل عليك مرتاع ؛ وبقدر ارتياحي وارتياعي أتقدم بين يديك في مخاطبتك محتاجاً ، وأتأخّر عنها مهتاجاً . وإذا حَدَدْتَ لي في معروف ذلك ومُنْكَرِه حداً ، استظهرت لنفسي فيه بما يدنيني منك ، ويُحلّيني [١٠٠/أ] بعينك ، ويجري لي بالخير لسانَك ، ويَعرضني عليك ، ويُفيدني منك . وهذه حال اصطفاك الله بها ، وأحوج غيرَكَ إلى طاعتك في اقتباسها . ولله الشكر على ما أفردك به ، واستفردك له ، وعلى ما جعل لك وإليك من تقويم كلِّ زائغ[2] ، وتعديل كل زائغ ، وتهذيب كل قائل ، وإغناءِ كلِّ سائل . وهذه درجةُ الأنبياء الذين هم بين الله وبين الخلْق ؛ فهنّاك الله هذه النِّعْمـةَ بالتنعم فيها ، وخفف عليك إمدادنا ومعونتنا بها . فإنّا إلى ما نصل[3] به من جهتك محتاجون ، ولما يصل إلينا من برّك وتفضلك شاكرون ، ولله فيما خوّلنا من هذه المودّة والمساهمة حامدون . فإن رأيْتَ أن تتصدّق علينا بزمانك الذي فيه يمكنك جوابنا متفضلاً بما يريك الله في أمرنا في التوجع لنا

---

١ — ر : فهو مرتاح .

٢ — ر والمطبوعة : رابغ .

٣ — كذا ، ولعلها « نوصل » .

إذا أصبنا ، وفي التنبه لنا إذا غفلنا ، وفي شحذ بصائرنا إذا كلّت فينا ، وفي الأخذ بأيدينا عند عثراتنا ، وفي الاهتمام بنا إذا رفعنا ظُلاماتنا — فعلتَ إن شاء الله .

أيها الطالعُ علينا من بَلَدِك النازح ، والمستحَثُّ على ضعفنا بالبارح والسانح : أما تعجب من رقة هذا اللسان المشكل الواضح ؟ أما ترغب أن يكون لك منه نصيب رابح ؟ فإنْ حرّكتَك همّتُك إلى هذا [الذي][1] حَثْثْتُك إليه . ونزعت بك النيّةُ إلى هذا الذي أقبلتُ بك عليه ، فخذ أُهْبَةَ ذلك .

أتدري ما الأُهْبة ؟ هي أن تجرّد العزيمة في نفسك من قاذورات هذه الدنيا ، ثم تصل العزيمة بالصريمة[2] في الصبر على واردات البلوى ، ثم تظهر[3] بباطنك نفسك ، ثم تتستّر بباطنك لظاهرك ، ثم تعتمد إلى الحق معتقداً ، وتثابر على العمل معتمداً ، وتَظَلَّف نفسك عن شهوات المَرْأى والمَسْمَع مجتهداً ، وتجعل الهمَّ كلّه همّاً واحداً ، فإنّ صاحبَ الهموم الكثيرة مُشَتّتُ البال ، ضعيفُ النحيزة ، مخلوبٌ[4] بأول بارق[5] من الدنيا ، مخدوعٌ عند أول سانح من الهوى . وصاحبُ الهمّ الواحد عاضٌّ على الناجذ ، صَبُورٌ عليه صبر الماجد ، ومتلذذ به [١٠٠/ب] تلذذ الواجد . وهذا واضح عند من له خبرة يسيرة ، وتجربة قصيرة . أعني أن الإنسان يعلم بأدنى تماسك يرجع إليه ،

---

١ – زيادة ضرورية .

٢ – الصريمة : إحكام الأمر والعزم .

٣ – ر : تطهر .

٤ – ر والمطبوعة : مغلوب .

٥ – ر : رايق ؛ المطبوعة : رابق

وأقل سبب من التمييز يتعلق به ، أن الهمّ إذا كان واحداً تلاحقتْ به القوى . وساعد على رِفْدِهِ النُّهى . وقدر صاحبه أن ينجو من كَرْب إذا كَرَب . ومن واثبٍ إذا وثب ، لأن الشكيمة تشتدُّ في الدفاع ، والرويّةَ تحتدُّ في الامتناع . فأما إذا تشتت السّرُّ في أودية الأماني . وضلَّ الرأيُ في أجناب[1] الشهوات . وكلَّ الحدّ عن مقاومة الخادعات . فإن الإنسان يُؤتى عند ذاك من مَأمَنه ، ويُوحَش في مَأنَسه ، ويُفْقَر أغنى ما يكون في حسابه .

اللهم : إنا لا مَقْصَر لنا عنك ، ولا مَطْلَب لنا دونك . ولا مذهبَ لنا وراءك . فبحرمة ذُلّنا في حاجتنا إليك إلاّ أعززتنا بالوصول إلى حضرتك . وفككْتنا من أيدي خلقك . وكنتَ لنا بفضلك ، وعُدْتَ علينا برحمتك . يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣٥ -

اللهم : إني أشكو إليك شاهداً خدوعاً . وغائباً مقطوعاً . وحالاً بين هذين لَسْنا ننفكُّ منها نُزوعاً ، ولا نستسهل عنها رجوعاً ، ولا نجد لأنفسنا فيها خشوعاً ولا خضوعاً .

اللهم : فاجمع هذا الشَّمْلَ المُبدَّد ، واكفنا مؤونةَ هذا اللفظ المُرَدَّد . بالمعنى المقوّم المسدَّد ، وإنما نعيد السؤال ونكرره لعلمنا بأنك القادر الممجد.

اللهم : إنّا كما نعجز عن وصفك بما أنت أهله ، نستحيي أن نسألك ما نستحقه . ولولا أنك تحرِّكُ منا الساكنات عند التوجه إليك ، وتُسَكِّن منا كلَّ متحرك عند تعظيمك وإجلالك ، لما كنا نتذبذب هذا التذبذبَ في هذه

---

١ – ر والمطبوعة : اجتناب ، وهو غير ملائم للمعنى ، اذ الرأي لا يكون ضالا اذا اجتنب الشهوات ؛ والأجناب : النواحي .

الأحوال المختلفة بالعيان ، ولا كنا نتسبب هذا التسبب في هذه الأمور الملتبسة بالعِيّ والبيان . ولكنّا بك لأنّا لك ، ومعك لأنّا منك . وعلى كل وجه فإليك المفزع ، وإلى بابك المرجع . [١٠١/أ] فانفِ عن رجائنا حوائمَ الياس ، واصرفْ عن حاضرنا وغائبنا خوالبَ الوَسْواس .

يا هذا : قد طال نَشْري عليك مَطْوِيَّ هذه القصّة بصروف من العبارة ، وصنوف من الإشارة ، رغبةً في شعلة تبدو منك ، وطمعاً في نجابةٍ تنطق عنك ، ونظراً إلى إثارة الحق في سِرّ يَطّلع عليك ، وأنت على طينتك جامدٌ لا تذوبُ ، وخامدٌ لا تلتهب ، وراكد لا تهب ، وميّتٌ لا تتحرك ، وباهت لا تُبصر ، ونشوان لا تُفيق ، وكثيرٌ لا تتوحد ، وكَدِرٌ لا تصفو ، ومنقبضٌ لا تنبسط ، ومدْعُوٌّ لا تَحْضُر ، ومسؤولٌ لا تجيب ، ومنصوحٌ لا تقبل ، وغادٍ لا تروح ، وثاكلٌ لا تنوح ، وكاتم لا تبوح .

يا هذا : لا تُرَعْ ، فما أقربني منك ، وما أشبهني بك ، وما أشد انخراطي في سِلْكك ، وما أسفرني عن نقابك ، وما أسكنني في كهفك ، وما أطيرني بجناحك ، وما أفوهني بلسانك ، وما أرْناني بطرفك ، وما أحملني لثقلٍ مثل ثقلك ! لكني مُمتَحَنٌ من بابٍ آخر قد[١] كفيتَه وغنيتَ عنه ، وهو أني مستنطَقٌ بما إنْ خالفتُ فيه كان دَماري ، وإن استحفرتُ به كان ويلي منه .

هذا بعض حديثي[٢] على تقطّعه وانبتاره ، وبابٌ من شأني على تشعبه وانتثاره . فما بقي في ديوان قصتي إن قيل يا هذا تزحزح عن هذا المكان قليلاً حتى نتناجى بلغة أخرى ، ونتهادى النصح بها على طريقة هي أوْلَى بنا وأحرى :

---

١ – ر : فقد . ٢ – ر : حديثه .

مَن استأذن على الله أذن له ؛ من قَرَعَ باب الله دخل .

كيف تنتفع بالنصيحة ، وأنت مقيم على الفضيحة ؟

خَوْفُ الله جُنّةٌ من كل كارث .

معرفة الله روضة من رياض العقل .

ما أنطق الليل والنهار لو[1] استمع إليهما وفهم عنهما .

كم من عقل أسير عند هوى أمير .

الجدل في الدين مَطْرَدة لليقين .

الاتّباع خير من الابتداع ؛ الابتداع أخطر من الاتباع .

النية عِرْق ، والخير شجرة ، والعمل به ثمرته .

الشريعة مأدُبة الله [١٠١/ب] للعباد .

السُّنّة حلية الديّانين .

التوحيد حياة النفس .

المعرفة الفوز بالقدس .

من تبع هواه فقد عبد غير الله .

أكْرِم نفسك ما أعانتك على طاعة الله ؛ أهِنْ نفسك ما عاقتك عن خدمة الله .

الويل لمن ضاقت رحمة الله مع سعتها عنه .

لك من الله نسبٌ أصحّ من نسبتك إلى أبيك ، فاحفظه فإنه ينفعك .

إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله ، فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك ، فلن يفوتك من قدرته ما يكفيك .

سُق عقلك إلى ملكوت الله ، ولا تُقْحمه في جبروت الله .

إذا استأثر اللهُ بشيء فالْهُ عنه .

---

١ – ر : ولو .

إذا ما تلطّخت بعار فارحضه عنك بالإنابه .

أنت بين هادٍ يقودك وحادٍ يسوقك ، ففيمَ تثبطك وتبَطؤك ؟!

ليس للغواية غاية تقف دونها جهدك .

لا تحلم عن نفسك إذا أعتبتك ، ولا تَعْصِها إذا أرشدتك .

اجعل الجدّ كله في إعداد الجواب يوم المسألة .

عرَّضَكَ لبقاءِ الأبد ربّك بحسن اختياره لك ، فلا تتعرّض أنت لفناء الأبد بسوء اختيارك لنفسك .

من انقطع إلى غير الله وكله الله إليه .

من صَلُحَ مع الله لم يَفْسُد مع غيره .

من حارَب الله حُرِب ، ومن سالم الله سَلِم .

أصْدَقُ الكلام كلامُ الله .

كيف ينجو مَنِ الله طالبهُ ؟

كيف يضيع من الله كافله ؟

ما أقربَ العبد من الله إن فَطِن لما فيه .

لله عندك وديعة ، فاحفظها وتوسل إليه بها

المعرفة مصباح القلب .

التوحيد نورُ الله في قلب العبد .

التوكّل حصن المؤمن .

الوجد حقيقة الحال .

العقل رسول الحق .

الظّلف عزة النفس .

الظرف عنوان الطهارة .

الصمت روضة الفكر .

اللفظ ثمرة الإرادة .

الإرادةُ تصوّر القلب .
الأريحية هيبَة الكرامة .
الكناية همس الفؤاد .
التصريح بروز المراد .
العمل شعار البدن .
العلم شعور الروح .
الوصف تبيان الموصوف .
الموصوف غاية الواصف [١٠٢/أ] .
الحظر التنزيه عن الدنس .
الإباحة علم التصرف في المِلْك .
الطمع رقّ لكنه خدّاع ، واليأس عِتْق لكنه قَطّاع .
العقل صُعود ولكن إلى أعلى علِّيِّين ، والهوى حدور ، ولكن إلى أسفل السافلين .

يا هذا : مَرَّ أيضاً هذا الفن فلا والله إن أدري كيف انتشاؤك به ، وكيف ارتشافك له ؟ وكيف انتعاشك عليه ، وكيف انفاشك منه ؟ فإن كانت الغلبة لروحك اللطيف ، فلا شك أن حظك من كل ما يمرّ هو الحظ الشريف ؛ وإذا كان الحظ لبدنك الكثيف ، فلا شك ان حظك – من جميع هذا – الحظُّ الطفيف . فاسترسل الآن في نفسك باحثاً عن أمرك وخبرك ، فعساك تظفرُ بمرادك ونظرك وعِبَرك ، فإنك ملك في ملك ، فانفض الملك ناشراً ، وانشرهُ نافضاً ، وقابلهُ مُدابراً ، ودابره مقابلاً ، وياسره معاسراً ، وعاسره مياسراً ، وتقلب طالباً ، وتطلّب متقلباً . فإنك تصعد باختلاف هذه الحالات في سلاليم هذا العالم المنضود بالحكمة ، المنظوم بالقدرة ، المنقوش بالزينة ، المزيّن بكل حلية مخزونة .

يا هذا : مداراتي لك مدارةٌ لنفسي ، ودعائي لك استكانة مني ، واستكانتي استجابةٌ إلى حظي . فاستجابتي إلى حظي بلوغٌ إلى غايتي ،

وبلوغي[1] إلى غايتي فوزي بمن أنا به وهو لي .

إذا بلغ اللفظ هذا الحدّ ، فالرأي البريء من العاهة ، السليمُ من الآفة ، أن تُداوى بالسكوت الذي هو أغطى[2] للمكشوف ، وأكنى عن المألوف ، وأعنى بالمعروف .

تأمّل مخزونَ قول بعض العارفين ، فإنه قد هتف بشأنٍ عظيم عن محلٍّ في أعلى علّيين ؛ قال : إذا رأيت الله عز وجل يؤنسك بذكره ويوحشك من خَلْقه ، فقد أرادك . وإذا رأيته يؤنسك بخلقه ويوحشك من ذكره ، فقد طردك .

وقال آخر : يا تُجّار الآخرة ، أبشروا بالأرباح الفاخرة ؛ لا تَمْهر الدنيا دينك فإن مَنْ مَهَر الدنيا دينه زفت إليه بالندم والسقم والألم .

وقال آخر : حِمْيَةُ العارفين [١٠٢/ ب] حِمية المرضى ، ونومهم نوم الغَرْقَى ، وندمهم ندم الهلكى .

وقال آخر : من دواعي المقتِ ذَمُّ الدنيا في العلانية ، واغتنامها في السر .

يا هذا : انظر في كم مرقاة قد علّيتك ، وفي كم بساط قد خطّيتك ، وكم ثمرة عرضتها لك ، وبكم جَهدٍ لاطفتك ، وبكم عبارة شافهتك ، وبكم ضرب عَلّلتك ، ومن كم وجه أردت الخير لك ، وفي كم طريق سلكتك ، وعلى كل ثَنيّة أطلعتك ، وفي كم بحر غمستك ، وأيَّ شمس أطلعت عليك ، وأيَّ كنز أحضرت بين يديك ، فبادر إلى حظك ولا تُلْوِ على غيره ، فإن النفَسَ وإن كان ممتداً فإنه مرتد ، والزمان وإن كان متصلاً فإنه منفصل ، والوقت وإن كان مساعداً فإنه خاذل ، والكَتوم وإن كان جَلْداً فإنه باذل .

---

١ – ر : وبلوغ .

٢ – ر : أعطى .

يا هذا : الحركةُ في نوع السكون ، والسكونُ في هيئة الحركة ، وأنت بينهما مطحون على رفقٍ ولين ، وليس عنهما مُنْفَرَج ، ولا إلى غيرهما مُنْعَرَج . فخذ بخُطام نفسك إلى غايتك ، فلا شفيق لك ولارفيق ، وكن كما قالت البدوية لما وضعتْ ذاتَ بطنهـــا ، ولم يكنْ لها من يعينها على شأنها : « تَخَرَّسي يا نفسُ لا مُخَرِّس لك » أي : اصنعي الخُرْسة[1] بنفسك لنفسك ، فليس لك من يتولى ذلك على العادة القديمة .

يا هذا : ارفع طَرْفَك ؛ أجِلْ فكرك ؛ أطِلِ اعتبارك ؛ اصدُقْ نفسك ؛ اعبُدْ ربك ؛ اهْجُر غاشّك ؛ أطِعْ نصيحك[2] ؛ طَهِّر سِرّك ؛ ارقب رسولك ؛ أصْلِح فاسدَك ؛ المْ شَعَثَك ؛ جــدّد خَلَقَك ؛ جرِّدْ نيّتك ؛ هاجرْ إلى مولاك ؛ باين شهوتك ؛ عادِ شيطانك ؛ أجب داعيك ؛ ارْعَ راعيك ؛ قدّم زادك ؛ كَثّر عتادك ؛ ثبّت أياديك ؛ وثّر وطاءك ؛ كثّف غطاءك ؛ افهَمْ وتفهّمْ ، واعلم وتعلّم ، وبيّن وتبيّن .

اللهم : صِلِ التوفيق بقولنا ، والتصديقَ بعملنا ، والتحقيق بقلوبنا ، ولا تكِلْنا إلى حولنا وقوتنا ، ولا تحُلْ بيننا وبين ما يقرِّبنا منك ، ويدنينا من بابك ، ويجيرنا من عذابك [١٠٣/أ] ويُهدي إلينا رِضْوانك ، ويُفيض علينا غفرانك .

يا هذا : أرْوِدْ[3] فالأمر غريب ، وارفُقْ فالشأن عجيب ، واتخذ الصبر جُنّةً فالخطبُ عظيم ، وقلِ الحقَّ فالسرُّ كليم ، واسبح في بحر الأحوال فالساحل بعيد ، وتشبث بالهادي فإنك سعيد .

---

١ – الخرسة : طعام النفساء ؛ وقوله « تخرسي يا نفس لا مخرس لك » قد جرى مجرى المثل ؛ انظر الميداني ١ : ٨٣ .

٢ – ر والمطبوعة : نصيحتك .

٣ – أرود : امش رويداً .

يا هذا : إذا ترنّموا لك بغيب التوحيد على ألحان المعرفة فاشخَص عن مكانك ، واشتَقْ إلى مَعانِك[1] ، وانقطع عن أقرانِك ، وانسلخ عن شانك في شانك . وليس يكمل لك هذا الرأي ، ولا ينصعُ في نفسك هذا النصح ، حتّى تقشِر جُملتك قشراً ، وتنشرَ تفصيلك نشرا ، ثم تطوي معناك طيا ، وترتدّ عن غيبك شيأ فشيأ . وما أهونَ هذا التدبيرَ بالوصف ، وما أسهل هذا الإرشادَ باللسان ، وما أغزرَ هذا العدد[2] بالفَرْض ، وما أعزَّ هذا المراد بالعَرْض ! هاجتِ الأسرارُ ، وماجت الأحوال بين الإيراد والإصدار ، ووَزِنَ كلُّ شيءٍ بالاختيار والاضطرار . سقى الله ليلاً كان يلتقي طرفاه على زفٍّ بنات الصدور[3] من معادن الغيب بوسائط العلم على بساط الحقيقة ، بلا قذىً من قاذٍ ، ولا شَوْبٍ من شائب ، ولا همّ من هامّ ، ولا نَبْزٍ من نابز ، ولا هفوة من هافٍ ، ولا ضجرةٍ من جافٍ ، ولا وَهْمٍ من واهم ، ولا طَرْفَةٍ[4] من ساهمٍ . ما كان أحلى تلك الشمائلَ عند اختلاف الحركات ، وما كان أحلى تلك النوائلَ عند ائتلاف السكنات ، وما كان أعلى تلك القُلل عند تناول الثمرات ؛ وما كان أشفى لتلك الغُلل مع تواتر الوَصَبات ، وما كان أضوأ تلك الوجوه عند المباسم المؤنسات ، وما كان أسعد تلك القلوب عند اتصال المسرّات[5] !

---

١ – المعان : الأصل .

٢ – ر : الغدر ؛ المطبوعة : العذر .

٣ – زف بنات الصدور : هبوبها وانطلاقها ؛ وفيه إشارة إلى زفاف العروس لزوجها ، أي إهدائها إليه .

٤ – رسم الكلمة في ر : ضربة (دون اعجام) ، وكتبت في المطبوعة : ضربة ، ولا معنى لها ، والطرفة : تحريك الجفن مرة .

٥ – رسم الكلمة في ر يشبه «المبشرات» دون اعجام للباء ، وكذلك وردت في المطبوعة .

يا هذا : الزَمْ سَمْتَكَ في سِرك ، وزِدْ في تشميرك ذيلك ، وواصل نهارك بليلك ، وافقه عن مُجاورك ، وأبَهْ لمحاورك ، وتحصَّن من نفسك في نفسك ، وتبرّأ من جنسك في بني جنسك ، واشهد الغيب . وغب عن الشهادة ، واحفظها عند بروز الحق الذي إذا بدا لك أباد ، وإذا أحبَّ أعاد[١٠٣/ب] وأفاد ، وإياك وملابسةَ الكَوْن ، فإنها تؤدّيك إلى الفُرْقة والبَيْن ، وعليك بالتجريد والتفريد ، وعليك بهجران كل شيطان مَريد .

يا هذا : أتدري مَنْ شيطانك ؟ أنت شيطانك ، وأنت الذي سهوتَ عنك بعد ما بَدَوْت ، وغربتَ بعد ما طلعت ، وبعُدتَ بعد ما قربت ، واستوحشت بعد ما أنِسْت ، واستبدَدت بعد ما استعنت ، فآل أمرُك إلى الخُسر والضَّياع ، ووقف حالك على الغبن والخداع ؛ وليس هذا من علامات عمارات الرِّباع ، ولا من أمارات خصب البقاع [1] ، وليس فيه أيضاً ما يدل على بياض وجهك عند من به ثباتك ، وإليه صراطك ، وعليه عَرْضك ، وعنده مثواك ، وهو مالكك ومُصَرِّفك ، وهاديك وكافلك ، وفي عالمه تبسطك وتقبضك ، وتحت مشيئته جرَيانُك وسَرَيانُك ، وإليه مصيرُك ومآبك .

يا هذا : إن كنت مصاباً ، فأين الحزنُ والجَزَع ؟ وإن كنت مستفيداً ، فأين الفَرَح والتمتع [2] ؟ وإن كنت حائراً ، فأين الدليل والهادي ؟ وإن كنت جائراً ، فأين التأتّي والتفادي ؟

إذا سما بك العزُّ إلى علياء التوحيد ، فتقدّسْ قبل ذلك عن كلِّ ما له رسمٌ في الكون ، وأثرٌ في الحس ، وبيانٌ في العيان.. فبالتقديس يمكنك أن

---

١ – عاد فكرر هنا « على الغبن والخداع » . ولا مكان لها .

٢ – ر : الفرج والتمتع .

تعانقَ الباديَ من ذلك المحلِّ بكُلِّك وبعضك . ليس الأمرُ باللعب ، وليس الحقيقة بالتمني ، ولا المطلوبُ حيث تظن ؛ الظنُّ هناك يدهدهك[1] والوهم يُسَفِّهك ، والخبر يَعْصمُكَ ، والاستخبار يُنَوِّهك ، والتسليم يُؤمِّنك ، والاستسلام يحفظك ، والوصف يُغَلِّطك ، والكشف يشطّطكُ ؛ والاستمرار يُذلك ، والاستهتار يُضِلُّك . هناك فنونٌ أنت منها في عراء لا مؤنس لك فيه :

غُرَّ امرُؤٌ منّتْهُ نفسٌ أن تدوم له السّلامَهْ

اقتصَّ من نفسك فقد قتلتك ، ثم أقصَّها منك بعد قتلها . قتلتكَ بالتسويل وقتلتها بالتعويل [١٠٤/أ] فكان قَصْرُكما التضليل[2] والتخييل .

اللهم : إنا نَرْمي إلى خلقك بما تُلقيه في رُوعنا من هذه الزجرات المُنَبِّهات ، والعظات النافعات ، قصداً منا لانتفاعهم بنا ، وإراغةً[3] منّا لاجتلاب حظهم إليهم باجتهادنا ، وليكون ذلك كله جلاءً لبصائرنا ، وشحذاً لما كَلّ منا ، وتنشيطاً لما فَرَّ عنا ، ونظماً لما تناثر دوننا . ونحن نسألك أن تُسَدِّدنا في مقالنا ، وتعيننا في فعالنا ، وتوجّه إلينا توفيقك الذي لا يَضِلُّ [به] مَنْ سلك نحوك ، ولا يعيا من قال عنك ، ولا يخطىء من أشار إليك ، ولا يَخيب من سألك ، ولا يَضيعُ من توكل عليك .

إلهنا : لولا أنّا نجدُ من رَوْح هذا الحديث ما يبعثنا على مناغاة عبادك ما ابتعثنا لذلك ؛ ولولا أنا نرجو به وبأمثاله تقرُّباً إليك ، ومكانة لديك ،

---

١ – يدهده : يدحرج من مكان مرتفع إلى مكان منحدر .

٢ – ر والمطبوعة : التفشيل .

٣ – أراغ بمعنى أراد ، والمصدر : إراغة .

ما نَقَّرنا[1] عن سرك المخزون ، ولا نطقنا عن غيبك المكنون ، وكان إعراض مَنْ أعْرَضَ عنك هيّناً علينا ، وهلاك مَنْ هَلَكَ عن حظه سهلاً عندنا. ولكنا نرى في ذلك ما تُرينا ، فيرى غيرنا منه ما يكون زيادتنا في مقامتنا ، وسبباً للرفق في سعادتنا ، وباباً مفتوحاً إلى الفوز الذي طال في طلبه سعينا ، وأنفِذَ في تحصيله وُسْعُنا ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣٦ -

اللهم : إنّا قد بذلنا دون طاقتنا في طلب ما عندك ، فهب لنا تأييداً منك حتى نستنفدها في حيازة رضاك ، فإنك إن وكّلتنا إلينا عجزنا ، وإن تركتنا علينا تحيّرنا ، وإن كنتَ لنا فيما بينك وبيننا فُزْنا . وكيف لا نطلب فائتَنا منك وأنت المفيت ؟ وكيف لا نحاول فائدتنا عندك وأنت المفيد ؟ وكيف لا نشهدك في كلنا وبعضنا وأنت المحيط ؟ جلّ شأنك عند كل شان ، ودقّ سرك عن الإسرار والإعلان ، وغَنيتَ عن أن تُعْرَف بدليل وبرهان ، لأنك قبل كل أثر[2] وعيان ، وبعد كل إيضاح وبيان . فمن ذا ينعتك وأنت تَفوت النعتَ ، ومن ذا يجحدك وأنت مالكُ الوَقْت ؟

[١٠٤/ب] أيها الصديق المشفق ، والصاحب الموالي ، والمشتكي المساعد: [استمع][3] ما غشيني من عِياني وخبري، فلعل حُسْنَ الاستماع منك ينفي عني وحشةً قد كَدَّتني وآدتني ، وردّتْني عن مقاصدي وأرْدَتْني ؛ فلو انكشف عنك غطاء أمري ، وبدا لِتَصَفُّحك وجهُ عذري ، أشرفتَ على حقيقة عرفي ونُكْري ، وتجلّت عندك خالصةُ سِرّي وجهري . وكنت أكفى

---

١ – ر والمطبوعة : تقرباً .

٢ – والمطبوعة : اثرة .

٣ – ساقطة من ر ، وفيها : وما غشيني ، فلعله قد سقط قبله كلام آخر .

مؤونة الاعتذار : كما قد كُفيتُ غائلة الاغترار ، وخلابة[1] الاختيار والاضطرار .

قد أصبحتُ مرضوضَ البال ، مخفوضَ الحال ، مِنْ معنىً قد ولّهني على خيال ما مضى ، وأذهلني عن الكائن[2] الذي عرّا ، واستعارني[3] بالفكر في المستقبل الذي لعله لا يُحَس ولا يُرى . لا جرَمَ أسقَى ممزوجاً وأستَسْقي صِرْفاً ، وأهَبُ حياة[4] وأكافأ حتفاً ، وأعد ما أعد حقاً ولا أجِدُ ما أجد[5] إلا خُلْفاً . على أني إن [تحركتُ][6] تحركت متقبلاً ، وإن سكَتُ سكَتُ مُسَلِّماً ، وإن قُلْتُ قُلْتُ متأدباً ، وإن سكنت [سكنت][6] متهيباً . وإن طلبت طلبت متضرعاً ، وإن أمسكت أمسكتُ متفزعاً . فأين الآن ما لي فيما عليّ ، أو أين ما بي بما فيّ ؟ فيا بُشْراي إن كان المراد مستجيباً ، والسعي نجيحاً ، والتمني حقاً ، والمطلوبُ مدركاً ؛ ومرحباً بالخيبة إن كانت مريحة ، وبالحرمان إن كان غاية ، وباليأس إن كان آخراً ، فقد قيل : القتل أعفى من الأسر[7] .

عجباً من سرٍّ أناف على العلانية بالحقيقة ، وعلانيةٍ تمزقت بالبحث عن الجليلة والدقيقة ؛ بل عجباً من خَبَرٍ استغلى على العِيان ، وعيانٍ توارى

---

١ – ر : وعلاية .
٢ – ر : الكأس ، والسين علامتها واضحة ؛ والكائن : الحادثة والمصاب .
٣ – كذا ، ولعل الصواب : واستعادني ؛ أي أنه بعد أن أذهله عن حاضره ، استعاده ليفكر في المستقبل .
٤ – ر والمطبوعة : حياه .
٥ – ر والمطبوعة : أوجد .
٦ – زيادة ضرورية .
٧ – أعفى : أسهل مؤونة ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز : لعمري ما البراذين بأعفى من الفرس ، يعني ليس هذا بأسهل مؤونة من ذاك (انظر المغرب للمطرزي ٢ : ٥٠) .

بالخبر بلا بيان . وأعجبَ من ذا وذا أني أراه بعين الرضى في الغضب. فيا ويلي مني أو ممن أنا به في كَيفي وأيْني ! ماذا أُريدَ بي ؟ وماذا أُريغَ نحوي ؛ وأيّ فضاء غُصِّص بعنّي وشجوي ؟ أثبَتني لي ثم أبْطَلني ، وعَطَفَني عليّ ثم خَطَفني مني ، فلو أنه حين أثبتني أمدني ، لكنتُ بالرضى محسوداً ؛ أو حين عطفني علي بقّاني ، لكنت بالمنى مقصوداً . ولكن وهب لي ما وهب من غير حاجة مني إليه ، ثم أخذ مني ذاك بعد إلْفي له وولَهي عليه ؛ قدرة لا تحاط ، وحكمة لا ينال منتهاها ومُشْبه [١٠٥/أ] منتهاها ، ومشيئة لا يدرَك مداها ، وَخبرَةٌ مُسَلَّمة في أولاها وأُخْراها .

ولولا شرَّة النفس الكذوب ، وجماح الطّمع الوَثوب ، لكان اليقين تلو الإيمان ، والتسليمُ قَبْلَ البرهان ، والثقة في الخبر قبل الشهادة بالعيان، لأن المنعم بدأ بالنعمة قبل الاستحقاق ، فأسلف العتقَ قبل الاسترقاق . فسبق الجودُ بما أوفى على التحكم ، وأتت الجملة بما زاد على التفصيل . فويلي من جهلي بجهلي ، بل ويلي من علمي بعلمي ، بل ويلي من كلي وبعضي ، بل ويلي من ظَنّي وفَرضي[1] ، بل ويلي من قالي وقيلي ، بل ويلي من طلبي وسُولي ، ، بل ويلي من وَيْلي وعَوْلي من عَوْلي . غيبٌ رمز بالحقائق ، وشاهدٌ صَرَّح بالعوائق ، ومُحَصِّل الرمــز والصُّراح حيرانُ حَرّانُ بين الروانق[2] والبوائق .

يا هذا : إن فهمتَ هذه اللغة من هذا الديوان على هذه الكناية فقد قرب[3] ما تريد لأنك لا تصغي إلا إلى ناطق ، ولا تقع إلا على شاهد ، ولا تقترن إلا بمُفْصِح ، ولا تستنيمُ إلاّ إلى مُرشد . وعند ذلك تَحُول

---

١ – ر والمطبوعة : عرضي . ٢ – ر : الروايق؛ والروانق جمع رنقة، وهو الماء الكدر القليل

٣ – ر : فرت ؛ والمطبوعة : فزت .

وحشتك أنساً ، وتزولُ دهشتك رأساً ، وتتبرأ من كل « ليتِ » و« لو » و « كيف » و« أين » و« عسى » .

يا هذا : أحْصِ أركان نعمته عندك ، وأصناف أياديه قِبلَك ، ثم اعترف بأنه أولها بالجود وثانيها بالمزيد وآخرها بالدوام . فإنك إن سهوتَ عن الإحساس بنعمته لم تصلح أن تكون في المخصوصين بخدمته ، ومن لم يصلح لخدمة الملوك لم يُؤَهَّل لأسرار القلوب ، ولم يوثق به في عوارض الأمور .

فمن جملة ما نبهتك له وحركتك إليه ، أنه وهب لك حياة بها تحسّ وتَلَذّ ، وبها تعيشُ وتنعَم ، وبها تتحول وتسكن ؛ ثم وهب لك قلباً جعله معْدِن توفيقه ، ومأوى الطمأنينة به ، وكهفَ الإيمان بربوبيته ، وحرَمَ الأنْس بمناجاته ، ومنبعَ الخواطر في مناغاته ؛ ثم وهب لك عقلاً به وَصلَك بنفسه ، وبه أطلعك على غيبه ، وبه عرض عليك بدائعَ ملكه وعجائبَ كونه ، وبه استخلصك لمخاطبته ، وبه حاشك إلى حظك في معاينته ، وبه منعك من نكرته ، وبه عمك[1] في معرفته ، وبه وعدك لتملك ، وبه يوعدك لئلا تهلك ، وبه ربّاك وغذّاك [١٠٥/ب] وذرأك[2] وروّاك ، وبه كلّفك وشوفك ، ولطّفك وظرّفك[3] ؛ وبما لا تحصيه فكراً ، ولا تلم به ذِكرا ؛ ثم وهب لك لساناً يذكره ويذكرُ أسماءَه ، ويَصفه ويَصف آلاءه ، وبه تَنشر عجائب قدرته ، وتَستخرجُ دقائقَ حكمته ، وتَستنبطُ جسائمَ نعمته ، وتستدعي عواطف رحمته ، وتتعرض للطائف رأفته . فانظر كيف ركّبَك وقَسّمَك ، وكيفَ جَمّعَك ونَظّمك ، حتى تحس بروحك وتنعم ، وتهتدي بعقلك وتعلم ، ويطمئن

---

١ – قراءة لا بأس بها ، ولكن ربما كانت اللفظة « غمسك » .

٢ – ر : وذراك – بتشديد الراء – .

٣ – ر والمطبوعة : وطرفك .

قلبك وتسلم . فهل منعمٌ له هذه الأوائل والثواني ، وهل قادرٌ على هذه الأسرار والمعاني ، وهل أحدٌ يرقى إلى هذه المغاني ، ويشهد هذه العيونَ الرواني ؟ هيهات ! أنت مغرور بالآمال والأماني ، مخدوع بالأشغال والتواني. فليتك إذ عرفت محلّكَ قد[1] جنحت إلى ما يجلب الرحمة إليك ، ولا يوكل الغيظ بك .

يا هذا : توكّلْ وخفْ ، وارجُ وسلّم ، وارضَ واصبِرْ ، واشكُر واطمع ، وأخلِصْ وتيقن ، وأحبب وثِقْ ، واعرفْ واسترح . فإنك إذا توكلت خائفاً آمنك كافياً ، وإذا رجوت مسلماً قبلك مصافياً ، وإذا رضيت صابراً قرّبك متقبلا ، وإذا شكرت طامعاً زادك مكافئاً ، وإذا أخلصت متيقناً اتخذك مناجياً ، وإذا أحببت واثقاً أبرزك عيناً ، وإذا عرفت مستريحاً استخلفك واحداً . وإذا بلغت هذه الذروة العليا ، فقد اعتصمت بالعروة الوثقى ، ولا يبقى بعدها لك ما يكون اقتراحاً منك ، وتحكماً لك ، بل يصل ذلك بنظائره : مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فهلُمَّ – عافاك اللهُ – إلى حضرةِ العزّ ، وبساطِ الكرامة ، ومجلسِ الأنْس ، وسُدّةِ الغنيمة ، وفضاءِ الروح ، وسريرِ الأمان ، وساحةِ الإلهية ، وبحبوحةِ الربوبية ، حيثُ الكون بما فيه عدَم ، وكلّه بما عليه حُلُم .

يا هذا : ارحم نفسك لنفسك ، واطلب حظّك بحظك ، وحصِّل غدك من يومك ، وتفرد بخُويصّة[2] أمرك ،ودعْ عنك ما خباله عاجلٌ عياناً ،ووباله آجلٌ زماناً[3] . أما تمتعضُ من وقوعك في فخّ الهوى وحبالة الشهوة ، وشرك

---

١ – ر : منذ .

٢ – الخويصة : تصغير خاصة ، أي الذي اختصصته لنفسك ؛ وفي الحديث : بادروا بالأعمال ستاً : الدجال وخويصة أحدكم ، يعني حادثة الموت التي تخص كل انسان .

٣ – في رصورة « ايماناً » دون اعجام .

الشيطان ، بسببٍ ظاهرٍ لا ثبات له ، وزِبْرِجٍ لا صنعَة فيه ، وعارض [١٠٦/أ] لا غيث معه ، وظل لا مُعَوَّج عليه ؟ وهبك اغتررت وفَودَاك يحكيان الغُرَاب[١] ، فما عذرك الآن وقد نبا عنك الخضاب ؟ لا عذرَ إلا سوءُ العاقبة وقلةُ النظر وفسادُ التمييز ، وإلا فالمنادي بعيد الصوت ، رخيم الجِرْم ، لطيف النُّصْح ، حَسَنُ الهداية ، شديد الشفقة . لكنك في سكرتك عامِهٌ[٢] ، وفي صحوتك من خُمارك والِهٌ . فعلى هذا ، متى تستقلُّ والفرصُ تمرُّ مَرَّ السحاب ، والندامةُ والحسرة تجتمعان في العواقب ؟ أتدري ما قال الواعظ النصيح ، وهو أبو الدرداء ؟ قال : البِرُّ لا يبلى ، والوزر لا يُنْسَى ، والدَّيان لا ينام ؛ فكن كيف شئت : فكما تدين تدان .

اللهُمَّ : إنا نسألك عصمةً بها نصلُ إليك ، وتوفيقاً به نثق بك ، ولطفاً إذا جُدْت به استرحنا بنا معك . فقد أُتينا من حيث [ما][٣] إن احتججنا به كَسَرْته علينا ، وإن سكتنا عنه رجونا أن تُحْسِن بفضلك إلينا . على أنه لا يليق بنا إلا ما يليقُ بالعبد ، ولا نتوقع من جهتك إلا ما يُتَوَقَّع من جهة السادة . والعبد ، وإن أساء أدبه جهلاً وغلظة[٤] ، فإن المولى لا يؤاخذه أخذاً يجتاحُه[٥] .

اللهم إنّا لا نخاف حِقْدك ، ولا نخشى جَوْرك ، ولكنا نخاف عدلك

---

١ – الفودان : جانبا الرأس ؛ والمعنى المقصود : في عهد الشباب ، والشعر أسود بلون الغراب .

٢ – عامه : اسم فاعل من « عمه » أي : حاد عن الحق ولم يهتد لطريقه .

٣ – زيادة لازمة .

٤ – ر : وعبطة – دون اعجام – ؛ وكذلك في المطبوعة .

٥ – ر والمطبوعة : اخذاً محتاجه .

ونرجو فضلك[1] . ونحن وإن كنا أهلاً لعدلك الذي يأتي علينا ، فإنك أهلٌ لفَضْلك الذي يتم به إحسانُك إلينا .

أيها السامع : أما ترى تناثري في كلامي ، وترجُّحي في مقامي ، وقصوري لتلوثي[2] عن مرامي ؟ هكذا أجدني فيما أقول ، وعلى ذا أراني فيما أصول . فحدثني عنك وعن حالك ، واصْدُقْني عن غايتك ومآلك ، لعلي أجد بك ما لا أجد بي . وأحَصِّل عنك ما ليس يحصل لي مني . فقد طال لَهَثي وارداً ، وتضاعف لَهَفي صادراً ، وعظم شَغَفي شاهداً ، وامتدَّ نَفَسي بالحسرة غائباً ، وتردد قولي مملولاً ، وعاد حَدّي مفلولا . كأني وبال عليَّ ، أو كأني آفة فيّ ، أو كأني بلاء عندي ؛ ليس يخلص لي رأيٌ في وجدان ما أطلب متلطفـاً ، ولا يصفو لي مُرادٌ فيما أقصيه عني متكلفاً ؛ قد اكتنفتني المصائب في فَوْت المطلب[3] وعزة المطلوب ، واستولت عليَّ الوساوسُ في نفي ما لا سبيل إلى نفيه ، فبُذِل التالـد والمكسوب ، فأنا البارك المتجعجع[4] ، والتارك المتشعشع[5] ، والقائل المُعَدِّد ، [١٠٦/ب] والساكت المتلدد : إن ظهرتُ بالرسم لزمني حدُّ النِّفاق والشِّقاق ، وإن بَطَنْتُ بالحقيقة حُمِلت على تكليف ما لا يُطاق ، وإن تظلمت قيل لي : جنيتَ عـلى نفسك بالجهـل واستحققت العقاب ، وإن تشفعتُ بالواسطة قيل لي : قد آن أن تتقطع بك الأسباب ، وتَشْمَتَ بك الأعداءُ ويرحمك الأحباب .

---

١ – المذنب يخاف العدل (أما الجور فهو غير موجود اطلاقاً ولذلك فلا خشية منه) ولهذا فانه يتعلق بالفضل الذي يحقق الرحمة والمغفرة رغم وجود الذنب .

٢ – التلوث : الابطاء .

٣ – ر والمطبوعة : المطلوب .

٤ – البارك : الجمل الذي برك في مناخه ؛ المتجعجع : البارك ، وخاصة اذا كان بروكه في موضع ضيق خشن .

٥ – المتشعشع : المتفرق والمتعجل . واذا قرئت بسينين مهملتين عنت الاضطراب وانحطاط الحـال .

أما تعلم أن المُستغاث إليه في شُغُلٍ عنك ، ولكلٍّ في حقيقته حقٌّ يعنيه ، وأولٌ يبديه ، وآخر يُبْليه ، ووسط يغنيه ويقنيه ؟ أما تعلم أن كل شيء مما تكلفه لغيرك موصول بالكفاية ، ولكن ليست الكفايةُ موصولةً بالنهاية ؟ أما تعلم أن المراد منك لا يدان[1] لك به ، والعلم بك على خلاف ما تظنّه منه ، فمفروضك لك مردود عليك ، ومعروضك منك ممدودٌ إليك ؟ أما تعلم أنك مخدوع بالسراب عن الشراب ، ومحجوب عن الوصال بالعتاب ، ومطالب بما لا تَحُقُّه وهماً ، [و] لا تظفر به فَهْماً ، ولا تنال منه سَهْماً ؟ أما تعلم أنك أعْرَيت جنْبَك لكل رامٍ ، بِدَعواك التي قد فضحتك بين الأنام ، بهذا الكلام الذي ليس دونه ولا فوقه إلاّ كِلام ؟

فإن كان ذوق أو وجد ، أو شهود أو انكشـاف ، أو لَحْظٌ أو إدراك ، أو أثر أو خبر ، أو حاصل أو راحة ، فأين علامة استقلالك به ، ودلالة كمالك فيه ، وأين ما بوشر به فؤادك صِفاحاً ، وبُشِّر به روحك كفاحاً ؟ وأين ما يوجد منك فيما يوجد بك ؟ وأين ما[2] يوجد لك مما يوجد فيك ؟ وأين النطق الإلهي ، والبيانُ الرّباني ، والنظر الذي إذا امتد شُعاعه من العين أحرق الكونَ بجميع ما في الكون ؟ وأين القدرةُ التي بها تُقَلَّبُ الأعيان ، وفيها تُفَرَّقُ الدهور والأزمان ؟ وأين الحكمة التي بها تستأمنُ العقول الخائفة[3] ، وبها تستولي على فضائل الخاصة والعامة؟ وأين الفهم الذي به تَمْلِكُ الوجوهَ والنواصي ، وبه تصرف الدواني والقواصي ، وتأمُرُ الكونَ فيقف ، وتشير إلى كلِّ [قلب][4] فيجف ،

---

١ – ر : يدين ؛ والمعنى لا طاقة لك به ولا قوة .
٢ – ر : على ما .
٣ – كتب اولا « الخاصة » ثم كتب حروفاً متداخلة فوقها .
٤ – زيادة ضرورية .

م تنبعث فتَصِفَ ، وتنتهي فتعرف ؟ إن كنت لم تبلغْ هذا المدى فلا تتعرَّض بجهلك للرَّدَى ، والزَم حدَّك فيما أنت مرفوقٌ بك فيه ، ومرحومٌ عليه به . فإنه إن اشتعلَتْ عليك نارُه لم تطفأ بِبَحْرِك ، وإن حمي عليك أواره لم يسكن بقوتك وحَوْلك ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان .

- ٣٧ -

[١٠٧/أ] يا هذا : أما ترى كيف نُصِبَ كُلُّ شيء تجاهَ عينك لتبصر ، وقُبالة قلبك لتفكِّر ، ورُدِّد على مشاعرك وإحساسك لتعتبر ، ولُطِفَ بك في الأول والثاني لتثق وتنتظر ؟ فأبيتَ إلا اللجاجَ الذي به هلَكَ مَـــنْ تقدمك وأنت تراه ، وعاندت نفسك حتّى كأنك عدوُّك . إن أنت إلا بلاءٌ عليك ، وإن أنت إلا ميؤوس منك .

الويلُ لك منك ، والحسرةُ لازمةٌ لك بك : أمَا لك من شرابِ الدنيا صحوٌ ؟ أما لك من أقذارها أنَفة ؟ أما بك حاجة إليك ؟ أما لك ذَرَّةٌ من الشفقة عليك ؟ أما تشهد هذه الآثار التي يجلوها عليك الليلُ والنهار ؟ أما تعاين هذا[1] الاختلاف الدائم بين الإيراد والإصدار ؟ أما تستبينُ الفرقَ بين مدارج الإعلان ومناهج الإسرار ؟ أما تبحث عنك ؟ أما تعرف إياك؟ أما تَحِنُّ إلى مأواك ؟ أما تشتاق إليك ؟ أما تَفْرَقُ من فاجئاتِ الغيب ؟ أما تستحيي من الاشتمال على العَيْب ؟

إلى متى هذا الأُنْس بالوحشة ، وهذا الاعتراف بالنُّكْرة ، وهذا الذهاب في المَضَلّة ، وهذا الزهدُ في الحظ ، وهذا التجليح بالبهت ، وهذا الاعتقاد للباطل ، وهذا الاستشهاد بالزور ؟

---

١ – ر : هذه .

أين التوقع للموت ؟ أين الإعداد لما بعده ؟ أين الفكر فيما له طائل : إذا جاء الحق وزهق الباطل ؟ أين لائمة النفس على التفريط ؟ أين قَبول الهَدْي من الناصح ؟ أين الرضى بالمقدور ؟ أين الاستسلام للحكم ؟ إين إمساك اللسان عن الفضول ؟ أين سلامة الصدر في الأمور ؟ أين الشفقة على زمان الحياة المتصرّم ؟ أين الشوق إلى البقاء الدائم ؟ أين الاعتبار بهذا العالم القديم بقدرة الناظم ؟ أين التزود لهذا الطريق الشاسع ؟ أين الاحتياط في أمرٍ لا محالة واقع ؟

لمَ تَكْذِبُ نَفْسَك ، وأنت تغضب إن كَذَبَك غيرك ؟ لـمَ تغمسها في البلاء[1] وأنت لا ترضى بمثله من مثلك ؟ لـمَ تحول بينك وبينك وأنت المتهالك في ذُلِّك ؟ لمَ تخالف العقل في نفسك وأنت تحتج به على سواك ؟ لمَ تنقض العادة في خاصتك [١٠٧/ب] وأنت تطالب بها في جميع معاملاتك ؟ لمَ توقد نار الغضب عليك حتّى تحترق بها ؟ لِمَ تُشاقَّ الحقَّ حتّى يفارقك عند حاجتك إليه ؟

يا هـذا : ﴿ أأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقونَ خَيْرٌ أمِ اللهُ الواحِدُ القهّارُ ﴾ (يوسف : ٣٩) فلم تَعْبُد هواك ، وتَذِلُّ لشهوتك ، وتتحمل الأذى والبلوى في حظِ ساعة تبقى عليك تبعاته ، وتنأى عنك لذاته ، وتدع السعي فيما له مَرَدٌّ عليك وثمرةٌ لك، على الدوام والسرمد والخلود والأبد ؟

أما سمعت بعض الدعاة إلى الله كيف قال في أمثاله ومواعظه : لو كانت الدنيا من ذهبٍ فانٍ ، والآخرة من خزَفٍ باقٍ ، لكان ينبغي أن يُرغب عـن الأولى ويُزهَد فيهـا ، وتُطلب الأخرى ويرغب في الأخرى ؛

---

١ - أورد الناسخ بعد هذا : « وانت تطالب بها ... الغضب عليك » وكتب فوقها « معاد » ، وستأتي هذه العبارة بعد بضعة أسطر .

فكيف والأمر على العكس ، بغير شك ولا لَبْس : إن الدنيا من خزَف فانٍ ، والآخرة من ذهبٍ باقٍ . أشْهَدُ أن أمراً يعرق عقولنا عن هـذه الغاية التي قد جلّت عن الخبر وبادت على العيان لعجيبٌ ، وأنَّ سبباً أوْرَثنا هذا الجهل لغريب ؛ وأشْهَد أن حكم الله نافذ ، وقضاءه ماض ، وإرادته سابقة ، ومشيئته مغيّبة[1] ، وعلمه خاف ، وأن الخَلْق على تلك المناهج يَصْعدون ويَتَحدَّرون ، وإلى تلك المعارج يَعْرُجون وينقلبون. فطُوبى لمن سبقت له منا الحسنى ، فسلك الطريقة المُثْلى في هذه الحياة الدنيا ، ثم ارتفع إلى الدرجة العليا ، واختلط بالملأ الأعلى ، غيرَ مُعَرِّج على ما ترك ها هنا وخلّفَ ، لسروره بما وجد هناك مما قدم وأسلف .

فقد نَظَرْتَ – عافاك الله – ونظرنا ، وعرفتَ وعرفنا ، وبان لك كما بان لنا : أن مدار الأمر منا والأخذ بالأحوط عندنا إنما هو في اللياذ بالله، والفزع إلى الله ، والاستسلام لله ، والتصرف بين يدي الله ، بخلع الحَوْل والقوة إلا بالله ، والهرب من أوطان عدو الله . والتعلق بهدي أولياء الله ، لعلنا نحوزُ مَرْضاة الله في جِوار الله .

اللهم : إنك شاهدُنا ، وشاهدٌ فينا ، وشاهدٌ بنا ، وشاهدٌ علينا ، فبحرمةِ شهادتك التي قد اكتنفتنا منك ، وبقدرتك التي أبْرَزَتْنا [١٠٨/أ] لك ، وبجلالتك التي حقّقَت فاقتنـا إليك ، وبنورك الذي سطعَ علينا منك ، وبنعمتك التي غمرتنا بك ، وبرحمتك التي جمعتنا على بابك ، وبسلطانك الذي قهرَنا[2] لعزّكَ ، وبالخير الذي توالى عندنا من جهتك ، وبكلمنك التي سمعناها على لسان المُبَلِّغ عنك ، وبسرك الذي حجبتنا عنه بحكمتك – إلاّ بَشّرْتنا برضاك عنا ، ومَحَوْتَ بكَرَمِك صحائف

---

١ – غير معجمة في ر ، وكتبت في المطبوعة : « معينة » .

٢ – ر : قهرتنا .

ذنوبنا ، وبدلتَ سيئاتنا حسنات ، ورفعتنا إليك درجات بعد درجات ، وأقررت عيوننا بالنظر إلى وجهك ذي السُّبُحات ، وعَمَمْتنا بالكرامات ، وخَصَصْتنا بما لا نصل إليه بالصوم والصلاة والحج والغَزَاة ولا[1] بشيء من الأعمال والقُرُبات ، بل بفضلك وجودك اللّذين أتيا على الطلبات والرغبات ، وزادا[2] عليها مقامات وبَسطات ، بلا غايات ولا نهايات

إلهنا : هذه آمالنا فأعطِناها ، وهذه أمانينا فبلِّغناها ، وهذه عطاياك فهنِّئناها .

اللهم : إنك إن دعوتنا دعوتنا في الظاهر بلسان تكليفك ، وغمرتنا بضروب حججك ، وأسمعتنا محكمَ آياتك ، وشملتنا بأنواع خيراتك وملكت نواصينا بقدرتك ، وظاهرت عندنا المخبرين عنك ، المرشدين إليك. لكنك – يا ربنا – طويت عنا إرادتك بنا ، وأخفيت حِكَمك لنا وعلينا، فبقينا حيارى متسكعين ، وسكارى مُتَدلِّهين . وهذه ربوبيتك المُسَلَّمَةُ لك ، وسلطانك المردود إليك ، لا مُعارِضَ لك ، ولا مُتَحكِّم عليك . لكنّا – يا ربّنا – لا نستطيع حِفْظَ أنفسنا على طرائق أمْرِك ونهيك إلا ببوادي صُنْعك ولُطْفك . فاكنُفْنا يا إلهنا بالعِصْمة ، واحفُفْنا يا ربّنا بالنِّعمة ، واعطف علينا يا سيّدنا ومولانا بالرحمة ، حتى نحوزَ رضاك ، وننالَ الفوزَ الأكبرَ في ذُراك .

أيها الرفيق المؤانس ، والصاحِبُ المُلابس : إلى متى تطالبني بالكلام في هذا النمطِ وأنا على ما تعرف من ضيق صَدْر ، وتَقَسُّم فكر ، وعُزوب لُب ، وذُهول بال ، وتشتُّت رأي ، وخاطِرٍ عقيم ، وفؤاد سقيم ، ومصائب في الدين والدنيا متوالية ، وآفات في الصباح والمساء متواترة ؟ لا

---

١ – ر : فلا .

٢ – ر : زاد .

جرَم إن وعظتُ استحييْتُ من الله مِنْ قلة [١٠٨/ب] اتعاظي ، وإن هدَيْت خجلتُ من شدة ضلالي ، وإن بيّنْتُ قطعني عن البيــان سوء استبانتي . فإذا كان كُلّي وبالاً عليّ ، كيف يكون بعضي فائدة لغيري؟ إلى الله نشكو ما حلّ بنا منا . فقد والله طالت البلوى ، واشتدت النّجوى ، وقلّت الدعوى ، فإنه أولى من شُكي إليه ، وأحقّ من تُوكّل عليه .

اللهم : إنه لا غنيّ إلا من أغنيْتَه ، ولا مكْفيّ إلا من كفَيْتَه ، ولا محفوظ إلا منْ حفِظْتَه ، فأغْنِنا واكْفِنا واحْفَظْنا . وإذا أردت بقومٍ سوءاً فميزنا عنهم ، يا أرحم الراحمين .

إلهنا : الرغباتُ بك موصولة ، والآمالُ عليك مقصورة ، والحدودُ لقدرتك ضارعة ، والوجوه لوجهك عانية ، والأرواح إليك مشوقة ، والنفوس إلى كهف غيبك مسوقة ، والأماني بك منوطة ، والأيدي نحوك مبسوطة ، والهِمَمُ إلى طلب مرْضاتك مرفوعة ، وآلاؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة . فآتِنا اللهم من لَدُنْك ما لاق بكرمك ، وانْفِ عنّا ما قد نفانا عن بابك ، واشرح صدورنا للثقة[1] بك ، ووفقنا لما يُبَيِّض وجوهَنا عندك ، ويُطيل ألسنتَنا في تحميدك وتمجيدك ، يا نعم المولى ونعم النصير .

اللهم : أفْرِغ علينا من رحمتك ذَنوباً ، واجعل لنا في مسالك مرْضاتك طلوعاً[2] وغروباً ، وأنِلْنا من لَدُنْك هديً وبشرى ونصيباً ، واحفَفْنا برضوانك، بعد أن تَغَمّدَنا برحمتك وغفرانك ، إنك ذو الجلال والكرامة في هذه الدار ودار المُقامة .

---

١ – ر : الثقة .

٢ – ر : طوعاً .

أيها الإنسان الذي قد شَقِيَ في هذا الحَرّ الواقد ، والهواء الراكد ، بالجوع والعطش صائماً : هل لك خبر عنك فيما أُريد بك ؟ وهل لك إحساس بما سيق إليك ؟ أم أنت من الجاهلين بل الغافلين عنك ؟ ما أخوفني عليك ، وأشدّ يأسي مِنْ فَلاحك ! طال جوعُك وعطشك في صومك ، ولا تدري ما حاصلك في غدك من يومك ، وما الذي عاد إليك بقصدك ورَوْمك . أظن أنك مغرور ، وعلى ما أصبت به غير مأجور ، وبما طلبته ووجدته غير مسرور ؛ وهذا لأنك مسلوب الإخلاص في العبادة ، قليل النشاط في الاقتداء بالسادة والقادة [١٠٩/أ] تتيقظ في أمور الحياة الدنيا ، وتحلم بأحوال الدار الأخرى ، وليس هذا من رأي أولي النُّهى والحجى ، ولا من عادة ذوي الورع والتقى ؛ بل اصحَبْ عاجلتك بالحلم ، حتى تستيقظ في آجلتك بالعلم ، أعني العلم الذي لا شَوْب فيه من الشكوك ، ولا غِشاء على صاحبه من الريب ، ولا أثر فيه من الظنون ، بل هو يقين حق وحق يقين ، لمثله جهدَ الجاهد رائحاً وغادياً ، ومن أجله زَهِد الزاهد نائياً[1] ودانياً . فاطلبْ نفسَك أيها الصائمُ في هذه المواطن : فإن كنت بها ثاوياً ، وفي عرَصاتها متبختراً ، ومن أغصانها جانياً ، زانتك العبادة ، وشملتك العصمة ، ودرَّ عليك خِلفُ التوفيق ؛ وإن كنت عنها بعيداً وعن أسبابها ساهياً ، شَمِت بك عدوُّ الله ، وتجنبك عباد الله ، ومقتك ملائكة الله ، ورفضك كلُّ خَلْقِ الله ؛ لا تُظِلُّك سماء إلا بالصاعقة ، ولا تُقِلُّك أرضٌ إلا بالفاقرة ، ولا ترمقك عين إلا بالزراية ، ولا يذكرك لسانٌ إلا بالغواية ، ولا تصافحك يد إلا بالكراهة .

فاختَرْ – هداك الله – تجارةً لا بَوارَ لها ، وانْخُ غايةً لا لُبْثَ دونها ؛

---

١ – ر والمطبوعة : ناهياً .

واستشعرِ الرُّعْب فيما أنت عليه . تَنَلْ الدَّعة فيما تنتقلُ إليه ، واحصر فلَتَاتِ لسانك في صومك ، وحركات قلبك في نيّتك ، وخواطرَ سرك في ضميرك ، واعلم أن الله على قدر ذلك يُجْزِل مواهبك ، ويفتــح مذاهبك ، ويُريك في نفسك ما يتضاعف به أُنْسُك، ثم يطويك عن الدنيا وآفاتها ، وينشرك للآخرة وبركاتها ، ويحبّب إليك خيراتها وبهجاتها .

قد أقبلتَ العيدَ ، ولبست الجديد ، فهل أنت واثق بما عرج منك إلى الله الحميد المجيد ؟ إن كنت واثقاً غير مغرور ، وآمناً غير خائف ، ومطمئناً غير مستوفز ، فما أسعدك بما كان منك ، وما أغبطك بما أفضيت إليه ؛وإن كان الأمر على غير هذا النهج ، فما أولاك بالنوح على نفسك ، وما أحوجك إلى استئناف أمرك ! وأغلبُ ظني أنك في الحالة الثانية راسخ ، وللحال الأولى ناسخ . وقد قيل لبعض السلف : متى يكون العيد؟ فقال : كلُّ يومٍ [١٠٩/ب] لا تعصي الله فهو عيد .

حبيبي : للناس عيدٌ بالعادة في الخروج من الصوم ، ومراجعة الأكل والشرب والتنعم . فإن كنت منهم ، فما أخسَّ حظك فيما كنت متقرباً به إلى ربك ، وإن باينتهم ، فما أفوزَ قِدْحك فيما أنت مخصوص به عند ربك ! فهات علامتك التي هي علامة القبول ، وإلا فابْكِ على ما فاتك بكاء المُعْوِلة الثّكول .

أتدري ما العلامة ؟ العلامةُ أن ترى نفسك يوم العيد ذليلة بالشكر ، لَهِجة بالذكر ، مستبسلة بالصبر ، خاضعة بالتوجه ، متواضعة بالتنزُّه ، متبدّلة بالتوبة ، مُقْلعةً عن الحَوْبة ، راغبةً في ذخائرِ الحقِّ [وصحبة][1] الصادقين من الخلق .

---

١ - كذا ، وهو تقدير محض ؛ وربما كان « راغبة في ذخائر الحق [المكنوزة] للصادقين ... الخ » أو ما هو بهذا المعنى .

فإذا اشتملتَ على هذه الصفات ، وعلى ما كان من جنسها من سائر الجهات ، غشيَتْكَ الملائكةُ بالتحيّة ، ومَسَحَتْ ناصيتك بالبَركة ، وكانت شُفَعاءك عند الله . فعند ذلك يُلْبِسك[1] الله شعار الهدى ، ويهيئك للصواب في القول والعمل والتقى ، ويبثُّ محبتك في صدورِ أهلِ الحجى ، ويُبلِّغك الغاية القصوى ، متمسكاً بالعروة الوثقى .

﴿ يا قومِ إنّما هـذه الحياةُ الدُّنيا متَاعٌ وَإنّ الآخرةَ هيَ دارُ القَرارِ﴾ (غافر : ٣٩) .

تأمّل هذا الكلام بعقلك كلّه ، فإنه جِماعُ كلّ نصيحة ، ونظامُ كلّ موعظة ، وباب كلّ نجاح ، وطريق كل فلاح ، ومَنْهَج كلّ صلاح . فإذا تبصرت ما في ضمنه ، فثُبْ إلى المكان الذي دُعيتَ إليه ، ولا تَكْسَلْ كَسَلَ الجاهل الغَوِيّ ، والسلام .

- ٣٨ -

اللهم : إنّك إن طردتنا عن بابك فبأجرامنا[2] التي هتكنا بها سِتْرَ حُرُماتك ، وإن قَبِلْتنا على هَناتنا ، فبكرمك الذي لم نزل نتوقعه منك ؛ وإن لم تطردنا ولم تقبلنا ، استهانةً بنا وازدراءً لنا ، وَقَحنا وجوهنا ،وأطلقنا ألسنتنا ، وقلنا : على من تردُّنا ونحن عبيدك ؟ وإلى مَنْ تَكلُنا ونحن خَلْقُك ؟ تولّنا كيف شِئْتَ ، ساخطاً وراضياً ، فقد استسلمنا وسلّمنا . وقد علمنا ، يا إلهنا ، أنك لا تعاملنا بعد هذا الانقياد والاستخذاء ، وطَرح الكاهل في الفِناء [١١٠/أ] بعد الفِناء ، إلا [بما][3] أنت أهله في الجود والكرم

---

١ – ر : يلبسه .
٢ – الأجرام والجروم : جمع جرم ، بمعنى الذنب .
٣ – زيارة لازمة .

والإحسان الذي سبقْتَ به إلينا في القِدَم . وكيف نياس من رَوْحك . أو نقنَط من رَحْمتك ، بعد ما أهّلتنا لمواجهتك ، وأذنْتَ لنا في مشافهتك . حتى وحّدناك بما عرفناك ، ثم سألناك على ما وعدناك[1] ؟ فكن لنا عند هذا الظن ، فإنّك عند ظن عبيدك .

يا هذا : أين الحياءُ من الله الذي أنعم عليك بَدْءاً وعَوْداً ؟ وأين الخوف من الله الذي إن سطا أباد وأفنى ؟ أمّا تأخُذُ حذرك ممن إن شاء سلّطك عليك ، فهتّك[2] عُضواً عضواً ، وبَدَّدَك شِلْواً شِلْواً ، وجعلك عِبْرة لكل ناظرٍ بعينٍ ، ومثلاً لكل سامع بأذُن ؟ اتّق الله تجدْ ثمرته حُلوة ، وعاقبته محمودة . فإنك إن لم تتّقه اتقاهُ غيرُك بما يراهُ من إنزال بأسه بك ، وأخْذَته لك . ثم تغترّ بمالك : فلو شاء لأفقرك قبـل المساء ، وأحوجك إلى أقلّ الخَلْق ؛ أو بِقُوّتك : فلو شاء لأعجزك عن أصغر البَقّ . إنك غيرُ مُبْقٍ على نفسك . ولا واصف لما بك لطبيب يجود بدوائه عليك .

أيها الباحث عن غيب هذه الشهادة ، بلسان النُّسك والزهادة ، تَلَقَّ محبته لك بروحك ، وانْعم بنسيم وُدّه تجد راحتك ؛ وانْفِ عن همتك كلّ ما نفاك عن حظك ؛ واخطُطْ على قلبك بقلم العلم حقائقَ الحبّ بعلائق الوجد . متبرئاً من كل ما راق العين ، واسترقَّ السمع ، واستعار المشاعر ، وحال بينك وبين السرائر ؛ فإنك متى نزلت هذه الرِّباع الخصيبة ، ووردتَ هذه المناهل العَذْبة ، وتعطّرْت بهذا الجو النديّ وبالهواء الرقيق ، عَطَفْتَ عليك بك ، ورجعتَ إليك منك ، وأدركتَ ما فاتك ، وولّيتَ بلدك ، وصِرْتَ أذناً سميعة[3] ، وعيناً ناظرة ، ولساناً خطيباً ، وقلباً واعياً ، وروحاً طيباً . وشاهداً مقبولاً ، وغائباً منتظراً .

---

١ – كذا وردت العبارة ، وهي قلقة .

٢ – الهت : الكسر والتمزيق .

٣ – ر : سمعية

يا هذا : الطريق مختصر ، والدليلُ واضح ، والشوقُ متوقّد ، والسرار مرفوع ، والثقال مجموع ، والشمل منتظم ، والحبل ملتئم . ولكن بَقي أن تجيب إلى مَا لَكَ بما فيك ، وتعافَ ما يُغْويك ويُرْديك ، فإنك متى تبوأت هذا المكان ، وتربعت في هذا المعان ، ترنّمت واجداً بقولك :

[١١٠/ب] مكانُك من قلبي هو القلبُ كلُّه
فليس لشيءٍ فيه غيرك موضعُ
وذِكْرُك روحي بين جلدي وأعظُمِي
فكيف تراني ، إن نسيتُك ، أصنع
إذا كدتُ أُخْفي ما أُجِنُّ من الهوى
تكلّم من سرّي بجفنيَ أدمُعُ

دعني أيضاً من هذا ، فقد والله بالغتَ في الأذى : أما تعلم أن الزرداب[١] في السرداب ، والخناجر في الحناجر ، والسراد[٢] في الفؤاد ، والمكاوي على المطاوي[٣] ، والمناشر على المباشر[٤] ، والمعالق[٥] على المخانق ، والعلاقم في الحلاقم ، والمناصل في المفاصل ، والقواتل على المقاتل ، والمشاقص[٦] على

---

١ - الزرداب : ما انحدر من السيول ، وزردبه : خنقه أو دحرجه ؛ ولعله يعني أن الخنق يتم في السرداب .

٢ - ر : السواد ، ولا وجه لذكره هنا ؛ والسراد : الخلال الصلب يشبه المخرز .

٣ - مطاوي الامعاء والبطن : اطواؤهما ، أي طرائقهما ومكاسر طيهما .

٤ - هكذا هو في ر ، ولعل صوابه « والمناشر على النواشر » والنواشر هي عروق باطن الذراع .

٥ - المعلاق : ما يعلق به ، ولا أراه مناسباً ؛ والمغالق : الارتجة ، وهي أقرب وربما كانت «المعازق» جمع معزقة وهي الفأس أو آلة شبيهة بالقدوم .

٦ - المشقص : نصل السهم اذا كان طويلا غير عريض .

الفرائص ، والأوتاد على الأكباد ، والتّبار[1] في العار ، والنُّدوب في القلوب؟ إن كنت لا تعلم فتَعَلّم ، وإن كنت تعلم فتكلّم ، وإن كنت لا تتكلم فاستسلم . طاشَ - واللهِ - الحِلمُ عند ما لاح من أسرار هذا العلم ، حتى لو قوبل الدعاء بالرد ، وعومل المُواصِل بالصَّد ، وتَعديَ في جميع الأحوال كلٌ حد ، لكان العذر بيناً ، والعَذْلُ هيناً ، والشنآن[2] مُحْتَملاً ، والقرح مندملاً .

يا هذا : لا تذكره ناسياً ، ولا تنسه ذاكراً . فإنك إن ذكرته ناسيـــاً حجبك بك ، وإن نسيته ذاكراً عجّبك منك . بل اذكره ذاكراً ، ولن تذكره هـــذا الذكر حتى تنساك في ذكرك ، وتفقدك في أمرك ، فحينئذ يستولي عليك مذكوراً قبـــل ذكرك له بذكره لك . على أن هذا الذكر توسُّـــلٌ واستعطاف ، والمرء من ورائه ووراء ما وراءه . وليس هناك ذكر ، لأنه ليس هناك نسيان ، إنما هو اتصالٌ ومواصلة ، ووصالٌ ووُصْلة ، وحديث يأتي على كل حديث ، وأمر يَجِلُّ عن كل أمر ، وشأن يَعزُبُ عن كل[3] ذي شأن . وكيف لا يكونُ كذلك وفوق ذلك بما لا منتهَى لذلك ، والربوبيةُ تسري أنوارُها ، والبشرية تضيق أقطارها ، والنَّفْسُ تبدو أخبارها ، والغاية يُعْرَفُ إضمارها ، والحال يَبْرُزُ عوارُها ؟ فمن ذا الذي يرى بَصَرُه هذه[4] التلاميع فلا يَغْشَى ؟ ومن ذا الذي يجد هذه الروائح فلا ينْشَى؟ ومن ذا الذي تكتنفه هذه الأعاجيب فلا يلتاع ؟ ومن ذا الذي تتردد على سمعه هذه الأحاديثُ فلا يرتاع ؟ [١١١/أ] ومن ذا الذي يُسْقَى من هذا الشراب فلا يَسْكَر ؟ ومن ذا الذي يُحَدِّق طَرْفُه إلى هذه المناظر فلا يَسْدَر ؟ ومن ذا الذي يشهد هذه الصورةَ فلا يَعْشَقُ ؟ ومن ذا الذي يُحْرَم التلذذَ بها

---

١ - في ر رسمت هكذا : واليسار (دون اعجام وتمييز للسين) .

٢ - ر والمطبوعة : والشاني .

٣ - كلمة « كل » مكررة في ر .   ٤ - ر : هذا .

فلا يَسلق ؟ ومن ذا الذي يُؤَهّل لهذه الحال فلا يبتهج ؟ ومن ذا الذي يُزَحْزَحُ عنها فلا ينتشج .

واشوقا إلى قوم تلهّبت أكبادهم شوقاً إلى الله ؛ واشوقا إلى قوم فارقتهم أرواحهم وَجْداً بالله ؛ واشوقا إلى قوم تبلغوا بالحَبْو والزحف إلى الله ؛ واشوقا إلى قوم امتلأت قلوبهم بمعرفة الله ؛ واشوقا إلى قوم طلبوا الراحة بالتعب حُبّاً لله ؛ واشوقا إلى قوم طلّقوا الدنيا وزهرتها غنىً بالله ؛ واشوقا إلى قوم باينوا الكون وما فيه استقلالاً بالله ؛ واشوقا إلى قوم صافحت أرواحَهم يدُ الله ؛ واشوقا إلى قوم سبقت لهم الحُسْنى من الله ؛ واشوقا إلى قوم ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ نزاعاً إلى الله ؛ واشوقا إلى قوم راحوا إلى مصدوقة ليس فيها غير الله ؛ واشوقا إلى قوم قالوا لله . وسكتوا لله . وتحركوا إلى الله . وسكنوا مع الله .

آه . ماذا ينفعني شوقي إليهم إذا لم أكن منهم ؟ وماذا يجدي عليّ نزاعي نحوهم إذا لم أُعْرَف بينهم ؟ وماذا حاصلي مِنْ ذكرهم إذا كنت مجهولاً عندهم ؟ وماذا يُغْني عني انتسابي إليهم إذا كنت منفياً عنهم ؟ وماذا يبقى معي من تعززي[1] بهم إذا كنت ذليلاً فيهم ؟ فما حيلةُ مَن إن اشتاق بحُسْن ظَنّه عاقه سوءُ فعْله ، وإن حَنّ بفرط صبابته تقاعس بسالف جنايته . وإن قال كان عيُّه في بلاغته ، وإن جَرَعَ كان شَرَقُه في إساغته ، فليس يصفو له حالٌ إلاّ تكدَّر ، ولا يتسهّلُ عليه مُرادٌ إلا تعسّر ، ولا يصحّ أمانُه لا في سَفَر ولا حَضَر .

يا هذا : إن الذي صَمْدُك إليه ، وَوَلَهُك فيه ، وإيماؤك نحوه ، وإعجابُك منه ، حاضرُهُ غائب . وغائبه حاضر ، وحاصله مفقود ، ومفقوده حاصل ، والاسم فيه مُسَمّى ، والمُسَمّى فيه اسم ، والتصريحُ به تعريض ،

---

[1] – في ر قد تقرأ « تعذري » وكذلك وردت في المطبوعة ، ولا معنى لذلك .

والتعريض به تصريح ، والإشارَة نحوه حجاب ، والحجابُ نحوه إشارة . وهذه قصةٌ لاتعرف إلاّ به ، وحالٌ لا تُعزَى إلا إليه ، وشأنٌ لا يوجد إلاّ له . لأنه بائن من الأشياء بما هو به هو ، وبانت عنه الأشياء بما لا يكون به ، فائتلفت الأسماء والمعاني حسب ما وجدت [١١١/ب] أنْصِباؤها منه ، واختلفت أيضاً حسب ما فاتها مما[1] كانت تكمل به . فوقفت الأشياء كلها بين الاختلاف والائتلاف ، وجلّ هو عنها بما ليس فيها اختلاف وائتلاف. فلهذا وشِبْهه فُقِدَت الأشباه والأضداد في تلك الساحة لعلوّه منها، وغناه عنها ، وَوُجِدَتْ ها هنا لحاجةِ بعضِها إلى بعضها . وتلك الحاجةُ هي السِّمَةُ الواضحة ، والعلامة البائحة بأن الذي أحوجها هو الذي غَنِيَ عنها. وأن الذي غَنِي [عنها][2] هو الذي برىء منها ، والذي برىء منها هو الذي قَدَرَ عليها وصَرّفها ، وأجراها ووقفها[3] ، وأسماها ووصفها ، وعرّفها وعَرّفهـا ، ووَضَعها وشَرَّفها ، وأهّلها وكلّفهـا : وَسَوّاها وحرَّفها، وبدَّدها وألّفها ، وثَقّلها وخففها ، وكَثّفها ولَطّفها ، وأبرزها وكَنَفها ، وأقامها وعَطَفها . أفيكون هذا النعت ، إلا لمالِكِ الوقت الذي جلّ أن يكون له فوق أو تحت ؟

أفما ينبغي لك ، إذا عرفت هـذا السيد ، أن تبغي ما يصلك بـه أو ما يوصلك إليه لتكون عزيزاً به ، مَرْضياً عنده ، مأموناً على سِرّه ، مجاباً إذا لَبّيْتَ ، مقبولاً إذا شَهِدْت ، محفوظاً إذا غِبْت ، مرعِيّاً بعينه كيفما حالت بك الحال ، وآل بك المآل ؟ بل إذا أنِفْتَ على هذه الذروة الإلهية ، وأشرفت على هذه الروضة القُدسية ، فلا يحول بك حالٌ عن حال ، ولا يكون لك حال ، وإنما الحال عبارة عن معهود غير مشهود ، وهناك إذا

١ – ر : ما .

٢ – زيادة لازمة .

٣ – غير معجمة في ر ؛ وفي المطبوعة : ووفقها .

صِرتَ إليه مشهودٌ غير معهود ، إلا أنك تستعير هاهنا أسماءك التي هي حَدُّك ، فتستعير بها أعراضاً ترتفع عن حَدّك . ولولا التشابهُ بين المصدَر والمَوْرِد ، وبين المَشْهَد والمَعْهَد ، وبين المَرْصَد والمَقْصد ، لكانت العلائق تنقطع ، والحقائق ترتفع ، وهذا يُباين الحكمة المبثوثة في عالمك . ويخالف القدرة الموجودة لعينك وقلبك . وبهذا وأمثاله قَوِيَ رجاءُ العالمين[1] ، واشتد شوقُ العابدين ، واستولى الحنينُ على العارفين ، وانقاد عِنانُ المشتاقين ، واستخذى أهل[2] السموات والأرَضين ، وإلى هنا انتهى قول القائلين . وعنده وقف عِلْمُ العالمين ؛ وعليه طاحت أرواحُ الواهلين[3] ، وإليه انتهى سَعْيُ الخَلْق أجمعين .

أيها السامع : هذا شِرْبٌ قليل الوُرَّاد ، ورَبْع عديم السُكّان ، لأنه توحيد بَحْت ، وتجريدٌ مَحْضٌ ، وهو العطاء الذي [١١٢/أ] لا يُؤهَل [له][4] إلا من ارتضاه اللهُ مِنْ عباده ، وجعله عَلَماً في بلاده . فإنْ صَحَّ لك عَزْم ، وحضرك حزم ، ولاحِ لك نور ، وانجاب عنك غرور ، وشاع فيك حبور وسرور ، فخذْ في هذه المناهج سالكاً إلى تلك الغايات التي قد شوّقت إليها بكل ما أدركه طَرْفُك ، وسمعته أُذُنُك ، وحواه قلبك ، وبالجملة بكل مشاعرك التي هي شعائر الله عندك ، وآثاره قِبَلك ، وروائده إليك ، وهواتفه بك ، وطوالعهُ عليك ، وتوابعه منك . فإنك متى جعلت التروّح بهذه الأحاديث الغريبة دَيْدَنك ، فعما قليل تصير ممن إذا قال باح ، وإذا سمع ارتاح ، وإذا فكر طاح ، وإذا اعتزم ساح ، وإذا عَبِق فاح ؛ بل تصير ممن إذا هَمَّ مَلَك ، وإذا تمنى أدرك ، وإذا رنا لَحَظَ ، وإذا وجد حفظ .

---

١ – لعل الصواب ، « العاملين » .

٢ – أهل : مكررة في ر .

٣ – كذا في ر ، ولعله « الوالهين » .

٤ – لا غنى عن هذه الزيادة .

وإذا تحرك حنّ ، وإذا سكن اطمأن ، وإذا اقترح نال ، وإذا سُئل أنال : ربوبيته غلبت على البشرية ، وبشريته بادت في الربوبية ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (الحديد: ٢١) .

فاتحة مقاصد القوم أن يقال : الحق خفيٌّ لكنه جليّ ، وجليٌّ لكنه خفي ، والجلاء والخفاء اسمان شاعا به ، لا حكمان جريا عليه ، وحليتان ظهرتا منه ، لا معنيان حلاّ فيه . إن أردت النجاة فاعبده ، وإن آثرت الاتصال به فاقصده ، وإن أحببت أن تجده فاعرفه ، وإن تمنيت أن تعرفه فجده .

يا هذا : لُطْفُ الحق يحول بينك وبين الإعراض عنه ، وعُنْفُ الخلق يحثك على الاعتراض عليه . الحق وَشْي ، والخَلق حشو ، والوهم بغي ، والوصف لغو ؛ الحقُّ أقربُ من أن يشارَ إليه ، وأبعدُ من أن يُطّلَع عليه ، لأنّ قُرْبَه ليس بتدان ، وبُعْدَه ليس بتناء ؛ مواهبُ الحقّ متصلة ، وأسبابُ الخلق منفصلة ، وليس هذا الترتيب عبارة عن محلّين ، ولكنه إشارة إلى عيْنٍ ، من غير كيف ولا أين ، ولا تمويه ولا مَيْن : عين هي ينبوع العيون ، وحقيقة ما كان ويكون ، على اختلاف القلق والسكون .

يا هذا : الكل بادٍ منه ، وقائم به ، وموجودٌ له ، وصائر إليه .

اللهم : إنّا رضينا في الأول عن أنفسنا على مذهب المغترين ، وسخطنا في الثاني عليها على طريقة المستبصرين ، فقابلنا على ذلك بما يحفظنا لك ، ويُحظينا لديك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٣٩ -

[١١٢/ب] اللهم : إنّ وسائلنا إليك وذرائعنا لديك : إخلاصُ معرفتك ، وحسنُ الثقة بك ، وفَرْط الاستسلام لك ، وجميل الثناء عليك ، ولطيفُ النّجْوى معك ، وشريف العبارة عنك ، وغريب الإشارة نحوك . فنسألك

بفضلك وجودك وكرمك ومجدك أن لا تردَّ وسائلنا ، ولا تُهين ذرائعنا . فإنها صَدَرَتْ من قلوبٍ محشوةٍ بمحبتك . ونبتت في صدور ممتلئةٍ برعايتك ، وهي التي تستحقها بألوهيتك ، وتجد السبيل إلينا بعبوديتنا لك ، وأنت أكرمُ من أن تنبذَها في وجوهنا ، ولا تقبلها بحسن رعايتك لنا منا .

يا هذا : حَدِّد نظرك في أمرك ، وجَرِّدْ فكرك في شأنك ، فقد علَتِ السِّنُّ ، وركَّت[1] الكَبْرة ، وصرت تتحرك بأنين ، وتسهر برنين ، وتتذكر زمانك الأول بحنين ، فالجدُّ قد وقع في التحرك عن هذا المحلِّ الذي طال فيه كَدُّك ، واتصل شقاؤك ، وتغيرت بك حالٌ بعد حال ؛ والربح معك في هذا التحول ، لأن معك توحيداً تضيق عنه الأرض والسماء ، ومعرفةً تطابقه في ضروب الشدة والرخاء ، وتوكلاً يتلقاك بالكفاية ، وإشارةً تهدي إليك العناية ، وإيماناً هو قُرَّة كل عين ، وإيقاناً يزيد على كل زين ، وطمأنينةً هي[2] كَنز ، وخوفاً هو حِرز ، ورجاءً هو فَوز . فلا يَحْرَجَنَّ صَدْرُك بهنات كانت منك في عُرْضها ، فإن تلك لا تطمس المعالم ، ولا ترفع الأصول ، ولا تعمل في القواعد ، ولا تأتي على الأسس . وأي موقع لقطرات شيء كريه في بحرٍ لُجيٍّ يغشاه مَوْجٌ من فوقه موج ؟

مَنْ مِثْلُك ، ونفسُك بريئةٌ من الشرك ، وقلبك نَقيٌّ من الكذب . ولسانك بليلٌ بالذكر ، ورُوحك غائصٌ في الفكر ؟ أنت والله المحسود المغبوط ، بل أنت المحفوظ المحوط . ستبلغ إلى حضرة ربِّك فتصادف رَوْحاً ورَيْحاناً ، وسكوناً واطمئناناً ، وتلقى هناك أولياءه مقدَّسين مُقرَّبين ، يتقلبون في النعيم المقيم ، فتحدثهم مستأنساً بهم ، وتذكر نعمةَ الله عليك وعليهم ، وتسمع من قولهم ﴿الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنّا الحَزَنَ﴾ (فاطر :

---

[1] - ركت : أصبحت ركيكة أي ضعيفة .

[2] - ر : هو .

٣٤) وتصف ما كنت فيه هاهنا من أصناف الأذى، وتشكر الله على نجاتك منها وانسلالك عنها. وما عاضك عنده من الرضى والقبول اللذين هما فوق الذهب الأحمر، والوَرِق الأبيض، والسِّلْك الدقيق[1]، والتطعم اللذيذ. وليس هذا ببعيد، وإنما بينك وبينه نومة، ثم انتباهة [١١٣/أ] ثم التبَوُّء من الجنة حيث تشاء، آمِنَ السِّرْب، طيب الشُّرْب، رخيَّ البال، رفيع الناظر، محيّاً بتحية الأمنَة، مُتَلقّى بالسلم والسكينة، في حياة موصولة بحياة، ونعمة موقوفة على نعمة، وكرامة متبوعة بكرامة، وسلامة مشفوعة بسلامة..

يا هذا: قابل تَشْويقي لك بالشَّوْق منك، وواصل ادّكاري لك بالتذكر، واقبَلْ نصيحتي بالشكر، فإن راحَ القلوب، وهِزَّة الأرواح، وطُمأنينة النفوس، في قَبول النصائح، ورفض القبائح. وصِلْ قبولك مني ما تسمعه بالزيادة في الركوع والسجود، وبالثبات على معرفة المعبود المقصود، وبالكَدْح في كسب ما يرضيه من العبيد، واثقاً منه بحسن النظر فيما ساء وسَرَّ، أو نفع وضَرَّ، أو أحلى وأمَرَّ. إن مَضْغ الحَنْظَل الحَوْليِّ على بسالته[2] ومرارته قليلٌ في طلبِ الدار العُلْوية، والنومَ على المزابلِ ومجاورة الكلاب سَهْلٌ مع المصير إلى حيث لا مَرَضَ ولا عَرَضَ، ولا آفة ولا عاهة، بل الانتحار وقتَ الكيد[3] وزَهَق الروح هَيِّنٌ إذا كان ذلك طريقاً إلى رضى الله الذي هو مالك الأولين والآخرين، ومُدَبِّر الخلائق أجمعين.

يا هذا: تقلَّب متنعماً في هذه الرياض التي قد ازدهرت بالعلم الحقّ، والحكمة البالغة، والنصحِ الحاضر، والإرشادِ الحسن، والموعظة الحلوة،

---

١ – السلك: الخيط الذي يخاط به الثوب، ولعله يعني الملبس الناعم، ولهذا فإن «الرقيق» – بالراء – أنسب للمعنى.

٢ – البسالة: المرارة.

٣ – وقت الكيد: أي الوقت الذي تكيد فيه النفس، أي تحتضر.

والدعوة الجامعة . وخذ نصيبك من ناضرها[1] في المنظر ، وطيِّبها في الرائحة ، وحُلْوها في المـــذاق . فإن ذلك عليك عائـــدٌ[2] بالجدوى ، ومُخَفِّف عنك ما تجده من ثِقَل البَلْوى ، ومُقَرِّب لك إلى فِناء باب المولى .

لعلك تشكو قلبك ، وتجد التواءه عليك ، وتراه مخالفاً لك . فلا عجب ، ولكن دارِه ، فإنَّ قَلْبَكَ أنت ، وأنت قلبك ، وقد رأيت غيرك يضجُّ من قلبه، ويشكو ما يناله من كربه ، حتى قال في وصفه متضجراً بفعله :

قلـــبي إلى مــــا ضرّنــــي داعِ يُكْثِرُ أحـــزاني وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوّي إذا كان عدوي بين أضلاعي[3]

وقال آخر قد زاد على الأول :

هذا فـــؤادي وطَرْفـــي قد سبّبَا لِــيَ حَتْفِــي
[١١٣/ب] فكيف أحذرُ يا قَــوْمُ مـــنْ فؤادي وطَرْفي

صَدَقَ الرجلان : أما الأول[4] فوجد عدوه في نفسه فاستصعب الخلاصَ منه ، ولعمري هو صعب ، وأما الثاني فجمع بين فؤاده وعَيْنه ، واستغاث منهما ، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حَتْفه ، وهذا كله للفسولة والخَوَر ، والركاكة والكسل . وإلا لو صدقتِ النية وجَدَّت المِرَّة[5] وخلصت العزيمة ، لكان قهرُ القلب إذا عتا سهلاً ، وغَضُّ العين إذا طغَتْ قريباً ؛ ولكن النيّات مدخولة ، والعزائمَ ضعيفة ، والتمني غالب ، والنفسَ مسوِّلة ، والطباعَ خوَّارة . وفي الجملة : توفيقُ الله غير مُسْتَبْدَع ، وتأييدُه غير

---

١ – ر والمطبوعة : ناظرها .
٢ – ر : غاية .
٣ – البيتان للعباس بن الأحنف في الأغاني ٨ : ٣٦٦ وديوانه : ١٧٨ – ١٧٩ .
٤ – ر : في الأول .
٥ – المرة : القوة

مستمل ، فكيف يكون حال من هو موكول إلى حوله الضعيف ، ورأيه السخيف ؟ هذا والعادة على نعتها جارية ، والقرناء على غشهم مارّون ، فلا ترى عينٌ للخير مَجْلِساً ، ولا للتناصح مَشْهَداً ، ولا للتعاون على البِرِّ والتقوى مجمعاً ، حتى كأن الشريعة ما وردت بمراشدهم ، والسياسةَ ما قامت بمصالحهم . [و]حتى كأنهم إنما فُضِّلوا على البهائم بالعقل، لا للعاقبة التي لابد من الصيرورة إليها ، [بل][1] لتعجّل اللذات في هذه الدار الزائلة الفانية التي ما حَمِدَها أحد : لا مَنْ طَلَبَها فلم يجدها ، ولا من وجَدَها ، ولا من زهد فيها بغير خِبرته لها ، ولا من بلغ غاية مراده منها — فقد رأينا هذه الضروب ، فكلهم ذَمُّوها وكرهوها ، واقشعرُّوا من دواهيها ، وأنُّوا من فجائعها ، وراحوا إلى الله بوجوهٍ باسرةٍ ، وظهورٍ ثقيلةٍ ، وأكُفٍّ خالية ، وآمالٍ خائبة ، وظنونٍ كاذبة ، وشقاوةٍ غالبة .

وليس عجبي من هذه الحال بعد المعرفة بأمرها والخبرة[2] بشأنها ، ولكن عجبي من تهافت المتهافتين فيها ، وتهالك المتهالكين عليها ، وتسرُّع المتسرعين إليها ، وانخداعهم بأحمرها وأصفرها منها ، وظنهم أنّ من فاز بالدنيا فهو الغانم ، ومن فاتته فهو الشقيُّ ، وليس ينقضي هذا العجب ولا ينتهي إلى آخر ، والله المستعان :

يا عاشقَ الدنيا بَجَلْ[3] لا تجهلَنْ فيمن جَهِلْ

فكلُّ ما أحيا قَتَلْ

---

١ — زيادة ضرورية .

٢ — ر والمطبوعة : والحيرة .

٣ — بجل : اسم فعل بمعنى يكفي ، وفي شعر لبيد « بجلي الآن من العيش بجل » ، وقرأها ناشر المطبوعة بجل — بكسر الباء وضم الجيم — وأبدى عجبه من ورودها على هذا النحو، وعلق عليها في الهامش بقوله « كذا » .

يا جامعَ المال : قاربْ وانظرْ ، هل جَمعَ غيرُك جَمْعَك وبلغ إرادتك ، فماذا كان أخْراه ؟ [١١٤/أ] يا مستهتَراً باللهو واللعب : قد أفنيت قشيبك[1] في ذلك ، فما حاصلك ؟ يا ساعياً في الشر والفساد : اجعل لنفسك غاية تقف عندها . يا شاكياً لربه إلى خلقه بقوله « رزقي قليل ، وحظي نزر ، وحالي قاصرة ، وحاجتي متصلة » ، لا تفعل ، واستيقن أنه ناظرٌ لك في حالتي عُسرك ويُسرك ، وأنه أعلمُ بتدبيرك وأحفَظُ لمصلحتك. لا تتهمه في قضائه ، ولا تنقبضْ من تدبيره ، فما زَوَى عنك ما تريده بخلاً عليك ، ولكن لأمرٍ جليلهُ دقيقٌ عندك ، ودقيقه جليلٌ[2] في نفسك . ولن تعرف حقيقة ما تسمعه مني إلا بأن تتحقق أنك عبد ؛ فإذا تحققت أنك عبد، تحققت أنه مَوْلى ، وإذا تحققتَ أنه مولى ، تحققت أنه ليس بين المولى والعبد حِقْد ولا تِرَةٌ ولا طائلة . فإنْ دَبّرَك بما يلائم طباعك ويوافق هواك فذاك، وإن دَبّرك بغيره فذاك . أنت عبدٌ ومُستَخْدَم ومُدَبّر ، ولمولاك فيك مُراد ، وذلك المراد غَيْب ، وليس لك أن تَدُقَّ بابَ الغيب . وتستشفَّ ما وراء الحجاب ، وتدنو إلى مَحَلّ لم تؤهل له ، ولم يُؤْذَن لك في الوصول إليه . فهل تَبَقّى بعد هذا كله مع هذا الجِماح والطِّماح ، والغيظ والكمد، والتطويل والتهويل ، إلا ما تسلم به عاجلاً وآجلاً : عاجلاً من بلاء يعمّك[3] به ، ويجعلك مُشاراً إليه بين خلقه ، وآجلاً بغضبه وإبعاده وسُخْطه وعذابه ؟ إنك إن لم تسدّدِ الفكر في هذا وشِبْهه ، شَمِتَ بك من هو دونك .

يا هذا : عُدْ بنا إلى ذِكْرِ قوم قطعوا أيامَ حياتهم بالصبر المُرّ ، وتجرعوا مرارتها بشدة الشكائم وقوة الصرائم ، وطووا ما انتشر منها بالثقة الموقنة .

١ – القشيب : الجديد ، يعني عهد الشباب ، ولعل اللفظة « شبيبتك » .
٢ – ر : جليله .
٣ – صورة العين في الكلمة تلحق بالهاء ، ولهذا كتبت في المطبوعة « يهتك » .

والطمأنينة التامة . وطلب الزُلْفة عند من له السلطان والعظمة والقدرة والعزة . ورأوا أن ما بذلوه من أنفسهم دون ما أحرزوه[1] لأنفسهم ، وما جرّوه إلى أنفسهم فوق ما أطلقوه من أنفسهم . وأنهم بصبرِ أيامٍ قصيرةٍ أدركوا مـا أمّلوه ، وبتحمل أذىً مُنْقَضٍ نالوا ما تمنوا . فتعالَ حتى نلبسَ شِعارَهم . ونَلْزَمَ هَدْيَهم ، ونتوخّى وحيهم . ونقتفي أثَرَهم . ونأخذ عِتادهم ، ونرضى بما رضوا . ونحيا كما حَيُوا ، ونهوَى ما هَوُوا . ونرمي إلى غرضهم فإنه منصوب . وندين بدينهم فإنه محسوب . وإذا كان الطريق نَهْجاً ، والسالكون فَوْجاً . والعمل خفيفاً [١١٤/ب] والزمان قصيراً . والغُرْم قليلاً ، والغُنْم كثيراً ، والمعونة حاضرة ، والنيّة ظاهرة ، والزاد موجوداً . والمنهل آهلاً ، والمَسْلَك آمناً ، والسماء مُصْحية ، والليل مُقْمِراً ، والنجوم زاهرة . والسُّرى متصلةً . والصباح محموداً ، والبلاغ قريباً ، فما الذي يقعد بالمسافر عن قطع المرحلة وطيّ السهولة[2] إلا سوء الاختيار ، وقلة النظر لنفسه في الإيراد والإصدار ؟ والله ما هو إلا إغفاءة عن هذه الدنيا الجافية . الغليظة القاسية . الغادرة الفانية . الفاجئة النكدة ، ثم المُنْقَلَبُ إلى الله الكريم ، وجناته المحفوفة بالنعيم . وصُحْبة ملائكته المقربين . فلِمَ هذا كله . وعلامَ هذا كلـه ؟

مَنْ غَصَّ داوَى بشُرْبِ الماء غُصَّتَهُ فكيف يصنعُ مَنْ قد غَصَّ بالماء[3]

اللهم : إنّا نرى الطريق سهلاً قريباً إذا نظرنا إلى تفضُّلك علينا ، وإمدادك لنا ، ورأفتك بنا ، ونراه عَسِراً بعيداً إذا فكَّرْنا في إصرارنا على مخالفتك ، وقلة انقيادنا في طاعتك ، ودوام عكوفنا على سخطك ، وسوء نظرنا فيما بيننا

---

١ – ر : أحرزه . ٢ – كذا ولعل الصواب : «السهلة» أو «السهول» .

٣ – مشبه لقول عدي بن زيد :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

وبينك . فنحن بين النظرين على ترجّح وترنّح ، لا استقرارَ لنا ولا ثباتَ ، ولا زاد إلاّ تثبيت بإحسانك في الثاني كما بدأت به في الأول . فإنك إذا فعلت ذلك ، وَجَدْنا ما ضَلَّ عنا ، وأدركنا ما فاتنا ، ونعمنا وسَعِدنا ، وحَسَدَنا غيرُنا كما كنا نَحْسد غَيْرَنا . وما يَكْبُرُ عليك ذلك ، فقد عرفت فقرنا وحاجتنا ، وعجزنا وفاقتنا ، وإن اختيارنا لا يعبَقُ بالصّواب إلا إذا أرشدته . ونَظَرَنا لأنفسنا لا يظفر بالنُّجْحِ إلا إذا سَدَّدته . فكلّ ذلك لا يتم إلا بك . ولا ينتظم إلاّ بمعرفتك .

يا هذا : قد صَرَّفْتُ لك القولَ في فنونٍ من العبارة على ضروبٍ من الإشارة ، جذباً بِضَبْعِك إلى المحلّ الأعلى ، ورفعاً لَطرْفك إلى الحد الأقصى ، ورفقاً بك في كل ما تَفْرَقُ منه وتَخْشى ، وتقديماً للحزم في أمرك بإرشادك وتنبيهك . فكُنْ مُعيني على نفسك كما كنتُ معيناً لك في اجتلاب أُنْسك . وعلى أيّ حال كُنْتَ ، فلا تَثِبْ على محارمِ الله متهتكاً ، ولا تَقْسُ على عبادِ الله محتكماً ، ولا تيأس من حظك من الله معتزماً ، ولا تنس ذكر الله متهاوناً [١١٥/أ] ولا تبحث عن مكنون غيبه مُقْدِماً ، ولا ترتكب مخالفته مجاهداً ، ولا تترك التوبة في كل حال مستظهراً ، ولا تَسَلْ غيرَكَ مستخبراً . فإنك أعلمُ بدخلتك ، وصالحتك وطالحتك . وفائدتك وغائلتك ، وعائدتك وعاديتك ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ (القيامة : ١٤) وصادقْ من يدعوك من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الخَلْق إلى الله ، ومن الشهوة إلى العفة ، ومن الكسل إلى النشاط ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، ومن الإهمال الى الحزم ، ومن السُّكْر إلى الصحو ، ومن الخرق إلى الرِّفق ، ومن الهوى إلى العقل ؛ فإن أكثر الناس نجوا بقرنائهم ، كما أن أكثرهم هلكوا بقرنائهم ، للتدبير الواقع بينهم ، والتناصح المرفوع عنهم ، والتكاذب[1] الذي يصطلحون عليه في كل

---

١ – هكذا هي في ر ، ولعلها « والتكاتف » .

حال . لا جَرَمَ يتورطون في عواقبهم ويتمنون الرَّجْعة إلى أحوالهم ، فيكون ذلك كله غروراً منهم ، وجهلاً بهم ، ونعوذ بالله من الشقاء إذا أظـــلَّ . والحَيْنِ إذا أقبل . والعُسْر إذا استمر ، ومن البلاء إذا استقر . فالله اللهَ في نفسك الضعيفة . لا توردها إلا بعد الثقة بصَدَرِها ، ولا تُصْدِرْها إلا بعـــد الأمْنِ من ورودها .

يا هذا : هذا كله هَيْنمةٌ لقومٍ قد فُقِد سَوَادُهم في عصرك من بـــين من ترى . كانوا يديرونها بينهم كصحيفة منشورة : ينظرون فيها ، ويتعرفون ما في حواشيها ، فإذا رأوا حَسَنَةً سُرُّوا بها غير بَطِرين ، وإذا رأوا سيئة نَدِموا عليها مستغفرين . ولم يعودوا إليها مجتهدين . فاليومَ قد نُسِيتْ هذه الهينمة ، وأُخِذَ فيما لا عائدة له ألبتّة : مِنْ شَتْم عِرْضٍ ، وذِكْر شعرٍ ، وحَسَد صاحب ، وفَرَحٍ بإرجافٍ ، وإظهارِ سخطٍ . وتَطاولٍ بكبرٍ ، وتبسُّط في نُكر ، وتقبض عن عُرْف .

لا جَرَم إذا رأيت ذا دينٍ وعقل ، رأيتَهُ شاحب الوجه ، خفيض الصوت . ضئيل الجسم ، كليل الحد ، قليل النشاط ، شديد التبرم بالحياة ، كثير الحنين إلى الوفاة : يتكلف إذا تكلم ، ويتحمّل إذا نهض ، ويتباعد إذا أُدني ، ويغتمُّ إذا أُقصي ؛ قد يئس من الحياة وطيبها ، ورفع الطمع عن عَود الشريعة إلى مائها الحلو المذاق ، وإلى زينتها الأولى ، وإلى عهدها الأول . فهذا وما أشبهه قد بَهتَه وكَرَبَه وحالَ بينه وبينه [١١٥/ب] فهو كالغريب بين الناس : يعلم ما هم فيه ، ولايعلمون ما هو فيه ، مشغولٌ بنفسه ، معتذر إلى الله تعالى من عجزه عن إقامة مناره ، وإظهار شعاره ، على غاية اختياره ، ونهاية اقتداره؛ للناس شان وله شان ، والسلام .

إلهنا[١] إلهنا : كيف نسهو عنك وأنت تجاهنا ، تواصلُنا[٢] بالنعم بعد النعم . وتغمُرنا بغرائب فنون المواهب والقسم ، وتناغي أسرارَ قلوبنا بصنوفِ اللغات ، وتنشرُ علينا عجائبَ الملكوت على اللمحات ، وتلاطفنا في كلٍّ حال من الحالات ، بما هو أعودُ علينا من الحياة الموصولة بالحياة ؟ نسألك بجلال وجهك ، وغامض غيبك ، وخفيّات ملكوتك ، أن تُوَفِّقنا لشكرك ، وتُهيِّئنا لقبول مزيدك ، حتى إذا أحسسنا بذاك من فضلك . نعمنا في توخي مَرْضاتك ، وغنينا به عن جميع خلقك .

إلهنا : أنت الكهفُ عند الشدائد ، والمُنْتَهَى عند الأوابد . ذَلَّ لجبروتك السهلُ والجبل ، وطاب من أجلك اللوم والعَذَل ، وزكا بتوفيقك العلمُ والعمل ، وانقادَ لأمرك الإنْس والجن ، واستوى في إدراك كُنْهِك اليقينُ والظن . قد تعرضنا لجودك ، وشِمْنا بَرْقَ عطائكَ ، ووردنا شريعةَ فضلك ، ورفعنا قلوبنا بالإخلاص إليك . وتوكلنا في سرّائنا وضرائنا عليك : فيضَك نلتمس ، ونورَك نقتبس ، وفي بحر أياديك ننغمس .

اللهم فتمم النعمة علينا ، بأن تكفينا مؤونة خلقك التائهين عن بابك ، المُصِرِّين على مخالفتك ، الجاهلين [بحقّك][٣] الجاحدين[٤] لنعمتك[٥] ، المخدوعين

---

١ – ورد معظم هذه الرسالة في ل (الورقة ٥/أ – ٨/أ) بعنوان « كسوف الضوء وخلوف النوء من الاشارات الالهية » وهذا العنوان مستمد من قوله في الرسالة : « وهذه أمارة سوء ، وكسوف ضوء ، وخلوف نوء ... الخ » مع أن صاحب الاختيار أسقطه في النسخة ل فيما أسقطه من هذه الرسالة ؛ وهذا قد يشير إلى أن العنوان أصيل في المخطوطة التي نقل عنها «المختار» .

٢ – ر : وتواصلنا .

٣ – زيادة من ل .

٤ – الجاحدين : سقطت من ل .

٥ – ل : لنعمك .

بزخارف عالمك ، المغرورين بخوافي استدراجك ؛ فقد عادّونا من أجلك . وحسدونا لما خَصَصْتنا به من رَوْحك[1] وتأييدك . وحاولوا بُعْدنا عنك . وسعوا في إبادتنا وإبارتنا ، لأنّا دعوناهم إليك . ورَغّبناهم فيما لديك . وفطمناهم عن ارتضاع الدنيا المشئومة . وعنّفناهم[2] عند احتقابهم للأوزار[3] الثقيلة . وفي الجملة: مللناهم وملّونا . وضاقت صدورنا بهم وصدورهم بنا . فكما فرّقتَ بيننا وبينهم بما وهبتَ لنا وحرَمْتَهم . فرّق أيضاً بيننا وبينهم ، حتى لا نحسَّ بهم إذا سبَعُونا . ولا نحفلَ بقولهم إذا سبّونا . ولا نكترث لنكايتهم إذا قصدونا ونصبوا لنا .

[١١٦/أ] أيها السامع : هذه مناجاتي لربي مع أخَوات لها عندي . فإن حركك العشقُ الربّاني ، وحفز سِرّكَ الشوقُ الإلهي . وهبَّ في فضاء صدرك النسيم القدسي . فتبَلّغ إليّ . واحمل ثقلك عليّ . حتى تصدر غنياً بلا مال . وعزيزاً بلا عشير ، ومستقلاً بلا معين . وحيّاً بلا آفة . وواجداً بلا عدم . وباقياً بلا فَناء . وفرداً بلا رقيب . وتاماً بلا نقص . ومسروراً بلا همّ . ومشروحاً بلا كَرْب ، وطالعاً بلا غروب ، وصاعداً بلا نزول ، ومنظوماً بلا انتثار ، وملموماً بلا انتشار ، ومَرِحاً بلا بَطَر ، ومُدركاً بلا عسر ، ومقبولاً بلا رد ، وموصولاً بلا صدّ ، ومُنْعَماً عليه بلا تنغيص ، ومحبواً بلا تنقيص .

نعم ، فديتك : هذا حظك مني إن قادك التوفيق إليّ ، وأوفدك السَعْدُ عليّ . وإلا فأنت من خُشارة[4] هذا السواد الذي لا يبالي الله في أي واد هلَكْتَ . وعلى أي جانب وَقَعْتَ .

---

١ – رل : وحيك .
٢ – ر : وعنفنا بهم .
٣ – ل : الأوزار .
٤ – الخشارة : سفلة الناس .

يا هذا : دَعْ ما وَقَرَ في أُذنك من جملة ما هَذَيْتُ به عليك ، وحَصِّلِ الآن ما أقول : فإنه الوصف الذي شملني ، والنعت الذي ملكني ، واطلب نفسك في جنباته ، وتصفح عن أصلك وفصلك بعلاماتك ، فلعلك تأخذ بيدي عند عثرتي ، وترحمني لانسكاب عبرتي .

فأول ما أقول واصفاً لحالي في سري وعلانيتي : استرقني في عياني عن خبري ، فها أنا بين العيان ، والخبر بلا عينٍ ولا أثر . ولقد صبرتُ على الاستراق[1] ، لولا أنه اتصل الآن بالاسترقاق ، فقد وحقّ الحق ذُبْتُ كمداً ، ومدتُ وَمَدَاً[2] . ومارست كَبَداً . حتى لحظت ألحداً فرداً صمداً . فالآن شوقي إلى عَيْنٍ تبسطُ خبري . وإلى خبر يحقّقُ عيني ، فأرتقي من ذاك إلى أن أبين في كوني ، وأتبرأ من شَيْئي إلى زيني . وأخلُصَ إلى حرمٍ ساكِنُه مطمئن . ومنتجعُه مختضم[3] ، واليقظان فيه متنعم ، والحالم به مغتنم ، والراضي بـه مَرْضِيّ . والمكتفي به مكفيٌّ . هناك هناك وما أدراك ما هناك ! هناك غيث رذاذه وابل ، وقليله كثير ، وصعبه منقاد ، وعَدَمُهُ وجْدان . ونقصانه رُجْحان ، وبعضُه كلٌ ، ونثره نظم ، ولحظه نُطْق ، وعبده سَيّد ، وفقيرُهُ غنيّ ، وكريهه شهيّ ، ووَعْره وطيّ ، وغريبه آهل ، ومصرورهُ باهل[4] ، وارده ناهل ، وظلامه نور ، وصَوْبه درور ، وكله سرور ، وبعضه حبور .

يا هذا [١١٦/ب] زللتُ عن رسم حالي ، لاختلافي في مقالي وفعالي ،

---

١ – ر : الاسترقاق .

٢ – الومد : الغضب .

٣ – مختضم : يأكل اختضاماً أي بملء فيه .

٤ – تكون الناقة مصرورة حين يربط ضرعها لئلا يرضعها الفصيل ؛ والباهل التي لا صرار عليها يحلبها من شاء ، وهذا غير ممكن ، أو هو مصدر عجب لامكانه رغم التناقض .

وغيبني فيما علَيَّ عمّا لي . وهذه أمارة سَوْء ، **وكسوفُ ضَوْء** ، **وخلوفُ نَوْء** . فما أصنع ؟ البرق خَطوف ، والمُزْنُ قذوف ، والمركَبُ قطوف ، والسائق عنيف ، والقائد سَلُوف[1] . والنفسُ عزوفٌ ؛ إن شكوتُ ما بي لم يُسْمع ، وإن سُمِعَ لم ينفعْ ، وإن نفع مع الحالِ يقطع ، وإذا قطع زاد الوجع .

فيا عجبا : أين العطف والرأفة ، وأين الرقة والشفقة ، وأين البقيا[2] والرحمة ؟ هيهات : النعشةُ عند العثار معدومة ، والدهشةُ عند النثارِ مكتومة ، والشهادة في الغَيبة مجهولة ، والغيبةُ في الشهادةِ محمولة . وكل هذا عجب ، وكل عجب من هذا شجب .

فهل عندك يا أنيسي حيلةٌ فيما ذكرت ؟ بل هل عندك خبرة بما طويتُ ونشرتُ ؟ بل هل تقفُ على عويصِ هذه الترجمة الإلهية ؟ بل هل لك طريقٌ إلى ترجمةِ هذه العويصة الإنسية ؟ إنه يسبقُ إلى ظني أنك من لفيفِ هذا السواد ، الذين يتقلبون في البلاد ، بلا زاد ولا عتاد ، ولا مَراد ولا ارتياد ، ولا اعتياد ولا اعتداد ، ولا انقياد ولا اقتياد . رؤوسٌ وعمائم ، وأكتاف وطيالس ، وأكمام وتبختر ، وأذيالٌ وتَسحُّب[3] ، ثم لا لفظ منقّى ، ولا لحظ موقّى ، ولا رأي له عُقْبى ، ولا مرأى له بقوى[4] ، ولا علم له مُقْتَبِس ، ولا عمل له مُلْتَمِس ، ولا استظهار لغدٍ ، ولا أسَف على أمسٍ ، ولا انتباه لحُكْم الوقت ، ولا أسىً على فائت ، ولا ندم على تقصير ، ولا تلافٍ لممكن ، ولا قيامٌ بواجب ، ولا تثاقلٌ عن ممتنع ، ولا إحساسٌ

---

١ – السلوف : صفة للناقة تكون في اوائل الابل اذا وردت الماء ؛ والسلوف : السريع من الخيل ؛ وفي ر : شوف .

٢ – ر والمطبوعة : البقية .

٣ – ل : تسحب .

٤ – ل : ولا امرؤ له تقوى .

بالمهم . ولا احتفال بالمُلِم . إنما هو حرصُ خنزير . وتبصبصُ كلب . وروَغانُ ثعلب . وافتراس أسد . وجهلُ حمار . وغارة ذئب . ونوم فهد. وحقد[1] جَمَل . لعمري إن عُمْراً تقضّى بهذه الأخلاق لعمرٌ مشوم على صاحبه . غير ذي غبطة في جميع أمره .

يا هذا : ارجِعْ إلى سِرّك الذي تحت حُجُب صَدْرِك . وانظر : هل تجدُ لهذا الكلام مصافحةً له ، أو أثراً فيه . أو مروراً ببابه[2] . أو إلماماً بحافاته[3] ، أو حوماً[4] في عَرَصاته ، أو وجداً بنغماته[5] ، أو حنيناً إلى نبراته . أو نزاعاً إلى خَطَراته . أو ولهاً على سَوْراته . أو طَرَباً[6] على نقراته[7] . أو دنواً من [١١٧/أ] حجراته[8] . أو سبحاً في غمراته ؟ فإن كنت تجد . فأنت والله المخصوص بالمنحة الكبرى . المعمومُ بالنعمة العظمى . المُرَشّحُ للغاية القصوى . المراد بصادق البُشْرى ، المذكورُ في الملأ الأعلى ، المأخوذُ بيده إلى سِدْرة المنتهى ، المقرّب إلى الذروة العليا بلادعوى ولا دَعْوَى . وإن كنت لا تجد ما وصفتُ لك بهذا البيان الصريح . وهذا اللفظ الصحيح . فأنت والله الشقي اللقيُّ[9] . المطرود من بابِ الكرامة إلى فناءِ الهوان . وعذرة[10] الذلّ ، وساحة الحَسْرة : قد ركِبتَكَ الوَحْشَةُ . وملَكَتْكَ

---

١ – ل : وجهل ؛ والجمل يعرف عنه الحقد .
٢ – ل : أم مروراً به .
٣ – ل : لحافاته .
٤ – ل : صوباً .
٥ – ر : في نغماته .
٦ – ر : طلباً .
٧ – ل : فقراته .
٨ – ل : جمراته .
٩ – ر : اللقي الشقي .
١٠ – العذرة : ساحة الدار .

الدهشةُ ، وزايلتك النّعْشة ، وحالفتك الرّعْشة . فأطِلِ البكاء ، وأجدِ اللطم ، وتَجرَّع مرارةَ الكأس ، المُتْرعةِ بالحسرة واليأس . وليت البكاءَ نفعك ، وليت النوحَ أجدى عليك ، وليت الحسرةَ أفادتك ، وليت الندامة نفعتك . هيهات ، فُتَّ فوْتاً [لا][2] دَرَك بعده ، وبِدْتَ بُيوداً لا عَوْدَ معه . العثرةُ[3] غيرُ مُقالة ، والمِحْنَةُ غير مُزالة ، والحالُ غير محالة .

وبعدُ وقبل : فإن أمكنك أن تكونَ يقظانَ فلا تنعسْ ، وإن استطعت أن تَقْرَع الباب فلا تَكْسَلْ ، وإن قَدَرْتَ على تلافٍ وإن كان يسيراً فلا تَنْكُصْ . وإن وجدت سبيلاً إلى اعتذار[4] فلا تعجز . وإن كان وراءك حُجة فلا تجبن . وإن اهتديت إلى ذُخْر فلا تبخل . وإن كنتَ من أمرك على بصيرة فلا تجهل .

الحازم – أخذ[5] الله بيدك – من شمّر . واتخذ الليلِ جَمَلاً [وعَبَر][6] وعَبّر . فان الفتور في المهم مؤدٍّ إلى التلف ، والتقصير في حيازة الحظّ[7] من أسباب الحرمان . ومهما أخذت وتركتَ[8] ، فلا تَرْضَ لنفسك بالهوينا في أمرٍ عاجلَتُه زَيْنٌ ، وآجلته أمن ؛ وثق بأن العمل محفوظ ، والعلم من دونه ملفوظ ، وأنت من[9] بينهما مبهوظ[10] ، والحساب دقيق ، والجزاء مرصود ،

---

١ – ل : النوع .
٢ – سقطت من ر .
٣ – ر : والعثرة .
٤ – ر : الاعتذار .
٥ – ر : من أخذ .
٦ – زيادة من ل ، وفي أصل ر : وعر .
٧ – ل : الفضل .
٨ – ل : أو تركت .
٩ – من : سقطت من ل .
١٠ – ل : منهوض .

والغاية مع بُعْدها قريبة ، والرقيبُ عتيد ، والاهتمام شديد ، والخبرُ صحيح ، والوعدُ صريح ، والوعيدُ فصيح ، والرحيل جِدّ ، والظنُّ كذوب ، والمرءُ دؤوب ، والصبحُ مُنْجَلٍ ، والمدى مبلوغ ، والقول كثير ، والنصحُ قليل . وكلُّ عَيْنٍ فلها شغل بمنظرها : أنيقاً كان أو غير أنيق . وكلُّ أذن فلها ذهول بمسموعها : مُطْرِباً كان أو غيرَ مطرب [١١٧/ب] وكلُّ نفسٍ فلها شدْهة بمعشوقها : مستحقاً كان أو غير مستحق .

فإذا صحّ اعتزامك على تخليصك من أسْرك[١] فابدأ بعينك فاغضضها[٢] عن مناظر الدنيا ، ثم بأُذُنك فاسدُدْها عن أخبار السُّفْلى ، ثم بنفسك فازممها عن استشعار البلوى . ثم بلسانك فاكففه[٣] عن إعادة الشكوى ، ثم صِرْ أحْصَنَ حِصْنٍ بينك وبين كل ما خبّلك أو حبّلك . أو خدَعك أو سَحَرك أو قمّرك . ولن تقدر على هذا إلا بعد رياضة نفسك[٤] الزَّعِرَة[٥] ، ومفارقة عادتك الوضِرة ، والتنزه عن الأمور القذرة .

فإن وجدتَ مع هذه الحال التي أنشأتها فأنِسْت بها صحابةً يعينونك بالعلم الحق ، ويساعدونك على العمل الصالح ، ويغذونك بالرأفة ، ويأخذون بيدك عند الزيغة والوَرْطة ، فاذهب فإنك من الذين أنعم الله عليهم ، ونظر بالتوفيق إليهم . فحينئذ شجرتُكَ تُورِقُ ، وأغصانُك تلدُن ، وفَنَنُك يخضرُّ

---

١ – ر : سرك .

٢ – ر : واغضضها .

٣ – ر : فاكففها ، والصواب من ل .

٤ – ر : لنفسك .

٥ – من قولهم زعر الخلق اذا كان فيه شراسة وسوء .

وثمرتك تحلو ، ورَبْعك[1] يزكو ، ونارك تذكو ، وناصيتك تعلو ، وباعك يطول ، وصوابك يدوم ، وخطأك يزول ، وسَهْوك يفارق ، ويقظتك تعانق ، ويُمنك يحضر ، وبركتك تكثر ، وقلبك يَنْقَى ، وذكرك يبقى ، وقدرك يَرْقَى . ومَلَكُكَ يأنَسُ بك ، وشيطانك ييأسُ منك ، وعينك تَقَرُّ ، ونفسك تُسَر ، وخيرك يَدِرُّ ، ورُشْدك يلازَم ، وغيُّك يُهْزَم ، وكُلُّك يَسْعَدُ ، وبعضُك لبعضك يشهد . فيا لك من مُلْك سيق إليك ، ويا لك من شمسٍ طلعت عليك .

اللهم : كما وفقتنا لنصيحة غيرنا[2] ، فوفِّقنا لنصيحة أنفسنا . حتى نبدأ بالأهمّ فالأهمّ من أمرنا ، ولا يشتغل[3] بالُنا بالأعمّ عن الأخص ، ولا نلهوَ عن الأنفَسِ بالأخَسّ[4] . واجعلنا عند الدعاء إليك من المستجيبين لك ، وعند ذكرك من الواجدين بك ، وعند موافقتك من المتهالكين فيك ، وعند مخالفتك من التائبين إليك ، وعند الشدائد من المتوكلين عليك .

اللهم : كما هديتنا لهذا البيانِ الذي قد فُقد من جمهور عبادك ، فاهدنا للاخلاص فيه ، ووفقنا للعمل به ، واجعلنا إذا ذكرناك وجدناك ، وإذا وجدناك[5] عرفناك ، وإذا عرفناك أطعناك ، وإذا أطعناك رَعَيْناك ، وإذا رعيناك حفظناك ، وإذا حفظناك اشتقناك ، وإذا اشتقناك رأيناك [١١٨/أ] وإذا رأيناك ارتضيناك ، وإذا ارتضيناك أرضيناك .

---

١ – كذا في الأصلين ، وله وجه ، والأصوب : وريعك يزكو ، أي ينمو ويزداد .

٢ – ر : غيرك ، والتصويب من ل .

٣ – ر : يشغل .

٤ – ل : بالأنفس عن الأخس .

٥ – ر : واذا وجدناك ذكرناك ، واذا ذكرناك وجدناك عرفناك ؛ ومن الواضح ان في النص تكراراً ناجماً عن السهو .

إلهنا : كُنْ لنا فوق[1] ما نتمناه لأنفسنا ، واعصمنا من كل ما يُسْخِطُك علينا ، وأجْرِ ألسنتنا في تمجيدك وتوحيدك ، وتقديسك وتحميدك[2] ، وتنزيهك وتعظيمك، بما يكون نوراً في صدورنا ، واملأ قلوبنا من محبتك وموافقتك[3] ما يكون قرة لأعيننا ، وضَرْحاً لأقذاء عيوننا . بل[4] وبرداً تتلذذ به أسرارنا ورفعاً لكل حجاب بيننا وبيننا . ومهما أتيت في أمرنا ، فلا تَطْردنا ولا تمقتنا ، ولا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ولا تجعلنا فتْنة للذين جهلوك . وشردوا عنك ، وكَفَروا أياديك ، وجحدوا نعماءك ، ولا تُشْمِتْ بنا أعداءنا فيك[5] . وفي الجملة ارحمنا [و] في التفصيل أكرمنا . يا ذا الجلال والإكرام .

- ٤١ -

اللهم : إنّا نخشع لك لا ئذين بك ، ونخبر عنك متحيّرين فيك[6] ، وندعو إليك مُقَصرين فيك . فارحمنا رحمة المولى لعبده ، واعصِمْنا من خَبَث لا ينقى[7] بما[8] أنت أهله ، يا ذا الجلال والإكرام والمجد ، والإحسان والرفد .

بالله أيها الصديقُ المحالف ، والصاحبُ المكانف : أما ترى انتشاري في كلامي ، ووقوعي دون مقصدي ومرامي ، وتلعثمي في عبارتي ، وتعثري في إشارتي، حتى كأني أجنبي من حالي، أو غريب في مالي[9] ؟ هذا والله شعار

---

١ - ل : عند .
٢ - ر : وتمجيدك ، والتصويب من ل .
٣ - ر : وبموافقتك ، والتصويب من ل .
٤ - بل : سقطت من ل .
٥ - ر : ولا تشمت أعداءك فيك بنا .
٦ - التنويع في استعمال حروف الجر يقتضي أن تقرأ « منك » .
٧ - قرئت في المطبوعة « من حيف لا يبقى » ولا أرى له وجهاً .
٨ - ر : لما .
٩ - قرئت في المطبوعة : حتى كأني أحنث من حالي أو عزيت في مالي ؛ قلت : ولا شيء يتحصل منه من حيث المعنى .

المرحومين وحيلة المقَصِّرين . ولا عجب من عيّ العبد في وصف سيده : فمن وَجْدُه كوجدي ، وكنايته كنايتي ، وإيماؤه إيمائي ، يَحْصَر وإن كان بليغاً ، ويتبلّد وإن كان متحفظاً ، ويغيبُ وإن كان حاضراً ، ويعجزُ وإن كان قادراً ، ويحار وإن كان ناظراً ، ويكلّ وإن كان سائراً .

يا هذا : لن تقدر على النظر في هذا الديوان إلا بحساب تقدمه بينك وبين نفسك، على مؤامرة[1] لك فيها رشدة وغبطة ، واستظهار وحَيْطة . فإنك إذا نويت هذه النية ، وأخلَصت فيه الروية ، وأحكمت عليه الطّويّة، واطّلَعْتَ على النجد ، وامتلأت بالوجد ، واستغنيت بالمشافهة عن السّفرة ، وكُفيت مؤونة الترهيب والتحذير .

[يا[2] هذا] ما الذي يقعد بك عن هذه الذُّرَى[3] العالية ، وعن هذه الغايات[4] المتناهية ، وقد انثالت عليك العِبَرُ [١١٨/ب] والغِيَر ، والتقى عندك الخبرُ والأثر ، وحَصَل قِبَلَك الظاهرُ والباطنُ ، وأملي عليك[5] الغابر والراهن ، وشهدتَ في خلال ذلك المتحركَ والساكن ؟ وقَرّ[6] في عقلك كلُّ ما يتمخّض به الليل والنهار ؟ فأين يُذهب بك عن هذه الآيات المتشابهة بالحق، وعن هذه الأمارات المتحدّثة بالصدق ، وعن هذه النعم المتصلة بأصناف الخلق ؟ أفيها شيء خلا من الحكمة ؟ أم فيها شيء عَرِيَ عن النعمة ؟ أم فيها شيء فات القدرة ؟ أم فيها شيء نبا عن المشيئة ؟ أم فيها شيء سكت عن الدلالة ؟ لا والذي أنطقني بلطفه،وأسمعك برحمته،ما ترى عينك الا مُحْكَماً، ولا تجد نفسُك إلا معلماً[7] ؛ وإن عقلاً يصدأ عند هذه الآيات لسخيف ، وإن لساناً يعيا عن وصف هذه الأسرار لضعيف .

---

١ – المؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ويوقع السلطان في آخره (مفاتيح العلوم : ٣٨) .

٢ – من هنا وحتى نهاية الرسالة (ق : ١٢٠/ب) ثابت معظمه في نسخة ل (ق: ٣٥/أ – ٣٨/أ) .

٣ – ل : الدار . ٤ – ل : الغاية .

٥ – ل : عندك . ٦ – ل : ووقر .

٧ – ل : معكما .

يا هذا : الطودُ ذو قُلّة شامخة ، والبحر ذو أمواج ملتطمة ، والغَيْضَة ذات دَغَل أشِب . فحدثني الآن : بم يُدِلُّ المُدِل ، وعلامَ يعتمد المعتمد؟ فحبذا موحشي بمراده ، وحاملي على مكروهي بين إصداره وإيراده :

لا أتاح الله لي فَرَجاً يوم أدعو منه بالفرجِ [1]

وجدتُ ما وجدت منه ، وعَدِمْتُ ما عدمت به ، وقلتُ ما قلتُ له ، فكلي لي بالاستعارة وله بالحقيقة . فإنْ شاء أبقى وانعم[2] [ونعّم] ،وإن شاء أبلى وأسقم ؛ لا اعتراض للعبد على المولى ، ولا عار على العبد[3] وإن رُدِّد بين البلوى [والبلوى][4] ؛ ألا ترى الأول يقول :

العبد عبدك فاحكم فيه واحتكمِ واعدِلْ وجُرْ غيرَ مأخوذ بلا ولَمِ

ويحك ، كيف تحكم بِلِمَ على خالق لم ؟ أم كيف تحتج بالحجة على مظهر الحجة[5] ؟ أم كيف تَدلُّ بالعقل على منشىء العقل ؟ أم كيف تباهي بالعلم واهبَ العلم ؟

أيها الإنسان: لو عَرِيتَ من جلبابه الذي به زيّنك،وخلوتَ من فضله الذي بهأمكنك،[ما أمكنك][4] ثم حصلت حقيقتك، كنت هباءمنثوراً،أو غُثاءً منشوراً، لولا أنه ﴿خلقك فسوّاك فعَدَلك﴾ (الانفطار : ٧) . متى[6] كنت تستقل بذاتك ؟ وكيف كنت تشرف على صفاتك ؟ وبأي شيء كنت تميز ما لك منك ، وما عليك فيك ، وما عندك لك ؟ هذا سوى ما عرض عليك من

---

١ – ورد في بدائع البدائه : ٢٩٠ مع أبيات أخرى لخالد الكاتب ، وروايته « يوم أدعو منك » .

٢ – ر : بقى ونعم

٣ – ل : بالعبد .

٤ – زيادة من ل .

٥ – ل : بالحجج ... الحجج

٦ – ل : كيف .

آثار مُلْكه ، وأحْضَرَه بين يديك من أسرار غيبه ، حتى ناداك بلسان السفير ، وناجاك بعدُ في كل أمر يَسير [١١٩/أ] وعَسير ، وأهّلك لما وَحّدك به من بين هذا الصغير والكبير ، بالبشير والنذير ، مرة في الخاطر بالضمير [١] ، ومرة بالبيان الواضح الشهير .

اشهَدْ يا هذا غرائبَ نعمه عندك ، وكُنْ له من الشاكرين ، وانشر آلاءه بين عباده ، وكن من الحامدين ، فإنّ الشكر مفتاح المزيد ، والحمدَ بابُ التوفيق [والتسديد] [٢] . ومهما قصرت [٣] فلا تقصِّرْ في حفظ ما منحك ، وطلب الفضل من عنده بقدر ما فتح عليك ، فإنك بِعُرُض خيره ما دمت تصغي إلى هذا النمط ، فلعلك تعتبر . واعلم أن الاعتبار روضةُ العارفين ، والتفكر في ملكوت السّموات والأرضين [٤] من عـــادة عبـــاد الله الصالحين المخلصين [٥] ، فلا يشغلنك عن [٦] هذه العوائد شاغل .

يا هذا : التصفح يُريك حُسْنَ الثناء في مقابلة حُسْن الخُلُق ، ويفيدك من المعرفة التعظيم ، ويَبْسُطُك في سلطانه بحلية الاختصاص ، ويُشَرِّفك بما دنا إلى ما نأى ، حتى تأخذ العتاد ، وتقدم الزاد ، وتعمل لدار المهاد .

ها أنا أشتاقُ مُهَيَّماً إلى محل [عنه] [٧] صدرت ، وأهذي بحالي مُتَيَّماً على من به وجدت ما وجدت . فلا لي في شوقي سكون أتعلّلُ به ، ولا لي في هذياني استقلالٌ أرْجِعُ إليه ، لأني معلّل في الأول ، ومخدوعٌ في الثاني ، وهالك في الثالث . وإنما تَغَلّبَ هذا المعنى عليّ لأني أرى طلوعي على مـــا أطلعه غروباً ، واستحقاقي فيما أتظاهر [٨] به سراباً . فما حيلة من إن عَلَن كَتَم ،

---

١ – ل : مرة بالخاطر في الضمير
٢ – زيادة من ل .
٣ – ر : حضرت .
٤ – ل : والأرض .
٥ – ر : عباده المخلصين .
٦ – ر : من .
٧ – زيادة لازمة .
٨ – ر : تظاهر .

وإن نادى رُحم ، وإن انتثر نُظم ، وإن وجد عدم ؟ له منه سر خاف عليه . وفيه به خوف لا طمأنينة معه . وإن شكا عجّزوه ، وإن تجلد مقتوه ، وإن صَرّح طردوه ، وإن كنّى عانـــدوه ، وإن ساعـــد استثقلوه ، وإن نافر استجهلوه ، وهو في عَرْض ذلك يقول :

لا أستطيع نزولاً عن مودتكم ... أو يَصنَع الدهرُ بي غيرَ الذي صنعا[1]

فأيُّ فَكاك لأسيرٍ قد أسْلمه أحبّاؤه ، ولو فُكَّ لكان أسْرُه في فكاكه ، ولو نجا لكان وقوعه في خلاصه ؟ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو شَجَنٍ مُخامر يُقْلقه إذا أطرق ، وذو حُزْنٍ ظاهر يُحْرِقه إذا نطق ، فلا قرار[2] له إلاّ على نزوع ، ولا سكونَ به إلاّ على تفزع ، ولا عجب ممن حاله هذه التي[3] يبكي العيونَ مسموعُها ، ويُطيـــل الحيرة منظرُهـــا . ولكن العجب من استسلامه فيها ، وتلذذه بما يتوالى عليه من لواذعها [١١٩/ب]وخوادعها. وهذا خبره ، وعلى هذا سَمَره ، إلا أن يأتيه الفرج من جهة من أبلاه بما أبلاه، ويكشف عنه الضُرَّ ويتولاه . جُلُّ حديثه إذا خلا أن يقول : إلهي :

لو أشْرَب السُّلوانَ ما سَليتُ ... ما بي غِنىً عنكَ وإن غَنيتُ[4]

ومن غريب شأنه أنك إن بشّرته بالعتْق اغتم ، وإن حدثته عن عزة أعرض ولم يستتمّ ، والناظر إليه راحم [و] هو بما[5] فيه مغتبط . فواعجباً من أسرار الحق، في أعماق قلوب الخلق : لكل أمرىء شأنٌ مخصوص ، وهو

---

١ – البيت للاحوص ، ديوانه : ١٥٣ وروايته :

لا أستطيع نزوعاً عن محبتها ... أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا

وقد جاء منسوباً لمجنون ليلى ، انظر ديوانه : ٢٠٠ .

٢ – ر : فرار .

٣ – ر : الذي .

٤ – الرجز لرؤبة ، انظر التاج (سلا) وديوانه : ٢٥-٢٦ .

٥ – ر : فيما .

به إما زائد وإما منقوص . الإلهية لا تمسح بالوهم ، ولا تُقدر بالفهم ، ولا تُشرح بالعقل ، ولا تنال بالترجمة . وهل يجوز ذلك ، والعبودية لا نسبة لها إليها ، ولا سبيل لها عليها ؟ إنما هي جبلة عجز ، وحيلة عوَز ، وديدن حاجة ، ومعدن لحاجة ، وقطب كون ، ومدار فساد ، وباب حيلولة ، وجانب زيلولة ، ليس لها ثبات ، ولا عليها مُعَوَّل لذي ثبات ؛ حتى إذا طلعت عليها شموس الرحمة ، وكنفتها يدُ العصمة ، وغذتها كفُّ الشفقة ، تناولت بعد تطامُنها ، واستقلت بعد انخزالها ، ومرَّت على خُيَلائها بما صحبها من غُلَوائها . فعند ذلك يظهر الشكر الصحيح ، بشرط الإيمان القوي ، أو يغلب الكفر الصريح ، بحكم الشِّرْكِ الغوي ؛ فيا عجبا من أول هذا الأمر ، وواحربا من آخره !

طاحت الألبابُ المفتوقة بفنون الصواب ، وانحلت الأحقاد بما غلب على جميع الأشهاد ، وبادت الكينونة في البيدودة ، وبدت البيدودة في الكينونة ، فصار المَحْوُ رَسْماً مشهوداً ، وعاد الرَّسْم أثراً محدوداً . فإن قلتَ : « لِمَ » ازدروك ، وإن قلت : « نعم » اعتروك ، وإن تبرأت منهمـــا انتهبوك حتى لا بقيا[1] لك .

هذا نبأك وأنت تشمخ بأنفك[2] وتنثني بعطْفك ، وتظن أنك قد أويْت إلى كنف يُعزُّكَ ويحرزك . وإنما ذلك غرورٌ منك بهذه المناظر المزخرفة ، وتعلُّلٌ بهذه العادات المستسخفة . أين أنت عن سكرة في صحوك أو عن صحو في سكرتك[3] تتذوقَ طعماً لم تعهدْ مثله فيما خلا من زمنك ، فتفيء هناك عن جفائك لمن به قويت على ذلك ، كي تنسلَّ من إهابك الذي به نكّرت عينك ؟ حتى إذا استبنت هذا كله وبعضه ، حقت عليك كلمة الله بالخصوصية ، وأشرفت على ما سبق لك من الخير في الحال [١٢٠/أ] الأولية . فيا بَرْدها على الفؤاد ، ويا طربا على القُرْب بعد البِعاد .

أيها[4] السامع : هذا كله تأنيسٌ لك من الحق ، لأنك مستوحشٌ [من نفسك] بنفسك

---

١ – ر : يبقى ؛ وصوبته بما يتطلبه المعنى .
٢ – ل : يا هذا لا تشمخ بأنفك ... الخ .
٣ – ل : أين أنت عن صحوة ما في سكرتك .
٤ – من هنا وحتى نهاية الرسالة ثابت في ل (ق : ٣٦/ب – ٣٨أ) .

التي أطعتها فعصتك ، ووَفَيْتَ لها فغدرت بك ، ونصرتَها فخذلتك ، وتابعتها فأردتك ؛ وهي النفس الموصوفة ؛ فإن أنستَ به وبما جرى في عُرْضه فالحظُّ إليك راجع ، والنورُ فيك شائع ، والأرَجُ منك ساطع ، وإن رغبت [عنه][1] فأنت الخاسر الدّامر[2] . والحائر البائر ، والسلام .

اللهم : إنّا قد قابلناك بوجوهنا فحيّنا ، ومُتْنا في محبتك بين يديك فأحْيِنا ، وبُدِّدْنا[3] عن بابك بالجهل فاجمعنا ، واتضعنا بملابسة الهوى في مخالفتك فارفعنا ، وكن لنا دوننا ، فإننا إن كُنّا ، كُنّا بعجزنا وضعفنا[4] ، وإذا كنت لنا أغنيتنا عنا ، وأنْأيْتَنا[5] منا ، وبَصّرتنا لنا . فلم لا ندعوك بلسان الضّرَع ، تاركين لأسباب المكر والخُدَع . ناصحين لأنفسنا عند النُّجع والرُّجَع ، لعلك ترحمنا رحمة تُسْلينا عمن سواك ؛ ولا لَعَلّ : فإن يدك بالعطاء أبسطُ من ألسنتنا بالدعاء ، وسَبْقَك بالتفضل أقدمُ من بِدارنا بالتذلل . وإنما هي كلمة نقولها بالعادة التي أجريتنا عليها ووسمتنا بها . وإلا فإنك ترحم وتعطف ، وتصنع وتلطف ، وتعدل وتُنْصف ، وتعطي وتُسْعف ، وتهب وتُتْحِف ، وتحبو وتشرّف ، شئنا أم أبينا ، كنت [انت][6] لنا أو علينا .

يا هذا : قد اختلفتِ المناجي ، وتباينتِ المغازي ، وتباعدتِ المرامي ،

---

١ – زيادة لازمة ، وهذه العبارة لم ترد في ل .

٢ – ر : الذامر ؛ والدامر : الهالك الذي لا خير فيه ، يقال : رجل حاسر دامر – كدابر – وقيل هو مبدل من دابر .

٣ – ل : نددنا .

٤ – ل : بضعفنا وعجزنا .

٥ – ر : وافدتنا ، والتصويب من ل .

٦ – زيادة من ل ؛ وفي ل : كنت أنت لنا وكنا علينا .

وتنازحتِ المساعي . فهل لك في جليل ذلك أو دقيقه[1] نسب ، إذا ادعيته صَحّ لك ، وإذا تشرفت به سلم في يدك ؟ أو هل لك في قليل ذلك أو كثيره[2] علامةٌ تدلُّ على عبوديتك بالتحقيق ؟ لست أعني عبودية الخلقة ، وما وُجِدْتَ عليه من الخَوَر والركاكة ؛ بل أعني عبودية الخدمة والأدب ، وما إذا ثَبَتَّ عليه كان لك زلفة ، وجلب إليك ألفة ، وحذَف عنك كُلْفة . فأما الزلفة فمكسوبة بالشفقة الظاهرة الغالبة ، والنصيحة الحاضرة والغائبة ؛ وأما الألْفة فبتأكد الحُرْمة ، ورسوخ العَهْد وثبات الذِّمّة ؛ وأما حَذْفُ الكُلْفَة فبالترويح المأمول ، والتنزيه المسؤول . ومن احتاز هذه ، أعني الزلفة بحقيقتها ، والألفة بخالصتها[3] ، وكُفي الكلفة بما فيها ، فقد عُلِّي إلى مُعَلاّةٍ ليس للناظرين إليها إلاّ حَسَدُ مَنْ ملكها وناها .

يا هذا : إن كنت وَجِعاً فأين تأوُّهُك ؟ وإن كنت مريضاً فأين أنينك ؟ [١٢٠/ب] وإن كنت مهجوراً فأين استيحاشك؟ وإن كنت موصولاً فأين استئناسك؟ وإن كنت قريباً فأين علامتك ؟ وإن كنت بعيداً فأين حزنك وحسرتك ؟ وإن كنت مريداً فأين اجتهادك ؟ وإن كنتَ مراداً فأين استقلالك ؟ وإن كنتَ عارفاً فأين انبساطك ؟ وإن كنت غريباً فأين انقباضك ؟ وإن كنت متواجداً[4] فأين سكرتك ؟ وإن كنت تائباً فأين إخلاصك ؟ وإن كنت متوكلاً فأين تفويضك ؟ وإن كنت مُدّعياً فأين شاهدك ؟ وإن كنت شاهداً فأين دعواك ؟ وإن كنت محتاجاً فأين تبصبصك ؟ وإن كنت غنياً فأين صولتك ؟ وإن كنت ممتَحناً فأين حزنك ؟ وإن كنت آمناً فأين طمأنينتك ؟ وإن كنت

١ – ل : دقيقها .
٢ – أو كثيره : سقطت من ل .
٣ – تكرر في ر لفظ « بخالصتها » سهواً من الناسخ .
٤ – ر : واجداً ، وأثبت رواية ل ؛ وفي ل : فأين سكرتك وشكرك (وسكرك) .

خائفاً فأين خفقانك ؟ وإن كنت زاهداً فأين عفافك ؟ وإن كنت راغباً فأين مبذولك ؟ وإن كنت مترنماً فأين لحنك[1] ؟

يا هذا : لا تكذبَنَّ نفسك ولا تحملنّها على أن تكذبك ، فإنكما اذا[2] تكاذبتما هلكتما ، كما أنكما إذا تصادقتما حييتما . فأما تكاذبكما فهو في قبولك خداعها ، وفي قصدها خداعك ؛ وأما تصادقكما فهو في أخذك الحذر منها وفي انقطاع طمعها منك . وهذه مشاكسة بينك وبين نفسك ، لا بينك وبين غيرك ، فانتبه لها ، واعمل في تنقيح شوكها ، وفي استقامة ما شَرَدَ عنها ، وفي نفي ما ركد عليها مُفْسِداً لها . فإنك بهذه العناية منك بك ، ولك فيك ، تبلغ غاية تنال بها هواك ، وتُدْرِك بها مُناك[3] ، والسلام .

- ٤٢ -

كيف[4] أتكلمُ والفؤادُ سقيم ؟ أم كيف أترنّم والخاطر عقيم ؟ أم كيف أصبر والبلاء شامل ؟ أم كيف أجزَع والعناء[5] حاصل ؟ أم كيف آنس بالصديق والصديق مُداج[6] ؟ أم كيف أسلو عن الإلْف والإلف مُناج ؟ أم كيف أثق بما نمق من الخبر وقد كذّبني ما حُقّق بالعيان ؟ أم كيف أسكُن إلى الانتباه وقد أقلقني المنام ؟ أم كيف أستريح إلى[7] المنام و[قد][8] لعبت بي الأحلام ؟ نَفْس تردّد بالحُرَق في جوانح قد تهتكت بالأماني ،

---

١ – ل : بحنك . ٢ – ر : ان .

٣ – ل : مناك ... هواك .

٤ – معظم الرسالة بعنوان : « من ألقى السمع وهو شهيد من الإشارات الإلهية » ثابت في نسخة ل (ق : ٤١/أ–٤٤/ب) ؛ وقد سقطت العبارة التي جعلت عنواناً من موضعها في ل .

٥ – ل : والعفاء .

٦ – ل : مداجن .

٧ – ل : من .

٨ – زيادة من ل .

وجَمْرة تتوقّد بالحسرات كأنها سير السواني[1] ، فما تنفع الراحة المأمولة مع الكَرْب اللازم ، وماذا يجدي الرجاء الكذوب مع الخطب المتفاقم ؟ الويل لمن أعرض عنه الحق ، والويل لمن بُلي بالخلق ؛ وكيف لا تعظم البلوى بالخلق على من هو أيضاً [١٢١/أ] من الخلق ؟

يا هذا : الضلوع مشوية بالأسَى والحَزَن ، والأكباد منهرئة بأنـــواع الآفات والسقم ، والأرواح ذائبة بضروب الحيرة واليأس ؛ فلا إلى الخلوة مَعاج ، ولا بالمجالس ابتهاج : ليلٌ يكُرُّ بِهَمٍّ ناصب[2] ، ونهار يمُرُّ بكَرْبٍ لازب ، وعينٌ إذا رمقت بهتت ، ونفس إذا تمنت فتنت[3] ، وروح إذا هشت عُذِّبت ، وأعراض بين هذه الأحوال ليس لها لُبْثٌ فتعرف ، ولا لها ليث فتصرّف[4] ، وعلم مع ذلك كله لا ينفع ، وعمل لا يصح ، وإشارة لا تَصْدُق ، وعبارة لا تتحقق ، وحُجّة إذا لاحت طاحت ، وشُبْهَةٌ إذا وردت ركدت ، وقولٌ كلما طال عَنّى ، وسكوت كلما امتد أضنى وأفنى[5]. فالسّلْم حربٌ ، والروح كَرْب[6] ، والمستقيم مُعْوَجّ ، والخاطي[7] على الساحل ملتج ، والوقت كدر ، والزمان غِيَر ، والراجي قانط ، والصاعد هابط .

فقل لي الآن : بمن أتعلق ؟ ولمن أتملق ؟ وماذا أقول ؟ وأي شيء أسمع ؟

---

١ – يشير الى المثل « سير السواني سفر لا ينقطع » (الميداني ١ : ٢٣١) والسواني : الابل التي يستقى الماء عليها من الدواليب ، فهي لا تكف عن السير ، وكذلك هذه الجمرة لا تكف عن التوقد .

٢ – من قول النابغة : « كليني لهم يا أميمة ناصب » .

٣ – هذه قراءة ل ، والكلمة غير واضحة تماماً في ر .

٤ – ر : فتعرف ؛ والليث : القوة والشدة؛ وفي ر : ريث .

٥ – ل : واقنى .

٦ – ر : في كرب .

٧ – ل : والخاطر .

وفي أي شيء أفكر ؟ وبأيّ ركن ألوذ ؟ وفي أي وادٍ أهيم ؟ وعلى ماذا أعرِّج ؟ وإلى ماذا أنتسب ؟ قد بنت عني بما بان مني . وازدهيت [بي][1] بما ازدهي عليّ . فلا جرَم الاستطالة غالبة ، والكِبْرُ متسلط ، والرَّوْم محال ، واليأس وبال ، والتحدث جسارة ، والتريث خسارة . ومع هذا كله :

فأينما كنتُ من بلادٍ[2] فلي إلى وجهه التفاتُ

أما تعلم :

انّ الوداعَ من الأحبابِ نافلةٌ[3] للظاعنينَ اذا ما يمّموا بَلَدا
ولست أدري اذا شطَّ المزارُ غداً هل تجمعُ الدار أم لا نلتقي أبداً

يا هذا : [إذا][4] استعفيتُك من الكلام فاعلم أن فيضي زاخر ، وإذا حضضتك على السماع فاعلم أنّ بحري[5] نازح ، وإذا أنشدتُكَ بيتاً فاعلم أن إشارتي وراءه ، وإذا رَوَيْتُ لك حكاية فاعلم أن مغزايَ دونها ، وإذا أبرزتُ لك العينَ فاعلم أن مرادي عرفانُك بها[6] ، وإذا سترتُ عنك[7] الغاية فاعلم أنّ قصدي استعدادُك لها ، وإذا صرّحتُ بالمعنى فاعلم أني حاتشك إليه ، وإذا كَنَيتُ لك عن الفحوى فاعلم أني مُشْفِقٌ عليك من غائلة الحال التي أنت مُبْتَلى بها أو ستبتلى[8] بها .

فانظر كيف تدبيري لك وكيف جُودي عليك ، فلا تشهّرني[9] فيما أقول ، ولا تعجبْ مني فيما تسمع . فإنما هذا كله بسط[10] من الحق في حلية

---

١ – بي : زيادة من ل .
٢ – ل : بلادي .
٣ – ل : ناقلة .
٤ – زيادة من ل .
٥ – في ر : نحوي (دون اعجام) وما أثبته قراءة ل .
٦ – بها : سقطت من ل .
٧ – ر : عليك .
٨ – ل : واستبلى .
٩ – ر ل : تشهدني .
١٠ – ر : قسط (دون اعجام للقاف) .

[١٢١/ب] القبض ، وإيحاش من الخلق في شكل الإيناس ، وبَعْثٌ لغرائب نسيم الغيب في فضاء الشهادة ، حتى تطيب الأنفاس ، وتحيا به النفوس[١] ، ويقع التنافس ، وترق أخلاق ، وتطمئن قلوب ، وتقشعر جلود ، وتطرب أرواح ، وتُفْصِح ألسُنٌ ، وتلين جوارح ، وتمتلىء[٢] صدور ، وترنو عيون ، وتَنضر[٣] وجوه ، وتكف أيد ، وتخفَّ أقدام . وتبردَ أكباد ، وتحلو شمائل ، وتلتقي[٤] شواكل ، وتزول غوائل ، وتكثر نوافل ، وترد نوائل ، وتخرس عواذل ، وتنتثر فواصل[٥] ، وتدرك طوائل . وعلى هذا مما لا يجري به وبشرحه قلم ، ولا ينتظم بتنميقه كَلِم ، ولا يظهر بمخزونه ومكنونه عِلْم . فجد الآن بحالك إن كان لك في[٧] هذه اللغة عبارة ، أو هبّت[٨] في حجاب صدرك من هذا الحديث إشارة . وإذا وجدت بحالك ذلك فاستَمل من وَجْدك بوجْدك حتى تحضر غائباً ، وتغيب حاضراً . وتُغْمِض مُبْصِراً . وتبصر مُغْمَضاً . وتحيا مُكْرَماً ، وتُكْرَم مُحْيِاً .

لا تستغرب هذه المناجاة فإنها والله ضاحيةٌ عند من ﴿ ألْقَى السَّمْعَ وهو شهيد ﴾ (ق : ٣٧) . أتدري ما ضمير هذا الحرف ؟ لعلك تدري ولكن ليس لك لسان يجدُ في الإلقاء التسليمَ ، والسَّمْعِ القبولَ ، والشهادةِ الوَجْدَ ، بل الإلقاء اللياذ ، والسمع الارتياح ، والشهادة الكُنْه ، بل الإلقاء الرنوّ ، والسمع السموّ ، والشهادة الدنو .

---

١ – اضطرب ناسخ ر في رسم هذه الكلمة وقد تقرأ « الناس » ؛ وما اثبته قراءة ل .
٢ – ل : وتملا .
٣ – ر : وتبصر .
٤ – ر : وتبتغي .
٥ – ر : وتنثر فواصل .
٦ – ل : ما لا يجري به ويشرحه .
٧ – ل : من .
٨ – ل : ووهبت .

أما ترى بالله هذا التشقيق في هذا المضيق ؟ والله لو وثقت بإدراكك ، وسكنت إلى نيلك ، وظننت أنك تذوق وتجد وتشم وتشهد ، لقلت في عنوان هذا الأمر العجيب ، ما يُسْليك عن متنه الغريب . على أني إن أمسكت فلمالكٍ لا بد من أن يطاع ، وإن أطْلقتُ فلسرٍّ لا بدّ من أن يذاع .

يا هذا : طالت الدندنة ، واشتدت[1] النجوى ، وتكرر التشاور ، والقلب في خلال ذلك واجب[2] ، والطرف عليه واجم ، والظهر [واقف][3] ، والرحيل آزف ، وربك بالمرصاد . وما[4] أولانا مع هذه الأمثال المضروبة ، وهذه المياه المسكوبة ، وهذه القباب المنصوبة[5] ، وهذه الغايات المطلوبة ، بأن ننتهي حيث انتُهي بنا ، ونقبل ما قيل لنا ، ونصدق من أتانا ، ونسلم ما خفي علينا ، ونكتفي بما بدا لنا ، ونقدِّم على ذلك كلّه بدارنا ، ونكل جميع ما بنا إلى من يملك جهارنا وسِرارنا .

وإنما قلتُ : ما أولانا بهـذه الحال[6] [١٢٢/أ] لأنا عبيد ، والذي يليق بالعبد أن يلزم حدَّه ، ويبذل جهده ، وينفق وُجْدَه[7] ، ويحفظ وَجْده ، ويوكد عقده ، ويطلب رِفْده ، ويلحظ سَعْده ، وينتظر وعده ، ويصحح قَصْده ، ويستديم وُكْده ، ويحصّل نقده ، ويرتقب[8] فقده . فإن العبد إذا فرغ مما عليه بحق العبودية ، شغل بما له من حق الربوبية ، وكما كان في حاله الأولى مربوطاً بما عليه ، كذلك يكون في حاله الثانية[9] مغبوطاً بما لديه . فهل

---

١ – ل : واشتد .   ٢ – ل : واجد .
٣ – زيادة لازمة ، وقد حذفت العبارة من ل .
٤ – ل : فما .
٥ – رل : المضروبة .
٦ – ل : الاحوال .
٧ – ل ر : وحده .
٨ – ر : ويرتكب .
٩ – ل : الاخرى .

رأيت عبودية أدت إلى ربوبية غير هذه ؟ وإنما كان هذا على هذا لأنها عبودية بحق لمن له ربوبية بحق[1] ، والحق أحقُّ بالحق .

فتعالَ حتى نسكتَ هائبين ، ونقول مُخْبِتين ، ونعمل مجتهدين ، ونعلم مستسلمين ، ونرقد مُودعين ، وننتبه متعجبين ، ونصطحب مشفقين ، ونفرّق متواصلين ، ونتذاكر[2] مستفيدين ، ونعتقد محققين ، ونحقق معتقدين ، ونستقبل القبلة مستغفرين ، ونُذْكر في الذاكرين[3] ونتنبه بين[4] الغافلين ، ونرجو خائفين ، ونخاف راجين ، ونفرّق بين الشك واليقين ، ونتوغل في إقامة وظائف الدين ، ونزاحم مناكب المتقين . فإذا[5] تعاونّا على هذه الأحوال الحسنة في هذا الزمان ، الذي قد عاد الإسلام فيه غريباً كما بدأ غريباً[6] ، كنا نجوم الأرض وأعلام الخلق ، وآتانا الله من عنده[7] ما نُغْبَط[8] به ونُنافس عليه . وقد قال الحق في تنزيله على قلب رسول الله عليه السلام : ﴿وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الإثمِ والعُدْوان﴾ (المائدة : ٢) .

فما الذي يبقى بعد هذا الدعاء والحض[9] على إحراز النصيب والحظ ، إلا أن نكون جاهلين بما لنا وعلينا ، عُمياناً عَمّا بنا وفينا ؟ ونعوذ بجلال وجه[10] ربنا من ذلك أن يكون . وكيف ذاك ولنا أعينٌ تجول في ملكوته ، وقلوب

---

١ – ل : الربوبية بالحق .

٢ – ل : فنتذاكر .

٣ – زاد في ر : مولانا ؛ ولا مكان لها . ٤ – ل : من .

٥ – ل : فانا اذا .

٦ – الحديث في صحيح مسلم (باب الايمان : ٢٣٢) والترمذي (باب الايمان : ١٣) ومسند ابن حنبل ١ : ١٨٤ ، ٣٩٨ ، ٢ : ١٧٧ ، ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٤ : ٧٣

٧ – ل : فضله .

٨ – ر : نغتبط .

٩ – ر : بالحض ، وأثبت رواية ل .

١٠ – ل : بوجه جلال .

تفقه كريم خطابه ، وآذان تسمع لطيف سِرّه ؟ فما بالنا نجحد أياديه عندنا ومِنَنَه قِبَلنا ؟ وكيف ننسى ما سبق به إلينا ، ونحن إذ ذاك لا عَيْن ولا أثر ، ولا عيان ولا خبر ، فأنشأنا وأظهرنا ، وبصّرنا وعلمنا ، وقدّمنا وكرّمنا ، وهدانا وأرشدنا ، وأبرزنا وأشهدنا ، وألّفنا وأفردنا ، وجاد علينا بما لم يكن في حسابنا[1] ووهمنا . فأيّة يد بيضاء لم تسبق له إلينا ؟ وأي مِنّة غراء لم تسبغ[2] له علينا ؟ وأي نعمة لم تخلُص له لدينا ؟ وأي نور لم يشعّ له على كل واحد منا ؟ وأي رَوْح لم يصل منه إلى قلوبنا ؟ وأي كرْبٍ لم يزل به عنا[3] ؟ وأي [١٢٢/ب] رائحة لم تطب به لنا ؟

اللهم : إنّا قد أحسسنا بأياديك عندنا ، وتقلّبنا في نوافلك قبلنا ، وشممنا فوائح بِرّك بنا ، ووجدنا حقيقتك في اسرارنا[4] ، وذقنا حلاوة مناجاتك لنا ، ورأينا عياناً آثار رأفتك بنا ، وأصبْنا بفضلك وجودك ما أردنا وفوق ما أردنا. فبهذه المعرفة التي قد أنبأنا بها عن[5] نعمك علينا إلا ختمت لنا بالحُسْنى ، وهَوّنْت المصير علينا[6] إلى ذُراك في المحل الأعلى . وقبل ذلك : فإنّا نسألك أن تكفينا مؤونة خَلْقك ، فقد صَدّونا عن سبيلك ، وقرفونا من أجلك ، وطلبوا عثراتنا بسببك ، لأنّا ذكرناك حين نَسوك ، وقَرَعْنا بابك حين لاذوا بباب غيرك .

اللهم : فامْحُ أسماءهم عن ألسنتنا ، واطمِسْ صِفاتهم من قلوبنا ، واشغَلنا بك عنهم حتى نذكرك بالإخلاص ، ونصير من حزبك بالاختصاص ، فإنك

---

١ – ر : حسباننا .
٢ – ل : وأية ... يسبغ .
٣ – ر : علينا .
٤ – ر : اسرارك .
٥ – ر : : على .
٦ – ر : علينا المصير .

ربَّ الناس ﴿مَلِكُ الناس إله الناس﴾ (الناس : ٢-٣) . نسألك بكلماتك التامة ، وبسُبُحات وجهك ذوات الكرامة ، أن تجيب دعاءنا ، وتسمع نداءنا ، وترحم نجاءنا ، وتقبل ثناءنا ، وما أولاك بأن تفعل ذلك وما فوق ذلك !

أيها الأجنبي في هذه الطريقة ، المُنْكِرُ لهذه الحقيقة : حَرَامٌ عليك أن تسمع من هذا الديوان حرفاً بقلبك المنحرف ، وخُرقك[1] المنكشف ، وبلائك الملتحف[2] . وحرام علينا أن نبدي لك[3] من هذه الصحائف كلمة سائغة ، أو حكمة بالغة ، فإن بلينا بأن نقول أو بليت[4] بأن تسمع ، فذاك والله لتقصير قد[5] كان منا ، ولمحنة قد أُرِدْتَ بها[6] . وقانا الله فتنة القول ، وكفاك فتنة الجحود ، وجعلنا جميعاً تحت جَناح رحمته طائرين إلى ذروة عِزّه ، نائلين من خيرات ملكه ، راتعين في رياض نعمته ، سابقين[7] إلى حيازة مَرْضاته .

أيها المُزْوَرُّ عن أكناف الحكمة ، والثاني لعطفه عند فواتح المعرفة ، والمتكبر على[8] أبناء جنسه بفضل اليسار والثَّروة ، والمتشدّق في حديثه إذا جرى نَعْتُ المملكة ، والمتبعثر عند [سماع][9] أعاجيب القدرة السارية في البرية : أقْلِع عن عادتك هذه الذميمة ، واتّق عواقب هذه الطرائق الوخيمة ، وتطلّع نحو هذه الأنباء الكريمة ، وتذوق حلاوة هذه النِّعَم الجسيمة ،

---

١ – ر : وحرفك .

٢ – ل : المتحف .

٣ – لك : سقطت من ل .

٤ – ر : وابليت .

٥ – قد : سقطت من ل .

٦ – ر : بنا .

٧ – ل : شائقين .

٨ – هذه قراءة ل ؛ وفي ر : عن .

٩ – زيادة من ل .

وابحث[1] عن هذه الأسرار [الكريمة][2] المكنونة، وعانق هذه [١٢٣/أ] الأحوال العزيزة المصونة، وابْلُ صِدْقَ ما أقول وحقيقة ما تعي مرةً واحدة. فإن رأيت الرشد [والخير][3] والغبطة والسرور والحبور والتمام والعز والعظمة في ذلك فزِدْ في اجتهادك، وتَصَفَّ في اعتقادك، وتَرَقَّ إلى غايتك في اعتمادك، وحقق عزيمتك في كل وقت بحسن ارتيادك؛ وإن[4] لم تر ذلك ولا شيئاً منه، فأمرك في يدك، ورأيُك إليك، واختيارك لديك. وهذه مكاسرة[5] مني في مخاطبتك[6]، وإلا فلو وردت هذا الجناب لرعيت آمنا، وأقمت ساكناً، وأدركت ما تدركه معانياً[7]، كان الله لك حافظاً وكالياً.

اللهم حقق ما نسألك ونطلبه منك، يا ذا الجلال والإكرام.

- ٤٣ -

اللهم: اسلكْنا في سبيل مَرْضاتك على شمائل العارفين بك[8] في درجات المُخْبِتين لك، عند كل خاطر هَجَس بسرّك، مع كل لسان يبين[9] بذكرك وارفع عنا جَهْدَ الزمان، وجَوْرَ الإخوان، وتلوُّن الشان بعد الشان، وصِلِ ائتمارنا بأمرك، وأسْبِل علينا كثيفَ سِتْرِك، واملأنا ببرهان ربوبيتك،

---

١ – ل: وانعت.
٢ – زيادة من ل.
٣ – زيادة من ل.
٤ – ل: فان.
٥ – ل: مكاشرة.
٦ – هذه هي قراءة ل؛ وفي ر: مخاطباتك.
٧ – ل: معاينا.
٨ – ر: لك.
٩ – ر: مع سنن؛ و«مع» زيدت خطأ، أما الكلمة الثانية فلعلها «ينبس».

وفَجّر فينا ينابيع البيـــان عن إلهيتك ، وصُنْ وجدنا بك عن وجداننا لك ، وأنْشِىء فينا نوراً نهتدي به إليك ، واجعل في الجملة والتفصيل كلامنا كله عنك[1] ، ودعاءنا إليك ، وخبرنا عن قدرتك ، وسكوننا معك ، وتلفنا لك ، وتهالكنا فيك ، وتوكلنا عليك ، وقرة أعيننا عندك .

نسألك اللهم بجبروتك أن تعلّمنا إذا جهلنا ، وتستعملنا إذا علمنا ، وتتألّفَنا إذا شَرَدْنا ، وتؤنسنا إذا استوحشنا ، وتُكْرِمنا إذا هنّا ، وتَهْديِنا إذا حرْنا ، وتُنَفِّقَنا إذا بُرنا[2] ، وتصلحنا إذا فسدنا ، وتُعزَّنا إذا ذللنا ، وتكثرنا إذا قللنا ، وترشدنا إذا ضَللنا ، وتُنَشِّطنا إذا مللنا ، وتَجْبُرنا إذا انكسرنا ، وتغنينا إذا افتقرنا ، وتُبلِّغنا إذا انقطعنا ، وتدارينا إذا امتنعنا ، وترفعنا إذا اتضعنا ، وتحضرنا إذا استمعنا ، وتسهّلنا إذا تعسرنا ، وتعفو عنا إذا قصّرنا ، وتنفعنا إذا علمنا ، وتوفقنا إذا عملنا .

يا هذا : إذا أهلّك لدعائه فقد عرَّضك لأنبائه ، وإذا وقفك بفنائه فقـــد اجتباك لعطائه ، فاختر في جميع خطراتك الباطنة ، ونظراتك الظاهرة ، بين قُدْرةٍ بها استترت في[3] [١٢٣/ب] هذا الظلام، وبين حكمة بها استعلنت[4] على هذا الأنام ، والحَظ النعمةَ بعين الوقار ، فإن لحظك[5] لها بعين الوقار ، امتراء من الزيادة فيها وامتيار . ومهما جنحت هكذا وهكذا فابْغِهِ يُغْنِكَ ،

١ – ر : كلاماً عنك .

٢ – ر : وتثقفنا ؛ والبوار : الكساد .

٣ – في جميع ... استترت في : جعل الناسخ هذا السطر مزيداً في الصفحة ، كأنه استدرك فاته اثباته بسبب السهو ، ولكنه لم يبدأ الكتابة من أول السطر ، فظهر وكأن هناك بياضاً ، ولكن الحقيقة أن لا بياض ثمة .

٤ – استعلنت : تقابل « استترت » ، وفي المطبوعة « استعليت » والياء غير معجمة فـــي الأصل .

٥ – ر : لحظ .

وتوجه إليه يقبلك ، واعمل واحدةً فإنها دعامة حالك ، وقد قرنتها ببالك : لا[1] تألف الشكوى ، ولا تنخدع بالدعوى ، ولا تتوجع بالبلوى ، ولا تطلب السُّكنى في غير دار السكنى ، فإن من ألِفَ الشكوى يقدم البلوى على البلوى ، ومن طلب السكنى في غير دار السكنى فعن قريب يسمع : وَيلا ووا وَيْلا !

يا هذا : رياضُ الأنس زاهرة ، وحدائقُ المعرفة ناضرة ، وبحارُ النعيم زاخرة ، وآيات الحق حاضرة ، فما هذا التعلل بأحلام النائمين ، وما هذا الزهد في حياة العالمين ، وما هذا الإعراض عن علم اليقين والعلم المبين ؟

يا هذا : اعتصم بالعُرْوة الوُثقى التي لا انفصام لها[2] ؛ استمتع بالنعمة التي لا كدر فيها ؛ اقطفْ من الشجرة التي لا نَفَادَ لثمرها ؛ تَنَعَّمْ بالكلمات التي لا فِراق بعدها ؛ اشهَدِ العزَّةَ التي لا بؤس عندها ؛ باينْ صفاتك التي لا خير لك منها ؛ استقل عثَراتِكَ التي لا عثرةَ لك وراءها ؛ غَمِّض عينيك عن هذه الزهرة التي في الحياة الدنيا ، وادنُ إلى ما وراءك ، وارْنُ إلى ما وراءها في الدرجات العُلى . قد أُلِفْتَ تأليفاً به نظامك ، فلم تتشتّت ورُوعيت مراعاة بها قوامُك ، فلم تتفتت ؟ وكُفيتَ أموراً لو طولبت بإحضارها لقصّر عنها حَوْلُكَ وقُوَّتك ، وباد دونها نشاطك ومُنّتُك . واشهَدْ هذه الكفاية التي سبقت لك في القِدَم ، وصُنع لك بها وأنت في العَدَم . ثم اشهَدْ ما لاح لك في مقامك هذا من العلم بعد العلم ، حتى رَوِيت بعد العطش ، واطمأننت بعد الدهش .

يا هذا : عَزَّ عليَّ حالك فإنها عُرْضة خبايا غيوب الحق[3] ، ولك فيها

---

١ – ر : ولا .

٢ – من قوله تعالى « فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها » (البقرة : ٢٥٦) .

٣ – ر : عرضته سبايا عيون الحق .

صدور وورود ، فاحذر كل الحذر أن تزل قدمك بعد ثبوتها فتصبح من النادمين السادمين ، وتحك قفاك[1] ، وتلوك إصبعك ؛ لا راحم لك[2] ، ولا مقبل عليك ، ولا باسط لعذرك ، ولا ناعش لصرعتك . قد أمكنت من نفسك الشامتين بك ، وبسطت ألسنتهم عليك، وما بك[منك][3] قد أنساك ما بك من غيرك .

[١٢٤/أ] يا هذا : اجمع ذيلك ، وازرر جيبك[4] ، وقصر كمك ، وثب عن مكانك هذا وثبة الطالب لنجاته ، العامل بوصاته ، الواثق برجاته ، الكابت لعداته ، النازع إلى مسراته[5] ، النائل لحياته ، الجامع بين ولاته وحماته ، الواصل إلى هداته وثقاته ، المتخلص من آفاته وعاهاته .

يا هذا : هذه مناغاة الحق لأصحاب القلوب المحترقة فيه ، ونجوى الحق لأسرار [النفوس][6] الحائمة عليه ؛ فالزم هذا اليفاع فإن الألطاف تنثر عليك، واعلم أنها إذا انتثرت عليك انتظمت لديك ، وإذا انتظمت لديك غنيت بها ، وإذا غنيت بها أغنيت منها، وإذا أغنيت منها استغنيت عنها ، [وإذا استغنيت عنها][7] عدت غنياً بموليها ومسديها .

يا هذا : أما ترى هذه الدقائق كيف تجل بالحروف المجموعة المفرقة ؟ أما ترى هذه العجائب كيف تدق عن اللغات المرقومة[8] المنمقة ؟ أما تراني فيها

---

١ – في المطبوعة : ويحك فقال ؛ وهي قراءة عجيبة ؛ وحك القفا : كناية عن الندم .
٢ – ر : عليك .
٣ – زيادة ضرورية .
٤ – ر والمطبوعة : وازرره وجيبك .
٥ – ر والمطبوعة : حسراته .
٦ – زيادة لتمام المعنى .
٧ – ترتيب السياق يتطلب هذه الزيادة .
٨ – ر : المرمومة ؛ المطبوعة : المزمومة .

كأني من أهلها ولستُ من أهلها ؟ أما تراني عارياً منها وكأني حالٍ بها ؟ أما تراني غريباً فيها وكأني مستأنسٌ بها ؟ الويلُ لي إن كنتُ فيما أقوله غريباً منه ، والويلُ لك إن كنتَ فيما تسمعه بعيداً عنه . إن القائل إذا لم يقل عن الحقيقة الأولى لم يسمع السامع على الطريقة المثلى . وبعدُ ، فإن القائل إذا لم يكن واجداً لما يقوله ، لم يكن السامعُ واجداً بما يسمعه : إنما هو قلب يناجي قلباً ، وروح[1] تناجي روحاً ، وعقلٌ يطارح عقلاً ، وربٌّ ينادي عبداً ، وعبد ينادي عبداً : فالمنادي من حيث ينادَي بالصدق مجيب ، والمنادَى من حيث يجيب بالحق منادٍ .

يا هذا : التيقظ بالمعارف إيقاظٌ للقلوب من الغفَلات ، والتعارف بالتذاكر استحفاظٌ للغيوب من الهفوات . فاجتهد أن تديمَ المذاكرة ، فإن أدنى ما فيها أن يتصرّم عنك وقتك ولك فيه أثر ، وليس ينصرف عنك وقتك ولك فيه أثر إلاّ وبَقِيَ عليك منه رَوْحٌ يكون لك عنه خبر . ودَعْ عنك الشواغل من زيد وعَمْرو وبَكْر وخالد ، فإن الخلق عليك لا لك ، واجعل الحقَّ قُبالةَ سِرِّك ، وتجاهَ حبة قلبك ، [و] وراء شغاف فؤادك ، فإن الحق لك لا عليك. وثق بأنك إذا أدمجت نفسَك وأخلاقك وأعمالك ومعارفك وخطراتك[2] في هذه الصفات التي قد تكررت عليك ، وصارت ديواناً واسعاً عندك ، لم تَعْدَم رَوْحاً يَنفي [١٢٤/ب] عنك كلَّ كربٍ جاثم كان على كبدك ، بل لم تعدم كشفاً به تُشْرِفُ على كائنات الغيب الذي لم يلك في ظنك ، بل لم تعدم حالاً إذا رُمْتَ وصفها بالكاف والقاف ، والعين والغين ، والخاء والحاء ، لم تستطع ، لأن لغة ذلك البلد لا تفهم في هذه المدينة ، كما أن عادة هذه المدينة لا تستمرُّ في ذلك البلد .

---

١ – ر : وروحاً .

٢ – ر : وخطواتك .

يا هذا : إن شعاعَ هذه الشمسِ يختطفُ أنوارَ هذه الأبصار ، وبحر هذه الأحوال يبتلع جميع البحار ، وثمرة هذه الشجرة تُسَلّي عن كل الثمار ، وسرّ هذه القصة يمحو رسوم سائر الأسرار ، فالزَمْ حدّك في جدك ، وتَنَجَّزْ وعدك بإنجاز وعدك ، وخفّفْ رَدّك بِرَدّك ، واستمدّ مُمِدّك فإنه إن أمَدّك كفاك مؤونة قُرْبِك وبُعْدِك ، وأغناك عن ترفلك ورَغدك .

اللهم : إنّا نغدو ونروح ، ونبوح وننوح[1] ، فاجعل غُدُوَّنا إذا غدونا لك ، ورواحنا إذا رُحْنا بك ، وبَوْحنا إذا بُحْنا عندك ، ونَوحنا إذا نُحْنا على فائتنا منك ، حتى نكون في حالاتِنا كُلّها متشبثين بذيل الذلّ لك ، منتسبين إلى عِزّ كنَفِك ، مهتدين بقبس لُطْفك ، قارّين في عقْوة عزك ، متفيئين بظلّ كرامتك ، متقلّبين بنعمتك على نعمتك ، سالكين طريق طاعتك بطاعتك ، واصلين إلى معرفتك بمعرفتك .

يا هذا : تجنّبِ الأضدادَ فإنهم مَفْسَدَة ، وتجنب الأمثال فإنهم مَشْغَلَة . واعلم في الجملة أن وصالهم صَرْم ، وحُبّهم بُغْض ، وبِرّهم جفَاء ، وعَطْفَهم صدود ، ومسالمتهم حَرْب ، وإقبالهم كَرْب ، ونوالهم حَرَب ، والفكر فيهم عَطَب .

يا هذا : إن كنتَ مع العلم فأين العمل ؟ وإن كنتَ مع اليقين فأين الهيبة ؟ وإن كنت مع الحياء فأين المراقبة ؟ وإن كنت مع الطمع فأين البذل ؟ وإن كنت مع كبر الهمة فأين التنزّه ؟ وإن كنت مع المحبّة فأين الاتباع ؟ وإن كنت مع الظاهر فأين الأدب ؟ وإن كنت مع الباطن فأين الطرب ؟ وإن كنت مع الدّعْوى فأين البيّنة ؟ وإن كنت من أهل الديوان فأين المنسوب[2] ؟ وإن

---

١ – ر : وننوح ونبوح ؛ والترتيب التالي يقتضي العكس .

٢ – نوع من الخطوط ينسب إلى أبي علي ابن مقلة ، واقتبس طريقته ابن البواب وهذبها ونقحها ، قال ابن خلكان « وقيل ان صاحب الخط المنسوب المشهور ليس أبا علي المذكور ، وإنما هو أخوه أبو عبد الله الحسن ... » (وفيات الأعيان ٣ : ٣٤٢) .

كنت من عند الصاحب فأين الخاتم ؟ فلا لك من المبدأ خبر ، ولا لك من المنتهى أثر . رضيتَ بزُخْرف القول غروراً ، وذهبتَ بما لك عما عليك حسرة وسروراً ، حتى إذا جدَّ رَحيلُك وحضرك مُبْرَمُك وسحيلك ، بقيتَ على قارعة الطريق بلا هادٍ ولا حاد . أما علمت أن من أشار إلى الحق قولاً ثم ركن إلى غيره فعلاً فقد حُجِبَ عن الصديق عقداً وأجلاً ؟ أما علمت أن كل عامل [١٢٥/أ] مطرود إلا من أزيد بذاك ، وكل وارد محدود إلا من أذن له في ذاك ، وكل متمكن معرور إلا مَنْ كوشف هناك ؟

يا هذا : إن قصدت بالأدب حفظت ، وإن خادعت في قصدك لفظت . أما علمت أن الصادق مغبوط ، والكاذب محطوط ؟ أما سمعت الذي أنبأ عنه حين قال : أَوْفُوا بعهدي في دار محنتي على بساط خدمتي لحفظ حرمتي ، أوفِ بعهدكم في دار نعمتي على بساط قربتي بجلال رؤيتي [١] .

يا هذا : قد أصبحت في قبضة العز تجري عليك تصاريفُ القدرة وأحكام المشيئة ، بين أستارٍ سابغة من النعمة ، وأكنانٍ ظليلة بالرأفة والرحمة ، فلا تتعرض لتغيّرها عليك فإنه قد أبان في تنزيله ذلك حين قال : ﴿إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يُغَيّروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد : ١١) .

يا هذا : قد ناجيتُك وناديتُك وناغيتُك ، كل ذلك بلطفٍ قصدتُكَ به ، وشفقةٍ آثرتها : تارة بأن أريتها إياك حتى تُنَقي ما بك مما قد أقذاك ، وتارة عرضتُ عليك صفاتك حتى تعرف منها حقيقتك فتنصح لنفسك، وتارة حدثتك عن إخوانك وأعدائك لتأخذ أُهْبَتَكَ فيما يجب لك وعليك ، وتارة نكّرتُ عليك الظاهر لترتاض ، وتارة شوقتك إلى الباطن لتعتاض ، وتارة سفرت

---

١ – أصل الكلام مبني على قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) ووراء كل قسم من الآية شرح على الطريقة الصوفية .

بينك وبين ربك ليصير لك عنده وَزْنٌ فيخصك إذا قَرَعْتَ بابه ذاكراً ، أو إذا حضرته مفكراً ، أو إذا شهدته واجداً ، أو إذا وجدته مشهوداً ، أو إذا أجبته مُلَبِّياً . أو إذا دنوت منه محيياً[1] ، أو إذا أخدمته متحبباً ، أو إذا ناجيته مُتَقَرِّباً ، أو إذا أخبرت عنه[2] شاكراً . أو إذا وصفته ممجداً . فما جزائي على ما تفرغتُ لك به ؟ وما ثوابي على ما أفرغت عليك[3] من ذَنوبه ؟ إنما[4] جزائي أن تضاعف سَماعَك مني ، وتزيد في إصغائك إليَّ ، وتقطع ما بيني وبينك بسببي . وتصل ما بيناك وبينك من أجلي . فإن قَبولك مني يزيدني رغبة في إرادة الخير بك جهدي وطاقتي .

إلهي : إني قد لاطفت عبدك ليفيءَ إليك . ويطلبَ ما لديك ، فأعِنْه على ذلك ، وأعنِّي عليه في ذلك ، فإنك الجواد المالك .

يا هذا : قد نُبِّهتَ منك عليك فلا ترقد . وقد عُرِّفتَ ما لك فيك فلا تَغْفل . وسيق إليك ما كان غائباً عنك فاستكن . وكيفما دارت بك الدائرة فكنْ مستكيناً فإنك تُرْحَم ، وإذا رُحِمْتَ فقد فاز قِدْحُك ، وأورى زَنْدُك . إن الرحمة من المولى للعبد مبلغة بالعبد المبالغ . وإياك [١٢٥/ب] وإلْفَ السَّهْوِ فإن الساهي ها هنا جدير هناك بالندم والأسف ، والسَّدَم واللَّهَف .

اللهم : أعنا على أنفسنا الوثابة علينا حتى نقمعها عنا[5] فنعبدك بعزائم الأحرار وشكائم الأبرار ، يا ذا الجلال والإكرام .

---

١ – غير معجمة في ر .
٢ – ر : منه .
٣ – ر : عليه .
٤ – ر : بل ، ولا يستقيم النص بها ؛ إلا أن يكون قد سقط شيء منه .
٥ – ر : عنها .

اللهم : إنّا ندعو[1] بلسان الإخلاص من مَعْدِن الاختصاص فنقول : إلهنا ، لا فقرَ لنا إلا إليك ، ولا اعتمادَ لنا إلا عليك ، ولا قرارَ لنا إلاّ لديك ؛ أنت كهفنا الحصين ، وحبلُنا المتين ، ومالكُنا الرؤوف ، ومُدَبِّرنا اللطيف ، فهب لنا من لدُنْك رحمةً واسعة تغمرنا بجودك وكرمك ، وأفِضْ علينا من عندك نعمةً سابغة تَسُرُّنا بفضلك ولطفك ، ولا تَكِلْنا إلينا فنعجز عن إصابة خيرك ، ولا تَرُدَّنا علينا فنكسل على غيرك .

أيها السامع : احضُرْ بقلبك ، واستدرك بلُبِّك ، وانظر لنفسك في يومك بغير ما كنت عليه في أمسك ، وانتبه للزاجر من ربك ، والتفت إلى اللمة[2] من الملك الموكّل بك . فلا خاسرَ أخسرُ منك إن لم يكن لك سكون من يقين ، أو تبصرة من معرفة ، أو حياء في مراقبة ، أو خوف من سطوة ، أو رغبة في قُربة ، أو طمع في وُصْلة ، أو ندم على هفوة ، أو حنين إلى مناسمة ، أو ظمأ إلى مجالسة ، أو إشارة إلى عين التوحيد ، أو عبارة عن مَحْض التجريد ، أو يقظة من عقل قد حُفَّ بالتأييد ، أو وجد لمشاهدة خَلَصَتْ على الاتصال والتأبيد . فإن جَسَرْتَ على أن تدّعي هذا المقام وتحدث نفسك بهذا المرام ، فهاتِ العلامة التي تَدُلُّ على هذه الكرامة ، فإن الدعوى بلا برهان مردودة ، والنفسَ في الغاية بلا طمأنينة مكدودة ؛ قُلْ : متى كان الليل مطيتك بالتهجد؟ متى كان النهار متصرَّفك بالتزهد ؟ متى كانت ساعاتك مشغولة بالتفرد ؟ متى كانت حركاتك مقصورةً على التعبد ؟ متى كانت سيرتك جاريةً على التوحش والتأبُّد ؟ متى جعلتَ حياتك قَعودَ سَفَرِك ؟ متى قصدت الجنة بغاية وطرك ؟ متى وجدت الله في أقاصي نظرك وفكرك ؟ متى تركت الدنيا

---

١ – ر : لا ندعو، ولعل أصله : « لندعو » .

٢ – اللمة : المس أو الشدة أو الدنو أو الخطرة تقع في القلب .

قالياً لها ببصيرتك ؟ متى أصبحت ماقتاً لها بخبرتك ؟ ما اعتبرت[1] فيها ما وصفها به الواصفون : أليس قيل : الدنيا سجنُ المؤمن ؟ فلم جعلتها أنت روضتَك وبهجتك ؟ ولم أخلدت إليها بجهلك [١٢٦/أ] وغرّتك ؟ وهلا أخذت في تحصيل ذلك أهبتك[2] ؟ متى كان العقل دليلك في طريقك ؟ متى كان الجوع والعطش صاحبيك في حالك ؟ متى كان اللوم والزراية مُعينَيْكَ على نفسك الأمّارة بالسُّوء ؟ متى اتخذت الصدّيقينَ إمامك وإخوانك في أمْرك ؟ متى استظهرت بالورع والتقوى في شأنك ؟ متى كان ذكر الله بالخشوع شعارك ، والافتقارُ إليه دثارك ؟ متى كان القرآن حديثك ، والخلوة بمناجاة الله ديدنك ؟ متى اتخذت الصبر وسادة ، والصمت عصابة ، والحكمة جُنّة ، والتسليمَ حُجّةً ، والخوفَ قريناً ، والرجاء خديناً ، والتوبة فراشاً ، والأمانة رياشاً ، والاعتبار معاشاً ؟ أين سهرُ العيون وموتُ الطباع في المخالفة ؟ أين حنين القلب وشدة النزاع إلى الموافقة ؟ أين راح النفوس والشوق إلى المحل المأنوس ، والتطعم من ذلك الجَنَى المغروس ؟ أين متعة الأرواح بطرائف المساء والصباح ، وهَناء [النفوس][3] بالغدوّ والرَّواح ؟ أين الهشاشة بالنجاح ، والبشاشة بالفلاح ؟

ألا تعرف الفرق بين الظلام والشعاع يا من تهاون بنظرة الله إليه حتى استجرأ بجهله عليه ، غير ذاكر لموته ، ولا خائف من فوته ؟ يا من عظم جُرْمُهُ[4] وتضاعف غرْمُه ، وقلّ بما عليه وله علمه ؛ يا من طالت غفلته ، واستحكمت قسوته ، واستمرت على ما ساءه وناءه زلته ؛ يا من امتد به نومُه ، وضاع أمسه ويومه ، وشمت به عشيرته وقومه ؛ يا من قل حياؤه فلا يكترث بنظر[5]

---

١ – ر : اعتدرت ؛ والمطبوعة : اعتذرت .
٢ – ر والمطبوعة : وأهبتك .
٣ – زيادة تقديرية .
٤ – ر والمطبوعة : حرمه .
٥ – ر والمطبوعة : لنظر .

الله إليه ، ولا يهاب اطلاعه عليه ؛ يا من توالى وَعْده ، وتمادى خُلفه[1] ، وتقدم عهده ، وقَرُب نكثُه ، وحلَف بعزته فما وفى ، وغمس في ينابيع الهدى فما صفا ، ووُلّي أمر معاشه ومعاده فما كفى ؛ يا من يدمّر[2] أحبّته وأعزته وإخوانه وجيرانه كلَّ يوم فما يُقلع عما هو[3] عليه من البَغْي والزهو والغَشْم والظُّلْم؛ يا من ذنوبه لا تحصى مع التضييع لما أُمِر به، قد رضي أن يكون مطروداً عن باب ربه لا يراه أهلاً لمعاملته . صدَق الحكيم المتقدم :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نَفْسِه[4]

يا أخا العثَرات بعد العثرات ، يا كاسبَ السيئات بعد السيئات ، يا صريع الشّهَوات في الشهوات [١٢٦/ب] يا خائضاً في الشُّبُهات على الشُّبُهات ، يا أسير اللذات في اللذات . يا قرينَ الغَفَلاتِ في الغفلات ، يا ثاوياً في الضلالات بعد الضلالات ، يا معتقلاً[5] في الجَهَلات بعد الجَهَلات : متى يكون انتباهك ؟ وإلى أي حد يبلغ سهوك ؟ لعمري فِطامُ الأرواح عن الأجساد شديد ، ولكن هلاك الأرواح والأجساد أشد ، وفوت الدنيا والآخرة : خسرانه[6] أبين وأبين . ويحك ! إذا فاتك الله فبم تسلو ؟ وإذا وجدت الله فعلام تحزن ؟ أما تعلم أن في الله عِوَضاً من كلِّ فائت ، ودَرَكاً لكلِّ مأمول، وبلوغاً إلى كل مراد ؟

---

١ – ر والمطبوعة : حلفه .

٢ – في ر صورة « بد من » والنون غير معجمة ، وفي المطبوعة : يدمن .

٣ – ر : عماه .

٤ – البيت لصالح بن عبد القدوس ، انظر تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٧١ .

٥ – صورة الكلمة في ر تشبه « معتقداً » .

٦ – ر : والآخر وخسرانه .

آلا قفُوا على ديار الهالكين ، واستخبروها عنها إن كنتم شاكّين ، ونادوا في أقطار[1] الربوع الهامدة ، وآثار الجموع البائدة : يا منازل الأمم الخالية ، ومعاقل أولي الهمم العالية : ما فعل سكانك الأولون ، وأين حلّ قُطّانك المتحملون[2] ؟ وكيف تفرقت تلك الأجسام الكثيفة ، واضمحلت تلك الجواهر الشريفة ؟

أيها المغرور عن تصاريف الأيام : ما أغفلك ! أما تعتبر بمن كان قبلك فهَلَكَ ؟ ألهاهم الأمنُ فهـم ساهون ، وغرَّتهم الأمانيّ وهم غافلـون ، واخترمتهم يد المنون وهم يلعبون ، واعتورتهم الأيامُ بكرِّ صروفها وهـم يمرحون . لقد ناداهم ذو الجلال بالتنبيه لو كانوا يسمعون ، فقال : ﴿أفَأَمِنَ أهلُ القُرَى أنْ يَأتيهمْ بأسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ إلى قوله[3] ﴿ إلا القوم الخاسرون﴾ (الاعراف ٩٧ — ٩٩) .

أنذرتكم الأيام بعبرها فلم ترتدعوا ، وأرتكم الليالي تقلبها بأهلها فلم تنتفعوا ، ونادتكم الدنيا بتَرْكِ السكونِ إلى لذّاتها فلم تستمعوا ؛ خدعتكم الشهوات فملكتكم ، وغرتكم الأماني فأهلكتكم ، وسباكم الشيطان من أوطانكم فباعكم في أرض أعدائكم بثمن بخس ، فخسرتمْ وربح عليكم ، فبقيتم في بلاد الغربة حيارى متلددين[4] ، بلا أُنْس ولا سَلْوة ، فأنتم بين شَرِقٍ بشربته غَصّان ، وشَجٍ بغصته ظمآن ، ومُدَلّه بشهوته حيران ،

---

١ — ر والمطبوعة : أقطاب .

٢— ر : المنحملون .

٣ — جاء بعدهـا في ر : يسمعون ؛ والآية التي تنتهي بهذه اللفظة تقع بعد قوله (الا القوم الخاسرون) .

٤ — ر : متلذذين .

ومقلقل بلَوْعَته ولهان : قد غرقتم في بحار الغرور ، وتُهتم في مهامه الثبور ، ونمتم[1] في مَنابِت الندامة ، وركضتم في ميادين أجرامكم التي تلزمكم منها الملامة ، فلا إلى ثقة [١٢٧/أ] من سراركم تسكنون ، ولا في مدة آجالكم لأنفسكم تمهدون ، ولا من غضب ربكم يوم القيامة مشفقون . إن عذاب ربكم غير مأمون[2] . أما سمعتموه يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون : ٥٧) ؟

فيا للساجمين على شجْو أنفسهم العبرات ، ويا للمقطّعين نياطَ قلوبهم بالزفرات ، ويا للهائمين على وجوههم من شدة الحسرات ، ويا للاطمين من حُرَقِ الوجد خدودَهم والوَجَنَات : يا رحمتا[3] لقومٍ بعدوا عن منازل المقربين فسحقت[4] ديارهم ، ونأوا عن درجات الفائزين فانمحت آثارهم ، ونُفُوا عن باب الله الكريم فقبحت أخبارهم . فلو رأيتهم يوم العَرْض ، وقد ساخت بهم الأرض ، فندموا على ما فرطوا أيام المَهْل ، وحقّتْ عليهم كلمةُ العذابِ بالوعيد الأول ، لعلمتَ أن التاجرَ في الدنيا من صادف ربحه في الآخرة ، والناجي منها من قنع بالفلْقة والخِرْقة . أتدري ما كلمة العذاب؟ قوله : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّم﴾ (الزمر : ٧٢) ، ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون : ١٠٨) . آه من هذه الشقاوة التي ليس بعدها شقاوة !

يا هذا : من سمع نداء الحق في أعماق جوانح سره ، شهد الأول والآخر في عجائب أمره ؛ ومن ارتاح إلى صيانة ما تحت ستره ، أخذ بِضَبْعه إلى غاية ما أريد في دهره وبعد دهره ؛ ومن فتح فاه ناطقاً بودائع الحقّ في صدره ،

---

١ – رسم الكلمة في ر : ونمتم (دون اعجام) .
٢ – من قوله تعالى (ان عذاب ربهم غير مأمون) (المعارج : ٢٨) .
٣ – ر : فارحمتا .
٤ – سحقت : بعدت وتناءى موقعها .

أهل لذخائر ما في ملكه من تُحَفِه وبِرّه ؛ ومن غبن نفسه بنفسه ، نكص على عقبيه في حياته وعُمْره ؛ ومن اتكل على عفوه مع إصراره فقد باء بسخطه في وِزْره ، وضيّقَ عذره في عذره ؛ ومن لزم حُدود العبيد في صبره وشكره ، فقد أمن من استدراجه ومكره ؛ ومن استعزّ بوجده وقوته ، فقد حشد على روحه من يأتي على عَقْره ونِقْره[1] .

يا هذا : إن كنت عبداً فالرقُّ بالذلّ والقُلّ ، وإن كنت ربّاً فأبرز قدرتك على ثقة . أنت هنا لست هناك ، فلم تجمح ؟ اشهَدْ ضعفك في قوتك ، وأشرف على قوتك في ضعفك ، تجدك منقوصاً بعد الزيادة . وَرَدْتَ قبل أن تحوم فَشَرِقْتَ ، ولو حُمْتَ قبل أن تَرِدَ لشربت سائغاً وجرعت هنيئاً وثلجتَ ناهلاً ، وعلمت أنك مكفيّ مُعان ، ومُشَرَّفٌ مُآن . فالآن وقد خَذلك سوءُ الاختيار ، لُذْ بحسن التنصل والاعتذار ، فليس لك من دونه اقتدار ولا انتصار : إن قبلك فلفضله عليك ، وإن رَدّك فلنقصك الذي لا يخفى عليك ، وإن عاتبك فلأنّه يستصلحك ، وإن أعرض عنك فلأنه [١٢٧/ب] يستدرجك ، وإن ناغاك فلأنه يحب أن يجتبيك ، وإن محا ما بينك وبينه ، فلأنه قد قلاك واطّرحك .

يا هذا : إياك أن تسأله في الطاعة إلا الطاعة في الطاعة ، وإياك أن تطلب منه العطية ولكن العطية في العطية ، وإياك أن تشير إليه بالإشارة ولكن الإشارة في الإشارة . أتعقل ما تسمع ؟ أو تلذ ما تجرع ؟ أو تحس[2] ما يلقى إليك

---

١ – عقر كل شيء أصله ؛ وفي الحديث : خير المال العقر ، أراد أصل مال له نماء ؛ والنقر : النكتة في ظهر النواة ، يمثل بها على الشيء القليل ، فيقال : « ليس الناس بعدك في نقر » أو « لم نفد بن هذا الأمر نقراً » . والمعنى يأتي على ما كثر وقل لديه ؛ وفي المطبوعة : « عفره ونفره » .

٢ – السين معجمة في ر ؛ وفي المطبوعة : تخشى .

من هذه النجوى التي فاتت أهل الدنيا ؟ ليس لهم منها لا[1] الشخص ولا الظل، ولا الكُثْر ولا القُل .

يا هذا : الطاعة في الطاعة الإخلاص ، والعطية في العطية الرضى ، والإشارة في الإشارة التجريد – فحدثني بعد هذا الشرح : هل وقع دوائي منك على الجرح ؟ وهل وجدت شفاءً[2] من البَرْح ؟ وهل وثقت بروح البرء[3] بعد مَسٍّ القرح ؟ إن كنت مراداً فقد نوديت ، وإن كنت مُزْداداً فقد بوديت . وإن كنت مردداً فقد عوديت ، وإن كنت مجتبى فقد هوديت . أنت أعلم بنفسك بقدر ما أُعْلِمْتَ ، وأبصرُ بها بقدر ما بُصّرت . إنما أرَوْكَ العين لتبصرَ العينَ في العين ، وأشهدوك الشاهدَ لتشهد الشاهد في الشاهد ، وأخبروك عن الغائب لتغيب في الغائب ، وكلفوك ليرفّهوك ، وثقّلوا عليك ليخففوا عنك ، وكدُّوك ليبلغوا بك الراحةَ التي لن تنالها إلا بالكدّ . فلا تتهمْ مالكك، ولا تستغشّ ناصحك ، ولا تركنْ إلى ما سَوّلَتْ لك نفسُك وزخرفه لك هواك ، وأعاده وأبداه قرين السوء معك . واعلم أنك بعرضِ أمر جسيم ، ومُرادٌ بخطرٍ عظيم ، ومدعوٌّ إلى خلود ونعيمٍ مقيم ، في جوار رب كريم . أفلا تبذل على هذه المكرمات كَدّ عمر قصير ، وتعبَ أيام معدودة قد ذهب أكثرها باللهو واللعب ، وبقي آخرها بالكلال والتعب ؟ لئن بذلت قليلاً ، لتُعَوَّضنّ كثيراً ، ولئن نَصِبت يسيراً ، لتَستريحنّ طويلاً .

يا هذا : دع هذا وخُذْ بنا في حديقة الحدائق، لعلّنا نتخلّصُ من هذه البوائق ، ونسلم على هذه العوائق ، وننسلّ عن هذه العلائق ، ونتلبس بتلك

---

١ – ر : الا .

٢ – ر والمطبوعة : خفاء .

٣ – ر : البرو ؛ وذلك وجه من كتابة الهمزة .

الأنوار والبوارق . واسمع ما أقول لك في وصف الملكوت الذي[1] قد بهر الخلائق ، وميز السوابق من اللواحق : تراءت المناظر فحارت النواظر ، وتوارت المخابر [١٢٨/أ] فتبارت الحوابر[2] . فأما ترائي المناظر فبشواهد الحق[3] المترائي فيها والمرائي منها والمرائي عليها والمرائي بها ؛ وأما حيرة النواظر فبشواهد الخلق الذي هو المغمور فيها والمغلوب بها والمقهور عليها ؛ وأما تواري المخابر فللعزّ المحفوف بها والسلطان القائم عليها والتدبير الخافي فيها ؛ وأما تباري الحوابر فللغيرة عليها والوجد بها والشوق إليها واللهف عليها . وهذه حدود ما لاذ بها بشر إلا بقي مسحوراً ، ولا بحث عنها إلا عاد مبهوراً مقهوراً ، ولا أبرح منها[4] إلا كان معذوراً ، ولا ادّعاها متكذّباً إلا كان مهجوراً منكوراً .

- ٤٥ -

من قرع[5] باب الله ولَج ، ومن طلب ما عند الله ادّلج ، ومن توجه إلى الله استسلم ، ومن طلب المكانة العَلِيَّة عند الله استعصم ، ومن ذاق ما لَدَى الله استحلاه ، ومن اشتاق إلى ما وَعَد به استجلاه[6] . وفي الجملة ، من تأهب واستظهر بزاده ، وخَفَض من مقاده ، وتَعرّى من مراده ، فإنه يصل إلى غبطته وبهجته وراحته ورشاده ، ومن سكر من شراب الدنيا ، هَلَكَ في خُمَار الهوى ، وبعد من أوطان الهدى ، وتاه في أودية الرَّدَى .

---

١ – ر : التي .

٢ – لعله يعني بالحوابر مصادر الحسن والبهاء .

٣ – زاد في الاصل هنا جملة « الذي هو المغمور ... » وكتب فوقها « معاد » ، وستأتي .

٤ – ر : أفرج عنها .

٥ – ر : ولج قرع ، وفيه سهو من الناسخ .

٦ – ر : استحلاه .

يا هذا : انتصحني ، فوالله ما آلوك جهداً فيما عاد عليك بالثمرة الحُلْوة، والمَسَرَّة الباقية ، والجَدْوى الحسنة . وان رددتَ نصحي وتأففتَ عند قولي، وسددت [دون][1] ذلك كله أذنك مكايدةً لي ، وأنَفة مني ، فلا عَجَب فلك في هذا شركاء ، وهُمْ بأمثاله مِلاء[2] . ولا عجب منك ، فيما تسمع ، إذا نأيت عنه ، فها أنا أقول ما أقول ، ونصيبي منه أقلُّ القليل . ولولا أني مرادٌ بما ترى ، لنكّبتُ عن طريقةٍ ليس لي فيها زادٌ ولا قِرى . فما أقبحَ النصح إذا كان الناصحُ به مخالفاً لنُصْحه في سيرته ، وما أسمجَ الوعظَ إذا كان الواعظُ به غيرَ منتحلٍ لأحسنه ، وعندي أن الدعوى بلا بَيِّنة فضيحة ، والظاهر بلا باطن فاحشة ، والقول بلا حُجّة بُهْتان ، والتمني بلا سعي صَغو[3] ، والسعي بلا توفيق شقاء ، وركوب البَرّ بلا دليل بلاء وعناء .

أيها الراكب سَنامَ الدنيا ، المُعْرِضُ عن حَرَمَ المَوْلى ، التاركُ للطريقة المُثْلى : أبشر بالخُسْر وضنك المعيشة [١٢٨/ب] في الآخرة والأولى ، أيها الجاهل تعلَّمْ ؛ أيها العالم[4] اعمل ؛ أيها العامل أخْلِص ؛ أيها المُخْلِص اثبُتْ ؛ أيها الثابت استمسك ؛ أيها المستمسك خَفِ المكر ؛ أيها الخائف ارج؛ أيها الراجي ازَوَّدْ ؛ أيها الواعظ اتعظ قبل أن تَعِظ ؛ أيها السامع احتفظ قبل أن تستحفظ ؛ أيها الشامخ تَطامن ؛ أيها الذاهب في الشّمال تيامن ؛ أيها المطرود عن الباب أجِدِ البكاء لعلك ترحم ؛ أيها البائس أقلعْ واندم لعلك تُقْبَلُ وتُكْرَم ؛ أيها الخائضُ في غَمَراتِ هذه العاجلة روِّ[5] لعلك تسلم ؛

١ – زيادة لازمة .

٢ – ملاء : جمع ملي ، وهو القادر على الشيء .

٣ – الصغو : الاستخذاء .

٤ – ر والمطبوعة : العامل .

٥ – ر والمطبوعة : رق .

أيها المغترّ بالصحة والشباب[1] اعلم أنك ستسقم ؛ أيها المسرور بالمال والولد والربح والنعمة تنبهْ لعلك تَعْدَم أو تُعْدَم .

إلهنا : لولا قِحَتُنا معك لم نستقبلك بوجوهنا مع اللَّطْخ الذي بنا ، والدَّرَن الذي قد غلب علينا ، ولولا جُودك وكرمك لم تؤهّلنا لما أهّلْتنا لأنا نذكرك[2] بألسنة سليطة في الخنا والشّرّ والقذع والزُّور ، ونشتاقك بقلوب مُطْفَحة بالرياء والنفاق والخبث والفساد والرّيبة ، ونُدِلُّ عليك بأعمال إذا قَدِمْنا بها عندك جعلتها هباءً منثوراً لأنك لا ترى فيها نَفَساً خَلَص لك ، ولا وَهْماً سَلِم من سِواك ، ولا خيالاً جرى على مَرْضاتك . ثم إذا كان هذا حديثَنا في ألسنتنا إذا ذكرناك ، وفي قلوبنا إذا اشتقناك ، وفي أعمالنا إذا قصدناك ، فكيف ننجح عندك ، وكيف نسلم عليك ؟ إلا أن الظن بك ياربّنا جميل ، وأمَلنا فيك قويّ ؛ لا بل بدأتَنا بما[3] لم نكن أهله من الكرم والجود والإحسان والفضل ، ومن بدأ بالحَسَن عاد بالأحسن ، وانت البادي بالحَسن والعادي[4] بالأحسن. هذا حكم أنت أقمته في عقولنا حين أعلمتنا كرمَ الكرام ، وأنت فوق كل كريم . فكيف لا تعودُ بمثل ما بدأت به وبأزيد منه ونحن نضرعُ إليك هذا الضَّرعَ ، ونلوذُ بك هذا اللِّياذ ، ونُعَفّر وجوهنا لك بالخشوع والذلة . وأنت حين بدأت لم يكن منا شيء من هذا الذي وصفناه ؛ وكيف تخيّبُ مسؤولاً وقد أنلت مبتدئاً ؟ هذا[5] ما ليس في عقولنا التي وهبتها لنا وجعلتها حجة علينا .

---

١ – ر : والشبابة ، وليست من اللغة .

٢ – ر : نذكر بك .

٣ – ر والمطبوعة : مما .

٤ – لعل عادي هنا منقلبة عن عائد ، للتناسب مع « بادي » .

٥ – ر والمطبوعة : هنا .

أيها الصاحب الطروب على ما تسمع : إياك أن تُفْتَل عن حظك وتخدع ، فتسيل في وادي الرجاء غير عامل على [١٢٩/أ] كيس[1] المستظهرين ، ولا آخذاً بجدِّ المُسْتَبْصِرِين .

يا هذا : إن الله وَهَبَ لك هذه الأحْسَاسَ لتعتبر بها فيما ترى وتسمع وتذوق وتشم وتلمس ، فجعلت الاعتبار بها بَطَراً وأشَراً ، وتألَّبْتَ على واهبها لك منهمكاً مستكبراً . أهكذا يُشْكَر المنعم ، وبهذا تُقَابَلُ النعم ، وإلى هذا كان الشوط ، وعلى هذا كان الشرط ؟ ما أقل حياءك ، وما أصلب وجهك ، وما أوقح حَدَقَتَك ، بل ما أغرقك في بحر الجهل ، وما أتيهك في بَرِّ الضَّلال ، بل ما أعماك عَمَّا لَكَ ، وما أبصرك فيما هو عليك !

يا عدوَّ نفسه ، وجالب حَتْفه بيده ، ويا شارب سَمّه بأنفه ، ويا خانق حَلْقه بحبله ، ويا مُخَرِّب بيته بساعده ، ويا سيء النظر لنفسه ، ويا جاهلا بحظه ، ويا متعقِّباً لحسرته بذنبه، ويا مُجْهِزاً على روحه بخنجره : إنما أنعم عليك هذه النعم المختلفة ، وشابها بما أثر في صفائها ، لتحنَّ إلى نعم هي أصفى منها وأوسع ، وأدوم وأرفع ، وأطيب وأسبغ وأهنأ ؛ حتى إذا حننت إليها سألت عن الأسباب التي تُوصِّلك بها ، وتوفِّر قِسْطك منها ، من خيرٍ تفعله، وشرٍّ تَتَنَكَّبه ، وجائع تشبعه ، وعارٍ تكسوه ، وجارٍ[2] تُسْعفه ، وخائفٍ تُؤمِّنه ، وضائعٍ تَحْفَظه ، وذمام تَعْقِده ، وفقير ترفده ، وحق تنصره ، وباطل تخذله ، ومَسْجد تَعْمُرُه ، وبِر تتعوّده ، وضال تُرْشِده ، وداعٍ تجيبه . فبهذا وأمثاله تُشْكَرُ النِّعم وتُستدام ، لا بمخالفة الله وعِصيانه والعكوف على محارمه ، والمجاهرة بما يُبعد من رِضْوانه .

---

١ – ر : كبس ؛ والكيس : الخفة والتوقد .

٢ – ر والمطبوعة : وجاد .

يا هذا : قد صَرَّفْتُ لك القولَ ، وضَرَبْتُ لك الأمثال ، وافتننت[1] في اللفظ والمعنى ناصحاً لك ، وطالباً لسعادتك ، وهادياً لك إلى راحتك . فإنْ أصغيت إلى هذه كلها قابلاً[2] ، وتشبثت بها عاملا ، وتثبَّتَّ عليها راجياً آملا ، ضمنتُ الفوزَ لك بالنعيم الدائم ، وبالحياة الصافية ، وبالعيش الطيب ، وبالرَّوْح المتصل ، وبالرضوانِ الرفيع ، وبالنظر إلى وجه الله الكريم كفاحاً[3] بلا حائلٍ ولا حاجز ، وليس بعد ذلك أملٌ أضمنه لك ، ولا مطلوب فأُشوِّقك إليه .

يا هذا : غَيْبُ هذا الحديث خاف ، والرمزُ عنه متجاف ، وإنما نُدندن حول هذه المعاني[4] ، هنالك تنالُ « ما لا أذُنَ سمعت ، ولا عينَ رأَتْ ولا خَطَرَ على [١٢٩/ ب] قلب بَشَر »[5] . فثق — عافاك الله — بهذا الذي كنينا عنه ثقةً توفي ما صرحنا به ، فإن غاية الإيمان اليقينُ ، وغايةَ اليقينِ ما تجده بقلبك ، وتُحِسُّه بروحك ، وتهيم عليه بفؤادك ، وتسلو به عن نفسك وحِسِّك . وإن عبداً بَلَغَ مع الله هذا المقام ، لجديرٌ بأن يكون قريرَ العين ، مغبوطَ الحال ، عظيمَ القَدْر ، واضحَ العذر ، شريف الحِلْية ، عجيب الجملة ، غريب التفصيل ، بديع الخبر ، طريف الأثر ، عزيز الوصف . إنْ ذُكِر وُجِدَ عليه ، وإن نُعِت اشتيق إليه .

اللهم : كما علمتنا هذه الصفات التي تَختصُّ بها من تشاء من عبادك بمشيئتك السابقة ، وقدرتك النافذة ، وحِكْمتك الخافية ، حتى وصفناك[6] بوصفٍ

---

١ — ر : واقنينت .
٢ — ر : قايلا .
٣ — كفاحاً : مواجهة .
٤ — ر : المعاني .
٥ — الحديث في صحيح البخاري (بدء الخلق : ٨ والتوحيد : ٣٥ والايمان : ٣١٢) ومسند ابن حنبل ٥ : ٢٢٤ .
٦ — ر والمطبوعة : وصفناه .

شاف ، وذكرناك[1] بذكر بالغ ، فخلّنا حتى نظهرَ لك بحسنها ، ونتجلّى لعبادك بنورها ، وندعوهم إلى خدمتك بما يعود عليهم منْها ، ونعدهم عنك مثلها ، ونكون سبباً لهم في محبتك وعبادتك ، ولزوم فنائك ، وطلب عطائك ، وغشيان بابك ، والتعلق بأسبابك[2] ، وانتحال توحيدك ، واللّهج بتمجيدك .

إلهنا : أنت أهّلتنا لهذا التوجّه ، وألهمتنا هذا الدُّعاء ، وصرّفتنا في هذه[3] الفنون ، وأرتعتنا في هذه الرياض ، وسقيتنا بهذه الكؤوس ، وغمستنا في هذه العيون ، وأوردتنا هذه الغُدْران ، وأطلعتنا على هذه الثنايا ، وحييتنا بهذه التحايا ، وأوْسعتنا من هذه العطايا ، وناغيتنا في المنام ، وصارحتنا في اليقظة . فكما أهّلتنا لهذا كله فأهّلْنا لرضاك عنا ، ولإحسانك إلينا ، ولرِفْقك بنا ، ولصنُعْك لنا ، وزِدْنا بعد ذلك ما لا نهتدي إليه فنسأل ، ولا نعرفه فنطلب.

اللهم : إنّا لا نَشْبَعُ من فضلك ، ولا نَرْوَى من إحسانك ، فلهذا نُلِحّ ونُلْحِف ، ونطلب ونقترح ، ونتجاوز قدرنا في الانبساط .

يا هذا : إن كنتَ ظامئاً فرِدْ ولو حَبْواً ، وإن كنت غريباً فاستأنس فلك المثوى ، وإن كنت عليلاً فصِفْ ما بك فإنك تشْفى ، وإن كنت فقيراً فتعرّض فلكَ الغِنى وما فوق الغنى ، وإن كنت ضالاً فاضرع فلك الإرشاد والهُدَى ، وإن كنت معزولاً فاخطب [١٣٠/أ] فلك الولاية الكُبْرى ، وإن كنت مهجوراً فاعترف فإنك تنال المرتبة العُلْيا ، وإن كنت حزيناً فاذكر ما بك فلك الفَرْحةُ الطُوْلى ، وإن كنت عاتباً فتلطّفْ فلك العتبى ، وإن كنت مبتلى فواصِلْ فانه تُصرف عنك البلوى ، وإن كنت تريد الدنيا فلا تَذْكُرِ المَوْلى . أما تعلم أن العيش مع المولى أحلى من المَنّ والسَّلْوى ؟

---

١ – ر والمطبوعة : وذكرناه .

٢ – ر : باسبابها .

٣ – ر : هذا .

أما ترى بالله يا صاحبي ما نحن فيه ؟ نَعْرِفُ كأنّا لا نعرف ، ونعرف ما نصفُ كأنّا لم نصف . قلوبٌ تعترف ، وألسنة تختلف ، وأعمالٌ لا تنتظم ولا تأتلف . ليت هذا لم يكن شقاء بنا ، ولا استدراجاً لنا .

اللهم : إليك نفزع في كل ما هَمَّ ودَهَم ، وعليك نتوكل في كل ما ناب وألَمَّ . وقد أهَمَّ أمْرُنا ، ودهمنا بلاؤنا ، ونابنا التقصير الذي فضحنا ، وأحاط بنا الخوف من الخِزْي المالك لنا . فاكفِنا أنت ، وارؤف بنا أنت ، واعطف علينا أنت ، فإنك أنت أنت ، وإنما نحن بك لأننا لك : نتقلب في ظلال نعمتك ، ونرجو غواشيَ رحمتك ، ونسألك الاتصال بك ، والدعاء إليك ، والخشوع لك ، وأنت مالِكُنا ومُصَرِّفنا . فارزُقْنا رضاءنا عنك برضاك عنا .

أيها السامع : هذا لِسانُ الحق واعظاً وموقظاً ، فانظر أين أنت منه ، فإنه إن كان لك فيه نصيب فأنت حبيب ، وان لم يكن لك منه نصيب فأنت غريب ؛ وإذا أردت أن تعرف نصيبك منه فانظر إلى سِرّك كيف استِنارَتُه عند ذكر الحق ، وإلى قلبك كيف استراحَتُه عند مجاري الأحكام ، وإلى روحك كيف هشاشته وبشاشته إذا صدَرَتْ بَوادي الغيبِ إلى مواطن الملك ، وإلى شمائلك كيف اهتزازها في أرجاء القُدُس ، وإلى نفسك كيف استجابتها[1] للصبر عند الكوارث ، وإلى جملتك كيف انتهاضها بأثقال الحوادث ، وإلى كُلِّك كيف ثباته عند اختلاف الصوارف والبواعث ، وإلى بعضك كيف فِراره عند طلوع السواحر النوافث ، وإلى وجدك كيف صحته عند السماع ، وإلى وصفك[2] كيف طمأنينته عند الوداع ، وإلى طاعتك كيف [١٣٠/ب] إخلاصك فيها[3] عند الهزاهز ،وإلى معصيتك كيف نفورك منها عند الحوافز .

---

١ – ر : استجابتك .

٢ – ر : طمأنينتك وصفك .   ٣ – ر : منها .

تصفحُ النفس — عافاك الله — صعبٌ ، وحَمْلُها على الجادة شديد ، وإذعانها للحقّ مُعْوِز ، وإنصافها متعذِّر ، والانتصاف منها معدوم ، وبلاياها بلا نهاية ، وسراياها بلا آية ، لها خداع ولك انخداع ، فما الذي يبقى من الخداع والانخداع مع شِرَّة العادة ، وخُبْثِ الطباع ، وبين مكاره الوقت وفتن الزمان؟ لأن الكلمة متشتتة ، والدعوة ملتاثة ، والرحمة مفقودة ، والوصاة بالغيرة مهجورة ، والقبائح فاشية ، والخيانة ناشية ، والاصطلاح واقع على رفض المواعظ وترك التناصح . لا جَرَمَ اللبيب كئيب ، والمُحَصِّل غريب ، والقول في هذه الحال العامة الطامة طويلٌ عريض ؛ فقد أصبح الدين وما لمنهجه سالك ، ولا عن حُكمه سائل ، وأمست الدنيا وحُلْوُها مُرٌّ ونفعها ضُرٌّ . غلب والله اليأس ، لما قد غَمَرَ الناس . إليك المُشْتَكَى يا إلهنا .

يا هذا : الدارُ دارُه ، والخَلْقُ خَلْقُه ، والمصادر عنه ، والموارد إليه ، والمشيئة منه ، والتصاريف بإذنه ، والحوادث فبأمره ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . فما بالنا نقلق هذا القلق ، ونفترق هذه[1] الفِرَق ؟ أيحسن بنا أن ننازعه التدبير ، وأن نردّ عليه التقدير ، وأن نظن أن نظرنا أصلح ، ورأينا أصح ، وعلمنا بالغيب أولج ، ومعرفتنا بالكون أبهج ؟ لا والله ، ما هذا بلائق بنا ، ولا مُسلّم لنا ، لأنا أذلاّء بالفطرة ، عبيد بالخِلْقة ، مسوطون بالحاجة ، محمولون على المسكنة : إن رأينا فالَ رأيُنا ، وإن ظننا التبسَ بالشك ظنُّنا ، وإن حَكَمْنا اختلط بالجور حكمنا ، وإنْ وَهِمْنا اتصلَ المحالُ بوهمنا ؛ فكمالُنا صادر عن التقصير ، وعِلْمُنا مَشوبٌ بالجهل ، وواضحنا راجع إلى العويص ، وصلاحنا ممزوج بالفساد . فعلى هذا كيف تصح لنا قَضيَّة ، وكيف تنجلي لنا خَفيَّة ، وكيف تَغنمُ لنا سَريَّة ، وكيف تصفو لنا عطية ، وكيف تصدقنا رويّة ، وكيف تخلص لنا طَويّة ، وكيف تبقى فينا بقيّة ؟ هذا ما لا ينبغي أن نطمع فيه وأن نحوم حَوْمَه ، ونروم رومه .

---

١ — ر : هذا ؛ وربما قرئت : ونفرق هذا الفرق .

بلى ، إن الذي يجب علينا ، ويحسن بنا ، ويدخل [١٣١/أ] في آداب العبيد مع ساداتها ، أن ننظر إلى الملك على مجاري كون الكائنات ، مُسَلِّمين مُذْعنين ، متعجبين مُعجبين ، فما كان مُواطئاً لذيذاً قبلناه[١] بالنشاط والأريحية ، وما كان منافراً شديداً حملناه بالمِرّة[٢] السوية والعقيدة القوية . فإن التردّي بهذا الرداء ، والاستظهار بسكنى هذا الفناء ، مَجْلبةٌ لسوابغ النعْماء ، مَكْسَبَةٌ لمهانىء العطاء ، مَسْلبةٌ لأثقال العناء ، مَطْربةٌ بأنواع الغناء ، مَطْردةٌ لأسباب الفناء ، مقربة لأحوال البقاء .

هذا ما أفضى إليه نظري ، ووقف عليه بصري ، واحتوى[٣] نحوه ورْدي وصَدَري ، وطاح في عُرْضه خَطَري وغَرَري . بعد الاستخارة المقدمة ، والاستشارة المتممة ، وبعد توجه القلب لصفاء الضمير ، وبعد التبرّؤ من التقدير والتدبير . فإنْ سَرَّكَ أن تبرز بهذه الخلعة ، وتتخلص من ضروب الخدعة ، وتفوز بغرائب المتعة بعد المتعة — فافعل ، فإن الحظ في ذلك كله لك ، والربح في يدك ، والغبطة مكتنفة لطرفيك ، مشتملة عليك ، والسلام .

- ٤٦ -

كتبت إليك والربيع مُطِلٌ ، والزمان ضاحك ، والأرض عروس ، والسماء زاهر[٤] ، والأغصان لدنة ، والأشجار وريقة ، والغُدْران مُتْرَعة ، والجبال مبتسمة ، والرياض معشوشبة ، والجنان ملتفة ، والثمار متهدّلة ، والأودية مُطردة ؛ فما تقع العين إلا على سندس واستبرق ووشْي اليَمن وديباج الروم

---

١ – ر : قبلنا .
٢ – المرة : القوة وشدة العقل .
٣ – كذا في ر ، ولعلها : « واغتدى نحوه » أو « واحتوى بحره » أو « وانتحى نحوه » .
٤ – قال الجوهري : السماء تذكر وتؤنث ، وقال غيره انها لا تذكر إلا إن كانت تدل على السقف .

ونقش الصين . وكما أن للعين في جميع ما وصفت مَراداً ، كذلك للقلب في عُرْض ذلك كله مُراد ؛ ولكن أين القلب وأين صاحبه ؟ وأين العقل وأين ما يعقله ؟ العين تبصر الألوان وتَكِلّ ، والنفس تضمر الأحزان فتضلّ ، وأنت الحبيب دَنَا بعد نأيه ، وقَرُب بعد بُعْدِه ، فكانت حرارة الفؤاد تبرد ، وحَسْرَةُ الروح تخمد . وليت الحبيب كان يَهُمّ بالوصل ، ويأذن في اللقاء ، ويعد بإعادة العهد ، ويترنم بما سلف من الأيام الخالية من تنفُّس في خَلْوة ، وتأنّس في جلْوة [1] ، وكانت الجبال تقشعرّ ، والأشجارُ تتساقط ، والأوديـة تنضبُ ، والغُـدْران تجفّ ، والرياض تَقِفّ ، والأغصان تجسو ، والبلاد تقسو ، فإن في مشاهدة الحبيب عوضاً من كل بعيد [١٣١/ ب] وقريب .

فحدثني يا سيدي كيف أُسرّح طَرْفي في آثار هذا الربيع ؟ وكيف أفرح بما أرى من الزَّهْر والنَّوْر ، وعلى قلبي أقفالُ الهموم وليس لها مفتاح ، وعلى كاهلي أثقال الغموم وليس لي[2] منها سراح؟

وإنما كتبت إليك بعنوان حالي على غير إشباع لذكر ما بي طلباً للرواح في محادثتك ، وتسكيناً لما بصدري من حرارة الشيطان[3] إلى من طوقني بمننه ، ثم غرقني بفتنه ، ثم روقني بمحنه ، ثم ختم عليّ بالصبر وأغلق دوني بابه ، ونهني عن الشكوى وأغلق عليّ أسبابه ، وطوفني[4] على رؤوس الأعـداء ساهِمَ الوجه بالمخالفة ، ذابل الشَفَة باليأس ، كئيب البال بالحُزْن ، مُقَيّد

---

١ – ر : خلوة .

٢ – ر : لها .

٣ – كذا في ر ، وهو خطأ فيما أقدر ، وأغلب الظن أن الصواب « من حرارة شاطية » أي ملتهبة .

٤ – ر : وطوقني .

الشاهد والغائب بالتحكم ، متلجلجَ اللسان في الاعتذار ، مردودَ الحجةِ عند الانتصلو : إن رَمَقَتْني عينٌ رحمتني بالبكاء ، وإن دنا مني إنسان وجدني كرسم الهباء ، بعد ما عهدتُني جذلانَ ناعمَ البالِ رَيِّح القلب ، أرجع إلى ثقة النفس في السراء والضراء ، وإلى مقة الإنس في الليالي والحشناء . .فهل تعرف يا سيدي بلوى تشبه هذه البلوى ؟ وهل يصبر العبد على مثل هذا من المولى ؟ بلى يصبر ويصبر ، ولكن بعد مادّةٍ من نظرٍ جميل يقتاتها ، ويتقوى على حاله التي يتقلب في عَرْضها وطولها . فالمسجون يُرْفَق به لئلا يموت ، والمحزون يُعْطَف عليه لئلا يبكي[١] ، والمهجور يُسْأل عنه لئلا يتلف . وما غاية أملي بعد هذا الذي طولت به خبري إلا أن أعلم أين مقر قدمي من مكاني ، وماذا الذي يصيبني ممن رماني بألوان أشجاني ؟ وهل العطفة مرجوة ؟ وهل الفيئة منتظرة ؟ وهل الرحمة متوقّعة ؟ وهل لزمان الفكرة والمؤانسة ، والغبطة والمنافسة ، رجوع وإياب ، وشهادة وغياب ، وعتاب وإعتاب[٢] ، واعوجاج وانتصاب ، [وإقامة][٣] واغتراب ، وتباعد واقتراب ؟

فديت ذلك التباعد بحلاوات التجني ، بل فديت ذاك الاقتراب بعد تحمل أثقال التمني ، بل فديت تلك الطمأنينة التي كانت تحفظ دعائم حالي ، بل فديت ذلك الارتياب الذي كان يستوقف حظي من مالي ، أيام كنت أهيم في كل شِعْب ، وأنتسب إلى كل قبيلة ، وأنتصب لكل فضيلة ، وأبرأ من كلِّ رذيلة ، وأقول للحَجَرِ : ذُبْ ، فأرى بأنه قد ذاب ، وأقول للبحر : امْدُدْ ، فأظن أنه استجاب ؛ أيام أقول :

[١٣٢/أ] يا معيري طول الضنا والسقامِ ما تراني أهلاً لردِّ السلامِ
جُدْ بوعدٍ إذا مَطَلْتَ دهوراً فلعلَّ الميعاد يشفي سقامي

---

١ – ر : يبلى .
٢ – ر : واعتياب .
٣ – زيادة ضرورية .

أيامَ حُلمي يُربني كل فائت ملحوقاً ، ويُصوِّر لي كلّ باطل محقوقاً ، ويناغيني بحال أكْشَفُها يلطُفُ عن الفهم ، وأخفاها يعلو عن الوهم ، حال كلما سلطت عليها العبارة ، وأرسلت إليها الإشارة ، جلّتْ عن هذه ، وزلّت عن هذه[1] — حال كانت المنى تخطبُها على وجه الدهر ، فلما بدت بحقيقتها استولت عليها يَدُ الدهر .

فيا حَزنا لمن لما وَجَدَ فَقَد ، ولَمّا ملك هلك ، ولما أبصر عَشِيَ ، ولما أمن خشي ، ولما أوضح افتضح ، ولما ارتفع اتضع ، ولما علا هبط ، ولما استوى سقط . وواهفي وواأسفي على سِرٍّ كُتِمَ حتى لم يُعرف منه لا الرسم ولا الاسم . لعلك تظن أن الاسم قد[2] عُرِفَ لا أنه[3] سِرٌّ . فيا ويحك : هذا خبال منك ، ووبال عليك . أين الاسم الذي هو حروف ، من مضمونه الذي هو وراء الحروف ، الذي لا يناله الوهم لا بالسعي ولا بالوقوف ؟ وذاك هو الذي أفاد الاسمَ مرتبته ، وجمع بينه وبين نظيره ، وفرّق بينه وبين ضده ، ذاك الذي نظر فعان ، وأراد فكان ، وظهر فبان ، وأظهر فأبان ، ورقّق فزان ، وكفل فمان ، وتولّى فصان ، ودنا فآنَ . سِرٌّ هو كاتمه ، وأمر هو ناظمه ، وبرقٌ هو عارضه ، وشأن هو فارضه ، وكلٌّ هو حافظه ، وبعض هو ناقضه ، فليس لمخلوقٍ أن يلم بحافات هذا الحديث رمزاً أو نبساً ، أو غمزاً أو هَمْساً ، إلا مِنْ بعدِ أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

سيدي : قد أرخيتُ عِناني معك ، وطرحتُ ثقلي عندك ، وناقلتك بلغة أنت أعرفُ بها من غيرك ، وأوقَفُ عليها من سواك . وإنما كان ذلك مني لأشياءَ كثيرة شريفة خطيرة ، منها : تسكين هذه الفورة التي قد بدت لك

---

١ — ر : حاله ، واظنه سهواً من الناسخ .

٢ — ر : فلا ، ولا يستقيم المعنى بها .

٣ — ر : لأنه .

هواديها بما يدلك على تواليها ؛ والثاني : طلب الفائدة منك بما جمع الله فيك ؛ والثالث : إذعان النفس بالاعتراف لتصاريف الوقت ؛ والرابع : مغالطة الأضداد فيما لم ينفتح عليهم منه باب ، والخامس : استبراء الغيب بما هو صَمْدٌ له من هذه الشهادة ؛ والسادس : التعاون على نيل المراد من جَنَاب الملك بحال لا يفسرها ألف ولا ياء [١٣٢/ب] ولا يخبر عنها جيم ولا حاء .

بالله يا سيدي : أما تراني كيف أبدأ لك بلسان قد ظهر بيانه ، في مَعْرِض شان قد استتر عِيانُه ؟ وما هذا إلا لان المكاتبة بالقلم تدعو إلى مثل هذه الحالِ التي وإن كنتُ مستغيثاً بالله منها ، فإني مُغاثٌ[1] بتوفيق الله فيها . فهل بقي الآن بيني وبينك بعد هذه النجوى إلا أن تَكُفَّ ناظري عن محاسن غيرك بِفَضْل إحسانك ، وتضاعفَ نشاطي فيما يصل إليَّ من جوابك بما يضاعف نشاطَك ؟ فإنك إن فعلت ذلك وَصَلْتَ قديم بِرٍّ بحديث شُكْرٍ ، وأفأت على سائلك ضالّةَ حَقّ . فبحرمة انتسابك إلى الحق ، وبشرفِ انبساطك مع الحق ، وبعذوبة سرارك للحق إلا بللت طللي بنداك ، وجُدْتَ عليَّ بما خُصصتَ به مِنْ هُداك . وإني إلى ذلك منك محتاج ، وليس لي إلى غيرك فيه مَعاج . فاسمع ما أقوله متحققاً ، فما قلته إلا محققاً . وكيف أستحلُّ النفاقَ معك وأنت عَيْنُ الوَقْتِ ولسانُ الزّمان وعنوانُ الحق ؟

اللهم : إنّا نكاتب الخلق التي أظهرتَها في آفاق ملكوتك ليكونوا شفعاءنا عندك ، ونستدعي من أحوالهم خبراً عنك حتى تكون لنا في ذلك وُصْلَةٌ بك ، وقيامٌ على أمرك ونهيك . فإذا حرّكتنا لطلب ذلك منهم لأجلك ، فحرِّكهم لإسعافنا بذلك ، ليكونَ ما يكونُ منهم بك، مضافاً إلى ما كان منّا لك . وارحم فقرنا إلى غيرك بسببك ، وأغْنِنا بك عن كلٍّ ما سواك . وكما أظمأتنا إلى عين معرفتك ، فارْوِنا منها بقدرتك ، فقد جَرَزْنا[2] نواصيَنا في حَرَمِ طاعتك ، وضممنا قواصيَنا في ساحةِ خدمتك ، وتلهّبنا[3] آسفين على

---

١ - كذا في ر ، وله معنى مقبول ، ولكني أرجح « معان » .
٢ - ر : جررنا ؛ وجز الناصية كناية عن إذلال النفس هنا .
٣ - ر والمطبوعة : وتلهينا .

فائت منّك، وتحرّقنا لاهفين على فوائدنا بك[1]

فنسألك اللهم أن تغمرنا بفضلك، وتسقينا بسَجلك، وتُصفّينا للقُرْب منك[2]، ثم تصافينا بتأنيسك. وقبل ذلك كله فاكفنا مؤونة خلقك وغوائل عبادك، فقد أصفقوا على هجرنا وجفائنا لاعتصامنا بحبلك، وانتسابنا إلى قُدْسك، وشغفنا بذكرك، واقتباسنا من نورك، واعتزازنا بربوبيتك.

يا هذا: إذا مرّتْ بك هذه الطرائف فَخُذْ بها نَفْسَك، ثم خُذْ بها على نفسك، ولا تنكرها برماً بها، ولا تَبرم بها منكراً، ولا تجعل منشأك الفاسد حاكماً عليها، ولا قرينك السوء معترضاً عليها، فإن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون، وإنهم بما بهم عمّا لهم جاهلون. [١٣٣/أ] وإن عقلا بَعِل[3] عن هذه المحارج لمؤيّد، وإن وهماً يصل إلى هذه المناهج لموحّد، وإن وجداً يعبق بهذه الفوائد لموقّد.

فديتُ قلباً لانَ عنده هذه المعاني؛ فديتُ عيناً ذرفت على هذه المغاني؛ فديتُ لساناً جرى بهذه الفنون؛ فديت عقلاً جُنَّ على هذا الجنون؛ فديت عيناً اغرورقت على هذه العيون. لله الأمر من قبل ومن بعد.

أين نحن ويحك؟ وفي أي شيء كنا؟ وعمن أخبرنا بما أخبرنا؟ وإلى أي غاية أجْرَيْنا؟ ومن أيّ فَنَنٍ قَطَفْنا؟ وبأيّ سحاب ابتللنا؟ وعن أي غاية أنبأنا؟ وأي درة استخرجنا؟ وبأي معرض اجتَلَيْنا؟ ومَنْ أمّلنا ورَجَوْنا؟ وبأي بيت غَنّينا وشجونا؟ وكتاب من فضضنا وقرأنا؟

١ – فوائدنا بك: صورة ما في المخطوطة، ولكنها قراءة ضعيفة لم أهتد إلى وجه الصواب فيها.

٢ – أي تجعلنا بالتصفية صالحين للقرب منك، وتشديد الفاء متابع للمخطوطة. وربما قرئت بتخفيفها، مضارع «أصفى».

٣ – بعل: فرق ودهش.

وعتابَ مَنْ سمعنا وفهمنا؟ ودعوة من أجبنا وقَبِلْنا؟ وحضرة مَن قصدنا وصمدنا؟ وخاتم من أخذنا وملكنا ؟ وبعزّ من ظهرنا وقهرنا ؟ وبحكمة مَن مَهَرْنا وبَهَرْنا[1] ؟ وكلمة من اعتقدنا واعتمدنا ؛ وتحت راية من سَرَيْنا وسِرْنا؟ وبحبٍّ من بُحْنا وَوَجَدْنا ؟ ورضى مَنْ تحرينا وتوخينا ؟ وفي مجلس من زَعَقنا ورقصنا ؟ ورداءَ مَنْ جذبنا وسحبنا ؟ ولوجه من ركعنا وسجدنا ؟ وبسبب مَنْ سمعنا وأطعنا ؟ ولرضى مَنْ رفعنا ووضعنا ؟ وبأمر مَن اعتمرنا وحججنا ؟ وبإذن مَنْ صُمْنا وصلّينا ؟ ولمراد مَنْ خضعنا وخشعنا ؟ ونعمةَ مَنْ نشرنا وشكرنا ؟ وفي ديار مَنْ نزلنا وسكنّا ؟ ولهيبةِ مَنْ سكتنا وخرسنا ؟ وبمحبةِ مَنْ قلنا ونطقنا ؟ وعلى بساط مَنْ تقلبنا وترجحنا ؟

يا هذا : كل هذا لمن له الخلق والأمرُ ، ولمن له الحَلّ والعَقْد ، ولمن له التصريف والترصيف ، ولمن له التأليف والتكليف ، ولمن له الأول والآخر[2] ، ولمن له الإرادة والمشيئة ، ولمن له العالم بحركاته وسكناته ، وباستناباته ورَجَعاته ، وبنيّراته وظلماته ؛ له كل شيء ، وبه كل شيء ، وإليه كل شيء ، ومنه[3] كل شيء ، وعليه كل شيء ؛ أمّا له كل شيء فلأنه مالكه ، وأما به كل شيء فلأنه مُمِدُّه ، وأما إليه كل شيء فلأنه غايته ، وأما منه كل شيء فلأنه مبتداه ، وأما عليه كل شيء فلأنه حامله . ووراء هذا أيضاً ما يقف القلم عن[4] ترقيشه ، ويتهالك العقل عن تفتيشه ، ويتلجلجُ اللسان عن تنقيشه . وكيف لا يكون هذا هكذا وكل ما دونه ناقص ، وليس للناقص أن يحيط بما ليس بناقص : لا بالقوة التي هي في أول المراتب ، ولا بالفعل الذي في آخر المذاهب .

---

١ – كتب الناسخ هذه الجملة بعد لفظة « وفهمنا » ، ورمج عليها هناك ، وكتب الى جانبها ها هنا ؛ وفي ر : بهرنا وشهرنا .

٢ – في التنزيل : هو الأول والآخر ؛ ولكن المراد هنا : له أول كل شيء وآخره .

٣ – ر : وفيه .

٤ – ر : على .

[١٣٣/ب] إلهنا : جلَّ شأنُك فما يرومك رائمٌ إلا رَجَع مبهوراً ، ولا ينعتك ناعتٌ إلا انتهى مقهوراً ، ولا يصفك واصفٌ إلا وما يزلْ عنه أكثر مما يدل عليه بلفظ ، لأنك فوق كلّ نعت ، وفوق كل مظنونٍ بظنّ ، وفوق كل موصوف بوصف ، وفوق كل معقول بعقل .

اللهم : فنوِّر زوايا قلوبنا بمعرفتك ، واحرس[١] أسرارنا بالتوحيد لك ، واملأ ما خلا منا بالتوكل[٢] عليك . واذكرنا عند ذكرنا لك . وإذا ذكرتنا فكرّمنا ، وإذا كرَّمتنا[٣] فبين ذلك لنا ، وإذا بينت ذلك لنـــا فاحفظنا حتّى لا نطيرَ فرحاً به ، ولا نهيمَ وجداً عليه ، يا ذا الجلالِ والإكرام .

- ٤٧ -

اللهم : إنّا نعادي فيك الشيطانَ فاعصمنا ، ونعصي من أجلك الهوى فارحمنا ، ونجدُ بذكرك إذا ذُكرتَ فأكرمنا ، ونتقلب بين آلائك ونعمائك فألهمنا ، ونعترفُ بتقصيرنا في شكرك فقوّنا . غمرتنا بجودك[٤] أولاً وآخراً ، وعممتنا بإحسانك وفضلك قديماً وحديثاً ، وألهجتنا بتوحيدك سراً وجهراً ، وخصصتنا بالدعاء إليك والإجابة لك قولاً وفعلاً . فعَرَصاتُ قلوبنا مشحونةٌ بمودتك ، وأفنيةُ آمالنا عامرةٌ بالشوق إليك ، وأطرافُ ألسنتنا مُرْهَفَةٌ بنشر أياديك ، وأوديةُ أنفسنا جاريةٌ بالتهلل فيك . إن عاقنا عنك عائقُ الهوى استعنا عليه[٥] بقائد الهدى ، وإن ساقنا إليك سائق الدَّعْوَى قوّمْناه بحقائق الرّعوى والتقوى ، وإن تزخرف في أعيننا حاضِرُ الدنيا كففنا أعيننا عنه بغائب النجوى.

---

١ - ر : وحرس ؛ ولعلها « وجرس » أي كلم ونغم .

٢ - ر : والتوكل .

٣ - ر : كرمنا .

٤ - اضطربت في ر فجاءت « بجود ضاك » ولعلها « بجود [ك ور] ضاك » .

٥ - ر : عنه

ولم يستوسقْ كلُّ هذا لنا إلا بتوفيقك الذي تَحولُ به الظلمة نوراً ، ويعود الغمُّ به سروراً ، وتصيرُ الكآبةُ به حُبوراً .

أيها المُدَلّه في حاله ، المتسكع في أمره : طِبْ نفساً ، وازدَدْ بالله أُنْساً ، فما فتح عليك بابَ ذكره إلا وهو يريد أن يجعلك من خاصته ، ولا كرّر اسمه على لسانك إلا وهو يريد أن يدخلك في خدمته ، ولا برّدَ فؤادك بمحنتك إلا وقد رقّاك إلى أوطان خالصته ، ولا عرّفك مواقعَ التقصير إلا وقد عزم على نقلك بلطيف تدبيره ، ولا أطلعك على ثنايا نعمته إلا وقد بعثك على القيام بشكره ، ولا أذن لك في الدعاء إليه إلا وقد ضمن لك التسديدَ فيه ، ولا حملك على الإدلالِ [١٣٤/أ] عليه إلا وقد أذِنَ لك في الانبساط معه ، ولا اختبرك بأمره ونهيه إلا وقد اجتباك لطاعته . ولا نبّهك على فائتك إلا وقد آثر أن تلحقه بمعونته ، ولا قصَّ عليك حديثَ مَنْ تقدّم إلا لتعتبرَ به فيمن تأخّر .

فانظر يا هذا كيف أوْرَدَك رياضَ هذه النعم ، وكيف قلّبك فيها ، وكيف طيّبك بطيبِ روائحها ، وغالب[١] فوائحها . ثم انظر كيف جمَعكَ بعد ما كنتَ متفرقاً ، وكيف نظمك بعد ما كنتَ متبدداً ، وكيف هداك بعد ما كنتَ متحيّراً ، وكيف شفى غُلّتك بعد ما كنت مُسَجّراً[٢] ، وكيف أروى ظمأك بعد ما كنت لاهثاً ، وكيف أولعك بالجد بعد ما كنت عابثاً ، وكيف فتَحَ بصرَكَ على حظّك بعد ما كنت غضيضاً ، وكيف شرَح صدرَك بعد ما كنت مريضاً ، وكيف فتَقَ سَمْعَك بعد ما كان مُرْتَتقاً ، وكيف رتَقَ طبعك بعد ما كان منفتقاً ؟ والله لو ظاهَرك على هذه النِّعَم

---

١ – كذا في ر ؛ ولعله « وغالية » أو « وغالي » .

٢ – ر : مسحرا ؛ المطبوعة : متسعرا ؛ والمسجر : الذي غاض ماؤه ؛ ولا أقطع بصواب هذه القراءة .

الجسيمة ، وعلى إحصاء هذه القِسَم الكريمة ، الثَّقَلان : الجنُّ والإنسُ ، ما قدرت على عُشَيرٍ من ذلك . فاكتفِ أيها العاقل بهذا التنبيه ، واسلل نفسك من هذا العاجل المحشوِّ بالتمويه ، فإن الأمر عن قريب يخلص إليك ، والظاعن بك يقف عليك ؛ فحينئذ لا تستأخر ساعة ولا تستقدم . قد وَعَظَكَ الواعظُ ، ونَصَح لك الناصح ، وأعذرَ إليك المُشفِق ، وإن كان لك رأيٌ في مُهْجتك والخلوص إلى بهجتك ، فبادر .

يا أهل الجفاء ، تأهبوا لقوارع البلاء ؛ يا أهل الولاء ، توقعوا حلاوات الصفاء ؛ يا أهل الغَرَقِ في النعم ، تقربوا إلى واهبها بالهبةِ منها ؛ أيّهـا المُعْرِضون عن الله ، استأنفوا إقبالكم إليه ؛ إنه ما أقبل إليه أحد إلا قبلَه ، ولا قبل أحداً إلا خصه ، ولا خص أحداً إلا اجتباه[1] ، ولا اجتبى[2] أحداً إلا اصطفاه ، ولا اصطفاه إلا ولاّه ، ولا ولّى أحداً إلا تولاه ، ولا تولّى أحداً إلا كفاه ، ولا كفى أحداً إلا ملأ قلبه وجداً به ، وطوّق عنقه حلية منه ، وبسط لسانه في الوصف له ، وأعلى كعبه مُباهاة به . ولا عجب ، فالآلاء منه متتابعة ، والمنائحُ منه متواترة ، والمدائح له كثيرة ، والأفواه بذكره رطبة ، والنفوس لقدرته خاضعة ، والأيدي لبِرّه مبسوطة ، والعيون نحوه طامحة [١٣٤/ب] والآمالُ بجوده متعلقة ، ومظانُّ الرجاء والطمع فسيحة . فلا أثر إلا وهو بادٍ منه ، ولا خبر إلا وهو شائع عنه ، ولا صغير إلا وهو مشير إليه ، ولا كبيرٌ إلا وهو دليل عليه . فهل بقي بعد هذه الصفات وما وراءها مما هو من جنس هذه[3] الهنات إلا فسولتك في نفسك ، وتوانيك في مصلحتك ، واستبدادك برأيك ، وقلة ثقتك بموعودك ، وسوء نظرك في أمرك ؟

---

١ – اجتبى : اختار أو قرب .

٢ – ر والمطبوعة : احتباه ... احتبى .

٣ – ر : هذا .

يا هذا : أما حان لبكيّكم[1] أن تَدرَّ ؟ أما وجب لمغبونكم أن يُبَرّ ؟ أما دنا لغائبكم أن يحضر ؟ اما قرب[2] لسقيمكم أن يستشفي ؟ أما آن لمقصركم أن يستعفي ؟ بلى والله قد حان ووجب ودنا وقرب وآن ، ولكن صدق الله العظيم حين يقول ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين : ١٤) .

أيها النائي عن العرصة ، الجاهلُ بانتهاز الفرصة ، الصابرُ على تجرّعِ الغُصَّة : اشتق إليه واجداً به ، وجِد به والهاً فيه ، ولِهْ فيه متهالكاً عليه ، وتَهالك عليه ناسياً لما عداه ، وامحُ البينونةَ بينك وبينه . أتدري ما البينونة ؟ البينونة هي الكينونة ، هي أنت : أنت الكينونة بآفاتك ، وأنت البينونة بشهواتك . وكيف تجد وقد ضللتَ عنك ، بل كيف تضلُّ عنك وقد وجدتَك ؟ ضللتَ بإرادتك التي غمَسَتْكَ في بحار شهوتك ، فَجِدْكَ الآن بشهادات الحق التي قامت عليك في حالاتك ، فلا سبيل لك إلى الإنكار ، وقد صح منك الإقرار بالاغترار ، في هذه الدار ، بالاستكثار والاستكبار ، مع أهـــل الخسار والدمار .

بالله ، أما تأنف من مشابهة البهائم في السَّرطِ بعد السَّرط[3] ، والثَّلْط[4] بعد الثلط ، والبَلْع بعد البلع ، والجرع بعد الجرع ، والحسا بعد الحسا[5] ، والامتلاء بعد الامتلاء ، والسكر بعد السكر ، والخُمار بعد الخُمار ؟ أما تعاف هذه المزبلة التي قد فغمت[6] أنفك بهذه الأنتان المنكرة ؟ أما تحن إلى الطهارة التي هي حياة

---

١ – بكأت الناقة : قل لبنها أو انقطع .

٢ – أما قرب : مضطربة في الاصل ، والقراءة التي اثبتها مستفادة من قوله فيما بعد – معدداً ما ذكر قبل – : بلى قد حان ووجب ودنا وقرب وآن ....

٣ – السرط : البلع .

٤ – الثلط : السلح ، قال ابن الاثير : وأكثر ما يقال للابل والبقر والفيلة .

٥ – الحسا : اسم للشيء الذي يحتسيه المرء .

٦ – فغمت : سدت الخياشيم .

الأجساد في الظاهر وحياة القلوب في الباطن ، وقد وخطك الشيب ، وأنت مشتمل على العيب ، وخائض في الريب ، لا تُقْلِع عن إصرارك ، ولا تعتذر عن زَلّتك ، ولا تعتبر بمن مضى قبلك ، كأنك لست من طينتهم ، أو كأنك غير جارٍ على شيمتهم ؟ أإخلادٌ إلى الدنيا [١٣٥/أ] وقد علمتَ تقلّبها بأهلها ، وبُغْضَها لساكنيها ، وتخليها في كل وقت عن المقيمين فيها ﴿أوَلاَ يرون أنهم يُفْتَنون في كلِّ عامٍ مرةً أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكَرون﴾ (التوبة : ١٢) ﴿وإذَا قِيلَ لهُ اتّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ فَحسْبُهُ جَهَنّم﴾ (البقرة : ٢٠٦) .

أيها الصاحب بالجنب ، والسامع بالأذن دون القلب : ها أنا قد أعْذَرْتُ إليك فيما أوردتُ عليك ، وإن كنتَ على بعضٍ ما لا أرضاه منك ، ولا أحبه لك ؛ فإن علمتَ أني قد نصحتُ لك ، وأمكنتك من حظك ، فتقبلْ قولي ، وصرْ إلى رأيي ، واعمل بمشورتي ، فلعلي أسعدُ بك إذا سعدتَ بي ، فما لُبْثنا في هذه البلدة الوبيّة ، والمدينة الحرجة إلا كَلَفْتِ اليمين على الشمال ، وكنقرةِ الديك في الماء ، أو كحلم النائم في الليل ، أو كظلٍّ قد أخذ في النقصان ، أو كالتفاتة[1] من مُوَلّ ، أو كتوهّم من النفس ، أو ﴿كَلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَب﴾ (النحل : ٧٧) . هل تحسُّ من غيرك ما مضى ؟ هل تجد من أمرك ما قد انقضى ؟ كذلك لا تحس ولا تجد فيما بقي . وإنما أنت لساعتك ، وإنما ساعتك هي أنت . فَكِسْ وتشمّرْ ، واغضب على نفسك وتَنَمّر ، واعمل على أنك مُسلمٌ في أيدي عُطّابك ، فاطلب النجاة منهم بجميع حولك وقوتك ودهائك ، ولا تدع من الجهد شيئاً فإنك تندم .

يا هذا : أُمَجّد لك ربّك لتشتاق[2] إليه ، وأنشر آلاءه لك لتتوكل عليه ،

---

١ – ر : كالنقابة .

٢ – ر : أتشتاق .

وأصفه لك بالكرم لتثق به ، وأدُلّك على عيبك لتنتهيَ عنه ، وأرْفُق بك في السير[1] لتبلغ المنزل ، وأستجمّك في الحال لتكون على عتاد في المستقبل . فلو كنتُ مأخوذاً بك ، ومطالباً بذلك ، هل كنت أزيدُ على هذه الفنون[2] التي إن كان لي في عُرْضها تذكرة، فلك أيضاً [في عرضها تذكرة][3] وتبصرة، وحظك أوفى ، ونصيبك أجْزَلُ ، لأن الثِّقَل عليّ فيما أقول ، ولعلي أُسأل عن حقائقه، والخفّة[4] عليك فيما تسمع إن جريت على طرائقه ، وتنزهت في حدائقه ، وأويت إلى سُرادِقه .

فيا أيها المكفيّ : اسْعَدْ ، فقد قيل : السعيد من كُفي ؛ ويا أيها المُدْبر : أقبل ، فالمغبوط من أقبل ؛ ويا أيها العاقل : تنبه ، فالمجدود من تنبه؛ ويا أيها الجاهل : اعلَمْ ، فالناجي من علم ؛ ويا أيها العالم : اعمل ، فالراجي من عمل ؛ ويا أيها اللاعب : جِدَّ ، فالمستظهر من جدّ ؛ ويا أيها القائل : توقَّ ، فالمسرور من توقّى ؛ ويا أيها السامع : عِهْ ، فالراشد من وَعَى ؛ ويا أيها الناسك: اثبُتْ ، فالشجاع [١٣٥/ب] من ثبت؛ويا أيها العابد : أخْلِص ، فالمقبول من أخلص ؛ ويا أيها الراقد : احلمْ ، فالهالك من لم يحلم .

اللهم إنّا كيفما دُرْنا فإليك نفيء ، وعليك نعطف ، وكيفما جُلْنا[5] فعليك ندلُّ ، وبك نشرف . اجعل ظنوننا فوق أقوالنا، [وأقوالنا][6] دون أفعالنا ، وأفعالنا كفاءَ رضوانكَ عنّا . وإذا مَقَتّنا فلا تطردنا ، وإذا طردتنا فلا تُهْمِلْنا ، وإذا سَخطْتَ علينا فلا تَدَعْنا ، وإذا قبلتنا فلا تَرُدَّنا ،

---

١ – ر والمطبوعة : السر ؛ وبلوغ المنزل يتطلب رفقاً في السير .

٢ – روالمطبوعة : الفتون .

٣ – وقوع واو العطف قبل « تبصرة » جعلني أقدر محذوفاً في هذا الموضع .

٤ – روالمطبوعة : والحفه؛ قلت : والخفة في السماع تقابل الثقل في القول .

٥ – ر : حلنا .

٦ – زيادة لازمة .

وإذا أطعناك في بعضِ ما دعوتنا إليه،فلا تؤاخذنا في بعض ما قصّرنا فيه ، مَن ذا يفي بحقك كله ؟!

إلهنا : ما شئت فاصنع ؛ لا بدّ من العفو والعفو خُلُقٌ من أخلاق الكرام ، وأنت أكرم الأكرمين . فاعفُ عنا يا ذا الجلال والإكرام .

أيها الحاضرُ بجثته ، الغائبُ بهمته ، الناظر في عِطْفه ، المتغافل عن سخفه ، العاشق لعاجلته ، الذائقُ سَمّه بيده ، الساهي بيومه عن غده ، الظانّ بنفسه أنه ذو حَوْلٍ وقوة : سوأةً لك ، والسوأةُ عليك مشتملة ، وأفٍ عنك ، وأنت لذلك أهلٌ ؛ أما تستحيي أن تكيسَ[1] في معاملتك بالدرهم والدّينار ولا تحابي منهما بالحبة والذَّرَّة ، وترى أن ذلك منك غَبْنٌ في الرأي ، ثم تتباله في معاملة ربك بما يزلفك من الجنة فيزحزحك من النار ، وتغضّ بعد ذلك عن سهوٍ كثير ، بـــل تغالطُ نفسَكَ وتستخدمُ عقلك لشهوتك ، وتُعَفِّر خدك للذتك ، وتجزع من فوت أيسرِ حاجة لبدنك في مأكلٍ أو مَشْرَب أو منكح ، ولا تبالي أن تكون ممقوتاً عند ربك الذي خلقك فسوّاك ، وكنفك وآواك ، ومنحاك وحباك ، وحفظك ورعاك ، وحاطك وكلاك ، وعلّمك وهداك ، ورفعك واجتباك[2] ، وأعلاك من حيز إناك[3] . أفهذا[4] من العقل الذي تَبَجَّحُ بنوره بين أصدقائك وأعدائك ؟ أهذا من الحسّ الذي تعامل [به] خاصتك وعامتك ؟ أهذا من الحزم الذي تدّخره لدهرك ؟ أما ترى أنيابَ الرزايا بارزةً متتابعة ؟ أما ترى عبر الليالي متشايعة ؟ أما ترى الغير مُحْدقة ؟ أما ترى الآفاتِ

---

١ – كاس يكيس كيساً وكياسة : كان كيساً أي عاقلا ، متوقداً ، خفيفاً ؛ وقد ذكر أبو حيان في الامتاع (١ : ١٨) ان الناس في عصره كانوا يمدحون المرء المدقق بقولهم « ظاهر الكيس ... جيد في الاستخراج مدبر للاموال ... الخ » .

٢ – ر : واجتباك ورفعك .

٣ – لعله يعني : من حيز الجسد ؛ وفي المطبوعة « من حين أتاك » ؛ والقراءة التي أثبتها تقديرية .

٤ – ر : فهذا .

متوالية؟ أبك عمى، أبك صمم، أبك بله، أبك جنون؟ لا والله ما أنت إلا سويّ بصير، كيّس خبير. ولكنك تؤثر زهرة الحياة الدنيا البائدة الفانية على غضارة نعيم الأبد، وإني لأظن أن هذا من سقوطك [١٣٦/ أ] من عين الله، ومن شرودك عن الله [...] على الله[1]. ومن قلة تمسكك بأمر الله. ومن عجبك بنعمة الله، ومن قرين السوء الذي يصرفك عن صحبة الله، ومن شؤم ناصيتك في مخالفتك لله.

يا هذا: إلى متى هذا التمطي، وهذه التكأة. وهذا التجبر. وهذا التكبر. وهذا البأو. وهذه القسوة. وهذه الفظاظة؟ أما أنت من طين؟ أما أنت من ماء مهين؟ أما أنت على بساط رب العالمين الذي لو أمر أضعف جارحة لك لأسلمتك. ولو شاء لاختطفك من مأمنك؟ أتجحد قدرة الله النافذة فيك؟ أتنكر إحاطته بك؟ أتظن أن إمهالك إهمال. أو حلمه عنك إغفال؟ كلا والله، ولكنه يتأنى ويرفق، ويعيد ويبدي. ويدعو ويكرر، ويستر ويرحم، ولصنع ذلك منه مألوف، وهو به معروف. ولكنك على نفسك عسوف، وعلى ما فاتك من حظك أسوف.

اللهم فجد علينا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله.

يا[2] هذا: إنما أنت في حال كرقدة في الحلم، أو حلم كاللمح، ثم الاطلاع على نعيم كنا نتهالك ها هنا بشبائهه لا بحقائقه، ونحن على أسمائه لا على معانيه، ونظن أنا قد وجدنا عزيزاً وملكنا نفيساً. وأي عز لما يبتذله الليل والنهار؟ وأي قدر لما يتخونه القياس والمقدار؟ وأي شرف لما لا يثبت في لحظته على حال؟ في كل آن اسم، وفي كل أوان رسم، أعني أنه يقال له

---

١ – لم يترك الناسخ بياضاً قبل قوله « على الله »، فاما ان تكون العبارة زائدة – سهواً من الناسخ – وإما ان يكون في النص نقص مثل « ومن تكبرك ...».

٢ – من هنا وحتى نهاية الرسالة (ص: ٣٣٨) مكرر وقد ورد قبل (ص: ١٧٣ – ١٧٤).

غريض وذابل ، وجَديد وخَلَق ، وشاب وهَرِم ، ومُقْبِل ومُوَلٍّ . على هذا ، فإن الأمثال بمثله [مضروبة][1] ، والأدلة على نظائره منصوبة ، ولكن القلوب عن التحقق بها محجوبة ، والنفوس في طلب ذلك منها وفيها مكروبة .

يا هذا : عضَّ على ناجذك عند مرارة الكون[2] العارض فإنه كلَفْتَة لافت أو كعطفةِ[3] عاطفٍ ، فإن ذلك يُهوِّنُ عليكَ الصبر ، ويُفْسِحُ منك الصدر ، ويزيدك ثقةً بالعِوَض ، وزهادة في هذا العَرَض[4] .

يا هذا : إن كنت تحب نفسك فلا تحفر لها مَغْوَاتِها بيدك ، ولا تكسبها عارَك بجهدك . واستيقنْ أنَّ محبةَ النفسِ في معرفةِ النفس ، وأن في معرفة النفسِ استكشافاً لمحلة القدس . أعني أنكَ إذا لهجتَ بذلك عرفتَ الله الذي به قَوامُ النفس ، وإليه مصيرُ الجنّ والانس . وفي هذه المسألة دقائقُ [١٣٦/ ب] من البحث ، وغوامضُ من النظر ، وغرائبُ من الجواب ، وبدائعُ من الإفصاح ، والله المستعان .

- ٤٨ -

يا هذا : تعبد لله متأبدا ، وتأبَّد لله متعبداً ، وتأيَّدْ في طلب ما لديه متأوِّداً ، وتأوَّدْ في التماس ما قِبَله متأيِّداً . أتدري ما التعبّدُ وما التأبّد وما التأيُّد وما التأوُّد ؟ إني أظنك لا تدري ، فما أسلموك في ديوان الأدب ، ولا حَلَّوْك بحلية ذوي الشكل والظَّرفِ والأدب . التعبُّد ظاهرٌ وباطن : ظاهره أن تكون بخلقتك عاجزاً ، وباطنه أن تكون بهمّتك لمن أنت له متعززاً ؛ والتأبد أن تكون

---

١ – زيادة مما مر قبلا .
٢ – ص ١٧٣ : الكدر .
٣ – ص ١٧٣ : عطفة .
٤ – ص ١٧٣ : الغرض .

في بني جنسك متميزاً ، ومن التشبـّه بما هم عليه سراً وجهراً متحرزاً ؛ والتأيّد أن تطمئنّ إلى خـَطـَرات الحقّ مجتنياً ثمرات الصدق ؛ والتأوُّدُ أن تذلّ طالباً فتعزّ واجداً . فإنك إن انتظَمْتَ هذه الحالات التي ذكرتها لك بأسمائها . وقفتَ عن قريب على غيوبها وأنبائها . فحينئذ ينثالُ عليك من معين قُدْسه مايطويك عن الكون ، وينشرك بين الملأ الأعلى . وهناك تشقّ الجيبَ شقاً ، وتجدُ ما تجده يقيناً وحقاً . وتنالُ ماتناله عياناً وذوقاً . ثم تطعم وتُسقى ، وتنعم خـــالداً ولا تشقى .

اللهم : إنّا نعتزي إليك عالمين بشرفنا في ذلك . ونتحدثُ عنك بصفاتك واثقين بأنك فوق ما هنالك . ونضرعُ معترفين بالحاجة إلى ما لديك لتنقذَنا من هذه المهالك ، ونقترحُ مدلّين عليك أن تصحبَنا في تلك المسالك ، وتنزلَنا[1] في برد ظلالك . مغضيا عنا فيما سلف منّا ، آخذاً بالجود الإلهيّ معنا ، ناظراً بالعطف والرأفة[2] إلينا .

اللهم : إنّا بقدرتك ظهرنا ، وعلى مشيئتك جرينا ، وإلى إرادتك انتهينا ، وبعلمك فينا حدّثنا ، وإن كنا قد تركنا أمرَكَ وخالفنا . ولولا ذلك ما شهدنا بالتقصير ولا اعترفنا . وعلى كل حال : حُكْمك فينا أنْفَذُ من حكمنا ، وقضاؤُك أجرى علينا من قضائنا ، وقدرتك أشدُّ إحاطةً من قدرتنا عـــلى أنفسنا . فأيُّ نسبة الآن لنا منا ؟ وأيُّ بَسْطَة لنا علينا ؟ فبحقّ إلهيتك في هذه الصفات التي نَشَرْنا وطَوَيْنا ، وبحقّ هذه الكَلمات التي ألهمتناها حتى روينا ، إلاّ تجاوزت عنّا ، وسامحتنا في معاملتنا ، وأريتنا في حضورنا بين يديك ووقوفنا : من جُودك الغامر لنا ، وفضلك [١٣٧/ أ] المنسكب علينا ، وخيرك المحيط بنا ، حسبَ ظننا ويقيننا . وأشهد أنك لم تُنطِق بهذا الدعاء ألسنتنا إلا

---

١ – ر والمطبوعة : وتنزل .

٢ – ر والمطبوعة : والراحة .

وأنت تحبُّ أن تستجيبَ لنا ، يا مجيبَ الدعواتِ في الخلوات ، على كثرةِ الخطايا والزّلات .

- ٤٩ -

واهاً لنفس مُنيت بهوىً شديد ، ورُميَتْ عن مدىً بعيد ، وفُتنتْ بقلبٍ عميد ، وفطنتْ لقائد[١] شريد ، حتّى شاهدت في اختلافِ شكولها ، واختلافَ انقطاعها ووصولها ، معارفَ حالٍ في مناكر أُخرى ، بين ظنٍّ موسوم بيقين ، وعلمٍ مرسومٍ بتلقين ، ورأيٍ مُخَوَّض في الاهواء ، وعيب مُقَوَّض للأكناف والأرجاء : مَعارضُها كونٌ بائد ، ومرافضها بَوْنٌ زائد ، ومشارعها لَهَفٌ زائد[٢] ، ومطالعها تلف عائد . فلا جَرَمَ سُرورُها لُمَع ، وحزنها فِظَع ، وأمانيُّها خُدَع ، ومواردها جُرَع ، وحليتها جُزَع ، وخَلْوَتها فَزَع ؛ ولسانها عيّ ، وشأنها غَيٌّ ، ونشرها طيّ ، وبَذْلها لَيّ ، وعِزُّها ذل ،ومركزها قل ، وكلّها كلّ ، ونومها كَلَف ، ويقظتها كُلَف ، ووعدها سلف ، وانتظارها تلف ، وظاهرها حسرة ، وباطنها حيرة ، ووصالها فرقة ، وفراقها حُرْقة ، وروايتها تكذيب ، وكرامتها تعذيب ، وفطنتها تحبيب ، ونُقْلَتها ترتيب[٣] ، وسكرها خطر ، وصحوها بَطَر ، وفعلها عدوان ، ودعواهــا بهتان ، وشكرها كفران ، وأولها خداع ، وأوسطها متاع ، وآخرها ضياع ، وكلها في كلّها قناع ورواع[٤] .

---

١ - رسمت القاف في ر بصورة العين .

٢ - كذا كرر لفظة « زائد » ، وهو غير جار على المألوف من أسلوبه .

٣ - وفطنتها ... ترتيب : لم يبن لي وجه الصواب في هذه العبارة .

٤ - لعله : قنوع ورواع ؛ والقنوع : التذلل أو الطمع ، والرواع : الفزع .

أتدري لم هذا كله ؟ هذا لأن مقاصدَ ضمائر الخلق سابحةٌ في آفاق بحارِ العقل ، لا لغايةٍ باديةٍ يقصد إليها ، ولا لآيةٍ[1] هادية تَدُلُّ عليها ، ولكن لسّرِ التهمَ الأسرارَ ، ولمعنى هتك الاستار[2] ، وعائقٍ[3] منع من الاستخبار[4] والاستكبار ، وحاجزٍ وقف من دونِ الاسترسالِ والاستظهار ، وسبق كُلَّ فئة سباقاً عنيفاً ، وحجبَ الجميعَ عنها حجاباً كثيفاً ، وتفــرد هو عن ذلك تفرداً لطيفــاً .

نعم ، لوّح بعضَ الأمر باليقين ، وطَوّح كله ، وأعلن لغة[5] الأمــر ، وأسرَّ خالصة المراد ، ودعا بلسان التكليف ، وحجب بغيب العلوم ، ووهب عارضَ البقاء ، ووشّحه بثابت البلوى [١٣٧ / ب] وأنعم بمحبوبِ الحياة ، وحفّها بمكروه التنغيص ، وأسلف المنى بالوعد ، وأنسأ الإنجاز بالتسويف . ومَنَّ بفروع القوة ، وفَطَرَ على أصول الضعف ، وزيّن بالقدرة [الظاهرة][6] وفضح بالعجز الخافي .

نعم ، وطوى الأسرار في الأسرار ، وطمس صوّاها ، وأخفى الآثار في الآثار ، وأدمج أولاها في أخراها ، وعمّ من وجه اشترك الجميع فيه ، وخصّ من وجهٍ اضطرب الكل عليه . فالحسُّ مشغولٌ بزينة عالمه ، والعقل مبهوتٌ في بدائع صنعه ، والنفس وَلْهَى مع دوام الحاجة إليه ، والحجةُ داحضةٌ عند محاولة الاعتراضِ عليه . فلا عجبي مما رأيت منه ، عجبي مني[7] فيه بمــــا أرادني مني .

---

١ – ر : لأند ؛ والمطبوعة : لأيد .
٢ – ر والمطبوعة : الأسرار .
٣ – ر : وعالب ؛ المطبوعة : وغالب .
٤ – رسمها غير واضح تماماً في ر .
٥ – ر : لعنة .
٦ – زيادة يقتضيها السياق لابراز التناسب .
٧ – ر : ممن .

فقل لي الآن : كيف أرجو شفاء ما بي ودائي من دوائي ، وعلّتي من طبيبي[1]؟ اتصلت الحروف بالحروف ، وغارت الظروف في الظروف ، واشترك المستورُ بالمكشوف ، والتبس المنكورُ بالمعروف ، واشتبهت الصفاتُ على الموصوف ، وعاد خفيُّ الغيبِ يخطبُ ناصعَ التسليم ، وجليُّ الشاهد يُشْكِلُ في حشو المكتوم ، ويشير إلى الفضلِ الواقع بين المخصوصِ والمعموم. فأين الفضلُ إلا عند اللافظِ به ، المعتاد له ، المغروز فيه ؟ فأما عند من علم أن العينَ دنت مُشَوَّقة ونأتْ معوّقة ، وبدأت غائرة وعادت مطبقة ، واستقلَّتْ قاهرة وأغارت محقِّقة ، وحنّت مطمعة وأفرجت[2] مُؤْيسة ، وأراغت مُحَبِّبة وأزاغت مخيبة — فلا .

اسمعْ حديثي وأنت حاضر ببالك ، ومحصِّلٌ برويّتك ، ومنصفَ بفضلِ عدلك؛ أنّسني بحاضر البقاء ، وأَوْحَشني بوارد الفناء، واسترقّني بنصح العقل، وأعتقني بعشقِ التحير ، وألاح الأمرَ لمفهومه جهراً ، وزوى عن المراد بمعلومه سراً ، وقربني من شاهد الفحوى ، وبَعّدني من غائب النجوى ، وقطعني بينهما بتحمل البلوى ، وفضيحة الشكوى ، وفقد العدوى ، واختلاف الفتوى . فلا لي مني وَطَرٌ مقضي ، ولا فيَّ عنّي خبرٌ مَرْوِيّ ، ولا عندي به شبح مرئي ، ولا معي بي معنىً مرعيّ . بلى : كلّي عند الغاية مَسْبيٌّ مَرْميٌّ ، وجميعي لدى النهاية مَنْسِيٌّ منفي ، وبكلِّ داهيةٍ شنعاءَ مرادٌ ومَعْنِيّ ،وبكل آبدةٍ شوهاءَ مقصودٌ ومَحْوِيّ .

فأين نصيبي لنفسي ؟ وأين نسبتي إلى بني جنسي ؟ وأين موقفي وتوقفي ؟ وأين تصرفي [١٣٨/ أ] وتصوفي[3] ؟ وأين تعسّفي وتفلسفي ؟ وأين ترفّقي

---

١ – انظر ما سبق ص : ٥٥ ، س : ٣ .

٢ – ر : وافرحت ؛ وافرجت : انكشفت .

٣ – ر : ولصوقي .

وتحققي ؟ وأين تحرقي وتشوقي ؟ و [أين][1] بياني وتبيي ؟ وأين استنباطي وفطني ؟ وأين سناني ومِجنّي ؟ وأين أيني وإنّي[2] ؟ وأين كَوْني وعوني ، وعيني وعني ، ومنّي وكأنّي ؟ هيهات ! نَضبَ ماء علمي ورسمي ، وباد شاهد حكمي وقَسمي ، وسامرتني الأماني مُخيِّلةً لي آجلي في ثِنْيِ عاجلي ، وتجمعت لديَّ الأسبابُ بالأملِ البسيطِ فارتَهنتُ بها في صورة مخدوع حتى رفضتُ يقيناً يشعرُ به الحسّ ، لمظنونٍ[3] لا يصل إليه الحدس ، وانتزحتُ[4] عن موجود يشهد به العيان ، لمخبوٍّ كباً به البيان[5] والبرهان . فلهفي الآن على واحد ما نلته حتّى فاتني ، ولا حييت حتّى أماتني ، ولا بنْتُ له حتّى أبادني ، ولا بدتُ به حتّى أعادني ، ولا أعادني حتّى أفادني . سلام عليه وإن كثر جوره . وتحيةٌ لـه وإن لم يُبلَغْ غورُه ، ومرحباً بإقباله وأن أضْنى ، وتسليماً لحكمه وإن أفنى .

حَدِّثوني عن معنى يزعجني ومع إزعاجه يعجبني ، وأعشَقُه ويعشقني ، ومع عشقه وعشقي يُتعبني ؛ أمرٌ خارجٌ عن العادة[6] ، وغريبٌ في التعارف ، ومُنْكَرٌ عند الجمهور .

وأعودُ فأقول : الويلُ لي أن أعرضتُ عن الكنه مشرئباً إلى الطمع في ظهوره لي ، بل الويل لي[7] إن أيستُ منه نفوراً مما يجني عليّ ، بل الويلُ لي إن رُمْته بشاهدِ الرسم ، وشائع المجاز ، وموضوع الأصل ، بل الويل لي إن فاتني

---

١ — زيادة لازمة .
٢ — واني : مكررة في ر .
٣ — ر والمطبوعة : كالمظنون .
٤ — قد تقرأ في ر : وافرجت .
٥ — ر : المحبر كيله البيان ؛ المطبوعة : المخبر ليلة البيان .
٦ — ر والمطبوعة : العبادة .
٧ — ر والمطبوعة : لمن .

مع حضوره وظهوره ، كيفما أشرت إليه بإصبع ، وأصغيتُ إليه بسمع ، أو سدّدتُ نحوه بطرف ، أو نَحَوْتُه بقلب ، أو نعتّه بلسان ، أو نشرته بذكر ، أو عنيته بفكر .

حقاً أقول ، وبالحقّ أصول : شُغْلي بأمره على حد الامتثال إعراضٌ عنه ، وانقيادي لإرادته تحككٌ به ، وتعززي ببادي حاله جميلٌ بعاقبتي ، واستتاري عني إشراكٌ بالمطّلع عليّ ، وانتشاري بصفاتي عشق منّي لجوهري ، وخبري عن فنائي وِجْدان لما بقي مني ، وطِماحي نحوي سُكْرٌ قد غلب علـيّ ، واستسلامي إظهارٌ لعجزي ، واستمساكي احتياطٌ على تعززي[1] ، وإفراطي في القول عدولٌ عن منهجي اللائق بي ، وإسرافي في الاعتذار تشاكسٌ في خلقي ، وتجلّدي على من به جَلَدي تَعَرُّضٌ لِقَطْع مادّته مني ، وظنّي في ظنّي أني مصيبٌ في ظني [١٣٨/ ب] وبالٌ عليّ ،ونكرتي في معرفتي مقام لا ثباتَ لي عليه،ومعرفتي في نكرتي بابٌ لا سبيل لي إليه،واستخفائي في بروزي أمرٌ لا قرارَ لي لديه . وما حيلتي ، وجملتي رهينةُ ملكته[2] ، وأسيرةُ قبضته، وواقفة عند حدود مشيئته ، وجاريةٌ على تصاريف قدرته وتكاليف حكمته ؟ وإن كانت الإضافة عاريةً عندي، والنسبةُ لاصقةً بي ، والدعوةُ راجعةً عليّ ، وكنتُ وحدي في مصدري ومَوْرِدي ، وفقدت وجدي في وجدي بما غاب من مشهدي ، ووجدت فقدي في فقدي بما تذكرت من معهدي .

أتدري ما الذي قيل لي ؟ قيل لي : هيهات ! هب للواهب ما وهب لك ، فإنه مردود إليك بشرطِ الشفقةِ عليك ، وأنت مُحْبىً به على طريق المكافأة . فإن كان هذا ممحواً بعزّ الجبروت ، ممحوقاً في شاهد الملكوت [فإنما][3] لتكون

---

١ – ر والمطبوعة : معزى .

٢ – تقول هو ملكة يمينه أو ملك يمينه يعني ما يملكه المرء ، وفي ر : ملكه وهو صواب ، إلا أن المؤلف يلتزم السجع هنا .

٣ – زيادة تقديرية .

في كونك غيرَ كائن ، وتظهرَ في أينك غير مُخبر ولا مُعاين ، وتبقى به له غير مواصلٍ ولا مباين ، وتنتصب عنه غير خائن ولا شائن . وهذا كلام يُصِمُّ الأذنَ عند السماع ، ويستنفدُ الذهنَ بعد الفكر ، ويجلبُ الوَسْواسَ مع التعقب ، ويخرج[1] عما عليه الناسُ بالتعارف .

فما أصنع ؟ قد كان ما كان ، وطغى اللسان بما زان وشان ، وغارت العينُ في الأعيان ، ولم يبقَ الإنسان[2] بما هو به إنسان ؛ وقُلْتُ ما سمعتُ ، وبلَّغْتُ ما حملت ، وأدَّيت ما أودعت : إن كنتُ أسأت فبعد اللُّتَيَّا والتي ، وإن كنتُ أحسنتُ فبعد سوابق غيب لا يحيط بها همّي وأمّي ؛ وان كنت ما أحسنتُ بل[3] أسأت ، فبعد أسرارٍ جلَّتْ[4] عن شهادتي وغيبتي .

نعم ، وقيل أيضاً : أتحبُّ أن تصيرَ إلى ما تتمنى بكل مَعْنىً ومَرْمىً ، وبكل مرقى ومَعْلى ؟ قلت : نعم ، ومَن لي بذاك ؟ وأنا دائمُ الدؤوبِ في البلوغ إلى هناك ، قيل لي : الفظ كُلَّك عن هذه الجَوْبة[5] ، وارفُضْ عينك في تيه الغيبة ، ثم انفض الخلقَ بيد الخيبة ، ثم الحظ الحقَّ بظاهرِ الهيبة ، ثم اقطع الطمعَ عن الاوبة إلى هذه الحوبة[6] ، ثم افْنَ باقياً به كما بقيت فانياً بك ، ثم افن أيضاً عن فنائك ببقائه لك لا ببقائه له ، حتى ينقطعَ نسبك عن لفظ مُغَيَّر ، ويدْرسَ خبرك بكل معنىً مزوَّر ، ويعفو أثرك عن كل علم مُصوَّر ، ويتوحد كُنْهك عن كل مراد مَحبَّر .

---

١ – ر : وخرج .

٢ – ر : لانسان .

٣ – ر : فلا .

٤ – ر والمطبوعة : حلت .

٥ – الجوبة من الأرض الدارة أو فجوة بين البيوت ، واذا صحت القراءة كان ذلك كناية عن هذه الأرض ، أي الدنيا ؛ وقد تقرأ « الحوبة » – بالحاء المهملة – ويكون معناها صلة القرابة ، أي اقطع صلتك بأقرب الناس اليك .

٦ – الحوبة : الحال ، ولا يقال إلا في الشر .

حبيبي : دَعْ [ذا][1] أيضاً ، والْهُ عما مضى وانقضى ، واعمل عملا تصلُ به إلى الرضى ، وإن عُرِضْتَ على جمر الغضا . [١٣٩/ أ] واعلم أنه غلط الناظر[2] إليه ، وأشرفَ الغالطُ عليه ، ونعتَه مستشعراً له ، وهو مِن دونه قرباً ودنواً ، ووصفه قائساً إلى خَلْقه ، وهو مِنْ ورائه بعداً وعلواً . ليس القربُ والبعدُ ها هنا محمولين على رسم شاهدك ، وجاري عادتك ، ومعروف استعمالك ، لكنهما[3] منسوبان إليك بحكم الاصطلاح والاتفـاق ، ومنفيّانِ عنه بحقّ التنزيه والاستحقاق . فإياك أن تقفَ مع اللفظِ القصيرِ فتُسْحر به عن المعنى العريض ، فإن اللفظَ للعامة ، والمعنى للخاصة ، وما يرتقي عنهما فهو سُبُحات الإلهية ، ونَفَحات الربوبية . فانظر أين أنت ، وكيف أنت ، وما أنت ، ومن أيِّ بنتَ ، وبايٍّ كنتَ ، وما الذي تريدُ ، وما الذي يُراد بك ؟ وهل حصولك هنا لمحصول ، وهل بعدَ فُصولك مِنْ ثَمَّ وصُول ؟ ومهما شككتَ فيه فلا تشكنّ فيما أوحي إليك ، وأشير به عليك ، فـإنه غُرِفَ من غدير العارفين[4] ، وقُطِفَ من غُصْنِ شجرة الفاضلين ،واقتُبِس من حَضْرة الحاضرين ، ولُقِّن من أفواه الصادقين ، واستُمْلِي مِن عقول المُبَشَّرين بالحكمة واليقين ، وحُصِّلَ عن قَوْمٍ كرام أمجاد مشفقين[5] . حُصِرَ البيانُ عن « لِمَ » وأغري به أمراً ، وأُسِرَ الوهمُ عن « كيف » وَسُلِّطَ عليه سرّاً ، وقُيِّدَ الفهمُ عند « حيثُ » وسُيِّبَ فيه مكراً ، ونهي الضمير عن « لو » وسيق إليه جوراً ، وقُطِـعَ اللسان عن « ليت » واستنطق به عذراً ، وصُرِفَ الجميع بالحروف واستولي عليه قهراً ، وليس هذا إلا لخافية

---

١ – زيادة لازمة .

٢ – ر : النواظر .

٣ – ر : لكنها .

٤ – ر : الغارقين .

٥ – لعل صوابها : متقين .

مسلّمة عند طولِ السؤال وتواصلِ الجواب ، واختلاف المقال في الخطأ والصواب .

اللهم : اجعل قولنا موصولاً بالعمل ، وعملنا محقِّقاً للأمل ، ولا تضايقنا فيما ننحوك به ، ونتقلبُ لك فيه ، وكَشِّفْ علينا سِتْرَك ، واخصصنا بما هو أليقُ بك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٥٠ -

المُستغاثُ[١] بالله من قلبٍ لا عهدَ له بالرقة والرأفة ، ومن نفسٍ لا خبر عندها[٢] من التقرّب واللطافة ، ومن عادةٍ بريّة من المروءة والظرافة ، ومن أذنٍ قد ألفت[٣] التزويرَ والخرافة[٤] [١٣٩/ ب] ومن جملةٍ قد اشتملتْ على الآفة بعد الآفة ، ومن تفصيل قد أشرف على المخافة بعد المخافة .

يا هذا : إذا كان هذا خبري عن باطن الأمر ، فلمَ تخادع نفسك في ظاهره؟ وإذا كان هذا إقراري من سرّ الغيب ، فلم تهجم على بادي الشهادة ؟ وإذا كان هذا شرحي لخفيّ القصة ، فلم تذهب مع جَليّ الحال ؟ كأنك [قد][٥] تستغشُّني فيما أقول ، وكأنك[٦] تنصح نفسَك[٧] فيما تسمع ؛ هيهات ، للقول شروطٌ لا يفي بها مكلمك ، وللسماع حدود لا يملكها مثلك . فكم تدوربفقرك

---

١ – معظم هذه الرسالة ثابت في نسخة ل (ق : ٦٤/ب – ٦٧/ب) بعنوان « الشكية بلية ، من الاشارات الالهية » .

٢ – ل : لها عندها .

٣ – ل : ألف .

٤ – ر : والجرافة .

٥ – زيادة من ل .

٦ – ر : فكأنك ، واثبت ما في ل .

٧ – ر : لنفسك ، وأثبت رواية ل .

على فقر مثلك ؟ وكم تغترّ بمغترٍّ بغيرك ؟ وكم تظن أنك مُتَقَدِّم[1] وأنت متأخر ؟ وكم تحسب أنك في أعلى علّيين وأنت في أسفل السافلين ؟ فإنْ مَلَكَتْكَ الأنفة مما تسمع ، وطارت في خيشومك الخنزوانة[2] مما ترى ، فقم بحقٍّ ما بدا لك مما لا شك فيه عندك ، ثم تعمقْ بعد ذلك في حقيقة-البادي لك فانظرْ إلى وجدك به ، ووجدانك له ، وجِدّتِك فيه . فإنك إذا تصفحتَ هذه المثاني بعُرْفٍ لا نكر فيه ، واستيقنته[3] بعلمٍ لا جهلَ معه ، وتوجهتَ نحوه بسعيٍ لا فتور به ، صَدَق رائدك ، ورَشدَ قائدك ، وقوي ذائدك ، والتقى عليكَ باديك وعائدك ، وسلمتَ في مرامك من المرام ، وسعدتَ في يقظتك والمنام .

يـــا هذا :

يُؤيِّسني فيُطْعمــني بوَصْلٍ ودُون وِصاله وَقْعُ النِّصالِ
بنفسي مَن يُبَلْبِلُني هَـــواه ومَنْ ذكراهُ موصولٌ ببالي[4]

يا هذا : أتدري أيَّ غاية صُمِدتْ بك ؟ وإلى أيِّ عاقبة أُخذ بيدك ؟ وأي سرٍّ أودعَ صَدْرُك ؟ وأيَّ كلمةٍ أُنْطِقَ لسانُك ؟ وبأيِّ ميلٍ كُحِل طَرْفُك ؟ وبأيِّ يُمْن عصبت ناصيتك ؟ وبأي غناء أُثير طربك؟ وبأي لغةٍ شُوِّقَ قلبك ؟ وبأي نورٍ أُبرزَ كلك ؟ وبأي وديعةٍ خُصَّ بعضك ؟ وعلى أيِّ روضة فُتح بصرك ؟ وبأي شراب بُرِّد غليلك ؟ وإلى أي تحفة مُدَّتْ يدك ؟ وبأيِّ هديةٍ ملئت كفك ؟ وبأيِّ تحيةٍ تُلُقِّيَ وجهك ؟ وبأي توفيقٍ حُفِظَ

---

١ – ل : مقدم .
٢ – الخنزوانة : الكبر .
٣ – ر : واستنقيته ، ولم ترد هذه العبارة في ل .
٤ – ر : ببال .

أمرِكَ ؟ وبأي عتاب خوطب ضميرك؟ [١٤٠/ أ] وبأي لطفٍ قويَ رجاؤك ؟ والله ما تدري ؛ وإنما أحلف لعلمي بسَهْوك ، واطلاعي على لعبك ولهوك . وما يصرفني عن الرحمة لك والغيظ عليك إلا ما أتيقنه عن خاصة حالي دونك . ولو أنصفتُك ، كان حيائي منك يشغلني عنك . ولكن للخسـارة إثارة ، وللإثارة أثارة ، ومع كلِّ حلاوةٍ مرارة ، وعند كل لذة غرارة ، وفي كل قَدْحةٍ شرارة .

يا هذا : القولُ حُجَّةٌ على القائل متى لم يؤيده[1] بما يحققه ، والسماعُ وبالٌ على السامع متى لم يؤكده بما يشهدُ الوجد به . على أن السكوتَ على التقصير رضىً به ، كما أن الكلامَ عليه انغماسٌ فيه . وكما أن القولَ لا يخلو من فتنة الزخرفة ، كذلك السكوتُ ليسَ يعرى من محنة اللفلفة[2] . وإذا كان[3] الكلام والصمت مَحْشُوَّين بالبلاء ، فبلاءُ اللسانِ أشقى لكمدِ النفس ، وأرخى لعنان اليأس[4] . وبعدُ ، فالشَّكيَّة بلية ، والبلية أذية ، والنفسْ بين هذه وتلك شقيّة . إلا أن تدركك الرحمةُ ممن وسعت رحمتُه[5] كلَّ شيء ، وأحاط علمُه بكل شيء ، وقدر على كل شيء ، وانقاد له كل شيء .

يا هذا : أين عِزّةُ الربوبية الصادرة عن القدرة التامة ، من ذلّة العبودية الواقفةِ على العجزِ البادي ؟ جَلَّ ربك عنك ، وبان فيك منك ، وظهر عليك لك . فاشهد الآن ما حَلاّك به[6] ، واشكره على ما آتاك من لَدُنْه ، وأنكِر في

---

١ – ر : يؤيدها ؛ والتصويب عن ل .

٢ – ل : الفقفقة ؛ واللفلفة : العي .

٣ – كان : سقطت من ل .

٤ – ل : الناس .

٥ – ل : رحمته وسعت .

٦ – به : سقطت من ل .

لمعرفته[1] سواه ، واعرِفْ في نكرته[2] هُداه ، واستخلص إشارتك من كل بادية[3] حتى تذوق حلاوةَ ما خُصِصْتَ به ، وتجدَ حاصلَ ما ظهرتَ من أجله . فإنك إن قَرَعْتَ هذا الباب المعمورَ فُتِحَ لك ، وإن لزِمْتَ هذا الجنَاب النديّ أقبل عليك ، وإن صَبرْتَ على الخدمة حُمِد أثرك ، ولعلك بعد ذلك عن قريب تُحيَّا بتحية الملوك ، وتتوّجُ على سرير الملكوت ، ويقال لك : تَمَنَّ وسَلْ ، وتحكّم وقُلْ[4] ، وارقَ وابْقَ ، وجِدْ وجُدْ ، فطالما طلبتنا في حيرتك ، وحننت[5] إلينا بحرقتك ، ونحوتنا بإصبعك ، ولُذْتَ بِفنائنا بخدمتك[6] ، وصدقتنا عن نفسك ، وهجرت من أجلنا من كان كريماً عندك ، وعاديت فينا من كان عزيزاً عليك . فتنعّم الآن بما وصلناك به ، وواصِلْنا عليه[7] ، وثق بأنك عندنا في دار الأُنس[8] وكَنَفِ القرار ، مع الرَّوْح والرَّيْحان ، والقُرْب[9] والرِّضْوان .

يا هذا : أما ترى كيف آسُوْك وأجرحك[10] ، وكيف أوقد عليك وأطفىء عندك ، وكيف أبسط رجاءك ، وكيف أقبض [١٤٠/ ب] قنوطك ؟ هذا كله تَظَهُّرٌ لك واستظهار معك ، لأن العادة خبيثة[11] ، والقرينَ مُهْلِك ، والجارَ

---

١ – ل : معرفتك .
٢ – ل : نكرتك .
٣ – ر : فادية ؛ ل : فائدة .
٤ – ل : ونل .
٥ – ل : وحششت .
٦ – ل : لخدمتك .
٧ – ل : وأوصلناك اليه .
٨ – ل : الامن .
٩ – ل : والفوز .
١٠ – ل : أخرجك وسواك .
١١ – ل : حبيبة .

حاسد ، والصاحب مريب ، وهذه أشياء لا تتزيّلُ[1] عنك إلا بانسلاخك منك : والقول في هذا الباب سهل على[2] المَسْمَع ،ولكن تحقيقه صَعْبٌ في المَرْأى . ولن يتمّ ذلك إلا بعزيمة الأوّاهين المنيبين ، بل لا يتمّ إلا بوثبة الأقوياء المعتزمين ، بل لا يتمّ إلا بانتهاز فرصة اليقين على هدي المتقين ، بل لا يتمّ إلا بإخلاص[3] الموفّقين المخصوصين ، بل لا يتمّ إلا بشعار المخبتين المهتدين[4] ، بل لا يتم إلا بجود رب العالمين الذي هو غاية الطالبين من العالمين .

فهات الآن من نفسك ما وعدتَ به من الصدق في التشمير ، وقدّم على ذلك الجدّ في تركِ التقصير . واعلم واثقاً انك[5] متى تقدمت ذراعاً ، تقدم مرادُكَ منك باعــاً ، بــل متى توجهت إليه[6] قابلك ، ومتى وقفت عنده[7] قاولك ، ومتى أنستَ به فاوضك ، ومتى تركت شيئاً لوجهه عوّضك . ما ضاع عنده عَمَلُ عامل ، ولا خاب عليه أمل آمل . له لطائف لا تهتدي إليها[8] الأماني ، ونِعَمٌ لا يلحقها سير السواني . يمنعُ وهو في منعه مُعْطٍ ، ويَحْرِمُ وهو في حِرْمانه واهب ، ويضع وهو في وضعه رافع ، [ويرفع وهو في رفعه واضع][9] ، ويُذِلُّ وهو في إذلاله مُعِزٌّ ، ويُعْرِض وهو في إعراضه مُقْبِل ،

---

١ – ل : تبريك .
٢ – ل : في .
٣ – ر : بالاخلاص .
٤ – اضطرب ترتيب هذه العبارات المترادفة في ر ، ولكن الاشارات الى ترتيبها الصحيح في الاصل يدل على انها تتفق مع نسخة ل في الترتيب النهائي .
٥– ر : انك واثقاً .
٦ – ر : اليك .
٧ – ل : عليه .
٨ – ر : اليه .
٩ – زيادة من ل .

ويُبْعِد وهو في إبعاده مُقَرِّب . الظاهر عند الخلق بمبلغ علمهم باطن عنده بخافي حكمتِه ، والباطن عنده مجهول عند سواه .

يا هذا : إذا كنتَ تائِهاً في برِّ الحيرة فاهتدِ بنور ما ترى بعينك[1] ، وتسمع بأذنك ، وتجد بحسك ، وتلحظ بعقلك ، وتُدْرِك بنفسك . أما ترى هذه الصور المرئية[2] ؟ أما ترى هذه الأشكال المبنيّة[3] ؟ أما ترى هذه الأصول الممهدة ؟ أما ترى هذه الفروع الموكّدة ؟ أما ترى هذه الحكم المسددة ؟ أما ترى هذه النعَم المُجَدَّدة[4] ؟ أما ترى هذه الاطناب الممددة ؟ أما تسمع هذه النغمات المرددة ؟ أما ترى هذه الأنضاد المؤتدة ؛ أما ترى هذه الأحوال المؤيّدة[5] ؟ أما أنا فأصدقُك ولا [١٤١/ أ] أكذبك ، وأشهدك ولا أغيبُ عنك : وحقِّ الحق ، لقد تناجت الأرواح بصنوف الارتياح ، بين[6] هذا المساء والصباح[7] ، على قلوب كانت دامية بأنواع الجراح . لا جرم تلاءمت الفِرَق ، وتباعدت الحُرَق ، وتوضحت الطُّرُق ، وصار يُرَى بتغميض البصر ما كان لا يُرَى بانفتاح العين ، ويُنال من البعد ما كان لا يوجد بالقُرْب . فهل هذا إلا بتيسير مَنْ له دِقُّ هذا[8] العلم وجُلُّه ، وإليه بعضه[9] وكلّه ، وبه عِزُّه وذله ، وعنده كُثْره وقلّه ؟

---

١ – ر : من عينك ؛ والتصويب من ل .
٢ – ر : هذه الزينة ، والتصويب من ل .
٣ – ر : المبينة ، والتصويب من ل .
٤ – ر : المحددة ، وأثبت رواية ل .
٥ – ر : المؤبدة ، وما أثبته رواية ل .
٦ – ل : بعد .
٧ – ر : الصباح والمساء ؛ وقد جاء الترتيب مسجوعاً في ل .
٨ – هذا : سقطت من ل .
٩ – ل : بعض هذا .

حدثني عنك : هل هزَّ روحَكَ هذا الكلام ؟ وهل حوَّلك من مقام إلى مقام ؟ وهل فرق لك بين اليقظة والمنام ؟ وهل وجدت به شفاءً بعد سَقام ؟ وهل أحسستَ بعافيةٍ بعد آلام ؟

بل حدثني عنك : هل حسبتَ أنك رابحٌ أو خاسر ، وغانمٌ أو غارم ، وقادرٌ[1] أو عاجز ، ومقبولٌ أو مردود ، وموصولٌ أو مهجور ، وحبيبٌ أو بغيض ، وقريبٌ أو بعيد[2] ، ومرادٌ أو مريد ؟ وهل حَدَّثك مُحَدِّثٌ بلا لفظ مَحْكِيّ ، ولا معنى مَرْوِيّ ، ولا قول مسطور ، ولا مُراد مشهور[3]؟ وهل ترنَّمْتَ فيما بينك وبينك بما لا ترجمةَ له بين الخلق ، ولا بيانَ له إلا عند[4] الحق ؟ وهل تلذذت بما أدركت ، في وزنِ ما تحرقت فيما فاتك قبل ؟ وهل أحسست بسلوةٍ عن الدنيا المعشوقة لك مذ[5] كنت ، بما لاح لك من مكنون الغيب مذ[5] بنْتَ؟ غالبُ ظني أنك قد وجدت هذا كله وأُهِّلْتَ لما ستجده بعده . فألِظَّ[6] به ، واعتكفْ عليه ، وارْوَ بشرابه ، وابلُلْ سِرّك بسحابه ، وتَغَنَّ[7] طرباً عليه ، وهِمْ عجباً بما حُبيت به . فإذا فرغت من ذلك — وأنّى لك بالفراغ — فارشش [علينا] [8] ما فضل من الإحسان إليك ، وأنْعِم علينا مما[9] أنعم الله عليك . والسعيد من اقتدى بِرَبه[10]

---

١ — ر : أو قادر .
٢ — ل : وبعيد أو قريب .
٣ — ر : مشهود ، وأثبت رواية ل .
٤ — ل : ما عند .
٥ — ل : منذ .
٦ — ر : فالمظ ؛ والتصويب من ل ؛ وألظ بالمكان : أقام فيه .
٧ — ل : وتفنت .
٨ — زيادة من ل .
٩ — ر : بما ، والتصويب من ل .
١٠ — ل ر : بربه .

بلغت – هداك الله – هذا المكانَ في مناقلتك ومطاولتك . والكَرَى قدعبث بعيني ، والكسلُ قد غلب على أطرافي ، وبعضي قد فارق بعضي ، وكلّي قد تنكَّر على كلّي . فاعذُرْني إن كنتُ مُقَصِّراً في أمرك لتقصيري في أمري ، والفتوةُ حاكمةٌ عليك بما سألتك ، وحرمةُ هذه القصة ضامنةٌ للجميل منك ، وأنت جارٍ في كلّ حالٍ مع حُسْنِ الظنّ . حاوٍ في كلّ أمر كلَّ ما كَسَّبَك جميلَ الثناء عليك ، يا قُرَّة عين الإخوان ، ويا واحدَ [١٤١ / ب] من نطق في هذا الزمان بأفانين البيان . وأظهر غرائبَ البرهان في وصف ما يكون وكان ، وقام وحده بنصرة[1] هذا الشان ، متحمّلاً أثقال الذُّلّ والهَوان . لهذا أنت فردٌ في لغتك ، لطيفٌ في مِقَتك ، معشوقٌ في جميعِ أحوالك، صُرِفَتْ عنك عينُ السوء ، وأرجو أن يرفع الله بهذا وأمثاله قَدْرَك ، ويُعلي عليها كعبك ، حتى تبحث عن أسرار الغيب من حافات الألوهية [و] في[2] تضاعيف النبوة ، لخصائص الولاية ، على أحكام الهداية ، بعقلٍ مصون بالتوفيق ، واستبصارٍ مقرون بالتوسُّع والتشقيق ، وبيان معمود بالتدقيق والتحقيق . والله يفعل ذلك بك: فمَخيلتك ناطقة ، والفراسةُ فيك صادقة ، والعلامات منك بارقة ، وسحائب الحق عليك وادقة .

اللهم : إنّا نَهُبُّ[3] بريحِ ربوبيتك ، ونركُدُ[4] بعِزّ سطوتك ، ونقول بإذنك ، ونسكت للعجز عن وصفك ، ونتفكَّرُ متحيرين في عظمتك ، ونفتخرُ مُنْتَسبين إلى عبوديتك ، ونُدِلُّ بذكرك ، ونَذِلُّ لأمرك[5] ، ونحنُ في كل حال إلى وجهك ، ونغار عليك، ونرى أن لا نصل [اليك][6] إلا بأن

---

١ – المطبوعة : وجاب ببصره .   ٢ – ر : من .
٣ – ل : نهتز .
٤ – ل : ونلتز .
٥ – ل : ونذل لأمرك بذكرك وندل بذكرك .
٦ – زيادة من ل .

نتفصّى من[1] كل ما هو سواك ، شوقاً إلى السُّكْنى في ذراك[2] ، ونِزاعاً إلى أن نراك

إلهنا : فأعِنّا على مطالبتنا بتوفيقك ، واحرُسْنا في مسالكنا بتأييدك ، فأنت مُحرِّكنا في هذا القول ، فكن أنت مجيبنا في هذا السؤال .

أتُرانا يا إلهنا ندعوك بهذه الضراعة جاهلين بقدرتك ، وإن[3] كنا مُقَصِّرين في طاعتك ؟ لا وحقك فإنه[4] حقٌ لا يؤدّى ببذل الروح والنفس ، بل ندعوك عارفين بأنك أنت الجواد الواهب [الكريم][5] ، المعطي لمن سأل ، والباذل[6] لمن لم يسأل .

اللهم : اكفنا مؤونةَ المتَمرّدين عليك ، الظانّين ظنَّ السوء بك[7] ، واضرب بيننا وبينهم سُوراً من قدرتك، لئلا نراهم بأعيننا ، ولا نسمع أصواتَهم بآذاننا ، فقد كادونا من أجلك ، وغاظونا بسببك ، وما ذنبنا إليهم إلا أنّا[8] ندعوهم إليك ، وما غَضَبْنا عليهم إلاّ لتمردهم عليك ، ويأسهم من خير ما لديك .

إلهنا : جهلوك فخالفوك ، ونكروك[9] فجحدوك ، ولو فطنوا لما فاتَهم منك لأحبوك ، ولو أحبوك لعَبدوك ، ولو عبدوك لعرفوك ، ولو عرفوك

---

١ – ر : نتقفى عن ؛ ل : نتقصى من ؛ وتفصى : تخلص .
٢ – ر : دارك .
٣ – ر : فان .
٤ – ر : فانك .
٥ ـ الكريم : زيادة من ل .
٦ – ل : والبادي .
٧ – ر : بك ظن السوء .
٨ – ر : لأنا .
٩ – ل : ومكروك .

لكنت لهم فوق الأم الرؤوم[1] والأب الرحيم [١٤٢ / أ] يا ذا الجلال والإكرام .

- ٥١ -

اللهم : اغرس أشجارَ كلامنا في خِطَطِ قلوبنا ، ثم اسقها بصَوْب تأييدك عند رقدتنا وانتباهنا ، ثم استخرج أوراقَها وأزهارَها في تصاريف أحوالنا ، ثم حَمِّلْ ثمارها بصبرنا ووفائنا . على اختلافِ سَرَّائنا وضرَّائنا . فإنك إذا دَبَّرْتنا هذا التدبير ، شَمَّرْنا من قصدك أجَدَّ التشمير .

يا هذا : أعَلَى الدنيا تعرِّج ؟ وفي طَلَبها تُلَجِّج ، ونيرانَها تؤجج ؟ لِمَ هذا ؟ وكيف به ؟ أين حصافتك وبصيرتك ؟ وأين نظرك واختبارك ؟ وأين استنباطك وفطنتك ؟ وأين معرفتك بالدقيق والجليل ؟ وأين تحصيلك للقليل والكثير ؟وأين حسُّك الصادقُ عن الصحيح والعليل؟ أما ترى [فِتَنَها][2] وليس فيها معنىً إلا وفيه مبكى ، ولا ملهىً إلا وعنده مهوى ، ولا مرعى إلا ودونه [مَتْوَى][3] ؟ أما ترى صروفَها ، وفي صروفها حتُوفُها ؟ أما ترى أهلها كيف تَطْرُقُهم طوارقُها، وفي طوارقها بوائقها ؟ أما ترى كيف تَسُرُّهم مراتبها ، وفي مراتبها معاطبها ؟ أما ترى خَبَرَها ، وفي خَبَرها عِبَرَها ؟ أما ترى غِناها كيف يَفْتِن ، وفقرها كيف يُحْزِن ؟ أما ترى أعْلاقَها نَهْب أحداقها ؟ أما ترى قصورها موقوفةً على خرابها ؟ وهل تركتِ الدنيا لأحد شُبهةً وإشكالاً في فضلِ الإعراض عنها ؟ أليس مُرُّها غامراً لحلوها ؟ أليس كَدَرُها غالباً لصفوها ؟ متى أفادت أحداً من سكانها فائدةً فلم تكن عليه بائدة ؟ أليس أبناؤها بقيةَ الهالكين ؟ أليس جديدُها ميراثَ البالين؟

---

١ – ر : الرؤوف .

٢ – زيادة لازمة ؛ أو لعله « أما تراها » .

٣ – متوى : مهلكة ؛ من التوى ، وهو الهلاك ؛ وقد زدتها تقديراً .

اللهم غفرا : نَصِفُها صفةَ العارفين ، ونصحَبُها صُحْبَةَ الجاهلين . ما أقبح الأمنَ في عَرصة الخوف ، وما أشنع الجهل في وقت العلم ! ما أضر النوم في مكان الانتباه ! ما أشد حسرة الخاسر[1] في تجارته، بعد كسبه في حالته ! ما أسْخَنَ عيناً قَرَّت بما لا حاصل له ! ما أخرب قلباً سكن إلى ما لا عائدة منه !

يا هذا :

هل أنت معتبرٌ بمن خَرِبَتْ ... عنه غَداةَ قضى دَساكِرُهُ[2]؟
وبمَن[3] أذلَّ الدهرُ مَصْرَعه ... فتبرَّأتْ منه عشائرُه ؟
وبِمَنْ خلَتْ منه أسرّتُهُ ... وبمن خلت منه منابره ؟
[١٤٢/ب] أين الملوكُ وأين عزهم[4] ... صاروا مصيراً أنت صائره ؟
نَلْ[5] ما بدا لك أن تنال من الـ ... ـدنيا ، فإنَّ الموتَ آخرُه

يا هذا : إنما أذكر لك معايب الدنيا حتى تطهِّر نفسك من أنجاسها ، وتباعد جَهْدَك من أدناسها ، وتُفْرِد حالك من أحوال ناسها . فحينئذ إذا صفا لك جوُّ الدين تنَفَّستَ فيه ، وإذا تدلىَّ على فؤادك حبلُ اليقين تمرَّسْتَ به[6] ، وإذا انكشف عنك غطاء الجهل سَرَّحْتَ طَرْفَك بعده ، وإذا سمعت فَنّاً مِنْ لحون[7] الحق طربت عليه ، وإذا أُودِعْتَ سراً من الغيب لم تُفْشِه إلى من

---

١ – ر والمطبوعة : الخاسرين .
٢ – الشعر لأبي العتاهية ، ديوانه : ١٧٩ – ١٨١ مع اختلاف في ترتيب الأبيات ، وانظر مروج الذهب ٣ : ٢٨٣ .
٣ – ر : ومن .
٤ – ر والمطبوعة : هزهم ؛ وفي الديوان : عزّهم .
٥ – ر : بل ، والتصويب عن الديوان .
٦ – ر : بنه .
٧ – ر : تجوز

ليس من أهله ، وإذا كوشفتَ بعين الاختصاص لم تحسَّ بما عداه ، وإذا قيل لك : ادْنُ إلينا ، لم تَدْنُ وفيك هيبة البَشَر ، وإذا قيل لك : اطلُبْ ، لم تطلب وعليك أثر من آثار أهلِ الشر ، وإذا قيل لك : اسمع ، لم تسمع وأنت منتشر .

اللهم : عزيزٌ عليّ أن أقول ما أقول[1] ونصيبي منه اللفظ المُحَبَّر ، ومحصولي منه الأمر المُحَسَّر . فأما أنت أيها السامع فموكولٌ إلى شانك ، بما أنت عليه [و] أهلُه وبه[2] مِنْ وُدِّك وشنآنك[3] ؛ لا سلطان لي على قلبك ، ولا مستنبط لي من غيبك[4] . إن أنت إلا لنفسك على ما كنتَ عليه في أمسك . فإن كنتَ ذا غبطة في ذلك فالزَم ، فالغبطة هي المطلوبة لك والمرادة بك ؛ ولكن بقي عليك شيء : هل أنت عارف بالغبطة ما هي ، وكيف هي ؟ فإني خائف عليك أن تظن أن الغبطة في شهوةٍ تُنال ، ونعمةٍ تُدْرَك ، وليِّن يُلْبَس ، وحلو يُتَطَعَّم ، وباردٍ يُشرب ، وكأسٍ تُتعاطى ، ونديم يُضاحَك ، وعودٍ يُضْرَب ، وصوتٍ يُقترح ، ومجلس يُغَنَّى ، ووجه يُنظر إليه ، وحديث يُقهقَه عليه . هيهات : عَزَبَ لُبُّك ، وتاه قلبك ، وركبك شيطانك. هذه أضاليل قد حُفَّت بأباطيل ، يزهى بها[5] مَنْ لا حُنْكَة له ولا حكمة عنده ، لا يُفَرِّق بين العُرْف والنكر ، ولا بين اليوم والغد ، ولا بين الثابت والزائل ، ولا بين الباقي والحاصل ، ولا بين الصاعد والنازل ، ولا بين الجادِّ والهازل .

---

١ – ما أقول : مكررة في الأصل .

٢ – لعل الصواب : بما أنت عليه وله وبه ...

٣ – ر والمطبوعة : وشفائك .

٤ – ر والمطبوعة : عينك .

٥ – ر والمطبوعة : برهانها .

الغبطة — عافاك الله — في حال أخرى أنت منها في قُطْرٍ شاسع لا يلوحُ لك ولا يتراءى لعينك ؛ الغبطة في النَّجوة من هذه الدار التي [١٤٣ / أ] قد ضَريَتْ[١] على غَصْب الألباب من أربابها ، ومرنت على تصديع الشملِ بين ألاّفها وأحبابها ، إلى محلٍ لا ألم فيه ولا أذى ، ولا شَوْبَ به ولا قذى ؛ إلى محلٍ تجدُ فيه النعيمَ صافياً والحقّ بادياً ، إلى محلّ لا يعتريك [فيه][٢] ملل ، ولا ينتابُك فيه عِلَل ؛ حيث تَنْسَى فيه الحزنَ حِسّاً ورَسْماً ، حيث يحكّمك المولى فتتحكم ، ويدنيك إلى حضرته فتتنعّم ؛ حيثُ لا يلتهبُ لك في صدرك نَفَسٌ ، ولا يخمد بين يديك قَبَس .

يا هذا : إنما أُشوّقك إلى هذا المحل نظراً لك ، وأذلّل لك السبيل إليه شَفَقاً عليك . فأعِنّي على نفسك والتكثير في أُنْسي بأنسك ، واعتقدْ أني مقيِّض لك من جهة وَليِّك ، ليكون له عندك بي يدٌ[٣] يجب عليكَ شكرُها ، ونعمة يلزمك القيام بحقها . فإن شهدتَ هذا التقييض الذي أشرتُ لك إليه ، سمحتَ بذلك التفويض الذي جَبَلَكَ[٤] عليه . وإن عميتَ — والعياذ بالله — فما أُتيتَ إلا من جهة أُذُنٍ إذا سمعت لم تَعِ ، وإذا وَعَدَتْ لم تَفِ ؛ [و] إلا من جهة عينٍ لا تبصر ، وإذا أبصرت لا تحصل ؛ وإلا من جهة قلب لا يهمّ ، وإذا اهتم لا يستتم ؛ وإلا من جهة نفس لا تنقاد ، وإذا انقادت لا ترتاد ؛ وإلا من جهة عادة لا تفارق ، وإذا فارقت لا ترتفع ؛ وإلا من جهة قرين لا ينصح ، وإذا نصح لا ينفع . وإذا كنت مأتياً[٥] من هذه السبل الخافية : كيف الأمان لي منك عليك ؟ وكيف الرجاء لي فيك ؟ وكيف الشغل لي بك ؟

---

١ — الياء غير معجمة في ر ؛ وفي المطبوعة « ضربت » بالباء الموحدة ، ولا معنى له .
٢ — زيادة لازمة .
٣ — ر : في نقد ؛ المطبوعة : فيه ، فقد .
٤ — ر : جبلتك (دون اعجام للجيم والتاء) .
٥ — ر : ماتياً ؛ المطبوعة : مأمناً ، ولا وجه له .

حدثني عنك فقد بُليت بك ، واصْدُقني جَهْدَك فقد أُضفْتُ إليك . وإذا امتُحِنتُ بأن أقول لك، وامتحنتَ بأن تسمع مني ، فلا أقلَّ من التعاون الذي هو شيمة الفتيان ، ولا أقلَّ من الرقة التي تدركُ الإنسانَ على الإنسان . فإن لم ترحم نفسَكَ في قلة قبولك مِنّي ، فارحمني لشدة إقبالي عليك :

أجبني إلى حظك ؛ صافحني عن الوفاء لك ؛ أَجْمِمْني عن بعض الكد من أجلك ؛ ارحم عَبْرتي حسرةً على ضياعك ؛ تعصَّبْ لغَيْرتي عليك ؛ تعجبْ من انتصابي بسببك ؛ أعطني أجرتي على سعيي ؛ اشكُرْني على سَهَري لك . أمِنَ الفُتُوَّة أن تراني أتعب لك فلا ترحمني ؟ أمن المروءة أن تجدني مكدوداً على سعادتك فلا تساعدني ؟ أمن الفضلِ أَنْ أُحْسِنَ إليك بك فلا تقبل إحساني فيك ؟

لو كنتَ غريراً لعذرتك ، ولو لم يخطّكَ الشيبُ لأطَلْتُ رَسَنك ، ولو لم يجمعنا دينُ الحق لأهملتُكَ ، ولو لم يعقدْ بيننا المِلْحُ لازوَرَرْتُ عنك ، ولولا علائقُ [١٤٣/ب] بيني وبينك لأرخيتُ أناملي من ذيلك . فلا تغفل : ادْنُ منّي وأَقْبِلْ عليّ ، وشَرِّب قلبَك كلامي ، ومَيِّزْ ما لك مما عليك بإرشادي ، فعن قليل تفقدني وينأى سوادك من سوادي ، فلعلك حينئذ أن تتمنى أن يجول في أذنك صوتي ، وتقف لعينك صورتي ، وتلتمس بقلبك نُصْحي فلا تجدني . فإذا كان ذلك ، فلا تبخل بدمعتك ليكون رحمةً لي ورقّةً لك ، فإن العين إذا جادت بدمعتها شوقاً[1] إلى أخ ، أو نَدَماً على سالف ،أو حَسْرَةً على فائت ، أو استخذاءً لقَدَرٍ ، كان ذلك شاهداً لصاحبها برقّةِ الطباع ، وسُرْعة الانقلاع ، وشدة النزاع إلى الله عز وجل .

وبعدُ وقبلُ ، فلست أدعوك إلى أن تلبسَ شِعار العصمة ؛ ذاك بيد مولاك،

---

١ – شوقاً : كتبت في الحاشية وقد سقطت منها الشين .

وإذا أهَّلك ألبسك ، وإذا أرادك[1] أشخصك ، وإذا اختارك قبضك ؛ لا مُقَدِّم لما أخَّر ، ولا مؤخِّر لما قَدَّم . وإنما أدعوك إلى أن تهتكَ حجاب المعصية بينك وبينه ، وتنشئ حالاً في التعرف إليه ، وتخلط بسيئة قديمة حسنةً حديثة . فإن هذا وما أشبهه يفتلُ حبلك بحبل الصالحين ، ويَريشُ نَبْلَك بنبل المخلصين ، ويكتب اسمك في عصابة المُخْبِتين ، ويُجْري ذكرك في الملأ[2] الأعلى . فإن لم تستجبْ لي ضربةً واحدةً فاستجب حالةً فحالة ؛ ولا تأنفْ ولا تستكبر ، فما أنفَ من الله أحدٌ فأفلح ، ولا استكبر أحدٌ على الله فأنجح .

هذا رفقي بك ، ونَظَري لك ، فكنْ أنتَ لنفسك[3] أكثر منّي في [ذلك] .

اللهم : لولا إذْنُكَ لما دعونا إليك ، ولولا تفضُّلك لما دللنا عليك ، ولولا إيناسُك لما استوحَشْنا منْ غيرك ، ولولا رَجاؤك لما بَسَطْنا إلفنا على خيرك : بك نلوذُ معتصمين ، وإياك نسترحمُ محتاجين ، وبآلائك نتحدثُ معجبين ومتعجبين ، وإلى فنائك نأوي واثقين مُدلِّين ، وبحبلك نتعلَّقُ صاعدين ، وفي آفاق ملكوتك نجولُ راغبين ومُرَغِّبين ، ورضوانَك نخطب عارفين مُوَحِّدين ، وفي رياض نعمائك نرتع شَرِهينَ ولهين .

يا هذا : الزَمْ باب الافتقار إليه بالدعاء . فإنك ما دمتَ على هذا اللزام رجوتُ لك الفوز . وقد قيل :

أَخْلِقْ بذي الصبرِ أن يَحْظَى بحاجته ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا[4]

---

١ – ر : ارداك .

٢ – ر : البلا . ٣ – ر : لنفسي .

٤ – البيت لمحمد بن يسير (البيان والتبيين ٢ : ٣٦٠) .

وثق بالله ؛ ما أولعك بذكره [إلا][1] وقد رشَّحَك لوصله ، ولا أوحشك من خلقه إلا وقد هيأك لأنسه . وهذه ولاية ما نالها أحد فأتاه[2] العزل ، ولا[3] جدَّ به الجدّ فأتاه الهزل . فاشدد الآن وسطك ، واطلُبْ [١٤٤ / أ] قسطك ، وشمِّر ذيلك ، وقطِّع ليلك ، فكأنك وقد رأيت مساءَك صباحاً ، وظلامك مضباحاً .

يا هذا : اسمع رطانةً أخرى ، ولغةً ليس فيها فحوى ، وكن من قبولك ونبوّك عنها بين [رعوى و][4] تقوى ، فإن العبارةَ قد طالتْ في وصفِ الدنيا ، والإشارةَ قد توالتْ في الخبرِ عن أصحاب البلْوَى . وهذا كله كما أقوله وتسمعه عنّي ، على [أنّ][5] قولي لا شَرْحَ له ، وسمعك لا فتْح معه ؛ لكن لا بدَّ من التنفيس عند تضايق الخناق ، ولا بد من التغاني عند تفاقم الأغلاق ، ولا بد من الانحجاز[6] عند تعذّرِ الإنجادِ والإعراق . نعم حبيبي : كنتَ ثم تكوَّنْتَ ، ثم بِنتَ ثم تَبيَّنت . أتفهم هذه العويصة ؟ أبكَ تخلُّصٌ من هذه القبيصة[7] ؟

يا هذا : كنتَ كوناً بإبداء[8] من أنت به فكان[9] كَونُك مطلقاً ، ثم تكوَّنْتَ بإمداد مَنْ كنت به[10] فصار تكونك امتداداً لكونك . فلما بلغتَ آخــرَ

---

١ – زيادة ضرورية .

٢ – ر والمطبوعة : فاثناه .

٣ – ر : فلا .

٤ – زيادة تقديرية ؛ وانظر ص ٣٢٠ س ١٧ – ١٨ .

٥ – زيادة لازمة .

٦ – انحجز واحتجز : أتى الحجاز .

٧ – القبيصة : التراب المجموع والحصى ؛ وأعتقد أن صوابه « الكصيصة » وهي الحبالة التي يصاد بها الظبي .

٨ – ر : بائداً .

٩ – ر : فكأنك

١٠ – ر : له .

التكوّن بِنْتَ ، وإنما بِنْتَ لمن كنت به ، فلما بنْتَ تبينتَ ، أعني ظهرت خالداً بعدما كنت غبت بائداً . إلا أن بيدودتك كانت بالحس ، وخلودك كان[1] بالقدس . فحدثني عنك ، وخبِّرْني منك : أين أنت من هذه اللَّمْعة الثاقبة . ومن هذه البارقة الصادقة ؟ هل وجدتَ منها نسيماً أهدى اليك نعيماً ؟ بل هل وجدت منها [. . . .][2] لم تجدها ، فإنك في أحد الوجدانين مُهَنّاً ، وفي الآخر مُعَزّى .

يا هذا : ما أشد انخداعي لك بما أُلقي إليك ، وما أقبح إعراضك عني فيما أخلعه عليك . ولو كنتُ مُقَصِّراً في أمرك وما له عائدٌ في خالصة حالك ، لبسطتُ العذرَ سِرّاً وجهراً، ولكني وحَقّ الحقِّ جوادٌ بما وجدتُه ، بَذولٌ لما ملكته ، غيورٌ على ما عرفته ، نصيحٌ لمن أصبته ، صبورٌ على من بلوته . ولولا حركاتُ أسرارٍ لها جَوْلاتٌ في الغيبة ، ورَجَعات إلى الشهادة ، لما نبستُ بحرف من هذه الغرائب ، ولا ترنمتُ بشيء من هذه اللحون . ولكن مُكْرَهٌ أخوك فاعذر[3] ، ومضرورٌ بك فاصبر ، ومستعينٌ بك فانصُرْ .

[١٤٤/ب] يا هذا: مَنْ عرَفَ في الشاهد لم يَخل بالغائب، ومن اعتنق الغائب لم يلتفت إلى الشاهد ، ومن تذبذبَ بينهما فهو الساقط الهابط .

يا هذا : أتريدُ أن تصيبَ الهدفَ ولما تُسدِّد ؟ أتريدُ[4] أن تبلغَ المنزلَ ولمّا تجتهد ؟ أتريد أن تلحظَ الأعلى ولما تحدِّق ؟ أتريد أن تجالسَ الملوكَ ولمّا تتأدب ؟ أتريد أن تسعدَ جُزافاً وتنال مُرادك اختلاساً ؟ هيهات إنَّ

---

١ – ر : كانت .
٢ – كتب في الأصل « نعيماً » ثم رمج عليها .
٣ – ناظر إلى المثل : « مكره أخاك لا بطل » (جمهرة الأمثال للعسكري ٢ : ٢٤٢) .
٤ – أتريد : مكررة في ر .

المراصدَ مشحونةٌ بالموانع ، وإن الآفاق مملوءة بالمقـارع ، وإن الأسرارَ ملتهبـةٌ بالنـوازع ، وإن المنـاظرَ منقوشـةٌ بالروائع ، وإن الالحانَ مصطحَبَةٌ بالبدائع ، فلا عيْنَ إلاّ وهي عبْرى ، ولا نَفْس إلا وهـي حيْرَى ، ولا لفظَ إلا وهو مُعاد ، ولا وصلَ إلا وهو معتاد .

دَعْنا في هذه الزاوية الحرجة حتى نتشاكى ونتباكى ، تارةً على فَقْدَ حاصل لم يَبْقَ ، وتارةً على طَلَبِ مرادٍ لم يَرْقَ ، وتارة على مُدركٍ بعقلٍ لم يَخلُصْ ، وتارة على فائتٍ بِحِسٍ لم ينقص .

اللهم : رحمتَكَ نرجو ، ورَأفتَكَ نتمنى ، وإليـك [نلتفت][١] إذا صغونا[٢] ، وإلى فِنائك نسيرُ إذا خطونا ، وإياك نطلب إذا عطونا[٣] ، وبك نستجيرُ إذا نَبَوْنا ، وباسمك نلهجُ إذا صَفَوْنا ، وآلاءك نَنْشُرُ إذا صبونا ، وإلى بابك نقصدُ إذا حبونا ، وعفوكَ نلتمسُ إذا هفونا ، وبِجُنَّتك نتقي إذا رَمونا . فكن لنا ولا تكنْ علينا ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٥٢ -

أيها الصاحب المستأنس بهذا الفنّ ، المسافرُ إلى هذا الوطن ، الساكنُ في هذا الموطن ، المستخبرُ عما ظَهَرَ فيه وبَطَن ، الكاره لأن يقالَ فيه تَوَهَّمَ وَظنّ ، المعجبُ بأن يسمعَ فيه حقق واستيقن : هل شهدتَ حالا نَقَلَكَ عن الزمان والمكان اللذين يتقرّبُ منهما كلُّ إنْسٍ وجان ؟ وهل ورد عليك مـا محاك عنك ، وسلبك منك ، وتركك بلا أوانٍ تجده واسِطةً فيما أنت مَحْبُوٌّ

١ – زيادة تقديرية .

٢ – صغا : مال .

٣ – عطوت الشيء : تناولته باليد .

به ، مُحَيّاً فيه ، محْويّ عليه . وهل قام في نفسك أن الزلفة [١٤٥/ أ] عندَ الحقِّ هي البراءةُ من جميع الخلق ، كان ذلك زماناً أو مكاناً ، أو خبراً أو عياناً ، أو عجمة[1] أو بياناً ، أو ريبة أو بُرْهاناً ؟ فإن كان ذلك كذلك فلقد خُصصْتَ بحلاوة الأنْس ، ومشارفةِ ودائعِ الله في حظيرة القُدس ، مما لا يقدرُ عليه الجنُّ والإنس . وان كنتَ في هذه البلاد غريباً ، وعن هذه السرائرِ والغيوبِ طريداً ، فلا عليك أن تصلَ ليلك بنهارك . وتُوطّن سراركَ بجهارك ، وتجمعَ بين إضمارك وإظهارك ، وتحقّقَ حالك في إيرادك وإصدارك ، وتُفرّق بين حالك في اغترارك واستظهارك ، وتنتفي من شعارك ودِثارك ، في انتصارك واقتدارك . فإنك إذا هُديتَ لهذا الطريق سلكتَ واجداً ، ووجدتَ غانماً ، وغنمتَ جذلاً ، وجذلتَ ناعماً ، ونَعمتَ واصلاً ، ووصلتَ مقبولاً ، وقبلتَ مرْضياً ، ورَضيت مكْفياً ، وكُفيتَ محْمياً ، وحُميت مهدياً . وليس بعد الهداية والوجدان ، والغنيمة والجَذل ، والنعمة والوصال ، والقَبول والرضى ، والكفاية والحماية ، غاية تُتَمنّى بالعبودية ، ولا نهاية يُترَقّى إليها بالبشرية . وكل ما وراء ذلك إنما هو من جنس الإلهية التي إذا سطعَتْ أنوارُها ، غَصّت بالهدايا والتُحَفِ أقطارُها ، وامتلأت بالآلاء والنعم أنْفَاقُها ، وفاضت بالزيادة والفضل والجدوى آفاقها .

فيا من يؤم[2] هذه القاصية[3] متمنياً في الخلوة : لم لا تتبرأ من زخارف هذه الدار ، مطهّراً لنفسك من ضروب الأوطار والأقذار ، حتى تؤهَّلَ للأسرار ، وتُصافحَ بالمَبارّ والمسارّ ؟ ولم لا تصحح نَسَبَكَ ممن أنت منسوبٌ إليه ؟ أعني بذلك أنك تنسب إلى أبيك الأدنى باللحم والدم ، وإلى أبيك الأقْصى بالماء

---

١ – ر والمطبوعة : حجمة .
٢ – ر والمطبوعة : يرم .
٣ – ر والمطبوعة : القاضية .

والطين ، وقد غرَّك هذا النسب ، وأغواك هذا السَّبَب ، حتى نسيتَ الذي تنسب إليه بكلِّك وبعضِك ، وبأصلِك وفَصْلِك ، وبه تُعْرَف في أوَّلك وآخرك ، وله تكْرُمُ في غيبك وشهادتك ، وإليه تَضْرَعُ في نازلتك ،وإياه[1] تسألُ دوامَ رَوْحك وراحتك ، في سعيك وقدرتك . ولِمَ لا تقدِّمُ على ذلك نظرَك في نفسك وفي عواديها عندك ؟ ولِمَ لا تحاسبُ نفسك بنفسك[2] ؟ متى تعرف الفضل الذي لك [١٤٥/ ب] فتحرزه ، وتقف على الوَكْس الذي عليك فتميزه ؟ هذا بيان حالك فيما هو ظاهر دنياك، هاتِ بيانَ حالك فيما هو حقيقة دعواك ، وإليه توجهك وعنده منتهاك ؛ فإن كانت عينُك لا تبصر إلا العاجلة ، ونفسُك لا تهوى[3] إلا الصور المتقابلة ، فقد أحاط بك الردى وأنت لا تشعر ، وحاق بك أمرُ الله وأنت لا تُبصر ، وجاءك منك ما يُنْسيك عنك، وثارَ عليك ما يشغلك فيك . وما أدري ما أقول سوى أني أستريح إلى قـول ربي : ﴿ ومَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ له نوراً فما لَهُ مِن نور ﴾ (النور : ٤٠) .

يا هذا : الوقت مجتمعٌ معصوم ، ومُفْتَرِقٌ مرحوم ، ولله فيه نَظَراتٌ إلى عباده المؤمنين ، يُجْبَرُ[4] بها كلُّ كسير ، ويُنْعَش بها كلُّ عاثر ، ويهتدي [بها][5] كل تائه ، ويرتاحُ لها كلُّ حزين ، ويَغْنَى بها كلُّ محتاج، ويَجدُ بها [كل][6] معدم . فالويلُ لمن انقلب عنه خاسراً باسراً قـد حُثِي في وجهه التراب ، وحُرِم جزيل الثواب ، وقيل له : أمَلُك عليك مَرْدود ،

---

١ – ر والمطبوعة : واياك .

٢ – ر والمطبوعة : لنفسك .

٣ – زاد في ر بعد « تهوى » كلمة « هذا » ؛ ولعلها « إلا هذه » .

٤ – ر والمطبوعة : فيجبر .

٥ – زيادة مناسبة .

٦ – زيادة ضرورية .

وجوارحُك بمخالفتك عليك شُهُود ، وسَوْطُ العذابِ على هامتك مَصْبوب ، وخِذْلانُ الله إليك مجلوب .

آه من المخالفة إلى ما نُهي عنه ، وواحسرتا على مجانبة ما أمر به ؛ هذا مع دُرور النِّعم التي لا تُحْصَى ، واتصال أياديه التي لا تُستَقْصَى ، ولطائفه التي لا يأتي عليها لسان وإن كان رقيق الحاشية ، وخيراتِه[1] التي لا يُهْتَدى إليها إلا إذا خصَّ أولياءه بالمعرفة الناشية . وأين قدرة العبد الشاكر إذا أُنْعِم عليه ، مِنْ تفضل الربِّ الرؤوف إذا نَظَمَ أنواعَ بِرِّه بين يديه ؟ ليس بينهما نَسَبٌ يعتمد ، ولا حاصلٌ يتعهد .

يا أخي : لقد عصيتَ زاجرك إذ زجرك ، وخالفتَ آمرك إذ أمرك ، وركنتَ إلى زهرة الدنيا وزخرف الأمل ، ورضيتَ بوخيمِ عاجلها ، وزهدتَ في نعيم آجلها ، وتوفرتَ على نَضْرَتِها[2] ولألائها ، كأنك[3] لا تؤمن بانقراضها وفنائها . فإلى متى هذه الغَفْلةُ والسَّهْو ، وهذه الغرَّةُ واللهو ، وهذه الأبَّهة والزهو ، وهذه السفاهة واللغو ؟ مَلَّكْتَ الهوى زِمامَك ، واجتلبتَ بسوءِ الاختيارِ حِمامَك ، وانخدعتَ بلُعاعة[4] الدنيا ، والزخارفُ فيها — والله يا أخي — المخاوفُ والمتالف :

وأورثَكَ الجهلُ [١٤٦/أ] والإغترا رُ صُنُوفَ البلايا وما تتقي
ومِلْتَ إلى عاجلٍ تافهٍ وصادَتْكَ أشراكُها يا شقي

حتى متى إلى الشيطان سُكُونك ، وإلى الدنيا وعمارتِها ركونك ، وعلى حُطامها وسقامها جنونك ؟ أما تعتبر بمن مضى مِنْ أسلافك ، وبمن وارته

---

١ – ر : وخيراتها . ٢ – ر : نظرتها .
٣ – ر : فانك .
٤ – في الحديث : « إنما الدنيا لعاعة » يعني كالنبات الأخضر قليل البقاء .

الأرض من خلصائك وألاّفك ؟ أما يردعك عن جهلك رادع ؟ أما يَقْمَعُك عن غيِّك قامع ؟ أما أنت عمّا أنت عليه من الخطايا مُقْلِعٌ نازع ؟ أما تلحظُ بعين فكركَ الأممَ الخالية ، والملوكَ الفانية ، والفراعنةَ الماضية ؟ ﴿ هل تحسُّ منهم من أحد ﴾ (مريم : ٩٨) أو هل ترى لهم من باقية[1] ؟ طَوَتْهُمْ يدُ الحِمام ، وطحنَتْهُمْ رحى الأيام ، وَقَرَضَهم مرُّ العام بعد العام . فهاتيك بيوتهم خاوية[2] ، ومجالسهم في قصورهم قاوية[3] ، والأوْزار في أعناقهم باقية :

وحَلُّوا بدارٍ لا تَزاوُرَ بينهم ... وأنّى لسكّانِ القبورِ تَزَاوُرُ

لقد نجا امرؤٌ محا عن نفسه شاهدَ هذا الموجود ، بلزوم الخدمة لله الملك المعبود . ألا صافي مِنْ كَدَرِ الأقدار ؟ ألا متميز عن عادة الأغمار ؟ ألا راغب في طريق الأخيار ؟ ألا آنف من مذاهب الأشرار ؟ ألا مزاحم لمناكبِ الأبرار ؟ ألا هارب من أوطانِ الشاردين عن الله ؟ ألا منقطع إلى الحقِّ بحقائق الواجدين لله ؟ ألا طامع فيما عند الله على ما وعد به أولياءَ الله ؟ ألا مستحي من إعراضِهِ عن الله ، مع علمه بما يصل إليه[4] من طرائف ما عند الله ؟

يا أكَلَةَ الحَرَام ، وحَمَلَة الآثام ، وسفلة الانام : النجاءَ النجاءَ ، فقد أظَلَّكُم عَلَم الانتقام ، وفاتكم من الله ذي الجلال والاكرام ، الخلودُ في جوار الله والدوامُ .

أيها الناس ، خبِّروني عنكم إذ وقفتم : خدمتم الدنيا أعماركم[5] . بأي شيء ظفرتم ؟ بذلتم حياتكم ، فأيَّ زيادةٍ ربحتم ، وبأيِّ فائدة انقلبتم ؟ خاطرتم

---

١ – سورة الحاقة : ٨ « فهل ترى لهم من باقية » .
٢ – سورة النمل : ٥٢ « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .
٣ – قاوية : اسم فاعل من قوي بمعنى خلا . ٤ – ر : إلى الله .
٥ – لعل صواب العبارة : إذ وقفتم على خدمة الدنيا أعماركم .

بأرواحكم ، فأيَّ فائتٍ أدركتم ؟ أتعبتم أبدانكم : هل بنسيم حضرته عبقتم ؟ هل على نغمات سِرّه طربتم ؟ هل بعذوبة مناجاته تلذّذتم ؟ هل بحقيقة محبته خُصِصْتم ؟ هل بحلاوة بواديه من عنده أنِسْتم ؟ هل على بساط تكرمته جلستم ؟ بل هل بضمانه لرزقكم وثقتم ؟ هل على وعده توكّلتم ؟ وهل علمتم ماذا أريد [١٤٦/ ب] بكم ؟ أو فكرتم فيما أريد منكم ؟ إن كان ذاك أو بعضُه فأين دلائله وروائده ؟ وأين أوائله وعوائده ؟ وأين مخايله وشواهده ؟ وأين وسائطه[١] وفرائده[٢] ؟ بل أين خوافيه وبواديه ؟ وأين مُقدماته وهوَاديه ؟ وأين توَابعه وحواديه[٣] ؟ وأين الخلع التي يُلقيها على مُصَافيه ؟ وأين السرائر التي يستودعها من يتهالك فيه ؟ فلا أجسامكم تحلّتْ بالعبادة ، ولا قلوبكم ارتاحتْ في طلب الزيادة ، ولا صدوركم صُرفتْ عن الهوى بصدق الإرادة . ولا أرواحكم هشّتْ للاستفادة . ولا أطماعكم انحسمت بالزهادة . ولا سيرتكم استمرتْ على الزيادة والذيادة . لا جرَم شَمِت بكم عدوُّ الله إبليس ، وبلغ بكم فوقَ ما أراد بالحيلة والتلبيس . ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترحُوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ (الجاثية: ٢١)؟! هيهات هيهات: ﴿إنْ كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعَدَّهم عَدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ (مريم ٩٣-٩٥). رَحِم الله عبداً رفع طَرْفَه ، وبسطَ كفَّه ، وسرَّح وهمه ، وسنّح[٤] فهمه ، ونظر إلى ما له فطلبه ، وإلى ما عليه فاجتنبه .

اللهم : لا تؤاخذنا بالدعاءِ إليك قبلَ إجابتك ، ولا بإجابتكَ قبل اليقينِ معك ، ولا باليقينِ معك دونَ التهالكِ عليك ، [ولا بالتهالك عليك][٥] دون

---

١ – ر والمطبوعة : وسائده .
٢ – ر والمطبوعة : وفوائده .
٣ – ر والمطبوعة : وحوادثه .
٤ – سنح : جعله يسنح أي يعرض ؛ وسنح فلاناً عن رأيه صرفه ورده عما أراد .
٥ – زيادة يقتضيها السياق .

تجرّع الغُصَص من أجلك ، ولا بتجرّع الغصص من أجلك دون الرضى والتسليم لك ، ولا بالرضى والتسليم لك دون الغيبوبة عن كل ما عداك ، ودون البراءةِ من كل ما سواك .

إلهنا : إنّا لا نصلُ إليك إلا بك ، ولا نسلو عن غيرك إلاّ لك . نواصينا معقودة[١] بتصريفك ، وآمالُنا موْقُوفةٌ على تشريفك ، وسُورُنا مهدوم إلا إذا كَفَيْت ، وحريمنا مستباحٌ إلا إذا حَمَيْت .

اللّهُمّ : إنا حضرناك دَنِسين فطهِّرنا ، وسألناك محتاجين فأَجِبْنا ،ولُذْنا بك عاجزين فَقوِّنا ، وخِفْناك لإجرامنا فأمنّا ، وتكشَّفْنا عندك فاستُرْنا ، واعتَرَفْنَا بحكمتك فاقبلنا ، وخَضَعْنَا لقدرتك فارحَمْنا ، وانهدَمْنا في مخالفتك فاعْمُرْنا ، وتبددنا في مُلْكِكَ فانظمنا ، وشُتِّتنا على أنفسنا [فاجمعنا][٢] .

[١٤٧/أ] اللهم : أنت بنا أبْصَر ، ونحن عن مصالحنا أقصر : فرقِّنا بكرمك إلى حظيرة القدس ، واسقنا بكأسِ القَبول شَرَابَ الأنْس ،فإنك إن فعلت ذلك بنا لم نَظْمَأ بعده أبداً ، ولم نُؤْثِر عليك أحداً .

آهِ على أقدامٍ كانت تستثقلُ حَمْلَ رقيقِ النعال ، كيف تُطيقُ غداً ثقْلَ القيودِ والأنْكال[٣] ؛ آهِ على جُنوبٍ كانت تستخشنُ لِيْنَ الحرير ، كيف تصبر غداً على مقاساةِ لَهَبِ السعير ؛ آهِ على خُدودٍ في ظلالِ التَّرَفِ تتدلَّلُ ناعمةً ، كيف تكون غداً في أطباق الثرى ساهمةً راغمة ؛ آه على أجسادٍ في حُلَلِ الدنيا مَصُونة ، إذا أصبحتْ غداً في أثناء الجنادل مهينة مدفونة ؛ آه على مَنْ قد غدا في ضُروب المعاصي مشتبكاً ، كيف يكون إذا وَقَفَ بين يدي المَلِك الجبار مرتبكاً !

---

١ – ر والمطبوعة : معقولة ؛ والعقل لا يكون للنواصي ، وإنما جاء : عقلت المرأة شعرها ، وهو ضرب من المشط .

٢ – زيادة يقتضيها السياق .

٣ – الانكال : جمع نكل – بكسر النون – وهو القيد الشديد .

عجيب لقلب سكنه عقل ، أو اطمأن به فهم ، أو سَنَحتْ فيه فِطْنَة ، أو هبَّ فيه انتباه، أو ألمَّ به رأي : كيف ركن إلى الدنيا جهلاً ، ورضي بها وَطَناً ، ووجدها مِنَ الجنان بَدَلا ، وغفل عن صنيعها بمن مضى وخلا ؛ اسمع قول القائل :

تَوَخَّ سبيلَ البرِّ واجنَحْ إلى التُّقى | وخلِّ عن الآثام واجتَنبِ الفُحْشا
تَفَرَّدْ عن القومِ الذينَ ادَّخَرْتَهُم | لأنْسِكَ واستبْدِلْ مِنَ الأنْسِ الوَحشا
فلستَ ترى إلاَّ مشيرَ عـداوةٍ | لغيرِك نصحاً وهو معتقِدٌ غشّـا
أرى باطنَ الدنيا سُمومَ أراقـمٍ | وإن ملأتْ للعين ظاهرَها نقشا

أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها وورود الفجائع على أهلهـا : من علةٍ فاجئة ، أو ميتةٍ قاضية ، أو دار بعدَ ساكنِها موحشة ، أو حال بهولها وصعوبتها مدهشة ؟ قد كدَّر منها المنونُ ما صفا ، وتركها رَيْبُ الزمان قاعاً صفصفاً .

يا هذا : شَمِّر وخُذْ في الجِد ، فالامر والله حق . أتدري ما الأمر ؟ الأمرُ هو الرحيلُ عن هذا الموضع النَّابي بأهله ، المزعج إلى محلٍّ آخـر : إما أن يكون أنعَم منه ، وإما أن يكوَن أنبا منه ، وبين الرحيل [١٤٧ / ب] والوصول وحشةُ الفراقِ ، وبلوغُ الروح التَراق ، والتفاف الساق بالساقِ ، وحشرجة الصدورِ وتَسكاب المآق .

يا قوم : [ماذا][١] أقول لكم ؟ وكيف أعرضُ نصحي عليكم ؟ وما أنتم في الحقيقة مرادي ، بل أنا ذلك المراد ، وأنا الحاضر ذلك الناد ، وأنا القادح لذلك الزناد ، وأنا المُنْتَجعُ لتلك العِهاد ، وأنا الخاطب لذاك الرشاد ، وانا المقيم على نفسي أولئك الأشْهاد .

---

١ – زيادة لازمة .

اللهم : صِلْنا بخيرك ، ولا تكلنا إلى غيرك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٥٣ -

[بسم الله الرحمن الرحيم] [١]

إلهنا[٢] وإلهَ الخَلْق أجمعين : طوبى لمن أهّلْتَه لمواجهتك بحديثه على طريق الانبساط ؛ طوبى لمن وفّقْته في عبادتك للأخذ بالاحتياط ؛ طوبى لمن صَفّيته في إشاراته إليك عما ابتليْتَ[٣] به غيرَه من الكَدَر والاختلاط ؛ طوبى لمن سبقت له منك[٤] الحسنى فصار بين أهلِ السموات والأرض من أُولي الاغتباط ؛ طوبى لمن رفَعْتَ مقامه في الملأ الأعلى عن كلّ استظهارٍ واستنباط ؛ طوبى لمن عَرَفَك فوصَفك ، أو وَصَفَك فعرفك !

إلهنا : سوابقُ مِنَنك[٥] تدعو إلى الاعتراف بفضلك ، وسوابغُ نِعَمك تبعثُ على العبادة لك . وروادفُ بِرِّك تستنفدُ قُوى الشاكرين على ذلك ، وسوالفُ لطفك تأتي على آخر ما يقدرُ عليه الوالهُ المتهالك ؛ بدعائك أجبناك ، وبإرادتك أردناك . وبصنعك عَرَفناك ، وبإذْنك وَصَفْناك . ومن أجل ما عهدنا منك اشتقناك ، وبجهالتنا عَصَيْناك ، وبفرطِ دالّتنا[٦] قصدناك ، وبسوء آدابنا جَفَوْناك ، وبحسن توفيقك استعطفناك ، ولولا جودُك ما سألناك ، ولولا إحاطتك [بنا] ما شهدناك ، ولولا غَلَبَتُك علينا ما وجدناك ، ولولا لُطْفُك

---

١ – زيادة من ل ؛ وهذه ثاني مرة يثبت فيها البسملة في أول رسالة .
٢ – معظم هذه الرسالة ثابت في ل (ق ٢٨/ب – ٣٣ / ب) بعنوان « أضحت الدار خالية من قطانها من الاشارات الالهية » .
٣ – ل : ابتلت .
٤ – ر : منا .
٥ – ل : منتك .
٦ – ر : دالتك .

ما عبدناك ، ولولا أنت في كل ما نحن فيه وعليه ما أطعناك . لآلاؤك أشيع من أن يُستر[1] ، وآلاؤكَ أظهرُ من أن تُنكر : قدرةٌ محفوفةٌ بالحكمة ، وحكمة مكفوفةٌ بالقدرة ، ونعمةٌ محوطةٌ بالرحمة ، ورحمةٌ منوطة بالنعمة ، فكلُّ شيء منك لائقٌ بالربوبية ، وكلُّ شيءٍ للك سائق [١٤٨/أ] إلى العبودية . عززتَ موجوداً ، وكرمتَ معبوداً ، وحضرتَ مشهوداً ، وسُئِلْتَ مقصوداً.

أيها السامع المتأبد ، والصاحب المتوحد . لا تَتَشَهدَ في شاهدك غير من هو شاهدك فتغيب عن غائبك بغيبتك ، ولا تجد غيره[2] ظانا أنه هو ، فتكون عادماً لحقيقته بما أنت غيره ، ولا تترنمْ بغير حديثه ، فيذهب طربُك هباءً منثوراً ، وينطوي عمرك حَسْرةً وثبوراً ؛ واحترس من نفسك لنفسك ، فإنها عقربٌ إذا لدغتك[3] لم تُبِلَّ[4] ، وإذا ضربتك لم تستقلَّ ؛ واحفظ عهدَ الله عندك ، والحَظْ رِفْده قِبَلَك ، واستقبلْ أمرَه بالشياح[5] والجد ، والتشمير والجهد ، فقد حُمِّلْتَ مِنْ سِرِّه عظيماً ، وكُلِّفْتَ من أمره جسيماً ، وعُرِّضْتَ لذكره في جميع أحوالك كظيما . فابرزْ بالخشيةِ والتقوى ، واحتجبْ عن البلوى ، بالبراءة من الشكوى ، واستيقنْ أنك[6] مختَبَرٌ في العاجلة ، ومعتَبَرٌ في الآجلة ، فإن كان لك[7] شَفٌّ[8] رجحتَ به ، وإلا فإنك من النادمين .

---

١ – ل : تستر .
٢ – ل : عنده .
٣ – ل : لذعتك .
٤ – تبل : تشفى .
٥ – ل : بالسياح ؛ والشياح : الحذر مع الجد .
٦ – ر : انه .
٧ – ر : فان لك .
٨ – الشف : الزيادة والفضل .

أمّا اني أتكلم وفؤادي مُسَهَّم[1] ، وقلبي مقسَّم ، ما لي في هذا الهواء الناعم مُتَنَسَّم ، و [لا] في هذه الأرض العريضة مُتَوَسَّم : سرٌّ قد باح عليَّ قبل أن أكتم ، وخبرٌ قد شاع عنّي قبلَ أن أعلم ، وتظلُّم قد توالى من أجلي قبل أن أُظلم . فلا جرمَ العُذْرُ مردودٌ قبل أن يُسمع ، والعقابُ واقعٌ قبل أن يُستَحَقَّ ، والمحذور نازلٌ قبل أن يُسْتَعَدَّ . وكيف يكونُ الشقيّ إلاّ كما تسمع ، وهل يكون[2] المغضوبُ عليه إلاّ على ما ترى ؟ فمن لي الآن بجـدٍّ سعيد ، وصديق وَدود ، لعلّي أتلو نبـأي عليه[3] ، وأستنجده على ما أنا محمول فيه ومدفوع إليه .

هيهات ، تَعِسَ الجدُّ[4] ، وخاسَ الصديقُ ، ودام التعب ، واشتد الأسى ، وتوالى الندم على أمْرٍ لم يُمْلَكْ أوله ، ولم يُدْرَكْ آخره ، ولم يُظْفَرْ بما بينهما لعوزٍ ما لو جيدَ به[5] و سُمِحَ بشيء منه ، كان مكانَ هذه الشكيّة مِن هذه البلية تلذّذ ، وبَدَلَ هذا التَّرَح فَرَح ، ودونَ هذا التحرّقِ تنعُّم. فالحمد[6] لله الذي استأثرَ بالحكمة في غَيْب مصلحتي ، وزَوى عني روحَ حياتي ، وطوى دوني سِرَّ عاقبتي . وأفرغ عليَّ أذْنبة[7] البلوى ، ومنعني فيها من بعض الشكوى [١٤٨/ ب] ، حمدَ سائلٍ صلاحَ ما به ، مُسْتَمِدٍّ مِنْ فضله في إعتابه .

أما والله أيها السامع بأذنه ، الحاضر بذهنه : لولا لزومي حدّي في العبودية ،

---

١ – ر ل : مهيم .
٢ – ل : يكن .
٣ – ر : عليه نبأي .
٤ – ل : الحد .
٥ – ر : حيد .
٦ – ل : والحمد .
٧ – ل : وأفرغ علي اذيبة ؛ والأذنبة : جمع ذنوب ، وهو الدلو .

وتلطفي في تصفح الربوبية ، وأخذي بآداب من كان عزيزَ النفس ، علِيَّ الهمة[1] ، بعيدَ الغاية ، لتمطَّيْتُ على جوانب [أسرار][2] ، وصَرَّحت بجوائب[3] أخبار ، ليس لأحد من البشر عنها خبَر ولا أثَر . ولكن ما أصنع والرقيبُ يقظان يُحْصي أنفاسي ، والعــدوُّ متكىءٌ في ناحيــة يهيّء أمراسي ؟ فلو نُقِّيتُ من كلّ شَوْب ، وصَفَوْتُ من كلّ عيب ، لادّعيا[4] عليَّ ما يزيل بُنْياني ، ويزلزل أركاني ، فكيف إذا أهملتُ بعضَ الحق ، وأغفلتُ بعضَ الرفق : أين تجدني ، وعلى أي حال تشهدني ؟ لسانٌ ينطقُ بالسَّهْو ، ونفسٌ تطرق على الزهو ، وحال يَغْرَق في اللهو ، فإن تاح[5] مرادٌ لم يلبث إلا مُجْتازاً[6] ، وإن عنَّ مطلوبٌ لم يمكث إلا منحازاً . فعلى ذلك ليس البال[7] ناعماً ، ولا الأمل متَوقّعاً ، ولا الراحةُ مظنونة ، ولا البلاء متجلياً ، ولا الصديق متولّياً[8] ، ولا الشانىء مستبقياً . عادت الحسنات بسوء الأدب سيئات ، وصارت[9] الطاعات بفرط الاعتراض[10] مخالفات . فاللوم خانق ، والأسى معانق ، والجوائح متآزفة[11] ، والدواهي متضاعفة . والويل لمن أنَّ تحت هذا الثقل الفادح ، والخيبة لمن شكا بثّه إلى القريب أو النازح . لقد شد الوثاق مَنْ

---

١ – ر : ملك النفس عزيز الهمة .
٢ – أسرار : زيادة من ل .
٣ – ل : وصرخت بخوائب .
٤ – ر : لا دعي .
٥ – ل : تام .
٦ – ل : مختاراً .
٧ – ر : الحال .
٨ – ر : متوالياً ؛ ل : مواتيا .
٩ – ر : وسارت .
١٠ – ر : الاعتراضات .
١١ – ل : متآرفة .

عَنُفَ في السياق ، ومنع من الاسحنفار[1] من ردّ صادقَ الاعتذار ، فلا قوة يستبد بها ، ولا رحمة يستمد منها : جهة معورة ، ومَضَلَّة موعرة ، ووسواس ملتهب[2] ، وكرب جاثم ، ومتمنًّى مفقود ، وقول كلما أُعيد كان أفضح وأضر ، وأدهَى وأمرّ ، وكَمَدٌ كلما صُبر عليه كان أقَدَّ للأحشاء ،وأقطعَ للرِّشاء[3] ، وأكشفَ للغطاء والغشاء[4] .

خذ حديثي جُملةً فتفصيلُهُ باهظ ، واقنعْ بالعنوان فمفضوضُه موحش : لم يكفِ زماني ما رماني به عنّي ، وكَدَّني به لي ، وغَمَسَني فيه عليّ ، حتى حال بيني وبين من كان للعـينِ رَوْضة إذا سَرَحَتْ ، وللنفس مُتلهًّى إذا تروَّحتْ ، وللحال تعلّة إذا استبهمت ، وللغاية علامة إذا استعجمتْ ،وللمحنة خفةً إذا استحكمتْ . فلا جَرَمَ شوقي إلى ذلك الفائت [١٤٩/ أ] العزيز على قدر وجدي به ، ووجدي به على قدر وَلَهي فيه ، ووَلَهي فيه على قدر تهالكي عليه ، وتهالكي عليه على قَدْر تخيلي له ، وتخيلي له على قدر امتزاجي[5] به . وهذه كنايةٌ مانعةٌ من البينونة التي بها يشار[6] إلى اثنين أنّهما واحد ، وإلى واحد أنَّه اثنان . وهذا حَدٌّ : مَنِ استولى عليه كان خبرُهُ عن نفسه لنفسه، ووجدانُه لنفسه بنفسه ؛ الصفات تتبرأ من هـذه الخصوصية في العشق ، والعلاماتُ تمَّحق[7] في النبأ عن هذا الفَتْق والرَّتْق ؛ فما بعد هذا إلا أن تَسُدَّ سَمْعَك عن هذا الكُنْه اللطيف تحرياً للسلامة ، وأَزُمَّ لساني عن هذا الخبر الطريف[8] خوفاً من لاذع الملامة . إن العارف وإن ترقّى في سلالم المعرفـة

---

١ – الاسحنفار : الاسراع في المضي .
٢ – ر : ملهث .
٣ – الرشاء : الحبل .
٤ – ر : والعشاء .
٥ – ر : امزاجي .
٦ – ل : يشار بها .
٧ – ر : تمحي .
٨ – ل : الظريف .

بحقائق الحال على تبيّن المكاشفة وغَلَبات المشاهدة ، ليس له أن يخبر إلا بعد الإذْن له ، وإذا وَرَدَ الإذنُ ليس له إلا الجَمْجَمَة[1] إذا قال ، والهَمْهَمة إذا سكت، حتى يَدْرُجَ فيما إليه تَدَرَّج ، ويعرُجَ إلى ما عنه تَعَرَّج . لُغَةٌ والله مُشْكلة ، وَعِلَّةٌ والله مُعْضلة ، وديوانٌ والله مختوم ، وسرٌّ والله مكتوم. إن ألقيتَ[2] ما لك منه كنت محروماً ، وإن التمستَ ما لك فيه صِرْتَ ظلوماً، لأن الذي لك ليس هو لك[3] إلا إذا مُلِّكته ، وإذا مُلِّكته فليس هو أيضاً[4] لك إلا إذا أبقي[5] عليك ؛ فإنّ الاستدراجَ شرطٌ في الالهية ، والفَرَق شرطٌ في العبودية . فلا يؤمنك من هذه المزلقة إلا إذا توكلتَ عليه ، ولا خِيرةَ[6] لك في هذا التوكل إلا إذا أوصلَكَ إليه ؛ ولا توكُّلَ ولا وصول ، وهناك نزاعٌ إلى الشهوات، وتخوُّضٌ[7] في الشُّبُهات ، والتفاتٌ إلى اللذات بعد اللذات ، وإعراضٌ عن الغايات بعد الغايات ، وأَخْذٌ بالرُّخْصة في الحالات بعد الحالات . لا وحقِّك حتى تودِّعَ كلَّ ما أَلِفْته من[8] هذه العَرْصة ،وتذوبَ دونه بكل حَسْرةٍ وغُصَّة ، وتتهيأ بهذا التوديع والذوبان لكل خلسة وفرصة. ومن لك بأن تؤهَّلَ بعد هذا كله باستراق لحظةٍ من ذلك المنظرِ الأنيق ، الذي هو غايةُ الأماني والآمال ، ومنتهى طَلَبِ الطالبينَ في كلِّ حالٍ من الأحوال ؟ ما وصلَ الواصلون إليه إلا بِنَزْعِ الروح ، وقلع الضِّرْس ، واحتراقِ الصفة [١٤٩/ ب] وتبدل السِّمة ، وتجرُّع العلقم ، ومعانقة البلاء ، والتَّبَرُّم بالنعيم، والتجافي عن المِهاد الوثير ، والتقلب على الحَسَكِ النابت ، وحَسْو الدم

---

١ – الجمجمة : أن لا يبين في كلامه إذا تكلم .
٢ – ل : ألغيت .
٣ – ر : لان الذي ليسَ لك هو لك .
٤ – ل : ايضاً هو .
٥ – ر : بقي .
٦ – ر : خبرة .
٧ – ل : وخوض
٨ – ل : في .

بلا هاجس يلابسه كراهة ، ولا خاطرٍ يفارقه نزاهة ، ولا عملٍ يشينه علمٌ ، ولا علم يخالفه عمل ؛ بل حال واحدة يَغرقُ فيها كلُّ رَسْمٍ وقول ، ويعبق بها كل قسم[1] وَطَوْل ؛ حالٌ لا يترجمها البليغ إلا بعد أن يترك فيها أكثرها ، ويبدي منها أقلها ، عجزاً عن حقيقتها ، وتبلداً في معرفة غايتها . أفلا يُنْتَحر على هذه الصفات التي هي[2] استعارات عن تلك الحقائق ؟ أفلا يُبْذَلُ دون نيلها كل ما يُمْلَكُ من الذخائر ؟ أفلا[3] يُهام عليها بكدّ الأبدان وبَذْل الأرواح ؟ أفلا يُجاد لها بما هو دونها في القيم والأرباح ؟ أفلا يُتَعَرَّف الطريقُ إليها ؟ أفلا يستعانُ بكلِّ صديقٍ وصاحب عليها ؟ أفلا يُتحسّر على الفائت منها ؟ أفلا يُطْرَبُ على الخبر[4] الطيب عنها ؟ أفلا يقال كيف [هي] وما هي وأين[5] هي ؟

يا هذا : كُفَّ عني فقد غِظْتَني مني ، وأريتَني منك أنك أني ، وهذه درجةٌ لا أرضاها لمن هو دوني[6] . فدعني وأرِحْني إن لم ترَوِّحني وتُفْرحني : إلى متى أهرفُ بما لا تعرف[7] ، وأبين ما لا تستبين ، وأشير ما لا تستشير ، وأدْوِي بما[8] لا تدري ، وأعلل نفسي منك بلَعَلَّ وعسى ، واليوم وغدا ، وكلا ولا[9] ، وبل وبلى ؟

طابت الأوطان ، ورحُبَت الأعطان ، وآن الرعيُ للسارح ، وسَهُلَ المأتى على الغادي والرائح . فهل من سامعٍ نجوى أهلِ الحق لباله الكاسف[10] ،

---

١ – ل : فيها كل نسيم .
٢ – ر : هو .
٣ – ر : اولا .
٤ – ل : الخبير .
٥ – ر : وان .
٦ – ر : عني ؛ ولعلها « عيني » .
٧ – ر : بما أعرف .
٨ – ر : واروي ما .
٩ – ل : ولا وكلا .
١٠ – ر : الكاشف .

وظعنه الآزف إلى صراط الله المستقيم ، ومقامه الأمين ، حيث لا خوفَ ولا حزَنَ ، ولا أنين ولا حنين[1] ، حيث قرارٌ مَعين ، ومكانٌ مكين . وهل من قارعٍ لباب الصفاء بيد الوفاء على الرفد[2] والتأيُّد ، والصبر والتوحُّد[3] ، والقناعة والنزاهة والتزهد ، والنسك والتعبد ، والخلوة والتفرد ، حتى أضمن لك زكاء العمل ، وبلوغ الأمل ، على الوَحَى[4] والعجل .

واشوقا إلى مريدٍ نحيف[5] ؛ واأسفا[6] على ذي حال لطيف ؛ واحنينا إلى عارفٍ طريف ؛ واحربا من متكلمٍ عفيف؛ واويلا على ذي همة شريف[7] ؛ عزب والله هذا الشانُ على أهلِ الزمان، فلا خبرَ ولا استخبار، ولا مُخْبِرَ ولا مُسْتَخْبَر . **أضحتِ[8] الدارُ خاليةً [١٥٠/أ] من قُطّانها** ، وعادت أطلالاً بعد بهجتها بسكانها . فلا لافظَ ولا حافظَ ولا رافضَ : لا[9] لافظ بالحق ، ولا حافظ للصدق، ولا رافض للرِّق. وإلى متى أسفي ولهفي، على أمرٍ وَلّى ولم يَقِف ؟

كَمَدٌ[10] قد أذاب الكبد ؛ أشكو إلى الله الواحد الصَّمَد، فالويل لمن رفعَ بثَّه إلى غير الله ، ويَئِسَ بجهله مما عند الله ، وظنَّ أن له فرجاً إلا بالله .

اللهم : إنّا لا نملك ضرّاً ولا نفعاً إلا بك ، ولا نرجو خيراً [ولا] ميْراً إلاّ منك ، ولا نخاف بواراً[11] إلا عليك ، ولا نطمع إلا فيما لديك. فاجعلنا[12] على

---

١ – ل : حنين ولا أنين .
٢ – ر : الرفق .
٣ – ل : والتوجد .
٤ – الوحى : السرعة .
٥ – ر : نظيف
٦ – ل : واشوقي ... واأسفي .
٧ – ر : شريفة .
٨ – ر : أصبحت ؛ وعنوان الرسالة : أضحت الدار ....
٩ – ر : ولا .
١٠ – ل : كم .
١١ – ر : تولداً . ١٢ – ر : واجعلنا .

ثقةٍ من قَبولك لنا ، وألِّف بيننا وبين رِفْقك بنا ، واشمَلْنا بعطفك علينا ، واسطعْ بنورك في أسرارنا ، واصدع [بلطفك][1] مُرْتتقَ عقولنا ، وزدنا[2] من فضلك لما يضيقُ عنه وُسْعُنا عند مسألتنا . وكما حرَمْتَنا الدنيا لتستمتع بنا[3] ، فاصرفْ خيالها من قلوبنا حتى نَتلْهَى عنها ، وخُذْ بأيدينا في مداحضها ، واحفظنا منها عند عوارضها ، وسلّطنا[4] على شيطاننا [بالردع][5] وعلى أهوائنا بالقَمْع ، وعلى شهواتنا بالعفاف ، وعلى أمانينا بالكفاف ؛ ولا تجعل خَبَرنا عنك غلَطاً منا عليك ، ولا دعاءنا إليك سهواً منا عنك ، ولا انبساطنا معك سوءَ أدبٍ منّا في صحبتك . فإنا لا نسلمُ من الزلّة إلا بتوفيقك ، كما أنّا لا نأمنُ إلا بتصديقك ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٥٤ -

حَرَامٌ على قلبٍ استنار بنور الله أن يفكِّرَ في غيرِ عظمةِ الله ؛ حَرَامٌ على لسان تَعَوَّد ذِكْرَ الله أن يذكرَ غيرَ الله ؛ حَرَامٌ على نَفْسٍ طَهُرَت من أدناسِ الدنيا لله أن تدنسَ بشيء من مخالفةِ الله ؛ حَرامٌ على عَيْنٍ نظرتْ إلى مملكة الله أن تُحدِّقَ إلى غير الله ؛ حرامٌ على كَبِدٍ ابتلّتْ بالثقة بالله أن تطمئنَّ إلى غير الله ؛ حرامٌ على مَنْ لم يرَ الخيرَ إلا من الله أن يُحَدّد[6] طَمَعاً في غير الله ؛ حرامٌ على من شَرُف بخدمةِ الله أن يتَضعَ بخدمةِ غير

---

١ – زيادة من ل .
٢ – ر : وردنا .
٣ – ل : حرمنا الدنيا لنستمتع بها .
٤ – ر : وسلطها .
٥ – زيادة من ل .
٦ – كذا في ر ، ولعل صوابه « يحدث » أو « يجدد » .

الله ؛ حرامٌ على من أَلِفَ فِناءَ الله أن يُعَرِّجَ إلى غير الله ؛ حَرَامٌ على من تلذذَ بمناجاةِ الله أن يناجي غيرَ الله ؛ حَرَامٌ على من رَتَعَ في نعمةِ الله أن يعبدَ غيرَ الله ؛ حرامٌ [١٥٠ / ب] على من سَكَنَ حَرَمَ الله أن يتعرضَ لحرم الله ؛ حَرَامٌ على من دعا إلى الله أن يجيبَ غير الله ؛ حرامٌ على عَبْدِ الله أن يتخذَ مَوْلًى سِوى الله ؛ حرامٌ على من أَنِسَ بالله أن يأنَسَ بغير الله ؛ حرامٌ على من عَرَفَ قُدْرَةَ الله أن يتعرضَ لسُخْطِ الله ؛ حَرَامٌ على من عرف عفوَ الله أن يغلِّبَ اليأسَ من الله .

يا هذا : إنما أنتَ بجوارحك ، وجوارحُك بك ، فإذا رتَّبْتَهَا في مراتبها ، كانت لك وكنت لها . فإذا أفسدت[1] نظامها كانت عليك لا لك ؛ أعني أن لك قلباً فَرَتِّبْهُ على حد الفكر في أفعال الله ، وسِراً فاحْشُهُ بمحبة الله ، وضميراً فقلِّبه في تيهِ خشيته[2] لوجه الله ، ونفساً فوكِّها بالرضى عن الله ، وروحاً فسرِّحه في رياض نِعَمِ الله ، وعيناً فسدِّدْها في اعتبار خَلْقِ الله ، ويداً فمرِّنْها على تناول الواجب من ملك الله ، وقَدَماً فصبِّرها على الخطواتِ إلى بابِ الله ، وعقلاً فاجعلْهُ رائداً عند الله ، وعلماً فاقصرْه على العلل لوجه الله ، وكُلاًّ فابذله فدىً لمرضاة الله ، وبَعْضاً فقِفْه على سلوك سبيل الله .

يا هذا : أما ترى حدثانَ الدهر ؟ أما تُحِسُّ مصائبَ الدنيا ؟ أما تشعر بأحكام الوقت ؟ أما ترى دورانَ الشمس ؟ أما تحس باختلاف الليلِ والنهار ؟ أما تؤمنُ بغيبِ هذا الشاهد ؟ أما تثقُ بشهادة هذا الغيب ؟ أما تبصرُ بعين الرأس تصاريفَ القدرة ؟ أما تضطر إلى الإقرار بربوبيته ؟ أما تلتجىء إلى القيام بدينونته ؟ أما تعلم أنه مُحْصٍ عملك ومقتف أثرك بعلمه ، ثم باطلاعه ، ثم بإحاطته ، ثم بالحَفَظَة مِنْ قِبَله ، ثم بانكشافِ الأشياء له وانتصابها بسمعه وبصره ؟

---

١ – ر : فسدت .

٢ – ر : حسنه .

إلهي : استزرتني فلما جئتُ حجبتَني ؛ دعوتني فلما أجبتُ جفوتَني[1] ؛ خاطبتني فلما استفهمتك أبهمتَ عليّ ؛ عثّرتني فلما استنعشتك تركتني ؛ أظمأتني فلما استسقيتك ذُدتني ؛ أبنتني فلما بدوتُ أبدتني . أحييتَني فلما حييتُ أمتَّني ؛ آمنتني فلما أمنتُ أخفتني ؛ كوّنتني فلما كنتُ كنيتني . فوحقّك لا فارقتُ بابك حتى تفصل[في]أمري وتحكمَ لي وتجودَ عليّ وتنظر إليّ ، وحتى تنقذني من دارك التي حشوتها بالغُصص والآفات ، وبالبلايا والمساءات ، وحتى ترفعني إلى جوارك ذي الظلّ السجسج[2] والماء المَعين ، والقرار المكين . والمقام الامين ، حيث لا أسمع فيه لاغيةً ، ولا أقاسي [١٥١ / أ] من ليس[3] مني في ثاغية ولا راغية[4] .

أرسُمُ لك في هذه الورقات كلاماً للحكماء في صفة الرجل العاقل العادل : كيف يكون ، ومن أين تحصل له هذه الفضيلة ، وصفة الرجل الحائر الجائر : كيف يكون ، ومن أين تدخل عليه النقيصة :

زعمتِ الحكماءُ على ما أوجبه آراؤها ودياناتها أن من الوحي القديم النازل من الله قوله للإنسان : « اعرِفْ نفسَك ، فإنْ عرفتَها عرفتَ الأشياء كلها» . وهذا قول لا شيء أقصر منه لفظاً ، ولا أطول منه فائدة ومعنى . وأوّلُ ما يلوحُ منه : الزرايةُ على مَنْ جَهِل نفسه ولم يعرفها ، وأخْلِقْ به إذا جهلها أن يكونَ لما سواها أجْهَل ، وعن المعرفة به أبعد ، فيصيرَ حينئذ بمنزلة البهائم ، بل أرى أنه أسوأ منها ، وأشد انحطاطاً وسَفالاً لها ، لأنها لم تشركه في التمييز ولا شَركها في الجهل . فلما حاول امتثالَ هذا الأمر لم يصلْ إليه إلا بعدَ

---

١ – ر : حضرتني ؛ وصوبته بحسب المعنى .

٢ – الظل السجسج : الذي لا ظلمة فيه ولا شمس .

٣ – من ليس : مكررة في ر .

٤ – الثاغية : الشاة ، والراغية : الناقة ؛ تقول : ليس له ثاغية ولا راغية ، أي لا يملك شيئاً ، فاذا قلت « ليس هو مني في ثاغية ولا راغية » كان معناه لا علاقة له بي .

التمهر في الفنون العقلية ، والتوهم[1] إلى فهم دقيقها وجليلها ، والإحاطة بكثيرها وقليلهـا ، فكأنّ ذلك الوحي إنمـا كان تلطفاً مـن الله له في استيعابها بالإيمـاء والإشارة ، والخفيف من العبارة ، ثم أدّاه الاجتهادُ إلى أن عرَفَ نفسَه ، وحدّها بأنه حيّ ناطق مائت ، وأنه مركب من الأخلاط الأربعة التي هي عناصره وأصوله ؛ فإن فيه نفساً ذات قوى ثلاث : وهي الناطقة التي مَسْكنها الدماغ ، والغضبيةُ التي مسكنها القلب ، والشّهَويّةُ التي مسكنها الكَبِد . لكن العادة جرت بأن تسمّى هذه القُوى نفوساً . وإن كان مرجعها إلى واحدة ، فيقال : نفس ناطقة ، ونفس غضبية ، ونفس شَهَوية : فللناطقة في الدمـاغ ثلاثة أماكن : أحدها يكون به[2] التخيل والإحاطة بالأشياء المُبْصَرة والمسموعة على ما هي عليه ، وهو المُقَدّم منه ؛ والثاني يكون به التمييز لهذه الأشياء ومعرفةُ حقّها من باطلها ، وصحيحها من سقيمها ، وحَسَنها من قبيحها ، ومُمْكنها من مستحيلها ، وهو الوسط ؛ والثالث يكون به الحفظُ لما وَقَعَ عليه التمييز . فكان الأوسط هو الأشرف ، إذ منزلته منزلةُ الحاكم الذي ترفع إليه الرفائع[3] وتصدر عنه القضايا ؛ ومنزلة المُقَدّم منزلة[4] الشاهد الصادق الذي يُنْهَى إليه ما يُرى ويسمع ؛ ومنزلة المُؤَخّر منزلة الخازن الحافظ يستودعه عِلْمَ ما ميّزه[5] وحصّله ، فمتى احتاج إلى شيء منه استدعاه من خزانته — فهذه حال النفس الناطقـة . وأما النفسُ الغَضَبية فبهـا تكون الأنفَة من العار ، والإباء[6] من الضيم ، وطلب الاقتصاص من الظُّلْم ، والانتقام عند الغضب . وأمـا النفس الشّهَوية فبها يكونُ حبُّ المطاعمِ والمشاربِ واللذات . ومثالُ الناطقة مثالُ الملِك المستولي ، وأفضلُ أحواله أن يكونَ عادلاً سائساً مهيباً مطاعاً قوياً [١٥١/ب]

---

١ — التوهم : من الوهم وهي القوة الدماغية التي تدرك المعاني الجزئية .

٢ — ر : بها .

٣ — الرفائع : جمع رفيعة ، تقول رفع فلان إلى العامل رفيعة ، وهو ما يرفعه من قضية ويبلغها .

٤ — ر : ومنزلة ، وهو خطأ .

٥ — ر : ميزها .

٦ — ر : والاناة .

في غير غلظة ، ورؤوفاً في مَهابة . ومثال الغَضَبية مثال جُنْدِه الذين يَسُدُّون ثغوره ، ويدفعون أعداءه ، ويُقَوِّمون رعيته ، ويُنَفِّذون أمره ، وأفضل أحوالها أن تكونَ عزيزةَ الجانب في نفسها ، سليمةَ الانقيادِ والطاعةِ لسلطانها المستخدم لها . ومثالُ الشَّهَوية مثالُ رعيّته الذين يجبُ أن تكونَ عريكتهم ليِّنةً مواتية ، ورهبتهم منه ومن جنده تامة مُسْتَحْكِمة .

وإذا جرى أمرُ الإنسان هذا المجرَى وأخذت هذه القوى مأخذها ، وتعادلتْ على أوزانها وأقساطها ، كان فاضلاً . وإن زال عن ذلك نَقَص ، وكان نُقصانه بحسب مقدار زواله . ومعلومٌ أن البهائم مساوية له في جميع أجزاء التركيب إلا في النفس الناطقة التي بها صار مهيمناً على جمعها، وسائِساً قاهراً لها ، ومن أجلها كان مكلَّفاً موقَّفاً ، ومثاباً معاقباً . ومن وصل إلى هذه الغاية من معرفة نفسه ، لزمه أن يسوسَها أحسنَ سياستها ، ويُسْلِكَها أَرْشَد سبيلها ، وأن يميِّز بين الخير والشر فيتوخى محموداتِ الأمور ، ويتوقَّى مذموماتها .

وإذ قد أتينا على هذه الجملة ، فينبغي أن نجعل لطريق الخير معالمَ تهدي إليه لتتبع ، ولطرق الشر معالمَ تنهى عنه لتجتنب . فنقول : إن كلَّ ما تفردت النفسُ الناطقةُ باستحسانه من غيرها فهو الخير ، وكلّ ما استقبحته منه فهو الشر . وإنما قلنا : « من غيرها » لأنها ربما عَمِيَتْ عن العيب إذا كان فيها ، وليست تَعْمَى عنه إذا كان في سواها ؛ وعلى أن الشاعر قد أطلق ذلك ولم يرَ فيهم مُبرَّءاً منه ولا سليماً ، فقال : [١٥٢ / أ]

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عَيْبَ غيرِه ويَعْمَى عن العيبِ الذي هو فيهِ [1]
وما خيرُ مَنْ تخفَى عليه عيوبُه ويبدو له العيبُ الذي لأخيهِ

---

١ – الشعر لسعدون المجنون (انظر فوات الوفيات ١ : ٢٤٤) .

والذي أصارها إلى هذه الحال اكتنافُ ما يكتنفها من شوائبِ النَّفْسَيْن الباقيتين المساكنتين[1] لها في هيكلها ، وهما الشهويّةُ والغضبية ، فإنهما يجذبانها إلى الغلَط في الأمرِ الخاصّ ، ولا يجذبانها إلى الغلَط في مثله من غيرها ؛ فليس تسلم من معارضتهما إلا بأن تكون صارمةً قوية ، وعَزوفاً أبيّة . وليت لها إذا كملت قوتها واستحكمت شدّتها تثبّتاً[2] لمغالبة العَدُوَّين اللذين معها ؛ قيل : ويلٌ للقويّ بين الضعيفين . فلما أن كانت ضعيفة بين قويّين ، فهناك تجتمع العيوبُ والمثالب ، وترتفع المحاسنُ والمناقب . وقد شبهتِ الحكماءُ الإنسانَ ببيت فيه إنسان وخنزير وسَبُع : فالإنسان العقل ، والخنزير الشهوة ، والسَّبُع الغضب . وقالت : أيُّ الثلاثة غلب[3] فالمَسْكَن له ؛ وذلك يوجد قياساً وعياناً : فإن الرجلَ اللبيبَ الضابطَ لنفسه هو الحقيقُ بأن يسمّى إنساناً ، والرجلَ الذي قد استعبدته[4] واستتبعته شهوته بالخنزير أَشْبَه ، والرجل التائه الغضبان بالأسد أَشْبَه .

ويُحتاج في هذا الموضع إلى فَضْلِ إيضاح ينفصل به من زيادة الزائدين : وهو أن الشهوةَ والغضبَ ، لو كان قَهْرُهما وحَصْرُهما واجباً على الإطلاق ، لسَقَطا من أصلِ التركيب سقوطَ ما يُسْتَغْنَى عنه ، بل ما يُتَحرَّز منه . لكن هناك ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب المطاعمِ التي بها قوام البدن ، والارتكاب للطيّب من[5] المناكح التي [بها][6] بقاء النسل . وضرورة أخرى إلى الغضب : لدفع الظلم وإباء الضيم والأنَفة من العار والذبّ عن الحريم . إلا أنه يجب أن

---

١ – ر : الباقين المساكين .
٢ – ر : تثبت .
٣ – ر : غلبت .
٤ – ر : استبعدته .
٥ – ر : من لطي .
٦ – زيادة لازمة .

تكون هاتان النفسان تحت طاعة النفس الناطقة وسلطانها لتُجْرِيهما مجرى [١٥٢/ ب] المركوب الذي يُرْكَب عند الحاجة بسَرْجٍ يُذَلّله ، وشكيمة تحنّكه ، وعنان يثنيه ، وسوط يخيفه[١] . فإذا نزل عنه راكبه ألزمه الرباطَ والشِّكال ، لئلا يجدَ على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد فيُهْلك نفسه . ويجني على غيره .

ومما ينبغي للإنسان أن يعلمه أنَّ هذين العَدُوَّين . من شهوته وغَضَبه . ربما اختدعاه وتشبها له بالصديقِ الذي هو العقل ، فظنَّ أنه في طاعته إياهما مطيعٌ له ، واستعملَ الشرَّ على أنه خيْر ، وجارَ على أنه عادل . وأخطأ على أنه مصيب . وسبيلُ الحازم أن يشتمل[٢] على ما أرشدناه إليه سالفاً ، لينجوَ من مصائدهما ومكايدهما ، ويُفْلِتَ من أشراكهما وحبائلهما ، فيَعْرِضَ على قلبه ما تدعو إليه نفسُه ؛ على أن الفعلَ واقعٌ من غيره وقوعَهُ منه ، فليعلم أنه خير صالح وليُمْضِه ، [و] إن كان علـى الضدِّ من هذه الصفة ، فليعلمْ أنه شرٌّ محض وليمتنع منه . ثم ليتأمل المستحسَنَات فإنه سيجدها مما يُخَصّ الإنسانُ به ، ولا تَشْرَكه البهائمُ فيه : كالحِلْم والكَظْم والكَفِّ والعُزوفِ وضبْط الحَمِيَّة وعِصْيَان الشهوة واعتزالِ المحارم والتحوّب من المـآثم . وليتأمل المُسْتَهْجَنات ، فإنه سيجدُها مما تَشْرَكُه البهائم فيه ، بل هي أقوم منه [عليه][٣] : كَشَره البطن، وعُهْر الفرج ، ومحبة الانتقام . وكفاه بذلك وازعاً عما ضَارَعها فيه ، وباعثاً على ما استأثر[٤] عليها به .

وليس كلُّ من قاده عقله إلى العلمِ بمراشد الأمور ، انقادتْ له نفسه إلى العمل بها ، فقد رأينا كثيراً من أهل المعرفة يأمُرُونَ ولا يأتَمِرون ، ويزجرون ولا يزدجرون ، ويعرف من المتطبّبين من كان ينهى عن يسيرِ التخليطِ في المآكل،

---

١ - ر : تخيفه .

٢ - ر : يستعمل .

٣ - زيادة ضرورية .

٤ - ر : عما استثاره .

وينهمك في كثيره ؛ ومن المتفلسفين – الذين هم أطباء النفوس – مَنْ كان يَذُمُّ مقابحَ الأخلاق ومفاحشَ الأفعال فيرتكبها في خلواته[1] . وتاركُ العمل مع الجَهْل أعْذَرُ من تاركه مع العلم . والحازم من الناس مَن سدَّ بالرأي ثُغورَ الهوى ، ورابطَ فيها بجيوش النُّهَى : إما بالإباء المرّ[2] والاعتزام الفحْل إن وَثِق من مُنَّته بالقوة والاستقلال ، وإما بالتفويض إلى النُّصحاء إنْ أحَسَّ منها بالضعفِ والانخزال ؛ لأنه إنما يجاهد عدُوّاً نازلاً [١٥٣/أ] بين حجابيه ، مالكاً لجميع جوارحه عليه . فإنْ أطاقه على الانفراد [وإلاَّ] فليساوِرْهُ بالأعوان والأعضاد .

وإذا كان الإنسان قد علم أنه مركَّب من شيئين : أحدهما شريفٌ وهو النفس ، والآخر دنيءٌ وهو الجسم ، فاتخذَ للدنيء منهما أطباءَ يعالجونه من أمراضه التي تعروه ، ويواظبون عليه بأقواته التي تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته التي تُنَقِّيه ، وتَرَكَ أن يفعلَ بالشيء الشريفِ مثلَ ذلك ، فقد أساءَ الاختيار عن بيِّنة ، وأتى الغَلَطَ على بصيرة. وأطباءُ هذه النفوس هم أهلُ الفضل ، وأقواتها الغاذية التي لها هي الآدابُ المأخوذة عنهم ، وأدويتهم المنقية هي النواهي والمواعظ المسموعة منهم ، والسلام .

زينة[3] اللفظ في المعنى ، وحُسْنُ المعنى في الصِّدْق ، والصدقُ ينقسم على صالح القول المؤدِّب والفعل المهذَّب ، وميراثُ الفعل باقٍ على وجه الدهر وخوالدِ الليالي ؛ وقيل :

---

١ – ر : خلواتها .
٢ – ر : بالا بالمز .
٣ – يبدو أن الناسخ عاد إلى النقل عن نسخة اخرى دون الاشارة إلى ذلك ، إذ ان نهاية الفقرة السابقة تشير بوضوح إلى أنها نهاية الرسالة كلها ، وقد رسم المؤلف علامة الانتهاء في الاصل ، ثم بدأ هذه الفقرة في سطر جديد .

العُرْف أصـــــل يجـى   من فرعِه الثمــرُ الجديــدُ
يَبْلَى الفتى في قـــــبره   وفَعــاله غضٌ جديـــــدُ

وإنما يُقَدِّم هائِلُ الخطيئة على مخوف الخَطْب .

أما بعد – أطال الله بقاءك مُحَسَّداً ، وأدام عزك حميداً مؤيَّدا ، وأنعم عليك مُرَفَّهاً مُسَدداً – فقد علمتَ بصادق تجربتك وثاقب فطنتك ، وبمر الأحداثِ بك ، وصروفِ الأحقابِ عليك ، وبدوّ صفائحِ الأيام إليك[1] ، أن الجهدَ فَضْلٌ محروم ، والفاضلَ حرٌ مظلوم ، والرأيَ سيِّدٌ كَذوب ، والهوى عَبْدٌ مغلوب ، والطمعَ خُلُقٌ خبيث ، والقدرَ طالبٌ حثيث ، واللَّسَن[2] عدوٌ ناصح ، واللفف[3] صديقٌ فاضح ، والمُلْكُ والد عقيم ، والعِشْق دائم[4] قديم ، والدهر عَيْرُ[5] هوانٍ ، والقناعة خَيْرُ أمان ، والحرص صورةٌ شوهاء ، والحَسد خلةٌ بَلْهاء ، والعلم عنوانٌ دارس ، والجهل حظٌ ناقص ، والزمان عسيرٌ غدور ، والحرُّ منه في طرفي غرور ، والفقر لباسُ ذلٍ وثوب عارٍ ، والمسألة لؤْمُ نفسٍ وسوء اختيار : نعم ، والموت [١٥٢/ ب] ركيّة مورودة ، وطريق مَهْيع[6] ، وحال مُلْتَبسة ، والناس فيه أبناءُ واحد ، وحُلَفاءُ معاهد . ومع ضرب الامثال وتصريف المقال ، بيني وبينك أحوالٌ – اللسانُ لا يُصنِّفها ، والعبارةُ لا تصرِّفها ، والوصفُ لا يأتي عليها ، والإشارة لا تصلُ إليها ؛ كلُّ ذلك للطافة ورقة ونحافة ودقــة[7] – مِنْ فَضْلِكَ الذي

---

١ – ر : عليك .
٢ – اللسن : الفصاحة والبيان .
٣ – اللفف : العي في اللسان .
٤ – كذا في ر ، ولعلها : « داء » .
٥ – ر : عين ؛ وفي المثل ؛ فلان أذل من العير ، فبعضهم يقول هو الحمار الأهلي وبعضهم يقول هو الوتد ، والثاني عناه الشاعر بقوله :

ولا يقيم على ضيم يراد بـــه   إلا الأذلان عير الحي والوتد

٦ – المهيع : الواضح البين .   ٧ – ر : للطافته ورقته ونحافته ودقته .

أظلَّتْني غمامَتُه ، ومَطَرَتْ عليَّ سحابته ، وأزهرت بي أرْضُه ، وأخضلت عليَّ روضته ، والتفَتتْ عندي زَهْرته ، وتكاملتْ عليَّ بَهجتُه ، وورثتُ منه شوقاً يقلع الكبد والفؤاد ، ويجلب الفكر والسُّهاد ، ويُزعِج الرُّوحَ والنَّفس ، ويَسْلُبُ الرَّوْحَ والأنْس ، وغراماً يُلْزمني غُرْماً لا طوق لي بقضائه[1] ، ويسومني خَسْفاً لا أجدُ سبيلاً إلى جزائه[2] ، ويُعْليني ثَنيَّةً أتمنى دونها معانقةَ الحِمام ، ويَهْبِط [بي][3] وادياً أسهلُ منه مضاجعة اللَّحْد ، ونزاعاً ينازعني في أمري ، ويحاول بشدته انقضاءَ عُمْري ، وصبابةٌ أكاد من رقتها أطيرُ إليك ، وأقف بغرائب حالي عليك . فليت ذلك كذلك ، فلعلك تطالعُ شَبَحاً قد أنضاهُ السفر ، وأضناه التمني ، وأنْحله البلى ، وأذْبَله البلاء ، وجار عليه الزمان ، وصَدَّ عنه الإخوان ، ونَبَتْ به الأوطان ، وبقي فرداً لا يُغاث ولا يُعان : إن سكتَ نُسبَ إلى اللُّكْنة والعِيِّ ، وإن نطق رُمي بالرِّيبة والغَيّ ، وإن تحرك هبَّ به الاضطرابُ والوَلَه ، وإن سكنَ تحكّم فيه اليأسُ والتقنّع[4] ، فكلٌّ حاله عَبَث ، وكل أمره خَبَث : ليس له في أمره لسانٌ ينطق بالحق ، ولا شفيعٌ يُقْبَل على الصدق ؛ علّتُه في كونه ، وراحتُهُ في فَقْده ، واستراحتُهُ في عدمه ؛ هذيانه في ليله ونهاره قولُ القائل :

كفى بك داءً أن تَرَى الموتَ شافيا وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا[5]

يَذُمُّ زمانه وهو عَيْنُ المذموم فيه ، ويهجو أيامَهُ وهو قلادةُ العار عليها .

---

١ – بقضائه : دون اعجام في ر .
٢ – قراءة الأصل : عزائه ؛ والجزاء : الرد .
٣ – زيادة لازمة .
٤ – التقنع : القناعة ؛ وفي ر : التصنع .
٥ – البيت للمتنبي (ديوانه : ٤٣٩) .

قُلْ سيدي : فكيف يَلَذُّ بُعدا[1] أحبّائه مَنْ يعالجُ مع اللّمَحات وفاته ؟ أم كيف يتصرّف بذكر ما حالفه ولهج به مَن ليس له لهجةٌ تُفْصح ، ولا صدرٌ ينشرح ؟ أم كيف يُفاد سكونُ من نَزَحَتْ داره عن [١٥٤ / أ] الحبيب ، وحُرِم مشافهةَ الصديقِ ومفاكهةَ الخليل ؟ بل كيف يصولُ بالعلم مَنْ منتهاه فيه الجهل ؟ أم كيف يلتجىء إلى الحيلة مَنْ فِطْرَتُهُ العَجْز ؟ أم كيف يتناولُ الثريا من مأواه الثرى ؟ أم كيف يتسنَّح الخبر لمن يتنكر عليه العيان ؟ أم كيف يوقنُ بالقول من يتشكّكُ في الفعل ؟ أم كيف يطمئنّ إلى السكونِ من يَهيجه الغليان ؟ أم كيف يهتدي [إلى][2] الربح من لا مَخْلَص له من الخسران ؟ أم كيف يطمعُ في الكمال من لا مَخْرَج له من النقصان ؟ فسبحان مَنْ لو آثر لَحكّمنا في أمورنا ، فلَعلّنا كنا نصيبُ بعضَ الإصابة ، ونقفُ منه على طَرَفٍ من أطراف السعادة . هيهات : تلك مُنْيةٌ دونها مَنيَّة . وجهالة قرينتها ضلالة .

ها أنا لا أُحيل على غيري : أستحِلُّ الله عَقْدي ، وأَسْتَفِكُّه رهينتي ، وأستقيله عَثرتي ، وأستنعشه صَرْعتي ، وأسترحمه عَبْرَتي ، وأسأله بلسان الذُّل والضراعة ، توقيعَ الكفاية والقناعة ، منذ حينٍ وزمان ، في كل وطن ومكان ، فيأبَى إلاّ ما هو أعلمُ بمصلحتي فيه ، وسلامتي عليه . وإليه الشكوى ، و[هو] نعم المــولى .

هذا ولست آسى على فائت ، فإني أحرزت قَصَبي منه ، واستوفرتُ حظّي فيه ، وقضيتُ وَطَري به ، وحكّمت الأماني عليه ، وسحبتُ ذيلَ الرضى معه . وإنما تحركني رسومها[3] الباقية في نفسي ، وآثارها الجارية على صدري ، وصورُها الماثلة لعيني ، وخيالها الملمّ بسوادي ، وذكرها المولع بلساني ، فأما

---

١ — ر : بعدد .

٢ — زيادة لازمة . ٣ — لعل الضمير يعود الى «الأماني» .

إذا حقّت الحقائق ، وزال اللّبس ، وصح العتاب ، فليس الذاهبُ في النزاع إليه بأجملَ من المنتظرِ بجميل الصبرِ عليه . واني لأصْبَرُ من عَوْدٍ بجنبيه جُلَب[1] :

قالوا تصبّر ، قلت : فالصبر شيمتي — ألم تعلموا أنّ الكريم صبورُ ؟

* * *

فلئن صَبَرْتُ لأصبرنّ بحَسْرَةٍ — ولئن جزعتُ فإنني معذورُ

وليس الأول من الثاني[2] ، ولكن كما جرى القلم عليه ، وسمح الطبع به. وأوصيك :

كُنْ للحوادثِ بالعَزاءِ مُقَطِّعا — فلقلّ يومٌ لا ترى ما تكْرَهُ

[١٥٤/ ب] آخر :

ومن جعلَ الظلام[3] لـه قَعوداً — أصاب به الدُّجَى خيراً وشراً[4]

آخر :

واصبر فما استشفَعْتَ في مَطْلَبٍ — بشافعٍ خيرٍ من الصبرِ

آخر :

في كلِّ يوم للزمانِ عِثارُ — ونوائبٌ تَتْرَى عليَّ كِثارُ
وتنقّلٌ مِنْ نعمةٍ في نعمةٍ — ما تنقضي أو تنقضي الأعمارُ
وكأنّني بصروفِهِ وخطوبِهِ — رَبْعٌ مَحَتْهُ الريحُ والأمطارُ

---

١ – هذا مثل (الميداني ١ : ٢٧٦) والعود : الجمل المسن ؛ والجلب : جمع جلبة ، وهي حديدة تكون في الرحل ؛ وللمثل قصة طويلة أوردتها كتب الأمثال .

٢ – يعني ان وزن البيت الأول ليس من وزن البيت الثاني (اذ الأول من الطويل والثاني من الكامل) .

٣ – ر : الكلام .

٤ – ورد هذا البيت مع أبيات أخرى في بهجة المجالس (١ : ٢٣٠) لعبد الله بن أبي الشيص وانظر عيون الاخبار ١ : ٢٣٢ – ٢٣٣ ؛ وقد أورد أبو حيان هذا البيت مع بيتين آخرين في البصائر ٢ : ٦٤ دون نسبة .

واصبِرْ فإنّ الصبرَ عزمُ ذوي الحِجَى ووراء ليلك[1] إن عقلْتَ نهارُ

آخر :

إذاالناس قالوا : كيف أنت وقدبدا ضميرُ الذيبي ، قلتللناس : صالحُ

آخر :

هَوِّنْ عليكَ فإنَّ الدهر غايتُهُ إبرامُ مُنْتَقِضٍ أونَقْضُ منبرِمِ

ولقد سمعتُ بدوياً في أرض بني ربيعةَ يقول لمسايِرِهِ : أيها الإنسان ، عِهْ مقالي : مَنْ ذا الذي نَبَتَ عُودُهُ على جائحةِ الزمان ، وثبت عمودُهُ لعواقبِ الدهر ؟ هَوِّنْ ، فما أهونه على كَرَمٍ مُصاص[2] ، وجوهر ثمينٍ ، وعِرْقٍ مَوْصول ، وأصلٍ شريف ، ومُعْتَزىً محمود ؛ فاستحسَنْتُهُ فتلقنته ، فهل تشاركني في استحسانه حتى أنتفي من وَحْشَةِ الانفرادِ ، وأتحلّى بأنسِ الاقتران ؟ فإن أعجبك هذا زدْتك منه ، فإني سمعتُهُ يقول لصاحبه الأول في أعطاف كلام كان يديرها[3] بقدرته ، ويتسلّط عليها بسماحة طبعه : يا أيها النسمة ،

هل عاند الدهر إلاَّ مَنْ له خَطَرُ

والله يا رفيقي وشريك زادي ، لقد صحبتُ الليالي ستين عاماً مذ عقلت ، فما غدرني إلا من استوفيْتُه ، ولا كدّرَ عليّ إلا من استصفيته ، ولا أمرَّ لي إلا من استحليته ، ولا أهملَ أمري إلا مَن استرعيته ، ولا قَذِيَتْ عيني إلا بمن جعلتُهُ ناظرَها ، ولا انحنى ظهري إلا بمن نصبتُهُ عمادَه ، ولا نجمتْ لي نجاةٌ إلا من حيث لم أحتسبْ ، ولا سبقَتْ إليَّ مسرةٌ إلا ممن لم أكتسب .

---

١ – ر : لبك (دون اعجام للباء) .

٢ – المصاص : الخالص .

٣ – الضمير في « يديرها » يعود إلى « أعطاف » .

سيدي : فهل بعدَ هذه الجملة قرارٌ لنفس ، أو قرةٌ لعين ، أو مَهْنأةٌ لعيش ، أو مَرْضاة لعقل ، أو تسلية لحُرٍّ ، أو بُقْيا على فاضل ؟

اسمع مني – فديتك – وارفق بي – حَمَيْتُك – فهذا كله نُفاثة صدرٍ قد امتلأ بالغيظ ، وعُصارةُ [١٥٥/أ] فضلٍ قد ابتلي بالنَّحْس . واعلم أن الزمان جمعني وإياك على غير شرط الأنس وحُكْم المراد وواجب التبسط ، فكان ذلك كسحابة تطلّعت ثم تقشّعَتْ[١] ، واقتلعت[٢] ثم أقلعت . فيا لها أمْنية لو وَكَفَتْ[٣] بالحديث الحلو ، والعلم المخزون ، والخُلُق الطّاهر ، والفعل المصيب ، والأدب النفيس ، والقول المُزَعفر[٤] بالنُّصْح ، والبشر المُعَصْفَر[٥] بالنُّجْح ، والرأي المؤيَّد بالحكمة ، والصواب المستفاد من الحُنْكة ، والحال الجامعة لشوارد الأنس ، والأمر المؤلف بين مختلفات الحسن[٦] ، فإن لساني على بُعد الدار ، وتراخي المزار ، لا يجول[٧] بخواصّ العلم وخوالص الأدب ؛ والعللُ أنت أعرف بها وأهدى إليها . فليت الزمانَ إذْ[٨] حَرَمَني المُنَى ، لم يُصْلني بنارِ التمنّي .

بالله يا سيدي : هل عندك شيء مما عندي ؟ فلعلي بالوهم نطقتُ ، وعلى الظن جريت ، وبالبرق الخُلَّب اغتررت ، وإلى جَهْد المُقِلّ اضطررت ، وسُوْرَةَ اللَّغْو تَلَوْتُ ، وأثرَ الوسواس قفوت :

فَلَمْ أرَ مَحْزُونَيْن أجمَلَ رَوعةً ... على نائباتِ الدهرِ منّي ومن جُمْلِ[٩]

---

١ – ناظر إلى قولهم « سحابة صيف عن قريب تقشع » .
٢ – كذا في ر ؛ ولعل صوابها « وأتلعت » أي ارتفعت .
٣ – وكفت : قطرت أو سالت ، والضمير عائد إلى السحابة .
٤ – المزعفر : المشوب بالزعفران .
٥ – المعصفر : المشوب بالعصفر .
٦ – ر : الحسنى .
٧ – ر : يحول .
٨ – ر : إذا ؛ وربما قرئت : إذ أخذ مني .
٩ – الشعر لابن دارة واسمه عبد الرحمن ، يقوله في حبس صديقه السمهري العكلي اللص وقتله ، ويهجو بني أسد لأنهم بعثوا بالسمهري إلى السلطان (انظر الاغاني ٢١ : ٢٥٤ ط . دار الثقافة) .

كلانا يَرُدُّ النَّفْسَ وهي حزينةٌ ويُضْمِرُ وَجْداً كالنوافذِ بالنَّبْلِ

إن كان أيدك الله للمضارعة حكم ، وللتشاكُلِ تأثير ، ولائتلافِ الأرواحِ حقيقة ، فهذه القضية مرضية مستقيمة ، وهذه المطالبة صحيحة قويمة ؛ وإن تكنْ أخرى ، فليس هذه بأعجب من أخواتها :

وإنّ اغترابَ المرء منْ غير حاجةٍ ولا فاقةٍ يسمو بها لعجيبُ
وحَسْبُ امرىءٍ ذُلاً وإنْ أدركَ الغنى ونال ثراءً أن يُقَالَ غريبُ

آخر :

لكلٍّ ولايــةٍ لا شكَّ عَــزْلُ وأمْرُ الناسِ عَقْدٌ ثم حَــلُّ

آخر :

دعِ الدهرَ يجري بمــقدارِهِ ويقضي عجــائبَ أوطــارِهِ
ونَمْ نومةً عن وُلاةِ الأمــورِ وثِقْ بالزمــانِ وأدْوارِهِ
لعلكَ تَرْحَمُ من قد غَبطْتَ وتَعْجَبُ منْ سُوءِ آثــارِهِ

آخر :

وطالبِ جاهدٍ ما ليس يُدْرِكه ومُدْرِكٍ ما تمنّى غيرَ مُجْتَهِدِ
وربّ[1] مُدَّخرٍ ما ليس آكِلَه ومستعدٍّ ليوم ليس في العَدَدِ

هذا كله بساطٌ طَيُّه أَوْلَى ، ونَشْرُه أَبْلَى ، ولكن الغريقَ بكلِّ مرثيةٍ حتميق . ولو أذنتَ سألتك في[2] التنائي عن بعض ما فاتني في التداني ، فإن ذلك يُرَوِّح قلبي ، ويُفَرِّج كَرْبي ، وأنا إليه فقير [١٥٥/ب] وبه مطالَب ، وأنت العالِم كلُّ العالِم ، والفاضل كلُّ الفاضل : بجليل كلِّ علم ، ودقيقِ كلِّ معنى ، وغرض كل قائل ، وأرَبِ كلِّ سائل . وسؤالي لا يقف على منهج

---

١ – ر : ولرب ، وبها ينكسر الوزن .

٢ – ر : : عن .

واحد ونبرةٍ واحدة ، فإنَّ قادحه مُتَلَوِّن ، ومُنْشئه مختلف ، وذلك لأني أظهر تارةً بالرسوم وأنازعكَ فيها بالمعاني ، وتارة أدّعي لك المعاني وأطالبك فيها بالحقائق ، ثم أناديك بأسماء يعرفها القريبُ والبعيد ، والغائب والشهيد ، ثم أناجيك بحروفٍ يَرْجَحُ العِيُّ عندها ، ويُفضَّلُ الخَرَسُ عليها . فهل من صَبْرٍ فأتقدم على مَقْدرةٍ ، أو هل تتوقفُ محتاطاً فأتأخَّر عن معذرة ؟

سيدي : لا تنكر تلوُّنَ خطابي وإطالتي به كتابي ، فكل ذلك لتباين أحوالي ، وشتات أموري ، واختلاف مقاصدي ؛ فإني :

أريدُ فلا أُعْطَى وأُعْطَى ولم أُرِدْ   وقَصَّر عِلْمِي أن ينالَ المُغيَّبا[1]

فلا جَرَمَ صباحي مساء ، ومسائي عَمى ، ودعواي باطلة ، وقولي زُور ، وانتباهي تعلُّل ، ورَقْدتي موت ، ورضايَ خسيس ، وعلمي تخيُّل ، ورجائي توهُّم ، وظنّي شك ، وحقي مَخيلة ، وطريقي حَسَك ، وعَطائي خديعة ، ومنعي طَبْع ، وطَبْعي نَكَد ، وكمالي نقص[2] ، وولايتي عَزْل ، وظاهري حسرة ، وباطني حيرة ، وحالي سَراب ، وبُنْياني خراب ، وجُرُفي هائر[3] ، وصوابي خطأ ، وبقائي حلم ، وفنائي رَوْح ورَيْحان . نعم ، وكُلَّ كُلّي بكلّي قبيح ، وجَميعُ جميعي بجميعي مرذول .

هذا لسانٌ بحرُ البلغاءِ فيه نقطة ، وذكاتهم[4] فيه ميتة . فهذا حالي وشاني ، وربعي[5] ومَيْداني ، ومَأخَذِي ومُضْطَرَبي ، ومجالي ومصطرفي ، فهل عندك من علاج يكشف ما بي ، أو من مساعدةٍ تخفف بعض أوصابي ؟ هيهات : أنَّى

١ – البيت لبشار بن برد (ديوانه : ٢٥–جمع العلوي – والمختار من شعر بشار : ١١٨) وفيه : أنال .

٢ – ر : بعض .

٣ – الجرف : عرض الجبل الأملس ؛ الهائر والهاري : الساقط المتهدم .

٤ – الذكاة : الذبح .   ٥ – ر : وربيعي .

يكون لك هذا ؟ وأنّى تَوَقُلك إليه ؟ وأنت أيضاً في قميصي تتبختر ، وفي ذيلي تتعثر ، وإن كنتَ أمثَلَ مني[1] ، وإنما رضاكَ موقوف على مثل قولك :

والنارُ يعرفه من كان قَدَّاحا
والثُكْلُ يعرفه من كان نَوّاحـا

هذا الواصل إلينا من اشاراتك . فأما ما اعتاصَ والتوى من مثل قولك :

[١٥٦/أ]تباركْتَ خَطَرَاتي في تعالائي فلا إله إذا فكرتَ إلاّ ئي

وقولك فيه :

لآيــةُ الـهوَ في هُوِيّــة اللائي مثلُ الدواءِ الذي تبغيه للـداءِ

فإليك بيانُه ، وعليك برهانُه ، ولسنا نُشاحُك[2] فيه ، ولا ننافسك به ، لأن اللفظَ به كَدِرٌ ، والمعنى عَسِرٌ ، والإرادةَ في شِقّ ، والعبارة في شق ، وبهاؤه مُنْتَزَع ، وتصحيحه ممتنِـع .

ونعوذ بالله من الوَسْواس الخنَّاس ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صدُور النَّاس من الجِنَّة والنَّاس﴾ (الناس : ٥ – ٦) .

تمت المجلدة الأولى من الإشارات الالهية والأنفاس الروحانية ،
بحمد الله ومنه ولطيف صنعه
ويتلوه المجلدة الثانية ، وهي الرسالة الخامسة والخمسون :
« كتابي إليك أيها الصديق ، وأنا أسألك أن يسألك . »
وفرغ من كتبه محمد بن أحمد بن علي الأشعبي بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وستين وأربعمائة .
معارض مصحح من أول المجلد إلى آخره .

---

١ – ر : عني .
٢ – المشاحة : المنازعة .

مُلحَق (١)

ملخّص من الاشارات الالهية

(مخطوطة برلين رقم ٢٨١٨ آلوردت)

PDF
www.iqraa-pdf.net
مرجعك الأول
في تلخيص الكتب

هذه الكراريس ملخصة من كتاب

الإشارات الإلهية لأبي حيان

في علم السلوك ورقة التصوف وحسن التربية ورقيق المناجــاة

واتباع رضى الحق

* * *

رحم الله تعالى مؤلفها وكاتبها وقارئها ومستمعها ووفق وأعان على سلوكها ، فانه القادر على ذلك ، المنجي من المهالك ، والامر كله لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،وبه ثقتي وهو حسبي ونعم الوكيل .

* * *

عدة كراريس هذا المجموع أربعة وعشرون كراساً .

[١/ب] بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

- ١ -

اللهمَّ[١] : طَهِّرْنا من ذنوبنا ، ونقِّنا من عيوبنا ، وأطْلِعْنا على غُيوبِنا ، وأنصِفْنا من قلوبنا ، واحفَظْنا في طلوعنا وغروبنا ، وكنْ لنا عند راحتنا ودؤوبنا ، إنك القادر الحكيم ، والغفور الرحيم . إليك نرفعُ حوائجنا ، وعلى بابِكَ ننيخُ مَطَايانا ، وبتصاريفِ أحكامِ المشيئةِ نوكل أبصارَنا ، وعلى لطائفِ بِرِّك نُعَوِّلُ في شهادتنا وغَيْبَتنا ، وإليك ننتسبُ كيف دارتْ أحوالُنا ، وجَرَتْ أعمالُنا . من ذا الذي عرفَكَ فسكنَ إلى غيرك ؟ من ذا الذي أحبَّكَ فَصَبَرَ عنك ؟ من ذا الذي عَزَّ بك فذلَّ إلى سواك؟ من ذا الذي سَمِعَ كلامَكَ فلم يرتحْ لذلك ؟ من ذا الذي عَرَفَكَ فلم يرتفعْ من خَلْقِك ؟ من ذا الذي زَارك فلم تَتَلَقَّهُ كرامتك ؟

يا هذا : كم أترجَّحُ بك طالباً لفَلاحك ، وجالباً لصلاحِك ، في عاجلتك وآجلتك ؟ كم أرفع صوتي لك ، وأخْفِضُهُ متلطّفاً لك ، حتى تنقادَ لِحَظِّك ، وتجتني ثمرة حياتك ؟ كم أضرب لكَ الأمثالَ ، وأحذوها [٢/أ] على مثالٍ بعد مثال ؟ كم أتَغَنَّى لتطرب ؟كم أترنَّمُ لتشرب ؟ كم أجتهدُ لتستريح ؟ كم أَفْطِمُكَ عن ارتضاعِ هذه الدنيا لتكونَ من أمرِكَ على بصيرة ، ومن حالك على وتيرة وثيرة ؟ فانتبهْ من سِنَتِك ، وتَيَقَّظْ من غفلتك ، وعليَّ أنْ أنقلَكَ من هذا المنزلِ الونيّ ، إلى ذلك الملك السنيّ :

الرياحُ التي تهبُّ نسيمٌ   والنجومُ التي تضيء سعودُ

---

١ - وردت هذه الرسالة دون عنوان .

وفي الجملة ترتقي إلى مكان لا تجد [فيه] من آفات هذا المكان شيئاً ، لانك ها هنا بين شتاءٍ مؤذٍ ، وصيف وَمِدٍ[1] ، وربيع متلون ، وخريف قاحل ؛ هذا حديث الزمان ، وهكذا ايضاً حديثُ المكان ، حَذْوَ النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة[2] ، من جَدْبٍ عارض ، وحريقٍ واقع ، وظَعْنٍ مزعج ، وثواءٍ مضجر ، وارتدادِ نفس حسرةً على[3] فائت ، وتردّدِ أمَلٍ على مأمول مُنْتَظَر . وعلى هذا مما هو موقوف على الحدثان ، وكائن بحسب الزمان والمكان . ولن ترتقي إلى هناك إلا بعد أن تتنظّفَ من أوساخِ هذا الموضعِ تنظّفاً تاماً ، بلا دَرَنٍ باقٍ ، ولا دَنَسٍ عارض ، وهذا لا يكون إلا بتجريدِ النية [٢/ب] وإصلاح الطويّة ، والإقبال عليه بهمة عليّة .

أنتَ - حفظك الله - لو أردتَ من هذه الدنيا منزلةً رفيعة ، وحالاً بين أهلها جليلة ، لأخذت أهْبَتَها ، وجمعتَ أدواتها ، واستعنتَ بأقرانك في اجتلابها ، وسهرتَ مفكّراً ، وفكّرت ساهراً ، وضربتَ يَمْنةً ويَسْرة ، وكدحتَ طالعاً وغارباً ، وسعيتَ غادياً ورائحاً ، ونحوتَ إليها خائفاً وراجياً ، وقفوتَ أثرها خادعاً ومنخدعاً ، وبذلتَ روحكَ مختاراً ومضطرّاً . وسلوتَ عن قليلك وكثيرك طائعاً وكارهاً ، فكيف اذا طلبتَ هذه المرتبةَ عند الله : الذي خلقك ورزقك ، وقبَضَك وبَسَطَك ، وهداكَ وأرشدك ، ومَلَكَكَ ومَلّكَكَ ، وحبَاك وأحبّك ، وهيّأك وخصّك ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ (النساء : ١١٣) .

يا هذا : إن أردتَ الثواءَ في جواره ، والمقامَ في دياره ، والتقلّبَ في نِعَمِه الهنيّةِ المريّة ، الطيّبةِ الشهيّة ، مع النَّظَر إلى وجهه ، وسَمَاعِ كلامه ،

---

١ - الومد : الذي فيه ومد ، وهو الريح الآتية من ناحية البحر في شدة الحر وسكون الهواء .

٢ - ل : القدة بالقدة ؛ والقذة : القطعة التي حرفت على نحو التدوير والحذو والتسوية ؛ وفي الحديث : تتبعون آثارهم حذو القذة بالقذة ، قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

٣ - ل : على حسرة .

والتَّبَحْبُحِ في آفاق مملكته ، والفَوْزِ بِجَنَّتِه ، والحَوْزِ لنعمته ، فَهَبْ رُوحَكَ لمطلوبك ، واقصرْ سعيك [٣/أ] على مُرادك ، ولا تَتَرَجْرَجْ بين السلوةِ والرغبة ، وبين الرقَّةِ والقسوة ، وبين النشاطِ والكسل . فإنَّ مُرادَكَ لا يُنالُ إلا بتعبِ الجسم ، وهجرانِ الراحة . وبَذْلِ الموجود ، والبراءةِ من كلِّ عائق ، والأخْذِ بكل خلُقٍ فائق . ليس الامر بالهوينا : صحبةُ المُلُوك لا تُنالُ إلا باجتراحِ العلقمِ والوجهُ مُتَهَلِّل . وإلا بشربِ السمِّ والوجهُ ضاحك . وإلا بنَحْرِ النفسِ والقلبُ طيِّب . والا بتحمُّلِ البلاءِ والتسليمُ واقع . أما تعلم أن مَنْ تلذَّذَ بالبلوى قَرُبَ فَرَجُه ؟ ومن ضَجِرَ بها طالَ حَرَجُه ، وعَسُرَ مَخْرَجُه ؟ إنَّما دَرَسَ هذا الطريقُ لأنَّ سالكيه[١] قلّوا ؛ إنَّما خَلاَ هذا الغديرُ لأنَّ واردِيه ملُّوا .

ومتى لم تَسْتَطِعْ بلوغَ هذه الغاية . فلا أقَلَّ من رُكُوعٍ تَصِلُهُ بسجود ، ومن برٍّ تضمُّه إلى برّ ، ومن صَدَقَةٍ تتلو بها صدقة ، ومن لسانٍ تمرنُهُ على صِدْق ، ومن نيةٍ تُؤَسِّسُها على إرادَةِ الخير ، ومن رحمٍ تقصد بلالها[٢] ، وتصل ما قُطعَ منها ، ومن طَلاَقَةِ وجه ، وإبداءِ بِشْرٍ ، وهَجْرِ غِيْبَةٍ ، وبَذْلِ معونةٍ ، وحَمْلِ مؤونةٍ ، ونُصْرةِ مهضوم[٣] ، وتسليةِ مُمْتَحَن ، وتلقينِ غبيّ ، وإرشادِ ضالّ . وتقويم [٣/ب] معوّجٍ ، وتعزيةِ مصابٍ ، ولِيْنِ كلمة ، وإيثارِ رِفْقٍ ، ومجانبةِ خُرْقٍ ، وتوقير ذي سِنٍ ورحمةِ ضعيفٍ ، وإيواء تائهٍ ، ونُصْحِ مُتَحَيِّر ، فإنك بهذه الأخلاق واللطائف تنالُ خيرا كثيراً : من صيتٍ حَسَنٍ في العاجلة ، وذُخْرٍ جزيلٍ

---

١ – ل : سالكوه .

٢ – بلالها : الرجوع عليها بالصلة ، يقال : رحم مبلولة أي موصولة .

٣ – ل : مهظوم .

في الآجلة ، وبهذا تَنَال الجنانَ والخلدَ والغُرَفَ والحور العين والوِلْدانَ المُخَلَّدين والأتراب العُرُب[1] .

يا هذا : إن لم يكن لك في الكلام شُروع ، ولا له فيك نُجوع ، فاعلمْ أنَّ ذلك علامةُ سوء تدلُّ على أنَّكَ مِنْ فَلاحِكَ على إياس ، وفي آخرِ عمرك تُشْرِف على ياس[2] . فكيف الحِيلةُ لي الآنَ معك ؟ بل[3] كيف الحيلة منك في نفسك ؟ أوه ! دَعْني حتى أنوحَ وأبوح ، فإنّي عن قليلٍ أغدو ولا[4] أروح :

تفرّقَ جيراني وكلُّ مجاورٍ ... إلى فُرْقةٍ والدهرُ منه مُديلُ[5]
وإنّي لآتي الأمرَ أعرف غبَّه[6] ... مراراً وحِلْمي في الرجال أصيلُ
ولمّا رأيتُ الدار[7] قَفْراً بها المها ... ترودُ وخيطانُ النّعامِ تجولُ
ذكرتُ بها عيشاً وقلتُ لصاحبي ... كأنْ لم يكنْ ماكانَ حينَ يزولُ
وأيقنتُ أنّي فَضْلُ امسٍ ، وماغَدٌ ... مع اليومِ بالباقي عليه فضولُ
[٤/أ] بدا لي أنَّ الدهرَ يقدحُ في الصَّفَا ... وأنَّ بقائي حين شبتُ قليلُ
أقولُ لقلبي والتفتُّ[8] إلى الصبا ... علامَ التصابي والحوادثُ غُولُ
لعلّك ترجو أنْ تعيشَ مخلَّداً ... أبَى ذاك شُبَّانٌ مَضَوْا[9] وكُهولُ

---

١ – العرب : جمع عروب ، وهي المرأة المتحببة الى زوجها أو الحسنة التبعل.
٢ – ل : باس .
٣ – كتب في الأصل : ام ، وكتب فوقها : بل .
٤ – ل : أولا .
٥ – الشعر لبشار بن برد (ديوانه ، جمع العلوي : ١٧٨) والبيت الأول والخامس لم يردا هنالك .
٦ – الديوان : غيه .
٧ – ل : الدهر .
٨ – الديوان : وهو يرنو .
٩ – الديوان : لنا

يا هذا : كيف أتيقظُ والسِّنَةُ غالبة ، أم كيف أتحفَّظ والآفةُ مراقبة ، أم كيف أُخبرُ والخبرُ مظنون ، أم كيف أعاين والعيان مكنون ، أم كيف أفصح والإفصاح رمز[1] ، أم كيف أُدمج والإدماج عَجْز ، أم كيف أسالم والحَرْبُ قائمة ، أم كيف أَسْلُو والنفسُ رائمة ؟ هيهات : لا حالَ يُشار إليها إلا وهي مَشُوبة ، ولا حقيقة يُهام عليها إلا وهي محجوبة !

اللهم : فجُدْ لنا بما يُغْنينا عنّا ، وهَب لنا ما يُصَفّينا منّا ، فقد تكدّر بنا كدرا لا نَصْلُحُ معه لخدمتك ولا نتهنّأ به في مملكتك . اللهم : وإن كنّا أُتينا منّا ، فانّا ما أُتينا من سَيْرنا رويداً ، فبحرمة الغَيْبِ الذي نَفَذَ فينا من قدرتك إلاّ وَهَبْتَ لنا تقصيرنا ، وسَهَّلْتَ إليكَ مَسيرَنا .

أيها السامع : ما أَحْوَجَكَ إلى بال يحضّك[2] ، وتوفيقٍ يمدك ، وعقلٍ ينصحُ لك ، وعلْمٍ يبقى معك ، وسرٍّ يُكْتَم لديك ، وحقيقةٍ تُوكلَ بك ، وحكمة تَسْنَحُ[3] فيك ، وينبوعٍ يَتَفجَّرُ منك ، حتى تسمع ما يقال [٤/ب] لك واعياً ، وتعي ما تجده راعياً ، وتنكمشُ[4] في الجدِّ ساعياً ، وتقوم بنفسك على نفسك ناعياً ؛ فانك إن عدمتَ هذه اللطائفِ التي أحْصَيْتُها لك ، ونأيتَ عن هذه المواقفِ التي عرضْتُها عليك ، سمعتَ ساهياً ، وَرَوَيْتَ لاهياً ، وتبدَّدتَ في جملة ذلك وتفصيله ، لا مُؤْتَمِراً ولا متناهيا ؛ فتثبت حفظك الله مجتهداً ، وقُمْ لنفسك في هذا الامر العجيب على ساق ، قبل أن تُدْفَعَ إلى ضروبِ الشقاء والندم ، ولا تردنَّ الناصحَ لك ، فانما هو لسان الحق : يوقظُكَ لك ، ويحفظُكَ منك ، ويهديكَ إليك ، ويطلعكَ عليك . حتى إذا

---

١ – ل : زمن .
٢ – ل : يحفك .
٣ – ل : تسبح .
٤ – انكمش وتكمش : اسرع وانشمر في الأمر .

عرفتَ بعضَكَ وَكُلَّكَ ، حملتَ عيبَكَ وكلّكَ ، وفارقتَ شخصكَ وظلّكَ ، وكنتَ بلا كونٍ يعتقبُهُ فساد ، وعلى حالٍ في الصفاء لا يُقلُّها سِنَاد ، ولا يؤثّر فيها نقصٌ ولا ازدياد . فهلمّ إلى هذا الديوان الذي فيه حجابُ أسرارِ القلوب ، وعجائبُ أفانينِ الغيوب ، وانظرْ : هل لك فيه ما اذا استوفيتَه غَنيتَ به غِنَى الأبد ، ولم تحتجْ بعدَه إلى أحد ؟ وانظر أيضاً : هل عليكَ فيه ما اذا خرج أخذتَ بوفائه وأدائه حينَ الفقرُ لك لازم ، والضُّرُّ [٥/أ] بك مُحيط ، والحاجةُ شاملة ، حين لا مال ولا منال ، ولا مقدم ولا مجال ، إلا العزيز الجبار .

- ٢ -

العبق بأرج الرضى من الإشارات الإلهية

سقَى اللهُ عصراً خلاَ في الزمنِ الأولِ ورعياً له ، فما كان أنضره عياناً وخبَراً ، ومشاهدةً وأثَراً . لقد كانت الأماني فيه حاضرةً بلا غياب ، والآمالُ منقادةً بلا استصعاب ، والأوطارُ مَقْضيَّة ، والأحوال مرضيّة ، ونجومُ الهوَى ثاقبة ، ودارات الصبا مُتَصاقبَة ، وسِتْرُ المنى على سُبُوغِه مرسلاً ، ورداءُ الجمال بطولِه وعرضِه مسترسلاً ، وقولُ الكاشحِ على تنميقِه مردوداً ، ونَفَسُ الحاسدِ مع تَلَهُّبِه مقدوداً[1] ، وغُصْنُ المراد بالمراد وَريقاً ، ونَسَبُ الوِصالِ بالوِصال عريقاً ، وبابُ التحكُّمِ بالتحكُّم مفتوحاً ، وسِرْبُ العِتاب بالعتاب مَسْرُوحاً[2] ، وأعيُنُ الأعداءِ بالذلّ مَغْضُوضة ، وأيد[ي] الأضداد بالغلّ مقبوضة ، وأنوفُ الحُسَّادِ بالكُرْه

---

١ - القد : القطع ، ومنه قد الكلام أي قطعه ، وعلى هذا يمكن أن يقال نفس مقدود ، مجازاً ؛ واذا قرئت « معدوداً » كان المعنى أن نفسه قصير الأجل .

٢ - المسروح : من سرح الماشية فهي مسروحة أي أخرجت الى المرعى في الغداة .

راغمةً ، وصدورُ أهل النِّفاق بالحسرةِ واغمة[1] . كيف غَرَبَتْ شَمْسُه . وتضعضعَ أُسُّه ، وأَفَل نجمه ، ودَرَسَ ظلُّه ، وغاب شاهدُه ، ونُسي عهدُه ، وانحلَّ عَقْدُه ، وأظلمَ جوُّه [٨/ب] وتبدَّلَ حُلْوُه ، وخَوَى نـــوُّه ؟

فيا لهفي على تلك الساعات ، ويا عجبا : أينَ انجَلَى ليلُه ، وأين أَسْفَرَ صباحُه ، وأينَ نَضَبَ وعاؤه ، وأين خَبَا ضياؤه ، وأينَ انتشرَ شَجَرُه ، وأينَ انتثر ثمره ؟ ويا عجبا : أين المُخْبِرُ عنه ، والنازعُ إليه ، والذاكر له ، والمتأسِّف عليه ؟ وكيف يستغاث إلى الله تعالى من قصير نهار[ها][2] [ويم]رب إظلامها من إسفارها؟ ويا عجبا: لو أعيدت صورها علينا في المنام بدلاً من اليقظة ، وكنا نستأنس منها بالحِكَم ، ونقضي حاجات النفوسِ بلا ألمَ ، ونقول : إن كانت عَيْنُها فانية فَأَثَرُها باق ، وان كانت حقيقتُها زائلة فَظِلُّها واق ، وإن كان لِقاؤها مُتَعَذِّراً فالتعللُ بها راق ؛ ثم آه لو كانَ ثوبُ الوفاءِ مديداً ، وأثر من آثارِ الصفاء عتيداً : كنّا نفارق أَرْواحَنا أسىً على ما فاتنا ، وكنّا لا نَقْنَعُ لأنفسنا بأضاليلِ المنى ، ولا نحابيها عندَ المطالبة بحقائق الهوى . تمزَّقَ — واللهِ — سربالُ الوفاء ، وعَفَا أَثَرُ الصفاء ، فلم يبق من الحقوقِ إلا رسومٌ دائرة ، ولا من الدعوى إلا كلماتٌ مُتَنَاثرة ؛ خَبُثَتِ الأسرار في الأسرارِ ، وفَسدتِ الأخبار في الأخبار ، وطُمِسَتِ الآثار في الآثار ، فلا جَيْبَ إلا وهو مشقوقٌ بالحسرة ، ولا خدَّ إلا وهو [٩/أ] ملطومٌ بالحيرة ، ولا قلبَ إلا وهو مَصْدُوع بالحرقة ، ولا كَبِدَ إلا وهي مُقَطَّعَةٌ بالفُرْقَة ، ولا عينَ إلا وهي مُسْتَعْبِرَةٌ بالقَطْرَةِ بعدَ القطرة ، ولا نفسَ إلا وهي مُوَدَّعةٌ بالنَّظْرَة بعد النظرة .

---

١ – واغمة : حاقدة متغيظة .

٢ – تأمل كيف تغير الضمير هنا من التذكير الى التأنيث ، ولعل ذلك بسبب تردد المؤلف في إعادة الضمير إلى «العصر» ثم إلى «الساعات» .

يا هذا : التوبيخُ شديد ، والعتابُ مديد ، والعذرُ رديد ، والهجرُ نارٌ أو كالنار . أتدري لمَ أبعدوك عن فِناء الحبيب؟ ولمَ أسْقَموك ثم منَعوك الطبيب؟ ولمَ نبَذوك بالعَرَاء وَحْدَك ، بلا قريبٍ ولا غريب ؟ لانك جهلْتَ ما عاملُوك به ، وأعرَضْتَ عن مكافأةِ ما أهدَوْهُ إليك ، واستَبْـدَدْتَ بهواكَ في هواك . فأحوَجُوكَ إليك ، ثم أعجزُوكَ عنك . ثم فضَحوكَ فيك ، ثم نادَوْا عليك بك ، ثم جعَلُوك عِبْرَةً لمن تأمَّلَك ، وآيةً لمن سلَكَ مَسْلَكَك . فعاقِبِ الآن عينك على ما جنَتْ ، فانها نَظَرَت إلى غيرِه ، وفارِقْ نَفْسَك من أجلِ ما رَكَنَتْ إليه ، فانها سَكَنَتْ إلى سواه ؛ خلِّ بينك وبينك به ، حتى تكونَ بلا بَيْنٍ بينك وبينه ، فإنما بَلاؤك منك : إنما أنْعَمَ عليك لِتَتَنَعَّمَ بنعمتهِ في معرفته ، ثم تَرْتَقي من معرفتِه إلى أهْلِ خاصّته ، ثم تَطْلُعَ بمعرفته على ما صانَكَ به ، وأوْدَعَكَ من صفتِه ، فتَطَاولْتَ إلى ما لم يؤذَنْ لك فيه ، وتَمَنَّيْتَ ما لم يُبَحْ لك تَمَنِّيه ، ثم لم يَكْفِكَ حتى تَرَنَّمْتَ به ، وهَتَكْتَ السِّتْرَ دونه ،وأبْدَيْتَ مكنونه ، وأفْشَيْتَ [٩/ب] مَصُونَه ، وابْتَذَلْتَ مَخْزُونَه ، طرباً منك على وصفٍ لا حُصُولَ له ، وشوقاً إلى موصوف لا حاصلَ لك منه ، فها أنت دامِي الخدِّ ، راغمُ الأنفِ ، مسودُّ الوجهِ ، عاثرُ القدم ، دائمُ الأرق ، متّصلُ الزَّفير ، تدعو فلا تُجاب ، وتحتجُّ فلا يُسْمَع ، وتَعْتَذِرُ فلا يُقبل ، وتَنوح فلا تُساعَد ، وتَثْكَل فلا تُعزَّى ؛ فلو كنتَ لزمتَ حدّك بحدّك ، ثابتاً على وجْدٍ يَشْهَدُ لك ، وشوقٍ ينطقُ عنك ، وعتابٍ يستحلى فيك ، وحجةٍ تُسْمَعُ منك ، ونَظْرَةٍ تصحُّ إليك ، ونَفْسٍ تدلُّ عليك ، لكنتَ الآن تميسُ في أعطافِ أهلِ الخالِصَة ، واثقاً بما سَبَقَ منك ، أيامَ التعرُّضِ للوصلة والخاصة ، ولكنتَ اليومَ تعبقُ بأرَجِ الرضى ، وتَسْطَعُ بنورِ الوِصال ، وتَتَبَخْتَرُ على رؤوسِ الأشهاد ، وتَبْذُلُ من كَنْزِ الحكمة ، وتدعو فتُجاب ، وتَقْتَرح فتُطاع ، وتشهدُ فتُخْدَم ، وتزور

فتَكْرم ، ولكنك مشيتَ مَرِحاً ، فعثرتَ تَرِحاً ، ونمتَ حالماً ، فانتبهتَ نادماً ، وشهدتَ جاهلاً ، فغِبْتَ ذاهلاً .

يا هذا : العشقُ نار ، والمحبةُ بَرّ ، والمعرفةُ بحر ، والتوحيدُ فضاء ، والطاعةُ جبَل ، والصبرُ [١٠/ أ] أرض ، فمن اقتحمَ النارَ احترقْ ، ومن سلك البَرَّ تاه ، ومن ركبَ البحر غَرِق ، ومن نزل في الفضاءِ طَاح ، ومن حمَلَ الجبَلَ[١] تفسَّخ ، ومن اعتنقَ الصبرَ اطمأنّ .

اذا أردتَ أن تَجِدَ فَجُد : يعني اذا أردتَ ان تَجِدَ الله فجُدْ بنفسك لله ، واذا أردتَ أن تدركَ فاسلك ، ودعِ الهوينا ، فمن أَحبَّ ان يلحق المنى ، تَشَمَّرَ لما هناك وتسلّى عما هنا .

اللهمَّ : إنّا نذلُّ لك بنا ، ونعزُّ معك بك ، وندعوك لنا ، ونُسْلِمُ إليك منك ، لأنّا إذا أَحْسَسْنا نِسْبَتَنَا مِنْ عبوديّتنا لك ، بدتْ علينا علامةُ الخشوع والخضوع ، وإذا أَحْسَسْنَا نِسْبَتَنَا من ربوبيتكَ لنا ، بَدَتْ فينا أنوارُ العزّةِ والجَبَرُوت .

فَرَقِّنا - اللهمَّ - من مقاماتِ نَقْصِنَا بنا ، إلى دَرَجاتِ كمالِنا بك ، فانك اذا رقيت رقّيت ، واذا وقيت وفّيت : رَحْمَتُكَ وسعتْ كلَّ شيء ، ومَشِيئَتُكَ نَفَذَتْ في كلِّ شيء ، وقدرتُك استولتْ على كلِّ شيء ، وما تعفَّرَتْ جبهةٌ لك اعترافاً بإلهيتك إلا بَيَّضْتَها بنور معرفتك ، وشَهَرْتَها بين عبادك بشعارِ أهلِ خاصّتك . فها نحن قد سَجَدْنا لك عَابِدين ، وأَشَرْنا إليك بقلوبنا مُوقِنين ، وَدَعَوْنا إلى بابك مُحَبَّبين ، واستَجَبْنا [١٠/ ب] مستسلمين ، فاجعلنا من المقبولين ، وأَغْنِنا عن الخلق أجمعين .

إلهنا : لك عَنَتِ الوجوه ، ولقدرتك ذلّتِ الصّعاب ، ولفضلكَ توجَّهَتِ الرِّغاب[٢] ، وعلى بابكَ أُنيخَتِ الرِّكاب ، وفي فِنائك طَرِحَت

---

١ - ل : الجمل .
١ - ل : الرغبات .

الرّحال ، وبك نيطَ الرّجاء ، وإليكَ تَوَجَّهَتِ السرائـر ، وبمناجاتِكَ تَلَذَّذَتِ الضمائر ، وعلى عَفْوِكَ عَوّل أهلُ الجرائر ، وعلى كرمِكَ تَوَكّلَ أهلُ المفاقر .

إلهنا : كنْ لنا ، وكنْ معنا ، وكنْ عندنا ، وانظرْ إلينا ، وتَفَضّلْ علينا ، ولا تَرُدّنا بعد ما عَرّضْتَنا ، ولا تُخَيِّبْنا بعدما ثَبّتّنا . سَنّ[1] أقفال قلوبنا ؛ طهّرْ أثوابَ عيُوبِنا ؛ افتحْ أبوابَ غيُوبِنا ؛ ذَلّلْنا لطاعَتِكَ في مُوافقَتِكَ على إرادتك ، ودَلّنا بنعْمَتِكَ في كَنَفِ عنايتك بيْنَ المُقَرَّبين عندكَ ؛ أزِحْ علّتَنا ؛ أرِحْ همّتَنا ؛ جَرِّدْ نيّتَنا ؛ نَوّرْ طَوِيّتَنا ؛ سَهّلْ سَجِيّتَنا ؛ ادفعْ بَلِيّتَنا ؛ ارددْ غُرْبَتَنا ؛ فَرّجْ كُرْبَتَنا ؛ ارحَمْ حَيْرَتَنا ؛ اطفِ حُرْقَتَنا ؛ ابللْ غُلّتَنا ؛ بالغْ في كَرَامتنا : كنْ لنا جاراً ومجيراً ، فإنّا بك مستجيرون ، وبقدرتك مُنْتَصِرون ، ولآلائك حامِدون ، ولنعْمائك شاكرون ، وبتَصَاريفِ قَضَائِكَ مُتَشَبّثون ، وإليك [١١/ أ] راجعون ، وعليك مُعَوّلون .

أيها الصديق الصدوق : أمَا لك قَلْبٌ عَلوق ، ونَفْسٌ إلى الخيراتِ سبُوق ؟ أمَا لَكَ التفاتٌ إلى حظّك الذي قد تَرَكْتَهُ ساهياً ؟ أما لك حياءٌ من ربك في ارتكابكَ ما نهاكَ عنه ؟ أمَا لك أنَفَةٌ من شماتةِ عدوّ الله بك ؟ أمَا لك رغبةٌ في إقبالِ الله عليك؟ أمَا لك على حِرْصٌ إحرازِ نصيبك من حياتك ؟ أمَا لك همّةٌ في كَشْفِ غُمّتك ؟ أما لك تَطَلّعٌ إلى حظّك ؟ أما لك شوقٌ إلى وَطَنِكَ ؟ أما لك نُزُوعٌ عن غَوَايتك ؟ أما لك حنينٌ إلى دارِ إقامتك ؟ أما تَرَحَمُ اركانَكَ المتخَلْخِلَة ؟ أما تفكّرُ فيما وراءك من الوَلْوَلَة ؟ أما تحبُّ أن تكونَ من المكرّمين عند ربك : الذي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ ، وأرْفقَكَ وَوَفّقَكَ ؟ أما لك أن تُمَيّزُ ما لكَ ممّا عليك ؟

---

١ – سن : افتح ، يقال : سنى العقدة والقفل اذا فتحهما .

حدّثني : بأيِّ حَوْلٍ تصول ؟ وبأيِّ سلاحِك[1] تَلْقَى ؟ وبأيِّ قُـوةٍ تَبْطش ؟ وبأيِّ لسانٍ تَحْتَجّ ؟ وبأيِّ حيلة تَتَخلّص ؟

حدثني : ما الذي غَرَّك ؟ أَسِتْرُهُ الذَّيال السابغ ؟ أم رِفْقُهُ المتواصلُ البالغ ؟ أم رَحْمَتُهُ لك لضعفك ؟ أم إنْظارُهُ إيّاك إلى أوانك ؟

يا هذا : فَتَنَك قرينك السوء ، وغَرَّكَ رائعُ العين ، وأسهاكَ الحلوُ والحامض ، وسَرَقَكَ الأحمرُ والأصفر ، وكَذَبَكَ الأَمَـــل [١١ / ب] الكَذُوب ؛ وغَرَّكَ الغَرور ، فكأني بك غداً وقد مُحي اسمك من ديوانِ المقبولين ، وكُتِبَ في ديوانِ المطرودين . لو كان لك بعذابِ الله طاقةٌ لعذرتك ، ولو كان لكَ على غضبه صَبْرٌ لأمسكتُ عنك ، ولو كان لك على إبعاده بقاء لَكَفَفْتُ دونك . لكنْ أعلَمُ أنك لا تلبثُ لِنَفْحَةٍ من نَفَحَات عِقَابه ، بل لا تَقومُ لحرفٍ من حروفِ عتابه .

هلكتَ وما تدري ، وخسرتَ وما تشعر ، وخبتَ[2] وما تعلم ، وَبِدْتَ وما تُحسّ ، ومُسِخْتَ وما تَعْقِل . ما أجرَأكَ للهلاكِ إلى نفسك ؛ ما أصرَّك على هَتْكِ سِتْرِك بيدك ؛ ما أغباكَ وما أعماكَ عن رُشْدِك مع قُرْبه منك ؛ ما أضلَّكَ عن سَوَاءِ السبيل ؛ ما أثقلَ أذنك عن نداءِ الدليل ؛ ما أسْلَكَكَ لطريقِ التعليل ؛ ما أركَبَكَ لظهرِ التسويل ؛ ما أولاكَ بالويلِ والعويل ! وما لي أقول هذا كله وانت لا تَقْبَل ؟ لا أَبْعَدَ اللهُ غَيْرَك ولا أهلَكَ سواك !

اللهم : إنّا نتقلّبُ في أكنافِ مُلْكِك ، متعجّبين من أفاعيلك ،مستمتعين بأقاويلك ، مستنيمين إلى وعدِك ، لغرائب أخبارك . اللهم : فارحم تقلّبنا ، وزد في تعجّبنا ، واخصصْنا بمؤانستك ، واجعلْنا من أهلِ خالصتك ، وانفضْ طريقَنَا إلى خدمتك من كل راصد يعترينا في التّوجّه [١٢ / أ] إلى طاعتك ، يا ذا الجلال والإكرام .

---

١ – كذا في ل ؛ والسياق يتطاب « وبأي سلاح » .   ٢ – ل : وخنت.

- ٣ -

ربيع المهزولين من الإشارات الإلهية

بأبي مَن خيالُهُ نصب[1] عيني ... وورائي وحيث ما درتُ دارا

يا هذا : هذه كنايةٌ عن اشتمالِ الحقِّ عليه ، وإحاطته به ، فإنْ قلتَ : هذا خيرٌ عام ، فلمَ خَصَّهُ بالثناء ؟ قيل لك : لو كنتَ من أصحابِ الحِرَق والحُرَق[2] ، لم يُشْكِلْ عليكَ ما يمرُّ في هذه الطُرُق ؛ شَغَلَكَ الأوانُ والمكان ، عن تذوُّقِ هذه الغرائب والمعاني ، وليس العجب أن تكون غريباً في هذا ، بل العجبُ أن لا تكون غريباً ؛ على أنك لو اعتزيتَ إلى هذا البلد لاسْتَوحَشْتَ، لإلْفِكَ قوماً[3] : هم مأنسُ مشاعِرِك ، ومقابِسُ مَسَاعِرِك ، ورَوادِفُ أَحْسَاسِك ، ومراوِحُ أَنْفَاسِك ، يألَفُهُم طَرْفُكَ إذا رَمَق ، ولسانُكَ إذا صَدَق ، وطَيْفُكَ إذا طَرَق ، وخيالُكَ إذا مَرَق ، كلاّ ! لو اعتزيتَ إلى هذا المكانِ بِهِمَّةٍ ذاتِ صَفَاء ، ونيَّةٍ ذاتِ نَقَاء، وشمائلَ قَدْ حُفَّتْ بالتواضع ، وأطراف قد زُيِّنَتْ بالتخاشُع ، ورغبةٍ قد تَجَمَّتْ عن إخلاص ، وتعرُّضٍ صَحَّ في طَلَبِ الاختصاص : لاستوحَشْتَ ممن كنتَ تألَفُه ، وأنكَرْتَ من كُنْتَ تعرفه ، لِما ترى من زِبْرِجٍ لا عَهْدَ لك به ، ووَشْيٍ لم تمرَّ قطّ بمثله .

وصاحبُ هذا [١٩/ ب] الحديث انما هو[4] هَرَفَ[5] بما عرف ، وانما شهد

---

١ – كتب في الأصل : « وسط » وفوقها « نصب » .

٢ – يعني المتصوفة .

١ – ل : قوم .

٢ – هو : الأفضل اسقاطها .

٣ – هرف : قال هذياناً من شدة الاعجاب أو ما يشبهه .

بما عهد ، وانما نَطَقَ بما تَحقّق ، وإنما جادَ بما وَجَد ، وانما استطالَ بما نال ، وانما حَكَمَ بما أحكم ، وانما ألقى بما لَقي ؛ وانما سَعِدَ حيث شَقي ، وأنتَ فلستَ منه ، ولا تقفُ على لغته ، ولم تختلفْ إلى ديوانه ولم تَطّلعْ على عُنْوانه ، ولم تسمعْ مِنْ خَبَرِهِ فضلاً عن عيانه ، فكيف تدري ما أرادَ بقوله ، وإلى أي غرض رمى بلفظه ، ومن أيِّ بحرٍ غَرَفَ ما غَرَفَ ، ومِن أيِّ غصنٍ قَطَفَ ما قَطَف ، وعن أيِّ بَرْقٍ خَطَفَ ما خَطَف ؟ هيهات :

يعرفُهُ الواحدُ من جنسه وسائرُ الناس له مُنْكِرُ

يا هذا : **هذا ربيع لا يرعاهُ إلا المهزولون** ؛ هذا منهل لا يرده إلا اللاهثون ؛ هذا صوب لا يستسكبه إلا المُمْحِلون ؛ هذا فناء لا ينزله إلا المطرودون ؛ هذا مَقَامٌ لا يَصْبر عليه إلا المقبولون ؛ هذا حَرَمٌ لا يختاره إلا المَخْصُوصون ؛ هذا بابٌ لا يَقْرَعُهُ إلا المتَّقون ؛ هذا غِناء لا يَطْرَبُ عليه إلا العاشقون ؛ هذا بِساطٌ لا يَطأه إلا المقرَّبون ؛ هذا عتابٌ لا يستلذُّه إلا المهجُورون ؛ هذا سرٌّ لا يفهمه إلا المحترقون ؛ هذا غَيْبٌ لا يشهَدُهُ إلا المُصْطَفَون ؛ هذا عِيد لا يحضُرُه إلا [٢٠/أ] المُفْرَدون ؛ هذا شرابٌ لا يَذُوقه إلا العارفون ؛ هذا تاجٌ لا يلبسه إلا المكرَّمون ؛ هذا رَوْضٌ لا يحلُّهُ إلا المحبّون ؛ هذه عبارةٌ لا يسمعُها إلا المبرورون ؛ هذه كعبةٌ لا يحجّها إلا المدعوُون[1] ؛ وهذه غمرةٌ لا يخوضها إلا المدربون[2] ؛ هذه إشارة لا يدركها إلا المؤدَّبون ؛ هذه كأسٌ لا يجرَعُ منها إلا المرتَّبون ؛ هذه جمرةٌ لا يدنو منها إلا المقرُورون ؛ هذه دُرَّةٌ لا يغوصُ عليها إلا الموفَّقُون ؛ هذه بلدةٌ لا يُسافِر إليها إلا المشتاقون ؛ هذه قَفْرَةٌ لا يقطعها إلا المتوكِّلون ؛ هذه نعمةٌ لا يجدُ عليها إلا

---

١ – ل : المدعون .

٢ – ل : المذرنون .

الهائمون ؛ هذه علامةٌ لا يهتدي بها إلا العالمون ؛ هذه تذكرةٌ لا ينتفع بها إلا الناصحون ؛ هذه تبصرة لا يحرزها إلا المستبصرون !

يا هذا : عليك بالصدق فانه نجاه ؛ عليك بالحق فانه نجاه ؛ عليك بالقناعة فانها غِنىً ؛ عليك بالدين فانه الحِصْن ؛ عليك بالخير فانه ذُخْر ؛ عليك بالقرآن فانه نُور ؛ عليك بالأَثَر فانه أُنْس ؛ عليك بالصمت فانه حِرْز ؛ عليك بالعلمِ فانه رَائد ؛ عليك بالعَمَل فانه قائد ؛ عليك بالتوكّل فانه كِفاية ؛ عليك بالتسليمِ فانه سِلْم ؛ عليك بالإيثارِ فانه كَرَم ؛ عليكَ بالزهدِ فانه راحة ؛ عليك بالسَّهَر فانه حياة ؛ عليك [٢٠/ ب] بالفِكْرِ فانه مفتاح ؛ عليك بالجماعةِ فانها مَحَجَّة ؛ عليكَ بالتقوى فانها حُجَّة .

أما إنّي ألطفُ بك تارةً شَفَقَةً عليك ، وأعنفُ بك تارةً رياضة لك ، وأُدرّجك تارةً استبداداً بك ، وأعرفك تارةً استفراداً لك ، وآخذك ذات اليمين وذات الشمال حتى تتوقح[1] وتَمرُن ، فلعلّك تُزايلُ أخلاقاً ألفْتَها من أبناء جِنْسِك ، حتى فتَنَتْكَ وَغَبَنَتْكَ . وَصَرَفَتْكَ عن مَرْأى إشاراتِ الواعظ .

فأعِنّي قليلاً على نفسِك حتى تزولَ عنك عادتُك ، التي قد أقذَتْ عينك ، وختَمَتْ على فيك ، وكَفّت يَدَكَ عن حَظِّك : فلو قد طَلَّقْتَ الدنيا واحدةً إن لم يكن ثلاثاً احتياطاً لحالك ، وكنتَ إذا أَرَدْتَها راجعْتَها بما بقيَ من عُقْدَةِ الحبلِ بينها وبينك ؛ وإن طابَ لك فِراقُها وَضَحَ عندك أنها أَجْنَى عليك ، وأَضرُّ لك ، من العجوز الشمطاء ، السليطة الدرداء[2] ، المتحكّمة الشَّوْهاء ، جريتَ في الثاني بعد التحقيق على بَتّاتها ومُبَايَنَتِها ، وإمرار

---

١ – يتوقح : يصبح مجرباً .

٢ – الدرداء : التي سقطت أسنانها .

الثلاثِ عليها ؛ فحينئذ والله تستريح – نعم وأيّ راحة وراحة : عاجلة وآجلة ؛ اما في العاجلة فانك تُكْفَى مؤونةَ ضَرّائها ، لفَقْدِ سَرّائها ، ومؤونــةَ [٢١/أ] عُصَارتها ، لفَقْدِ غَضَارتها ، ومؤونةَ تَرَحِها ، لِفَقْدِ فَرَحِها ، ومؤونةَ عِبْرَتِها ، لِفَقْدِ حَبْرَتها[1] ، ومؤونة سمِّها ، لفقد شَهْدها .

وما في الدنيا ؟ حدِّثني عنها لعلّي ذاهلٌ عن عِلْمِكَ بها ، ولعلَّ لك خبرةً فوق خبرتي بشأنها . فان كان ذاك كذاك ، فأنا لك أشدُّ إجابةً في طلبها منك لي في تركها . أليست ذات غَدْرٍ ومَكْر ، ومُحالٍ ونُكْرٍ ؟ أليست حائلةً مُحيلة ، وزائِلَةً مُزِيلة ؟ أما تَرَى أهْلَها كيف يركضــونَ في ميادينها فَرِحين ، ثم إنهم يصيرونَ حديثاً قبيحاً بَعْدَ حين ؟ أما ترى الزاهدين فيها كيف يُعْتَقون من رِقِّها ، وكيف يستريحون من أَوْقها[2] ، وكيف ينجون من جَمَراتها ، وكيف يُقيمون فيها صابرين ، ثم يرتحلون عنها خالصين ، لم تنشبْ في حُلُوقِهم ، ولم تَثْقُلْ على ظُهُورِهِم ؟ هذا إلى ما يجدون عند الله ، الذي له تركوا ما تركوا ، وإليه سلكوا لمّا سلكوا ، وعلى بابه بَرَكوا لمّا بَرَكوا .

يا هذا : إنّ القولَ في وصفِ الدنيا لطويل ، وان المغرور بها لمرحوم ، وان التارك لها لرابح ، وان المتربّع فيها لمزعج ، وإن الداخلَ إليها لَمُخْرَج ، وإنّ القولَ في وصفِ الزاهدِ فيها لكثير ، وإن العارفَ بِعيُوبِها لقليل ، وإنّ العارف[3] بما يَعْرِفُ لَعَزِيز ، وإنّ الصادقَ [٢١/ب] فيما يعمل لمعدوم ، وإنّ مَن رام المعدومَ في العزيز لَمُعَنّى ؛ ومع هذا فلا بدّ من

---

١ – الحبرة : السرور .

٢ – أوقها : ثقلها وشومها .

٣ – كذا في ل ، ولعل الصواب « وان العامل »

بَذْلِ المجهود ، لمن جاد على كل موجود ، بغايةِ استحقاقه من الجود . فانّ بَذْلَ المجهودِ احتياطٌ لا بدّ من تقديمه . وإنّ تَرْكَ ذلك اختـلاطٌ لا يُؤْمَنُ من سوء عاقبته .

اللهمّ : إنّا إليـكَ نَفْزَع ، وبابك نَقْرَع ، ولقدرتك نَخْضَع ، ومن عقابك نَخْشَع ، وبفضلك نَرْوَى ونَشْبَع ، وفي رياضك نلهـو ونَرْتَع .

يا هذا : قوِّمْ مائِدَك[1] ، وصَدِّقْ رائِدَك ، وأَطعْ قائِدَك ، واشكرْ عائِدك ، واهجرْ كائِدَك ، وكن من رَوعَات خُطُوبِ هذه الدار على ساق ، واعلم بانك لِمَا قَدَّمْتَ بما كسبت يَدَاك لاق ، فإنّ ربك لبالمرصاد : لا تدعُ رَبَّكَ إلاّ بعد أن تشهدَ تَقْصيرك ، ولا تحدَّثْ عن أسرارهِ إلا بعدَ أن يأذَنَ لك ، ولا تُصْغِ إلى نَغَمَاتِ ملكوته إلا بعد أن يُؤَهِّلَكَ به إليك ، ولا تَفْحَصْ عن مكنونِ غَيْبِهِ إلا بعدَ أنْ يُرَخِّصَ لك ؛ وكيف تَقَلَّبَت بك الحالُ فاهجرْ نَفْسَكَ الأمَّارةَ بالسوء ، فإنها شيطانُكَ المريد ، ونارُكَ الموقَدَة ، وريحُكَ العاصف ، وخانِقُكَ العنيف ، وسيفُكَ الهذّام[2] ، وصاحبُكَ الفاضِح ، وجارُكَ الخبيث [٢٢/ أ] ومعامِلُكَ الغابن ، وصديقُكَ المرائي ، وما أحسنَ ما أُلهمَ القائلُ في قوله :

اذا امتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ[3]

ومتى ظفرتَ بها فاذبحها ، فانك إنْ لم تذبحها ذَبَحَتْكَ ، ومتى قامتْ بازائك فَافْضَحْها ، فانك إنْ لم تفضحها فَضَحَتْكَ ؛ لا تغترَّ بالعدوِّ وإن كان قريباً

---

١ – ماد : مال .

٢ – الهذام : القاطع .

٣ – البيت لأبي نواس ، انظر ديوانه : ١٩٢ .

منك بالنَّسَب ، فالعدوُّ عدوٌّ وإن أظْهَرَ اللِّين ، كما أنَّ الصديقَ صديقٌ وإنْ أظْهَرَ الغِلْظَة ، ولا تجنحْ في كلِّ ما تَرَاهُ عَيْنُك إلى ظاهِره ، بل بل غُصْ على خَفِيَّته ودَفينته ، فهناك اللبُّ والحقيقة ، وتَصَرَّفْ في ملكوتِ ربِّك وتلك[1] نفسك. واستشهدْ أبداً بَعضَ ما تَرَى على ما لا تَرَى . واستخبرْ أيضاً بَعض ما لا تَرَى عن ما تَرَى ، واجعلِ العملَ أبداً بعد اقترانَ الدَّليل ، واعتبارِ السَّبيل . واختبارِ الدَّقيقِ بالجليل ، فإنَّ هذه الوصية من أمارات المستيقظين ، الذين يليقُ بهم بعدَ هذا أن يكونوا مُوقظين ، والزمْ هَدْيَ المهتدين ، تَصِرْ به من المَهْدِيِّين ، وخُذْ حذرَك منك ، قبل أن تَأْخُذَ حذرَكَ من غيرك ، فانك أضَرُّ عليك من عدوِّك ذي الحفيظة ، لانك تعملُ ما تعملُ بجهل ، وتجهلُ ما تجهلُ بحجَّة ، فلذاك أنت كذاك .

اللهمَّ : إنّا وإنْ أطانا السَّفَرَ عنك بالسَّهْو ، فإنَّ طلوعنا عليك عند الإساءة[2] ، فارحم سَهْوَنا إذا غَلَبَ علينا ، واحفظنا بعده [٢٢/ ب] اذا انتبهنا .

إلهنا : أجلَتنا في الأحوال ، وأجلْتَ الأحوالَ فينا ، وتَفَرَّدْتَ بما لا يجوزُ أن يكونَ على غيرِ ما أنتَ به ، وهكذا حُكْمُ الأرباب ، فيما لا يليقُ إلا بك ، ولا يجوزُ إلا لك ، ولا يحسنُ إلا منك . اجمعْ شَمْلَ همومنا فيك . وألِّفْ بين عزائمنا مِنْ أجْلك، واجعلْ نَوَاظِرَنا مُوكَّلَةً بعجائبِ قُدْرَتِك ، وخواطِرَنا جاريةً بغرائبِ حِكْمَتِك ، واجعلْ لنا مِنْ رضاكَ نصيباً مفروضاً ، وهَيِّىء لنا في قَصْدِنا توفيقاً طويلاً عريضاً ، ومهما أنْسَيْتَنا فلا تُنْسنا ذِكْرَك ، ومهما أذَقْتَنا فلا تُذِقْنا هَجْرَك . مَتِّعْنا بالإجابة لك ، وارفَعْنا بالدعاءِ إليك ، واقبَلْنا بِوَجْدِنا عليك ، واصرفْ عنّا

---

١ – كذا وردت هذه اللفظة ، ولعلها : « ومالك » .

٢ – فان ... الاساءة : كذا هو ، وأراه غير منسجم والسياق .

القواطعَ عنك ، وصِلْنا بك ، واسقِنا بيدك ، وهَبْ لنا رِضْوانَكَ بفضلك ، واطرف أبصارَنا عن خَلْقِك ، واجعلْ حُبَّكَ هجّيرانا[1] ، والتردُّدَ إلى بابِكَ مَغْدَانَا ومَسْرَانا . والعيشَ معك مماتَنا ومَحْيَانا ، والحمدَ لك مُصْبَحنا ومُمْسَانا .

يا هذا : مردتِ الموارد ، وشردتِ الشوارد ، وتَفتّتتِ[2] القلوبُ على اللهفات المُتَلَظِّية ، وصارتِ الأرواحُ إلى معادنِ الكُرَبِ بالقوارحِ المُعْضِلَة ، وعادَ الظاهرُ سراباً ، والباطنُ خراباً ، وركدتِ الشكوى مستوطِنَة ، والبلوَى مستمكِنَة ، فلا جَرَمَ [٢٣/أ] القولُ — وإن كان ناصعاً رشيقاً ، حسناً بليغاً — مردودٌ ، والدليلُ — وإن كان ساطعاً بريقاً ، جميلاً قوياً — مجحودٌ . هذا لأنَّ الطمأنينةَ معْدُومة ، والتهمةَ عارضة ، والقلقَ جائل ، والسكونَ حائل ، والطبيبَ عليل ، والعليلَ هالك ، والدواء انما هو دواءٌ بالاسم ، وإلا فليس له أثرٌ في الداء[3] ، ولا خبرٌ عن الشفاء . فهل رأيتَ داهيةً صمّاء ، ومحنةً شنْعاء ، كهذه التي قد طالَ النبأُ عنها ، وكثُرَ الضجيجُ منها ، على الزمانِ والسنين ، من غيرِ راحمٍ ولا مُشْفِق ، ولا مُتَلافٍ ولا مُرْفِقٍ ؟ أترى هذه من القسوَةِ والغِلْظَةِ والفظاظة[4] ، أم قلةِ الاحتفالِ والمبالاةِ والعياج[5] ؟ وكيف ما كان ، فالحَيْرَةُ عاملةٌ عَمَلَها ، والنارُ مُحرِقَةٌ ما وَجَدَتْ منمى[6] . واعظمُ ما في هذه الحالِ الشوهاء ، أنَّ النبسةَ فيها ذَنْبٌ لا يُغْفَر ، والتعريضَ بها كبيرةٌ لا تُستَر ، والإشارةَ إليها مَجْلَبَةُ الحِمام ، والتوجُّعَ منها مَفْضَحةٌ على الأيام .

---

١ – الهجيرى : الدأب والشأن والديدن .
٢ – ل : وتفتت .
٣ – ل : الدواء .
٤ – ل : الفضاضة .
٥ – العياج : لعله من العيج وهو الاكتراث ، وفي التاج : العياج : الرجوع إلى ما كنت عليه .
٦ – ل : منها ؛ ونمى النار : ألقى عليها حطباً وذكاها به .

بالله : أفَما هذا من الخطوبِ الصعبة ، والنوائبِ العجيبة ، والبلايا الشديدة؟ بلى والله ، ولكن ما الحيلة ، وكيف المَخْلَص ، وعلى مَنِ المُعوّل ؟ على أنه كيفما دارتِ القصة ، وعلى أيٍّ جانبٍ وقعتِ التُّكَأة . فلا ملجأ إلا الله ، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيْء .

اللهم : وان كانتْ بَلْوانا منك ، فان شَكْوانا أيضاً إليك ، فبعزّتِكَ إلاّ أخذْتَ بأيْدِينا ، وبعثْتَ [٢٣/ ب] رأفتَكَ وحنانَكَ إلينا ، وكنتَ لنا عندَ اليأسِ الغالبِ علينا ، ولا تَكِلْنا في كلٍّ حال وعلى كلِّ وجه إلى غيْرِك ، فان الظنَّ بك وإنْ طَرَدْتَنا ، أحسنُ من الظنِّ بغيرِكَ وإن قبِلَنا ، والرجاء فيك وإنْ حَرَمْتَنا ، أقوى من الرجاءِ في سواك وإن أعطانا : إليك نَفْزَع ، وبك نَلُوذُ ، وإيّاك نَعبُد ، وعليكَ نَتَوكّل ، وبأسمائِك الحُسْنَى نَلْهَج ، وبصفاتك المحمودة نبهج ، وبابك [نقرع][1] وجنَابك[2] نرعى ، وبذِكْرِك نَتَلذّذ ، وإليك نَسْعَى ، يا ذا الجلال والإكرام .

— ٤ —

أينَ وليتَ من الإشارات الإلهية

رَحْمَتَكَ اللهمَّ رحمتَك ، ونَظَرَكَ اللهمَّ نَظَرك ، فقد ضاقتِ المسالِك إلا إليك ، وعاقتِ العوائقُ إلا عَنْك ، فلا عَبْرَة إلا وهي تَرَقْرَقُ على فائتِها منك ، ولا خاطِرَ إلا وهو مُوَشَّحٌ بالإشارةِ إلى إلهيّتِك ، ولا أمنية إلا وهي عائرةٌ في ملكوتك ، او مُنْجِدةٌ في جبَرُوتك ؛ عززتَ فما تُرام ،

١ – زيادة ضرورية ، أو ما هو بمعناها .

٢ – ل : وحنانك .

وجَالَلْتَ فما تُضام ، فوَاصِفُكَ وإن أطْنَبَ عييٌّ[1] ، وذاكرُك وإنْ أسْهَبَ نَسِيٌّ ، والناظرُ إليك وإنْ حَدَّقَ محجوب ، والمتعرِّضُ لك وإن تَجَلَّدَ مَغْلوب . عرَتِ العَواري ، فاستأصلَتِ الأوائلَ والثواني ،وسَرَت السواري[2] ، فاجتاحَتِ [٢٤/ أ] المآوي والمغاني ، فلا عينَ إلا ودِرَّتُها هاملةٌ جزَعاً وياساً ، ولا نَفْسَ إلا وهمتُها تَتَقطَّعُ ذهولاً ووسواساً : كاشَفَ فأوْلى ، ثم صارَفَ فأبلى[3] ، وقرَّبَ فأعلَى ، ثم بَعَّدَ فأغْلَى ، ثم أشْكَلَ في الأفعال فأضحكَ وأبكَى ، وأبقَى وأفْنَى ، وأماتَ وأحيَى ، وأفقَرَ وأغْنَى ، وسَلَبَ وأعْطَى ، ويتَّمَ وأسْلَى ، وبَصَّر وأعْمَى ، وأبْدَى وأخْفَى ، وخلَعَ وأعْرَى ، ومنَعَ وأغْرَى ، وأدنَى وأقصَى ، وأغضَى واحْصَى[4] ، ثم دعاكَ في خلالِ ذلك كلِّه إلى التسليمِ الذي هو نَعْتُكَ في العبوديّة ، وَحقُّهُ في الربوبية . فاجعلِ الآنَ أنتَ هذا التسليمَ سلَّما لك إليه ، واحْطُطْ رحلَكَ بنقاءِ ضميركَ فيه بينَ يديه ، فانه حينئذ يُجيبُكَ إذا ما دَعوْتَ ، ويُحيِّيكَ إذا دَنَوْتَ ، ويواجهك إذا رنوتَ ، ويعشقك إذا سلوتَ ، ويُبْدي لكَ من غيْبِ ملَكُوتِه بآثارِ قُدْرَته مما لا نَبَأَ عنه بلسانِكَ الفَصيح ، وأدبِكَ الفَسيح ، فتختال هناك بين نِعَمٍ تَتْرَى ، مُشَاهِداً لاختلافِ هذا الوَرَى ، غير خائب إذا أمَّلت ، ولا محرومٍ إذا سألت ، ولا مردودٍ إذا تَحَكَّمت ، ولا مَغْبونٍ إذا عامَلْت ، ولا مفتونٍ إذا ساهَلْت .

هذه[5] — عافاك الله — حالٌ مستغرِقَةٌ لكلِّ ما أنت آلِفُه ، وراقيةٌ بك

---

١ — ل : عي .

٢ — السواري : جمع سارية ، وهي كل ما يسري تحت جنح الظلام أو في الخفاء .

٣ — ل : فأبكى .

٤ — ل : : وأحصى .

٥ —ل : هذا .

إلى حدٍّ أنتَ [٢٤/ ب] الآنَ مفارقُه . إما بالظنِّ الحسَن . وإما باليقينِ الذي ليس بعده يقَن .

يا هذا : قِس سرَّكَ إلى علانيتك ، فإنْ تطابقا على الخير ، وتلاقيَا على الإخلاص، وتبَرّءا من العلائقِ والدَّواهي ، واستنّا على رفْضِ العوائق والنواهي ، فاعلم انك مُراد ، ولك في توَجُّهك مَرْعىً ومَراد ؛ وإن وَجدْتَ بين سرِّكَ وعلانيتكَ نفرة الشكِّ ، ووحشةَ الظنِّ ، وضعفَ اليقين ، وقلةَ المراقبة ، وسوءَ الثقة ، وكآبةَ اليأس ، فاعلمْ انك مطرودٌ عن الباب . ومطروحٌ من الحساب . وحينئذٍ وكِّلْ عينَكَ بالدُّمُوع ، وقِفْ جُمْلَتَك على الخُضُوع ، وغلِّبْ عليهما الخُشُوع ، والهجْ بالنَّدَمِ على غايةِ الولوع . وناده من فِناء سرِّك . بالافتقار والخنوع ، مستسلماً بين النِّزَاعِ والنُّزُوع[1] ، لعله يجودُ عليكَ بعدَ الغُروبِ بالطُّلُوع ، ويشعبُ برحمتهِ لك هذا الصُّدُوع . وطوبى لك إن أهِّلْتَ لهذا المقامِ الثاني ، بعد ما فاتَكَ من تلك المغاني ، وطوبى لك إن يسَّرَ لَكَ هذه الذَّرَائع ، التي بها يُنال ما عنده من تلك البدائع ، وطوبَى لك إن أوْقفَكَ على بابهِ متَمَلْمِلاً بالنَّدَم ، الذي به يُصابُ ما لديه من صنوف الكَرَم ، وطوبَى لك إن قالَ لك : لِمَ خالفْتَني متعمّداً ، فتقول [٢٥/ أ] عند ذلك : اني عرفتك رحيماً متغمداً ، إنّه إنْ ألْهمَكَ هذا الجواب ، فقد نجّاكَ من العِقاب ، وأهّلَكَ للثواب .

يا هذا : كم تستأنسُ بالخَلْق ، مستوحِشاً من الحَقّ ؟ كم تستعين[2] بالكذب مستغْنيا : عن الصِّدق ؟ إلى متى تَبْقَى في قَيْدِ الرِّقّ كأنَّكَ جاهلٌ بشرفِ العِتْق ؟ إلى متى تخسرُ وأنت لاتَشْعر ؟ إلى متى تُعْرِضُ وهو عليك مُقْبل ؟ إلى متى تَجْفُو وهو بِكَ بارّ ؟ إلى متَى تُقْصَى وهو

---

١ – النزاع والنزوع بمعنى ، وهو الحنين والاشتياق . والنزاع أيضاً يعني المجاذبة .

٢ – ل : نستعين .

عليكَ مُشْرِف ؟ إلى متى تَعْثُر والمسلكُ جَدَد[1] ؟ إلى متى تَهزلُ والأمر جدّ ؟ إنْ تضرّ والله إلا نَفْسَك، وإنْ تخسر إلا روحَك . ليس على الصديقِ إلا أنْ يَنْصَحَك ، ليسَ عليه ان يغشّك[2] . ذاك إليك إن قبلتَ نُصْحَه ، وتدبرتَ قَوْلَه ، بل ذاكَ بيدِ الله إن اجْتَبَاك وهَدَاك، وآواك إلى كَنَفِ رَحْمَتِه ونَاداك . وخَصَّكَ بما خصّ به أولياءَهُ الذين لا خوف عليهم ولا هم يَحْزَنون[3] .

يا هذا : إنك فَرِيدٌ ، ليس لك أبٌ يشفقُ عليك ، ولا صاحبٌ ينظرُ لك، فكن بنفسِكَ لنفسك ، وتَفَقَّدْ حسابَكَ [٢٥/ ب] بِهِمَّتك ، وتوقَّ الغَلَطَ بجهدِكَ وطاقَتِك ، واستعنْ بمن تَثِقُ به من أهلْ مَوَدَّتِك وخُلَّتِك . وانظرْ هذه الدارُ : أدارُ مَقَامٍ فتسكنَ إليها ، أم دارُ قُلْعَةٍ أنت مُزْعَجٌ كرهاً عنها ؛ فإنْ كانتِ الأولى فاذهبْ سادراً في سُرورك وغرورك . فليس يهلكُ على اللهِ إلا هالك ؛ وإن كانتِ الثانيةَ فخذ في أهْبَتِك ، قبلَ أوانِ فَجْأتك ؛ فكأنَّكَ بك وأنتَ تقول : ﴿ هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المرسلون﴾ (يس: ٥٢) . فيا لها أسىً وأسفاً إن تركتَ الحَزْمَ والاحتياط . ويا لها روحاً وروحةً : إن أدْرَكْتَ المنى بالاغتباط . غَيْبٌ مرجَّم ، وقول مُجَمْجَم[4] ، وسرٌّ ليس يُتَرْجَم[5] : التفسيرُ عَوِيص بالظاهرِ المعروف . والبيان عزيز[6] عن الباطنِ المعطوف ، فمن طلبَ العلمَ من مَعْدِنِ الجهل . عاد باليأسِ بعد التَّعَب ، ومَن هتَكَ سِتْرَ الغَيْبِ أشْفَى به ذاك على

---

١ – الجدد : ما استوى من الأرض .

٢ – في هامش ل : خ : ينعشك .

٣ – ناظر إلى قوله تعالى « الا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (يونس : ٦٢).

٤ – مجمجم : غير مفهوم .

٥ – ل : مترجم .

٦ – ل : غرير .

العطَب : الخبرُ رائق بالوَصْفِ والرَّصْف ، والظنُّ عائقٌ بالخسْف والعسْف ، فإن جنحتَ[1] إلى الهوينا صبَّ عليك عتابَه ، وإن رَدَدْتَ عتابَه أذاقَكَ عقابه [٢٦ / أ] فلا حال إلا وهي بالحقيقةِ مُنْذِرة ، ولا غاية إلا وهي عنها مُحَذِّرة .

اقبلْ واحدةً : أقِمْ حدودَ العبودية بآداب النَّفْس ، ثم تمنَّ دَرَجاتِ الخصوصيَّة بحلاوات الأنس ، وإذا وليتَ الخصوصية فاتبع الصفاءَ فيها ، وإذا تناهيتَ في الصفاء فخَفْ من حالٍ تكون بها مُسْتَدْرَجاً ، فان لله أسراراً في غيوبه ، وغيوباً في أسراره ، لم يَلِجْ غوامِضَها بَشَر ، ولم يَبْرُزْ منها خَبَرٌ ولا أثَر . وأيّ عَجَبٍ من هذا وهو القاهرُ فوق عباده ، والمالكُ لنواصيهم ، والمصرِّفُ لادانيهم وأقاصيهم ، ولذلك قال ﴿وَعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القيوم﴾ (طه : ١١١) : عنَتْ له وجوهُ السرِّ والإعلان ، كما عنَتْ له وجوهُ الأنفس والأبدان ، وعَنَتْ له وجوهُ الأعمال كما عنتْ له وجوهُ الأحوال ، وعنتْ له وجوهُ الأفعال كما عنتْ له وجوهُ الأقوال ، فلا عاملَ الا وعملُهُ مشوب ، ولا قائلَ إلا وقولُهُ مُريب : تَفَرَّدَ بالصافي والخالِص . وأقامَ كلَّ مَنْ سواه على درجةِ العاجزِ الناقص ، ليكونَ وحده إلهاً بالكمال ، ويكونَ غيرُهُ خَلْقاً على اختلافِ الحالِ بعد الحال .

إلهنا : [٢٦ / ب] عرفناك مُنْكِرين ، وأنكرناكَ عارِفين ، ولو عرَفْناكَ على الصحةِ لم نُخالِفْك ، ولو أنكرناكَ كلَّ النكرةِ ، لم نضرع لك . فصفٌ — إلهنا — معر فتَنا مما يَشُوبها من النكرة ، وانفِ نُكْرتَها من قَدْحِها في معرفتك حتى نُواصِلَك بمعرفة ذات طمأنينة إليك ، ونعرفَكَ بمواصلة ذات توكُّلٍ عليك ، وحتى يكونَ نبأُنا عنكَ بهذه المعرفة ، وثِقَتُنا بكَ على هذه المواصلة . فانك متى جدتَ علينا بهذه الحالة أغْنَيْتَنا بك عمَّن عداك ، وأنسيْتَنا كلَّ ما ألِفْنَاه من سواك ، وإنَّ الذي سألناك موجودٌ عندك ، يسيرٌ عليك ، فَجُدْ به منعماً ، وأوصِلْه إلينا مُحْسِناً ومتمِّماً .

---

١ — ل : اجنحت .

يا هذا : مدار هذه القصة . ذات الغصّة . على أن تكونَ الأسرارُ نقية فتَتُشَاهد ، وتكونَ الأرواحُ زكيةً فتَتُساعد ، وتكونَ الأخلاقُ رضيّة فتراود .

يا هذا : من سمع بأذنه رَوَى . ومن حَضَرَ بقلبه دَرَى . ومن لحظَ بحقيقته رَأى ، ومن اعترضَ بحكمه نأى . ومن أعْرَضَ عن كلّه شَأى[1] .

يا هذا : طَهِّرْ علمَكَ من الهوى ، وبَرِّئْ نفسَكَ من أنْ ترى ، وتعدَّ [٢٧ / أ] ما بينك وبينك ، حتى تعلو وتَرْقَى ، وتحفظَ ودائع الله عندك ، فقد ائتمنَكَ عليها : والويلُ لك إن خُنْتَهُ فيها ، وطوبَى لك إن أدَّيْتَها على ما تَحمَّلْتَها . كِسْ في حالِكَ فقد اختُبِرْتَ ، وجانبِ الريبَ فقد ابتُلِيت ، ولقد لوطفتَ من وجه ، وعوندتَ من وجه ، فاثبتْ على حدِّ العلم بحقيقة الإخلاص ، غيرَ جانحٍ إلى الفتور ، ولا ذاهبٍ مع الغرور ، فان العينَ ذاكيةٌ عليك منك ، والفراسةَ صادقةٌ عنك لك ، والرقيبَ يقظان فيك معك : أنفاسُك تُحصى وأنتَ راقد ، وعثراتُكَ تُتْبَع وأنت غافل .

فيا أيها الساهي عما يُراد به ، ويا أيها اللاهي عما يرشَّح له : أين العَبْرة الساكبةُ على الأيام السالفة ؟ أين التحزّمُ والعدةُ للأحوالِ المستانَفَة ؟ أين التلافي لما فات ؟ أين التلهّبُ لما هو آت ؟ أين الامتعاضُ من هذه القاذوراتِ ؟ أين التخلّقُ بهدي أهلِ الحفاظ والديانات ؟ أين التشبّهُ بأهلِ البصائر والمشاهدات ؟ أين التوقّي من الأحوالِ المُوبِقات ؟ أين التَّنَحّي عن التَّقَحُّم في الظُّلُماتِ بعد [٢٧ / ب] الظُّلُمات ؟ أين التعرّي من هذه الآفاتِ الواردة على الآفات ؟ أين التصدّي لهذه الغايات التي ليسَ وراءها غايات ؟ أين التردّي برداءِ أهلِ الولايات والكرامات ؟ أين التحدّي للنفوسِ الآلفةِ لمواطن

---

١ - شأى : سبق ؛ والمعنى لا يلتثم بها ؛ ولعله « ثأى » بمعنى أحدث ثأياً أي فساداً وخرقاً .

العذرات ؟ أين الحياءُ من الإعراضِ عن الآياتِ بعدَ الآياتِ ؟ أين مقتُ النفسِ عن ارتكابِ الشهَوات بعد الشهَوات ؟ أين الأخذُ بالوثيقةِ في هذه الأحوالِ التي ليس لها ثبَات ؟ أين الاصغاءُ الحسَنُ بحضورِ الفهْم إلى هذه النغمات ؟ أين التنزُّهُ بالصدقِ عن هذه الخسَاسات والنجَاسات ؟ بل أين أنتَ في حقيقتك عندَ سماعِ هذه الكلمات ؟

ليت من أذنَ فهِم ، وليتَ من نظَر أبصر ، وليت من طلَبَ وجد ، وليت من قصَدَ صادف ، وليت من علِمَ عمل ، وليتَ من عمِلَ اخلص ، وليتَ من حضرَ قرب ، وليتَ من قرَعَ البابَ دخَل ، وليتَ من استأذنَ وُصِل ، وليت من توسَّلَ قُبل ، وليت من ادَّعَى صَحَّتْ دعْواه ، وليت من شكا سُمِعَتْ منه شكواه ، وليت من حَنَّ حُنَّ إليه ، وليت مَن عاج عيج عليه !

[يا] هذا : قد تمنيتَ ، فما لك من هذا التمني ؟ هل حاصلُكَ إلا على الأذَى والتعنّي ؟ وهل مرجعُك إلا إلى الأسَى [٢٨ / أ] والتظَنّي ؟.

ايتها النفس أجملي جزَعاً إنَّ الذي تحذرينَ قد وقَعا[١]

اللهم : إنّا قد لهجنا بهذه الوساوس والهواجس ، شغفاً بذكرك ، وتلَذُّذاً بكلِّ ما يكون خبراً[٢] عنك ، وعلماً بأنَّ ما بنا منك ، وأنَّ خلاصَنا في يدك ، ومقادَنا تحت قُدْرَتك ، وتصرُّفَنا على مشيئَتك . وإن خالفناكَ في أمرِكَ ونهيك ، فارحمْنا بفضْلك ، وأذقْنا بردَ عفْوك ، واكنفنا بجناحِ رأفتك ، وأرِحْنا عند قصْدك ، واجلنا بكرامتك على خلْقك ، وأبردْ غُلَّتَنا اللاهبةَ بالنظرِ إلى وجهك ، وأهّلنا لسلامك وتحيَّتك ،

---

١ – البيت لأوس بن حجر ، انظر ديوانه : ٥٣ .

٢ – ل : خيراً .

واسقِنا الصِّرْفَ من مَحبَّتِك ، وكنْ علَّمنَا نهتدِ بك ، ونوِّرْ قلوبَنا ببصائرِ حكمتك ، وخفِّفْ علينا ثِقلَ عبادتِك ، وحَيِّ وُجُوهَنا برضوانك ، وقلِّبنا في أثْنَاءِ مِنَنِك ، وابللنا من سماء رَحمتك ، وآتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً بك[1] ، إنك أنتَ المنّانُ الوهوب .

يا هذا : لا تهملْ هذا الفنَّ من الدعاء ، ولا هذا النَّمطَ من الثناء ، فانهما يحلّيانك بحليةٍ إذا طلعتَ [٢٨/ ب] بها كنتَ للعالم زينة ، وللخلائقِ رَحمة ، وللقلوبِ راحة ، وللنفوسِ طمأنينة ، وللعيونِ جلاء . واجتهدْ أن تكونَ من أولياء الله المخلصين ، وإلا فمن أحبّائه المقرَّبين ، وإلا فمن خَدَمِه المندوبين ، وإلا فمن السُّفَراء المكرَّمين ، وإلا فمن المتعرِّضين السائلين ، وإلا فمن الذاكرين المستبشرين ، وإلا فمنَ اللائذينَ المتحرِّشين[2] ، وإلا فمن الراجينَ المؤمِّلين ، وإلا فمنَ المقاربين المُتَشَبِّهين ، وإلا فمن المُذْعِنين المُتَمَلِّقين ، وإلا فمن التابعينَ المُفْتَقِرين ، وإلا فمن الباكين المحرومين ، وإلا فمن المَطْرُوحين المَرْحُومين .

اللهم : إنّا نسألك أنْ تحولَ بيننا وبينَ أنفُسنا الناظرةِ إلى غيرك ، وتفرِّقَ بيننا وبين العيونِ التي تمتدُ إلى سواك ، ونسألُكَ أن تفعلَ بنا ما أنتَ أهلُه ، فانكَ أهلُ العفوِ والإحسان ، والصفحِ والامتنان ، والتجاوزِ والغفران . يا ذا الجلال والاكرام .

---

١ – ناظر إلى قوله تعالى « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » (البقرة : ٢٠١) .

٢ – المتحرشين : كذا في الأصل ، ولعل صوابه « المتحرمين » .

- ٥ -

خُتمت النبوّة من الإشارات الإلهية

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا ذكرتَ معاهدَ الأحبابِ في جنحِ الظلام ، فانظرْ نظامَ دَمْعِكَ بالحزن والاغتمام ، فقد قال القائلُ قَبْلَكَ لِمِثْلِكَ :

إذا أنتَلم تُنْضِجْ جوَاكَ بِعَبْرةٍ غَدَاً في التمادي أوْ طَغَى في التَسَعُّر

وفي انسكابِ ماءِ العيونِ راحــةٌ لقلبِ الهائمِ المحزون ، وفي الوقوفِ على دوارِسِ الأطْلالِ تجديــدٌ لتخيُّلِ ما أخْلَقَ من الأحوال ، وفي إعادةِ أحاديثِ الأحبابِ تَوْصيلٌ لما تَقَطَّعَ من الأسباب .

يا هذا : إنّكَ لنْ تَنَالَ مُناكَ في هَواك حتى تُرَى بحبلِ الصبرِ مربوطاً ، وبنارِ الفَقْرِ مكشوطاً ، وفي بحرِ البلاء مغطوطاً ، وعن رتبةِ أهلِ الدنيـا محطوطاً ؛ نعم ، ولن تَلْحَقَ السابقينَ من أهل هذه القصّة ، إلا بعدَ أن تغضي [١] على كل غُصَّةٍ ، تُصيبُكَ في هذه العَرْصة ، غيرَ آنٍ عليها ، ولا بَرِمٍ بها ، ولا مُعْتَرِضٍ على اختيارِ الله باختيارِك فيها .

يا مسكين : لمّا تكامَلَ في تصاريفِ الدهرِ احتناكُك ، وتَوَالى عـلى غرائبه إلجامُك [٤٥/أ] وإسراجُك ، طالَ في الغيِّ انهماكُك ، وفي غَمْرَةِ الجَهْلِ ارتباكُك . ما أقبحَ بالشيخِ أن يَغْلَطَ غَلَطَ الشباب ، وما أسمَجَ

---

١ – ل : تعضي .

بذي البصيرةِ أن يُحْوِجَ إلى العتاب . وما أحسن من له لَبابَةٌ[1] أن يرجع إلى حَظّه من الفائت، وما أجملَ بمن له اعتبارٌ أن يستأنفَ رأيَهُ في المتوقَّع ، وما أَوْلَى مَن له عَيْنٌ تَلْحَظ ، ونَفسٌ تَحفَظ ، أن لا يكون مَثَلُهُ مَثَلَ البقرةِ التي أثارَت المديةَ بقرنَيْها فذُبِحَتْ بها[2] ؛ وقد قيل : « إن الشقيَّ بكلِّ حبلٍ يخنق »[3] .

أيها الجاهل : ألا أراكَ قد ثنيتَ عن الحقِّ عِطفَكَ ، واعتَزَزْتَ بضجيجِ الحَشَمِ خلْفَكَ ، وراقَتْكَ مواكبُكَ ، وراعَتْكَ مراكبُكَ . أظننتَ أنَّ ما انتقلَ إليكَ لا ينتقلُ عنك ، فاذن لِمَ [اذ] انتقلَ في الأوّل كان لا ينتقلُ في الثاني ؟

ما أشدَّ كَيْدَكَ لنفسك ، وما أكثرَ إيقادَكَ لنارِكَ على رُوحِك ، وما أَخبَطَكَ في عَمَيائك ، وما أبْعَدَكَ عن أنبائك ! ليس لِريحِ الإيمان في صدرِكَ هُبوب ، ولا لك من حقائقِ اليقينِ نَصيب ، فكأنَّكَ بهاتفٍ لا تَراهُ قد ملأ سَمْعَكَ هولاً ، وأورَدَ عليكَ قولاً ، فقال : يا رَضيعَ الدنيا قد آن فِطامُك ، ويا ضجيعَ الهَوَى قد حانَ قيامك ، ويا [٤٥/ ب] صَريعَ الشَّهَواتِ قد دَنَا حِمامُك ، فأين إشعارُكَ لقلبكَ هذا وما أشبَهه، فعساكَ تجدُ به بَعْضَ ما يُلَيِّنُ قاسي كَبِدِك ، وبعض ما يُقيمُ رَاسي أَوَدِك . فان كنتَ عاجزاً عن هذا[4] الإشعار ، فلا تَعْجِزْ عن سَماعِه

---

١ – اللبابة : مصدر من لب ، أي صار ذا لب .

٢ – في المثل : « كالباحث عن المدية » (الميداني ٢ : ٦٩) وليس في المثل ما يخصص البقرة دون غيرها ، وفي شعر الفرزدق :

فكان كعنز السوء قامت بظلفها   إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

٣ – قال العسكري في جمهرة الأمثال (١ : ١٣٧) ومن أمثالهم في الشقاء قولهم « إن الشقي ... الخ » .

٤ – ل : هذه .

من الأخيار الذين يصدقون أمثالَكَ من الأخبار ، فانك إن حُرِمْتَ هذا طُمِسَتْ صفاتك في سِماتك ، وبادتْ سِماتك في صِفاتك ، وصرتَ أذلَّ من كلِّ ذليل ، وعُدْتَ أقلَّ من كل قليل ، فالله الله فيك ، فاني لك مُنَبِّه ناصح ، وأنت مُمَوِّه كاشح ، وأنا لك صديقٌ مُتَلَطِّف ، وأنتَ لنفسكَ عدوٌ مُتَعَجْرِف .

حدِّثْني : ما الذي يَحْجُبُكَ عن بابِ الله وهو مفتوح ، وما الذي يُبْعِدك عن فِناء الله وهو فَسيح ، وما الذي يُؤْيسك من خَيْره وهو مَبْذول ، وما الذي يُقْعِدك عن السَّفَر إليه وهو مُمْكن ، وما الذي يُوحِشُك من طاعَتِه وهو قابل ، وما الذي يَمْنَع من الإصغاء إليه وهو داعٍ ، وما الذي تَخَافُ ضَياعَه منك وهو راعٍ ؟

أمَا دعاك فَلَطَّف ؟ أما كلَّفَكَ فَخَفَّف ؟ أما مَلَّكَكَ فَصَرَّف ؟ أما هداكَ فعرَّف ؟ أما سألْتَهُ فأسعف ؟ أما أمسكتَ عنه فأتْحَف ؟ أما عصيتَهُ فَستَر ؟ أما أطعتَهُ فشكر ؟ أما ذكرتَه [٤٦ / أ] فذكر ؟ أما أخْفَيْتَ شأنك فَنَشَر ؟ أما عثرتَ مولِّياً عنه فَنَعَش ؟ أما توجهتَ إليه فحيَّا وبَشْبَش ؟ أما سلوتَ عنه فشَوَّق؟ أما حضرتَهُ فتوَّجَ وطوَّق ؟ أما انقضتَ عنه فَبَسَط ؟ أما احتشمتَ منه فَنَشَّط ؟ أما تعبتَ له فأراح ؟ أما اقترحتَ عليه فأتاح ؟ أما استوحشتَ فآنس ؟ اما استَقْبَسْتَه فأقْبَس ؟ أما جهلتَ فَعَلَّم ؟ أما امتحنتَ فَسَلَّم ؟ أما ذللتَ فَعَزَّز ؟ اما انكشفتَ فأحرز ؟ أما خملتَ فَنَوَّه ؟ اما دنستَ فَنَزَّه ؟ اما رمدتَ فَكَحل ؟ أما طلبت فَنَحَل [1] ؟ أما قرعتَ بابه فَفَتَح ؟ اما التمستَ بِرَّه فمنح ؟ أما تاجرتَه فأربح ؟

فاذا كانت أياديه عندك قديمة ، وجناياتُك عنده حديثة ، كيف تقول ؟

---

١ - نحل : أعطى .

وبمَ تحتج ؟ وعلامَ تعتمد ؟ هيّىءْ لي حديثَك ، ونَبِّئْني عن خبرك ،واعرضْ عليَّ سرَّك ، وائتمنّي على نفسك ، فما لي في غِشِّك أرَب ، ولا لي في ذلِّكَ عزّ ، إنما أنا أنت ، لأنَّ تنبيهي لك تنبهٌ مني بك ، وتعريفي إياكَ تعرُّفٌ بيَ فيك . فكلامي وإن كان لك فهو لي ، وسماعك وإن كان بك فهو بي . وإذا اشتركنا في المراد الأقصى ، فليس ينبغي أن يُتَقَصّى ، بل التسهُّلُ أردُّ علينا ، وأرجعُ بالفائدة إلينا .

يا مسكين : دع هذا أيضاً واشهدْ عيناً قد مَلكتِ العُيون ، وقسَّمتِ الظنون [٤٦/ ب] وجَنَبَتِ المنون ، واستَغْرقتِ الفنون ، واستولَى على كلّ ما كان وكلّ ما يكون .

يا هذا : لو دبّتْ حلاوةُ هذه الصفاتِ في مُشَاشَك[1] ، وجدتَ بَرْدَ ما أقول ، وصعدتَ نحو ما تسمع ، وكُفيتَ الإصاخةَ إلى لفظ محبَّر ، وإعرابٍ متخيَّر ، ومَثَل مُسَيَّر ، وبيتٍ متدبَّر ؛ وكنتَ إذ ذاك محدّثاً بالغيبِ ، بلا شكّ ولا مريةٍ ولا ريب .

بالله : أما يباشرُ صميمَ فؤادِك نسيمُ هذا النظم والنثر ؟ أما يصلُ إلى قرار روحك أثرُ هذا الصَّوْبِ والقطر ؟ أما يصل إلى سرِّك طيبُ هذا النَدّ والعِطْر ؟ أما يصرفُ قلبك عن السكونِ في هذا البلد الممتلىء بالحاجة والفقر ، والغدر والمكر ؟ بلى والله ، إنك لَبِعَرَضِ ذلك ، ومهزوزٌ في الجملة إلى ذاك ؛ ولكن عليك بقايا منك ، وفيك بلايا بك ، منها : شبابُك البهج ، وقرينُك المخاتل ، وعادتُك الفاسدة ، وأدبُك السيّء ، وشهوتُك الحاضرة ، وشيطانُك المجاور ، ونفسُك المفتونة ، وطريقتُك الملعونة ، وأمانيّك الغالية ، وآمالُكَ الطالبة ، وأهواؤك السالبة ، وأحوالُك العاطبة . فجرِّدْ ــ عافاك الله ــ عزمةً من

---

١ ــ المشاش : كل عظم لا مخ فيه .

عزماتِ ذوي الجدِّ والتشمير ، وانسللْ [٤٧/أ] من صفاتك هذه بمجانبةِ التعذيرِ والتقصير ، وارغبْ بنفسك عن كل نقير وقطمير [١] ، وتقدم بجهدك أمامَ كل عيرٍ ونَفيرٍ [٢] ، وانما هي نَفَسٌ يتقطّعُ بالحسرة ، ونَفْسٌ تتقّد كالجمرة ، وشملٌ ينصدع كلَّ يوم بفراقِ حبيب ، وبالٌ ينخزلُ في كلِّ ساعةٍ بشاهد رقيب ، فليس لما يُذاق طَعْم ، ولا لما يُرى نور ، ولا لما يُملْك ثباتٌ ، ولا لما يُسْمع رونق ، ولا لما يُصْحب وَفاء ، ولا لما يوجدُ بقاء ، ولا لما يُجْلَب نَماء ، ولا لما يُحاز إناء ، ولا لما يُكْسب سناء .

فاذا كانت هذه العِبْرة صحيحة ، وهذه العبارة فصيحة ، وهذه الصفة نصيحه ، فلمَ يُجْتاز عليها بلا وَقْفة [٣] ولا تؤُدة ؟ ولمَ يُتباعد عنها بلا نظر ولا فكرة ؟ ولِمَ يُظنّ أن التواني يُعْقب ظفرا ؟ والتقصيرُ والتحقيقُ يحقق خَبراً أو أثرا [٤] ؟ لا والذي خَلَقَ فسوّى ، وقَدَّرَ فهدَى ، وملكَ الآخرةَ والأولى ، حتى تَمْضُغَ الصبرَ في مرارته فتجد حلاوتَه ، وحتى تَصلَ غدوتك بروحتك في قصده ، وحتى تَهجرَ مهادَكَ الوثير ، وشرابَك المطرب ، وثوبَكَ الناعم ، وحبيبَك المألوف ، [وحتى] تنماز [٥] منك ، وتَتَحوّل عنك ، أعني حتى تفارقَ كلَّ ما عرفت ، وتباينَ كلَّ ما ألفت ، وأنتَ بعد هذا كلّه على خطر : [٤٧/ب] ناقشك من تَقَدّمُ عليه ، أو عاتبك من تتوجّهُ إليه .

---

١ – القطمير : شق النواة .

٢ – العير : جماعة الابل ؛ النفير : الجماعة من الناس ؛ وفي المثل : فلان لا في العير ولا في النفير ؛ فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان عند عودته بالتجارة من الشام ، وهي التي تلقاها المسلمون ودارت بينهم وبين قريش معركة بدر ، أما النفير فهم الذين كانوا مع عتبة به ربيعة قائد المشركين يوم بدرأيضاً ، ولم يكن تخلف عن العير والقتال إلا زمن أو من لا خير فيه .

٣ – كذا هي في ل ، ولعل الأصوب : « ونية » .

٤ – ولم يظن ...... أثراً : هذه العبارة مضطربة من حيث ملاءمتها للسياق .

٥ – ل : تنمار .

أتريد أن تتخلصَ من آفات هذه الدار ، وتصيرَ إلى محل الطمأنينة والقرار ، بلا إنذار ولا إعذار ، ولا إخبارٍ ولا استخبار ، ولا اذّكار ولا استذكار ، ولا جِدٍّ في الليل والنهار ، ولا إعدادٍ لزادٍ في قَطْعِ المهامهِ والقِفار ، ولا أخذٍ بالوثيقة بالإعلانِ والإسرار ، ولا خلعٍ للعذار بعد العذار ، في طلبِ الرضى عند الجبار ؟ يقعُ لي أنك حمارٌ أو كالحمار !

يا مسكين : لا تَتيهَنَّ في أوديةِ المقال ، عن سلوكِ الطريق إلى الاحوال ، فانك إن تُهْتَ هكذا ، بقيتَ في ضُروب[1] الأذى ، مسدودَ الأمامِ محجوبَ الخَلْف ، حَرِجَ اليمينِ ضَيِّقَ الشمال ، لا آخذَ بيدك ، ولا رافعَ لقدمك ، ولا مشفقَ عليك منك ، ولا رادَّ لما لك عليك .

على أن هذا القول وما هو زائد عليه — في جَنْبِ لُطْفِ ربِّك — كهباءٍ منثور في فضاءٍ لا يلحقُــه حسّ ، ولا يؤثّر في وهم ولا حَدْس ، إنك بعين من اذا شاء عَطَفَ عليك ، وأقبلَ إليك ، وقلبَ عينك ، وشرَّفَ كونك ، وأراكَ منك غيرَ ما عهدتَهُ ، وأبدى فيك على خلافِ ما شهدتَهُ ، لأنه في الأولِ تولّى اختراعَك [٤٨/ أ] وتكوينك ، ثم وهب لك تحريكك وتسكينك ، ثم أفاضَ عليك تأييدَك وتمكينك ، ثم جمعَ لك تحسينك وتزيينك ؛ هذا بعدما أبرزَ تعيينك وتلوينك . أفتراه مع هذه السَّوالفِ من العَوارف ، لا ينقذك من المخاوفِ والمتالف ؟ بلى وَحَقِّه الذي لا تقلُّه الأرض ، ولا تَزِنُهُ السماء ، ولا تحملُهُ الجبال ، ولا تبين فيه البحار ، إنه ليفعل ذلك ويزيد ، ويبلغُ غايةً ما عليها مَزيد ؛ فَثِقِ الآنَ ثقةً لا تخالطها ريبة ، حتى تجدَ في أحوالِكَ كلها طِيبةً ليس فوقَها طِيبة .

---

١ — كذا ورد وله وجه ، وأرى الأصوب « في دروب » .

يا قوم : ألا راعٍ لسابحٍ ناله من أقذارِ هذه الدنيا[1] ؟ ألا ناظرٌ في روزنامجه الذي قد ملأه با لخسارِ والدمار ؟ ألا محاسبٌ لنفسه فيما يكسبُهُ في بسيطِ هذا الليلِ والنهار ؟ ألا مشتاقٌ إلى ما أعدّهُ اللهُ من أنواعِ الخيرِ للأبرار ؟ ألا راحمٌ لروحِهِ من التعرضِ لغضَبِ الله العظيم الجبار ؟ ألا غاضٌ بطرفه عما حرّمهُ الله عليه بالإعذار والإنذار ؟ ألا مستنكفٌ من ملابسة أخلاقِ الفسّاقِ والفجّار ؟ ألا مقلعٌ عن كبيرات الذنوبِ وصغيراتها بتحقيقِ النّدم والاستغفار ؟ ألا معذّبٌ لسماع كلامه وقرآنه في أوقاتِ الأسحار ؟ ألا نازعٌ لوطنهِ الجامعِ لِقُرَّةِ عينه [٤٨ /ب] الذي هو وَطَنُ السكونِ والقرار ؟ ألا مفيضٌ من عبرته[2] شوقاً إلى النجاةِ من هذه الأوضار ؟ ألا مجيبٌ لندائي على هذا الاحتياط والاستظهار ؟

فسبحان الله ما أخلا الطريقَ إلى الله . وما أغفلَ الخلقَ عن الله . وما أغرَّ العبادَ بالله . وما أجهلَهم بحقِّ الله . وما أزهدَهم في حظّهم من الله !

أيُّ بلاء جثَمَ على الصدور ؟ أيُّ شيطان غرَّهم باللهِ الحَميدِ الشَّكور ؟ أيُّ آفة دخلتْ عليهم في هذه الأمور ؟ أما يرونَ حوادثَ الدهور ؟ أما يسمعونَ هذه القوارعَ بين الخفاء والظهور ؟

عزَّ واللهِ عليَّ : خُتِمَت النبوّة . ورُفِعَت الخلافة . وأُهْمِلَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر . وفُقِدَ المحدَّثون[3] بالغيب . وعُدِمَ المجتنبونَ للعيب . واصطلح الناس على الشّكِّ والرَّيْب ، وفارقَهم من الله العزيزِ العصمة . وبعدتْ عن عامّتهم وخاصّهم الرحمة ، واستحقّوا بكل

---

١ – هذه العبارة مضطربة على هذا النحو ، ولعلها أن تقرأ « ألا راع لما تخبأ له هذه الدنيا من أقذار » ؛ وجعل « من أقذار » في آخر العبارة ضروري لأن الفقرة كلها قائمة على السجع .

٢ – ل : عثرته.

٣ – المحدث : الملهم .

وجه وسببِ النقمة . فلهذا وشبهه قَسَتِ القلوب . وخَبُثَتِ الأخلاق . واختلّتِ المودات ، وفسدتِ الاعتقادات ، وساءتِ الآداب ، وقبحت المعاملات ، وفشتِ المجانات . وكثرتِ الخيانات ، ونشبت[1] الأمانات ؛ واذا قلتَ لأحدهم : اتقِ الله وراقبْه وخفْ [٤٩/أ] يومَ القيامة ، واستحي مِن مليكك ، والحسابُ بين يديك ، ولا بدَّ من الجزاء ، وليس الأمر سُدى ، وما خُلقتَ عبثاً ، ولا تُركت مسيَّباً – تضاحكَ واستهزأ وقال : قد سمعنا هذا كثيراً ، ومن هذا الذي رجعَ منَ القبر ؟ ومَن عرفَ ما يكون من بعد ؟ ﴿إنْ هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (الانعام: ٢٩) ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ (الجاثية: ٢٤) هذا وما أشبهَهُ ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون !

ما أحلمَ ربَّنا : لقد أمهلَ كأنه أهمل . وسوفَ يأخذُ كأنه لم يترك . الويلُ لمن اغترَّ بالله ؛ الويلُ لمن باءَ بغضبٍ من الله ؛ الويلُ لمن أمِنَ مكرَ الله ؛ الويلُ لمن لم يَخَفْ بأسَ الله . إنه لا يقوم لغضبِهِ جبلٌ[2] راسٍ ، ولا بحرٌ زاخر ، ولا سماءٌ عريضة . ولا أرضٌ أريضة ، ولا ريحٌ عاصف . ولا هواءٌ واقف .

فإن كنتَ ، أيها الإنسان . تعرفُ ربَّك حقَّ معرفته . فأنِبْ اليه ، ولُذْ به . واستغفرْ مما كسبتْ يداك . وسعتْ إليه قدَماك ، وغريتْ به عيناك . وأولعتْ به أذُناك . وإن كنتَ لا تعرفه . فالويلُ لك مضاعَفٌ . والبلاءُ عليك مرادف .

يا مسكين : انظرْ إلى شلْوكَ الضعيف . وإلى ركنك الواهن . وإلى عروقك الرقيقة . وإلى عظامك الخائرة . وإلى أخلاقك المتطايرة ، وإلى نَفْسك المهينة ، وإلى [٤٩ / ب] روحك المسكينة . وإلى جملتك[3] المستكينة .

---

١ – كذا وردت ولها وجه ؛ ولا أستبعد أن يكون الصواب : « ونسيت » .
٢ – ل : حبل .
٣ – ل : حملتك .

اللهم : رَحْمَتَكَ نرجو ، وعدلَكَ نخشى ، وفضلَكَ نبتغي ، وإياكَ نعبد. وعليكَ نُثْني ، وعنكَ نُنْبي ، وإليكَ ندعو ، ومعكَ نَهدأ ، وآلاءكَ نَنشر . وأياديكَ نَنثر ، وعزَّكَ نَصف ، وحقَّكَ نعرف ، وبابَكَ نلزم ، وبحبلكَ نعتصم ، وعلى كل حال : إليكَ نَنتسب ، ولكَ نحتسبُ ما نحتسب ، فـلا تُرْسِلنا من يديكَ ، ولا تَكِلْنا إلى عدوِّكَ ، ولا تُوَلِّ أمرَنا غيركَ . مـا اغترَرنا بكَ ، ولكن أحسنَّا الظنَّ بعفوكَ ؛ ما اجترأنا عليكَ ، ولكن اطمأنَّتْ قلوبُنا بفضلكَ ؛ ما تعمَّدْنا لسخطكَ ولكن استرسلنا مع قوةِ الرجاءِ فيكَ . خالفناكَ ولكن [على] قلق ، وجانبناكَ ولكن على فَرَق ، ورقدنا عنكَ ولكن بعد أَرَقٍ وأرق ، فارحَمْنا ، يا ذا الجلال والاكرام .

— ٦ —

العدوة القصوى من الإشارات الإلهية

اللهم : إن [كان] سَرْحُ توحيدنا مُحْمىً بالاعتراف ، وإن كان رَبْعُ عالمنا منتَهباً بالاقتراف ، فاردُدْ علينا ما فاتَنا بالاقتراف بحرمةِ ما صُنّاه بالاعتراف ، فانك ذو ألطاف بأهلِ الإسراف ؛ وبعدُ وقبلُ : فاقطع كلَّ علاقةٍ[1] [٥٤/أ] بيننا وبينَ الكاذبين عليك ، وصِلْ بيننا وبينَ الصادقين عنك ، حتى نمتارَ منك الخيرَ كلَّه ، فنستجيبَ لك استجابةً ، ليس بعدها استرابة .

يا هذا : أبشرْ بالوصولِ إذا أُهِّلْتَ للقبول ، واطوِ الطريقَ إذا استأنستَ بالرفيق ، وادخلْ في الملأ الأعلى ، اذا خرَجْتَ من خسائس الدنيا ، وثقْ

---

١ — ل : علامة .

ببلوغِ المَقْصد ، إذا لزمتَ فناء المرصد ، واسكنْ إلى عجائبِ الغيب ، اذا عَرِيتَ من مدانسِ العيب ، ومهما نَشَرَتْ[1] عليكَ صفاتُكَ الدنيَّة ، فاقمَعْها بسلطانِ النفسِ القويّة ، ومهما ارتبتَ بشيءٍ فلا ترتابنَّ بأنّك مطلوبٌ هاهنا ، ومطالبٌ هناك ، فلا فوتَ لك إذا طلبت ، ولا رفقَ بك إذا طولبت ؛ وانظرْ ما أنت ، ومن أنت ، ومماذا أنت ، وفيماذا أنت ، وعلى ماذا أنت . وإلى ماذا أنت ، وبماذا أنت ، ولماذا أنت ؛ فانك إذا قلّبْتَ هذا منك بيني وبينك ، حكمتُ بالحقّ لك وعليك ، فحينئذٍ تَستوضحُ أمرَك ، وتستقْري حُجتَك وعُذْرَك ، وتقفُ على ما يُشيعُ ذكرك ، ويرفعُ قَدْرك ، فتعلم أنك محبوٌّ بزينةِ الإيمان ، مكرّمٌ بحقائقِ الإيقان ، مخصوصٌ بأسرارٍ لا تضمحلُّ بين الخبَرِ والعيان ؛ لأنَّ العيان [٥٤/ب] يَسِمُكَ بك . ويُظْهِرُكَ لك ، والخبَرُ ينبيك عنك ، ويُطْلِعُك عليك ؛ حتى إذا استوفيتَ هذه الحدود ، وتجرَّعْتَ مرارةَ الهجران والصدود ، برَقَ لك عارضٌ يخطفُ بصرك ، وفاءَ عليك فنٌّ يستغرقُ بصيرتك ، فحينئذٍ إن أخبَرْتَ صُنْتَهُ ، وإنِ استُخْبِرْتَ كُنْتَهُ .

أتدري ما تسمع ؟ أم تحفظُ[2] ما تودع ؟ أوه ! لفظٌ يرقُ بترتيبِ الحروفِ والسِّمات ، ومعنى يدقُّ عن كلِّ جليلٍ ودقيقٍ من الصِّفات !

يا هذا : دعني من هذه الهفوات ، فقد تُهْتُ في أرجائها بين الهَنَاتِ والهَنَات ، طالباً قُرْبَه بالصوم والصلاة ، والغزْوِ والزَكَاة : فصَوْمي عزُوفي عن الدنيا ، وصلاتي نظرٌ بعينِ المراقبة إلى **العدوةِ القُصْوى** ، وغَزوي وجهادي مع الأنفُس الآلفةِ لمواطنِ الآفاتِ والبلوى ، وزكاتي إخراجي كلّي إلى مَنْ هو أمْلَكُ لي وبه أوْلى ؛ فهل لك يا هذا من النغماتِ سرٌّ

---

١ – نشرت : هاجت وتفشت .

٢ – ل : تخطف .

أو نجوى ،او آنت من الذين يَرْعَوْن في هذه الساحة العلقم والدفلى ؟ فان كان لك من الأول نصيب ، فأنتَ مُرادٌ للمؤانسة بالحضرة ، ومأذونٌ لك في الانبساطِ بكل ما في نفسك من حجة أو عذرة ؛ وإن كان حظك من الثاني ، فأنتَ والله الساقطُ من عين الله [٥٥/ أ] الهابطُ في مقت الله ، المصافي لعدوّ الله ، المعادي لوليّ الله ، المغترُّ بحِلْم الله . فلا تغفلْ – عافاك الله – ولا تفعلْ – أعانك الله – فإنّ أخْذَه أليمٌ شديد ، يُمْهِلُ ولا يُهْمِل ، كيده متين ، واستدراجه مكتوم .

حدثني : قد قربَ العيدُ فما الذي هَيَّأْتَ له مما تلبسُه وتبرز به . وتجلو ظاهرك فيه ، وتجعله عنوانَ باطنك عنه ؛ أمّا غيرُك فانه قال :

قالوا : غدا العيد[1] ماذا أنتَ لابسُه ؟ فقلتُ : خِلْعَةَ ساقٍ حُبَّهُ جُرَعَا
صبرٌ وفَقْرٌ هُمَا ثوبايَ ، بينهما قلبٌ يَرَى حبّه الأعيادَ والجُمَعَا
أنتَ الضياءُ وأنت النورُ يا أَمَلي والعيدُ ماكنتَ لي مرأى ومستَمعَا
أحرى الملابسِ أن تلقى[2] الحبيب به يوم الزيارة في الثوب الذي خَلَعَا
لا كنتُ إن كان لي قلبٌ يحنُّ إلى حبٍّ سواكَ ولو قَطَّعْتَني قِطَعَا

يا هذا : اعمرْ رباعَ الدين باليقين ، واهجرْ في مواصلةِ الحقِّ كلَّ غثٍّ وسَمين . وإياكَ أن تتشبَّهَ بقومٍ عمين .

يا هذا :

انظــر لنفسك يــــا شَقِي حــتى متى لا تَتَّقِــي[3]
أو مـــا ترى الأيـــامَ تخـ تلس النفوسَ وتَنْتَقِـي ؟
كم من أخٍ أغمضتُـــــه بيدَيْ نصيــح مُشْفِــقِ

---

١ – كذا ، وهو يريد : « غداً العيد » .

٢ – ل : تلق .

٣ – الأبيات لأبي العتاهية (ديوانه : ٢٥١) .

ويئستُ منه ولَسْتُ أطمعُ أن يعود[1] فنلتقي
لا تُكْذَبَنَّ فإنه ما[2] يجتمعْ يتفرقِ
[٥٥/ب]والموتُ غايةُ من مضَى منّا وغاية[3] مَنْ بقي

اللهم : إن هواجسنا ووساوسنا لا تبدو إلا بتأييدك ومعونتك ، فاحفظها علينا ، واحفَظْها فينا ، بلطفك ، وقرِّبْ مسافةَ ما بيننا وبين قلوبنا وأفعالنا ، لنشيرَ إليك مخلصين ، ونتوكّلَ عليك واثقين ، وننشرَ أياديك متبجّحين ، ونستألفَ القلوبَ على محبّتكَ مجتهدين ، ونصرّحَ ونكني عن خوافي حكمتك معتبرين ، ونسمعَ ونجيبَ كما أمرت مُمْتثلين ، ونشهدَ ونغيبَ في ملكوتك مُتَيَقّنين ومتحيرين .

يا هذا : تحيُّرُك بك لتكون آيتَكَ في نقصك من حيث أنت ، وتيقنُك به لتكونَ آيتك في كمالكَ من حيث هو ، فتأملْ صنعَ الله لك ، وتصفّحْ نعمتَهُ عليك ، تجدْ ما أخّرَكَ به سبباً للتقدم عنده[4] ، وما سَلَبَكَهُ باباً تلتمسُ به رِفدَه . فسبحانه ما أغربَ أفعالَه ، وأعجبَ أشكالَه ، ولولا هذا وأشباهه لما استخذأتَ له ، ولا فزعتَ في عوارضك إليه ، ولكان ما تَؤُمُّه معه شبيهاً بما تألفه من بني جنسك ، الذين يلتحفون بمثل نَقْصك .

يا هذا : دع هذا واسبحْ في بحرِ الرجاء ، وقطّعْ حبال اليأس ، وثبّتْ [٥٦/أ] أطنابَ الأمن ، واقلعْ أوتادَ القلَق ، واعتصم بعُرَى الطمأنينة ، وسافرْ عن أوطانِ الغَفْلة ، وثقْ بأنك مجتبىً في الغَيْب ، مخصوصٌ في

---

١ – الديوان : يعيش .
٢ – الديوان : من .
٣ – الديوان : وموعد .
٤ – ل : عنه .

الشهادة . تجري في ثانيك على ما سبقَ به أوّلُك . ولكلِّ شيءٍ علامة تميزه من غيره بالحُكْم . ولكلِّ شيءٍ دعامةٌ مُنْضمَّةٌ مع الاسم . فعلامتُك في حالك تهالكُكَ على هذا النبأ العظيم . ودعامتُكَ في أمرك ثباتُكَ في التخصيص والتعميم . فعلى هذا . مَن ظهرت علامته . وثبتتْ دعامته . رَجَبَتْ كرامتُه . وحصلتْ غنيمتُه .

اللهم[1] : إنّا بك نعزّ . كما أنّا بغيرك نذلّ . وإياكَ نرجو كما أنّا من غيرك نيأس ، واليك نُفَوِّض كما أنّا عن[2] غيرك نُعْرِض . أذنتَ لنا في دعائك ، وأدنيتنا إلى فنائك ، وهيّأْتنا لعطائك ، وخَصَصْتَنا بِحِبائك . ووسمْتَنا بولائك . وعَمَمْتَنا بآلائك . وغَمَسْتنا في نَعْمائك . وناغيتَنا بألسنة[3] ملكوتك ، عن دقائق[4] ما في عالمك . ولاطَفْتَنا بظاهر قولك . وتَوَلَّيْتَنا بباطن فعلك ، فَسَمَتْ نحوكَ أبصارُنا . وشامتْ بروقَ جُودِك بصائرُنا . فلما استقرّ ما بيننا وبينك . أرسلتَ علينا سماءَ فضلكَ مدراراً . وفتحتَ لنا منّا أسماعاً وأبصاراً . فرأينا ما طاحَ معه تحصيلُنا . وسمعْنا ما فارقَنا[5] معه تفصيلُنا [٥٦/ب] فلما نبذنا[6] إلى خلعك من ذلك ذَرْواً ، اتخذونا من دونه[7] لعباً وهزواً . فبقدرتك التي أتت على بلوانا بهم ، أرِنا بك الغنى عنهم .

يا هذا : لا تكونَنَّ ممن فَتَنَتْهُ الفواتن . وغبنته[8] الغوابن . وشجنته

---

١ – من هنا حتى قوله : الغنى عنهم : ورد في شرح نهج البلاغة ١١ : ٢٧٦ .

٢ – ل : من .

٣ – شرح النهج : بألسن

٤ – شرح النهج : دقائق .   ٥ – ل : فارقه .

٦ – شرح النهج : سرنا (وهو خطأ) .

٧ – شرح النهج : من أجله .

٨ – ل : وعتبته .

الشواجن ، فأمسى مطروداً من تلك المواطن ، والمعادن والمساكن ، غير آمن ولا مستامن .

يا هذا : دعوانا عاريةٌ من البرهان ، ونِسْبَتُنا خالية من البيان ، انما هو تنميقٌ يروق العين ، وتلفيقٌ يغرُّ النفس ، والحقيقة وراءَ ذلك عند أهلها مصونةٌ مكنونة ، لا تُبْتَذَلُ بلفظٍ مزخرف ، ولا يُنَادَى عليها بنداء متكلف ، ولا يُخْبَرُ عنها بخبرٍ متحيفٍ؛ خرست[1] عنها الألْسُنُ إلا بالعلامات الصادقة ، وطاحتْ دونها الإشارات إلا بالآيات الناطقة ، وسُدَّت دونها الأبوابُ إلا بالنياتِ الواثقة ، وقام عليها الحَرَسُ[2] إلا إذا عُرِضَت عليهم التوقيعاتُ الرائقة الفائقة .

يا مسكين : قادُوك إلى غايتك باللطف فتَشَاكَسْتَ ، وذادوك عنها بالعُنْفِ فتقاعستَ ، فأَدْرِكِ الآن نفسك ، وإلا أطالوا حَبْسَكَ ، وكَرَّرُوا عليك كَبْسَكَ .

يا هذا : إلى متى تَهذي ولا تسكت ؟ إلى متى تدعو ولا تُجيب ؟ إلى متى تُرْشِد ولا تَرْشُد ؟ إلى متى تُضيء ولا تستضيء ؟ إلى متى [٥٧/أ] نخادع أنفسنا من وجهٍ ونخدعُ لها من وجه ؟ أما آن لنا أن نسلخَ هذا الجلبابَ الخَلَق ، ونلبسَ ذلك الشعارَ القشيب ؟ أما وَجَبَ أن نصيخَ إلى لحنِ العالم ؟ أما ينبغي أن نتأهَّبَ بإعداد الزادِ للرحيل ؟ بلى والله قد آن ، ودليلُهُ قد بان ، ولكنَّ النفس[3] حَرُون ، والعادةَ فاسدة ، والقرينَ غاشّ ، والدنيا حلوةٌ خَضِرة ، والغفلة راكدة ، والتغافُل مألوف ، والتغيير زائل ، ومن أَمَرَ بالمعروفِ وهو عاكفٌ على المنكرِ لن يُقْبَلَ منه ، ومن نهى عن المنكرِ وهو ملتحفٌ به لم يُلْتَفَتْ اليه .

---

١ – ل : حرست .

٢ – ل : الحدس .

٣ – ل : اليقين .

فَقُلِ الآنَ ما الحيلة ؟ الواعظُ أعوج ، والسّامعُ أهوج ، والهادي ضالّ ، والنصيحُ مُدغِل ، والعالِمُ مختال ، والعابدُ مراءٍ ، والعاقل حيران ، والصاحي سكران ، والراضي غضبان .

اللهم[1] : قيِّضْ لنا فرَجاً من عندك ، وأتحْ لنا مخلصاً إليك ، فانّا قد تعبنا بخلقك وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مُقارَبَتِهم في مخالفتكَ ، أقربُ منّا إلى مُنابذتِهمْ في موافقتك . لأنّه لا طاقة لنا بدهمائهم ، ولا صبرَ لنا على نَكْرَائهم[2] ، ولا حيلةَ لنا في سُفَهائهم[3] ، واذا كَثَروناغلبونا ، واذاغَلبونا أهلكونا . فنسألك بالضراعة التامة ، وبالإخلاص المرفود ، إلا أخذتَ بأيدينا ، وأرسلتَ رحمتَكَ علينا ، ولطفتَ بنا من حيث لا نشعر ؛ ما أقدرك [٥٧/ب] على الإجابة ، وما أجودك بكلّ مَصُون ، يا ذا الجلال والإكرام .

- ٧ -

الشوق والإخبار والاستخبار من الإشارات الإلهية

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي إليك عن شوقٍ ملاهبُهُ لا تخمد ، ووجدٍ بك غلائله لا تبرد ، وتسليمٍ لك في فضلك لا يُجحَد ، وتَلَذُّذٍ بذكرك لا يُلامُ المستهام عليه ، وانحطاطٍ في هواكَ لا عتَبَ على النازعِ إليه ، ورضىً بالميسورِ منك لا يسأم أحدٌ الاستزادةَ منه . وفي الجملة : كتابي إليك عنك ، وخطابي لكَ منك ،

---

١ - من هنا حتى آخر هذه الفقرة أورده ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١١ : ٢٧٧ .

٢ - شرح النهج : بلوائهم ؛ ل : نكرانهم .

٣ - شرح النهج : شفائهم .

وهَيَمَاني علياك فيك ، لأنَّ البَيْنُونة بيني وبينك ساقطة . والكَيْنُونة لي بك من أجلك رابطة ، فلم يبقَ إلا سرٌ مني ، إنْ صَدَرَ فإليك. وإن وَرَدَ فعليك. وإن خَفِي ففيك ، وان ظَهَرَ فلك . وان تَحَقَّقَ فَبِيُمْنِك . وإن طاح فبأمرك ، وإن حاشني فبظرفك ، وإن راشني فبلطفك ، وإن عرفني فباقبالك . وإن نَكِرَني فبإعراضك : قد أذَلَّني الحقُّ لك ، لأعزَّ بك ، وآواني إلى ساحَتِك ، لأستمدَّ من فضلك ، واستَخْدَمَني لمواهبه عندك ، حتى أتَذَوَّق حلاوتَها بجودك ، وأنْطَقَني بلسانك ، لأكونَ نائباً عنك في بعض مواقفك، فاقبلْني هادياً لأعيشَ بك مهدياً ، واستصحبني راضياً لأنقلبَ عنك مرضياً، وبالجملة : فكن لي بالعناية [٥٨/أ] الربانية ، أكنْ لك بالرعاية الرهبانية ، وسرِّحْ إليَّ من سَوَام[1] غيب الحقِّ ما أصيرُ[2] به فرداً بين الخَلْق ، وكُن خيرَ واسطة وخيِّرَ سفير . فما خُصِصْتَ بهذه الأسرار إلا لأمرٍ جليل خطير ، فقد هبَّتْ عليَّ رياح ، أنا منها في أرَجٍ ونسيم ، وراحة ونعيم . وقيل لي: لا تركَنَنَّ إلى شيء دوننا ، فكلُّ ذلك وَبالٌ عليك ، وخاتلٌ لك ، لإنك إن ركنتَ إلى العلم لبَّسْناه عليك ، وإن وَثِقْتَ بالعبادة رَدَدناها إليك ، وإن لحظتَ الخلقَ وَكَلْناك بهم ، وإن أعجبتَ بالمعرفة نكرناهــا فيك ، وإن أويت إلى الوجد استدرجناك دونه ؛ فأيُّ حَوْل لك ، وأيُّ قوة معك ؟ اشهدنا بغيبتك عن غَيْرِنا ، نُشْهِدْكَ منا ما لا يحويه مكان ، ولا يخليه أوان ، ولا ينبيء عنه خَبَرٌ ولا عيان .

وقيل أيضاً : قد قسمناك في صفاتك بإرادتنا الإلهية ، فانتظم بها بما أعرناك من القوة البشرية ، ورضيناك عبداً لنا ، فارضَنا رباً لك ، فإنك إنْ رَضيتَنَا لك رَقَّيْناك عن مرتبة العبودية ، وليس بعد العبودية إلا الربوبية ، والربوبية صِفتُنا .

---

[1] – السوام : كل ما رعي من الابل والماشية ، وهو هنا في موضع كناية عن دقائق الغيب .
[2] – ل : اصبر .

وقيل أيضاً : اعرف كلَّكَ بتمييزِ بعضِك من بعضِك . وتصفَّحْ بَعْضَكَ لبعضِك ؛ فخذِ الآنَ في ذلك . وانظر أين [٥٨/ ب] حسُّك من حَدْسك ، وأين فهمُك من وَهْمِك ، وأين كُنْهُكَ من سِرِّك ، وأين شَوْقُك من ذَوْقك ، وأين رمزك من فِطْنَتِك ، وأين إخلاصك من اختصاصك ، وأين قَدَمُك من قِدَمِك ، وأين أُنسك من جاهك ، وأين إشارتُك من حقيقتك ، وأين عملُكَ من تقرُّبك ، وأين علمُكَ من تأدُّبك ، وأين تأدُّبك من تهذُّبك ، وأين تهذُّبك من ترتُّبك ، وأين شهادتُك من غَيْبَتك ، وأين انبساطك من هيبتك ؛ فاذا ميَّزتَ الكَوْنَ الذي هو وطنُك بهذا الضرب من التمييز ، بانَتْ لك . واذا بانت لك بانت بك ، واذا بانت بك بانت عنك ، واذا بانت عنك بنتَ عنها ، واذا بنتَ عنها بنتَ بما أنت له ومنه ، وهو الذي أبان هذه الاشياء وحلاَّك بها ، وأظهرَكَ فيها ، ثم أخذَك عنها ، واستخلَصَك لنفسه دونها .

وقيل أيضاً : تلقَّ أسراري الصائبةَ على قلبك بالخواطر التي أُنْشِئها فيك ، وعُذْ بي عند نكراتها حتى أُونِسَك بوحشياتها . لا تُبْدِيَنَّ فاقة إلى غيري . فأضاعفَها عليك ، مكافأةً لك على سوء أدبك ، ومفارقةِ حدِّك في عبوديتك : أنا أبديتُ الفاقة فيك لتفزَعَ بها إليَّ ، وتضرعَ منها لديَّ [٥٩/ أ] وتتوكل فيها عليَّ ؛ سبَكْتُكَ بها لتكونَ ذهباً خالصاً ، فلا تَزِيفَنَّ بعد السبْكِ ؛ حكمتُ لنفسي بالغِنى ووسمتُك بالفاقة ، فإن وصلتَ فاقتكَ بي وصلتُها بغناي ، وإنْ وصلتَها بغيري حبستُ عنك موادَّ معونتي ، طرداً لك عن بابي ، وبتّاً لأسبابك من أسبابي . من وَكَلْتُهُ إليه فقد هلك ، ومن وكلتهُ إليَّ فقد مَلَك .

ثم قال : سيدي ، أرجو أن تكون همتك في أمري ، على قدر رجائي فيك ، وإقبالك على فاقتي ، بحسب انتسابي إلى خدمتك ، فأفوزَ منك بعنايةٍ تحرسُني لك ، وتصلُني بك .

أَلا سَقَى اللهُ الأزمانَ السالفة . والمعاهدَ المألوفة ، وقد كانت المنى تصافحنا عياناً ، والأحلام تُهْدَى إلينا بياناً . فما كان أحلاها في الصدور . وما كان أبلَّها للأكباد ، وما كان أقرَّها للعيون ، وما كان أبْرَدها للغُلَل . وما كان أسكَبَها على الأرواح ، وما كان ألْوَطَها بالقلوب . وما كان أطْلَعَها على الغيوب ؛ لمْ يبقَ منها إلا الآثارُ التي تُذْكَر فتَبْكي[1] . وتخيَّل فتشجي ، وإلا الربوعُ التي إذا نُظِرَ إليها أذْرَتِ الدموع ، وألهبتِ الضلوع ، وأورثَتِ الخشوع ، وإلاّ أحاديثُ نَفْسٍ إذا كَرَّتْ أحدثتِ الوسواس ، وأوحشتِ الناس ، وحالت بين القلب [٥٩ / ب] والاستئناس . وإلا علائقُ منوطةٌ من آفاقِ الفكر ، تُسْهِدُ الطرفَ ، وتُرْغِم الأنف . وتثيرُ الحسراتِ بعد الحسرات ، وتحدّرُ[2] العبراتِ بعد العبرات ، وتنكّرُ النكرات بعد النكرات ، وتسكرُ السكراتِ بعد السكرات ، وتوقعُ الغمرات بعد الغمرات . — هكذا يكون مَن شابَ فوداه[3] ، وخانه ثقتاه ، وأخْلَقَه ملَواه[4] ، وصارتْ حالُه تُكَذّبه ، وبقايا هواهُ تَغلبه ، وزَهَراتُ الدنيا تَسْبيه وتسلبه ، ومناياه تقصدُهُ وتطلبُهُ ، ونفسه فيما بين هذا وهذا تخدعه وتخلبه ، وغِيَرُ الليلِ والنهارِ تُوهنه وتكربه ، وصروفُ الدهر توحشه وترهبه[5] ، والأَجَلُ في أضعافه يَختِلُهُ ويرقبُهُ : إن التفتَ إلى حبيبه لم يُقْبَل ، وإن تَضَرَّعَ إليه لم يُرْحَم ولم يوصَلْ ؛ الحزنُ رداؤه ، والنَّدَم حذاؤه ، والأَسَى غطاؤه ، واليأسُ وطاؤه : إن ناظَرَ قُطع ، وإن تطاولَ قُمع ، وإن سأل مُنع ، وإن تَرفَّع وُضع ، وإن تحرَّك ردع ، [وإن سكن][6] قطع .

---

١ – ل : فتنكي .

٢ – ل : : وتحذر .

٣ – ل : فوآده .

٤ – الملوان : الليل والنهار ، وقيل هما طرفا النهار .

٥ – ل : وتوهبه .

٦ – وإن سكن : غير واضحة ، ووقعت في الهامش .

يا هذا : أهكذا أنت ؟ اصدِفْ[1] عن قلبك ، ولا تنغمسْ في ريبك ، ولا تتغافلْ عن عيْبك ، فان كنتَ هكذا ، فاستقبل ليلتَكَ[2] هذه التي قد استقبلَتْكَ ، والتمسْ فيها من الله مكنونَ صدرِكَ ، فإنها ليلة عظيمة ، ولها عند الله وملائكته منزلةٌ كريمة ، ولقد نطقَ [٦٠/أ] السلفُ الصالحُ عنها بكلِّ ظريفة ، وانتظروا من الله فيها كلَّ هديةٍ شريفة ، ولقد اشتمل التفسيرُ على ذِكْرِها في قوله المنزل ، على قلب عبده المرسل حين قال دالا عليها ، وحاثاً على اخْذِ الأهبة لها ﴿فيها يُفْرَقُ كلُّ أمر حكيم﴾ (الدخان : ٤) وهي ليلتك هذه التي بلّغك الله إليها ، وجمع بينك وبين عيدك[3] فيها ﴿ليَبلُوكم أيكم أحسنُ عملاً﴾ (هود : ٧) .

أتدري يا مسكينُ ما العملُ الحسَن ؟ إني أظنك ملبوساً عليك ، غيرَ مؤهّل لفهمِ كناياتِهِ في كلامه لديكَ ؛ العملُ الصالحُ أنْ تُخلِصَه من الشرْك ، وإخلاصُهُ من الشِّرك أن لا تريدَ به سوى الحقِّ الذي عرَّضَكَ لخدمته ، ووَشَّحَكَ بنعمته ، وأشْرَفَ بك على حكمته ، ووَقَفَكَ بين مشيئته وقدرته ، يُصَرِّفُكَ بعزّ القدرةِ على خفيِّ المشيئة ، لتعلمَ أنه مالكُكَ ومصرِّفُكَ ، وواصِفُكَ ومُشرِّفُكَ .

يا هذا : أتقفُ على سرِّ قوله ﴿فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم﴾ ؟ لا والذي أبلاني بك وبكثافتك ، وحجبني عن إقبالِهِ عليَّ بإقبالي عليك ؛ فهذا هذا .

وأختمُ رسالتي بدعاءٍ تقف به على حُرْقةِ قلبٍ متشبط ، وكربِ رُوْح منوَّط ، فتؤمِّن عليه :

---

١ – ل : اصدق .

٢ – من هنا يتجه إلى الكلام عن ليلة القدر ، ولم تسبق أية إشارة اليها ، وأغلب الظن أنه حذف ما قبل ذلك ؛ وفي الرسالة التالية حديث عن شهر رمضان وهو أنسب لذكر ليلة القدر .

٣ – ل : عبدك .

اللهم : إنّا قد دعونا خَلْقَكَ إليك فنفروا عنّا ، ورفَقْنا بهم فعنفوا بنا[1] ، وطابنا ما عندهم فبخلوا عاينا ، وجُدْنا عليهم بما عندنا فلم يقبلوا منّا ، [٦٠/ ب] وانقبضنا عنهم فقرفونا[2] ،ولِنَّا لهم فطعنوا[3] فينا ، ونافَقْناهم فقبلونا ، وخالصناهم فَرَدُّونا ، ونَصَحْنا لهم فاستغشُّونا ، وغَشَشْناهم فسكنوا الينا .

اللهم : قد طالت بلوانا بهم فاكفناهم ، واشتدت محنتُنا منهم فأغنِنا عنهم ، وأنْسِنا ذكرهم ، واصرفْ عنّا خداعهم ومكرهم ، بجودك وكرمك .

– ٨ –

فضائل شهر رمضان من الإشارات الإلهية

إليك اللهم أشكو ما تُجِنُّ ضمائري ، ولديكَ أرفعُ خفايا هَمّي وسرائري ، ومنك أرجو الصفحَ الجميلَ عن خطاياي وجرائري ، وإياك أسأل أن تقبل حُجَجِي ومعاذري ، وبك أتوسّلُ إليك حتى تَقِيني محاذري .

يا هذا : أتصومُ رمضانَ وأنتَ عاكفٌ على سخط الله ؟ يا هذا : انظر لماذا عُرِضْتَ في هذه العبادة عند الله ؛ أما تستحيي أن تتوجَهَ إلى الله في هذا الشهر من غير أن تكون ذا جاه عند الله ؟ أترضى أن يمزّقَ صَوْمُكَ في وجهك عند ملائكة الله ؟ أتقنعُ أن تكونَ جائعاً نائعاً مجتهداً من غير أن يَقْبَلَك الله ؟ أين النيةُ المجردة ؟ أين المَطْعَم الحلال ؟ اين الكفُّ عن الغِيْبة ؟ أين الإقلاعُ

---

١ – ل : فعفونا عنا .

٢ – ل : ففرقونا .

٣ – ل : فطفوا .

عن المَعْصيَة ؟ أين استئنافُ حُسْنِ المعاملة ؟ أين قَبْضُ اليد عما ليس [٦١/ أ] لك بحق؟ أين غضُّ البصر عما ليس لك بملك؟ أين تطهيرُ القلبِ من الفكر في غير الله؟ أين سُمُوُّ الهمّةِ إلى ما ذَخَرَهُ الله لعباده المخلصين ؟ أين الأَنَفَة من الشِّرْكِ بالله في الطاعة ؟ أين الحميّة والغضبة[١] على عدوّ الله إذا زيّن الباطل ؟ أين الشوقُ إلى ما أعدّ اللهُ للمجتهدين في هذا الشهر؟ أين الحياءُ من التقصير فيما هو وسيلةٌ لك إلى الله ؟ أين المهربُ عن كلّ شاغلٍ لك عن عبادةِ الله ؟ أين الحَرَسُ عن كلّ ما هو مكروهٌ عند الله ؟ أتظنُّ أنك إذا قطعتَ نهارَكَ بالجوع والعَطَشِ فقد ملكتَ ما عندَ الله ؟ أتظنُّ أنك إذا أحْيَيْتَ ليلك بالركوع والسجود فقد ابيضّ وَجْهُكَ مع الله ؟ كلا ، حتى تخلصَ النيّة ، وتطهرَ الطويّة ، وتعرضَ نفسَك في تقرُّبك على المنية ؛ فعند ذلك تنالُ المنزلةَ العليّة ، وتُتْحَفُ بالعطيّةِ الهنيَّة ، وتُتَلَقّى بالتحية من الله وليّ كلّ تحية .

يا هذا : إنك إن[٢] تعودتَ ما نصحتُكَ به في هذا الشهر ، جريتَ عليه إلى آخر العمر ؛ فالخيرُ عادة ، والشرُّ لجاجة .

يا هذا : تاجِرْ ربَّك فإنك تربَحْ ؛ عامِلْه فانك تُفْلِح ؛ اعتذرْ إليه فانه يَقْبَل : اقرعْ بابَه فإنه يأذَن ؛ نادِه فإنه يسمع ؛ ناجِهِ فإنه يَرْفَع ؛ سَلْه فإنه يجيب ؛ تعرّضْ له فانه يؤهِّل ؛ ارغب [٦١/ ب] إليه فانه يَهَب ؛ ارفع يَدَكَ إليه فإنه يوسع ؛ الهجْ بذكره فإنه يُعين ؛ اشكر نعماه فانه يزيد ؛ اصبرْ على قضائِه فانه يَحْمَد ؛ ذقْ شرابَ معرفتِه فإنه يُطْرِب ؛ أصغِ إلى نغماتِ كلامه فانه يُؤْنس ؛ تَمَايلْ عند لَحْنِ قوله فانه يسلّي ؛ توسَّل إليه بسالف إحسانه فانه يعيد؛ عُذْ به فانه جار ؛ لُذْ به فانه غفّار ؛ اطمئنَّ اليه فانه بَرْدٌ وسلام ؛ خذ بكلامه فانه شرابٌ وطَعَام .

---

١ – ل : والعصية .

٢ – كتب فوقها « متى » ، ويبدو أنها قراءة من نسخة أخرى .

هذا شهرٌ يُستَرُ فيه العيوب ، وتَلين فيه القلوب ، وتَتَجافى فيهالجُنُوب ، وتنفَرج فيه الكروب ، ويُنْصَر فيه المغلوب ، ويُصَدَّق فيه المكذوب ، ويُشْهَد فيه الغيوب ، ويُنعش فيه المنكوب ، ويُعان فيه المسلوب .

انظر إلى الألسنة اليابسة كيف تبتلُّ بذكره . انظر إلى الأعيُنِ الطامحة كيف تكلُّ عن مخالفته ، انظر إلى القلوبِ القاسية كيف ترقُّ في قصْده ، انظر إلى الأحداق الصلبة كيف تدْمَعُ من خَشْيَتِه ، انظر إلى البِقاع المظلمةِ كيف تستضيءُ بنور كلامه ، انظر إلى الآمالِ التي تتجدَّدُ في كراماته ، انظر إلى المُنْكَرِ كيف يُوارَى خوفاً من أليم عِقابه .

فاجتهد يا هذا أن تكونَ في هذا الشهر طالباً لرضاه ، صابراً على بلواه . متجنِّباً لشكواه [٦٢/أ] متعرضاً لنجواه ، فإنك إن أهَّلْتَ لهذه الأحوال ، رُفِعْتَ إلى الدرجات العاليات ، وكُفِيتَ بهذه جميعَ المؤونات ، وحصلتَ مع الله غنياً بالحسنات ، عَرِيّاً من السيئات . فما أحلى هذه الوصية ، إن لم يكن عند سماعها عَصِيّة ، وما أعلى هذا الإسناد ، إن كان لك فيه مَتْنٌ من رَشاد ، وما أَسعدكَ بشرفِ هذه الطاعة ، إنْ لم تُحبَط بمخالفتك للجماعة .

اللهم : إنّ اعمالنا كلّها جاريةٌ على إرادتك ، ونحن عليها ملومون ومحمودون باختيارك ، وبها مجرّبون بحسب ما سلف من عِلْمِك . فأَنِبْنا إلى فِناء عِزِّك ، واجعلنا من حِزْبِك الفائزين ، وأَنْسِنا حظوظَنا منّا في طَلَبِ حظوظِنا منك ، وهوِّنْ علينا مرارة الدنيا ، وبلِّغنا حقيقةَ الأمل وغايةَ المنى .

دعْ هذا كلَّه وانظر إلى حالي عند الحقِّ فإنها واهية ، وتعجَّب من حديثي معه فانه[١] داهية : خطبتُ عنده مكانةً أرتاحُ بها ، وحالةً أغتبط لها ، فضرَّمَ فؤادي نار البُرَحاء حتى استعفيت ، وحَجَبَني عن ذلك بكلِّ حاضرٍ وغائب

---

١ – ل : فانها .

حتى فَقَدْتُني فيما كنتُ وبِنْت ؛ أشْهَدَني ما أشْهَدَني وانا غائب ، وغيَّبَني عما غيّبني وأنا حاضر ؛ فلا جَرَمَ اذا جلتُ جلتُ في غير مجال ، واذا قلتُ قلتُ في غير مقال ..

يا هذا [٦٢/ ب] لا أغرُّك منه ، ولا أكذبك عنه ؛ له قدرةٌ تصرِّف كلَّ شيء على كلِّ شيء ، وحكمةٌ تخفى في كلّ شيء عن كلِّ شيء ، ومشيئةٌ تنفذُ في كلِّ شيء لكلِّ شيء ، وعلمٌ يحيط بكلِّ شيء من كـل شيء ؛ لا يعزُبُ عنه شيء ، ولا يعزُّ عليه شيء ، سَطْوُهُ ينسيك ما تعرفُ وما لا تعرف ، وعزُّهُ يأتي على كلِّ ما يصفُ ولا يصف . فهذا بعضُ حديثه في إلهيته من ناحية ما هو به فَرْد .

خذِ الآنَ بعضَ خبره من ناحية ما هو جواد : له رحمةٌ تَسَعُ كلَّ شيء بكلِّ شيء ، وحُكْمٌ يأتي على كل شيء في كلّ شيء ، ورفقٌ ينفذ[1] في كل شيء من كل شيء ، وصنعٌ يحيطُ بكلّ شيء لكلّ شيء ، وتوفيقٌ يقوِّم كلَّ شَيْء على كل شيء .

فَقُمْ على قَدَمِ الاصطبار ، وتنحَّ عن رَوْعَات هذه الدار ، مشتاقاً إلى دارِ القرار ، في جوارِ العزيز الجبّار . فان كنتَ لا تراها ، ولا تجدها ، ولا تحسّ بها ، فأنت واحدٌ من الأنعامِ السائمة ، والبهائمِ المهمَلَة . لا يَغُرَّنَّك حِذْقُك وكَيْسُك ، وفصاحتك وذكاؤك ، ومعرفتُك في أمورِ دنياك وأحوالِ عاجلتك ، فانك كلما كنتَ بها أبصر ، كنتَ عن أحوالِ آجلتك أعجزَ وأقصر ، وفي تجارتها أغبنَ وأخسر ، لأن هذه دار ممرٍّ واجتياز ، وتلك دار مقرٍّ واعتزاز ، وأيامُ هذه محدودة ، يفنيها العدد [٦٣/ أ] وأيام تلك ممدودة ، لا يأتي عليها الأبَد .

---

١ – ل : ينفد .

يا هذا : لا تستسهلِ الوعرَ في دُنياك ، وتستوعرِ السهلَ في أُخراك ،فإنك متى فعلتَ هذا وضعتَ الأوَّلَ مكانَ الثاني ، وآثرتَ الكسلَ والتواني ، فما ميّزتَ بين الخبَرِ والعيان . وهلكتَ بين الخسران والأماني :

غُــرَّ امرؤٌ مَنَّتْــهُ نفـــسٌ أنْ تدومَ له السَّلاَمَهْ[1]
هيهاتِ أعيـــا الأوّليـــن دواءُ دائكِ يا نَعَامَهْ

اللهَ اللهَ في نفسك الضعيفة . لا تغترَّ بمواتاة الأيامِ لك . ومساعدة الحظوظ لديك ، وإقبالِ المراد بعد المرادِ إليك . فانّ ذلك كلّه أقيادٌ وأغلال ، وأوزار وأثقال . لا تبصرْ ما أقول بعين الرأس . ولكن بعين الصدر ، فإنَّ عين الرأسِ لا تريكَ إلا الجسمَ وطولَه وعرضَه وعمقَه،ولَوْنَه وسِحنَتَه[2]، وحلوَه وحامضَه وطعمه . ولِينَه وخُشونَتَهُ . وثِقلَهُ وخِفّتَه ، وقُرْبَه وبُعْدَه ؛ فأمّا عينُ الصدرِ فإنها تُريكَ منه ضُرَّه ونفعه . وبقاءه وفَناءه ، وصِحّتَه وعلّتَه . وحاصلَه وثمرتَه . وسِرَّه وعلانيته . ونصحَه وغِشّه ، وأمانَتَه وخيانتَه . وصدقَهُ وكَذِبَه .

فاذا رأيتَ هذا كلّه تأهبتَ لتمييزِ النافعِ من الضارِّ . وتحصيـلِ المُجْدي من المُرْدي ، وحيازةِ المفيدِ من المبيد . وشُغِلْتَ [٦٣/ ب] عما كنتَ مفتوناً به من مرئيّاتِ عينِ الرأس جملةً . وهذا لا يكون إلا مـن يُمْنِ الناصية[3] ، ومن مخالفةِ النفس العاصية . وإلا فبتوفيقِ الله . الذي هو مقدَّمٌ على جميعِ الأمور . وبه قرّتِ العيون . وبُلَّتْ[4] الصدور .

---

١ – مر البيت الأول من قبل (ص : ٢٤) .
٢ – ل : وشجيته .
٣ – يمن الناصية ويمن الطلعة : البركة وحسن الطالع .
٤ – ل : وبلة .

اللهم : إنّا ما عفْنا كلّ ما سواك حتى ذُقْناه ، وما ذُقْناه حتى مقَتْناه ، ولا أوينا إلى كهف ربوبيتك إلا بعد أن خلتْ أيدينا من غيرك . فبحيرتِنا التي رَدَّتْنا إليك ، وبفضيحتنا التي عرّضتنا عليك ، إلاّ جبرتَ ما انكسرَ منّا ، ورددتَ علينا ما ضلّ عنا ، وكنتَ خيراً لنا منّا لأنفسنا ، إنك أهلُ ذلك ، وأهل التقوى والمغفرة .

اللهم : إن حاجتَنَا اليك شديدة ، وأيدينا إلى جودك ممدودة . وضمائرَنا على توحيدك معقودة ، وأنفسَنا بانتظارِ موعودك مجهودة ، وأسرارَنا بِصَوْبِ تحياتك معهودة ، وآثارَ قدرتك في بسطِ عالمك بنا مشهودة ، وأماراتِ أمرك ونهيك في المكره والمنشط مقصودة ، ومكامنَ الهوى والخُلْفِ والجَهْل باليقظةِ مرصودة ؛ إلهنا ! وكل هذا وما وراء هذا مما لا يسري إليه الوهم ، ولا يدركه الاستقصاء ، ولا يتصل به التمني ، متعالَمٌ منك ، متعارَفٌ بك ، بجودك الأوّل ، ولطفك الثاني ، وإحسانك [٦٤ / أ] الثالث . ورفقِكَ الرابع ، وعلى هذا إلى أن ينقطع العدد ولا ينقطع المدد .

يا هذا : إذا خلعتَ عنك لَبُوسَ الباطل فنَدَّ عن كونك ، وَضَعْ من صَوْنك ، واذا كُسيتَ جلبابَ الحقِّ فجِدْ بِعدَمِك ، وابقَ بِفَنائك ، والحَظِ الملكَ خادماً لك ، والعالمَ واقعاً على إرادتك ، فإن هناك المولي والمعلّي وكلُّ شيء لكَ مطيع ، وكلُّ زمان بك ربيع ، وكل [ذي] أُذُن منك سميع ، وكلُّ موجودٍ إلى خاطرك سريع ، وكلُّ مَجَالٍ من أجلك مريع .

ياهذا : لَطُفَتِ الكلمة في هذه الفقرة ، لسانحٍ سَنَحَ في أرجاء الفكرة ، حَجَبَ واحتجب ، فليتَه حين حجب علَّل ، أو ليته حين احتجبَ سوَّل ؛ لكنه سَنَح[1] بلغة عجماء ، وحركةٍ شوهاء ، وسَكْتَةٍ رَوْعاء ، فلم يتركْ لحظاً إلا طَمَسَه ، ولا لفظاً إلا لبَّسه ، ولا مطلقاً إلا حبَسه ، ولا متميزاً إلا عكَسه ، ولا سعداً إلا نَحَسه ، ولا منتصباً إلا نكسه . فلا جرَمَ : لا عَبْرةَ إلا وهي

---

١ – ل : سبح .

مسفوكة ، ولا نفسَ إلا وهي منهوكة ، ولا كبد إلا وهي مشكوكة . ولا ملجأ بعد الهياط والمياط [1] إلا إلى الله الذي بيده تذليل كل صعب ، وإليه تسكين كلّ رُعْب ، وهو القادر بالحقّ ، والجواد بالحقّ ، والكريمُ بالحقّ ، وكلٌّ من سواه انما هو منْ هذه الصفاتِ ظلٌّ [٦٤/ ب] قالص، ونعتٌ ناقص، ووارِدٌ شاخِص ؛ جلّ عن شَرِكَةِ الصفات ، كما علا عن شَبَه الذات . ذلك الله الذي له الأرضُ والسموات ، وما بينهما من عجائب البيّنات . والسلام .

- ٩ -

[٦٨ / أ] الكأس الدهاق من الإشارات الإلهية

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الوليُّ الوَدُود ، والصاحبُ المخلص ، والجارُ المواسي ، والظهيرُ المأمون ، والصديقُ الصدوق ، والثِّقة الموثوق ، ما أشوقَني إلى خيالك ، على بُعْدِ دارِك ، لأتعلَّلَ به وبمناغمته [2] حفظاً لحياتي بك ، واقتناءً لحلاوة العشْقِ معكَ ، وبَلاً [3] لحرارةِ صدرٍ قد انشوى وجداً بك ، وتخييلا لأحوالٍ لطيفةٍ سَلَفَتْ في أيامٍ قديمةٍ معك .

هذا جهدُ من بُلي بفراقك ، ووَقَفَ فكره تلقـــاءَ شاملك أو عراقك [4] . فلا تعجبْ من ضروبِ ما وصفتُهُ في هذه الحروف ، فان وراءَ ما سمعتَهُ ما لا ينقادُ للوهم ، ولا يَبينُ [5] بالفهم [٦٨/ ب] ولا يكون له تصريحٌ بالقلم ، ولا تلويحٌ باللسان، ولا ينْبِيء [6] عنه تمريض الإشارة ، ولا تصحيحُ البيـــان .

---

١ - الهياط والمياط : الضجاج والجلبة أو الدنو والتباعد .

٢ - ل : وبمناعمته .

٣ - ل : وبلاء .

٤ - من قول البحتري :

الله جارك في انطلاقك تلقاء شامك أو عراقك

٥ - ل : يلبس . ٦ - ل : تنبيء .

لأن العشقَ اذا هيَّجَهُ الوجد ، والوجدَ إذا لابَسَه الشوق ، والشوقَ اذا قارَنَه التتيُّم ، والتتيّم اذا اتصل[1] به الهَيَمان، والهيَمَان اذا شبَّهُ النزاع ، والنزاعَ اذا أزعجهُ الرداع ، والرداعَ اذا أحاط به الاطماع ، تَبَدَّدَ صاحبُهُ في اجتماعه ، وانكسرَ بَالُهُ عند قولِه واستماعِه ، ونأى مرادُه لِقِصَرِ باعِه ، وجزَعِ طباعِه ، من غَوْر[2] انتجاعه ، ونيق[3] بِقَاعِه ، عند زمَاعه[4] إلى رباعه . واذا كانَ هذا خَبَرَ منْ أمكنَ الخبرُ عنه ، فما ظنُّكَ بمن بلواه أجلّ ، وداؤُهُ أعضل ، من أن يكونَ له عن ذلك كله نبأٌ دقَّ أو جَلَّ ؟

وما أدري — وحقِّ الحق — كيف دُهِيتُ بما دهيتُ ، ومن أين رُميتُ بما رُميت ، ولِمَ سُبيتُ من حيث سُبيت؛ ولعلي قصّرتُ في إبداء الشكر وإعادته ، أو سهوتُ في نشرِ الحمدِ وإذاعته ، فَحُرِمْتُ لذةَ الوِصال ، وبُليتُ بكُرَبِ الانفصال. فما ذنبُ من قَصَّرَ بلا ارادةٍ متقدِّمة ؟ وما العَتْبُ على من سها بغيرِ نكرةٍ حاضرة ؟ أتراني تعرضتُ لهذه البلوى منك ، حتى أتجرّعَ هذه المرارةَ من أجلك ؟ لا والذي أسأله أن يُبَيِّضَ وجهي [٦٩/ أ] بالنظرِ إلى وجهك ، ويردَّ عليَّ غضارةَ أيامي معك،ويُقِرَّ[5] عيني بجولانها في محاسنك ، ويُقيمَ[6] أَوَدي بتحقيق ما أطالَ أسفي على فوتِه منك . وَهَبْ أنَّ هذا كله قد انقضى ، أما يجب أن نعود بعد ذا إلى الرضى ، ولا نتحرّق بجمر الغضا ؟ بلى والله .

---

١ – في المتن : واصله ، والتصحيح من الهامش .

٢ – ل : عوز .

٣ – ل : ويبق ؛ والنيق : الجبل الشاهق أو أعلى موضع فيه .

٤ – ل : رقاعه .

٥ – ل : وتقر .

٦ – ل : وتقيم .

قد بان لي يا هذا ما هذا؛ دعني من هذا وهذا، واستمعْ مني، ما أحدثك به عني، لأنّي أريدُ أن أمْعِنَ في شرحِ شاني وقصّتي، وأبْلُغَ غايةَ وَصْفِ ما بي من كَرْبي وغُصّتي، فإني في أمرٍ إذا لاحتْ لي آياتُه، طاحتْ بي آفاتُه، وإذا أَلِفتْني عاداتُه، أتْلَفَتْني عاهاتُه. وحَسْبُك – من جملة الحديث – ان أشْرَتُ مرة فأغْرقْتُ[1] إغراقاً، وأعْرَبتُ[2] مرة فأحْرقْتُ إحراقاً، واعترفتُ مرةً فَسُقيتُ كأساً مرّةً دهاقا، وجَحَدْتُ مرةً فَطُوّقْتُ من الخزيِ والهوان أطواقاً وأطواقاً. فكيف أصنعُ الآن؟ وإلى أيِّ جانبٍ أتّكي؟ وأيَّ عدو أتّقي؟ وإلى أيّ محلٍّ أرتقي[3]، وبأيِّ رشاء أستقي؟ ومن لي برضى مُعْتِقِي، إنْ كان مُعْتقي؟ أما تَرَى أحوالي كلها بالبلاءِ متطارِقةً، وعلى اجتلابِ البلاءِ متطابِقة؟

فارثِ – فَدَيْتُك – لهذا الشيخ[4] الماثل في هذا الفضاء، بين هذه الأرض والسماء، فانه قد بقي حيران ولهان[5]، لا نَفَسَ يعلو، ولا عِرْقَ ينبض، [٦٩/ ب] ولا بقاءَ يمتدّ، ولا عَبْرةَ تهدأ، ولا عينَ تقرّ، ولا حزنَ يبكي، ولا فَرَحَ يقرب، ولا صدقَ يساعد، ولا ليلَ ينجلي، ولا نسيمَ يرقّ، ولا شرابَ يعذب.

أتدري لمَ هذا كله؟ أقول لك، وإن كان قولي عليّ، ووصفي فاضحي: هذا لأني أركب الخلاف مجاهراً، ثم أطلب الاستعطاف مساتراً، واحتقب الوِزْرَ دائباً، ثم أتركُ الإقلاعَ جانباً، وأظنُّ أنّي قد ملكتُ القُرْبَ، وأنا في غاية البُعْدِ، وأحسبُ أني موصولٌ وأنا عينُ المهجور، وأُعجبُ باسمي

---

١ – ل: فاعرفت اعرافاً.

٢ – ل: وأعربت.

٣ – من قول المتنبي:

أي محل أرتقي   أي عدو أتقي

٤ – كذا ولعل صوابها «الشبح».

٥ – ل: دلهان.

وكنيتي ، وأصولُ بإنّيتي وأبوّتي ، وأبيّضُ وجهي بما يسودُّ به غداً وجهي .
نعم يا سيدي : وأشهدُ جُمْلَتي في تفصيلي بعين رَمْدَاء ، وتفصيلي في جملتي بنفسٍ هي أعدَى الأعداء . ولهذا وما أشبهه: الوعظُ ينبو عني ، والنصحُ لا يلصقُ بقلبي . والرشادُ لا يشتملُ عليّ ، والخيرُ لا يُلقى إليّ ؛ فكيف الحيلة فيّ ؟ وبأيّ دواءٍ أداوي ما بي ؟ وما أخوفَني أني كما قال الله سبحانه ﴿ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نور﴾ (النور : ٤) .

اذا كنتُ أشكو فلا يُسْمَعُ ... وانّي لما بي فلا يَنْفَعُ[1]
وأطلبُ صَبْراً ، ولا صبرَ لي ... فكيفَ احتيالي وما أصنعُ

يا هذا : ليس الحديثُ مما يَلِجُ أذنك ، ولا الشأنُ مما تألفه [٧٠/أ] بحسّك . الحديثُ فوق هذا كلّه . ولكنْ بقي من يتطاولُ إليه ، ويسترق السمعَ منه ، ويظفرْ بمنيته منه . ما أعزَّ هذه الحال ، وما أبعدَنا من حقيقة هذا المقال ! والعجب أنّا من عزّته نرومُه ، والعجب أنّا مع قصورِنا عنه لا ننتهي منه ، والعجبُ أنّا كلما قلنا أكثر ، كان ما يبقى أكثر ، حتى كأنَّ ما نريدُ أن نشتفي به نسقمُ منه ، وما نحبُّ أن نسعدَ فيه نشقَى عليه .

أفليسَ من العجب أنّا إن سَكَنّا حرَّكَنا من به سَكَنّا ، وإن تحرَّكنا سكّنَنا[2] من له تحرَّكْنا ، فحَرَكَتُنا وسكونُنا بيدِ غيرنا ، وبلوانا بهما علينا ، فكيف لا يكونُ هذا النعتُ على حقيقته ، وهذا الوصفُ على طريقته ، والظاهر مشوبٌ بالرَّيْب ، والباطنُ محشوٌّ بالعَيْب ، والنومُ متيقظ[3] بالأحلام الهايلة ، والانتباهُ منقطعٌ بالأحوال المتحايلة ، والنفسُ مُطاعة عند الحظوظ ، **والهوى معبودٌ** مع طوالعِ الحاجات ، والجفاءُ مألوفٌ بقسوةِ القلب ، والبرُّ **مهجورٌ**

---

١ – إني لما بي : أي أعاني خروج الروح .
٢ – ل : سكنا .
٣ – ل : متيقظن ، وهو سهو ؛ ولعل الأصوب « منتقض » .

بسوء العادة ، والغفلةُ راكدةٌ لإسبالِ السِّتر ، والوِزْرُ محتَقَبٌ بإدراك الشقاء ، والعلمُ جَحُود لاشتمالِ البلاء ، والناصيةُ مشومةٌ بجناية[1] القرناء .

فادنُ قليلاً حتى نَنُوح على ما فاتَنَا منّا ، ونَبْكيَ على ما فَقَدْنا بسوء نَظَرِنا لأنفسنا ، ونلطمَ خدودنا بأيدينا ، أسفاً على فَقْدِنا لحظّنا [٧٠/ ب] في عاجلتنا بعاقبتنا . فإنّا متى عَقَدْنا هذا المأتم ، وخَتَمْنا أمْرَنا بهذا الخاتم ، رَجَوْنا أن نَشفيَ غليلاً قد تلهَّبَتْ نارُه ، ونُطلقَ أسيراً طالَ إساره ، واشتدَّ حصاره ؛ ورجونا أيضاً أن يرحَمَنَا من أصابنا هذا كلُّه به ، وبقدرته ومشيئته ، وبِحُكْمِه وإرادته ؛ ورجونا أيضاً أن ينظرَ إلينا ناظر ، ويعتبرَ بنا مُعْتَبِر . وينتعشَ بنا عاثر . فنكونَ[2] سبباً لخير ، وباباً إلى معروف . وطريقاً إلى فضيلة .

يا هذا : أما تراني[3] مديراً لك على دائرةٍ بعد دائرة ، ومطلعاً[4] لك على روضةٍ بعد روضة ، [و] فاتحاً لك غَلَقاً بعد غَلَق[5] ، ورافعاً لك سِجْفاً بعد سِجْف ، ومُنْبطاً[6] لك عَيْناً بعد عَيْن ، وكاشفاً لك سِرّاً بعد سِرّ ؛ ومرغباً لك في فَضْلٍ بعدَ فَضْل ، ومستخرجاً لك كنزاً بعد كَنز ، ومُظْهِراً [لك] الشفقة[7] بعد الشفقة ، ومتكفّلاً بك في حالٍ بعد حال ، وشافياً لك من مَرَضٍ بعد مرض .

ولستُ أتولّى هذا – يا هذا – منك ، لاني آمَنُ منك ، وأرْوَحُ منك ،

---

١ – ل : بجناية .

٢ – ل : فيكون .

٣ – ل : ترني .

٤ – ل : ومطلقاً .

٥ – ل : علقاً ... علق .

٦ – ل : ومنيطاً .

٧ – ل : للشفقة .

أو أصحّ منك . لا ؛ ولكني أَجْسَرُ منك على النطق ، وأَسْلَكُ للطرق ، وأكثرُ وزناً منك للكذب والصدق ، وأكثرُ أياماً في العمر ، وأثبتُ قَدَماً في الغَمْر . على أني لو سمعتُ ما أقولُه من غيري لكانت مطالبتي لنفسي في الانقياد لـه كمطالبتي [٧١/ أ] اياك الآن في الانقياد . فالقائلُ والسامعُ شريكان ، والوَجْد والصِّدق طريقان ، والاسترسالُ والاحتياط ١ حالتان ، والمنعُ والعطاءُ اختياران ، والرياءُ والاخلاصُ مطيّتان ، والرضى والسخط مَعْبَران ، والشوقُ والسلوةُ غايتان ، والعزُّ والذلُّ لبستان ، والنزاهةُ والدنسُ حليتان ، والصمتُ والنطقُ شعاران ، والرسم والحقيقةُ دثاران ، والأولُ والآخرُ غايتان ، والظاهرُ والباطنُ بحران ، والغائبُ والشاهدُ مكانان ، والدنيا والآخرةُ داران ، والفَناءُ والبَقاء رائدان ، والنومُ واليقظةُ علامتان ، واليقينُ والشكُّ دعامتان ، والعلمُ والعملُ صراطان .

فاعلم — حاطك الله — هذه الغرائبَ التي فَتَحْتُ عليك بابها ، وفتلتُ لك أسبابَها ، ومددتُ لبصيرتك أطنابَها ، وعرّفتك شهادتَها وغيابَها ، واذا وقفتَ على هذه الغرائب ، كان بَحْثُك عنها هو الذي يهجمُ على فكِّ رقبتك من هذا الأسر ، وعلى نيل مرادك بعدَ هذا الجَبْر والكَسْر .

قد صرَّفْتُ القولَ في اطرافِ هذه الإشارات على الأغراض٢ لأرباب القلوب ، والرافعين لأستارِ الغيوب ، فان وجدتَ من قَلْبِكَ طرباً عايها ، ومن نفسك صَبابةً بها ، ومن رُوحِك غَوْصاً على أعماقها ، فاستنفِدْ طاقتَك في طَلَب [٧١ / ب] منيتك ، فعن قريبٍ تصيرُ إلى راحتِك التي قد طال عليها وَلَهُك ، واشتدّ٣ نحوها نزاعك ، وإلى ذاك فالتفتْ إليَّ شارحاً خَبَرَك ، وموضحاً أثَرَك ، لأكونَ من شَوْقِكَ على بيان ، ومن سلوّي عنك في أمان ،

١ — ل : : والاحتباط .
٢ — ل : الأعراض .
٣ — ل : واستد .

ومن علمي بتفصيل حالك وجملته على عيان أو كالعيان . واتّق عجاجة هواك ، فإنها إذا ارتفعت سفت في عينك، وحجبت عن حينك، ونخستك[1] في جنبك .

اللهم : إنّا نألهُ في وجدنا بك ، ونجدُ بك في ولهنا إليك ، ونتوكل عليك مخاصين لك ، ونعبدك قانتين بين يديك ، ونذكرك متلذذين بذكرك ، ونغفل عنك بغلبة صفاتنا القائمة بك ، وندعو خلقك إلى بابك : ليحبوك كما أحببناك ، ويعبدوك كما عبدناك ، ويريدوك كما أردناك ، ويقصدوك كما قصدناك ، فاقرن[2] حبّنا إليك بحبّ كل من ادّعى محبتك ، أو دعا إلى محبّتك .

يا حبيبَ القلوب ، يا من يطّلعْ على الغيوب ، ويغفر الذنوبَ ، ويسترُ العيوب : نسألك أن تغمرنا بنعمتك ، كما خلقتنا بقدرتك ، وأن تسلّمنا برحمتك ، كما ملكتنا بحكمتك .

إلهنا : أنت الحق ، وما سواك [٧٢/ أ] الباطل ، وأنت كما قال من أنطقته بالصدق حين قال : « ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل»[3] .

إلهنا : كن لنا ناصراً ، وإلينا ناظراً ، وعلينا منعماً ، وبنا رؤوفاً ، وعنّا راضياً . أنت أحوجتنا فاكفنا ، وأنتَ أمرضتنا فاشفنا ، وأنت دعوتنا فأوفنا .

يا هذا : إذا دعوتَ فاحضرْ ، واذا حضرتَ فانتبهْ ، واذا انتبهتَ فاعرفْ ما لك وما عليك ، واذا عرفتَ ما لك وما عليك فاقبضْ يدك عما لك حتى تُعطاه ، وغمّض عينك عما عليك حتى تُكفاه ؛ وإياك وأن تغترّ بقدرتك

---

١ – ل : ونحستك .

٢ – ل : فافرط .

٣ – صدر بيت للبيد (ديوانه : ٢٥٦) وعجزه : وكل نعيم لا محالة زائل .

فإنها مُعارةٌ عندك ، وإياك أن تعجب[1] بحكمتك فإنها حُجَّةٌ عليك ، وإياك أن تنظرَ إلى شيء منك فتظنَّ أنه لك فتُغْصَب ، وإياك أن تختال بصورتك [. . .][2] فتُسْلَب ، وإياك أن تذكر اسمَك فتؤخر ، وإياك أن تنتسبَ إلى غير مَن أنت له فتُنْفَى . تحقَّقْ بمحق صفاتك ، وتبرَّأ[3] من جميع سماتك ، واغتربْ في وَطَنك . واستوطنْ في غُرْبَتك ، وآوِ إلى كَهفك ، واعمَ عن مدِّ طرفك إلى سقفك ، وسافرْ عن كلِّ خُلُقٍ ، وخَلْق ، تعلمْ كلَّ خُلُقٍ في حقّ ؛ واذا عطشتَ فلا تردْ ، وإذا وردتَ فلا تروَ ، واذا رويتَ فلا تَزْدَدْ ، واذا ازددتَ فلا تعُدْ ، واذا عدتَ فلا تَذُقْ ؛ فإنك بهذه الدرجات [٧٢ / ب] المختلفة ، تنال تلك الفسيحات المؤتلفة ، والسلام .

— ١٠ —

الخيش المرشوش والطيب المنشوش[4] من الإشارات الإلهية

يا هذا : اشهدْ نعمةَ الله عليك ، في هذه العجائب التي فتحَ أبوابها اليك ، ونثرَ جواهرها عليك ، حتى نطقتَ بتوحيده ؛ وتصرَّفْتَ بتمجيده ، وعرفتَ حقيقتَكَ بقدرته ، واعترفتَ بمشيئته النافذة في مملكته ، واذعَنْتَ بطاعته ، وتمرَّغْتَ في ساحة كرامته ، مسلِّماً لأمره ، مستسلماً بذكره ، مهتدياً بعلامته ، متصفِّحاً بمجاري غَيْبه في شاهده ، آخذاً بحظّك الأوْفَى من برّه ، ناهلاً من شِرْبك الأصفى من سرّه . فانك إنْ شهدتَ هذا البناء على هذا

---

١ – ل : تعجبك .

٢ – في الحاشية بداية كلمة ذهب سائرها ، ولا أدري مقدار ما سقط هنا من كلمات .

٣ – ل : وتبر .

٤ – ل : المقشوش ؛ والمنشوش : المخلوط ؛ والدهن المنشوش : المربب بالطيب .

الترتيب ، بِنْتَ[1] عما أنتَ به خَلَق ، ورقيتَ إلى ما ليس به رَنَق[2] . وإياك أن تلحظَ هذه الكرامات الواردة من تلك الحَضْرة بعينِ التحقير ، فتعمى حينئذٍ عمىً لا يقدح عينَك بعده قادح ، ولا يفتح بابه عليك فاتح . فهذه الانفاس الروحانية لا تهبُّ في كـلّ أرض ، ولا تلابسُ كلَّ هواء ، ولا تمرُّ بكل رَبْع ، ولا تتنسَّمُ على كلّ فؤاد ، ولا تنخرقُ بكلّ واد ، ولا تنقدحُ بكلّ زناد .

أتدري ما مصحوبُها إليك ، وما منشورُها[3] عليك ؟ إنما هي حوامل آلاء ونعْماء ، وبرٍّ ووفاء ، وودٍّ وصفاء ، ولطائف تَلَطُّفُ عن الإبداء[٧٣/ أ] والإخفاء ، وأنباء تجلُّ عن الأنباء والإنباء ، وفيما بينهما تُحَفُ الربوبية ، وطُرَفُ الخصوصية ، ومحوُ العبودية ، باستيلاء الألوهية . فهل لك من هذا الشأن إيجاس ؟ أو هل لك من هذه النارِ اقتباس ؟ أو هل لك بهذا النَّمَط استئناس ؟ او هل لك في هذه القِصّة ذَنَبٌ او راس ؟

عزيزٌ عليَّ أن تُفاكهَ بهذه الخَطَرات ، التي تضلّ معها معالمُ الخلْقِ أجمعين ، وتضمحلُّ معها مقاولُ الأوَّلين والآخرين ، وتصيرُ بحارُهم عندها أوشالاً ، وحُلَلُهم بالقياسِ إليها أسمالاً ؛ وحتى لا ترى أحداً يسمع حَرْفاً منها إلا أظهر عجزاً واعتلالاً ، وتضاءل تخشّعاً واختلالاً ، وقال سرّاً وجهراً « لا . لا » . عزيزٌ واللهِ عليَّ ذلك فيك ، وشديدٌ واللهِ لديَّ ذلك لك . فان لم يكنِ[4] الخُبْرُ منك على تقدير مني ، فهاتِ علامةً من حالك ، تدلُّ على كمالك ، أو تعرَّضك لكمالك ، وأشِرْ لنا باصبعك إلى شمسِ الحكمة الطالعة عليك ، واسقنا من عيْنِ المعرفةِ المتفجِّرَةِ فيك ، وأوصلْ الينا طيبَ ما

---

١ – ل : تبت .

٢ – الرنق : الكدر .

٣ – ل : ميسورها .

٤ – ل : تكن .

عبقتَ به من ذلك المراد ، الذي ما حلّه أحَدٌ إلا شَبع من غير طُعْم ، وروي من غير ماء ، وحَلِيَ بغير كُسْوة ، ورقِيَ بغير سُلَّم ، وغَنِيَ بغيرِ مال ، وسَمعَ بغير لحن ، ونَعِمَ بغير حال ، ونالَ بغير تعب [٧٣ / ب] ووجد من غير طَلَب ، ونطقَ بغير حرف ، وجاد بغير مَنّ ، وسكن في غير كِنّ ، واستيقنَ بغير ظَنّ ، وامَّحى عنه كيف وأين ، وسوف وليت وأن وإن .

وعزيزٌ عليَّ أيضاً أن أواجِهَكَ وانت من ورائي ، وأن أدنوَ منك وأنت في التنائي ، وأن أخاطِبَكَ وأنتَ نائم ، وأرومَ انتباهَكَ وأنت ميت ، او اطمعَ في ائتلافك وأنت مختلف ، أو أعتقد أنك حيٌّ وأنت هالك ، فإن أنِفْتَ من قولي هذا وتَحَرَّكْتَ في جلدتك ، فهاتِ على ذلك بَيِّنَتَك : أين الحكمة المنتَشِرةُ على لسانك ؟ أين العفَّةُ الغالبةُ على جوارحك ؟ أين السريرةُ النقيّةُ في خلَواتك ؟ أين الشفقةُ المبذولةُ بين إخوانك ؟ أين التشمُّرُ الدالُّ على أهْبَتِك ؟ أين الأمَلُ المنزوي عن عاجلَتِك ؟ أين الرغبةُ الصادقةُ في آجلتك ؟ أين كتمانُ السرِّ المنقولِ إلى صَدْرِك ؟ أين الخدمةُ التي نُدبتَ لها في صباحكَ ومسائك ؟ أين اللسانُ الصموتُ عما لا يرضاه الله لك ؟ أين الكفُّ المبسوطةُ إلى الله منك بصدقِ الطَّلَب ؟ أين الإعراضُ عن الدنيا بتحمُّلِ التَّعَبِ والنَّصَب ؟ أين الهرولةُ إلى الله بركوبِ العَطَب ؟

يا هذا : دَعْ هذا ؛ أينَ إيثارُ الصدقِ في المعاملة ؟ أين البراءةُ من النِّفاقِ في الهجر [٧٤/ أ] والمواصلة ؟ أين معونةُ أخٍ في الله ؟ أين الحياءُ من الله ؟ أين مؤاساةُ ذي فاقة لله ؟ أين الثقةُ بوعدِ الله ؟ أين القلقُ من وعيدِ الله ؟ أين الرقّةُ على عبادِ الله ؟ أين التعلّقُ بما يقرِّبُ إلى الله ؟ أين التباعُد عما يُبْعِدُ عن الله ؟ أين لُطْفُ القول ؟ أين تصفيةُ العمل ؟ أين غَضُّ[١] الطَّرْف عن المحظور ؟ أين قَبْضُ الكفِّ عن الحرام المشهور ؟ أين العنايةُ بجارٍ مضرور ؟

---

١ – ل : عض .

أين الاهتمامُ بجائعٍ مَقْرور ؟ أين ؟ لا أين . لا قول ولا عَمَل ، ولا جديد ولا سَمَل ، ولا حياء ولا عَذَل[1] ، ولا قطرة ولا بَلَل ، ولا مَعين ولا وَشَل ، ولا علَّ ولا نَهَل ، ولا آخر ولا أوَّل . هذا والله الشقاءُ المصبوبُ على هامَتِك ، والبلاءُ المعصوبُ[2] بشامتك ، واليأسُ الحاضرُ من سلامتك ، والقنوطُ العاجلُ من كرامتك .

يا هذا : دع خداعَ نفسِك ، ولا تُتَبِّرْ[3] سعدَكَ بنحسك ، وابحثْ عنك مناك، واطلب [منك] فيك ، وميِّزْ عامِلك من عمَلك، وخلِّصْ عَمَلَكَ من نِفاقك ، واشهدْ عَجْزَكَ في قدرتك ، واعترفْ بضَعْفِكَ في قوَّتِك ، ولا تكابرْ عيانَك ، ولا تنكرْ منك مكانَك ، وهيِّءْ برهانَك ، فإنك مسؤولٌ ومُطالَب وغيرُ متروك ، فلا تسعَ في مكروهك بِقَدَمِك ، ولا تطرِفْ عينَك بيدك ، ولا [٧٤ / ب] تلطمْ خدك بكفِّك .

أتكايدُ[4] نَفْسَك، وانما أنت هي ، وهي أنت ؟ أتظن أنَّ نهارَكَ ليل ، والشمسُ في وَسَط السماء؟ أتقدِّرُ أنك على هذا الربح في هذا الأخذ والإعطاء؟ أتشهدُ أنك رحمةٌ بين الاصدقاءِ ، وشماتةٌ بين الأعداء ؟ ما هـذه الغفْلةُ المستوطنةُ فيك ؟ وما هذا النومُ الغالبُ عليك ؟ وما هذه الشقوةُ المحيطةُ بك ؟ وما هذا الغلطُ الواقعُ في حسابك ؟ وما هذا الرَّيْنُ المتكاثفُ على قلبك ؟ وما هذا الجحود الذي ألفته بكيادك ؟ وما هذه الصبوة الحائلة بينك وبين رشدك ؟ وما هذا الشراب الذي أسكرك ؟ وما هذه الحيلـة التي نفذت فيك ؟ وما هذه المكيدةُ التي تَمَتْ[5] عليك ؟

حدِّثني : مَن خاطَ عَيْنَكَ ؟ مَنْ خَبَّل عَقْلَك ؟ من سدَّ أُذُنَك ؟ مَن اصدأَ فهمك ؟ مَن سَلَبَ رأيك ؟ مَن أسَرَكَ هذا الأسر ؟ من سباكَ هذا

---

١ – ل : عدل .
٢ – ل : المغصوب .
٣ – ل : تنتثر . ٤ – ل : أتكابد .
٥ – ل : نمت .

السبْيَ ؟ من أغلقَ رَهْنك ؟ من أَرَقَّ ذِهْنَك ؟ مَن حالَ بينك وبينك ؟ أتجهلُ فتقولُ متكئاً في مجلسك ، بين ندمائك وأحبابك :

ومَن عرفَ الأيام لم يَغْتَرِرْ بها وبادرَ باللذّاتِ قبلَ العـــوائقِ

وتظن أنك أنتَ السعيدُ والرابح ، لا والذي بَطَن الغيبَ [٧٥/أ] وأفْرَجَ عن الشهادة .

يا جاهل : أهكذا المبادرةُ باللذات ، والمسارعةُ في الخيرات ، والأخذُ بالاحتياط في أوطانِ الفُتُوَّاتِ والمُرُوَّات ، بين أهل المنافسات في الطاعات؟ وما لذةُ ساعة ؟ وما لذةُ شَراب ؟ وما لذةُ شهوة ؟ وما لذةُ خَيْشٍ مرشوش ؟ وما لذة طيب منشوش[1] ؟ وما لذةُ شرابٍ يَصدعُ الراس ، ويخنُز[2] الأنفاس ، ويفضحُ الناسَ بينَ الناس ؟

أين أنت عن التلذُّذِ بطاعةِ الرسولِ المُرْسَل ؟ أين أنت عن التلذُّذِ بمناجاةِ اللهِ العليِّ الأجَلِّ ؟ أين أنتَ عن الفِكْرِ فيما أنت منه ، وفيما أنت إليه ، وفيما أنت فيه ، وفيما أنت عليه ؟ أين أنت عن التلذُّذِ بالسجود ، المستدرِّ للجود ؟ أين أنت عن التلذُّذِ بتوقُّعِ الخيرات التي هي بـــين يديك في الأيام الآتية؟ أين أنت عن التلذُّذِ بالاعتبار إلى من عَصَيْتَهُ فَسَتَرَ عليك ، ثم اعتذرتَ إليه[3] فغَفَرَ لك ؟ أين أنت عن التلذُّذِ بحقيقةِ ضَمانه عنك وإقباله عليك ؟ أين أنت عن التلذُّذِ باختيارِهِ إياك وحفظِهِ عليك ما آتاك ؟ أين أنت عن التلذُّذِ بكلامه الذي به ناجاك ، ووَصْفِكَ الذي به خَصَّكَ واجتباك ؟ أين أنت عن التلمُّظِ بِذِكْرِهِ ، والتلذُّذِ باسمِهِ ، والتذوُّقِ لما يبدو من حَضْرته ؟

---

١ – ل : مغشوش .

٢ – ل : ويحيز ؛ وربما قرئت : ويخنز ، أي يفسد رائحتها .

٣ – ل ، إليك .

ضلَّ والله حلمك ، وتخبّلَ والله [٧٥ / ب] عقلك ، وانكسرتْ قواريرُك؟ وتخرّقتْ سرابيلُك ، وخلاّكَ قائدُك وأنت أعمى في قَفْر : لا ماءَ تشربُهُ فيبردَ صداك ، ولا سرابَ تُبصره فيتعلّل قلبك بذاك ، ولا أنيسَ تجد حسَّه فيقلَّ استيحاشُك ؛ فكم ترى على هذه الحالة لُبثُك ؟ وكم ترى على هذه القصة بقاؤك ؟ ولو لم أخشَ عليك إلا الذنبَ ، لكان الأمرُ سهلاً ، ولكن وراءَ ذلك ما هو أدهى من الذنبِ وأهول .

يا هذا : انقلْ كَيْسَكَ الذي هو في دُنْياك إلى دِينك ، والتمسْ به ما أضْلَلْتَه من نفسك ، وبادرْ بِطَلَبِ حَظِّك : والحادي قريب ، والداعي حبيب[1] ، والمطاعُ عطوف ، والمسؤولُ رؤوف .

اللهم : إنّا نسألُكَ أن تنظرَ إلينا نظرةً تجبرُنا بها فقد انكسرنا ،وتُغْنينا بها فقد افْتَقَرْنا ، وتَهدينا بها فقد ضَللنا ، وتُثَبِّتُنا بها فقد زَلَلْنا ،وتُرْشدُنا بها فقد تَحَيَّرْنا ، وتَعْدِلُنا بها فقد سَدِرنا ؛ استحوذَ علينا الشيطانُ فبؤنا بغضبك ، وزاغتْ قلوبُنا عن سبيلك ، فَمَلَكَتْنا الشقوةُ بمخالفتك . فنسألُك بإلاهيتك التي لا تليق إلا بك ، وبِرِّكَ المكنون الذي لا يعلمه سواك ، إلا حوَّلْتَنا من أوطانِ سخطك إلى رباعِ مَرْضاتك ، ولَقَّيْتَنا من رَوْحك وريحانك[2] ، وتحيتك ورضوانك ما [٧٦ / أ] يُسْلينا عن هذه الدنيا التي ابْتَلَيْتَنا بإلْفِها ، وطالَبْتَنا بِتَرْكِها ، حتى نَنْعَم بمناجاتك ، ونستريحَ من كَرْبِ ذِكْرِ غيرك ، ونَتباهى بحظوظِنا منك ، ونتنافسَ على منازلِنا عندك . وإذا أهَّلْتَنا لذلك ، فباشِرْ قلوبَنا مبشِّراً به ، وقَدِّم على ذلك رائداً

---

١ – كذا ، وهو صحيح على التأويل ، ولو قرىء « جنيب » لما كان في ذلك بأس أيضاً .

٢ – ل : ورضوانك ؛ وسترد اللفظة ؛ ولفظة « ريحان » تجري مع « روح » في سياق واحد وقد مرت اللفظتان معاً في عدة مواضع من الاشارات ؛ وفي القرآن الكريم « فروح وريحان وجنة نعيم » (الواقعة : ٨٩) .

يصدقنا عنك بتحقيقه ، حتى نتعجَّل السرورَ بِكَرَمك ، ونصلَ ذلك بالشكرَ على إحسانك إلينا ، يا أكرمَ الأكرمين ، وأرحمَ الراحمين .

يا هذا : ان عطفتُ على ما يَعنيني من أمري ، لم أَفْرُغْ لك ، ولو نصحتُ نفسي لم أهتمَّ بك . لكني ملبوسٌ عليَّ فيما أنا به ، مأخوذٌ عنّي مما أنا عليه ، لآفاتٍ لا أحصيها ولا أقف على تناهيها . ولو لم يكن إلا المنشأ الفاسد الذي قد عملٌ في أصول الأخلاق ، ثم القُرَناء الذين لم يجودوا عليَّ بالنصيحة عند الاجتماعِ والافتراق ، وحملوني على سجاياهم في الرياء والنفاق ، ثم العادات التي قَوِيَتْ على مرورِ الأيام بضروبِ الخبائث . حتى جرَتْ مَجْرَى ما يولدُ الإنسانُ عليه من ضروبِ الأعراق ، ثم فساد الوقتِ للعامّ من الخَلْق ، حتى لا ترى دمعةً تقطرُ على فَرْطة ، ولا تجد ندامةً تظهر من واقعِ ورطة ، والفسادُ العام يُنْتِجُ الفسادَ الخاص ، والفسادُ الخاص يأتي على الأصلِ والفصل . . .[1]

---

١ – لم يأت جواب « لو » ؛ وهكذا تنتهي الأوراق الموجودة في مخطوطة برلين ، ولا ريب في أن هناك ورقة أو أوراقاً سقطت .

ملحق (٢)

ومن الإشارات الإلهية[1] :

١ – دار الفجائــع والهموم ودا ... ر البثّ والأحزان والبلوى[2]
٢ – مُرٌّ المذاقة غبَّ ما احتلبــت ... منها يداك وبيّــةُ المرعى
٣ – بينا الفتى منهـــا بمنزلـةٍ ... إذ صار تحت ترابهـا مُلقى
٤ – تقفــــو مساويها محاسنهـــا ... لا شيءَ بين النعي والبشرى
٥ – ولقلَّ يومٌ ذَرَّ شارقُـــــهُ ... إلا سمعتَ بهالكٍ يُنعــــى
٦ – لا تعتبنَّ على الزمان فمـــــا ... [عند الزمان لعاتب عتبى][3]
٧ – [ولئن عتبت على الزمان لما][3] ... يــأتي به فلقلمـــا تــرضى
٨ – للمرء رزقٌ لا يفوت ولــو ... جهد الخلائق دون أن يفنى

---

١ – اورد ابن أبي الحديد هذه الابيات في شرح نهج البلاغة ١٥ : ١٤١–١٤٢ وصدرها بقوله : « ومن النظم الجيد الروحاني في صفة الدنيا والتحذير منها والوصاة بترك الاغترار بها والعمل لما بعدها ، ما أورده أبو حيان في كتاب الاشارات الالهية ولم يسم قائله ... » وقد سبق أن استشهد أبو حيان ببعض هذه الابيات في الاشارات (ص : ١١٦) ، لكن نقـل ابن أبي الحديد لعدد اكبر منها من الاشارات نفسه يدل على أن أبا حيان إما استشهد بها في مكانين مختلفين على نحوين مختلفين أو أن الابيات الزائدة هنا سقطت من موضعها في هذه النسخة التي وصلتنا من الاشارات ؛ والأبيات لأبي العتاهية ، (انظر ديوانه : ٩–١١) ولم يرد في الديوان البيت الثاني والبيتان الأخيران .

٢ – الديوان : والشكوى .

٣ – ما بين معقفين زيادة من الديوان ، وقد خلط في شرح النهج بين بيتين مختلفين من هـــذه القصيدة .

٩ – يا عامرَ الدنيا[1] المعدَّ لهـــا ماذا عملتَ لدارك الأخرى

١٠ – وممهِّدَ الفُرُشِ الوطيئة[2] لا تغفلْ فراش الرقدة الكـــبرى

١١ – لو قد دُعيتَ لقد أجبتَ لمـــا تُدْعَى له فانظر متى[3] تُدعى

١٢ – أتراك تحصي كم رأيتَ من الـ أحياءِ ثم رأيتَهم موتـــى

١٣ – من أصبحتْ دنياه همتَــهُ[4] فمتى يَنَال الغايةَ القصوى

١٤ – سبحان من لا شيء يعدلُهُ كم من بصيرٍ قلبُهُ أعمـــــى

١٥ – والموتُ لا يخفى عـــلى أحدٍ ممن أرى وكأنه يَخْفَـــــى

١٦ – والليلُ يذهبُ والنهـــار بأحبابي وليس عليهما عَــــدْوَى

---

١ – الديوان : يا باني الدار .

٢ – الديوان : الوثيرة .

٣ – الديوان : لما .

٤ – الديوان : غايته .

مصادر المقدمة والتحقيق

أبو حيان التوحيدي للدكتور إحسان عباس . دار بيروت ، بيروت، ١٩٥٦ .

أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي . تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي . دمشق ، ١٩٦٥ .

الاغاني لأبي الفرج الأصبهاني (ج ٣ و ٨ و ٢١ و ٢٣) . دار الثقافة ، بيروت .

أمالي القالي (ج٢) . الطبعة الثالثة ، مطبعة السعادة ، مصر، ١٩٥٣/١٣٧٣ .

الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١-٣) . تحقيق الاستاذين أحمد أمين وأحمد الزين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩-١٩٤٤ .

بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي . تحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

البصائر والذخائر لابي حيان التوحيدي (١-٤) . تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . مكتبة اطلس ومطبعة الانشاء ، دمشق ، ١٩٦٤-١٩٦٩ .

بهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر ابن عبد البر (القسم الأول) . تحقيق الاستاذ محمد مرسي الخولي . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٦٢ .

البيان والتبيين للجاحظ (ج١و٤) . تحقيق الاستاذ محمد عبد السلام هارون. الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنّى ببغداد ، ١٩٦٠ .

جمهرة الامثال لأبي هلال العسكري (١–٢) . تحقيق الاستاذين محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش . المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الاصفهاني (الجزء العاشر) . الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

ديوان ابراهيم بن العباس الصولي (ضمن كتاب الطرائف الأدبية) . تصحيح الاستاذ عبد العزيز الميمني . القاهرة ، ١٩٣٧ .

ديوان ابن الدمينة . تحقيق الاستاذ أحمد راتب النفاخ . مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

ديوان أبي العتاهية . تحقيق الدكتور شكري فيصل . مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٦٥ .

ديوان أبي نواس . طبعة اسكندر آصاف . مصر ، ١٨٩٨ .

ديوان الأحوص الانصاري . جمع وتحقيق الاستاذ عادل سليمان جمال . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

ديوان أوس بن حجر تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم . دار صادر — دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ .

ديوان البحتري (١–٤) . تحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفي . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ — ١٩٦٥ .

ديوان بشار بن برد (١–٢) . تحقيق الاستاذ الطاهر بن عاشور . القاهرة ، ١٩٥٠ – ١٩٥٤ .

ديوان بشار بن برد . بعناية السيد محمد بدر الدين العلوي . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ .

ديوان ذي الرمة . الطبعة الثانية ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٨٤/ ١٩٦٤ .

ديوان رؤبة بن العجاج . نشر وليم بن آلورد البروسي ، ١٩٠٣ .

ديوان العباس بن الاحنف . تحقيق الدكتورة عاتكة الخزرجي . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

ديوان عمر بن أبي ربيعة . دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١ .

ديوان لبيد بن ربيعة العامري . تحقيق الدكتور إحسان عباس . الكويت ، ١٩٦٢ .

ديوان المتنبي . تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

رسالة الحياة لأبي حيان التوحيدي (ضمن رسائل أبي حيان التوحيدي) . تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني . من منشورات دار مجلة الثقافة بدمشق .

رسالة في العلوم لأبي حيان التوحيدي (ضمن رسائل أبي حيان التوحيدي) . تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني . من منشورات دار مجلة الثقافة بدمشق .

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للميرزا محمد باقر الموسوي

الخوانساري . بعناية ، السيد محمد علي الروضاتي . الطبعة الثانية ، طهران ، ١٣٦٧ .

كتاب الزهرة لمحمد بن داود الاصفهاني (الجزء الأول) . تحقيق الدكتور لويس نيكل والاستاذ إبراهيم طوقان . بيروت ، ١٩٣٢ .

سنن الترمذي (المسمى الجامع الصحيح) (١–٣) . تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي . الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

شد الإزار في حطّ الاوزار عن زوار المزار لمعين الدين أبي القاسم جنيد شيرازي . تحقيق الاستاذين محمد قزويني وعباس إقبال . طهران ، ١٣٢٨ .

شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج ١١ و ١٥) . تحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم . الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

صحيح البخاري . بولاق ، مصر ، ١٢٩٦ .

صحيح مسلم (١–٢) . القاهرة ، ١٢٩٠ .

رسالة الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي . تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . دمشق ، ١٩٦٤ .

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ج٣) . المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ، ١٣٢٤ .

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي . شرح وتحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

العقد لابن عبد ربه (جـ ٢) . تحقيق الاساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

عيون الاخبار لابن قتيبة (جـ ١و٢) . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة.

فصل المقال في شرح كتاب الامثال لأبي عبيد البكري . تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور عبد المجيد عابدين . الطبعة الثانية ، دار الامانة ودار الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١ .

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١-٢) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ .

كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السرّاج . تحقيق رنولد ألن نيكلسون . بريل ، ليدن ، ١٩١٤ .

مجمع الامثال للميداني (١-٢) . القاهرة ، ١٣٩٠ .

المختار من شعر بشّار . بعناية السيد محمد بدر الدين العلوي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

مسند الإمام أحمد بن حنبل (١-٦) . المطبعة الميمنية ، مصر ، ١٣١٣ .

معجم الأدباء لياقوت الحموي (جـ٥) . تحقيق د.س. مرجليوث . مطبعة هندية ، مصر ، ١٩٢٨ .

المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي (جـ٢) . حيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٣٢٨ .

مفاتيح العلوم لأبي عبدالله الخوارزمي . ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٢ .

المقابسات لأبي حيان التوحيدي . تحقيق الاستاذ حسن السندوبي . القاهرة، ١٩٢٩ .

الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي . مخطوطة نور عثمانية (رقم: ٣١٤١)

وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ و ٥) . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٠ – ١٩٧١ .

* * *

استدراكات وتعليقات[1]

ص ٨ س ١		العاقبتين ، اقرأ : العافيتين .
ص ٩ س ١٢		وأعاد ، اقرأ : وعاد .
ص ١٦ س ٦	:	تالله ، إقرأ : بالله .
ص ١٨ س ١	:	قراءة ل : واسهاباً يغرقك غرقاً بعد غرق ..
ص ١٩ س ١	:	قراءة ل : فأكون (ويرجحها الأستاذ النفاخ) .
ص ٢٠ س ٧	:	معاذ ، اقرأ : معاد .
ص ٢١ س ١٦		قراءة ل : ومطالعة الغيوب (ويراها الأستاذ النفاخ أصوب) .
ص ٢١ س ١٧		قراءة ل : ولن يتمَّ .
ص ٢١ س ١٨		قراءة ل : آفاق هذا العالم .
ص ٢٢ س ١٢	:	قراءة ل : والفرحات مطويات .
ص ٢٣ س ١٥		يُحمَل ، اقرأ : يَحْمِلُ .
ص ٢٤ س ٢	:	قراءة ل : كلما عولج كان أعضل .
ص ٢٤ س ٥	:	قراءة ل : كلما استظل ضحيَ (وهي أصوب) .
ص ٢٤ س ٦	:	قراءة ل : وهل رأيت وصفاً .
ص ٤٤ س ٧	:	إلى ما ، اقرأ : إلى مَ .
ص ٤٤ س ١٥	:	يرجح الأستاذ النفاخ : « الذي خلص لك وتحصل» .

---

١ – تفضل الأستاذ أحمد راتب النفاخ فزودني بأكثر هذه الاستدراكات والتعليقات ، أثبتها هنا ، مع أوفر الشكر والتقدير .

ص ٤٥ س١٤–١٥	:	يرى الاستاذ النفاخ أن تقرأ « بجبرة لا عَبْرة بعدها».
ص ٤٦ س ١		لعلها : وشوقهم بالآي .
ص ٥٤ س ٨	:	في ر « على ما تجده نفسك فيه » كما أثبته ولكن الأستاذ النفاخ يرى أن الصواب « على ما تجد نفسك فيه » .
ص ٥٨ س ١٢	:	فجد علينا منك ما يسلينا . هكذا هي في ر ، ولكن الأستاذ يرى أن تقرأ « بما »
ص ٦٨ س ١٢	:	ولكن الانسان لربه لكنود : يرى الاستاذ اسقاط اللام من « لكنود » لأن اللام لا تدخل في خبر لكن .
ص ٧٣ س ١٣–١٤	:	وتطلُعُ على شمس رحمتك ، اقرأ : وتُطْلِعُ عليَّ ...
ص ٧٤ س ٦	:	وأُزكّى في طاعتك ، اقرأ : وأزّكّى .
ص ٧٩ س ١٩	:	خُطامك ، اقرأ : خِطامك . وكذلك أيضاً (١٢٩ / ١٢ ، ٢١٩/ ٢٠ ، ٢٤١ / ٣) .
ص ٨٣ س ٣	:	يُشَلّ ، اقرأ : يَشَلّ .
ص ٨٦ س ١٧	:	يرى الأستاذ أن يعاد إلى المتن بعد لفظة « معاصيلك » ما أدرج في الحاشية رقم : ٤ .
ص ٨٧ س ٥		أهل (وقلت في الحاشية : قد تدخل الهمزة على هل) ويقرؤها الاستاذ النفاخ : « وهل » .
ص ٩١ س ٣	:	هنا جملة مزيدة من ل . يرى الاستاذ أنها مقحمة في السياق ، وأن الأولى إسقاطها .
ص ١٠٠ س ١١	:	وكذلك خامس الجيوان ، كذلك هي قراءة ر ؛ ولفظة « خامس » في الحاشية ؛ ويرجح الاستاذ النفاخ أن تكون « جنس » .
ص ١٠٨ س ٧		وأعرض طرفه : يرجح أن تقرأ : « وغض طرفه».

ص ١١٠ س ١٤ : وجلاها ثم خلّى عنها ؛ في ر « خلاً » ، ويرى الاستاذ النفاخ أن تقرأ « جلا » .

ص ١١٨ س ١٩ : فانك ميت على قليل ؛ لفظة « على » في ر واضحة تماماً إلا أن اللفظة هنا يجب أن تكون « عن » ، وقد وردت كذلك في مواضع أخرى من الكتاب (انظر ص ٢١٠ ، ٢١١) — قاله الأستاذ النفاخ .

ص ١٢١ س ١٧ : خرج عن مستطاع غير مستطاع البشر ؛ يرى الأستاذ النفاخ أن الناسخ وقع في اضطراب فكرر . وصحة العبارة : «خرج عن مستطاع البشر » .

ص ١٣٢ س ٣ : هذا بيت من مخلع البسيط ، إلا أنه لم يفصل بين شطريه لدى الطبع .

ص ١٣٣ س ١٨ : وخاست العقول . اقرأ : وخسئت (ر : وحاست).

ص ١٤١ س ٣ : كل ما كان غيره قاطعاً عنه ؛ يقترح الأستاذ النفاخ حذف لفظة « غيره » لأنها مقحمة .

ص ١٥٤ س ٢٠ سراً وجهراً ، اقرأ : سراً أو جهراً .

ص ١٥٥ س ١٤ الحنق ؛ — لانسجام السجع أولى أن تكون«الحانق».

ص ١٦١ س ٢ : تذكرت شيئاً قد مضى ... البيت : هو للنابغةالجعدي (ديوانه : ٣٦) وورد ص ٦١ في الديوان باختلاف في رواية صدره : « تذكرت والذكرى تهيج لذي الهوى » .

ص ١٦١ س ٩ : اليك : في (ل) : اليها .

ص ١٦٣ س ١ : قراءة ل : من اختيار .

ص ١٦٤ س ٢ : بعد قوله فما أغثت ؛زاد في ل : واستعنت فما أعنت.

ص ١٦٨ س ١٥ : والبلوى عظيمة : في ل : والبلوى بهم عظيمة (وقعت : عظيم خطأ في ل) .

ص ١٧٠ س ٩		ادّكار المدّكر لك ، اقرأ : إذكار المُذْكِرِ لك .
ص ١٧٤ س ١٤		والاغتّراب فيها ، يرجح الأستاذ النفاخ أن تكون « والاغتّراف مما فيها » .
ص ١٧٤ س ٢٠		المغوّاة : حفرة كالزبية تحتفر للأسد ، (وهوأنسب للسياق) .
ص ١٧٦ س ١٤		تطعمنا ، اقرأ : تطمعنا .
ص ١٧٧ س ٢		رؤياك (قراءة ر) ، اقرأ : رياؤك (كما يقترح الأستاذ النفاخ) .
ص ١٨٢ س ٧	:	أن مشكلة ما أشكل لا لأنّ ، يعتقد الأستاذ النفاخ أن الصواب « أن مُشْكِلَهُ ما أشكلَ إلا لأن » . وبذلك تجيء العبارة تامة .
ص ١٨٢ س ١٤		فلم نشغل بالنا : في أصل (ر) فلم نشغل بالنار وقد حذفت الراء . وصوابه – فيما يرى الاستاذ – « نشغل بالنا به » .
ص ١٨٣ س ١٩	:	في نفث قصتنا ، في (ر) « في نعت قصتنا » ويرى الأستاذ أن الأصل صحيح لا يتطلب تغييراً .
ص ١٩١ س ١٧	:	ولا أحسن اليه إلا لك . صواب هذه العبارة فيما يقترحه الاستاذ : ولا أحسن اليك إلاّه (أو : إلا هو).
ص ٢٠٩ س ١٠	:	عرّفتني به حقيقتُك ، اقرأ : عرّفْتَني به حقيقتَكَ .
ص ٢٢٥ س ١٢	:	جدّ بمعنى جدّ فلا حاجة إلى تغييرها .
ص ٢٢٨ س ٥		فيما يبلي جديدها : كذا هي في ر ، ويقترح الاستاذ أن تقرأ « أن يبلى جديدها » .
ص ٢٣٦ س ٥	:	بصروف ، اقرأ : بضروب .
ص ٢٤٤ س ١٣	:	وتنشيطاً لما فرّ ، لعلها : « لما فتر » .

ص ٢٤٧ س ٢٠		فقد قرب ما تريد ، لعلها : « فقد فزتَ بما...» .
ص ٢٥٠ س ١٥		يؤاخذه أخذاً ، اقرأ : يؤاخذه إخاذاً .
ص ٢٥٢ س ١٨	:	التي بها تستأمن العقول الخائفة ؛ في (ر) العقول الخاصة ، ويقترح الأستاذ النفاخ أن تقرأ « عقول الخاصة » .
ص ٢٦٩ س ٩	:	وواصل ادّكاري ، اقرأ : وواصل إذكاري .
ص ٢٧٧ س ٢٠	:	قراءة الأستاذ النفاخ لهذه العبارة : « التي لا يبالي... هَلَكَتْ ... وَقَعَتْ »
ص ٢٨٣ س ٦		فيالك ... ويا لك ، اقرأ : فيا له ... ويا له .
ص ٢٨٥ س ٨		واستغنيت ، اقرأ : استغنيت .
ص ٢٩٨ س ١٣		وهونت المصير علينا ، اقرأ : وهونت علينا المصير (كما هي في ر) .
ص ٣٢٤ س ٤	:	وأنت الحبيب (كذا في ر) ويقرؤها الأستاذ النفاخ : « وليت الحبيب » .
ص ٣٤٠ س ٨–٩		وشارعها لهف زائد ، يقترح الأستاذ النفاخ « واقد » في موضع « زائد »
ص ٣٤٤ س ٥	:	جميل بعاقبتي ، اقرأ : جهل بعاقبتي (كما يصوّبها الاستاذ النفاخ) .
ص ٣٤٤ س ١٩	:	وأنت محيٍّ ، يرى الأستاذ النفاخ أنها إما أن تقرأ « محبوّ » وإما « مُحيّا » ويقول : انظر ص ٣٦٥ حيث ورد : فيما أنت محبوّ به محيّا فيه (اقرأ أيضاً : مُحيّا) .
ص ٣٥٠ س ١٢	:	اقرأ : كيف أجرحك وآسوك (فهو أنسب للسياق، وهي قراءة ل ، وإن جاءت محرّفة) .

ص ٣٥٦ س ١٠–١١ : أما ترى [فتنها] وليس فيها معنى إلا وفيه مبكى:
يرى الأستاذ النفاخ أن تقرأ : أما ترى أن ليس فيها مغنى (بالغين معجمة) .

ص ٣٨٦ س ١٠ : مصائدهما ، اقرأ : مصايدهما .

ص ٣٨٦ س ١١ : على أن الفعل واقع من غيره وقوعه منه فليعلم أنه خير : يرى الأستاذ النفاخ أن في العبارة سقطاً ، وأننا لو أضفنا [فان استحسنه] فليعلم أنه خير ، كانت أصوب .